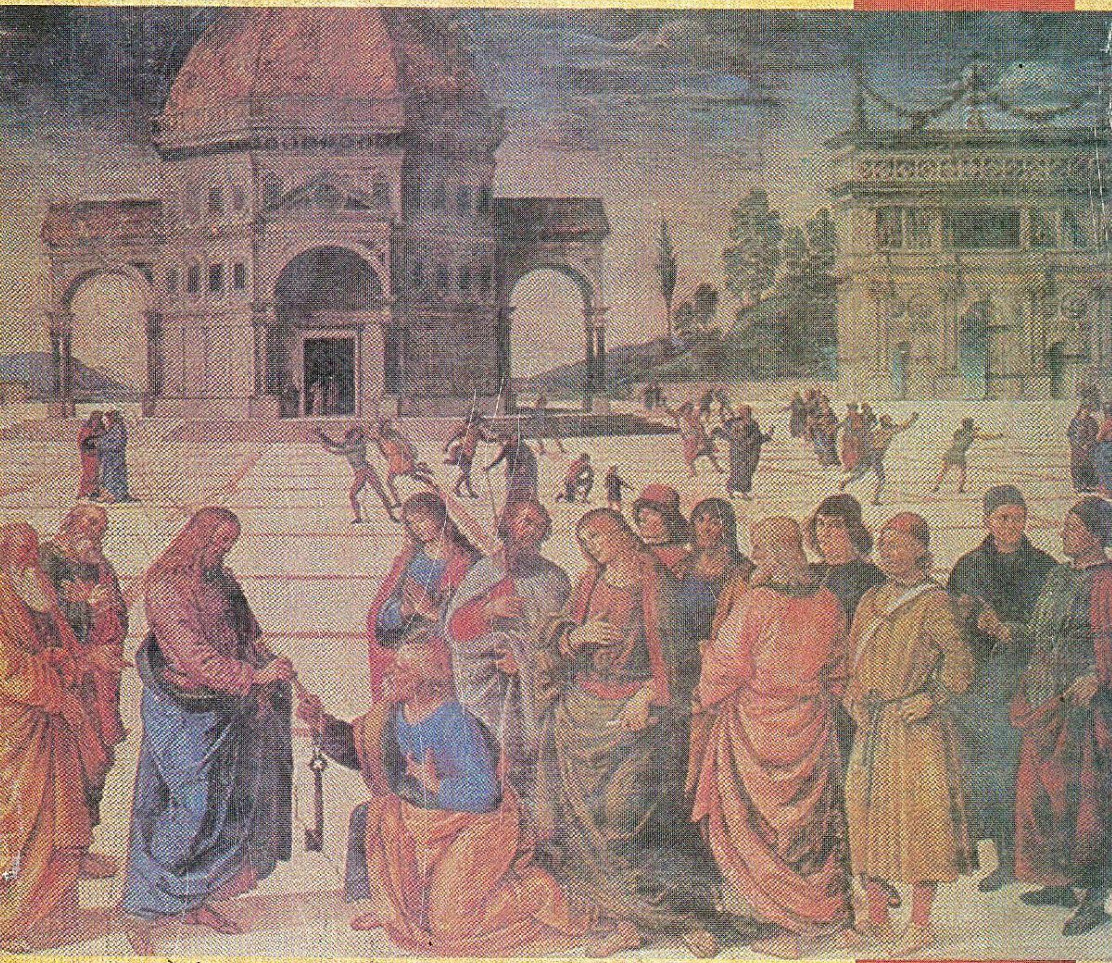
الألف كتاب الثاني

الهيئة المصرية العامة للكتاب

يوهان هويزنجا

أعلام وأفكار



ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد
مراجعة: د. زكى نجيب محمود

الأعمال المختارة

الألف كتاب الثاني

نافذة على الثقافة العالمية

أعلام وأفكار

(نظرات في التاريخ الثقافي)

تأليف
يوهان هويزنجا
ترجمة
عبد العزيز توفيق جاويد
مراجعة
د. زكي نجيب محمود

الطبعة الثانية

الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٩٩

الفهرس

كلمة المترجم

أصبح يوهان هويزنجا فى أربعينات هذا القرن ، من أشهر مؤرخى هولندا • وقد بدأ حياته بدراسة فقه اللغة وتعمق في ذلك ، ثم تحول الى التاريخ • ولم يلبث أن أمسك فيه بخيوط نظرياته الجديدة فى التاريخ الثقافى الذى وضع يده بكامل الجدارة على مجاله وفلك دراسته •

وذاع صيته فى العالم الناطق بالانجليزية ، بسبب تقدم بعض الناشرين لنشر كتب أربعة له : هى « اضمحلال العصور الوسطى » الذى نقله كاتب هذه السطور الى العربية للمجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، و « الانسان اللاهى » ؛ و « ارازموس الروتردامى » ؛ و « ظل الغد » •

وقد أنتج كذلك مقدارا ضخما من الأعمال ، الكثير منها ممتع حقا ولكن لم ينقل الى الانجليزية •

وكتابنا هذا « أعلام وأفكار » ان هو الا نخبة مختارة من تلك الأعمال • وهو ينقسم الى ثلاثة أقسام : يعالج الأول منها المسائل العامة فى التاريخ ، ومناهج كتابته ، ويعالج الثانى العصور الوسطى ، والثالث عصر النهضة •

ويتجلى فى الكتاب من أوله الى آخره ما طبع عليه هويزنجا من أصالة ، وما لعلمه واهتماماته من مجال ضخم • ومقالاته فى التاريخ الثقافى ، وهو الموضوع الذى جعله ملكا خاصا له بما أضاف اليه من اضافات شامخة ، تعد فاتحة عهد جديد لهذه الشعبة الحديثة من الدراسات التاريخية • وهو فى الصور القلمية النقدية ، الحافلة بالعطف والمحبة والحرانة اللاذعة فى نفس الحين ، شأنه مع ابيلارد ويوحنا من سالسبورى وجان دارك وارازموس وجروشيوس ؛ ودراسته الرائعة المتعمقة فى موضوعات مثل « عصر النهضة » والوطنية والقومية ؛ انما يبدى فيها جميعا بعد نظر وتعمق ، يعكس تدريبه الأول فى علوم اللغة وفقهها وتمكنه مدى حياته من التاريخ الاجتماعى • وكلها تبث الحيوية والقوة وتدخل

الصفاء والوضوح على المسائل الأساسية الهامه التى تشغل كلا من المؤرخ ودارس التاريخ على حد سواء ٠

وقد حدث بعد اطلاعي على منهج المؤلف في كتابه « اضمحلال العصور الوسطى » واعجابي بطريقة تعمقه وتقصيه وراء الظواهر الثقافية والاجتماعية ، أني عثرت صدفة بدار الكتب المصرية على كتابنا هذا ٠ ورغم أن موضوعاته شتى يبدو عليها التفرق وعدم الارتباط ، فانك لو طالعته متكاملا ، وجدت فيه تيارا متسلسلا من دراسات في التدوين التاريخي وأصوله وفي فلسفة التاريخ ونظرياته وعظماء الباحثين فيهما وفي الجمال والفنون ومظاهر الفنون التشكيلية في كل حقبة مر بها المؤلف ، مع تبيان فضل روادها ٠ فأنت تخرج من الكتاب بمفهوم واضح عميق عن العصور الوسطى وعصر النهضة والاصلاح الديني ، يزيده عمقا ووضوحا ، تحليله للأعلام الذين نشرت تراجمهم في الكتاب ، وهو وضع لم يكن لينتظر بلوغه من كتاب مكون من عدة محاضرات وسير لبضعة أشخاص ، لولا أن تيار فكر المؤلف ينساب سلسالا في مادة حذقها وتخصص فيها واستبحر ٠ ان هذا الكتاب يحوى ثقافة عالية إتمنى لو أتيح مثلها لدراسة التاريخ الثقافي والاجتماعي والجمالي لشعوب الشرق العربي وخاصة شعب جمهورية مصر العربية ٠

فالى القارىء المتعطش الى منهج جديد في التاريخ أقدم هذا الكتاب ٠

١٩٧١/١٢/٢٥ ع ٠ ت ٠ ج

مقدمة الكتاب

بقلم : برت . ف . هوزليتز

ان نظرة تلقى على صورة ليوهان هويزنجا ، قد تدفع صاحبها الى الظن بأنه انما ينظر الى صورة محام هولاندى ناجح ، أو رجل أعمال موفق ، لا الى صورة واحد من أبرز من أظهرهم هذا القرن من المجددين فى التاريخ ، اذ تبدو فى وجهه الوداعة والطلاقة ويظلله جو من اليسر والصفاء . فليس فى أساريره أثر للعنف ، ومع أن مخايل العقل المفكر وقوة الخلق تنعكس من تعبير محياه ، فانه لا يتجلى فى ذلك التعبير ما ينم عن رجل أوتى قدرة ابتكارية خلاقة وقوة خيال غير عاديتين .

ومن المعروف أن حياة هويزنجا عادية بسيطة كطلعته سواء بسواء فهو ينحدر من سلسلة طويلة راسخة الأقدام من وعاظ مذهب مينو (*) . ولد فى السابع من ديسمبر عام ١٨٧٢ بمدينة جروننجن ، وأبوه فيها يومئذ أستاذ بالجامعة . وحصل هويزنجا من تلك الجامعة على درجة الدكتوراه فى مايو ١٨٩٧ ، وقد ركز معظم دراساته فى حقل فقه اللغات الهندية . وعين بعد تخرجه فى الجامعة مدرسا للتاريخ بمدرسة ثانوية بمدينة هارلم ، حيث ظل يمارس مهنته ثمانى سنوات . ثم استدعى لتدريس التاريخ حيث عين أستاذا بالمعهد الذى تخرج فيه. ولم يلبث حتى عين فى ١٩١٥ أستاذا لكرسى التاريخ العام والجغرافيا التاريخية بجامعة ليدن ، أكبر معاهد الدراسات العليا بهولندا . فظل يشغل ذلك المنصب حتى ١٩٤٢ ، يوم أغلقت تلك الجامعة بأمر سلطات الاحتلال التابعة لألمانيا النازية .

(*) نسبة الى مينوسيمونز (١٤٩٢ ـ ١٥٥٩) وهى طائفة مسيحية نشأت فى زيوريخ وتؤمن بالتعميد وبرفض أفرادها الوظائف العامة والخدمة العسكرية (المترجم) .

وقد ظل هويزنجا طوال الفترة الأولى من الاحتلال الألماني متمسكا تمسكا لا هوادة فيه بالحرية الأكاديمية وبحقوق مواطنيه ٠ لذا اعتقله النازيون وسجنوه في معسكرات الاعتقال في سان ميشيلز جستل ٠ وقد قاربت سن هويزنجا آنذاك السبعين ، وضعف بصره ، كما أصيب بضعف الصحة العام نتيجة للحرمان الذى ساد البلاد بسبب الحكم الألماني ٠ وتدخلت حكومة السويد في شأنه ، فأطلق سراحه من معسكر الاعتقال في أكتوبر ١٩٤٢ ، ولكن لم يسمح له بالعودة الى داره في ليدن بل نفي الى قرية صغيرة تسمى دى ستيج قرب آرنم ، حيث أصدرأواخر أعماله بعيدا عن أصدقائه وتلاميذه ، ومحروما من كتبه ومراجعه ٠ وكان الشتاء في آخر سنة للحرب ١٩٤٤ ـ ١٩٤٥ بالغ القسوة بوجه خاص ٠ وكابدت هولندة عناء كثيرا من نقص شديد في الطعام ، كما أن قرية دى ستيج أصبحت في فترة من الزمن احدى النقط الواقعة على خط القتال الأمامي ٠ وأصيب هويزنجا بالمرض في أوائل ١٩٤٥ ، وتوفي في أول فبراير ، دون أن يعيش ليشهد ثمرة ما تمناه وعاش من أجله في اصرار: وهو تحرير بلاده المحبوبة ٠

والحق أن هذه الخلاصة التي قدمناها لتاريخ حياة هويزنجا لاتكشف شيئا من عمله بما يتميز به من خاصة فريدة ، ولا عن طبيعة اسهامه في خدمة التاريخ والعلوم الاجتماعية ، ولن توفيه حقه بحال ٠ ومهما سردنا اليكم آيات التشريف التي تلقاها في حيـــاته ، واضفنا قائمة بأســـماء كبريات أعماله ، ماحصلنا الا على أبسط الدلالة على نوع كتاباته وشذاها ٠

في ١٩٣٣ وقبل استيلاء هتلر على مقاليد الســلطة بيومين ، ألقى هويزنجا محاضرة في برلين ناقش فيهــا موقف وطنه هولندة باعتبارها وسيطا ثقافيا بين غرب أوربا ووسطها ٠ وقد حاول في هذه المحاضرة أن يفسر مركز الوساطة الذى تشغله هولندا ، بمالها من اسهام في ثقافتين قوميتين بل ربما ثلاثة ٠ ذلك أن هولندا في رأيه ظلت قطرا من الأقطار الجرمانية من الناحية اللغوية ، بل ظلت كذلك من الناحية السياسـية أمدا طويلا ٠ فان روابطها الاقتصادية بمدن المانيا كانت قوية ، كما أنها في أزمنة أحدث شكلت جسرا يصل ما بين الصناعة القائمة بأرض الراين وما وراء البحار من أقطار ٠ على أن هولندا ارتبطت بفرنسا أيضا بروابط وثيقة ، فان عضويتها في ولاية برجنديا ، وهي شعبة من فرنسا اقامت بينها وبين الملكية الفرنسية روابط سياسية وثيقة ٠ واستقبلت هولندة في القرن السادس عشر عددا كبيرا من اللاجئين الهوجونوت ، فأقاموا بها الى الأبد ٠ وكثيرا ماكان يزورها ابان العشرات الأخيرة من سنى نظام

الحكم الفرنسى القديم الشعراء والفنانون ورجال السياسة والفلاسفة والعلماء الوافدون من فرنسا .

أماروابط هولندا ببريطانيا فكانت أضعف كثيرا ، ولكن على الرغم من نشوب عدة حروب بين القطرين فى القرن السابع عشر ، فان وجود البريطانيين تجارا وزوارا حتى مقيمين فى كثير من الأحيان يبرز بروزا واضحا فى مدينة أمستردام. وبهذا تهيأ للهولنديين مركز ممتاز استطاعوا بفضله امتصاص عناصر من ثقافات قومية عديدة والتكامل واياها بصورة مكنتهم من صوغ حضارة أفسحت صدرها لكثير من أفضل العناصر الأجنبية - من ألمانيا وفرنسا وبريطانيا ، بل حتى من أسبانيا عدوة هولندا السابقة . وعندى أن وصف هويزنجا لمركز هولندا باعتبارها وسيطا يماثل بدقة مركزه فى مجال العلم والعلماء.وهو يعد فى الأوساط العلمية مؤرخا للحضارة - ولكن الواقع أنه يشغل .مركز الكاتب الذى يمثل عمله خليطا من المزج والتكامل بين مجموعة من أفضل وأعمق عناصر التاريخ والعلوم الاجتماعية . من أجل ذلك أصبح من العسير تصنيف عمله ووضعه موضعه الحق . ولا ريب أنه عمل يحتوى على عنصر قوى مستمد من التاريخ . على أن كثيرا من مباحثه ينساح بين مجالات علم الاجتماع والسياسة وعلم النفس ونقد الفنون بكل ما تتجلى فيه تلك العلوم من مظاهر . بيد أن هذه العناصر المنوعة تمتزج بعضها ببعض فى كيان متسق تفنى فيه جميعا بعضها فى بعض وتشكل الأجزاء الرئيسية فى كل متماسك متكامل . والواقع أن هويزنجا ينجح دون أن يحاول ذلك محاولة شعورية - فى أثناء قيامه بالوساطة بين صاحب العلوم السياسية والمنهج الانسانى - فى أن يختار من كل فرع يبحثه أنسب العناصر التى تلائم عمله على خير وجه ، كما ينجح فى المزج بهذه الطريقة بين آكفأ صنوف الاسهام التى تستطيع كل شعبة من الشعب العلمية تقديمها .

وبالاضافة الى ذلك ، فان أذنه المرهفة الذواقة للغة ، الحساسة بموسيقى الكلمات ، وتدريبه فى فنون فقه اللغة ، تضيف الى أعماله نوعا من رقة التعبير وتضفى عليها بعدا جديدا من نفاذ البصيرة ، بصورة لا تجعل منها فحسب ضربا من المنجزات الفذة فى التاريخ الاجتماعى ، بل تحيلها أيضا الى قطع فنية بحق ، واسهامات عظيمة فى مجال الأدب .

أجل انه يتجلى فى كتابات هويزنجا المختلفة أن الخليط الفريد من العناصر التاريخية والاجتماعية والسيكولوجية يختلف ويتباين نوعا

ودرجة · مثال ذلك أن العنصر التاريخى يبرز قويا مسيطرا فى بعض مقالاته المبكرة التى كتبها حول تاريخ هارلم أو فريزيا المحلى (*) · ولكن على الرغم من أن هـذه المقالات كتبت باوفى وأدق ما يلتزمه المؤرخ من استخدام الأسانيد والوثائق على جارى عادة المؤرخين السليمة ، فان هويزنجا يكشف فيها عن ميوله فيما وراء التاريخ بوساطة اختياره مادة موضوعه وبتأكيده المتزايد العلاقات الاجتماعية المتبادلة · ومن ثم فان ميله هـذا الى تجاوز حقل التاريخ والدخول فى مظاهر حياة الجماعات الاجتماعية التى إتخذها نموذجا يدرسـه يصبح ناحية لعمل هويزنجا لا حد لنموها ابدائم ، كما أن عمليه الضخمين الأخيرين اللذين أصدرهما تحم اسـم « فى ظلال الغـد In the Shadow of Tomorrow » و«الانسان اللاهى Homo Ludens » يمكن أن يعدا دراسات اقتصادية سيكولوجية أو اقتصادية سياسية تنهل من معين ضخم من اللوذعية التاريخية ·

والحق ان انشـغال هويزينجا المتزايد بالمسـائل الاجتماعية والاجتماعية السيكولوجية يمكن تبين مذاقه فى كبريات مؤلفاته المتعاقبة · فدراساته المبكرة فى التاريخ الهولندى المحلى لم تحتـو ، كمـا أسلفنا اليك ، الا على القليل مما تجاوز المواد التاريخية المقررة المعتادة · لكنه بعد انتقاله الى جرونتجن بل وبدرجة أكبر بعد تعيينه بجامعة ليدن ، يصبح شديد الانشغال بالعلاقات الاجتماعية السـائدة فى الحقبة التى يصف ، وبالحالة العقلية للأشخاص الذين سـادوا أى عصر من العصور وطبعوا فيه طابعهم ، وتمخض هذا الاطار العقلى عن ظهور كتاب « اضمحلال العـصـور الوسطى «The Waning of the Middle Ages» الـذى يعـد أشـهـر مـؤلفـاته، ويعـتـبـر أيضـا الأسـاس الذى قـام عليـه الشطر الأكـبـر. لما أصدره فى اشد سنى حياته انتاجا من أعمال · وكان هويزينجا بالغ الدربة بالمناهج الكلاسيكية لعلم تدوين التاريخ بصورة لا يمكن معها ان يفوته أنه انما يتبع سبيلا علميا يخالف السبل المتبعة · على أنه سمى منهاجه هذا باسم « التاريخ الثقافى » ، وبذلك فصل بينه وبين « التاريخ العام » ذى النزعة الأكثر محافظة · وأهم من ذلك كثيرا ما حدث فى ثنايا عمله على خلق شـعبة علمية جديدة من أنه اضـطر الى تعريف صفتها الأساسـية المركزية ، وبذلك وقع فجأة على ما يمكن نعته بأنه تشـبيه

(*) فريزيا : هى الاراضى السـاحلية المتمـدة بين نهرى الشلدت والايمس . (المترجم)

رائع . فالمعروف أن ما هدف اليه مؤرخ الثقافة هو خلق صورة تمثل عصرا أو مجتمعا . ولذا فان كتابه « اضمحلال العصور الوسطى » يمكن تشبيهه بصورة هائلة ، تحتوى ـ شأن صور خلفيات الهياكل التى رسمها الاخوان فان ايك ـ مجموعة منوعة هائلة من التفاصيل ، ومع ذلك فان الكل لا ينحرف عن الفكرة الرئيسية الكبرى للصورة . فانها جميعا موجودة فيما رسمه هيوبرت ويان فان ايك (*) من صور اللوحات الثلاث (Triptych) بمدينة غنت ، وأعنى بذلك صور « الرعاة والملائكة ـ والملوك ، والفلاسفة ـ والمغفلون واللصوص ـ والعذارى والقساوسة » . وكلها مصورة بعناية بيد فنان مولع بالعناية بالتفاصيل، ويتبدى فيها جهد الحريص على تنفيذ واظهار أدق التفاصيل واقلها أهمية بنفس العناية باظهار البؤرة المركزية للرسم ، وهى « حمل الله » (**) . وقد استمد هويزنجا هذا المنهاج من المصورين الفلمنكيين العظام الذين ساد فنهم فى الحقبة التى كتب عنها . وقد راح هويزينجا فى كتابه عن نظرية التاريخ الثقافى يفسر أن كل ثقافة تطور أشكالها التعبيرية الخاصة التى ينبغى أن تفهم على أساسها . ولذا تراه حين يكتب عن نوبة الازدهار الأخيرة التى حصلتها الحضارة البرجندية فى العصور الوسطى ، يتبنى بطريقة قد لا تكون شعورية فيما يحتمل ، الأشكال التى تماثل ماستخدمه أعظم فنانى تلك الحقبة من أشكال .

ولكن مثلما أن فان ايك لم يقصر فنه على تصوير الصور الكبيرة الثلاثية اللوحات ، بل صور أيضا صورا شخصية تمثل من فى عهده من الأساقفة والأمراء ـ وغيرهم من النساء والرجال العاديين ـ فلقد وجد هويزنجا أيضا انه مستطيع أن يعطى تفسيرا أفضل لحضارة العصور الوسطى ان هو أردف كتابه العظيم بعدد من المقالات . وتمخض هذا الاحساس الذى خالجه عن الصور القلمية التى كتبها حول بعض الشخصيات العظيمة فى العصور الوسطى وعصر النهضة : كصورة يوحنا السالسبورى وجان دارك وأبيلارد وآلان من ليل فضلا عن ارازموس من روتردام .

(*) يان ڤان ايك (١٣٩٠ ـ ١٤٤٠) رسام فلمنكى ذائع الصيت اشتغل هو وهيوبرت مصورين فى بلاط فيليب الطيب دوق برجنديا . (المترجم) .

(**) يقصد بهذا المسيح مشيرا الى ما ورد فى انجيل يوحنا ١ : ٢٩ « وفى الغد نظر يوحنا يسوع مقبلا اليه فقال : هو ذا حمل الله الذى يرفع خطية العالم » . (المترجم)

وفي ثنايا قيامه بانشاء هذة المقالات تزايد انشغاله بمسألة الطريقة التي يستطاع بها تفسير روح أحد العصور وتقديرها تقديرا ناقدا • وقد حاول استخدام اتجاه خاص من المعالجة في بحثه الذى سطره حول ثمرة الحضارة قي العصور الوسطى بشمال غرب أوربا • ذلك أنه أدرك عن يقين أن بركهارت في كتابه « حضارة عصر النهضة في ايطاليا » Civilization of the Renaissance in Italy الذى صدر قبل « اضمحلال العصور الوسطى » «The Waning of the Middle Ages» (*) بستين عاما ، انما سار في درب آخر مختلف في محاولته فهم روح أحد العصور •

ولكن بينما يرى المطلعون أن بركهارت(**) وجد مادة دراسته في حياة العظماء فان هويزنجا طلبهـا وبحث عنهـا فيما يختلج في أنفس الكثرة العظمى من صغار الناس المنتمين الى جميع الطبقات والجماعات الاجتماعية من أحلام وآمال ، وضحك ودموع • وانك لتراه حتى في تراجمه التى اضطر فيها اضطرارا الى الحصول على موادها من أعمال المشاهير والحكماء ، يحاول تزويدك بخلفية من الحياة اليومية والأعمال العادية لعامة الناس الذين عاش أولئك العظماء بين ظهرانيهم •

ولعله ليس من قبيل المصادفات أن من وقع عليهم اختيار هويزنجا من شخصيات العصور الوسطى ليدرسهم ويكتب تراجمهم كانوا كلهم تقريبا من الشعراء أو الأنبيـاء ـ أو خليطا من الاثنين ـ ونظرا لأنهم يعبرون عن آمال ومشاعر أزمانهم تعبيرا أكثر طلاقة ووفرة ، فقد استطاع هويزنجا بمجرد تتبع الموضوعات التى عكفوا على تطويرها ، رسم منظر لثقافتهم ، أرحب كثيرا مما لو اختار تاريخ حياة الملوك والمقاتلين الأبطال • ولما كان هويزنجا يعلم علم اليقين ان خير مكان يجد فيه أصدق تعبير عن أية ثقافة هو بعض تلك العبارات العاطفية الصرفة التى تنطق بها الشخصيات التي ألفت النخبة المفكرة المختارة في عصر من العصور ، فانه

(*) وقد تولى المترجم ايضا نقل هـذا الكتـاب الى اللغة العربية.

(**) بركهارت (١٨١٨ ـ ١٨٩٧) مؤرخ سويسرى وناقد فنون واستاذ التاريخ بجامعة بال . اصدر الكتاب المذكور في ١٨٦٠ ، وكتابه تاريخ العصور الوسطى صـدر منه جزءان ونشر كتابه تاريخ الحضارة الافريقية بعد وفاته (المترجم) .

اتخذ من حياة ابيلارد أو جان دارك منهلا يزود المؤرخ بوسيلة ممتازة الكفاية لانشاء رسم لحضارة العصور الوسطى ·

على أن هويزنجا كتب مقالات فى موضوعات أخرى عدا التراجم · وفى هذه المقالات لم يجعل شخصية « البطل » الذى يحتل مركز الصدارة فى المسرح شخصا ، بل جعله نظاما من الأنظمة أو فكرة أو عرفا · ومع ذلك فالطريقة الأساسية هنا هى نفسها التى يستخدمها هويزنجا فى مقالات التراجم · فهو يصف الخلفية والبيئة التى وجدت فيها فكرة من الأفكار أو نظام من النظم ويتعقب تكوينها ونموها فى ثنايا تفاعلها مع تلك الخلفية · فربما اختار مثلا نظام الفروسية فى القرون الوسطى أو نمو عاطفة الوعى القومى بأوربا وجعل منهما موضوعا لدراسته ، والنتيجة المحتمة فى جميع الأحوال هى مقال فى التاريخ الثقافى يرى فيه الموضوع الرئيسى الخاص لا بوصفه شيئا فى حد ذاته ، بل باعتباره شيئا لا يبلغ معناه ولا يتكامل تكوينه الا بتفاعله على مدى الزمن مع الحضارة التى هو جزء منها والتى يعيش بين ظهرانيها ·

ولست انكر أن شهرة هويزنجا كفنان فى مضمار تاريخ الثقافة انما تقوم قبل كل شيء على أعماله الكبرى ، وأخص بالذكر منها كتاب « اضمحلال العصور الوسطى » ولكن مهارته وكثرة جوانب قدرته أشد وضوحا فى مقالاته القصار · فانها ــ شأن جميع ما سطره هويزنجا ــ آيات فى التكامل ، ولكنها حين تشدد التأكيد على العوامل الفردية السيكولوجية حينا ، والعوامل المنهاجية حينا آخر والعوامل الاجتماعية التاريخية تارة ، فانها تزودنا فى محصل مجموعها بخير منظار استبصارى يجلى لنا عبقريته ·

البــاب الأولـــ

فى التاريخ

وظيفة التاريخ الثقافى (*)

يحتم القانون الهولندى أن تصحب رسالة جامعية كل بحث يقصد به الحصول على شهادة الدكتوراه ، وهو بهـذا يحتفظ بأثر قديم متخلف عن عصر أقدم من زماننا فى سيرة العلم والعلوم • ذلك أن تقديم الرسائل الجامعية والدفاع عنها عملية تنتمى الى أيام أبيلارد وأيام لوثر • فالجامعة فى القرون الوسطى تعتبر الرسالة الجامعية والخصومة الجدلية هما الوسط الطبيعى الذى يصاغ فيه كل ما يتعلق بالعلم والتبحر العلمى من مسائل • وقد توافق القوم وهذا النظام باعتباره وسيلة فكرية لهم ، ووطنوا أنفسهم على ذلك المجال بوصفه أشكالا روحية فى خدمتهم • ولم تكن الجامعة فى العصور الوسطى الا حلبة نزال وأرض تدريب على المصارعة بكل معانى الكلمة ، تماثل على أكمل وجه منازلات الفروسية • على أنها حلبة كثيرا مايلعب المرء فيها لعبة جادة بل خطرة فى أغلب الأحيان • ذلك أن مناشط الجامعة تشبه مناشط الفروسية والفرسان ، واتصفت باحدى خلتين هما التكرس فى دين والتلمذة فى عقيدة ، أو النزاع والتحـدى والصراع • فمدار حياة الجامعة فى العصور الوسطى هو المنازعات الدائمة التى تتزيا بأشكال المراسم • وهذه الخصومات الجدلية ــ شأن منازلات الفروسية ــ من الأشكال الجدية للتفاعل الاجتماعى الذى تتولد عنه الثقافة •

والرسالة الجامعية والخصومة الجدلية بوصفهما من الأساليب الفنية قد وفتا تماما بأغراض تكوين الفكر والمجتمع فى العصور الوسـطى • وتقاتل العلماء بأسلحة القياس المنطقى (Syllogism) • فان القياس

(*) « De taak der culturgeschiedenis » وهـو مقـال يرتكز على خطاب ألقى لأول مرة فى ١٩٢٦ على الجمعية العمومية للجمعية التاريخية بمدينة اترخت ، ثم قدم فيما بعد فى صورة محاضرة بجامعة زيورخ نشر أول مرة فى « « Cultuurhistorische Verkenningen » (هارلم ١٩٢٩) ص ١ ــ ٨٥ • وصدرت لها ترجمة من الاصل الهولندى فى « Verzamelde Werken » المجلد السابع ص ٣٥ ــ ٩٤ •

بتركيبه الثلاثى قد عكس اليهم بالفعل ثلاثية أخرى هى الرمح والدرع والسيف • ومن ثم فان أصحاب الدرجات العلمية كالدكتوراه والبكالوريوس ، انتضوا أسلحة نبيلة ، شأن الفارس والسيد التابع له • والرسالة الجامعية تفترض مقدما ان الطرفين المتنازعين يتحليان بأسلوب للتفكير جيد التحديد واضح المعالم ، وكل مفهوم فيه محدد بالدقة تحديدا عقلانيا ، فهو بعبارة أخرى مفهوم مدرسانى (*) (اسكولائى) وهى تفترض أيضا وجود درجة عالية من التطابق الثقافى بين المفكرين • اذ لابد من وجود قانون يفهم الناس بواسطته بعضهم بعضا • ومن المفروض فى كل انسان هنا اتقان قواعد اللعب وفن المناجزة بالمنطق الشكلى (الصورى Formal) • وأخيرا تفترض الرسالة الجامعية مقدما وجود درجة معينة من النزعة الاعتقادية (القطعية) (Dogmatism)، ومن الجمود فى التفكير، وهو وضع ينم على عدم وجود أى تنبه الى أن هناك اعتمادا متبادلا عاما ونسبية مشتركة بين جميع مفاهيمنا وأفكارنا ، وهى الصنفة الخاصة الموجودة على الدوام فى الفكر العصرى •

وفى العصر الحاضر ، لم يعد باقيا الا القليل من الشروط الثقافية المفترضة مقدما لكى يتم ازدهار الرسالة العلمية • على أن الناس لم يبرحوا يتمسكون بهذه الاشتراطات المفترضة مقدما فى الحركة الانسانية وعصر الاصلاح الدينى ، بل الحق انها ظلت سارية الى حد ما ، وان كانت بدرجة أقل فى أيام المذهب العقلانى (Rationalism) المستنير الذى أوحى بصدور مرسوم التعليم العالى فى ١٨١٥ ببلاد الأراضى المنخفضة الذى تأخر به العهد وتميّز بالجمود • ولا شك أن هذه الحال لا وجود لها الآن ، ونتيجة لذلك صارت الرسالة العلمية وسيلة قديمة الطراز ، وأصبحت كريش الأوز المستخدم قديما فى الكتابة ، وقد وضع بين أنامل كاتب على الآلة الكاتبة • بيد أنها تحتفظ بقيمتها كوسيلة بيداجوجية مساعدة فى علم الرياضيات ، أما فيما عدا ذلك فان وجه النفع منهـ محدود بكونها تقليدا يتخذ فى الطقوس الأكاديمية • أما من حيث طبيعة الأشياء فانها تكون بموضعها الأليق بها كلما اقترب فرع العلم الذى تخدمه من النوع المعيارى من العلوم•فكلما قل نصيب الشعبية العلمية من السمة النسقية (Systematic) ، قلت حاجتها الى رسالة علمية • مثال ذلك أنها ربما كانت ذات نفع طيب بين حين وآخر فى اللاهوت الاعتقادى

(*) المدرسانية هى فلسفة العصور الوسطى (المترجم) •

(القطعى) والقانون • أما فقه اللغة والدراسات اللغوية فليس فيهما متسع لها ، الا على هامش مناشطهما • غير أن المؤرخ يستطيع المضى فى عمله بسهولة بغير الاحتياج اليها • اذ أن عالم مفاهيمه مفرط فى سيولته واتساعه ، كما أن مايستخلصه من نتائج مرسل لارباط له ، ذلك أن تصوره كفرد ينحرف عن تصور جاره انحرافا بالغا يجعل من المحال عليه اصطيادها فى شرك رسالة أو شبكة قياس منطقى •

وذلك ما لم يكن مدار الموضوع هو مجرد مسالة نقدية أو منهاجية صرفة ، فهنا يصح للشكل المسمى بالرسالة ، أن يصبح صالحا لخدمة أغراض التاريخ ، ان لم يكن أمرا محتوما • ففى امكان المرء اقتراح رسالة تدور حول ما فى الموضوع المقترح من أصالة أو زيف ، ومن أولوية أو ثانوية ، ومن أساسية أو تفريع • أو تبحث فى مسائل صلاحية منهج معين من المناهج أو مدى الرغبة فيه • ومع ذلك ، فان مثل هذه المسائل ليست أساسا جزءا من التاريخ نفسه ، فهى لاتنتسب الا الى المواقع الأمامية للتاريخ •

وبعد فان المؤلف الذى يحاول بعد هذا التمهيد ، ان يرتب مجموعة من التأملات فى التاريخ الثقافى تحت عناوين هذه المباحث الخمسة السابقة (وهى الأصالة والأولوية والثانوية الخ ••) ، لابد أن يثير شكوك المتهوسين الأغرار • وكانى بذلك كله يمثل برهانا جديدا على المشابهة الوثيقة بين العالم والفارس ، الذى قد يحلو له هو أيضا النزول الى أرض المنازلات بسلاح صدىء قديم أو ذراع غير مستورة بترس • وعلى كل حال ، فان ذلك المؤلف لا ينزل الحومة بوصفه أحد المعتنقين للمذهب الاعتقادى • ومن الناحية الأخرى ، اذا أنت شئت تبرير ذلك الشكل الذى اختاره المؤلف وهو التاريخ الثقافى ، بنعته بأنه شكل عصرى مفرط فى عصريته ، وجب أن يعترف بما لدقته وتحديده من قيمة ، أى بقدرته على اجتذاب الالتفات اليه ، أو بعبارة موجزة أن يعترف له بقيمته البارزة •

- ١ -

« ان علم التاريخ يقاسي من عيب هو أن نتائجه لا تبلغ الحد الكافي من دقة الصياغة • »

لاشك أن كل من اعتاد الاطلاع على عدة صحف تاريخية ، يجد صعوبة في التخلص من احساس بعدم الارتياح يساوره بين حين وآخر عند القائه نظرة في المراجع الى الفيض الطامي الذى لاحصر له من الأبحاث ذات الموضوع الواحد والمقالات والمصادر المنشورة التي تضاف الى مادة التاريخ من شهر الى شهر بكل قطر من الأقطار • فهو يرى علماء العالم بأجمعه يشقون طريقهم أكثر فأكثر نحو أشد التفاصيل دقة • فها هنا بعض الرسائل التى سطرها سياسى مغمور ينتمى الى دويلة صغيرة هنا ، وها هنا حسابات دير متواضع للرهبان هناك ـ وكلها سيل منهمر من المسائل التافهة • وعندى أن كل واحدة من هذه الدراسات ليست اسهاما فى التاريخ يضاف الى معلومات المؤرخ الا بقدر اهتمامه بالموضوع نتيجة لدراساته الخاصة • فهو يسائل نفسه مترددا : كم من العقول سيصل اليه منتجات الفكر التاريخى هذه المرهقة التى لا حصر لها ؟ ولن يكون الجواب الا بالتالى : لن تصل الا الى عدد قليل فى كل فرع مستقل من الدراسات•فلو أمكن جمع احصائيات توضح مبلغ انتشار كل ما يطبع ومدى الاكباب على استيعابه وقراءته أو مقدار النسبة الصحيحة بين الجهد المبذول فى الانتاج العلمى وبين قيمة الاستهلاك للانتاج كمجموع ، لارتعشت أجسامنا يأسا فى كثير من الأحيان : فهل يتصور المرء منا أن الأرقام والرسوم البيانية لن تكون الا مروعة حين يتذكر العناية المبذولة للصفحة الواحدة من المطبوع ، وعدد القراء بالنسبة لشهر من البحث ؟ لكأنى بجهود المؤرخين حبة وقعت فى الصخر الصلد ، واذا لم تلهمنا حكاية الحبة التى سقطت على الأرض الحجرية شيئا من العزاء ، فلن يستطاع تجنب هذا السؤال : أليس ماتبذله هيئة العلماء من الجهد مضيعة للطاقة لا رجاء فيها ؟

وغنى عن البيان ان علم التاريخ بما فطر عليه بالضرورة من سمة غير نسقية ، تتحرك فيه تيارات الفكر على الدوام فى اتجاهات لا تلتقى عند نقطة واحدة • اذ يلوح أن ما يشير من هذه الدراسات الى لباب مركزى للمعرفة ، ما هو الا عدد ضئيل جدا من تلك الدراسات • وهنا يجهر العالم الناقد بمعارضته لهذا الرأى قائلا بأن الواقع هو أنها جميعا تشير

فعلا الى ذلك اللباب المركزى • فان كل مبحث ذى موضوع واحد يصبح على حد قوله « دراسة تمهيدية » تنتظر ما سيتناول ذلك المبحث فيما بعد من تكامل • ويذهب العالم الى أن يدنا لم تصل بعد الى القدر الكافى من المادة العلمية ، كما لم يتهيا لتلك المادة حتى الآن القدر اللازم من الغربلة الناقدة • وقبل تناول المسائل الكبرى بالبحث ، لابد أن يحدد قدر ضخم آخر من التفاصيل • فكل ما نعمله الآن هو تقديم أحجار البناء • وما نحن الا الفعلة الراغبون المتطوعون الذين يقطعون الأخشاب ويجلبون الماء • تلك هى خلاصة آرائهم فى جهودهم ، ولكن شكوكنا تجيبنا عن ذلك بالتالى : انكم انما تخلقون من العدم وهما من الايثار المتواضع من أجل مصلحة الآخرين المستقبلة • على انه متى جاء البناء المقتدر فسيجد معظم الأحجار التى وضعتموها فى انتظاره غير قابلة للاستعمال • فانتم لاتنحتون وتقطعون بل تقومون بالصقل والبرادة • وما تفعلون ذلك الا لأنكم لستم من القوة بحيث تقومون بجهود أشد •

ومن حسن الحظ أن هذا المزاج التكديسى ليس هو الكلمة الأخيرة فى منهج البحث بالنسبة للتاريخ • فان مما يستحق العناء أن يتمثل المرء أمامه على أوضح صورة ممكنة الوضع الواقعى لحياة حقل من حقول الدراسة • ونظرا لأننا ممن يأخذون بالمذهب الواقعى (١) ، فان من العسير علينا الهرب من فكرة أن كل فرع من العلوم يتحقق على صورة ما بكامل هيئته بوصفه بنيانا قائما Gebilde • ويبدو أن هذه الفكرة هى السائدة الآن فيما يتعلق بالفنون ، فلم لاتطبق على العلم والعلماء أيضا ؟ ان فى امكان المرء أن يجادل دون تزيد أن جمال الفن القوطى وجوهره يتجليان فى أكبر منتجاته ، كما يتحققان بمجموعهما فى عقول عدد ضخم من العلماء ، ولو لم يقم هؤلاء العلماء بزيارة جميع الكنائس • وانى لأتصور رغما عنى وجود شىء من هذا القبيل فيما يتعلق بما فى أى حقل من حقول العلم والعلماء من معرفة وصدق • على أنى لا أستطيع الحكم على مدى انطباق ذلك المفهوم على حقل مثل الفيزياء مثلا • وربما كان من المعقول أن المعرفة بالفيزياء فى مجموعها يمكن أن يحتويها عقل واحد (وهو أمر لا يتضمن بالضرورة أن ذلك العقل يتملك ناصية جميع ما فى الفيزياء من تفاصيل) • وطبيعى أن نقارن بين الفيزياء والتاريخ لأن كلا منهما يقف عند أحد قطبين يتمثل فيهما نمطان من التفكير ، يتجلى أحدهما فى العلوم ، ويتجلى الآخر فى الدراسات الانسانية : أما أولهما فهو العلم المضبوط على الوجه الأكمل وأما الآخر فهو العلم غير المضبوط

على الوجه الأكمل أيضا · على ان التعارض بين التاريخ والفيزياء يمتادنا على الفور الى الرأى القائل بأن مثل هـــذه الثروة من المعارف التاريخية والفهم ، انما هى مسالة غير مقبولة عقلا من جميع الأوجـــه ذلك أن المعرفة بالتاريخ لاتعدو أن تكون معرفة بالقوة فقط (أى أنها معرفة فى حدود الممكن) · وليس ذلك فقط من حيث إنه ما من أحد يعرف تاريخ العالم ، ولا حتى تاريخ مملكة كبيرة ، بكل ما يحتويه تاريخها من تفاصيل يمكن جمعها والالمام بها ، بل من حيث الناحية الأخرى الأكثر أهمية ، ألا وهى أن جميع المعارف التاريخية المحيطة بموضوع واحد (لا فرق هنا بين أن يكون الموضوع هو ليدن أو أوربا) ، يختلف مظهرها فى عقل « أ » من الناس عنه عند « ب » ، ولو قرأ كل منهما كل ما ينبغى قراءته · بل ان المادة لتبدو فى رأس « أ » اليوم مختلفة عنها بالأمس · أو قل بالحرى انها لا تبدو مطلقا ، فانها لا يمكن أن تتخذ صورة ثابتة فى اية لحظة من اللحظات ، اذ لا يمكن استعادة الأخيلة والصور منها · والواقع انهـا لا توجـــد الا لدى الدارس الذى وحد وطابق بينها وبين ما يحتـويه « الكتاب » ·

ويلاحظ أن الالمـــام بتاريخ اقليم من الأقاليم يعنى فى كل حالة مفردة من الحالات امتلاك عدد جم من المفاهيم المجردة الحية بصورة تجعلها قريبة وفى متناول اليد ، كما يعنى امتلاء الوفاض بقدر من المعرفة بالماضى امتلاء يجعل الانسان قابلا للتحول منها الى فكرات جديدة ، أى أن يتفاعل المرء تفاعلا ناقدا ويستطيع ضمها الى مافى جعبته من فكرات كلية ، أعنى تمثلها وهضمها · وهذا الموقف يخلق فى ذلك الفرد فى حـد ذاته وهما كاذبا بأن هذه المفاهيم مجتمعة تكون صورة عقلية (Image) · بينما الواقع أن الصورة الكلية لناحية واحدة فى عقل أحد الأشخاص ربمـــا امتلكت قيمة معرفيـــة Cognitive ، أعلى ، بل اتصـــفت بطـــابع عام أشمل من مفهوم (Concept) المجموع الكلىّ فى عقل شخص آخر ــ وما نحن بحاجة أن ننبه الى أنه لا يجوز فى هذا المقام التفكير فى الموازنة بين العالم الاستاذ وتلميذ المدرسة الصـــغير ، بل بين عقلين متمرسين بالدربة · ومن المسلم به أن من هواة التاريخ المحلى من يعـد فى حـكماء المؤرخين وأن بين المشاهير من أســـاتذة الجامعة من ليس الا جامعا غبيا وسطحيا لفضلات حقل الحقائق ·

ذلك شأن « حياة » احدى شعب العلوم ، كما تقوم فى عقل الفرد · فماذا يكون المعنى عندما نفكر فى هذه الشعبة باعتبارها روحا موضوعية ،

وعنصرا من عناصر الثقافة ، أى عندما نتكلم لا عما يعرفه « أ » من الناس أو « ب » ، بل عما يعرفه الناس عموما . مثال ذلك أن « الناس » يعرفون في هذه الأيام أن العهد الأعظم (الماجناكارتا) لم يكن دستورا تحرريا نابعا عن حاسة مستنيرة وبعيدة النظر فى حقول المسئولية السياسية والمدنية. أو بمعنى آخر أن الانجليزى العادى المثقف الذى دخل المدارس قبل ١٩٠٠ يحتمل ألا يعرف هـذه الحقيقة حتى الآن . أما غير الانجليزى العـادى المثقف ، فلا يعرف الا بصورة مبهمة معنى اصطلاح العهد الأعظم – ان كان يعرفه على الاطلاق . على أن الذى حدث فى التعليم الانجليزى هو أن الرأى الأصح قد حل الآن محل الرأى التقليدى بفضل الطريقة الممتازة التى دار بها البحث التاريخي وتدريس التاريخ والتى تم بواسطتها الاتصال التام بينهما فى السنوات الأخيرة (٢).واذن ففي هذه الحالة يصبح لكلمة «الناس» في الحقيقة والواقع أحد معنيين : اما عدد معين من العقول واما شعبة العلم التاريخى منظورا اليها باعتبارها ذاتية لها وجود مستقل . وبهذا نعود الى ذلك التضاد القديم بين المذهب الاسمى و المذهب الواقعى (Realism)

والكتابة العلمية لاتفتـأ على الدوام تسـتخدم أحد المصطلحين المجازيين : « يميز العلم » و « أوضح العلم » . وهما مصطلحان لهمـا عندنا قيمة كبرى حيوية لا يستغنى عنها . فالى جوار مفهومنا المجرد عما يملكه الفرد المفرد من معرفة ، ينبغى لنا أن نتذكر مفهوم كمية ديناميكية تسمى علم التاريخ ، وهو علم يظل ذاتية مستقلة متماسكة على الرغم من أن عقلا بشريا لم يستطع ولن يستطيع تحقيقه وادراكه . فلو نظر الى ذلك العلم على هذا الضوء ، فان ما يحتويه من انتاج مذهل يتوسع عرضا دون أن يتعمق أى يصبح له مظهر بالغ الاختلاف . وليس ثمة فارق بالنسبة الى دراسة تاريخية معينة بين أن يفهمها عشرة آلاف قارىء وأن يفهمها تسعة قراء فقط . وليس من الضرورى مطلقا لأى مبحث ذى موضوع واحد أن يبرر وجوده باعتباره «دراسة تمهيدية» لعملية تركيبية تتم فيما بعد . فهو بوصفه ذاتية متجسدة فى الكون يحمل بين طياته نفس الحق فى الوجود كأى عصفور يغرد أو بقرة تأكل العشب.وما علم التاريخ الا عملية ثقافية، أو وظيفة عالمية يؤديها العالم كله ، ودار عائلية كبيرة تضم قصورا فردية، وموضوعاته النوعية شىء لا حصر له ، ولا يعرف كل موضوع منها الا قلة قليلة . غير أن لكل عصر روحا تقوم بدورها بتحديد ضرب من التواؤم وتوجد انسجاما وتلاقيا بين نتائج الأبحاث التى تبـدو فى الظاهر كأنما تتباعد . ويظهر فى كل حقبة فكرية تجانس فعلى يسرى بين أرجاء الفكر

التاريخي ، وان لم يكن ذلك التجانس مدركا في عقل أي مفكر فرد • والتشاكل هنا وان تجلى في صورة معارف بالغة التباعد تدور حول أشياء بالغة الاختلاف يبدو فيه بالرغم من ذلك ضرب معين من الشمول العلمي أي الاجماع العام (Consensus Omnium) ، وان يكن اجماعا يسمح بوجود أفانين لانهاية لها من المعرفة والرأى • ففي كل حقل منفصل من حقول الدراسة تتجمع نتائج الكدح الشديد في البحث مكونة عددا مماثلا من منارات العلم المتزايدة • ولست أعنى بذلك أن المعرفة بالتفاصيل لاتتحقق قيمتها الا بظهور ذلك الرجل القادر على التركيب والتوليف (Synthesis) الذي يستنبط منها النتائج ، وانما أقصد أن التبادل الدولي لثمرات قرائح العلماء هو الذي يحدد الخطوط التي سيصاغ على أساسها مفهوم حديث التحديد في موضوع تاريخي معين • مثال ذلك ، الأبحاث التي تجرى حول العشور (*) بكل من فرنسا وايطاليا وألمانيا وغيرها من البلاد • ولا مراء أنه توجد حول ذلك الموضوع في جملته معرفة محددة المعالم مضبوطة التفاصيل تعرفها في الواقع قلة ، كما هي متاحة لكل انسان من حيث الممكن والقوة• فماهو المعنى الفعلي المقصود من عبارة « الوضع الحالي للمعرفة » بالنسبة الى موضوع بعينه ؟ ولنفرض مثلا أن الموضوع هو الوزير مترنيخ ، فانه لا مشاحة في أن أحدا لايعرف جميع التفاصيل التي دونها هنريش فون سربيك في كتابه عن «مترنيخ»، حتى ولا المؤلف نفسه فيما يرجح ، ان كان معنى المعرفة هنا استيعاب العقل أو الذاكرة للكتاب بحذافيره • ولكن في امكاننا القول بأن هذا الكتاب بالاضافة الى ما أصدره خصوم سربيك من تعقيبات أورثته التوازن ، يمثل الحالة الراهنة للمعارف الدائرة حول موضوع مترنيخ • من هنا يتبين مباشرة مدى الغموض الذي لابد أن يشمل معنى عبارة مثل قولهم « حالة المعرفة » •

ومن ثم فمتى ما أدرك الناس وجود علم للتاريخ باعتباره روحا موضوعية ، أي شكلا لفهم العالم لا يقوم الا في عقول عدد لا حصر له من الأشخاص يؤخذون مجتمعين ، وهي روح لم يتلق منها حتى أعظم العلماء تضلعا « الا شرارة صغيرة فقط » ، على حد قول رجال التصوف الديني القدماء ــ أقول متى تهيأ ذلك أدى الى نتيجة مشجعة ، غير أن ادراكا من هذا القبيل يتضمن ضروبا من رد المكانة الى الاهتمام بالقديم ودراساته ،

(*) العشور : كل ضريبة قيمتها عشر المحصول وخاصة منها ما كانت تجبيه الكنائس في العصور الوسطى (المترجم) .

وهى الأشـــياء التى نبذها الفيلسوف نيتشه بكل ازدراء بوصفها نوعا منحطا من التاريخ • ولا مراء ان ما يملأ الأنفس ثمن حمية مباشرة تلقائية ساذجة لكل ما ينسب الى الأيام الخوالى من قديم وما يحرك نفس المتذوق للتاريخ المحلى فضلا عن العالم بالأنساب ، ليس فحسب شكلا أوليا للدافع الى المعرفة التاريخية وانما هو كذلك شكل كامل التكوين•انه الدافع المتجه بنا نحو الماضى•والشخص الذى يتحكم فيه دافع كهذا ربما لم يرد أن يفهم الا فلذة صغيرة : علاقة متبادلة تافهة يستخرجها من الماضى ، على أن ذلك الدافع قد يبلغ من العمق والنقـاء ، ويبلغ امتلاؤه بخالص الحكمة مبلغ مالدى الشخص الذى يبغى ضم السموات والأرض الى مجـال معرفته • وفوق هذا أليس أشد الأعمال تواضعا بكاف أى رجل تقى فى عمله على خدمة مولاه ؟

من أجل ذلك لم يعد من الضرورى على الباحث فى التفاصيل تبرير الأهمية العلمية لعمله بالاعتذار عنه بما يتصف به من ســمة تمهيدية • ذلك أن مبرره الحق يقع بموضع أعمق من ذلك كثيرا • فهو يسـد حاجة حيوية ، كما أنه يطيع حافزا نبيلا للروح العصرية • وسواء أأثمر عمله ثمارا محسوسة تفيد منها أبحاث تاليه أم لم يثمر، فذلك امر يعتبر ولو نسبيا ــ ذا أهمية ثانوية • فهو حين يصقل ناحية واحدة بين بليون من النواحى، انما يكشف عن العلم التاريخى القائم فى زمنه • وهو يصـــل الى الربط الحى بين العقل وبين القديم الذى يتســـم بالأصـــالة والامتلاء بالمعانى والدلالات • وهو حين يعالج باجلال ما خلف الماضى من أشياء موات ، انما يدرك رويدا رويدا قيمة صنوف الصدق الصغيرة والحيوية أيضا ، وكل صـدق منها شىء ثمين ورقيق كأنما هو نبات ربى بين جدران صـوبة زجاجية •

وكأننا الآن قد انتقلنا من المزاج التكديسى الى نغمة أكثر تفاؤلا مما قد يفضى بنا الى توقعه ما لموضوع بحثنا من محتوى سلبى • ومن ثم فالتاريخ بخير ، واذن فسيستطيع كل مدع دجالمعدود من المؤرخين أن يعتبر نفسه نابغة صغيرا فى بناء العلم•ويصبحالحال كذلك لو كان كل امرىء عاقلا ، ولم يكن التاريخ خصوصية من خصوصيات المدارس فضـلا عن الحياة ذاتها • واليوم أصبح كل حقل من حقول الدراســة منظمة قومية ودولية هائلة ، وذلك بغض النظر تماما عن صافى المنتج لمناشـط تلك المنظمة ــوهوشأن كلمنظمةـ لايستطيعالتخلص منضغط النسق (System) ومن أثر التحول العام الى الميكنة الآلية ، ذلك التحول الناجم عما لنا من

أوساط عصرية بالغة الكمال تعمل بمنتهى السلاسة · ففي أيامنا هـذه لا يشمل جهاز الدراسة التاريخية مجرد الجامعات بما لها من نظام حلقات التدارس (Seminars) والامتحانات والبحوث ، بل يضم أيضـا أكاديميات العلوم والمعاهد وجمعيات نشر مواد المصادر الأولية أو تنشيط الدراسات التاريخية الخاصة والصحف العلمية وناشرى المؤلفات التربوية والمؤتمرات ولجان التعاون الفكرى الى غير ذلك· وتبغى هذه الوسائل بل تحتاج أن تكون ناشطة مثمرة ، وهى تطالب بالانتاج الدائم وتحتاج الى المـادة التى تعمل بها · فالنسخة المقبلة من الصحيفة التاريخية لا بد أن تملأ ، ولا بد للناشر من اخراج كتب جديدة الى السوق ، ولا بد لمعهد النشر من أن يمضى قدما فى طريق الابتكار · ولا مفر للمؤرخ الناشىء من اظهـار قدراته بمبحث يكتبه أو مقالة ينمقها ، ولا بد لشيوخ المؤرخين أن يظهروا أنهم لم تأخذهم سنة من نوم · والحق أن تلخيص هذا كله فى صـورته الظاهرية باعتباره جهازا لشعبة علمية لا يوقع أدنى ظلم بسمو الفكرة ولا يضر بحرارة الحيوية المتأصلة فى الطموح الذى يضطر الانسان المتحضر قسرا نحو ذلك العلم · اذ ما من ريب أن الحماسة « الجموح » الى المعرفة هى الأساس المتين لكل الأشياء ، التى يندرج تحتها كذلك جهاز علم من العلوم · على أنى أقرر فقط أن انتاج أى علم لا يقوم فحسب على الجهود الفكرية الحرة للعلماء ، فانه لكي يتيسر القيام بتلك الجهود لا بد لها من وسيلة اجتماعية تحملها ، وسيلة يزداد أثرها شدة وفعلها قسرا كلما أتقن العلم وأحكم كماله · ذلك أن الطاحون تدور وتطحن ولا مناص لها من أن تطحن · ولكن ماذا تطحن الطاحون ؟

ومن المعلوم أن مناشط المؤرخ يتألف شطر هام منها ، من التنقيب عن المواد وتنقيتها من الشوائب واعدادها للاستعمال · فهى اذن ليست عملية طحن وانما هى عملية تذرية أو غربلة· فان مواد التاريخ لا تتراءى للأعين المجردة فى ضوء النهار · بل ان مأثور الروايات التاريخية نفسها ليست هى المادة التاريخية بعينها ، اذ هى مما تحتويه تلك الروايات · وثم شىء آخر ، فان السـبيل الموصل بين المادة والمعرفة لا يبدو فقط أطول وأشد ارهاقا فى التاريخ منه فى شعب العلوم الأخرى ، بل ان هنـاك أيضا سبيلا مرهقا آخر بين مرحلة عدم المعرفة وبين المادة · أما فيما يتعلق بعلوم الطبيعيات من حيث عدم احتوائها على عنصر تاريخى ، فان المادة فيها تقدم وتحدد وتكون عرضة للمشاهدة والمراقبة والتنظيم والتجريب· أما التاريخ فان المادة ــ بوصفها أحداثا معينة من ماض معين ــ لا تقـدم

الينا· فهى لم تعد توجد بنفس المعنى الذى توجد به الطبيعة· ولكى يستطيع المؤرخ تصور المادة فى صورة الشىء الموجود لا محيص له من أن يقوم بقدر مضن من البحث والتحقيق ، ينخل به الروايات التاريخية ويغربلها ، قبل استطاعته « الوصول الى معرفة » المادة الغفل لنشاطه : وهى الوقائع · ولاشك أن جميع الظواهر تشير الى ان هذا كله وظيفة تمهيدية ، أو قل عملية اعداد وتسجيل لمفردات فى قائمة ·

واذن فهل كل شىء هنـــا عدا التوليفة النهائية مجرد « دراســـة تمهيدية » فقط ؟ كلا · ففى بحث المؤرخ نفسه ، ان أتقن ذلك البحث ، يكمن نضج المعرفة التاريخية ذاتها · اذ أن تطوير الاستبصار التاريخى وقوة الادراك ، ليس بعملية تترتب على المعالجة المدققة للمادة الغفل ، ولكن التطوير يحدث على الدوام في عملية الحفر ذاتها ، وما تتحقق الاستاذية العلمية فى الأفراد بما يقومون به من تركيب وتوليف بل بجهودهم أيضا فى مجـــال التحليل · فلن يتم تحليل تاريخى حق بغير الدأب وتوليف (Synthesis) قائم فى الذهن · ولا ريب أن امتــلاك البـــاحث فكرة كلية عن التماسك المنظم شرط أســـاسى لا بد من توافره مقدما حتى فى العمل التمهيدى ألا وهو الحفر والنحت ·

وهنـــا تكمن الغلطة · اذ غالبا ما تزاح الأتربة عن مادة لا يحتاج اليها أحد ، وشـــاهد ذلك ما يملأ جراب العلماء بل مخازنهم من المواد المكدسة والمحللة تحليلا ناقدا والتى ترقد فى انتظار من يتولى التوليف · فهناك من المصادر ما ينشر ، مع أنه ليس بالمصـــادر ، وانما هو برك راكدة · ومع ذلك فالغلطة لا تدور حول نشر المصادر فحسب ، بل تدور أيضا حول تحاليل المادة بوصفها موضوعا واحدا يدور حوله البحث · فان الدارس المسكين يبحث عن مادة يجرب بها نواجذ فكره ، فتقذفه المدرسة بقرميدة من المادة التاريخية ·

وغنى عن البيان أن أحسن الروايات التاريخية وأتمها صورة شىء يعد فى حد ذاته غير محدود الشكل · فهى لاتمنحنا جنى التاريخ الا متى وجهت اليها الأسئلة · وليس يكفى فى السؤال أن يهاجم الرواية مدفوعا برغبة عامة فى معرفة كنهها الحقيقى وكيف كانت بالفعل ؟ (Wie es eigentlich Gewesen) ان هذه جملة شهيرة أثرت عن المؤرخ رانكه ، فهمها الناس خطأ وأساءوا استخدامها ، إذ انتزعوها مماقبلها وبعدها من السياق الذى اســتخدمها فيه الأســتاذ عرضا وفسروها على أنها قول مأثور أو مبدأ ــ ولم تلبث حتى أضيفت عليها نغمة جعلت منها برنامجا ، وهو

وضع يتهددها من حين الى آخر بالتحول الى شعار زائف يقوم عليه البحث التاريخي المجدب العقيم • ولا يتمالك المرء حين يسمع منطوق السؤال : ماكنهه الحقيقي وكيف كان (Wie es eigentlich Gewesen)الا أن يتصور أمامه شخصا جالسا أمام حطام اناء للزهور وهو يسأل نفسه كيف كان شكله في الماضي • ولكن القيام بتجميع الأجزاء بعضها الى بعض ليس الا صورة مقبولة للنشاط التاريخي ، شريطة وضع التالي في حسباننا • فالرجل المنشغل بقطع الزهرية المحطمة يكون الكنه والكيف لديه محددا بالفعل في صورة معينة للزهرية حتى ولو كانت الأجزاء مختلطة بغيرها • وبنفس الطريقة لابد للكنه والكيف المستفسر عنه في السؤال الألماني ، ان أريد أن يكون له « معنى » ، من أن تحدده مقدما فكرة أو صورة كلية عن وحدة تاريخية ومنطقية معينة نحاول أن نحددها بطريقة أدق وأضبط • ولا يمكن أبدا أن تقوم هذه الوحدة في شريحة نقتطعها اعتسافا من واقع جسم الحقيقة الماضية ذاتها • فان العقل يختار من الروايات التاريخية عناصر معينة يؤلف بينها ويركب منها صورة متماسكة تاريخيا ، لم تدرك في الماضي حين عاشها الناس •

وهنا مكمن الخطر من الأسئلة المصوغة صياغة غير مرضية ، فالعلماء ينقضون على المادة انقضاضا ، ويشرعون على الفور في تحليلها دون أن يعرفوا حقا ما هم عنه باحثون • وغني عن البيان أن نقطة البدء للبحث التاريخي السليم ينبغي أن تكون على الدوام هي الطموح الى معرفة شيء معين معرفة جيدة بغض النظر عما اذا كان ذلك الطموح يتخذ صورة رغبة في الحصول على فهم فكري دقيق ، أو كان حاجة الى اتصال روحي بحقائق ماضية بعينها • فما لم نضع هدفنا مقدما في صورة سؤال واضح ، فلن تستجيب لنا أية معرفة ، ومتى كان السؤال غامضا ، لم يكن الجواب الا بنفس الدرجة من الغموض على الأقل •

وغموض السؤال هو المخبأ الذي يتوارى فيه الخطأ ، لا في تعمق الموضوع في أغوار التخصص ، فان الجدول اللانهائي الطامي بالدراسات التفصيلية الذي يمر أمام العين ــ غير مقروء ولا مرغوب ــ يصح أن يثير في المرء منا أحيانا تشوقا الى اثارة الجدال والمنازعة حول حدود ما هو جدير بالمعرفة • على أن مرد مثل هذه المضايقة انما هو احساس المرء بعجزه عن التمكن من عالم التاريخ بأكمله • فحدود أحد الموضوعات ليست قائمة في المادة في حد ذاتها ، بل في طريقة استخدام تلك المادة • فان أضيق المؤرخين أفقا لو أن وراءه فئة قليلة تجري مباحثه لديهم مجرى المسألة الحيوية ، لابد أن يشكل عندئذ « نحلة » أو طائفة تاريخية كاملة

التكوين • فأما خارج تلك الفئة القليلة فان موضوعه لن يستثير الا اهتماما بالغ الضعف ، ان قدر له أن يستثير أى اهتمام • بيد أن موضوعه الصغير ذاك لو عولج معالجة أفضل لاتسعت حدود أهميته ووصلت الى دائرة أفسح من الأشخاص الذين أثير اهتمامهم • ولو حدث من الناحية الأخرى أن عولج موضوع ذو « أهمية عامة » معالجة مفرطة فى تفاصيلها ، فان تلك المعالجة قد تقتل بسهولة أهمية السؤال عند معظم الناس •

فكل من له المام جيد بما للمعرفة التاريخية من صفة الامكانية بالقوة لن يضطرب توازنه العقلى اذا هو شاهد وفرة ما بين يديه من الأبحاث المفصلة فى حد ذاتها • ولكن الاضطراب سيوالى ملاحقته نتيجة لاحساسه بأن قدرا موفورا من ذلك العمل ، سواء أدار حول موضوعات كبيرة او صغيرة ، قد تحول الى انتاج لا روح فيه يكاد يكون ميكانيكيا بحتا ، وسيجنح أحيانا ـ وبيده محك ما للتاريخ من قيمة معرفية أعمق ـ الى أن يتنفس الصعداء ، ويعكس المثل القائل : يستطيع عشرة من الحمقى الاجابة عن أكثر مما يستطيع رجل حكيم أن يسأل •

ان التاريخ الثقافى أشد تعرضا لهذا النوع من الغموض فى الأسئلة من التاريخ السياسى والاقتصادى • ذلك بأن مسائل التاريخ السياسى انما تتصف فى العادة بالوضوح المباشر • فان الموضوعات تبرز هنا من تلقاء نفسها • فالدولة مثلا أو اى جزء أو جهاز فيها أو وظيفة لها ، تعتبر شيئا محددا لا يخطئه فهم كل من تقدم لدراستها متخذا منها أداة لأبحاثه التاريخية ، وهكذا الشأن أيضا مع أية مجموعة من الأحداث تقع داخل احدى هذه الكيانات (Entities) • ويصدق الوضع نفسه أيضا على حالة التاريخ الاقتصادى : اذ فيه يكون أى نشاط تجارى وأى شكل من أشكال العمل وأية علاقة اقتصادية ، هى الأخرى موضوعات محددة المعالم وصالحة للمشاهدة والتقصى ، وان تميزت بميزة خاصة هى أنها ـ لكى تروق القارىء ـ تتطلب قدرا من البصيرة والمعرفة الجوانية أكبر قليلا مما تتطلبه الموضوعات السياسية •

على أن الموقف يختلف قليلا بالنسبة للتاريخ الثقافى ، فان هدف التاريخ الثقافى هو الثقافة ، وهذا المفهوم وهو شىء عصرى فى المحل الأول ويكاد يكون شعارا أو كلمة سر (Shibboleth) لزماننا هذا ، سيظل تحديده بالغ العسر دائما • اذ من المحقق أن فى امكان المرء منا أن يضع أسئلة فى التاريخ الثقافى الحضارى يتصف محتواها وفحواها

بوضوح المعالم ، فمتى بدأ الناس يتناولون طعامهم بالشوكة والسكين ؟ وكيف اختفت المبارزة من بين العادات الانجليزية ؟ وفي اعتقادى أن هذه الأسئلة قد صيغت من وجهة النظر المنهاجية Methodologicaly) صياغة أدق ، وجرى تصورها تصورا أوضح من قولهم : ما هو جوهر عصر النهضة ؟ على أن الاجابة عنها لا تنتج التاريخ الثقافى ، وذلك على الأقل بالمعنى الأشد عمقا للكلمة • ولا يمتاز التاريخ الثقافى عن التاريخ السياسى والاقتصادى ويصبح جديرا بذلك الاسم الا بمقدار تركزه على مباحث عامة تكون أشد عمقا • أجل توجد فيه الدولة والتجارة باعتبارها صورا ماثلة للعيان ، ولكنها توجد أيضا حافلة بتفاصيلها ، فأما الثقافة فلا توجد الا كصورة ماثلة فقط • وتفاصيل التاريخ الثقافى انما تنتسب الى حقل الآداب والفضائل والتقاليد والفولكلور الشعبى وآثار الأزمان الخالية ، وهى تفاصيل سرعان ما تنحط بسهولة فتصبح تحفا وعاديات •

ولست أعنى بذلك أن كل عالم متضلع فى التاريخ الثقافى لابد له على الدوام من محاولة الاحاطة الشاملة بالحقل بأجمعه • وهنا يكمن الى حد ما خطر آخر عظيم ، سأعود اليه فيما بعد • ويستطيع المرء متى شاء أن يحس بوجود الأقسام الطبيعية للتاريخ الثقافى ممثلة فى تاريخ الكنيسة وتاريخ الأديان وتاريخ الفنون وتاريخ الآداب وتاريخ الفلسفة والعلوم والتكنولوجيا • وينصح العارفون كل من شاء الالمام بأى فرع من هذه بضرورة دراسة تفاصيله ، على أن تحديد الأهداف لا يزال يتطلب القدر الكافى من الجهود • غير أن نتائج مثل هذه الدراسات التاريخية التخصصية، حتى وان أدت الى ايجاد التوليفات (Syntheses) والى تفسير الأهمية، لاتجعلنا نجتنى التاريخ الثقافى • بل ان تاريخ الطرز والأساليب وتاريخ الفكرات لا يكاد يصح تسميته باسم التاريخ الثقافى بالمعنى الكامل الوافى للكلمة •

ولن تقوم لدراسة التاريخ الثقافى قائمة الا متى اتجه العلماء الى تحديد أنماط الحياة والفن والفكر مجتمعة كلها • على أن أحدا لم يضع صورة لطبيعة تلك الأنماط • فهى لا تتخذ لها شكلا الا وهى تحت أيدينا • ولهذا السبب ــ وهو أن التاريخ الثقافى انما هو الى حد كبير المدى النتيجة المباشرة لما عليه العلماء والمفكرون من روح حرة ــ يحتاج صوغ الأسئلة الى حذر أكبر • فكل سؤال ضعيف الصياغة يقذف بالصورة الى خارج البؤرة (ان صح استعمال هذا المجاز الفوتوغرافى) • كما أنه يبدو أحيانا أن التاريخ الثقافى فى حالته الراهنة منكوب الى حد كبير بالصور المهزوزة لوقوعها خارج البؤرة •

- ٢ -

« ليس لمفهوم التطور الا منفعة ضئيلة فى دراسة التـاريخ وكثيرا ما يكون لها اثر مزعج ومعوق . »

يصيح المؤرخ العصرى الممتلىء القلب بالشـجاعة قائلا : « أسئلة مصوغة صـياغة غير كافية ؟ . وماذا يهم ذلك ؟ أليس لدينا مفهوم التطور والحكمة القائلة بأن من جد وجد greift nur hinein نتخذ منهما حوافز لاستخدام المبضع ، ونحن على يقين بمسيل دم التاريخ من جسد الروايات التاريخية دون أن يهمنا الموضع الذى نحدث فيه القطع ؟ » .

يخيل لكثير من العلماء أن تطبيق فكرة التطور هو الميســم الذى يسمهم بالتضلع فى العلم ، وأنه الخاتم المسلم به لحصول البضاعة على الاستحسان فى السوق العقلية . افلا يذكر القارىء أن أرنست برنهايم يرى أن صحة التاريخ كعلم متكامل الأعضاء لا تتم الا فى حدود تصور الأحداث باعتبارها تطورا ؟ . فان كل قطعة من التاريخ تنطوى على تطور ، وما يكاد المرء يدرك الهدف المؤقت لذلك التطور حتى يحس أن السؤال قد صيغ وأن العالم الاستاذ مستقر على أرض صلبة وأن المسألة انتهت .

وغنى عن البيان أنه لا يخطر ببالى قط أن أنكر صحة مصطلح التطور ذاك ومنفعته للعلوم الانسانية . والشىء الوحيد الذى أريد مناقشته هو أن المصطلح يحدث شيئا من الضرر بسبب استخدامه بطريقة عمياء غير ناقدة وعدم فهم مضـامينه المجازية بالقدر الكافى . ونظرا لأن مفهـوم التطور بصورته غير المحدودة قد تحول عند الناس حين استخدموه الى ترياق شاف لكل العلل ، فان العلاج به ــ شأن كل ترياق ــ وهمى محض.

وقد حدث قرب نهاية القرن التاسع عشر أن خيل للناس أن العلوم الطبيعية بما أحرزت من تطور باهر ، قد أشارت الى الأبد ــ الى المعايير السوية للتضلع الحق فى العلم ، وأنها فرضت من ثم مناهجها على الفكر العصرى بوصفها السبيل الوحيد الى المعرفة الحقة . ومنذ تلك اللحظة أصبح محتوما على أى نشاط فكرى يريد أن يدعى التضلع الأصيل فى العلم ، أن يدرب نفسه سريعا على طريقة الصياغة المضبوطة للمســائل وعلى مناهج مضبوطة . ألم يخطط أوجست كونت بالفعل تلك الطريق ؟ ألم تسلك بعض العلوم ــ مثل فقه اللغة والاقتصاد وعلم الســـلالات البشرية (الاثنولوجيا) ــ ذلك الدرب فعلا ، ثم أليست مدينة كلهـــا بسبب ذلك بما حصلت من تطور باهر ؟ وها قد جاء دور أبعد حقــول

الدراسات عن النسقية في البناء : وهو التاريخ ، الذي هو بمثابة ربة الدار وأم العائلة ، للتخلص مما لديها من أثاث بال ، واعادة تأثيث بيتها على أحدث طراز عصرى • فلتنبذ اذن قمامة التفاصيل ، التي لم تعد لها أدنى قيمة من حيث المعرفة بمجرد أن أدت الغرض منها كمادة تجريبية استخدمت في اعداد مخطط القواعد التي يمكن تطبيقها بصورة عامة •

ولكن ما كاد التاريخ يتأثر تأثرا جديا بمثل هـذه المدعيات حتى دوى صوت هذا الشعار sit ut est aut non sit : « ليكن كما هو ، والا فلن يكون » • فقد قاوم المؤرخون بطريقة شبه غريزية تلك المطالب التي وجهها أحد أفرادهم ، وهو كارل لامبرخت ، الى العلم الذي يقومون على خدمته • وجاءت النجدة من جانب الفلسفة اذ حدث أثناء اشتداد الخصومات حول موضوع جوهر المعرفة التاريخية ، أن فلاسفة من أمثال فلهلم فند لباند ، وهنريخ ريكرت ، وجيورج سيميل ، ممن تأثروا بآراء فلهلم دلتاى في السنوات ما بين ١٨٩٤ ، ١٩٠٥ ، أمدوا لأول مرة النظرية العصرية الخاصة بالمعرفة بالدراسات الانسانية بأساس اختصت به ، وبذا حرروها من كل أثر لتحكم العلوم الطبيعية في معاييرها • فقد أوضح هؤلاء الفلاسفة أن المعرفة التاريخية مختلفة في طبيعتها وتكوينها اختلافا أساسيا عما للعلوم الطبيعية من معرفة ، وأن علم التاريخ محتوم عليه التقلص والزوال التام ما لم يقصر هدفه من المعرفة على التفاصيل النوعية المندرجة تحت الأحداث نفسها ، وأن قصر مصطلح العلم قصرا تاما على المعرفة بالعام معبرا عنها بالتصورات المجردة ، يعد من قبيل المصادرة على المطلوب (*) •

ومنذ تلك المعركة التي نشبت قبل ثلاثين سنة سار التاريخ في سبيله من غير عائق يعوقه ، لا تزعجه أية مطالب منهاجية Methodological لا تستطيع طبيعته تلبيتها • والواقع أن التاريخ لم يداخل جوهره أى تغيير ، اذ أن طبيعة منتجاته ظلت على ما هي عليه • غير أن هذا الثبات نفسه ينطوى على أقوى الادلة على ما لوجوده المستقل من ضرورة كأحد العلوم الانسانية • وذلك أنه اذا كان التاريخ طولب بأن يصبح علما مضبوطا وايجابيا ، فما الذى حال دون تطبيق تلك العملية عليه في مدة جيل كامل منذ أن نفخ في البوق بالدعوة الى ذلك ؟ •

(*) المصادرة على المطلوب : من المغالطات المنطقية المعروفة . (المترجم)

ومن الواضح لدى كل من يوجه أى التفات الى التطورات الحديثة فى حقل نظرية المعرفة (١) ، وذلك حدث فى ألمانيا على الأقل – وهى البلد الذى درست فيه هذه المسائل دراسة التقصى والاستيفاء التام – أن وجهة النظر القائلة باستقلال العلوم الانسانية Humanities تجد من يدافع عنها بيقين أقوى واقتناع أبلغ ومضامين أكثر مما بدا فى اليوم الذى ألف فيه ريكرت كتابه « حدود تكوين مفاهيم العلوم الطبيعية «Grenzen der naturwissenschaftlichen Begriffsbildung بل الواقع أنه يبدو أن القيام بمحاولات جديدة للتقارب انما تجىء فى الغالب من جانب العلوم الطبيعية التى لم تفلت نظرية الضبط والدقة لديها من التعديل فى الحين نفسه (٢) •

وبالرغم من ذلك ، فان وجود تصورات مجردة واضحة عند الفلاسفة الثقافيين تتعلق بطبيعة العلوم الانسانية ، ليس معناه أن أغلبية المؤرخين على علم بتلك الحقيقة • فلو تأمل المرء مصطلح « التطور » بمعناه اليومى الدارج ، لاتضح له أن الأبحاث العلمية فى التاريخ لا تزال بالقطع واقعة تحت التأثير الدائم القوى لفكر العلوم الطبيعية ، وأن التاريخ يرزح تحت أثقال قدر معين من سيادة العلوم الطبيعية عليه ، وأن لغة التاريخ على ما ينطق بها رجاله لها نبرة ليست صادرة من طبيعته وانما تمت الى العلوم الطبيعية بأكبر سبب •

ان فكرة التطور باعتبارها الوسيلة لفهم العالم ترجع أصولها الى حقل الفكر التاريخى أكثر منها الى العلوم الطبيعية ، وقد بدأت الطلائع الرائدة لذلك على يد الفلسفة الفرنسية ابان القرن الثامن عشر • ويعتبر فولتير وتيرجوه وكوندورسيه أول من رأى أن العمليات التاريخية الكبرى ان هى الا تحولات تدريجية أو تغير مستمر ، أى تقدم • وكان هذا الرأى انقلابا صريحا على الفكرة المتسلطة فى ذلك الزمن ، وهى القائلة بان أهمية الكيانات التاريخية ينبغى تفسيرها على أنها شكلت تشكيلا واعيا متعمدا • على أن الفكرة التى تقول بأن المواقف والظواهر الثقافية يلم بها تطور فعال تدريجى غير متعمد ، برزت بقوة وأصبحت أغنى من حيث المحتوى وأعمق من حيث المعنى عند كل من هردر وأصحاب المذهب الرومانسى من

الالمان واخيرا عند هيجل • ولم يلبث مصطلح « التطور » أن حل رويدا رويدا فى النصف الأول من القرن التاسع عشر محل كلمات أخرى مثل التحول والتغير والتقدم • على أن هذا المصطلح ظل فى جملته مثاليـــا صرفا ، لاينطبق على اشكال الطبيعة المحسوسة ، وانما على الفكرات الذهنية المجردة (٣) • وتصور الناس أن مجموعة ما من الظواهر ان هى الا كيانقائم بذات جوهره ومعناه • فأما التغيرات المتعاقبة التى يراها المرء فى حـالة ذلك الكيان ، فكان الناس ينظرون اليها على ضوء المعنى الذى يربطه المرء بالكل مجتمعا • وبذلك اتخذ المجموع الصورة التى يجب أن يكون عليها من حيث التمشى مع ذلك المعنى ، وسميت تلك العملية باسم التطور •

وبعد هذا اتحد مفهوم التطور مع مفهوم « الكائن العضـــوى الحى Organism » ، الذى وجـــد فيه أداة تكمله • كمـــا أن الأصـــل فى الكائن العضوى الحى كمفهوم،ولفظة العضوى مستخدمة كنعت ، لا يعود الى العلوم الطبيعية العصرية (٤)• وانما هو المجاز العريق فى القدم الذى تهيأ له حتى فى الأساطير الميثولوجية والحكايات الخرافية نفسها تحويل تكوين الجســم البشرى الى أشياء مجردة التماسا للتمكن من فهمها • فلو جاز تسمية « الكائن العضوى الحى » بأنه مفهوم أو صورة مجردة ، فان مدار البحث عند ذلك يكون بيولوجيا بدائيا وميثولوجيا • وتتطلب الصورة المجردة لتطور أى كيان عضوى درجة كبيرة من الواقعية اذا أريد لها أن تعمل كأداة معرفية Cognitive ذات كفايـــة • ولابـــد للمرء من الايمان بوجود الكيان الذى يحدث فيه التطور ذو النمو الباطنى • وجلى أن هذا الايمان موجود ضمنا فى المجاز القائل بأن الميول الفطرية هى العـــوامل التى تحدد عملية من العمليات •

ثم جاء فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، النصر العظيم ، الذى أحرزه مفهوم التطور فى العلوم الطبيعية • على أنه لم يستو على عرشه الأبدى الا حين اتخذ شكله البيولوجى العصرى بوصف كونه نظرية التطور الداروينية • وقد خلب مفهوم التطور الداروينى الباب أجيـــال بأكملها ، كما أنه تغلغل فى كل نواحى تفكيرنا • وبلغ من شدة الحاح ذلك المفهوم وبالغ قوته باعتباره فرضا سهلا مسلما به ، أن صار له على الدوام نفوذ تتأثر به عقول الناس عن وعى أو عن غير وعى ، كلما حاولنا بحث مجرى طبيعى للحـوادث من حيث علاقتهـا بعضهـــا ببعض • أما المفهوم الأول الغامض والنظرى للتطور فقد وسعت حدوده الآن بفضل

الناحية البيولوجية للمفهوم . فهو أشبه الأشياء بالصدى الذي يدوي في أبهاء قصر اللاتيران : فمتى رنت النغمة المفردة التي أسموها التغير والتحول وتعاقب المراحل رجع لحنها وتر التطور (٥) . فكل موقف وكل علاقة ــ في المجتمع كانا أم في الطبيعة ــ يعرضان نفسيهما علينا باعتبارهما أولا وقبل كل شيء بعض ثمار التطور . وبلغ من شدة شيوع تلك الكلمة أن أخذت تبتذل . وأخذت تفقد ما لصورتها الخيالية المليئة من مضمون ضخم ، بحيث أصبحت ــ بلا تفكير ــ بديلا مبهما عن العلية الأزلية في صورتها العامة دون وضع المحتوى المنطقي لهذه الفكرة موضع الاعتبار .

وهناك بعد هذا من أنصار مذهب التطور من عرفوا بالمهارة والحذق ومن لا يرون أية ألغاز في التاريخ العالمي ، الذي يقرءونه مجهزا وميسرا في صحيفة الروايات التاريخية ، وذلك لأنهم يملكون في جيوبهم المفتاح الذي يفسر كل فرق بين العصور وكل تداول بين الدول والثقافات . فهم يعمدون دون أدنى رهبة الى دس مفتاحهم السحري العجيب في أقفال الماضي السبعة ، فينجحون ويصلون الى مآربهم . فترى ما يجري في العالم يتحول في أيديهم الى أبسط شيء على ظهر البسيطة . ان هؤلاء هم الرجال الذين يقدمون بكل تفاؤل على الاجتراء على تاريخ البشرية . وينشرونه أمام الأنظار في صورة مهرجان يلقى صيحات الاستحسان العالية . فما أعظم النجاح الذي لقيه من الجمهور العام الكاتب الانجليزي هـ . ج . ولز بكتابه(*) معالم تاريخ الانسانية «Outline of History» ، ومن بعده الكاتب الهولندي هندريك وليم فان لوون بكتابه « قصة البشرية » .. Story of Mankind ، ولكن ماضي البشرية لم يكفهما . فانهما رغبة في الحصول على الصورة الصحيحة الشاملة رأيا أن يمهدا له بتاريخ هذا الكوكب الأرضي وتاريخ الحياة عليه . وهكذا يمتعاننا بحمام البخار الذي تكثفت فيه مادة الأرض . وهي وان بدت فكرة سعيدة موفقة ، الا أنها في الحقيقة سوء فهم لطبيعة المعرفة التاريخية .

* وقد ترجمه كاتب هذه السطور ونشرته بهذا الاسم لجنة التأليف والترجمة والنشر في أربعة مجلدات ضخام . ومع احترامنا لرأي المؤلف نؤكد أنه من أمهات الكتب التاريخية وننضم في الحكم عليه والتقدير له الى رأي أستاذنا المرحوم المؤرخ محمد شفيق غربال وغيره من كبار الأساتذة الذين كانوا يرون هذا الكتاب وعاء ضخما وعي من المعلومات مالا يستغني عنه أي دارس للتاريخ وأنه لا يمكن أن يعد مؤرخا ولا عالما أي انسان احترف التاريخ ولم يقرأه ، مهما علا كعبه فيه ومهما حصل فيه من الدرجات العلمية . (المترجم) .

ذلك أن أحداث علمى الجيولوجيا والحفريات انما المعول فى فهمها هو أداة ذهنية أخرى غير التاريخ ، وهذه الأدلة هي بالذات العلم الدقيق المضبوط المركز البؤرة على نـوع مخالف من المعرفة • ولا ينتج المزج بين الاثنين الا مخلوقا هجينا يربك العقول •

ورب قائل يقول : ان هذه ليست الا المؤلفات الشعبية التى ألفها الهواة ، وهى تزود الجمهـور العـام بما يطلب ، ولكن ذلك ينطوى على التقليل الخطر لقيمة الجمهور العام وأهميته • فان علم التاريخ اذا لم يؤيده سوى هيئة علمية ضئيلة العدد من العلماء ، متوارية عن الأنظار ، يصبح عرضة للخطر : اذ لابد له أن يؤسس على أساس ثقافة تاريخية هى ملك حلال لكل انسان مثقف • غير أن هذه الكتب انما هى شاهد على أن الاهتمام العام بالتاريخ يتعرض لتوجيه مريب فى عصرنا الراهن • وليت الأمر اقتصر على ذلك : فانها تساعد على تحديد طبيعة ذلك الاهتمـام ، وذلك أيضـا بسبب مالها ــ أعنى الكتب ــ من صـفات واضـحة لا تخفى على النظرة الفاحصة • ولكن تقاليد أوربا ورواياتها التاريخية ، لا تزال تقدم الينا ما يبطل فعل تلك الكتب • أما أمريكا ، فان كتابا مثل « العقل فى طريق التـــكوين » The Mind in the Making من تأليف ج هارفى روبنسون ، وهو من عمل مؤرخ للثقافة جاد فى نزعته ، انما يعتبر حتى فى دنيا العلم والعلماء كتابا قيما يحوى بيانا هاما لما فى عصرنا الراهن من معرفة ، وان بنى على نزعة تطورية بالغة السذاجة •

وهناك أيضا كتاب كثر استخدامه هو « المرجع فى المنهج التاريخى وفلسفة التاريخ الذى ألفه ارنست برنهايم (*) ، وقد أسهم بدون ريب اسهاما غير قليل فى نشر فكرة سطحية عن «التطور» بين جمهرة العاملين فى علم التاريخ أجمعين • فان برنهايم كما يعلم كل دارس للتـــاريخ ، يقسم التاريخ الى سردى Referiende ، وتعليمى نفعى Pragmatische وتطـورى genetische تبعـــا لنوع الدافع نحـو المعرفة الذى يولد الرغبة فى التاريخ • وليس هذا مقام الدفع الجدلى العابر بأن مثل هــذا التقسيم ينبغى ان يعد، من أكثر من ناحية واحدة، خادعا وغير منطقى وغير قابل عمليا للاستخدام • ومن حسن الحظ أن فلهلم باور الذى أخـــذ

(*) Lehrbuch der historischen Methode und der Geschichtsphilosophie

عمله الموجز (٦) يحل عند كثير من العلماء محـل برنهايم ، يدرك أن هذه الأشكال الثلاثة المفترضة للدراسة التاريخية لا تعقب احداها الأخرى فى الزمان ولا تتفوق احداها على الأخرى فى النوع • على أنه يحتفظ بذلك النسق على الرغم من هذا ، وقد اتخذ ليبنتز لنفسه أساسا ثلاثيا جعله سببا فى الرغبة فى المعرفة التاريخية : « يطلب فى التاريخ ثلاثة أشياء : أولها ، الرغبة فى تعلم المعرفة بأشياء فردية ، ثم السنن والمبادىء التى تنفع الناس فى الحياة قبل كل شىء ، وأخيرا ، أصول الأشـــياء الحاضرة التى نستخرجها من الماضى » ، وذلك نظرا لأن خير وسيلة لفهم الأشياء جميعا هو تقصى أسبابها (٧)• والنقطة الأخيرة تعكس الينا تماما مايسميه برنهـــايم باســـم « النظرة التطورية الى التـــاريخ » Genetische Geschichtsbetrachtung فهنـــاك على سبيل المثـــال حالات تمت الى « التكوين » بسبب : منها الفكرة التى يعلل بها المتوحش أصـــل الأنواع بواسطة الميثولوجيا (أى علم الرطازات) ، وهناك مؤرخو الحوليات عند اليونان الذين يروون الأنساب ويحكون عن تاسيس المـدن ، وهنـــاك هيرودوت حين يحاول معرفة : « السبب الذى من أجله خرجوا للحرب » ، ويخيل الى أن برنهايم حين جعل فى الامكان التبادل بين التكوين كمفهوم بفكرة التطور قد وقع فى خطأ مزدوج • فانه يخطىء الحكم على القيمةالمعرفية الكاملة للأدوار القديمة للدراسات التاريخية ، ويبالغ فى تقدير قيمة دور الفـكر التاريخى العصرى ، كأنما يتواصل قيـــام الأخير على مبدأ أعلى لم يكن معروفا فى الأزمنة القديمة •

على أن أهم شىء هنا ، أن نفهم بوضوح ما يشمله مصطلح التطور وما لا يشمله عندما يطبق على مسالة تاريخية معينة • ولن ينكر احـــد أن فى الامكان الاستفادة منه فى فهم الظواهر الواضحة المعالم والحدود • فهناك على الأقل منطقة واحدة للتاريخ ، يبدو فيهـــا التطور ــ لوخففت فكرة الطفرات من غلوائه ــ مسيطرا تمام السيطرة : هى تاريخ الملابس • اذ من المحقق أن هذا التاريخ يحتوى نوعا من الانتظام البيولوجى الذى يحدد تطور الأشكال ، غير متـــــأثر بمواهب أى فرد من أفراد المجتمع ولا رغباته ولا مصالحه واهتماماته • والعادة الجارية أن تاريخ نظام من النظم أو شكل من الأشكال التجارية ، أو جهـــد من جهود الدولة يمكن فهمه دون الكثير من الاعتراض تحت « مفهوم التطور » ، وهو نافع أيضا فى تاريخ الفلسفة والأديان والآداب والفنون • ومع ذلك ، فان مفهـــوم التطور حتى فى الحالات التى يـــكون فيها بالغ المنفعـــة ينطبق ــ مع

استخدام أكبر من التحفظ - بصورة أقوى فى المجال الذى يسود فيه بلا منازع: وأعنى ابه حقل البيولوجيا.

ذلك بأن العالم البيولوجى يتصور فى أى كائن عضوى حى أنه شىء مستقل له ميول وراثية معينة ، فهو يتصوره شيئا يتوالد بالانتشار ، فيصبح من ثم خالدا من حيث تركيبه الجوهرى ، وأنه فى ثنايا ما يلم بأعضائه وأشكاله ووظائفه ـ من تحولات نشوئية تطورية نوعية (*) Phylogenetic ـ انما تحدده البيئة التى يعيش فيها • ونتيجة لطول المدة التى استغرقتها العملية التطورية النوعية ، فانه يبدو أن تنوعات هذه المؤثرات الخارجية توازن بعضها بعضا من حيث تماثلها العام وتكرارها ، بطريقة يمكن معها اعتبار عامل البيئة مؤثرا دائما وسويا يسير متناغما مع الظروف الداخلية الداعية الى « التطور » فى اتجاه معين • على أن المرء ما يكاد يتأمل دورا منفردا من أدوار عملية تطور النوع من ناحية صفته التطورية الفردية (أى بعبارة أخرى بمجرد نظرة الى الموضوع البيولوجى من الناحية التاريخية) حتى يتبين له أن هذا الوضع لم يعد صحيحا • وعندئذ يتجلى المجموع الكلى لجميع المؤثرات الواردة من الخارج ويبرز نفسه فى صورة مجموعة متتابعة ومتفاوتة من الاضطرابات الكبرى والصغرى التى تلم بحالة الكائن العضوى ، وهى الاضطرابات التى تلغى فى الواقع الاستقلال المنعزل أو التماسك الداخلى الذى يتصور المرء منا عادة وجوده فى أى شىء • وعلم الأحياء يتجه من ناحيته المنهاجية فحسب ، الى أن الكائن الحى ينبغى أن يعتبر شيئا منفصلا عن بيئته ، ويذهب كذلك الى أن الاعتماد المتبادل بين الشىء وبيئته ليست له الا أهمية رمزية وأنه ينبغى اعتبار تطوير الشىء عملية علية مغلقة • وثمة شىء لابد من اهماله ، هو أنه ليس هناك بين البلايين من المؤثرات الخارجية واحد لو أخذ بمفرده لوجد مرتبطا ارتباطا عاليا بالممكنات التطورية للكائن الحى •

والظاهرة التاريخية لا تتيح لنا أن نحددها تحديدا تصوريا فاصلين اياها عن بيئتها فصلا تضمن لها معه السلامة من الضرر • فان هى عوملت على أنها شىء بيولوجى بالطريقة التى وصفناها لتونا ، انتقمت لنفسها على الفور • اذ أن الدراسة المنهاجية تنهار عند ذلك • لأنه اذا

(*) التطورية النوعية : هى الخاصة بتطور النوع جملة • والتطورية الفردية (Ontogenetic) : هى المتعلقة بتطور الفرد •

(المترجم)

كان في امكاننا أن نحدد تحديدا موضوعيا ماذا تكون المعطيات Data التي تكون « الفار » بوصفه ظاهرة فليس في امكان المرء أن يحدد موضوعيا أى المعطيات التاريخية ينتسب الى الظاهرة المسماة بالاصلاح الديني وأيها لا ينتسب • وهذه الاستحالة ليست ضمنية في الطبيعة المجردة للظاهرة ، بل هي في النظرة التاريخية اليها • وهو أمر يصدق على أى فرد تاريخي حقيقي صدقه على أى مفهوم عام • فلو أخذنا لوثر على أنه مثل للنوع البيولوجي المسمى « الانسان » لوجدناه محددا تحديدا دقيقا ، أما لوثر كظاهرة تاريخية فهو بعيد عن التحديد بل هو غير قابل للتحديد شانه في ذلك شان « حركة الاصلاح الديني » سواء بسواء •

والآن فليس في الإمكان مقارنة هذا الشيء بالشيء البيولوجي حتى ولا من ناحيته التطورية الفردية • كما أن من المحال تماما على التاريخ الانتقال من الناحية الفردية لاحدى الظواهر الى الناحية التطورية النوعية ، واذا تصور المرء كائنا تاريخيا مستديما على كر العصور ، كالرجل الفرنسى مثلا ، فان الفكرة الخاصة بذلك ، وهي التى لايمثلها أى فرد أو أى شيء بمفرده الا تمثيلا ناقصا ، انما تكمن في جماع الظاهرة المتضمن فيها بأكمله ، على حين أن فكرة الكائن البيولوجي المتمثلة في « الفار » تتحقق في كل فار على حدة • وعندما يعد المرء كائنا تاريخيا كهذا مستديما على مر العصور « كائنا عضويا حيا » ، فالواقع أنه عندئذ يستخدم مجازا من مجازات الشعر • ولا اعتراض على هذا من وجهة نظر العلم والعلماء ، بل الواقع أن العلماء لا يستطيعون الاستغناء عنه ، وذلك لأن اللغة نفسها تزدهر وتثرى بتلك المجازات •

فاذا انتقل المرء خطوة أخرى وأضفى على كائن عضوى تاريخي كهذا ميولا فطرية توجه تطور ، فانه يكون كمن غاص الى ركبتيه في مباحث فلسفة العلة (Teleology) • وذلك لأن كائنا عضويا كهذا على عكس أى كائن عضوى بيولوجي ، لا يعتبر متماسكا الا بقدر ما له من هدف • ومع ذلك فليس لدينا من اعتراض نعترض به على ذلك : فالتاريخ طريق غائي (نهائي) للفكر بكل معنى الغائية ـ وذلك لأن الشيء الوحيد الذى تسمح به عقولنا هو وضع تفسير غائي لمجرى التاريخ • ومع ذلك فلو حدث أن محك البيولوجيا طبق على هاتين الفكرتين الشكليتين : « الكائن الحى التاريخي » و « التطور والارتقاء التاريخي » ، لظهر على الفور أن الفكرتين مشوهتان بل مفتعلتان قسرا في واقع الحقيقة • ورغم ذلك يتبادر الى أذهاننا السؤال التالى : ألم تحتفظا على ذلك بقدر كاف من القيمة العملية للتاريخ لانحتاج معها الى نبذهما ؟ • الواقع أنه بالتحليل

الكامل يتجلى أن ذلك يعتمد على السؤال التالى : الى أى حد لا يزال التطور ـ كمجاز ـ قابلا للتطبيق وقادرا على احداث أثره ؟ •

وقد أسلفنا لك أن الظاهرة التاريخية هى فى حد ذاتها أقل قابلية للتحديد والفصل عن بيئتها من الظاهرة البيولوجية بكثير • وما نابليون الا ظاهرة تاريخية لو نظر اليه فى العالم الذى عاش فيه • ولا يستطيع المرء أن يفكر فى ذلك العالم بغير وجوده اطلاقا ، حيث يتعذر عليه أن يعزله جزئيا باعتباره تاريخيا حيا ، على نفس الشاكلة التى يعزل بها الى حد ما « الفأر » ككائن عضوى ، فى احدى التجارب التى ترمى الى دراسة أثر نوعى محدد داخل اطار علاقة مغلقة • ويصدق ذلك أيضا بنفس الدقة لو أننا بدلا من نابليون تناولنا مفهوما عاما كمفهوم « الرجل الفرنسى » مثلا • وغنى عن البيان أن كل علاقة تاريخية تظل على الدوام علاقة مفتوحة • ولن يعنينا فى كثير ولا قليل ما قد أحصيه من الظروف والدواعى التى أدت الى قيام نابليون بحملته على روسيا ، فان العلاقة التاريخية التى أميزها عندئذ لن تبرح على الدوام مفتوحة لاضافة أفكار جديدة بمجرد أن يبدأ عقلى فى استنباطها • ذلك أنه ليس هناك اية كائنات عضوية تاريخية مغلقة •

وعلى الرغم من ذلك ، فاننا حتى لو فرضنا أن من المرغوب فيه النظر الى الدول والثقافات بوصفها كائنات عضوية حية بالمعنى التقريبى الذى يجوز به ذلك الفرض ، فهل يكون هناك أى معنى للحديث عن تطور الميول الفطرية ؟ على أن البيولوجيا من الناحية الأخرى تستطيع الى حد ما التمييز بين تحقيق الممكنات الفطرية وظهور المؤثرات الخارجية المعوقة التى تضر بعملية « التطور » • ولو أخذ هذا التمييز بالدقة اللازمة ، فانه هو نفسه لا يجد أساسه العقلانى Rational الا فى وجهة النظر القائمة على مباحث الفلسفة الغائية (*) • ومع ذلك ، فان هذا الحد الفاصل بين الأمرين على ما يشوبه من عيب لن يستطاع اتخاذه على الاطلاق فى حالة الظواهر التاريخية • وذلك لأنه فى كل احتكاك بين انسان وانسان ، وبين الإنسان والطبيعة لو نظر الى أى شىء نظرة تاريخية لاعتبر مؤثرا واردا من الخارج • فكلما تلاقى عنصران فى التاريخ أى كلما حدثت فيه واقعة ، تلاقت معا أعداد لا تحصى من المؤثرات التى لا علاقة سببية بينها • فان الخط العلى الصاعد الذى جعل الأمير وليم

(*) الفلسفة الغائية (Teleological) الفلسفة القائلة بأن كل شىء مقصود به غاية معينة . (المترجم)

أورانج الثاني يزور ديرين في سبتمبر ١٦٥٠ والخط الذي جعل ڤيروس الجدري الفتاك موجودا هناك في ذلك الوقت نفسه بالضبط ، لا يلتقيان أحدهما مع الآخر الا في حدود المحرك الأول Primemover فكل مؤثر يجيء من الخارج انما هو عامل يباعد الشيء عن موقفه السابق والعالم البيولوجي الذي يعد ذلك من ناحيته أيضا أمرا صحيحا من حيث الأساس ، مستطيع أن يعد المجموع الكلي لهذه المعوقات عاملا واحدا في الناحية التطورية النوعية Phylogenetic وذلك نظرا لما هي عليه من تشابه وثبات • فهو يعتبر قيام بعض الظروف الثابتة المعينة شرطا جوهريا لوجود الكائن الحي • غير أن المؤرخ لا يستطيع أن ينحو ذلك المنحى • ذلك أن كل مؤثر يعد عنده داعية للتعويق • ونتيجة لذلك يكاد مفهوم التطور أن يصبح أداة تثبيت ذات قيمة مشكوك فيها •ومما يوضح لنا هذا الرأي ، أن نتصور قيام دراسة لحضارة المكسيك أوبيرو • فان أحدا لن يعد وصول بيزارو أو كورتيز (*) عاملا في ذلك التطور : بل الواقع أن وصولهما هو الكارثة التي وقعت على رأس تلك الظاهرة بأكملها (٨)• ورغم ذلك فان تلك الكارثة لا تختلف في الواقع الا من حيث الكم عما لا حصر له من الأحداث التي حدثت قبل ذلك « تطور » هاتين الحضارتين فهما بدورهما يعتبران نقطة الدوران أو تغيير الاتجاه ان لم يكن السبب هو كارثة نجمت عن شيء سبقهما • فكل تطور تاريخي لا يخرج عن كونه نتيجة لنقط دوران أو اتجاهات جديدة ، وهي تنوعات تحدث في كل لحظة مفردة •

وفي مستطاع المرء منا بسهولة التحدث عن تطور النظام السياسي بانجلترا أو السويد أو الأقاليم الهولندية المتحدة • ونحن نستطيع أن نترسم في كل من هذه الدول الثلاث على كر حقب التاريخ ، العلاقة بين السلطة المركزية والأرستقراطية وهي تترجح في تعاقب يكاد يتصف بالانتظام • فما يكاد يجيء حكام أقوياء يعززون السلطة المركزية ، حتى يعقبهم خلفاء ضعاف أو عديمو الأثر أو يخلفهم انهيار تام للسلطة المركزية بحيث استطاعت الارستقراطية المرة بعد الأخرى ، استرداد مواقعها على حساب تلك السلطة • ونتيجة لذلك نشأ من توازنات القوى ما قد يميل المرء الى تسميته بثمرات التطور • على أن الواقع أن كل واحد من هذه التغيرات جاء نتيجة لظروف تعد عرضية بالمنسبة الى ذلك الكائن العضوي الحي المزعوم الذي أثرت فيه (٩) • مثال ذلك أنه لم يكن من المفهوم ضمنيا

(*) هما الفاتحان الاسبانيان اللذان دمرا هاتين الحضارتين .
(المترجم)

فى أى اتجاه يذهب اليه القانون الدستورى الانجليزى ، أن يكون كل من وليم الفاتح وهنرى الثانى وادوارد الأول وادوارد الثالث حكاما ذوى براعة وكفاية يتولى كل منهم الحكم مدة طويلة نسبيا ، وأن تعقب كلا منهم مدة من الحكم الضعيف السيئ نتيجة لعجز حامل التاج وقلة اقتداره • وهناك بالمثـل معوقات خارجية مثـل الوفاة المبكرة التى لقيهـا جوسـتافوس أدولفوس وشارل العاشر جوستافوس وماترتب عليها من وصاية على العرش• وفضلا عن ذلك ، فان الوفاة المبكـــرة التى ذهبت برئيس الجمهـــورية الهولندية وليم الثانى وانقطاع نسل وليم الثالث واختفاء جون وليـــم فريزو من الميدان وهو المرشح لرئاسة الجمهورية ووفاة وليـــم الرابع ، أحداث لا علاقة لها بطبيعة الجمهورية الهولندية • ولا مراء أن كل حقيقة من حقائق الانساب هذه تعد معوقا خارجيا • ولكل منها أثر هام فى عملية تطور الدولة التى تأثرت بها • ولو أخذت هذه الأحداث مجتمعة ، لأوشكت أن تومىء الى وجود ضرب معين من الحركة المنتظمة المقيدة ، وهى ظاهرة مترجحة قد تغرى مؤرخا مهملا غير مكترث بصوغ قاعدة تنص على أن تطور أى نظام سياسى يحدده جزئيا التعاقب المتبادل بين فترات قوة السلطة وضعفها بصورة يمكن توقعها مع قدر معين من الانتظام • وعندئذ يبقى ذلك المؤرخ وهو أشبه الناس بالممسك بقشرة البيضة الفارغة ، على حين يلوح غيره كمن يلوك نصف بيضة المعرفة الحية• ولا حاجة بنا أن نقرر أن القيمة المنطقية لمفهوم كهذا عن « التطور » هى العدم أو أقل من العدم ، وفضلا عن ذلك ، فان قاعدة من هذا القبيل لن تحمل باعتبارها معلومات تاريخية ، ولن تصلح للاستعمال على الاطلاق •

وبناء على هذا ، فلو طبق على التاريخ مفهوم التطور بالمعنى البيولوجى لأصبح معوقا ينحرف بنا عن الفهم الصحيح • فهو فى صميم ذاته لايصل الى حد الاقناع الكامل • بل انه لو حدث أن أقفـــل المرء احدى عينيـــه التاريخيتين اقفالا محكما ، لظل ذلك المفهوم ذا أهمية محددة ومشروطة • ولو أخذناه بمعناه المجازى الكامل لوجدناه غير قابل للاستعمال تقريبا • وليس لادراك ذلك من معنى سوى عدم امكان الاستغناء عن الحقائق النوعية فى تفسير أى فلذة صغيرة من فلذات التاريخ •

ولن نبحث هنا ـ تمشيا مع اتجاه شبنجلر ـ فيما اذا وجب التخلى عن تطبيق كل تفسير على ونبذه مع مفهوم التطور فى صورته الدقيقة • فمن المعلوم أن مبدأ العلية يمر فى هذه الآونة فيما يشبه الازمة من حيث موضعه فى نظرية المعرفة • ويلوح أن المبالغة فى التضييق على استخدام ذلك المبـدأ باعتباره أداة ادراكية انما يتمشى مع شىء من رد الاعتبـار

الى ما ينسب الى أرسطو والمدرسانيين (الاسكولائيين) من التمييز القديم بين « العلل المادية والمحركة والغائية » (*) • ومهما يكن الأمر ، فان المعرفة بمعناها التاريخي قلما دلت على الاشارة الى وجود علية مغلقة اغلاقا قاطعا • اذ المعرفة على الدوام ان هي الا فهم للعلاقات والقرائن المسماة بالسياق • وفي رأيي على الدوام أن هذا السياق مفتوح دائما ، ومعنى ذلك أنه ربما لم يمثله أبدا مجاز الحلقات التي تؤلف احدى السلاسل ، ولكن تمثله فقط صورة حزمة من العصي مربوطة ربطا غير محكم ، ويمكن اضافة أغصان رفيعة جديدة اليها ماذام الحبل الملفوف حولها يتسع لذلك• ولعل التمثيل بباقة من الزهور البرية أنسب من التمثيل بحزمة العصي • فان الفكرات الجديدة التي تضاف الى المعنى الكلي الذي يحتويه سياق تاريخي انما تشبه في تنوعها وتفاوت قيمتها أزهارا جديدة ضمت الى باقة الزهر : فكل زهرة جديدة تغير من شكل الباقة بأكملها •

- ٣ -

« تكابد ثقافتنا المكروه ان وقعت كتابة التاريخ التى تقصد الى جمهور أكثر عددا ، فى يد كتاب يسوقون التاريخ فى صورة جمالية عاطفية ، تدفعهم اليها حاجة ادبية ، وتعمل بوسائل أدبية ، وتهدف الى تاثيرات أدبية • »

ليس بين العلوم علم يفتح الأبواب على مصاريعها للجمهور العام كالتاريخ • وليس بين العلوم الاخرى ما يتم فيه التحول التدريجى من الهاوى صاحب الفراغ الى المحترف بمثل ما يحدث في التاريخ • كما أنه ليس ثم شيء لا يحتاج الا الى القدر الضئيل من الدراسة التمهيدية المنطوية على التضلع في العلم مثل التفكير التاريخى والنشاط التاريخى • ذلك أن التاريخ أرسخ على الدوام تأصلا في الحياة منه في المدرسة • بل ان النظام المدرسانى (الاسكولائى) فى العصور الوسطى لم يفسح للتاريخ مكانا ، اذ أنه تولد عن تاريخ القسم الأحدث من العهود القديمة • فالفنون الحرة السبعة والدراسات الكبرى الثلاث التى توجت تلك الفنون : اللاهوت والقانون والطب ـ هى الجذع الذى انبثقت منه معظم الفروع العصرية

(*) العلة المادية : هى المادة التى يتشكل منها شيء •
والعلة المحركة : (أو الفاعلة) هى ما يدفع المادة الى التشكل . والعلة الغائية : هى الغاية أو الغرض الذى من أجله يعمل شيء (المترجم)

للدراسات أثناء احدى عمليات التفريع والتخصص · وليس التاريخ كذلك فالتدوين التاريخي ينبجس كلما صار لأحد الأدوار الثقافية مركزه الروحي · في ساحة السوق مثلا أو في مبنى الدير أو في بلاط ملك أو خيمة قائد أو في غرفة انتظار أو دار احدى الصحف · وهنا تتجلى حقيقة ثابتة ، هي أن دراسة التاريخ لم تكد ترتبط يوما ما بالفنون الحرة ، وهذا معناه أنه لم يلق الا أضعف أنواع التمثيل والعناية في الجامعات حتى بعد العصور الوسطى ، ذلك لأن نظم التعليم بها ظلت حتى أمد قريب متأخر في القرن التاسع عشر ، قائمة على نماذج العصور الوسطى وطرائقها · فمنذ بداية عصر الحركة الانسانية الى الحركة الرومانسية لم ينبغ بين مشاهير المؤرخين الا عدد قليل من رجال الجامعة الاكاديميين · ولا يكاد المرء يعثر على انتاج جامعي وحيد بين الاعمال التاريخية الكبيرة في تلك العصور ولا تزال شخصية السياسي المؤرخ تظفر في انجلترا بقدر غير قليل من الأهمية ·

على أن القرن التاسع عشر قد أحدث تغييرا ضخما في الطريقة التي يدرس بها التاريخ ، فأوجد تبعا لذلك تغييرا بنفس الدرجة من الضخامة في طبيعة العلم التاريخي بأكملها · فمنذ نهاية القرن الثامن عشر أصبح التضلع العلمي بصفة عامة مقوما من مقومات الثقافة، والمجتمع يشارك في بنائهما بأكثر مما كان يشارك قبل ذلك · اذ أنه رسخ لنفسه متطلبات أدق وأعلى، متطلبات لا يمكن مواجهتها الا بالدراسة في مهاد العلوم الحقة : الجامعة · منذ تلك اللحظة أصبح التاريخ علما أكاديميا · وغني عن البيان أن البلد الذي دفعه الى ذلك المقام العلي ، وأعني به المانيا ، قد أنتج بغير منازع أكبر عدد من المؤرخين ذوي الأهمية في القرن التاسع عشر ، وكلهم من الأكاديميين .

غير أن هذا التحول نحو الجامعة لم يلغ اتصال التاريخ بالحياة الثقافية · وبحسبك لاثبات ذلك أسماء مثل رانكة وفروين Fruin . ولا شك أن التغير ربما تحول الى الاتجاه الأسوأ لو أنه ألغى ذلك الاتصال (١) ، اذ أن التاريخ الذي يعمل بغير اتصال حيوي بالثقافة القومية ، والذي لا يحظى بالاهتمام المتشوق الشغوف من الجمهور المثقف لا يسلك السبيل الصائب ما لم يكن العيب في انحلال الحياة الثقافية ذاتها · ليس معنى هذا أن كل بحث من البحوث التاريخية ينبغي ضرورة أن يؤدي الى أسلوب شعبي في عرضه للعلم · بل الأمر بعيد عن ذلك كل البعد · ففي التاريخ شأن كل علم آخر · لابد أن يوجد عمل ينبغي تركه تماما للمتخصص ، وليس بالقارىء العام حاجة ولا رغبة الى معرفته ،عمل

يحس القارىء العـام بانه تعوزه الأداة الذهنية اللازمة له ان هو بسط اليه يدا ‥ اذ من المعلوم أن البحث والغربلة الناقدة والنشر والتأويل والتوليف Synthesis تظل دائما مجال العمل للعـــاملين جيدى التدريب فى حقل العلم ، لا ينازعهم فيه منازع • بيد أن ما للماضى من صورة ضخمة تكمن خلف ذلك العمل كله أو تحوم فوقه انما هى قطعا من اختصاص كل انسان • وقيام كل شىء باعباء عمله باعتبار ذلك أداة للثقافة ، أى الأداة التى تعلل بها الثقافة ماضيها ، لا يمكن أن يتم الا على يد علم تاريخى يجد مجاله ولوحة رنينه (*) فى الحياة عموما وفى عصرها نفسه • فان الشرط الأساسى لاستكمال اى حقل للدراسة أسباب نموه وامتلائه بالقوة ينبغى أن تتقبله وتساند الثقافة التى تغذوه •

ولكل ثقافة درجة معينة من الانغماس فى الماضى تعد شرطا أساسيا لحياتها • ففى كل حضارة من الحضارات مفاهيم معينة عن حقيقة العالم كما تصورها قدماؤهم ، وهى مفاهيم تعتز بها الجماعة البشرية التى كانت تقيم تلك الحضارة • وعلى الرغم من أن مثل هاته المفاهيم تتخذ بالضرورة أشكالا متنوعة ، الا أنها تفعل ذلك دون أن تتلف صفتهـــا المشتركة باعتبارها قائمة بمهمة «التاريخ» للثقافة التى تنتج تلك المفاهيم • وهى اذ تعتمد على طبيعة الحضارة التى تحتاج الى أخيلة تستمدها من ماضيها وعلى البؤرة الذهنية التى انبثقت منها تلك الأخيلة ، فان تلك المفاهيم تتخذ صـــورة الخرافة والأسطورة (Myth) والساجا والخبر التاريخى Chronicle وقصة المغامرة Geste والأغنية الشـــعبية التاريخيـــة والثقافة التى تتطور فيها تلك الأشكال ، وهى الثقـافة التى تقـوم هذه الأشكال على خدمتها ، تعتبرها جميعا الى حد معين تفسيرا لما «حدث فعلا» فهى لا تسد حاجة حيوية فحسب ، بل تسد أيضا حاجة ماسة الى معرفة الحقيقة • فان مات الايمان بصدق ما ترويه ، دل ذلك على أن الفترة التى تنتجها قد ولت ، حتى ان أمكنها أن تطيل حياتها قرونا باكملها فى صورة بقايا مخلطة Pastiche أو حتى باتخاذها ظاهريا هيئة العودة الى الحياة • غير أن هناك أخدودا عميقا يفصل بين أشكال الخيال القصصى المصوغ عن وعى متعمد كقصيد للرعى والرعاة والقصص الرومانسى وبين الأشكال سالفة الذكر • ولو أنك وازنت بين ما كتب فى فرنسا عن موضوع قصص المغامرة وبين ما كتب فى بريطانيا حول الرومانس الاصيلة ، أوجدت

(*) لوحة الرنين : جهاز يركب لحمل صوت الخطيب الى جمهوره •

(المترجم)

الثقافة خطت خطوة هائلة تعادل خطوة تريثيكراما ، الذى تروى الأساطير أنه قاس ذرع السماوات والأرض فى ثلاث خطوات • وكلما قل تطــــور الثقافة التى تتحقق فيها تلك الاشكال كشفت هذه الأشكال عن روابطها• اذ هى جميعا بدورها «فلسفة خلقية فى حركة وعمل» Morale en action والأشكال بالنسبة لثقافتها المعينة تعتبر «تاريخا» لها بقدر ما تستطيع الصورة التى تقدمها أن تفسر لنا طريقة الادراك التى كانت طبيعيـــة بالنسبة الى تلك الثقـافة • ولذا كانت الأسطورة دائمـا صورة للحياة الفكرية البدائية أكثر منها أدبا بدائيا •

والآن لم يعد شكل الادراك الذى تستخدمه الحضارة العصرية فيما يتعلق بالماضى هو الأسطورة ، بل هو الدراسة العلمية الناقدة • أما الثقافة العصرية التى تقنع بالمعانى الأسطورية (وهو ما تفعله تلك الثقافة فعـــلا كل يوم) فانها ترتد الى ضرب من الخداع الذاتى الطفولى • وعندما تتظاهر بالايمان بالتأويلات التاريخية التى نعرف أنها مما يدخل فى عدادالرخص الشعرية ، فاننا نشبه على أحسن الأحوال ذلك الأب الذى تمثله مجـــلة بنش Punch الكاريكاتورية وهو يلعب بقطارات ابنه الصغيرة •فالدراسة العلمية الناقدة انما هى الشكل الوحيد لفهم الماضى ، أعنى الشكل الوحيد المناسب لثقافتنا ، لأنه هو نتاجها الناضج • ولكن لو شاء المتخصص تزويد ذلك النتاج النبيل بقيمته الثقافية الكاملة فلن يكفيه أن يعـرف ما فى حرفته من حيل • ذلك لأن العلاقة بين ثقافة ما وبين معرفتها بالتاريخ تزداد مرضاتنا بهـا بقدر ما تزداد نســـبة عــدد أعضـــائها المثقفين وقدرتهم على الاستمتاع بالنتاج المهذب لدراستها التاريخية •

وبناء على ما تقدم ، يتبين أن ثقافتنا تضع «كيف» المعرفة التاريخية فى المكان الأرفع عندما تنجح الدراسة العلمية فى تزويدنا بنتاج صفاء النقد العلمى ، قوامه قيمة للحياة واضحة تماما ، بحيث يتقبلها الجمهور المثقف ثقافة عامة ويرغب فيها ويتفهمها • فكلما زاد عدد القراء الذين يلتمسون التاريخ الجاد ، دون أن يفزعهم منه ماطبع عليه من بالغ الواقعية وما فيه من سرد متزن علمى خالص ، زادت قوة الشواهد على سلامة تلك الثقافة وعلى صحة الأسلوب الذى يؤدى به المؤرخ مهام حرفته • ومن الناحية الأخرى ، اذا كانت كليون (clio) الهة التاريخ لا تســـتطيع الى عملائها وصولا الا بالتخفيض قليلا من المستلزمات عليها بوصفها شكل الادراك المناسب للزمان ، فان هناك اذن عيبا فى كل من الثقافة والحركة العلمية على السواء •

غير أن من العسير الزعم بأن الموقف الأمثل الذى افترضناه منفورنا يقوم فى أيامنا هذه ، بل ربما صح أن نسأل : هل الظروف اللازمة له صادفت استجابة أفضل قبل زمننا بجيل أو جيلين ؟ وهو سؤال لايمكن البت فيه بتقديم تأكيدات عامة • فلو نظر الى الطلب على التاريخ نظرة سطحية ، لبدا أعظم مما كان فى أى يوم من الأيام • ذلك أن من أعظم الكتب رواجا فى السوق ، ما يصدر من كتب التاريخ فى هيئةشعبيـــة منطويا على التركيز على الثقافة والفنون ، ومحلى بالعدد الجم من الصور والرسوم • وقس على ذلك تلك الكتيبات الموجزة التى تدور حول أىفرع ثانوى بعينه ، والتى تطبع فى قطع صغير وتصدر فى سلسلة ، وكثيرا ما تدبج تدبيجا ممتازا على يدى أكفا المؤلفين • وهناك بعد ذلك المذكرات والتراجم وكتب التاريخ المحلى الى غير ذلك • على أنه يبدو من الناحية الأخرى ، أن أهم الشخصيات المعاصرة فى حقل الدراسات التاريخية فى ثقافتنا لم تعد لها نفس الأصوات الجهيرة التى كانت لزملائهم قبل زماننا بقرن • الم يكن صوت ميشليه (*) أو ماكولى (**) يدوى رنانا أكثر من أى صوت تسمعه الآن ؟ أم أن الأمر مجرد وهم يتراءى لنـا ؟ الحق ان السبب فى هذا الضعف النسبى فى الجهارة ربما رجع جزئيا الى ما ألم بالتوزيع الأوركسترالى للثقافة من تغيير • فان ما للكلمة الصـــغيرة من انسجام هارمونى قد تزايد على الدوام ضجيجه وانتشاره وانعدام شكله وتبدده وتقطعه ، بحيث صار من العسير تتبع الجزئيات المنفصلة • ففى كل حقل من الحقول غدت الأصوات العظيمة أكثر ضياعا فيما للمجموع من لحن عام •

على أن هناك بعد ذلك ظرفا آخر منفصلا تماما يجعل من العسير على علم التاريخ ملء وظيفته العليا بالنسبة للثقافة • وذلك الظرف هو منافسة الأدب له • أجل ان الأدب فى حد ذاته ليس بأية حال منافسا حرم سجية الولاء ، ولكنه شأن البحث العلمى شكل ادراكى عرفانى للثقـــافة التى تنتجه • وليس من وظيفته انتاج القصيد الجميل والقصص الممتع ، بل

(*) ميشليه (جول) (١٧٩٨ — ١٨٧٤) مؤرخ فرنسى ، عين أستاذا بالكوليج دى فرانس وأصدر من امهات الـكتب : « مدخـل الى التـاريخ العـام » وتاريخ « الثورة الفرنســية » الخ (المترجم) •

(**) لورد ماكولى (١٨٠٠ — ٥٩) مؤرخ انجليزى أديب وكاتب مقـــالة ممتاز وسياسى ، مقالاته الادبية رائعة ، وكتابه « تاريخ انجلترة » يعد قطعة من الادب الرفيع على عيوب احتواها . (المترجم) •

تقريب العالم الى افهام الناس ، أى تقريبه الى أفهامهم باستخدام وسائل مخالفة لتلك التى يستخدمها العلماء ٠ ولننظر الآن الى فهم العالم ، فنقرر ان اليوم والأمس لا يمكن التمييز بينهما ولو الى لحظة واحدة ٠ أجل ان اليوم لا يمكن أن يصبح « أمس » ، اذ أنه هو « أمس » ٠ ونتيجة لهذا فان مادة الأدب اللدنة القابلة للتشكيل ظلت على الدوام عالم أشكال يقوم اساسا على التاريخ ٠ والأدب حين يستخدم مثل هذه المادة لا يرتبط بمستلزمات البحث العلمى ٠ وليست أشكال ذلك العالم لديه سوى عناصر يستخدمها Motifs ٠ والنتاج الأدبى انما تكمن قيمته فيما للأشكال من أثر تمثيلى أو رمزى ، وليس فى الانشغال البالغ « بالاصالة » ٠ أى المصادقة للواقع و « الكيفية التى تم بها الأمر حقا » ٠ من أجل ذلك يفضل الأدب ان يخلق شخصياته امن عالمه الخاص فى حرية مطلقة ، ولا يختارها من « التاريخ » الواقعى الحق ـ أى من عالم الماضى ، وقد نظر اليه على أنه « ما قد حدث حقا » ـ الا بين حين وآخر لأسباب خاصة ٠ ويتولى الأدب على الدوام حل ألغاز عدد من العلاقات الكونية أو البشرية التى لا يستطيع البحث العلمى تفسيرها ، أو قل لا يكلف نفسه مؤونة الشروع فى تفسيرها ٠ على أن قوة الخلق والابداع Creation الأدبى لو قورنت بعلوم ماضى البشرية وعلوم المجتمع ، لتجلى أنها تكمن فيما عرفت به من مرونة عقلية لا يعوقها عائق وفيما تتصف به من حرية البناء والتكوين ومن ايحاء لا نهاية له ٠ ونقطة الضعف فيها تكمن فى قلة التماسك بين نتاجاتها كما تكمن فيما طبعت عليه من قلة تحديد أبدية ٠

ولا شك أن فى استطاعتنا ـ ونحن على يقين تام ـ العثور على الاجابة عن سؤال قد يجول بخاطرنا يسأل عما اذا كان الكاتب ينشد التاريخ أم الأدب ؟ وذلك باختبار نوع هواه الفكرى الذى يبدأ منه عمله ٠ فان أعوزته الرغبة المتسلطة فى « الأصالة » ، وأعنى بها الرغبة العميقة الاخلاص فى استكشاف الطريقة التى « حدث بها حقا » شىء معين عرفنا أنه لا ينشد التاريخ ٠

وفى هذه النقطة تكمن غلطة هذه السنوات القريبة ، وهنا أيضا يستطيع علم التاريخ أن يشكو من المنافسة العارية من الولاء ٠ ذلك أن المشاغل الفكرية قد اختلط أمرها على الناس ، وذاع بينهم منها نتاج هجين وبذلت محاولة لاخفاء ما فى هذا النتاج من زيف ٠ وهو عيب لا يمكن نسبة الخطأ فيه نسبة صحيحة الى رجال الأدب الزائفين واليهم دون غيرهم ، بل ان التاريخ يتحمل هو الآخر نصيبه من ذلك العيب ، اذ أنه لا يزودنا بقدر كاف من النتاج الذى تتطلب ثقافتنا نوعه ٠ وهذا بدوره لا يمكن نسبة

الخطأ فيه الى المؤرخين المحترفين الضعفاء • فانهم لم يعودوا كفؤا لذلك العمل ، اذ أن المادة صارت بالغة العسر ، بصورة تجعل رءوسهم تدور دوران رءوس السكارى •

ومرد ذلك أن مادة التاريخ ، ولا أعنى بذلك فقط تاريخ اقطار بأكملها ، بل تاريخ كل مدينة ، وكل نظام من النظم ، وكل حادثة من الحوادث ـ تتراكم يوما بعد يوم وتتسع دائرتها بما يظهر فيها من مراجع ودراسات فى مباحث مفردة • ويبلغ الأمر بوفرتها أن الغربلة الناقدة التى لا بد منها قبل أن يستطاع تسميتها مادة تاريخية حقة ، كافية فى حد ذاتها لشغل فراغ حشد جم من المؤرخين المحترفين • اذ جرت العادة أن النتاجات التى يستخرجونها تكون مادة خشنة غير مصقولة لم يقصد بها ولم يحسب لها ولا هى مناسبة ، لأن تصبح صالحة للتكامل المباشر فى جسم ثقافتنا • وكثيرا ما يقعون هم أنفسهم فى الخطأ المشهور الذى أشرنا اليه آنفاً حين يقدمونها ويلتمسون المعاذير لها بتسميتها « دراسات أولية » • فان لم تكن تلك المواد سوى دراسات أولية ، فهى اذن أشبه الأشياء بأعشاب وحلفاء القيت فى طريق « مسيح منتظر » وهمى للتاريخ لا يؤمن به الناس • على أننا أسلفنا اليك حجتنا فى أنه ليس من الضرورى اللجوء الى ذلك الوهم الخادع المسمى «الدراسات الأولية » • والدراسات التفصيلية قيمة فى حد ذاتها • وهى ليست بأى حال تمهيدا لخلاص مقبل ، وانما هى شعيرة محببة يأنس لها الانسان ، وهى زخرفة ممتعة للوسط الفكرى الذى يريد المرء العيش فيه •

على أن الثقافة تتطلب أكثر من ذلك • وكثيرا ما يعمد المؤرخ المحترف وقد استعرض الجهد الناقد الكثير اللازم لتحديد تفصيل واحد بمفرده ، وتمحيص ما لا نهاية له من تنوع المادة وتعقيدها ، أقول انه كثيرا ما يعمد عندئذ الى الاستسلام لليأس من قدرته على الوفاء بواجبه الثقافى ، فيهز رأسه أسفا وربما اعتصم وراء الوهم الخادع بأن الدراسات الأولية اللازمة لمعالجة هذه المسألة المعينة معالجة صحيحة لاتزال معدومة انعداما تاما • وعندئذ يغلق الباب دون الثقافة ويقرر ألا يجعل من نفسه مشيدا للبناء ، مكتفيا بأن يكون صاقلا للأحجار يقضى عمره فى تسويتها •

وهنا يمد الهاوى يده المدربة الى العمل عن طيب خاطر • فهو يرى جميع المنظورات (*) اللازمة لفهم المعتقدات الضخمة • وعندئذ تسرى اليه

(*) المنظور Perspective هو الصورة العامة التى تجمع الاوضاع والأشكال النسبية للاشياء • (المترجم) •

العاطفة التى تستثار بسهولة خطرة فى حياتنا العقلية ، فتخلق فيه وهما خادعا بانه مرتب الفكر · وذلك لأن الروح العصرية لا تحتاج الى صوغ دقيق للأفكار المنطقية ، ولا الى أساس واضح شعورى لمفاهيم واضحة المعالم لكى يتهيأ لها الفهم · وقد تنبأ المؤرخ دى توكفيل بهذه الصادة الفكرية بصورة تجلت فيها قدرة على التنبؤ بعيدة النظرة · فقد كتب يوما يقول ان : « الأمم الديموقراطية (ومن المسلم به أن لفظة « الديموقراطية » اتخذت عنده معنى بسيطا هو « العصرية ») مولعة ولعا أشبه بالادمان بالمصطلحات الجامعة والعبارات التجريدية ، وذلك لأن طرائق الحديث هذه توسع الفكر وتساعد عمليات العقل بتمكينها اياه من ادخال أشياء كثيرة فى حيز صغير ·· ومن ثم فالذين يعيشون فى بلاد ديموقراطية عرضة لاتخاذ فكرات غير مقطوع بها ، كما أنهم بحاجة الى تعبيرات غير محكمة ينقلون بها تلك الفكرات » (٣) · وعندى أن هذا قول جاء من مفكر عقلانى Rational راسخ تنبأ بقدوم هزة عنيفة للفكر تجرده من سماته العقليـة ؟

وهذا النوع من التلخيص البالغ العجلة فى سياقات بالغة الوضوح (وكلاهما ليس الا مجرد مبالغات مسرفة فيما ينبغى للتاريخ عمله ، واعنى به التلخيص فى سياق واضح) ، هو الأساس لكتب التاريخ الشعبية التى يؤلفها الهواة · على أن مثل هؤلاء المؤلفين فى حد ذاتهم ليسوا من الهجناء بأى حال · فالعدالة تحتم علينا أن نعترف لولز وفان لون بشرف وجود دافع تاريخى جدى لديهما · ومع ذلك فان هناك عاملا ثالثا فى العملية ، علاوة على المحترف اليائس والهاوى المتفائل : هو الناشر العصرى·

ذلك أن الناشر العصرى على الرغم من أنه وسيلة بالغة الاهمية لحمل الثقافة الى الناس ، انما هو مخلوق ترغمه وظيفته على أن ينظر فى كل اتجاه كالأحول ، أو بتشبيه آخر أقل اشارة الى الانسان ، أن يحملق كالثور الهائج الذى تضرب به الأمثال · اذ ينبغى أن يكون ذا قدرة على تفهم النواحى الروحية للمجتمع الذى يريد منه أن يخدمه ، على أن يكون قادرا أيضا على تقويم النواحى المادية · فان هو تجاهل أحد الامرين « لم يلق رواجا » ما يصدره من انتاج ، بل يظل عقيما من الناحية الثقافية· ومن هنا يتبين أن الناشر متنبه الى سمة لابد منها فى كل ثقافة ، وأعنى بها تلك الرغبة العارمة فى قراءة التاريخ · على أنه لا يفوته أيضا التنبه الى أن القارىء قد لحق به نقص فى التركيز ، وأنه شديد الاكباب على المتنوعات المسلية · وهو يعلم أن من واجبه بل ومن فرصته السانحة ، فيما يسمونه

بالمجتمع الديموقراطى المقنن المعـــايير ، أن يرضى دائرة من القراء أرحب كثيرا من الدائرة التي اعتادت الاهتمام بالتاريخ في أزمنة أبكر • بيد أنه لا يستطيع الوصول الى دائرته الأرحب ، الا باحترام أمزجتهم الثقافية بل حتى بالتربيت عليها وتملقها : وأعني بتلك الأمزجة كراهية أى شيء يذكر الناس بالمدرسة ، والحاجة القوية الى الانفعال واللون والعاطفة فى غذائهم الذهنى ، وتفضيل لــكل ما هو شخصي وذاتي ومتحيز • وأخيرا ، نوع معين من الغموض الفلسفى • وليس من الضرورى على الناشر الاسهاب فى حث المؤلف بعــدد كبير من الكلمات ليحمله على أن يضــع هذه الاعتبارات كلها نصب عينيه • وذلك لأن المؤلف يشركه فيها هو نفسه • وكلما زاد خضوعه للميول الذهنية والانفعالية الشائعة بين الناس عادة ، زادت قابلية العمل للنشر • ومن ثم فان الثقافة تحتم علينا الطريقة التى لا بد لتلك المؤلفات أن تمزج بها بين البحث التاريخى والثقافة العامة ، وتتلخص فى التالى : عدم وجود حواش علمية ، ووجود قدر عظيم من اللون ، ووجهه نظر تروق الناس بقوة ، واستثارة حادة للخيال •

وبهذه الطريقة يتولد نتاج هجين ربما جاز تسميته باســم التاريخ الأدبى ، أو بلفظ أصح الأدب التاريخى ، وذلك لأن جوهره أدبى محض ، والمنحى التاريخى فيه ليس الا اضافة ثانوية • وغنى عن البيان أن هــذا الضرب الفنى genre المعاصر من الأدب التــاريخى متميز بوضــوح من الأشكال القديمة أمثال القصة التاريخية والدراســـــة التاريخية • فمن الواضح أن القصة التاريخية لا تدعي شيئا الا أنها من صميم الأدب : وغاية ما فى أمرها أن مادتها قد أخذت من التاريخ • غير أن محاولةالوصول الى درجة معينة من الدقة التاريخية قد تجعل أثر القصة أدعى لمرضاتنا ، ولــكن تلك الدقة تظل دائما فى المرتبة الثانية ، أما الشكل الجديد ، فهو من الناحية الأخرى ، يدعى أنه تاريخ ، ولكن مع فارق : هو أنه ليس تاريخ المؤرخ المحترف ، بل نوعا آخر أحسن منه كثيرا •

على أن فى صنف هذه البضاعة عيبا • اذ أنه يعتمد على المعيار الوحيد القاطع الذى بوأناه الذروة على الدوام : وهو الحاجة الصادقة الى تقــديم وضع يقترب من « الصدق » بقــدر ما يستطيـــع البحث تزويدنا به • فالشخص الذى يختار دون تحفظ العبارة الاصطلاحية القائلة أن التاريخ انما يقتصر على أنه عملية اضفاء المعنى على ما لا معنى له Sinngebung des Sinnlosen لم يعد مرتبطا بمثل هــذا الشرط • أما اذا نظر الى التاريخ على أنه وسيلة لتفسير معنى ما هو ملىء بالمعنى Sinndeutung

des Sinnvollen فعندئذ يتحقق المعيار فى أنه لا يصح تسمية شىء باسم التاريخ ما لم ينبع عن حاجة الى صورة « أصيلة » تماما لماض معين ٠

وهذا يضطرنا الى اقامة تمييز كيفى بين شكلين لكتابة التاريخ الأدبى فى يومنا هذا ٠ فأما الشكل الأول والأكثر احتراما ، فانى أحب تسميته باسم الضرب التاريخى التهذيبى ، لأنه مخلص فى التعبير عن حاجتنا الى معرفة حقيقية ، بيد أنه فى الصميم جمالى ودينى أكثر منه دراسة علمية ٠ ذلك أن التطلعات الاجتماعية الطامحة التى أفضت الى تكوين جماعات المتعبدين والأتقياء ابان العصور التى سادها التدين القوى قد انتقلت جزئيا من حقل الدين الى حقل الفن والأدب بين الجماعات المثقفة فى المجتمعات المعاصرة ٠ فقل ما شئت عن عدد من « الأنفس التقية » (بوصفهم طرازا سيكولوجيا) لا يعيشون فى زماننا هذا الا على غذاء جمالى خالص ٠ وليس من المصادفات أن يحدث فى البلاد التى أنبتت توماس آكمبس أن يتخذ النقد الأدبى والنقد الفنى بمثل هذه السهولة صفة مذهب الورع الأدبى Literary pietism ، وهو ضرب عصرى من « التعبد العصرى » (ان لم يبد هذا التعبير شديد الشبه كقولهم مائة جديد جديد (*) Cent nouvelles nouvelles) ٠ ولا شك أن فى امكاننا أن نتتبع فى هذا المذهب أكثر من سمة واحدة من العادات الروحية والخلقية والاجتماعية التى تتبعها جماعة « اخوان الحياة المشتركة » Brothers of the Common Life (**) فان ذلك المذهب يتسم بالتملق المتبادل والتحليل الدقيق للانفعالات والأفق المحدود وكلها مجانسة له ٠ وتنتسب الكتابات التاريخية التهذيبية الى تلك الدائرة ٠ وهى تعد استجابة للحاجة المبهمة الى تقدير حساس لما للعصور من حكمة وفنون ٠ والنغمة السارية فيها نغمة الوعظ والارشاد ٠ وهى اذ تبالغ فى تقدير المحتوى الانفعالى فى كل شىء تمسه ، تقوم بتفسير شخصيات التاريخ القوية حسب ما يحسبه جيل خشن من حاجة الى التهذيب ٠ وهى ، أعنى الكتابات التاريخية ، تتخم نفسها بعقائد لا تجيد فهمها ومذاهب فكرية وحركات لا يستطاع فهمها ٠ وهى تعرف ما انطوت عليه روح كل قديس وكل حكيم وكل بطل من أحاجى وألغاز ٠ وهى تزيف صراعات سيكولوجية فاجعة على فنانين ابتكروا أعظم ما خلفوا من أعمال ببساطة تامة كمن يصفرون بأفواههم لحنا ٠

(*) ان « جديد » هذه تستخدم هنا بمعنى خبر ، كقولهم : هل من جديد ؟

(**) جمعية اخوان الحياة المشتركة : جمعية عاشت حياة شبه شيوعية أسسها جرهارد جروت (١٣٤٠ ــ ١٣٨٤) بالاراضى المنخفضة ٠ (المترجم)٠

وفى هذا الصدد بوجه خاص تسفر الروح عن نفسهـــا ، واذا هى وليدة الحركة الرومانسية • وأستميح القارىء اذنا أن أتحول منحرفا لحظة الى هذه السمة الخارقة التى يتسم بها عصرنا ، وهى ادعاء الرذيلة • وعندى أن هذه السمة تعتبر ـ بمعنى ما ـ تكرارا عصريا للحركة العاطفية التى ظهرت فى القرن الثامن عشر ، ولـكنه تكرار فى هيئة مخالفة تماما • فان الحركة العاطفية Sentimentalism القديمة احست انهـــا مرتبطة ارتباطا وثيقا باحترام الفضيلة • ونزعت الى الموازنة بين الشهوة والفضيلة على اسوأ وجه فى كثير من الحالات • فأما فى أيامنا هذه ، فلم يعد ذلك ضروريا • فالشهوة وحدها أو ما يمثلها من أشياء ، كافية تماما • فكل رسم يمثل الحقيقة بالكلمة أو الصورة (وأتحدث هنا عن الأدب عامة) يجب أن يدور مداره حول عنصر الشهوة • والمعايير الخلقية قد لا تلقى قطعا اى تمجيد ، والمستمسكون بالفضيلة يطمئنون أنفسهم بوجود هالة العصريين حول هاماتهم بمدحهم للنزعات اللا أخلاقية • وان مدحهم هذا لهو شكل من أشكال النفاق الثقافى ، تماما كما كان التظاهر نفاقا ثقافيا حيثما كان •

ولا يخفى أن الحركة العاطفية والروح الشهوية قد تمت تربيتهمـا جميعا فى تربية الاتجاه الفكرى الشعبى (البلبيانى) الذى استولى على حقول الأدب والثقافة ابان القرن الثامن عشر • فلو أنا استأصلنا حمـــة الاحتقار من لفظة « الشعبية » لأمكن الاحتفاظ بمصطلح « الديموقراطى » للحقلين السياسى والاجتماعى ، وعندئذ يمكن استخدام لفظة « الشعبى » مشتملة على معنى « البورجوازى » كمقابل للفظة « ارستقراطى » فى حقل الثقافة • والثقافة الأرستقراطية لا تعلن عن انفعالاتها وعواطفها • فهى من حيث أشكال تعبيرها تتصف بالاتزان والتحفظ • هذا الى أن اتجاهها العام مصطبغ بالنزعة الرواقية • فهى لكى تتصف بالقوة تريد ، بل تحتاج أن تتصف بخلتى الصلابة وعدم الانفعال ، أو على كل حال ، الى عـــدم السماح بالتعبير عن المشاعر والميول الا فى أرشق الأشكال • ولعل القارىء يذكر أن ارنست‌سيليير قد شرح هذ الأمور مرارا وتكرارا على‌خير وجه(٤)

ومن المعروف أن عامة الناس أعداء للرواقية دائما • وأن موجات الانفعال الضخمة وانهار الدموع والافراط فى اظهار المشاعر قد شـكلت على الدوام كسورا فى السدود المحيطة بالروح الشعبيـــة ، التى سرعان ما تدفقت فى العادة الى جوار روح الطبقات العليا • وبظهور روسو ذلك « الشعبى المرير » ـ كما أسماه فاجيه ـ انتصر الى الأبد الاتجاه الفـكرى

المضاد للرواقية • والاســـم الذى يطلقونه على ذلك الاتجاه هو الحركة الرومانسية (Romanticism) ووفد مع تلك الحركة الاهتمام غير المحتشم بتقلبات أفانين الحب والبغض التى لم تلبث أن وجدت تعبيرها الجامع فى الأفلام السينمائية • وواضح أن الفرق الفكرى ضئيل بين طريقة الظهـار الرذيلة بصورة أدبية وبين حديث يدور بين عاهرتين فى أحد الأزقة الخلفية حول مرض تعرفانه •

أما التاريخ فانه قد يصبح ديموقراطيا ، ولـكن ينبغى له ان يظل رواقيا • وقد قال جول لافورج فى بعض رسائله انه لايستطيع النظر الى التـاريخ الا بوصفه سلسلة لا نهـاية لها من الشقاوات • ولكن لافورج شاعر • فلو أن المؤرخ خضع لمـا يحسه من رقة وعطف على كل ما فى العالم من شقاوات لأصبح غير صالح لعمله •

على أن امتلاك الرشد وضبط النفس وشيئا معينـــا من التحفظ المتشكك أثناء بحث أعمق انفعالات القلب ــ وكلها تعتبر الواجب الصحيح المنوط بالكتابة التاريخية ــ خلال لا ترضى القارىء المعاصر • وعند هـذه النقطة يدخل الضرب الفنى الثانى من أنواع الأدب التاريخى الذى نتمثله فى أذهاننا ، اذ إن هناك شكلا آخر صار من الناحية الدولية ضربا فنيـا جديدا فى السنوات الأخيرة هو الترجمة الممزوجة بالروح الرومانسية • وكثيرا ما تظهر تلك الترجمة فى مجموعة مسلسلـــة تحت عنوان عام • وهذا يشير الى الدور الذى تلعبه فى هذه الظاهرة الجهات المعنية بالنشر • اذ أن هناك اقبالا شديدا على نوع جديد من التراجم والسير Vitae التى تقوم على معرفة مستفيضة بالمصادر والتى لا يهدف منها أن تكون من التاريخ الحق الا بدرجة وسط ، على أن يتعمد فيه أن يكون ذلك التاريخ مبالغا فيه ، ومجهزا لسوق متصفة ابتـــداء بالتذوق الأدبى • فان كان المؤلف ممن يملكون رشدهم ، تمخض الطلب عن « أعمال » لاتتجاوز حدود التاريخ الا فى أضيق وجه ، مثل كتاب دزرائيل الذى وضعه أندريه موروا• وقد تسيطر الناحية الأدبية سيطرة كاملة فى آناء أخرى ، كما حدث من جوزيف دلتايل فى كتابه جان دارك • وقد بلغ اميل لودفيج قمة الشهرة العـالمية فى بضع سنوات قصيرة • ولا تنس فضل فلهلم هاوزنشتاين فيما أعلمنا من الأسرار الزوجيـــة الخاصة برامبرانت (*) وساسكيا • وفى السنة المـاضية فاز الأدب الهولندى بعينة ممتازة من هذا الضرب الفنى

(*) رامبرانت (١٦٠٦ ــ ١٦٦٩) من كبار المصورين الهولنديين •
(المترجم)

من يراعة فيليكس تيمرمان في كتابه « بيتربروجل(*) ، هذا شممتك في أعمالك » (**) · وفي هذا الكتاب أعار كاتب شهير اسمه لبدعة طريفة مزدوجة :

(أ) العنوان الندائي للكتاب ·

(ب) التدوين التاريخي القائم على التشمم (وان مارس هذا اللون الأخير قبله آخرون) ·

ومما يسترعي النظر في هذا الصدد ، أن أشد العلماء دراية بالتاريخ الفرنسي في القرن الخامس عشر ، بيير شامبيون شعر بدافع يهيب به بعد صدور مؤلفاته الممتازة « شارل دورليان وفرانسوافيون والتاريخ الشعرى للقرن الخامس عشر » ، أن يسلك درب الترجمة الرومانتيكية والتأثير الأدبي في كتابه « لويس الحادى عشر »

ان كل من أوتي الروح التاريخية الحقة ، سواء أكان اشد العلماء تبحرا أكاديميا أو أبسط القراء المثقفين، يتفاعل تفاعلا سلبيا مع هذا الضرب الفني بأكمله ، لنفس السبب الذى يحتقر من أجله الخبير بالخمور نوع النبيذ الذى تتكون له قشرة داخل زجاجته · فهو بخبرته قادر على تذوق الغش واكتشافه · ولا يستطيع أى أثر أدبي في العالم أن يماثل الطعم النقي المتزن الذى ينعم به التاريخ · فهو لا يريد تاريخه جافا ، وانما يريده صرفا غير مشوب · وعنده أن أول وثيقة تاريخية معتمدة الصدق تبلغ يده سواء أكانت خبرا أم رأيا ، أو وصية أو رسالة أو قرارا — ستكفي لازالة كل أثر للطعم المعطر للضرب الفني الهجين ·

وربما رد كاتب الأدب التاريخي قائلا : ولكن ، ألا ترون أيها المؤرخون ذلك العنصر الذاتي القوى المتجلي في كل معرفة تاريخية — في صياغة السؤال وفي اختيار المادة وغربلتها وفي تفسير وتوليف المعطيات Data التي حققت ؟ فما الفرق بين عملي وعملكم ، الا فيما يتصف به الخيال هنا من حيوية ومهارة ، وهي شيء لا غنى لكم عنه أيضا ؟ والجواب على ذلك ان الفرق إنما يكمن في نوع الانشغال الذهني الذى يستمد منه العمل · ولو أنك تناولت كتابا يمثل على أحسن وجه هذا الشكل الذي أعترض عليه ، مثل كتاب جي دى بورتال المسمى « حياة ليست » ، وهو أول كتاب صدر في السلسلة المسماة « حياة المشاهير من الرجال » Vie des hommes illustres ، لوجدت فيه العجب · فان ما يزودنا به

(*) Pieter Brueghel, Zoo heb ik U uit Uw

(**) Werken geroken

المؤلف من أول صفحة هو الادب لا التاريخ • فكل ما يصفه لا يقف منه المؤرخ الا موقف المرتاب ، وكل شيء يحب المؤرخ وصفه يغمضه الخيال والصورة الادبية • أما الشيء الوحيد الذى قد يجعل من عمل ما تاريخا ، فهو الحاجة الشديدة الاخلاص الى فهم الماضي على أحسن وجه ممكن دون أن يشوب ذلك الفهم شيء من عندك • ولابد « للحكم » من القيام على أساس اعتقاد مطلق أن ما يوصف قد جرى دون ريب على تلك الصورة ، اذ لايكاد الماضي يتحول الى لغة القصة (الرواية) ، أى الى شكل عمل أدبي خيالى حتى يدخل الزيف الى الجوهر المقدس للتاريخ ، وان ظل المؤلف يعتقد أن كتابته انما هى تاريخ • وبهذه الطريقة يتخلى المرء عن الشكل الادراكي الذى يلائم ثقافته التى يستند اليها ، ويختنق فى القارىء الحسن النية الحس التاريخى الأصيل(٥) •

وليس فى الامكان وضع أية حدود • والمسالة مسالة ضمير وتواضع وتضحية بالذات ، وقد قال جوته Goethe لاكرمان : «عندما تسير الحقب فى طريق الانحطاط تصبح جميع الميول ذاتية ، أما حين تنضج الأمور إستعدادا لعصر جديد ، فجميع الميول تكون موضوعية ••• » فان صح هذا القول ، وجب على زماننا أن يسائل نفسه أين هو واقف ؟ ويرى روتاكر أن « تراجع المعرفة التاريخية فى السنوات العشر الأخيرة ، ليس حادثا عرضيا بكل تاكيد » (٦) •

ولا يزال يتردد فى اذنى الرنين العميق للكلمات التى ختم بها إرنست ترويلتش خطابا القاه فى ليدن فى ربيع ١٩١٩ ، وهو يتحدث عن الأمور التى يحتاج اليها العصر أكثر من كل شيء آخر لكى يستعيد سابق صحته • وقد عبر عن اعتقاده بأن أهم شيء هو الاحترام ، احترام من نوع جديد لكل شيء يفوقنا ويسمو علينا • على أنه كتب فى نفس تلك المدة أو قبلها بقليل معلقا على صعود نجم أزوالد شبنجلر* فى الأفق الفكرى : « لا شك أن خسارة خطيرة جدا تلم بنا اذا نحن تخلينا عن اتجاه المذهب العقلانى Rationalism الذى اكتسبناه ببالغ الكد وعن فقه اللغة وعن الضبط التجريبى والبحث الحريص فى أسباب الاشياء ، لكى نضطر الى اكتسابها فيما بعد عن طريق الضنى والمتاعب أو نهلك (ان أعوزتنا الملكة

(*) ازوالد شبنجلر (١٨٨٠ ـ ١٩٣٦) فيلسوف المانى • عبر عن رأيه بأن الحضارة محتوم فناؤها فى كتاب «اضمحلال الغرب» وكانت كتاباته موضع اعجاب النازيين (المترجم)

أو الارادة الضرورية لذلك) ، فى بحران بربرية مشتعلة الروح فى بدايتها مضطربة فيما بعد(٧) •

وقد رأى كارليل (*) ان أهم الخصائص الجوهرية فى أبطاله هى جديتهم المطلقة ، وعميق اخلاصهم لأنفسهم وللعالم كله • فليس كل انسان قادرا أن يكون بطلا ، بيد أن كل انسان يستطيع المجاهدة للوصول الى اخلاص بطولى •

ومن واجب علم التاريخ أن يتصف بالجرأة على منافسة كل شيء تضيفه المواهب أو البدع الجديدة أو التكاسل الفكرى الى كفة الأدب فى الميزان • على أن زماننا فى هذه النقطة ليس فى جانب المؤرخ ، ونحن نشك فى أن تركيب الحياة الثقافية فى أيامنا هذه لايزال يوسع مجالا لقيام علم تاريخى له فى تكوين الثقافة وخلقها أسبقية على ما اشتهر به الماضى من الادراك الباطنى الأدبى ، وهنا أيضا يتبين أن التطور العام للجماعات المسيطرة أو بمعنى آخر بث الطابع الديمقراطى فى المجتمع ـ يشكل خطرا ، ذلك أن احتراف البحث العلمى لا يمكن أن يتوفر لأكثر من قلة قليلة : فهو ضرب من الأرستقراطية ، أما الأدب (ومعه الدراسة بالمعنى الشعبى) فشيء للكثرة ، وينبغى أن يكون للكثرة ، ولابد للثقافة العصرية من أن تكون ديمقراطية ان أرادت أن توجد على الاطلاق ، فليس فى الامكان أن يبقى اليوم على ظهر الأرض ذلك الموقف القديم الذى ماثلت فيه الفجوة الفكرية بين الثقافة الرفيعة للطبقات الممتازة (التى كانت الدراسة العلمية والأدب فيها شيئا واحدا) وبين الحياة الفكرية الساذجة لسواد الجماهير ـ تلك الفجوة الاجتماعية بين السيد الشريف والرجل من عامة الناس • ومع ذلك فان السؤال المرهق الذى اختتم به روستوفتزف كتابه « التاريخ الاجتماعى والاقتصادى للامبراطورية الرومانية » لا يزال ينتظر من يجيب عنه : « فالمسألة النهائية تظل قائمة كالشبح ، الذى لا يبرح حاضرا طليقا مفلوت القيود : فهل فى الامكان بسط حضارة أعلى بين الطبقات الدنيا دون الغض من تلك الحضارة وتخفيف نوعها حتى يصل الى نقطة الزوال ؟ ثم أليس محتما أن تنحل كل حضارة بمجرد شروعها فى التغلغل فى الجماهير ؟ » •

(*) توماس كارليل (١٧٩٥ ـ ١٨٨١) هو مؤلف كتاب « البطولة وعبادة الابطال » وكتاب « الثورة الفرنسية » وكثير غيرهما . (المترجم) .

- ٤ -

« اهم عمل للتاريخ الثقافي هو فهم التركيب العضوى للحضارات ووصف مجراها الفعل والنوعى المحدد . »

١ ـ الاحساس التاريخى :

سنتناول هنا بالبحث على التعاقب ثلاثة تناقضات تتعلق بطبيعة النشاط التاريخى وعمله . وخير وسيلة للتعبير عن أول تناقض من الثلاثة هى صوغه بشكل سؤال . لو تأملنا النشاط الذهنى للمؤرخ ، فهل نجد عنصر اعادة التجربة فى مجرى الخبرة والفهم الحدسى Intuitive هو العنصر الذى يسود أم الذى يسود هو عنصر التركيب والتوليف ؟ وربما بدا أن هذا السؤال قد أجيب عنه لمصلحة العنصر الأول من زمن بعيد يوم أعطيت نظرية المعرفة فى العلوم الانسانية شكلا خاصا بها . ومع ذلك فلا تزال هناك درجة معينة من عدم التحقق فى الرأى ينبغى محوها .

وفى الوقت الذى وجب تحرير التاريخ فيه من سيادة العلوم الطبيعية (التى اعتبرت معايير ضبطها ودقتها المحك الوحيد للبحث العلمى الحق وأقامت المطالب التى راح لامبرخت يتخذ من نفسه محاميا عنها) اقتضى الأمر عند ذلك ـ كشأنه دائما ـ البدء قبل كل شىء بأن يعرف الانسان ما يتحدث عنه . على أن ما جرى فى الواقع ،و هو الوضع الذى كثيرا ما يحدث ، أن أحدا لم يفكر فى هذا الا مؤخرا . اذ وجب مقدما قيام صورة واضحة للطبيعة الحقة للنشاط الذهنى لدى المؤرخ اذا أريد أن يفهم العلماء بعضهم بعضا . وقد طالب لامبرخت بأن تؤدى كل الدراسات التاريخية الى صوغ مفاهيم عامة تذوب فيها معرفتنا بالواقعة المفردة الخاصة ، وتفقد كل أهمية مستقلة لها . فعندئذ فقط يستطيع التاريخ أن يعتبر علما . فهو لن يستحق أن يسمى بالعلم ان لم يقدنا الى أبعد من مجرد استعراض الأحداث الفردية أمام نواظرنا . وواضح أنه لو صحت هذه المعايير فعلا لما قام لعلم التاريخ وجود . فان كل ما فكر فيه المؤرخون وكتبوه حتى تلك الساعة قد ظهر الى الوجود بطريقة مخالفة تماما . كما أن نفس الادعاء بأن فهم « الكلى أو العام » والمعرفة به هما وحدهما اللذان يؤديان الى التضلع العلمى ، يعد من القضايا التى لم يقم عليها دليل . وقد أوضح فندلباند وريكرت أن أية معرفة بالخاص لا تؤدى الى مفاهيم عامة تعد بالمثل تماما دراسة علمية ، وبذلك وضعا أساسا متينا لنظرية المعرفة فى العلوم الانسانية . وقد استطاع خصوم لامبرخت فى ثنايا

تفنيدهم لآرائه ولشعاره وصيحة معركته القائلة باقامة دراسة التاريخ على تركيب المفاهيم ، وضع صورة للنشاط الفكرى للمؤرخ تقوم على ماهى عليه فى الحقيقة وعلى ما أنتجت لنا وأثمرت من أطيب الثمار . وفى هذه الصورة التى رسموها وضعت فى المقدمة الصفة التى تجعل من التاريخ مشـهدا مرئيا ، ولعلى لا أخطىء الرأى ان قلت انهم فى ايجادهم لتلك الصورة كانوا يفكرون قبل كل شىء فى الشـكل الكلاسيكى الذى أوجده رانكه (*) وهيهات أن يفكروا على غير تلك الشاكلة . ذلك أن روح رانكه على جارى عادتها من التجول فى دهاليز البلاطات والقصور ، والطواف فى جميع الطرق الملتوية للمراسلات الدبلوماسية ، بكل مافيها من اتصال حميم مع الأشخاص المعنيين وهو يقدر وزنهم ويقوم قدرهم ، تلك الروح هى التى أوحت الى معارضى لامبرخت بصورة المؤرخ كيف تكون . من هنـا يتبين أنهم فى تصورهم الـكلى للنشاط التاريخى ركزوا التأكيد على مفاهيم من أمثال الحدس ومعاودة ممارسة الخبرة من جديد . وعندى أنه يظهر أن هـذه هى الطريقة التى عمل بها رانكه ، فانه مارس من جـديد خبرته بـكل تلك الـكائنات البشرية ، وكل تلك الأحداث الموجودة فى عقله .

«يريد المؤرخ أن يجعل الماضى شيئا حقيقيا لنا مرة أخرى ، ولن يستطيع فعل ذلك الا بتمكينه ايانا من أن نخبر من جديد الى حد معين الأحداث الفريدة للماضى فى مسرأها الفردى ... فهو يظل على الدوام ... يرجو القارىء أو المستمع أن يستحضر بوضوح أمام ذهنه قطعة من الحقيقة مستخدما فى ذلك خياله » (١) . ذلك ما ذكره ريكرت فى محـاضرته الذائعة الصيت التى جعل موضوعها « علم الثقـافة وعلم الطبيعـة » Kulturwissenschaft und Naturwissenschaft . والقاها فى ١٨٩٤ . وفى تلك المدة نفسـها صرح فندلباند بقوله : « مهما يبلغ من تعقيـد النشاط التصورى الذى يحتاج اليه النقد التاريخى فى تمثل الروايات التاريخية ، فان الهدف النهائى لذلك النقد يظل على الدوام استـجلاب الشكل الحقيقى للماضى من بين كتلة المواد ووضعه فى وضوح حى ، وما ينتجه بهذه الطريقة هو صور للرجال ولحيوات الرجال (الناس) بكل ما فى أشكالها المفردة من غنى فى التفصيلات ، مع الاحتفـاظ بكل ما لتـلك الأشكال من كامل الحيوية الفردية » (٢) .

(*) رانكه (١٧٩٥ ــ ١٨٨٦) مؤرخ المانى . ظل خمسين عاما استاذا للتاريخ بجامعة برلين وهو واضع أساس البحث التاريخى الحديث وله مؤلفات كثيرة قيمة .

(المترجم)

ولن نبحث في مسألة ما اذا كان كل من هذين الفيلسوفين لايتمسك هنا بدرجة من الواقعية Realism التاريخية ، لم تعد النظرية المعاصرة للمعرفة التاريخية راغبة في تحمل مسئوليتها • فالتاريخ لا يستطيع أن ينتج من جديد حقيقة الماضي المضطربة بل ليس لديه رغبة في ذلك ؛ وفضلا عن ذلك فانه لم يعد يتظاهر بتركيب نموذج للماضي ، ربما صح تسميته بالنموذج الحق ، على صورة تؤدي الى استبعاد جميع التصورات الأخرى الممكنة • وفيما عدا ذلك ، يبرز سؤال هو : كم من الصفحات في أي كتاب معين في التاريخ العصري تنطبق عليه كلمات فندلباند وريكرت هذه حقا ؟ وهل هي تعكس الينا حقا نوايا المؤرخ وآثار كتابه في القارىء ؟ وهل وظيفة التاريخ حقا أن يخبر (*) الناس ثانية قطعة من الحقيقة يعيشونها ، أي هل هي استعراض أمام الأعين لصور الناس وحيوات الناس ؟

ونستمهل القارىء قليلا ونسأل هذا السؤال لحظة واحدة من وجهة نظر امكانية لم تتحقق • أي نوع من الشكل كانت تحصل عليه صورة الوظيفة الفكرية للمؤرخ لو أن الذي حدد تلك الصورة لم يكن ما وضعه رانكه من ابتكارات عظيمة بل عمل جيورج فايتز؟ ورب من يقول بان مقارنة فايتز برانكه لا تنطوي على انصاف : فانه بوصفه مؤرخا دستوريا اضطر الى تناول أشكال تاريخية يتعذر بحكم طبيعتها ذاتها أن تفهم بتصور مشهد مرئي أمام العين وبمعاودة ممارسة الخبرة • ولذا وجب علينا أن نتناول كتابا ذا طبيعة عامة بلا نزاع ، سواء أقبل المرء دعواه Thesis (**) أم لم يقبلها ، ونتخذ منه نموذجا للكتب التاريخية العصرية العلمية المنهج • وأعني بذلك كتاب « تاريخ بلجيكا » Histoire de Belgique تأليف بيرين وخاصة منه المجلدين الأولين • فهل يرسم بيرين الحياة البشرية ؟ الواقع أنه لا يكاد يفعل ذلك مطلقا • وهل يصف مواكب تجلى فيها الحقائق الماضية ؟ لا • ولكن هنا يظهر الفرق ، وهل هو يستدعي أمام عين خياله صورا ؟ نعم • وهل يسمح لها بان تمارس من جديد ؟ نعم • ولا يسع المرء أثناء مطالعته عملا كهذا الا أن يحس احساسا متكررا بالاتصال المباشر بينه وبين الماضي ، وان تم ذلك على أساس دراسة علمية خالصة •

(*) خبرت الشيء أخبره (بضم الباء) : مارست الخبرة به (المترجم) :

(**) الدعوى هنا مستخدمة بمعنى اللفظ الفلسفي وهي قضية يراد اثباتها أو الدفاع عنها • (المترجم) •

وهنا يجىء لب السؤال • ان هناك عنصرا بالغ الأهميـــة فى فهم التاريخ لعل خير ما يدل عليه هو مصطلح « الاحساس التاريخى » وربما صح لنا أيضا التحدث عن « الاتصال التاريخى » • اما « الخيال التاريخى » فينطوى على المبالغة وكذلك « الرؤية التاريخيـة » ، وذلك لأن الوصــف باعتباره تصورا بصريا ، يعد شديد الضيق والتحديد • على أن المصطلح الألمـانى Ahnung أى « الشعور الباطنى » الذى بدأ استعماله بهـذا الصدد فلهلم فون همبولت ، ربما يعبر عن ذلك العنصر تعبيرا تاما تقريبا لولا أنه ابتذل قليلا فى ملابسات وسياقات أخرى • ان هـــذا الاتصال بالمـاضى الذى نحسه احساسا مباشرا ، يدخلنا فى جو معين ، كما أنه أحد الأشكال الكثيرة التى تستطيع بها الذات أن تجاوز نفسها ، وأن تتذوق الحق تذوقا مباشرا ، وهما الميزتان اللتان منحهما الانسان • وهذا الاتصال ليس استمتاعا جماليا ، وليس انفعالا دينيا ولا خوفا من الطبيعة ولا ادراكا لمـا بعد الطبيعة ــ ومع ذلك فهو (حلقة) فى هـــذه السلسلة • وليس موضوع الاحساس هو الشخوص البشرية فى شكلها الفردى ، ولا هو الحيوات البشرية ولا الأفكار البشرية التى يمكن للانسان تجريدها من كل ما اختلط بها ، اذ أن ما يخلقه العقل أو يخبره فى هذا الصدد لا يكاد يسمى صورة ذهنية • فان اتخذ شكلا ، فانه بقدر ما يتخذ ذلك الشكل ، يصبح احساسا يظل معقدا ومبهما ، هــو شــــعور باطنى Ahnung ــ مرتبط بالطرقات والمنازل والحقول ، والأصوات والألوان ــ بقدر ارتباطه بالناس الذين يثيروننا أو نثيرهم • وهذا الاتصال بالمـاضى الذى يصحبه اعتقاد مطلق فى أصالته وصدقه ، يمكن بعثه بواسطة سطر فى وثيقة أو خبر تاريخى ، أو أثر منطبع أو بضع نغمات من أغنية قديمة • وهو ليس عنصرا ، يبنه الكاتب فى عمله باستخدام كلمات معينة ، وانما هو يقع خارج كتاب التاريخ وليس فى داخله • والقارىء هو الذى يجتلبه للكاتب فهو استجابة القارىء لدعوة الكاتب •

فان كان هذا العنصر فى فهم التاريخ هو الذى يشير اليه كثير من المؤرخين على أنه هو « معاودة ممارسة الخبرة » ، فان الخطأ يتركز عندئذ فى المصطلح • ذلك أن «معاودة ممارسة الخبرة» انما تدل على عملية سيكولوجية بالغة التحديد • فالمرء منا لا يحقق الاحساس التاريخى على صورة «معاودة ممارسة الخبرة » بل كفهم وثيق الارتباط بفهم الموسيقى ، أو بالحرى بفهم العالم بواسطة الموسيقى • أما معاودة ممارسة الخبرة كمنهج للمعرفة فيتخذ شكل ادراك متفاوت فى درجة استمراره يرافق على الدوام جهـد القراءة والتفكير • على أن ما يجرى فى الحقيقة هو أن هـذا الاحساس أو

الرؤية أو الاتصال أو الشعور الباطني Ahnurg ، يقتصر على لحظات يتجلى فيها الصفاء الذهني الخاص . لحظات يتم فيها للروح النفاذ المباغت الى الاعماق .

ومن الجلي أن هذا الاحساس التاريخي يبلغ من عظيم جوهريته أن يحسبه الناس مرة تلو أخرى على أنه لحظة المعرفة التاريخية Cognition ومما هو جدير بالاشارة أن نقش قبر ميشليه ينطوى على كلماته : « ان التاريخ بعث جديد » . وقديما قال تين : « يكاد التاريخ أن يكون رؤية رجال الماضي » . وهذان القولان على غموضهما أصلح للاستخدام العملي من التعريفات المنطوية على الدقة والحرص في نظرية المعرفة . والذى يهم هنا ، هو قول الكاتب « يكاد à peu près » فهو بعث يحدث في مجال الأحلام ورؤية لشخوص غير محسوسة وسماع لكلمات نصف مفهومة .

وهناك شيء موجود أيضا بصورة ضمنية في قيمة الاحساس التاريخي ، وفي صفته كضرورة من ضرورات الحياة (وهي صفة تناسب ذلك الباعث الذى يدفع ألى الاتصال بالماضي) ، هو رد المكانة الى « الاهتمام بالقديم الأثرى » الذى نبذه نيتشه في أيامه بكل احتقار . والنتيجة الحتمية لهذا النوع من الاشتغال الفكرى ، هي أن أشد الأبحاث التاريخية تواضعا ، وهي أبحاث عالم الأنساب ودارس شعارات الأسر والهاوى المحلى ، يصح أن تلقى الاكبار والاعظام . وبديهي أن لعملهم هدفه الكامل النمو ان حصل منه العالم أو القارىء على ممارسة ذلك الاحساس .

وقد أسلفنا اليك دفعنا بان العملية التي أسميت لسوء الحظ باسم « معاودة ممارسة الخبرة » مهما بلغ من أهميتها ، لا تتحقق باستمرار ولكنها تظهر من حين الى آخر . وهي ليست سوى جزء من الفهم التاريخي على أن فهم التاريخ وكتابة التاريخ شيئان يتجاوزان مجرد معاناة هذا الرأى التاريخي واستثارته . فاذا نحن تمسكنا بجعل نقطة البداية عندنا أجود أنواع الكتابة التاريخية الأصيلة المعاصرة التي نتلقاها من يد خيرة ممثليها ، مع اضافة أسماء ماينكه وتريفليان وعشرة آخرين الى اسم بيرين فانه من الجلي عندئذ أن العنصر الأساسي لأثرهم ، هو أنهم لا يدفعون الانسان الى ممارسة الحالات المزاجية ، بل الى فهم السياقات والملابسات . وسرعان ما يكتشف كل من يحلل عددا من الصفحات مما دبجه المؤرخون العصريون ، أو مما كتبه رانكه أو حتى ميشليه ، أن الاتجاه الى استثارة « معاودة ممارسة الخبرة » ، لا يتجلى لديهم ، الا نادرا ، على أن الجهد الهادف الى اساغة بعض الاشكال في الأفهام يحدث في كل آن تقريبا .

فالشىء العيانى الحق لا يشغل بأية حال المكان الذى أعطى له فى بعض الأحيان على سبيل المعارضة للتصورى الفكرى Conceptual • فكل عمل تاريخى يقيم السياقات ويرسم الاشكال التى يستطاع فهم الحقيقة الماضية فيها • فالتاريخ انما يخلق قابلية الفهم بلجوئه أولا الى ترتيب الحقائق ترتيبا له معناه ، على أنه يفعل ذلك أيضا فى أضيق الحدود بواسطة انشاء علاقات علية مضبوطة •

والمعرفة التى يزودنا بها تجيب عن السؤالين : « ماذا ؟ وكيف ؟ » ولا تجيب عن السؤال : « لماذا ؟ » الا على سبيل الاستثناء ـ وان جرت العادة بأن يغلب على كل من العالم والقارىء وهم خادع بأن السؤال الأخير هو الذى يجاب عنه •

٢ ـ اعلم نفس أم علم تركيب عضوى ؟

ما يكاد يستقر فى الأذهان أن معنى التاريخ انما يسير بواسطة المشهد العيانى للأشكال التى يجمع بها الماضى نفسه فى عقولنا ، حتى يتشكل السؤال الثانى الذى ينهض أمامنا وهو : « أليس الأصح أن يسمى هذا التركيب العضوى للماضى ، الذى يحاول التاريخ أن يتقمصه بل هو ملزم أن يتقمصه ، باسم علم نفس الماضى ؟ وفى هذه النقطة أيضا تعمل حجية لامبرخت كمرجع ثقة (الذى اعتقد أنه أوضح أن العمل الفعلى للتاريخ هو دراسة علم النفس الاجتماعى) ، ويحصل على نفوذ أبعد مدى وأدوم أثرا ورواج أوسع مما حصلت عليه من القراء المجلدات المتأخرة من كتابه « التاريخ الألمانى Deutsche Geschichte » التى قصد بها تقديم تطبيق للنظرية •

وعند أول نظرة ، يبدو من المعقول تماما : أن كل من استطاع التغلغل فى سيكولوجيا أبطال التاريخ وكان بعد ذلك قادرا على تلخيص الحياة النفسية لعصر بأكمله ، يستطيع بهذه الطريقة كشف اللثام عن التاريخ • على أن من السهل ايضاح أن ذلك ليس صحيحا على الاطلاق • فان علم التاريخ على ماتطور وكما لابد له أن يتطور ، لم يف أبدا بمتطلبات شىء اسمه علم النفس التاريخى ، ولا هو بمستطيع أن يواجهها • وليس المهم مدى اكتمال قدرتى على أختراق روح فيليب الجميل وبونيفاس الثامن

ونوجاريه ، وجميع من اشتركوا في مسرحية أناجنى (*) ، ثم على تجميع تلك المعرفة كلها منظورا اليها من حيث علاقتها بعضها ببعض ، فان النتيجة لن تكون بحال تاريخ حادثة عام ١٣٠٠ هذه المروعة • ذلك بأن الأحداث ذاتها لابد أن تقصف كالرعد مخترقة كل ما لدى من علم النفس ، الذى كل ما يستطيعه فى خير الأحوال أن يعكس الينا كيف تفاعلت الشخوص ازاء القدر وكيف كشفت دوافعهم عن نفسها ، بيـــد أن تلك الأحداث ستعجز عن اثبات أن نقطة معينة مما حدث ــ ودع عنك كل ما حدث فعلا ــ انما هى من المقدور الذى لا رآد له •

ولو افترض المرء بدلا من فكرة الفهم السيكولوجى لبعض أفراد معينين، المعرفة بروح الجماهير ــ أى معرفة نوع ما من علم النفس الاجتماعى ــ فلن تكون النتيجة الا حصوله على فهم تاريخى أقل مطابقة للحقيقة • تصور أن فى الامكان وصف علم النفس الاجتماعى لسكان انجلترا فى القرن الثامن عشر • فان الواقع أن علم نفس كهذا ليس فقط ــ فيما يبدو لى ــ غير قابل للمعرفة ، بل يعد عندى غير قابل للتصور فعلا • وما قد يتشكل لنواظرنا فى شكله لن ينتج لنا شيئا اسمه آبيكيت أو ريتشارد ، ولا أى شىء من ذلك الكشف الحق عن طوايا مصير إنجلترا •

وربما جاز أن يجيب المرء : أليست كل محاولة للفهم السيكولوجى ، سواء أوجهت نحو شخص أو جماعة ينطوى فعلا على علم التركيب العنصرى (المورفولوجيا) ، أى ضربا من التشوق الى فهم أحد الأشكال ؟ أليس شخص توماس آبيكيت شكلا forma بمعنى الكلمة الذى لا غنى عنه أى بنفس المعنى الذى وجد لها عند أرسطو طاليس وتوماس الأكوينى والذى شرع زماننا فى فهمه مرة أخرى ؟ وعندما يحاول مؤرخ الأدب فهـم أحد الشعراء ، أليس عمله عندئذ من قبيل علم النفس الذى هو أيضا علم للتركيب العضوى ؟ ثم ألا يصدق ذلك بالضبط على المؤرخ العادى الذى يصف أحد رجال السياسة ؟

ذلك شىء لا ريب فيه على أنى لا أقصد أن أنكر على التاريخ كل نشاط سيكولوجى على أساس الدعوة القائلة بأنه من حيث المبدأ علم تركيب عضـــوى وليس بعلم نفس • وما يكاد المرء يتناول بالبحث « حياة » بشرية أو شخصية أو اسم جمع يفترضه لحيوات بشرية كثيرة

(*) يشير المؤلف الى حادثة دخول جيــوم دى نوجاريه على البـابا فى قلعـة أجداده بقرية أنا جنى (أو أنا نيى) واعتقاله له بعد أن أوشك البابا على اصـدار قرار الحرمان على ملك فرنسا • (المترجم) •

متخذا منها شكلا تاريخيا تحققت فيه قطعة من الماضى تمضى فى مسيرها الواقعى ، حتى يتـوارى التناقض الظاهرى • وربما جاز اعتبـار الفهم السيكولوجى ناحية من نواحى اضفاء الشكل على التاريخ ، ما دام المرء يدخل فى حسابه ، أن الظواهر فى البحث التاريخى — على العكس من البيولوجى تماما — لا ينظر اليها مطلقا على أنها كائنات عضوية حية ، بل دائما على أنها أحداث • والكائن العضوى الحى للتاريخ — ان وجد كائن كهذا — انما يوجد خارج علم النفس البشرى • وعندى أنه لا شك فى صحة قول الشاعر بوب Pope ان الدراسة الحقة الواجبة على البشرية موضوعها الانسان نفسه•وذلك من وجهة النظر الانثروبولوجية، فأما من وجهة نظر التاريخ فهو قول مضلل • فالتاريخ ليس من شأنه دراســة ما يجمع بين أوصال الانســان من الداخـل • وأعنى بذلك المبـدأ النفسى الجسـمى (السـيكوسوماتى) المتحكم فى تصرفاته ، وانما كل شأنه ما يربط الناس بعضهم ببعض أى العلاقات المتبادلة بين الناس ، وهناك فكرة قد تعود بالفائدة على المؤرخ لو طبقت بأقصى الحذر المفرط ، هى فكرة « السلوك » عند الأمريكين ، بما يهيمن عليها من ناحية علم الاجتماع من صـحة قوية بوصـف كون ذلك السـلوك- أعمال الناس- استجابة للعالم الخارجى المحيط بهم •

هذا وان فى الامكان استخدام « الصمت » دليلا قويا على التفاوت والاختلاف بين الدافع الى المعرفة فى كل من التاريخ وعلم النفس • فلو لم يوجد ذلك الفرق ، لأبرم التاريخ من زمن بعيد محالفة مع علم النفس• بيد أنه لم يفعل ذلك • نعم ان العلاقات بين العلمين ودية ، ولكنها ليست بالغة النشاط والحيوية • فهل يصل دارس التاريخ سى أى يوم الى نتيجة يحس هـو أولا بضرورة تحقيقهـا بواســطة نتائج البحث السيكولوجى ؟ لقد أمدنا التاريخ بالمواد اللازمة للتجارب القليلة التى تجريها مدرسة جيراردوس هيمانز فى علم النفس التاريخى ، دون أن يتأثر بنتائج تلك التجارب • واستميح القارىء عذرا فى أن التزم الصمت ضاربا صفحا عن تطبيق نظريات التحليل النفسى على التاريخ • وهناك كتاب أوضح امكان قيام مزيد من التقارب بين علم النفس والتاريخ هو كتاب « بناء الجسم والخلق » Korperbau und Charakter الذى ألفه ارنست كريتشمار • وفى يقينى أنه ما من مؤرخ يقرأ ذلك الكتاب الممتاز دون أن يضيف الشىء الكثير الى قدرته على الاســتبصار كعالم باحث • ورغم ذلك ، فان ثقته فى خصوبة الكتاب تكاد تميد عند نفس

النقطة بالضبط التي يقدم فيها المؤلف بضعة أمثلة مؤقتة لتطبيق نظريته على الأشخاص التاريخيين • فان انطوت نظرية كريتشمار حقا على شيء واحد ذي بال ، فغاية ما آمله هو أن أقع عليه في قيمتها الكبرى كتركيب عضـــوى •

والتاريخ هو التفسير القريب لما للماضي من معنى لدينا • وهناك صفة ضمنية تقوم في طابع التاريخ ذاك ، هي الترتيب • فلكي يستطيع المؤرخ فهم جذاذة (*) من الماضي على ما تنعكس اليه من ثقافته الخاصة ، ينبغي له على الدوام وفي كل مكان أن يحاول رؤية أشكال تلك الجذاذة ووظائفها • والتاريخ يتحدث دائما على أساس الشكل والوظيفة ، حتى في الحالات التي لم يقم لنفســـه فيها على الاطلاق برنامجا منهاجيا للتركيب العضوى • والشرط الوحيد الذي ينبغي توفره هو أن يكون الدافع الى المعرفة تاريخيا أصيلا ، وألا يكون المؤرخ أحمق • فكل بحث تاريخي مفرد الموضـــــوع Monograph ـ ان اتسمت مســـألته بالتحديد الجيد ، يجيب عن سؤال في التركيب العضوى التاريخي • ولكن الويل للعلم اذا كان كل ما تصنعه مدارس تاريخية بأكملها هو الاندفاع الى غمس المعرفة في عصـيدة الروايات التاريخية المتلبكة • ذلك أن العلم ان لم يستهدف الحصول على شكل أو وظيفة محددة ، فان النتيجة اما أن تكون خليطا غير محدود التكوين من التبن والحبـوب والا فهي وريقة مطبوعة غلب عليها علم البيان أو طابع الرومانس •

ولا يخفى أن كل حادثة (عدا أبسط أنواع الوقائع) تتصورها ملكة الادراك التاريخي ، تفترض وجود ترتيب لمواد الماضي ، أي تجميعا لعدد من المعطيات يتحول بها من فوضى الواقع الى صورة عقلية • وكثيرا ما يستبان ان ذلك الترتيب قد حدث فعلا في « الحياة العامة » ، بمعزل تام عن كل جهد تاريخي • وهناك حقيقة يكمن فيها ما يربط التاريخ بالحياة من عرى لا تنفصم ، هي أن التاريخ يعمل بمادة هذه الافكار التلقائية • وما الفكر التاريخي الا مجرد توسيع لرقعة الفكر بصفة عامة ، أي مزيد من التقدم على طول الدرب الذي يوصل بين ما للحقيقة الواقعيـــة من مفـرط الاســـمية Nominalism وبين الفـــكرة • أما الفكرات التي تمنح الماضي شكله ، ففي متناول الأيدي حتى في حالة

(*) الجذاذة : القطعة الصغيرة الكسرة • وفي القرآن الكريم : « فجعلهم جذاذا الا كبيرا لهم » (المترجم) •

أشد التأملات أولية في التاريخ · وعندى أن كل مستمسك بالمذهب الاسمى خال من التناقض ، يرى أن « البرلمان » ـ و « الحرب العالمية » ليس لهما من وجود أكثر مما « للرأسمالية » ـ و « الديانة » من وجود ·

ومما يذكر على سبيل التخصيص أن الأشكال التاريخية للحياة السياسية يمكن العثور عليها في مدارج الحياة نفسها · فالتاريخ السياسي يجلب أشكاله الخاصة معه : كنظام احدى الدول أو معاهدة صلح أو حرب أو أسرة مالكة أو الدولة نفسها · وفي هذه الواقعة التي لا يمكن فصمها عن الأهمية العليا لتلك الأشكال نفسها ، نجد الطابع الجوهري للتاريخ السياسي · ويواصل ذلك الطابع الاحتفاظ بقدر معين من الأسبقية لأنه يعد بدرجة كبيرة التركيب العضوي للمجتمع في أمثل صوره ·

ولو تأملت حتى التاريخ الاقتصادي نفسه ، لوجدت أن المصطلحات التي يعمل بها المؤرخ ، انما هي ثمرة للتحليل العلمي للظاهرات بدرجة أكثر كثيرا من المصطلحات السياسية المأخوذة رأسا من الحياة · وهي حالة تنطبق بدرجة أشد أيضا على مصطلحات التاريخ الثقافي (ما لم نلحق به الآداب المرعية والعرف وما شابهها) · ومما يجدر ذكره أن المسائل الحقة في التاريخ الثقافي ، انما تدور على الدوام حول شكل الظاهرات الاجتماعية وتركيبها ووظائفها · وليس معنى ذلك الدعوة الى وجوب اخضاع التاريخ الاجتماعي لعلم الاجتماع وجعله تابعا له · وفي حين أن التاريخ الثقافي يبحث الظواهر من حيث أهميتها الأخاذة فان تلك الظواهر نفسها ليست بالنسبة لعلم الاجتماع سوى نماذج وأمثلة · وقد تخلى المؤرخ الثقافي عن خطته في استخدام الظواهر لاستنباط القواعد الصحيحة صحة عامة التي يهدف بها الى المعرفة بالمجتمع عن طريق الظواهر · فهو لا يقتصر على رسم كروكي يحدد المعالم العامة للأشكال التي يصممها ، بل يلونها بواسطة الحدس ويزينها بما يوحيه اليه الخيال من اشارة وايحاء · ومع صرف النظر عن أي برنامج شعوري مقصود ، فان جميع عظماء مؤرخي الثقافة هم على الدوام من علماء التركيب العضوي للتاريخ : أي من الباحثين عن أشكال الحياة والفكر والعرف والمعرفة والفنون · وكلما زادوا تحديد تلك الأشياء وضوحا زادوا نجاحا وتوفيقا · ذلك أن السؤال العام لا يؤدي الا الى جواب عام · وشاهد ذلك أن تاريخ « عصر النهضة » سيظل يغشاه الغموض والابهام ، حتى

عند بركهارت نفسه ، وما ذلك الا لأن « عصر النهضة » شكل لم يتيسر فهمه بوضوح ، بل لن يستطاع فيه الى الفهم سبيل • أجل ان دعوى Thesis بركهارت العــامة ـ التى تعـد فى حد ذاتها مناقضة لروح القرن التاسع عشر ، بحيث لم تفهم الا قرب نهــاية ذلك القرن ـ قد فازت بدورها بيوم نصرها • على أن جميع الأشكال الفردية التى اقتطعها ونحتها ليستخدمها أحجار بناء ، وأعنى بذلك كل فصوله التى عقدها حــول المجد والسخرية والنكتة والحياة المنزلية وما اليها ، لا تبرح تحتفظ لتلك « الدرة » السامية بكامل قيمتها • وينطبق هذا الرأى نفسه على فيوللييه لودوك ، وهو مؤرخ لعله أصبح يعد فى جملته قديم الطراز ، وفى تفاصيله غير مضبوط أحيانا ـ ولكنه لايفتــأ على الدوام يعتبر الاستاذ المتمكن بسبب احساسه بالشكل احساسا لا نظير له • وثمة عمل لم تلحقه مطلقا تهمة قدم الطراز أو فوات الأوان ، هو عمل مؤرخ ندر أن عرفه انسان خارج انجلترا ، هو لزلى ستيفن • وفى ظنى أن ستيفن جدير بشهرة أعظم مما حقق ، ولو لمجرد اخجال الكثير من القرود المقلدة فى يومنا هذا ممن يحسون أنهم يستطيعون اثبات تفوقهم باظهار الزراية بالعصر الفيكتورى • أجل ان لزلى ستيفن لم يؤت عقلا بناء • فان كتابه « الفكر الانجليزى فى القرن الثامن عشر English Thought in the Eighteenth Century يتجنب البحوث العامة ويكاد لا يؤدى مطلقا الى استنتاجات وأحكام عامة • ولكن ذلك النقص هو ميزته ، فمن أجله بالضبط لم يكابد عمله على يد الزمن الا القليل من العناء •

وليس من المصادفات أن كل مؤرخ للثقافة ذى أهمية صادقة من أبناء القرن التاسع عشر ، كان بوجه التقريب ممن يعيشون الى حد ما خارج تيار الفكر فى عصرهم • وقد مهد أوجست كونت السبيل أمام ذلك التيــار • غير أن الفلســـفة الوضـــعية Positivism لم ترزق اللباقة اللازمة لانتاج التاريخ الثقافى • ولم يعد أحد يقرأ اليوم ماسطره بكل Buckle • بيــد أن هنــاك من الناحية الأخــرى عقليــات مثــل بركهارت وفيوللييه لودوك ولزلى ســتيفن (ممن تجســمت لديهم العلوم الانسانية فى صورة حقيقة مستقلة قائمة ، ولو قامت بغير نظرية محددة للمعرفة) استطاعت أن تشير بأصبعها الى سبيل لا يزال فى امكاننا أن نسلكه • ولكى يتسنى لنا فهم التاريخ الثقافى ، ينبغى تمييز الروح والجو • فالزمان الحاضر يشجع المؤرخ الثقافى على أن يجـد ما يدعم ثقته فى عمله • فان هو جعل نفسه على ذكر من كتابات كالتى دبجها

هانزفرايرفى «نظرية الروح الموضوعية « Théorie des objectiven Geistes » وثيودورليت فى « العلم والآداب والنظرة الى الدنيا Wissenschaft, Bildung, Weltanschauung » فضلا عن مختلف دراسات اريك روثاكر ، لشــعر باشتداد قوته اذ يدرك أن فى اســتطاعته انتاج معرفة حقة فى ثنايا ما لعلمه من مناهج تحسسية (*) .

٣ ـ علم التركيب العضوى وعلم الأساطير :

ما يكاد المرء منا يدرك أن عمل التاريخ من وجهته العامة هو انشاء تركيب عضوى لماضى البشرية ، حتى يتبقى أمامه بعد ذلك سؤال مزعج : هل يستطيع التاريخ الثقافى وهو الذى عليه أن يخلق معظم الأسماء للأشكال التى يرى فى داخلها العملية الثقافية ، النجاة من خطر تدلى تركيبه العضوى وتحوله الى علم الأساطير ؟

لقد أستخدم أوزوالد شبنجلر عبارة « التركيب العضــوى لتاريخ العالم » كعنوان اضافى لكتابه « اضمحلال الغرب Decline of the West وربما قال الناس عن شبنجلر مستقبلا كما قال ماينكه عرضا فى أحد الأيام عن تين ، بأنه من أولئك الذين « خدموا البحث العلمى بارتكاب الأخطاء الجسيمة أكثر مما خدم غيرهم بذكر التفصيـلات الصـغيرة الصادقة .. » (٣) فان صدق هذا القول فلن يرجع صدقه الا الى عمق ما طبع عليه شبنجلر من بصيرة نافذة ، والى أستاذيته فى المزج بين الأشياء غير المتماثلة تحت تسمية مفردة ، والى عنيف تصفيته لتفكيرنا التاريخى . ولكنه لن ينطبق عليه بسبب النسق الذى أقامه . فبعد انقضاء سنوات عشر فقط ، يقف ما أنشأ من نموذج لتاريخ العالم وقفة مقبرة مهجورة لم تكملها يد بانيها . والواقع أن ما أدخله على تصميـــم تاريخه من تشويهات وما بثه فيه من تحيزات ، وما صاغه عليه من سيمتريات بهلوانية ، جعل من بنيانه عمارة لا تناسب التــاريخ منــذ البداية نفسها . فان الفكر التاريخى يرسف بسبب مصطلحاته فى أغلال لا تعد ويحبس بسبب تقسيماته فى زنزانات لا تحصى . ومهما يبلغ

(*) المناهج التحســسية : (Groping) هى التى يحاول صاحبها التغلب على ما لديه من مصاعب وشكوك باصطناع الصبر والحلم والتحسس فى البحث والفكر . (المترجم) »

ما أوحاه اليه خياله من بث اللألاء الساحر على فسيفساءات (*) الحضارة العربية ، فان ذلك الخيال لو دفع الى غاياته ، لأسدل ضباب الغموض كثيفا على كل منظر لروما الامبراطورية والغرب الفتى ، والوثنية وهى تلفظ آخر أنفاسها ، والمسيحية النابضة المتطورة ، وظاهرة الاسلام نفسها • ولو نظرنا الى شخص الانسان عنده فى صورة فاوست لوجدناه يقضى على كل فهم للعالم اللاتينى • على أن شبنجلر لم يستطع منع نفسه من التقصير : فانه أبغض انجلترا دون أن يفهمها ولم يعرف أمريكا ، ولم يفهم بالفعل أيا من أقوى نظامين اجتماعيين ـ الدين والدولة ـ على أهميتهما الهائلة ، ولم تبصر عيناه مستويات الثقافة ولا انتشار الثقافة• بيد أن العيب (أو الشرخ) الأساسى الأكبر فى عمله ليس فيما تحتويه معرفته من ثغرات ولا ما فى رأيه من تحديدات ، وانما يكمن فى أنه اخترق غير مكترث الدرب الموصل بين التركيب العضوى والأساطير • بينما كائناته التشبيهية (**) Anthropomorphic الثقافية يصيبها ما أصاب كل وثن من مصير ، وهى تمر فى أدوار شبابها ونضجها وشيخوختها فى أخيلة جميع العصور •

وهناك من العلماء من يعمدون ، اذ يدركون ما عليه الفكر فى العلوم الانسانيه من حرية ، الى الاعتقاد بأن وضع الأشكال التاريخية لايمكن أن يكون الا فى صورة الأساطير • وقد استطاع ثيودورليت منذ عهد قريب جدا أن يوضح توضيحا رائعا ، جاء فى بضع صفحات مدى ما عليه وجهه النظر هذه من واهن الأساس وسخف الرأى (٤) • فالانسان المعاصر فى نظره يخون ثقافته الخاصة ، ان هو خلق الأساطير عالما بانها كذلك ، أو أنها بالحرى تدعى أنها كذلك • والشكل الذى تعترف به ثقافتنا للمعرفة الفكرية هو شكل البحث العلمى الناقد •

ويجدر بنا أن نشير الى أن مذهب التشبيه هو العدو الأكبر لطريقة التفكير فى العلوم الانسانية • وهو عدو وراثى تجلبه معها طريقة التفكير تلك من الحياة نفسها • ولا يخفى أن اللغات البشرية قاطبة تعبر عن

(*) كثير من المؤرخين الاوربيين ، ومنهم المستشرق جوستاف فون جرونيباوم يشبهون الحضارة العربية بفسيفساءات مجمعة من الحضارات القديمة والمعاصرة . انظر للمترجم « حضارة الاسلام » مجموعة الالف كتاب ومكتبة مصر بالفجالة .

(**) التشبيه : تصور الله فى ذاته أو صفاته على غرار الانسان .

(المترجم)

نفسها بطريقة تشبيهية باستخدام أخيلة مشتقة من النشاطات البشرية. وتلون كل ما هو معنوى مجرد ، بمجازات مستمدة من الادراك الحسى • ولكن الواجب يحتم على العلوم الانسانية التنبه واليقظة الى ما عليه لغتها من طبيعة مجازية والى الحذر من أن تزحف الصورة الوهمية مع المجاز خلسة • (٥)

ولن نستطيع تخليص أنفسنا تماما ولو حرصنا من تلك البوروشا القديمة Purusha التى من جسمها خلقت آلهة الفيدا العالم ، ولا أن نخلص أنفسنا من زميلها وهو الجبار ايميز فى ملحمتى اذا (*) Eddas • ذلك أننا لكى نفهم العالم نمد أيدينا وأبصارنا المرة تلو الأخرى نحو الأداة التصورية التى تلجأ الى احلال كائن بشرى محله • ومن المعروف أن التاريخ يدخل فى فلكه على الدوام تقريبا موضوعات ذات طبيعة عامة متخذا منها أنماطا أساسها الحق أسطورى • ولا تخرج ألفاظ الرأسمالية والحركة الانسانية والثورة وما ماثلها عن هذا النوع • وعندى أنه الى حد ما وضع لا يستطاع تجنبه • ولكن كلما زاد العلماء قدرة فى ادراكهم الصريح لاستقلال الروح ، وجب عليهم التزام الحذر البالغ من الانزلاق فى الوهم السهل القريب الذى يزين لهم تلك الروح فى ثوب تنكرى• وقد كتب فيلسوف ثقافى له شأنه الكريم هو كارل يوئل يقول : « لو شاءت الحياة بلوغ مستوى أعلى ، لانتقت من الأمم والأفراد من يليقون لذلك فى الأقاليم اللائقة لذلك • وبفضل مشعل « اليقظة » تخطو الروح الحية للتاريخ عبر الأرض النائمة وتسرى بين ما للانسان من عالم حالم ، وهى تهيب بالجيوش والأبطال أن يهبوا للاضطلاع بالأغراض الروحية والمادية ••• وهناك قامت الروح العالمية Weltgeist الداعية الى التكامل بدعوة الحياة الثقافية الى منعطف طريق جديد ، وتمكنت من رتق الصدع على يد روما ••• » (٦) ولعمرى ما هذا الا اشارة مجازية أو بيانية ، وهو فى الحالين مصدر خطر • ويقول روتاكر : « ان مفهوم التطور ينزع بالضرورة الى اضفاء صفة العملية الموضوعية على أية حركة روحية • وبمثل هذا المفهوم تثبت بالضرورة ، فكرة دهاء العقل ، وأعنى بذلك أن السير الموضوعى للتطور يغافل الذات المفردة فى فاعليتها حتى يجتذبها الى مجراه • » (٧) فاذا لم يمكن شراء فكرة التطور نقية خالصة الا بما ارتأى هيجل من تشبيه أسطورى Mythical ، ألا يكون من

(*) ملحمتا اذا مجموعتان من الادب الايسلندى هما المصدر الرئيسى لمعرفتنا بالميثولوجيا الاسكندناوية القديمة • (المترجم) •

الأفضـــل البحث عن وسـائل أخرى للمعرفة ؟ وذلك ما لم يفضـــل المرء ببساطة اطلاق اسم (مايســـميه هيجل) بالروح العـالمية الجوالة أو « العقل » ذى الدهاء • وبهـذه الطريقة نصــــل الى نتيجة تستوقف النظر ، هى أن فكرة التطور لا يمكن الاحتفاظ بها الا على أساس تاليهى Theistic محض •

على أن تلك النتيجة الرفيعة تظل على الجملة معدومة عندما يحدث على حد قول شبرانجر أن : « تطبق فكرة التركيب الثقافى المعقد كانما الثقافة مادة عضوية تنطبق عليها قوانين النمو البيولوجية الدقيقة ، بل كانما هى كائن ملغز مثل الروح العالمية ، التى ارتآها هيجل ، والتى تمضى فى طريقها الشيطانى دون اعتبار بأى شىء حى » • (٨) • ولا مراء أن هذه الجملة تحتوى على معنى بالغ العمق فى نزعته الغيبية (٩) ، ولكنك حين تعمل فى حدودها تخرج عن دائرة علم التاريخ • فكل مجاز مشبه Anthropomorphic سهل يصاب فيه المنظر العام للسياقات الدنيوية للتاريخ بالجمود • ولذا يخيل الينا أنه ينبغى أن يجعل المؤرخ الثقافى دعاءه فى صلاته على النحو التالى :

« ••• ونجنا اللهم من نزعة الشبهة ، آمين • »

٤ ـ التركيب العضوى العام ، أم التركيب العضوى الخاص :

ان الغلطة التى كثيرا ما يوقعنا فيها هذا التيبس الفكرى ، تكمن فى أن العالم قد أدعى لتفكيره دعاوى بالغة الضخامة • فهو يبغى القاء نظرة على نمط مركب معقد ضخم وأن يصف تركيبا عضويا عاما دون أن يلم مقدما الالمام الكافى بتركيب أجزائه • والنتيجة هى ما شـــاهد دى توكفيل حدوثه بوضـــــوح تام فى الفقرة المقتبسة أعلاه • وعنــدئذ يتشـــكل مفهوم تاريخى مبهم غير محــدد ، قد ارتبطت به ارتباطا غــير محكم كل أنواع الأفكار غير المتجانسة • ولن يســـتطاع فهم المجموع ولا التعبير عنه الا بتطبيق مجاز رائع عليه • وكلما زادت المركبـــات المعقدة التى يريد المؤرخ سبرغورها ، زاد الخطر من اتخاذ تلك الفكرات شكلا ماديا له وجود حقيقى •

وما أن يتشكل مفهوم من مفاهيم التاريخ الثقافى بهذه الطريقة حتى يغدو قوة فكرية ويشرع فى السيطرة على عقولنا ، وهى عقول شديدة الرغبة فى القيام على خدمة الآلهة الجديدة باعثة السلوان • وتتسع رقعة

المفهوم لكل قوة أخرى ، مستوليا على ما يحيط به من أرض تملكها مفاهيم أخرى • وكلما كان المفهوم أجوف بدرجة أكثر ، والمصطلح الذى يعبر عنه أكثر ضعفا ، زاد اتساع رقعة القوة اتخاذا لطابع التضخم •

والواقع أن ما لدينا من مصطلحات عامة فى التاريخ الثقافى يكاد يعانى باجمعه فى هذه الأيام من مثل هذا التضخم بدرجة تتفاوت زيادة ونقصانا • مثال ذلك أن لفظة « عصر النهضة » كان لها فى الأصل دلالة – ان لم تكن شديدة التحديد – فلقد كانت على كل حال دلالة ايجابية وتاريخية ، أى واقعية • وقد أدت واجبها فى سد حاجة جوهرية ، ففيها تردد صدى أمل عقد على ذلك العصر • ولم يلبث المفهوم حتى امتد فى كل من هذين الاتجاهين : فشد الى الخلف نحو العصور الوسطى وشد أماما الى العصر الحديث • ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل طبق المفهوم فى كافة أنواع الميادين التى انتشرت بها ظواهر مرتبطة « بعصر النهضة » ارتباطا حقيقيا أو ظاهريا • وآية ذلك ما يقوله هربرت سيزارز : نشأ عصر نهضتنا الحق فى القرن الثامن عشر • فالحركة الكلاسيكية Classicism هى ذروة عصر النهضة لدى الألمان » • واذا نقل الانسان المصطلح الى ميدان آخر بهذه الطريقة سلبه شيئا من الغنى الكامل الذى ظل يصدر عنه ما اقتصرت دلالته على العملية الثقافية الفذة المحددة التى استخدم فيها لأول مرة •

وذلك هو ما حدث لمصطلح « النهضة » ، وهو نفسه ما حدث لمصطلحات من أمثال « الطابع القوطى » – و « العصور الوسطى » – و « فن الباروك » • اذ يبدو أن هناك حاجة ماسة الى وسط ذهنى للتبادل • وربما بدا احيانا ان الروح العصرية ، حين تخلصت من النزعة القطعية (*) Dogmatism والنزعة الصورية Formalism لم تحصل فى مكانهما الا على طراز جديد من التجسيم • ومن سوء حظ العالم بالعلوم الانسانية أنه ينبغى له فى حالة كل شكل يرتئيه ، وكل نموذج يعتقد أنه يدركه ، أن يبت بنفسه – بغير انتظار العون من تجربة يقوم بها أو تقدير حسابى يقدره – ما اذا كان يطارد ظلا أم حقيقة •

والواقع أن التاريخ الثقافى تبهظه فى الوقت الحاضر عملية تحديد الأشكال النوعية للحياة التاريخية • فهو ملزم أن يحدد ما للخاص من

(*) وتسمى أيضا بالمذهب الجزمى أو الاعتقادى

(المترجم)

تركيب عضوى قبل أن يتجاسر على بحث العام . ومع ذلك فان أمامه زمنا كافيا لوصف ثقافات بأكملها وصفا يدور حول مفهوم مركزى واحد . فعلينا الآن أن نكون ــ قبل كل شيء ــ من القائلين بمذهب التعدد . ذلك أنه في مجال التاريخ الثقافي لم يتم الا النزر اليسير فى الحقل الواضح حقل تحديد ما يمكن موضوعيا مشاهدته وتمييزه من الحياة الماضية .

وفي هذا الحقل بالضبط تقوم علاقة وثيقة بين جميع العلوم الانسانية ، علاقة يمكن فهمها داخل لفظة التاريخ كمفهوم يؤخذ بأوسع معانيه . ويعمل كل متخصص فى حقله الخاص ، لكن الاتصال بينهم جميعا أمر لا مندوحة عنه . ومن المعروف أن التاريخ الدستورى وتاريخ القانون يدور البحث فيهما حول أهم أشكال الحياة الاجتماعية بأكملها وهى الدولة ونظمها . أما التاريخ الاقتصادى فيصف الأشكال التجارية ويحللها ، وذلك بينما التاريخ الديني وتاريخ التقنيات (التكنولوجيا) وعلم الاجتماع يقوم كل منها بنفس الشيء كل فى مجاله ، والآن يحاول تاريخ الفنون والتاريخ الأدبى ، الذى ظل زمنا طويلا شديد الانشغال بتحديد العلاقات الوراثية الخارجية ، المؤثرة فى تسلسل المراحل وادوار التكوين ، البحث عن طريقة يتمكن بها من فهم وتعيين الأشكال المحددة . أما علم اللغات ، فهو منذ انتقاله من التركيب العضوى الخارجى للمسائل النحوية Junggrammatiker الى المسائل المتعلقة بالمعنى ــ وبذا الى التركيب العضوى الداخلى (١٠) للتعبير عن الفكر ــ قد أصبح اليوم أكثر منه فى أى آن آخر جزءا جوهريا من العلوم الانسانية ، وصار شيئا لابد للفلسفة والقانون والتاريخ من زيادة التعرف اليه فى أقرب وقت .

وربما ذهب بعضنا بالنسبة لسير العمل فى جميع هذه العلوم المنفصلة الى أن التاريخ الثقافي يؤدى عمله على أوفى وجه ، وأنها مجتمعة تشمل دراسة الثقافة ، وأنه لا مجال لقيام كيان منفصل لتاريخ للثقافة. لا يشغله الآن فعلا أى واحد من العلوم المتخصصة . غير أن مثل هذا الرأى ، يبدو فى نظرى غير صحيح .

وثمة فارق جوهرى يتبقى بين التاريخ من ناحية وكل علم من العلوم الانسانية المتخصصة من الناحية الأخرى (وكلها تاريخى بطبيعته) ، هو الفارق الذى يميز التاريخ من فقه اللغة . ومع أن توسيع مفهوم فقه اللغة على هذا النحو شيء غير مألوف ، فان كلا من تلك العلوم

الجديدة كاللغة والقانون والتجارة والفن ـ ربما أمكن اعتباره فقه لغة بالمعنى الكامل للكلمة. والمشكلة المتعلقة بهذه العلوم المتخصصة جميعا انما هى فهم الأشكال الثقافية كما هى منعزلة عن الأحداث الواقعية . أما فى حالة التاريخ الأدبى الصرف ، فان الغرض النهائى من الدراسة يظل على الدوام اما قصيدة معينة تدرس بوصفها ذاك واما المفهوم العام للأدب . أما التاريخ الثقافى فيرى من الناحية الأخرى ، أن أشكال الماضى ان هى الا تعبيرات عن روح يحاول فهمها وينظر اليها على الدوام فى صميم غمرة الأحداث . والتاريخ الثقافى يوجه التفاته نحو الأشياء ، غير أنه يواصل على الدوام الصدوف ببصره عن تلك الأشياء وتوجيهه الى العالم الذى تبوأت فيه مكانها . ولا حاجة بنا الى القول أن هذا الحاجز الفاصل بين فقه اللغة والتاريخ هو حد يخترقه الجانبان على الدوام . تلك هى الطريقة التى تجرى عليها الأشياء فى كل مجتمع مسالم . ولكن حواجز التخوم لا تبرح محتفظة بأهميتها رغم ذلك .

والموضوعات التى يدور حولها التاريخ الثقافى هى ما للحضارة من أشكال ووظائف متعددة ، كما تشتم من تاريخ الشعوب وتاريخ الجماعات الاجتماعية ، وكما تتجمد مكونة أشكالا وصورا وموضوعات ومباحث ورموزا ومفاهيم ومثلا عليا وطرزا وعواطف ثقافية . وكل من هذه قد يتخذ هو الآخر موضوعا لأحد العلوم الانسانية المتخصصة : فيتخذ مبحث الشعر موضوعا للتاريخ الأدبى والطراز والأسلوب موضوعا لتاريخ الفنون والمعنى المجرد أو المفهوم موضوعا للفلسفة التاريخية . ورغم ذلك كله فانها تظل موضوعات للتاريخ الثقافى العام ما دامت تعتبر صورا ومشاهد فى الدراما العالمية الكبرى .

وتوضح الديانة المقارنة وعلم السلالات البشرية (الاثنولوجيا) أهمية الأسطورة Myth والتكرس الدينى ونشاطات المناسك الدينية وحفلات البرجاس بين الفرسان والجمعيات السرية وما ماثلها من معانى الحياة الثقافية . وفى امكان التاريخ الثقافى أن يبسط المرة بعد الأخرى وجود هذه الظاهرات فضلا عن تبيان آثارها فى ثنايا المجرى المتنوع للتاريخ . وهو انما يستخدم تلكم الأشكال رغبة فى الوصول الى فهم أفضل للأحداث المفردة ، وبذلك يروح بدوره فيضفى التثبيت والمساندة على خطط Schemata العلوم التخصصية . على أن كثيرا من موضوعات التاريخ الثقافى تقع اما خارج حدود الحقول الخاصة أو تنتشر عليهن جميعا . فمن أمثلة ذلك ان ما يتعلق بالريف أو الرعى من أمور لا يؤثر فحسب فى الأدب والفنون البصرية ، بل يؤثر أيضا فى الرقص

والموسيقى والحيـــاة الاجتماعية والنظريات السـياسية ، فهى فى موجز القول مبحث ثقـــافى • والوظائف الثقـافية كالخدمة والشرف والوفاء والطاعة والمحاكاة والمقاومة والكفاح فى سبيل الحرية ، تعتبر كلها متى شئنا ذلك ـ موضوعات تدخل تحت علم الاجتماع ، غير أنها لا تحظى بمعالجة حاسمة فى ثنايا الدراسة النســـقية Systematic التى يستخدمها فيها علم الاجتماع ، ما لم يتقدم التاريخ الثقافى بدوره فيوضح ما لهن من متغير الأشكال والآثار فى مختلف العصور ومختلف الأقاليم •

ولو أن انسانا تمكن من كتابة تاريخ الغرور لوجد نصف التاريخ الثقافى تحت تصرفه فمن ذا الذى يعطينا مثلا تاريخا للكبرياء فى القرن السابع عشر ؟ وقس على ذلك الخطايا السبع القاتلة (*) وهى تعد فى نظرى فصولا سبعة فى تاريخ الثقافة تنتظر من يعالجها • ويخيل الى أنه حتى الآن لم تحظ الا واحدة من تلك الكبائر السبع بالاهتمام ، بأن أعطيت الى حد ما شيئا من صفة المبحث فى التاريخ الثقافى ، وما ذلك الا لأنها على عكس زميلاتها الست الأخريات ، ليست مما يسهل وقوعه مباشرة فى فهم الناس جميعا ، بل ينتقل معناها ويتغير حسب الثقافة المهتمة بها • تلك هى البلادة Acedia ، وهى التى يترجمها الكثيرون ترجمة غير مرضية بلفظة « التباطؤ » • ويرى بترارك (**) أن معناها يطابق معنى Weltschmerz أى الشقاء الشامل • والواقع أن ما وجده الناس من عسر فى فهم مدلول لفظة Acedia أى البلادة عند دانتى فهما صحيحا ، قد أدى الى تركيز الانتبـاه طـويلا على هــذا الموضـوع • (١١)

وليس معنى ذلك أنه ينبغى ألا نطلب موضوعات البحث الا فى نطاق الحياة الذهنية دون غيرها • وكم يتمنى المرء أن يرى تاريخا يكتب عن « الحديقة » باعتبارها شكلا ثقافيا ، أو عن الطريق أو السوق أو الخان ، أو الحصان أو كلب الصيد والشـاهين ، والقبعة أو الكتاب من حيث وظائفها الثقافية • وسيتجلى لكل ذى عينين المرة بعد الأخرى أن أبحاث العلوم الانسانية المتخصصة لم تستنفد المعرفة المتعلقة بأهميتها فى المجتمع كما لم تستوف بعد حقها من الدراسة •

(*) الخطايا السبع القاتلة : هى الـكبرياء والجشـع والفســوق والغضب والشراهة والحسـد والبلادة . (المترجم) .

(**) بترارك (١٣٠٤ ـ ١٣٧٤) شاعر وعالم ايطالى امتاز بوطنيته القوية . (المترجم)

من هنا يتبين الا خطر البتة من أن يعمد التاريخ الثقافى بعد أن يولى اهتماما أكبر مما أولاه حتى اليوم الى مكتشفات العلوم الانسانية النسقية فيؤدى ذلك الى تسليم ممتلكات عروسة الشعر كليون Clio الى علم الاجتماع المخوف الذى كان بالفعل قد قاضاها ذات مرة بغية اقتناص تلك الممتلكات منها • وهذا يوضح أن التاريخ الثقافى مستطيع رغم ذلك ، التماسا لمصلحته الخاصة ، أن يتعلم الشيء الكثير من علماء الاجتماع دون أن يحقر نفسه على الاطلاق بانزالها منزلة الخادم بالنسبة لذلك العلم النسقى الذى مداره الأشكال الاجتماعية • فان الاتصال الوثيق بعلم الاجتماع العملى لدى الأمريكيين ، وبعلم الاجتماع التاريخى عند مارسل ماوس ، وبعلم الاجتماع الفلسفى لماكس شيللر وهانز فراير وغيرهما ، لا مفر منه من العمل فى سبيل مصلحة التاريخ الثقافى • فاذا كانت تهددته بعض الأخطار ، فما ذلك فى الغالب الا من جهة ما يدور حول خلق العالم من غوايات يرى بعض العلماء المعاصرين أن واجبهم يحتم عليهم الأخذ بها •

وبفضل ما ظهر مؤخرا من نزعات حديثة فى نظرية المعرفة ، أصبح التاريخ أحسن دراية بقيمته ومنعته منه قبل ذلك • والواقع أن سلامته وأمنه يكمنان بالضبط فى اتصافه بعدم الضبط ، أى فى أنه لا يمكن أن يكون معيارا سويا ، بل هو غير ملزم بذلك أبدا •

– ٥ –

« ان تقسيم التاريخ الى حقب مهما استحال الاستغناء عنه ، ليست له الا اهمية ثانوية ، فهو دائما شيء مبهم وغير دقيق ، وهو شيء ينطوى دائما على التعسف الى حد ما • وخير من ذلك أن تطلق أسماء لا لون لها مشتقة هما فى التاريخ من فترات توقف خارجية وعرضية ، فانها أفضل التسميات للعصور التاريخية • »

الأصل فى الحاجة الى تقسيم مجرى الحوادث فى العالم الى عصور متعاقبة لكل منها جوهره ومرماه ، لا يكمن فى علم التاريخ Historiography نفسه ، بل فى علمى الكون والتنجيم • ذلك أن مفاهيم الزمان والمصير المقدر ارتبطت بعضها ببعض ارتباطا وثيقا جدا فى الديانات الشرقية القديمة • ولو تناولت كلمة مثل زروان الواردة فى الاوفستا (وهى بالفارسية زمان) لوجدت فكرات القضاء ، وقبة السماء والزمن اللانهائى

والتغير والحركة السرمديين للعالم مختلطة كلها فى مركب واحد رائع حافل بالمعاني • فالزمن نفسه والد ومولود معا ، كما أنه مولود قد ولد ، كما أنه يؤثر فى كل شيء يحدث • فتسلسل الدورات والدهور جزء من أى شكل متقدم من أشكال الديانات •

على أن الثقافة المسيحية لم تتسع فى الواقع لنظرية كونية كهذه تقوم على الدهور ، ولا لفكرة التكرار الدورى الذى يعيد مجرى الأحداث بعينه فى كل دورة • فان ما لتاريخ الخلاص عند المسيحيين من خطة محدودة لم يسمح بقيام مثل هذه الفترات المترامية • ومن ثم فان الذى حدث فى المسيحية هو أن فكرة تعاقب العصور تحولت من الكونى الى التاريخى ، وان تم ذلك مع تركيز التاريخ على فكرة الخلاص ونهاية جميع الأشياء • والأصل فى تقسيم تاريخ العالم الى فترات هو الفكرة الشائعة عن امبراطوريات العالم الأربع : آشور وفارس ومقدونيا وروما ، وهى امبراطوريات أعقبت كل منها سابقتها وتفوقت عليها • بيد أن هذه الفكرة نشأت وتطورت قبل ذلك بالفعل فى ضمير الفكر الهللينستى • بل الواقع انها وجدت من يعبر عنها منذ أبكر العصور ، كما هو ظاهر فى نبوءات دانيال وفى رؤيا الوحوش الكبيرة الأربعة التى خرجت من البحر والصورة التى تتجلى فيها رؤيا نبوخذ نصر (١) • وتواكبت مع فكرة امبراطوريات العالم الأربع ، فكرة عصور العالم الستة ، وهى الفكرة المؤسسة على رأى القديس متى (٢) • على أنه حدث فى عهد مبكر جدا هو القرن الرابع ، أن يوسيبيوس وجيروم وهما من آباء الكنيسة الأولين تمكنا من التوفيق بين هاتين الفكرتين بحيث وفقا بين التاريخ بمعناه الدنيوى الأرضى والتاريخ بمعناه الوارد فى الكتاب المقدس• وسيطرة فكرة الامبراطوريات العالمية الأربع دون منازع وظلت تعتبر الخطة الأساسية لتقسيم التاريخ حتى القرن السادس عشر • وحدث طوال العصور الوسطى أن قصة استمرار الامبراطورية الرومانية هيأت للناس فهم كل ما حدث من أحداث منذ ظهور المسيح على الأرض ، وكل ما ستأتى به الأيام فى العصر الأخير من العصور الأربعة المتنبأ بها •

وقد كان أنصار الحركة الانسانية هم أصحاب الفضل فى ايجاد الدافع الى تصور جديد • اذ أنهم رأوا فى العصور القديمة وأساليبها مثلا أعلى أدبيا وثقافيا ، وهو رأى ألهمهم ميزة القدرة على الحكم بأن سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية قد صحبه فجر عصر وسيط Medium aevum متبربر وجدير بالاحتقار ، وهو عصر لم يستطع

الغرب أن يرفع نفسه من وهدة لاتينيته الركيكة وفنه « القوطى » الا باحياء الآداب فى أيامهم • ولم يستطع التقسيم الثلاثى : « العصور القديمة » ـ و « العصور الوسطى » ـ و « العصر الحديث » أن يتسع استخدامه من دائرة الأدب الى التدوين التاريخى نفسه ، الا عند اقتراب القرن السابع عشر من نهايته • ولم يكن لذلك التقسيم هناك فى البداية سوى دلالة أكاديمية ، على أنه لم يلبث بعد انطلاقه من الكتب المدرسية أن حصل رويدا رويدا على مكان راسخ استقر فيه • ولكن ليس بين هذه المصطلحات الثلاثة واحد له دلالة تاريخية دقيقة الا مصطلح العصور القديمة •

على أن هذا الموقف تغير فى القرن الثامن عشر ، وعلى الرغم من أن عصر الاستنارة Enlightenment أكد من جديد المحتوى الانفعالى السلبى الذى اكتسبه فعلا مصطلح العصور الوسطى عند أنصار الحركة الانسانيه ، فانه سرعان ما أعقبته الحركة الرومانسية الكبرى التى « اكتشفت » عصرا وسيطا آخر يتمثل فى الحروب الصليبية وأساطير الاتقياء والقصص الشعرية الشعبية Ballads والقوطية (*) Gothicism ولا يستطيع أحد أن يزعم أن الحركة الرومانسية قد تخلصت تماما مما أحست به الاستنارة من تقدير سلبى للعصور الوسطى ، بل الواقع أنها على العكس من ذلك قد أدخلت فى مفهومها رجفة خوف مما يتسم به ذلك العصر من عنف وقسوة ، واتخذت من تلك الرجفة عنصرا جوهريا تعتز به فى تصورها لذلك العصر • فكان فى مستطاع أى انسان أن يعلن على الملأ اعتناقه للمذهب الرومانسى وأن يشير رغم ذلك من وقت الى آخر الى « العصور الوسطى الرهيبة » بما حوت من « تعصبات » و « حكايات خرافية » •

ومع أن حقل العصور الوسطى قد اكتشفه بالفعل علماء سان مور (**) المجدون وزملاؤهم فى القرن السابع عشر ، الا أن الرومانسيين اكتشفوه ثانية ووضعوا أيديهم عليه باعتبارهم سادة جددا له • ثم شرعوا يزرعونه ويستثمرونه بما هيأه لهم عصرهم من دراسات علمية جديدة : فى التاريخ وفقه اللغة وتاريخ الفنون وما اليها • حتى اذا ازدادت صورة

(*) القوطية : هى الروح والطرز القوطية فى الحياة والعمارة (المترجم) .

(**) سان مور : جمعية من الرهبان البندكتيين الداعين الى الاصلاح الدينى، انشئت فى ١٦١٨ ، وقضت عليها الثورة الفرنسية ، وقد اشتهرت باعمالها الادبية . (المترجم)

العصور الوسطى وضوحا وزادت دقة معالم كل ظاهرة مفردة على أيدى الخوان جريم وسافينيي Savigny وكثيرين غيرهم من الأفذاذ ، أخذت الشكوك تنبت أيضا حول ما للعصر من صورة كلية ، وهل تقوم تلك الصورة الكلية بدرجة كافية على الحقائق الكفيلة فى حد ذاتها بالاحتفاظ به مصطلحا تاريخيا ؟ والحق ان حدوده لم تحدد بدقة فى أى يوم من الأيام • فلم يغب عن أحد مثلا أن سنة ٤٧٦ ميلادية (*) ليست لحظة صدع لها أدنى أهمية • أما فيما يتعلق بنهاية العصر فقد تردد العلماء بين ١٤٥٣ ، وهو عام سقوط القسطنطينية وبين ١٤٩٢ عام استكشاف أمريكا • ومع ذلك فان كلا من هاتين النقطتين الختاميتين تحمل بين طياتها اعلانا بعدم كفايتها كحافز للاقتناع •

اذن فلماذا لا ينبذ مصطلح العصور الوسطى نهائيا (لان الواقع انه لا خلاف الا حوله هو فقط) ؟ السبب في ذلك هو أن المفهوم الذى أصبح مرتبطا به لا يخطئه أحد فيختلط عنده بشيء سواه ، وان هذا المصطلح لم يعد اسما تاريخيا أجوف ، بل أصبح يتضمن مركبات كاملة من فكرات تاريخية ثمينة •

وهنا يكمن لب المسألة التى بين أيدينا • فنحن لا نستطيع الاستغناء عن أسماء الحقب التاريخية ، لأنها أصبحت مترعة بمعان ذات وزن كبير لدينا ، برغم أن كل محاولة تريد اثبات صوابها لا تؤدى الا الى عكس ما تسعى اليه • وان أسباب ذلك التناقض الظاهرى أو الحقيقى لتكمن فى أعماق بعيدة • والظاهر أنه برغم تلك البؤرة الذهنية التى يسلط نحوها دافعنا الى المعرفة ، وهى فى حالتنا هذه الاهتمامات التاريخية البحتة ، فانها لن تستطيع البتة تخليص نفسها تماما من نظرتنا الى الكون وما تتطلبه من فهم وترتيب أعمق كثيرا من مجرد الفهم القائم على التعاقب الزمنى وحده • وان هذا الترابط بين الفكر التاريخى والفكر الكونى ليزداد تعقيدا لأن النظرة البيولوجية الى الماضى تفرض نفسها عليه بحكم عادات التفكير القائمة على العلوم الطبيعية •

من هنا نفهم لماذا انتهت الدراسات التى خصت بها مشكلة التقسيم الى حقب تاريخية ، الى نتيجة أخذت تظهر مرة بعد مرة فى العشر السنوات الأخيرة ، اذ انتهت الى صورة تمثل اختلافا كبيرا فى الآراء والمواقف

(*) وهى السنة التى سقطت فيها الامبراطورية الرومانية الغربية .
(المترجم)

وتوضح وجود قدر معين من عدم الثبات فى وجهة نظر كل عالم من العلماء • وان معظم العلماء ليدركون من حيث المبدأ أن أى نوع من أنواع التقسيم له عيوبه وله ضرورته معا ، أو قل له فائدته وجدواه على الأقل • بيد أن معظمهم يعربون عن ميلهم الى عدم نبذ النظام التقليدى القائم على الحقب الكبرى الثلاث مهما بلغ من عدم اكتماله وقصوره ، مع الاتجاه الى تصحيحه • وللمحافظة على صلاحية التقسيم تراهم يعمدون الى طريقة من ثلاث : فاما أن يحركوا حدود الحقب وفق موازين يرونها أكثر دقة ومنطقا ، واما أن يحاولوا أن يظهروا أن هذه الحدود ينبغى لها بدلا من ذلك أن تكون شقة عريضة من الأرض الحرام المحايدة ، واما أن يضيقوا من نطاق احدى الحقب الكبرى ، مفضلين أن تكون هى حقبة العصور الوسطى ، وذلك بتمزيقها الى قطع أصغر •

ان ذلك الاستمرار الذى لا ينكره أحد والذى ينقلنا رويدا من الثقافة المتداعية للامبراطورية الرومانية الى ثقافة الغرب الجديد التى ازدهرت فى عصر الميروفنجيين والكارولنجيين ، هو المدار الأساسى لكتابات الفونس دوبش (٣) • وفى المستطاع نقل ذلك الاستمرار من حقل الاقتصاد، الذى قام فيه دوبش بمعظم دراساته ، الى الحقل الفكرى ، بل حتى الى السياسى الى حد ما • ثم يمضى بيرين فيطور الفكرة بما حاج به من أن المدة الفاصلة حقا بين العصر القديم والعصور الوسطى ينبغى أن تتفق وصد هجمات المسلمين على مملكة الفرنجة (٤) • وجاء فرديناند لوت ليصنع هو الآخر صنيع سابقه من طمس معالم التخوم بين العالم القديم والوسيط • (٥)

وهناك مسالة أخرى أشد حيوية وأشد ارتباطا بالموضوع من حيث المبدأ ، هى تلك الخصومة التى نشبت حول مراحل الانتقال من العصور الوسطى الى العصر الحديث • مثال ذلك أن كارل هيوسى مؤرخ الكنيسة الذائع الصيت ، قد شن حربا شعواء على استخدام النظم العامة للتقسيم وتطبيقها على التاريخ الكنسى • على أنه وقد أنكر امكان استخدام الموازين العامة ، يفضل استعمال المصطلحات المألوفة من حيث معناها كطرز لا بمعناها الزمنى (٦) ، ومع ذلك فان ترويلتش فى كتابه « البروتستنتية والتقدم Protestantism and Progress بما حوى من حجج قوية وقد عرض المسالة على الملأ من الناس عند نشره الكتاب بالألمانية فى ١٩٠٦ ، عاد فى كتابه الأخير « المذاهب التاريخية ومشاكلها » Der Historismus und seine Probleme فساند ما للتقسيم من قيمة

عميقة بوصفه كونه وسيلة للمعرفة ، وصدر فى ذلك عن رأى يناقض آراء معظم العلماء الآخرين • فانه رأى فى التقسيم الى فترات أو حقب بلوغا بالفكر التاريخى الى غاية تمامه وختامه ، أى الى بنـاء التاريخ • أجل انه فى ثنايا تلك العملية لم يضطر فقط الى قصر صلاحية ذلك النظام على التاريخ الأوربى • بوصفه الكيان الوحيد فى التاريخ الذى فى مستطاعنا معرفته ، بل اضطر أيضا الى الامتناع عن القيام بعمل رسم دقيق التحديد للتخوم التى يفترض أنها ضرورية • وهو يرى أن العصر الحديث بدأ فى أوسع معانيه اجمالا فى القرن الخامس عشر ، كما بدأ فى أضيق معانيه فى القرن السابع عشر • والواقع أن فى الامكان التساؤل : ــ ألم ينزل ترويلتش ضررا بليغا بقيمة مبحثه ذاك حين اعترف بأن القوى الأساسية Grundgewalten التى تكمن فى أغوار الماضى هى التى تحدد طابع الفترة التالية ؟ وبهذه الطريقة تهيأ للروح المتنبئة عند اسرائيل القديمة كما تهيأ للمدينة Polis الاغريقية ، بث الحياة فى العصور الوسطى • وبهذه الطريقة أطلق قبل ذلك على العصور الوسطى نفسها اسم التربة الخصبة التى نمت فيها الثقافة العصرية وتطورت • ونسلم هنا بأنه أتى بفكرات ثمينة لا سبيل الى دحضها ، ولكن ماذا يتبقى بعد ذلك من تلك الحقب المفترضة على اعتبار أنها مفاهيم مستقلة ؟ لقد رفع فون بيلوف صوته عاليا ضد هيوسى وترويلتش حين دفع بأن هناك بالقطع أساسا ايجابيا وعاما للتقسيم ، وان لم يقم ذلك الأساس كمـا يزعم ترويلتش على التحولات الفكرية ، بل يقوم على التحولات السياسية الكبيرة التى يعتمد عليها تحقيق التغيرات الفكرية • ويخيل الينا أنه لا يكاد يستطاع التوفيق بين هذه الفكرة التى دافع عنها فون بيلوف وبين ما ذهب اليه هو نفسه مهاجما بأعظم قوة ترويلتش من أنه ينبغى اعتبار « الاصلاح الدينى » بداية للعصر الحديث • (٩)

وفى الحين نفسه بذل هانز شبانجنبرج محاولة جديدة لقطع كل صلة بينه وبين التقسيم الثلاثى القديم مستبدلا به تقسـيما مختلف الحدود (١٠) • وقد أحس (فى اتفاق منه مع فون بيلوف) أن المصطلحات الموضوعة للفترات والعصور ، وهى على الدوام أشياء مصطنعة لا تزيد عن تحايلات ، ينبغى أن تؤسس على ما يحدث بين القوى من صدامات كبرى فاصلة • فحدود أية فترة منهـا فى نظره تكمن فى الأزمات والصراعات المهددة للمصير ، وليس فى ازدهار الثقافة بمثل « الاصلاح الدينى » ورحلات الكشف والارتياد • إذ لا يخفى أن ظواهر من هـذا

النـوع انما تسجل قمم الفترات لا حدودها • وهـذه الفكرة أخاذة ورائعة فى حـد ذاتها ، غير أن محاولة شبانجنبرج ابتداع تقسيم معدل لا تلتئم واياها التئاما مقنعا بأية حال • فهو يرى أن الفواصل تقع فى الهجرات الكبرى التى حـدثت عندئذ فى القرن الثـالث عشر (بسبب غزوات المغول) ، ثم عاودت الظهور فى السابع عشر • ولكن ليس من السهل العثور على العلاقة المنطقية بين الخطر المغولى والتغيرات التى ألمت بتكوين أوربا السيـاسى والاجتماعى ، تلك العلاقة التى دعت شبانجنبرج الى التمييز بين الفترتين السابقة واللاحقة على منتصف القرن الثالث عشر وتسميتها باسم عصر الاقطاع وعصر « الضياع الكبرى » estates •

ولقـد ظل قسـم التاريخ بالمركز الدولى للدراسات ببـاريس Centre International de Synthèse يعمل طوال السـنوات الثلاث الى وضع مسودة « لمجموعة المفردات التاريخية بقصد وضع تعريفات دقيقة للألفاظ التى يستخدمها المؤرخون وأن تحدد جهد الطاقة ما يقع فى ذلك العلم الخاص بهم من مفاهيم جوهرية » • وتقتضى الخطة عمل ذلك فى جلسات « المركز » ببحث كل كلمة تقدم للدراسة ، وذلك بغية الوصول الى أكبر قدر مستطاع من الاتفاق بين العلماء حول المفاهيم العلمية • وربما جاز لنا أن نتساءل : ـ وهل تستطيع المصطلحات التاريخية تحمل مثل هذه الدرجة من التعريف ؟ وثمة سؤال آخر : وهل تستطيع معالجة تجىء فى شكل ندوات جافة أن تتمخض عن النتائج المرغوبة ؟ ، على أن من المحقق أن تقارير الجلسات وأدوار الانعقاد ، التى تنشر بانتظام كملاحق لمجلة (١١) ، « الدراسات التاريخية » «Revue de synthèse historique» احتوت بالفعل على قدر كبير من المواد الثمينة تدور حول عدد من المصطلحات التاريخية • ففى الجلسات الأولى نفسها التى عقدت فى فبراير ١٩٢٦ طرح المؤرخ البولندى أوسكار دى‌هاليكى(١٢) موضوعى التقسيم الى فترات و « مصطلح العصور الوسطى » على بساط البحث • وممن اشتركوا فى المنـاقشة نيقولاس أيورجا ورودلف آيسلر وهنرى بر وليون كاهن ولوسيان فيفر ، وحسبك بهم دليلا على كثرة ما القيت عليه الأضواء من نواحى المسائل التى وضعت تحت البحث •

ومن الواضح أن هناك حاجة ماسة الى مصطلحات تقسـيم قوية الأساس واضحة الحدود • وهى شىء لابد منه لفهم التاريخ فى أثناء أدواره

المتغيرة . وقد رأينا ترويلتش يميز فى التقسيم على أساس الحقب ، وهو التركيب الحقيقى لعلم التاريخ. ولكن متى حاولنا أن نعرف بالدقة مصطلحا يدل على فترة زمنية ، فالعادة أنه يتجلى أنه كلما زاد المصطلح نفعا من حيث فائدته كطراز ، زاد خسرانه من حيث قيمته التاريخية. فمن تمسك بتحديد التخوم التاريخية ، ونظر الى حقبته التى يبحثها نظرته الى رسم تخطيطى تمثل فيه تلك الحقبة شذرة من خط واحد متواصل ، كان كمن يريد ادخال شرائح سمك الرنجة الى مباحث علم الحيوان . ولعل الأسلم التحدث عن ثقافة العصور الوسطى من التحدث عن العصور الوسطى نفسها . وغنى عن البيان أن مفهوم الثقافة الوسيطية انما يتكون من مجموعة من الفكرات العامة التى تعمل على انسجام التفصيلات بعضها مع بعض مثل الاقطاع والفروسية والديرية والمدرسانية (الاسكولائية)وكثير من أمثالها . وأهمها جميعا هى المتركزة حول عام ١٢٠٠ . ويحس شبانجنبرج دون أن يجانبه الصواب بان المنجزات الثقافية الكبرى انما تشير بالأكثر الى وسط أى فترة لا الى بدايتها . وواضح بين أن تخوم مفهوم العصور الوسطى فى الأفكار كفترة من الزمن أو حقبة تفقد بطبيعة الحال نفسها وتتلاشى فى العصر القديم من ناحية كما تتلاشى فى العصر الحديث من الناحية الأخرى . ولو أردنا تصويرا يقابل فكرة معينة نشير بها الى حقبة زمنية اشارة دالة ، لم يكن ذلك التصوير صورة لقطاع من دائرة ، بل كان عددا من الدوائر غير المتساوية حجما التى تتقارب مراكزها فى مجموعة غير منتظمة ، والتى تتقاطع محيطاتها بعضها مع بعض فى عدد من النقاط ، بحيث أنها لو نظرت من بعد ، لظهر المجموع فى صورة عقود . ومع ذلك فان كثيرا من العلماء يرون أن مثل هذا التصوير لا يوضح توضيحا كافيا مرور الزمن والتقدم فى اتجاه معين ولا يجد تعبيرا كافيا عنه .

والمؤرخ هنرى سيه يرفض فكرة التقسيم الى فترات ، اذ يراها غير مستقيمة مع فكرة التطور . وهو يقول ان الشىء الوحيد الذى يسمح بتقسيم يقابل الحقيقة ، هو الفكرة القائمة على التطور الدورى ، غير أنه يرى أن هذه الفكرة أصبحت قديمة الطراز ، ولا تنطبق فى خير أحوالها الا على أدوار معينة من أدوار تاريخ الشرق (١٣) . ومع ذلك فالواقع الذى حدث فى السنوات الأخيرة هو أن هذا الضرب من التقسيم والتفسير الدورى أو على الأقل الايقاعى قد أخذت الأيدى تتناوله ثانية بالمعالجة من جوانب متعددة (١٤)

ولعمرى ان عصرنا يحس بحاجة قوية الى فكرة الايقاع . بل لقد بدا في بعض الأحيان أنه لو أعوزتنا الفكرة نفسها ففي الكلمة وحدها الكفاية . وآية ذلك ان علم البيولوجيا يستخدمها (أى كلمة الايقاع) بنفس الكثرة التي يستخدمها بها نقد الفنون . وربما جاز أن يعد من طرائق التعبير عن هذه الحاجة الثقافية أنه قد حدث في السنوات الأخيرة أن أحييت نظرية الأجيال في علم التاريخ في صور مختلفة . ففي ١٨٧٢ نشر العالم الرياضي والاقتصادي والفيلسوف انطون أوجست كورنوه مقالاجعل عنوانه: (Considérations sur la marche des idées et des événements dans les temps modernes) اى « تأملات في مسير الأفكار والأحداث في الأزمنة الحديثة » ، وفيه وضع التاريخ في خطة مكونة من ثلاثة أجيال في كل قرن يتكون كل منها من حوالى ثلاثين عاما . وواضح أن هذا المقال أفلت تماما من انتباه العلماء الألمان . ومهما يكن من أمر ، فانه حدث عندما وضع أتوكار ـ لورنز تصميم نظريته عن الأجيال بعد ذلك بأربعة عشر عاما (١٥) ، اتخذ الأساس الذي بنى عليه تصميمه (دون تقديم مبررات كاملة لذلك) من أفكار نقلها عن رانكه ، ولكن ليس عن كورنوه . وقد أحدثت نظرية لورنز في ذلك الوقت قدرا معينا من الاثارة العاطفية ، ولكنها لم تجد الا قلة من أنصار ينصرونها . ثم عفى عليها النسيان التام كما يتبين من التالى . اذ أن فالتر فوجل وكارل يوئل عادا الى الفكرة في نفس الوقت تقريبا (١٦) . وادعى كل منهما أنه لم يسمع بنظرية لورنز الا فيما بعد . ولم ينقض طويل زمن حتى ظهر التفسير العميق والممن أيضا في نزعته الذاتية المتطرفة وهو الذي وضعه فلهلم بيندر ، الذي رفع مبدأ « الجيل » بكل ما استطاع من التأكيد حتى جعله قاعدة واساسا لكل فهم لتاريخ الفنون والتاريخ الثقافي (١٧) .

ويخيل الى أن هذه الأشكال الجديدة التي تقترح فيها نظرية الأجيال التاريخية تظل تحمل على الدوام الغلطة المنطقية الأساسية التي تبطل تلك النظرية . فالجيل الأول في سلسلة من ثلاثة أجيال هو دائما في الوقت نفسه الجيل الثاني والثالث في سلسلتين أخريين . وليت الأمر اقتصر على ذلك فان الفكرة تقترح ثلاثية من الأجيال من ١٧٠٠ الى ١٧٣٣ ومن ١٧٣٤ ـ ١٧٦٩ ومن ١٧٧٠ ـ ١٨٠٠ ، يتعاقب بها عدد من الظواهر التاريخية ، التي تشكل مجتمعه تاريخ القرن الثامن عشر ، ويبحث تعاقبها في المتوالية : ـ النشأة والنضج والتدهور أو : ـ الفصل ورد الفعل

والتوليف · غير أنه من الممكن بسهولة وجود تعاقب من الأجيال تسجله السنوات ١٧٠١ـ ٣٤ ، ١٧٣٥ ـ ٧٠ ، ١٧٧١ الى ١٨٠١ ، وهكذا دواليك بالنسبة لكل سنة بل في الواقع بالنسبة لكل يوم · ومن المعروف أنهذه الفترات لها على الدوام من الناحية البيولوجية قيمة واحـــدة لا تتغير · فالعامل العلى الذى يفترض فيه أن يدمغ بطابعه ثلث قرن بوصـــفه مدة تطور (أو نمو) ويطبع الثلث الآخر على أنه مدة تدهـــور ، ذلك العامل العلى لا يعمل على فترات من ثلاثين عاما ، ولكنه موجود على الدوام فى كل فترة من الفترات الثلاث · وليس العامل ضمنيا فى الجيل البشرى : ذلك لأن الجيل انما يقدم المادة التى تحدث فيها العملية · ومن المحـال منطقيا وضع تاريخ قرن بأكمله داخل اطار نظام مكون من ثلاثة أجيال · على أن النظرية تصبح أصح حين تطبق على ظاهرة ثقافية واحدة واضحة الحدود· ولكن حتى هذه الحالة تكون صحتها خادعة ، اذ من المعلوم أن الجيـل فى حد ذاته ، لو نظر اليه نظرة بيولوجية ـ شىء مأخوذ على الدوام أخذا تعسفيا تاما ، ولا يمكن اعتباره مسئولا عن دور تطـــورى تمر به ظاهرة تاريخية معينة · ولكن فى هذه الحالة ، كما هو فى كل حالة تقريبا ، يبدو الاقتران بين العلوم الطبيعية والتـاريخ كانما تحـول دونه هوة سحيقة لا سبيل الى عبورها (١٨) ·

والوسيلة الوحيدة للخلاص من معضلة التقسيم المضبوط بواسطة الحقبهى ما نطرحه للبحث المدروس عن كل مستلزمات الدقة فى التفسير اذ أن تلك المصطلحات ينبغى استخدامها فى اعتدال وتواضع على الشاكلة التى يقدمها الينا فيها العرف التاريخى ·وينبغى اصطناع التخفيف فى استخدامها وألا يشيد عليها من العمائر ما لا طاقة لها بتحمله · كماينبغى ألا نعتصرها حتى تصبح يابسة كالحطبة ، وألا نطأها بالأقدام ، كماحدث لمصطلح « عصر النهضة » · بل يجدر بالمرء منا أن يتنبه على الدوام الى أن كل مصطلح يدعى القدرة على التعبير عن جوهر احدى الفترات أو طبيعتها، انما ينطوى على التحيز والهوى بسبب تلك الحقيقة ذاتها · وينبغى للمرء أن ينسى فى أثناء استخدامه المصطلحات أن « العصور الوســطى» انما تشير الى مركز وسط · وأن مصطلح « عصر النهضة » فى اللغات الأجنبية وهـو Renaissance · أنمـــا يشـــير الى ميـــلاد ثان جـــديد (أى البعث) · وينبغى لنا على الدوام أن نتهيأ لاطراح أى مصطلح ونبذه بمجرد ما يبدو لنا أنه فقد صحته فى ضوء طبيعة التفاصيل الجزئية نفسها·

والعادة أن كل مصطلح يصبح استخدامه طريقة (موضة) جديدة في الدلالة على حقبة ثقافية ، سرعان ما يكتسب نبرات وألوانا بالغة القوة الانفعالية • وفي هذا الصدد ، لا فرق بين أنواع التسمية التي قد نحاول اطلاقها على ظاهرة من الظواهر • فالأسماء الحسابية البحتة كقولهم الامبراطورية القديمة أو امبراطورية تانج أو الأسماء الجغرافية كقولهم المسينية (الايجية) ، انما تستدر ارتباطات عاطفية بنفس الطريقة التي تفعل بها المصطلحات الزائفة الدلالات مثل المذهب الرومانسي وفن الباروك• ولعل القارىء يتذكر مصطلح « العصر الفيكتوري » وما لقيه في مدى بضع سنوات قصيرة من نغمة خاصة تردد نبذا جريئا لا مبرر له واعراضا صادرا عن عنجهية شديدة •

وعندي أن كل اسم لحقبة ، يتناوله الناس ببالغ الحرفية ، أو يبالغون فيما يطلبونه وراءه ، انما يربك الفهم • من أجل ذلك تصبح المصطلحات المدموغة بطابع انعدام الحافز الانفعالي أقل المصطلحات ضررا عند استخدامها • وهي المصطلحات القومية التي تدور حول قرن عظيم او أسرة مالكة •فما لم يجنح الانسان الى قبول نظرية بالغة الاصطناع كنظرية الجيل في تقسيم القرون باعتبارها التقسيم الحق للماضي على أساس النظام التاريخي المعمول به لدينا الآن ، فان أحدا لن يرضى لنفسه دون شك أن يصبح هو الساذج الذي يتقبل مصطلحي الأربعمئات quattrocento والخمسمئات cinquecento المعبرين في تاريخ الفنون الايطالية عن القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، وان أديا أطيب الخدمات كوسائل للاتصال بين الدارسين • فمهما بلغ من أهمية شخصيات الملكة اليزابث الانجليزية أو فردريك الأكبر أو شارل الثاني عشر أو كاترين الثانية عند الناس ، فلن ينظر أي مؤرخ ذكي الى العصر الاليزابثي أو الفردريكي أو الشارلي أو الكاتريني على أنها أجزاء ذات كيانات عضوية في التاريخ • ومن هنا فلن يهم مطلقا ما اذا أقر النقاد أم لم يقروا بأن الدراما في عهد اليزابث قد استمرت الى عام ١٦٤٢•فان ذلك يعد مجرد عدم التفات بسيط الى ذكرى جيمس الأول او شارل الأول ، وهو على كل حال لا يسبب شيئا من سوء الفهم • أجل ان هذه المصطلحات جميعا سرعان ما تصبح معاني كلية مثقلة بمضموناتها ، بيد أن أسماءها في حد ذاتها تنطوي على التحذير لنا بضرورة استخدامها كأدوات وعدم جواز اعتبارها « مفاهيم » •

على أن هناك ظرفا آخر ينبغي أن يستخدم كتحذير من الاستعمال غير الحريص للمصطلحات المقبولة باتخاذها أسماء للحقب الثقافية • وهو

أن ما في ذلك النوع من المصطلحات العامة غير ذات الصفة القومية المحددة، له معان مختلفة تماما في مختلف اللغات الأوربية • مثال ذلك أن لفظة Romantisch الألمانية و Romantique الفرنسية لا تستويان في المعنى على الاطلاق ، كما أن للفظة « عصر النهضة » Renaissance قيما تختلف تمام الاختلاف في فرنسا عنها في ايطاليا •

ومع ذلك فان مجموع اتجاه الفكر التاريخي المعاصر يضطرنا الى أن نزيد في مثل هذا النوع من المصطلح كل يوم تداولا • وبالرغم من أن فون فيلا موفيتز طبق منــــذ (١٨٨١) مصطلح Barockzeit أى الباروك على العصر الاغريقي القديم ، فانه يمـكن أن يقال ان لفظة البــاروك هذه ظلت تسمية بالغة النوعية لأشكال معينة من العمارة والنحت ابان القرن السابع عشر • كما أن هنريخ فولفلن بث فيها الحياة كمفهوم عام لطراز في تاريخ الفنون وأفاد منها شنجلر • وما لبثت الكلمة حتى أصــــبحت على التدريج صالحة للدلالة لا على طراز فني فحسب ، بل وأيضــــا على طراز فكري وطراز للحياة أيضا • على أن لفظة الباروك لا تزال من حيث هذا المعنى العام الثقافي التاريخي مقصورة الاستخدام قبل كل شيء على دائرة العلماء الألمان ومصطلحهم اللغوي • وقد حدث لي منذ بضع سنوات ،عندما واجهني الاضطرار الى البحث أولا في شخصية شارل الأول ، ثم الى النظر بعده فورا في شخصية جروشيوس ، أني اكتشفت مندهشا أنهما كليهما لم يصبحا قابلين عندي للفهم الا على أساس مفهوم الباروك بوصفه سمة عصرهما •

وبهذه الطريقة تقود مشكلة التقسيم بالحقب أفكارنا عائدة بها الى الصفة التي توحد بين جميع المنتجات الثقافية في عصر من العصور ،وتخلق بينها تجانسا وألفة ، وهي الصفة التي أطلق عليها لامبرخت اسم «التناغم الانسجامي » والتي حاول عمل شبنجلر وسجله التاريخي الفاخر منحها الشكل ، والتي أشارت اليها ببالغ الوضوح تجربة بركهارت الشــــبيهة بالســـيمفونية الموسيقية ، والتي تمثل أمام الأعين دائما أبدا ولن تفقهها الألباب على الاطلاق • وكل ما في امكاننا أن نطلق عليها اسما نسـتطيع بواسطته أن نفهم بعضنا بعضا ، ولكن ليس في مســتطاعنا تحديدها • وفي هذه الحلة من عدم التحديد التي يتسم بها هدفها الأعلى ، تتكشف من جديد العلاقة الوثيقة بين المعرفة التاريخية والحياة ذاتها •

المثل التاريخية العليا للحياة (*)

لعلكم حضرتم الينا هنا مشبعين بفكرة أنه ليس ثمة سوى موضوع واحد يستطيع شخص أوتى نفاذ البصيرة فى التاريخ العالمى أن يحاضر فيه عند هذه اللحظة من الزمان وذلك الموضوع هو الخلفية التى تقوم وراء الحرب العالمية • فان كنتم من أصحاب هذا الرأى ، فانى مخلف ظنونكم ، اذ ليس ذلك موضوعى • فان أنا استدعيت ولو لمدة لحظة واحدة الرياح التى دفعتها الحرب داخل عقولكم ، فلن يكون ذلك الا بالرغم منى• اذ ليس من عمل المؤرخ التحدث أثناء العاصفة كمافعل ديموسثنيز ،خاصة وانه أصبح قاب قوسين أو أدنى ، يوم الصحو الذى يستطيع فيه مراقبة الأمم والدول وقد انجرفت فى تيار الزمن كالمزنة البيضاء فى سماء الصيف •

ولعلكم ستلاحظون أنه حتى نقطة الابتداء نفسها التى اتخذتها ، وهى المثل الذى أردت به تعريفكم الى ما يشغل بالى من أفكار قد تعمدت اختياره من الماضى البعيد • برغم أن أمامنا فى الزمن الحاضر العدد الكافى من الأمثلة •

مثال ذلك أن شارل الجسور دوق برجنديا • قد داخله شأن العدد الجم من معاصريه ـ شغف جموح بالمجد ، واعجاب جارف بقادة العصور القديمة ـ مثل قيصر وهانيبال والاسكندر ـ فحاول محاولة واعية التشبه بهم وتقليدهم (١) • وقلسوضع نصب خياله صورة باذخة للعظمة القديمة ،

(*) المحاضرة « Over historische Levensidealen » التى افتتح بها المؤلف عمله استاذا للتاريخ بجامعة ليدن فى ٢٧ يناير ١٩١٥ • نشرت لاول مرة فى هارلم ١٩١٥ ونشرت ترجمتها عن الاصل الهولندى فى (Verzamelde werken) مج ٤ ص ٤١١ ـ ٤٣٢ •

وحاول العيش وفق تلك الصورة • وبعبارة أخرى اتخذ شاول لنفسه مثلا تاريخيا أعلى فى الحياة •

وأريد أن أحدثكم اليوم عن هذه المثل التاريخية العليا للحياة : عن الطريقة التى قد تؤثر بها المفاهيم التاريخية أو قد تسيطر بها على تطور ثقافة أو دولة أوفرد ، وأحدثكم عن الطريقة التى تقدم بها الأفكار التاريخية نفسها أحيانا بوصفها أمثلة مباشرة يمكن محاكاتها وأحيانا أخرى باعتبارها رموزا ثقافية ملهمة ، وعن الطريقة التى تحاول بها البشرية ــ اذ تنظر خلفا والى أعلى الى مثال وهمى للكمال فى الماضى ــ أن تدفع نفسها أماما بواسطة ذلك المثل الأعلى • أو تقضى وقتها تحلم بمثل هذا الوهم الخادع • ولو أنى وضعت لموضوعى حدودا مختلفة شيئا ما ، أو أكثر اتساعا شيئا ما ، فربما وجب أن أدعوه باسم « الحركة الرومانسية والثقافة » أو « النهضات » أو أدعوه بطريقة فيها مفارقة أوضح فأقول « تأثير التاريخ فى التاريخ » • ولكننى لو عمدت الى تلك العناوين لصرت كمن يعد بأكثر مما يستطيع البر به ، ومن ثم فسأقتصر على العنوان الذى اخترت : وهو المثل التاريخية العليا ــ أو بالأحرى ، بعض المثل التاريخية العليا ــ فى الحياة •

وهناك سؤالان لهما ارتباط بفلسفة التاريخ ، وهما يبدوان للعيان على الفور • غير انى تمنيت لو تجنبتهما جميعا ، وان وجب على رغم ذلك أن أكون على ذكر منهما • وها هو السؤال الأول منهما : هل من حقى اعتبار مثل «هذه» المفاهيم التاريخية عوامل ناشطة حقا فى التاريخ ، والتحدث عن أثرها على أنه شىء مستقل ؟ أليست هذه المفاهيم مجرد ظواهر سطحية تدل على أعراض ، أو أشكال غير مادية تتخذها الثقافة للتعبير بها وما يستطيع أحد أن ينكر أن هذه المفاهيم دون غيرها هى الموطن الذى يبدو فيه موقف المذهب المادى التاريخى قويا • وما من شىء أدعى للثناء من تعليل تلك الأوهام التاريخية بأنها مجرد العباءة أو الدثار الخارجى الذى يخفى هدفا اقتصاديا (أو سياسيا) : أى أنها الزخارف الخارجية فى التاريخ الثقافى ، وليست أكثر من ذلك • ولا شك أن اتجاه الجهود المعاصرة هو الذى يعين دائما اى ذكريات الماضى ستكتسب القيمة كمثل عليا للحياة • ولا حاجة بنا أن نقول ان الصور التاريخية التى يرى الحاضر فيها نفسه ، هى وحدها التى قد تصبح من المثل العليا أو الرموز • فهى بقدر تلك الرؤية معتمدة فى انبجاسها على الموقف الاجتماعى أو السياسى المعاصر • ولكنها لا تكاد تحضر فى العقل حاملة لقيمة

فكرة أو رمز ، حتى (وهو تنازل قام به نفس المذهب المادى التاريخى من زمن بعيد) تواصل العيش مستقلة ، كما أنها ــ بوصفها فكرات ــ تستطيع التأثير فيما يعقب ذلك من تطور في الأفكار والمواقف • وعندى أن من الحق ، أن فكرة الاشتراكية نفسها تزودنا بخير مثال على الاطلاق • فاذا نحن اغفلنا مسألة السبب الجوهرى فى انبثاق المثل التاريخية العليا وقصرنا جهودنا على ما تقوم به من دور كعوامل فى التاريخ ، تجنبنا خطر التورط منذ البداية نفسها في سؤال من أصعب أسئلة فلسفة التاريخ •

ومن السهل بمساعدة بعض الحالات الخاصة ، أن نوضح كيف أن مفهوما تاريخيا ، باعتباره مثلا يحتذى أو مبدأ يسترشد به ، يستطيع بصورة مباشرة جدا التأثير في الأفعال الشعورية الواعية الصادرة من فرد او حكومة • وغنى عن البيان أن المثال الذى ضربناه لشارل الجسور مناسب أبلغ المناسبة • فان حياته كلها مدموغة بطابع المطاردة العمياء لمثل أعلى وهمى كالسراب • أما ما نجم عن ذلك في التاريخ العالمى من عواقب لتقلبات الزمن بتلك الحياة العجيبة ، فشىء معروف للجميع • أما سميه ومثيله فى الروح شارل الثانى عشر ملك السويد ، فانه بالمثل وضع شخصية جوستافوس أدولفوس نصب عين خياله أثناء كفاحه فى سبيل القوة والسلطان : فحاول أن يجعل حياته تقليدا شعوريا واعيا لحياة جوستافوس ، بل لقد رجا أن يموت بنفس الطريقة التى لقى بها بطله المحتذى مصرعه • وحدد لويس السادس عشر موقفه من «المؤتمر» (*) على أساس دراسة دءوب لتاريخ شارل الأول ملك انجلترا • وفى أثناء فترة الاعداد لالغاء رق الأرض فى الروسيا منذ ١٨٥٧ فما تلاها ، كانت الصيحة المتعالية بين جماعة محبى الصقالبة Slavophiles (وهى بعد جماعة أدبية رومانسية قبل كل شىء) ينطوى على حماسة لشيوعية زراعية اخطئوا فزعموها لنزعة روسية أصيلة وتقليدية ، ونظروا اليها نظرة تمجيد مترعة بما للأناشيد الريفية من روح رومانسية • ومن الجلى أن تلك العاطفة هى التى حددت قرار الحكومة فى جعل الملكية الشائعة لأراضى القرى أساسا للنظام الزراعى الجديد • ولهذا المثال الأخير أهميته•

(*) المؤتمر الوطنى Convention Nationale هو الجمعية الثورية التى أعقبت الجمعية التشريعية فى ٢٠ سبتمبر ١٧٩٢ ، وقد أعلن الجمهورية وقضى باعدام الملك لويس السادس عشر ، وانشأ لجنة السلام العام ، وقام باصلاحات كثيرة (المترجم)

لأنه ينتسب الى موقف اقتصادى خلقه أصحابه نتيجة مباشرة لفكرة تاريخية (٢) •

أما السؤال الثاني الذى جال بخاطرى ، فهو أبعد مدى أو يكاد • وسنعمد للمرة الثانية الى جعل المثال الذى نضربه نقطة ابتداء • فان قادة الحرب في العصور القديمة قد اتخذهم شارل الجسور شعوريا مثلا تاريخيا أعلى • على أنه اعتنق الى جوار ذلك مثلا تاريخية عليا أخرى من نوع أقل تحديدا ، انتسجت انتساجا أعمق بمجموع فكرته عن واجبه في الحياة : الصراع مع الكفرة (٣) وشرف أسرته وبيته الملكى ، وتلك النزعة القديمة المتأصلة في أسرته ، وهى الانتقام من ملك فرنسا ، وما امتلأ به قلبه من حب للانجليز نتيجة لأصوله من ناحية أمه • ولاشك أن هذه جميعا عناصر تاريخية قامت فى عقله ، وساعدت أيضا على تحديد تصرفاته ، وان ظل غير متنبه — أو ظل نصف متنبه فقط — الى طابعها التاريخى • فهل هناك اذن أى أساس لفصلها منطقيا عن المثل التاريخية العليا التى تنبه اليها تماما بوصفها مثلا ؟ أو لو وضعنا هذا السؤال فى صورة أعم : ألا يستمد كل مفهوم سياسى أو ثقافى مميزاته الخاصة من ارتباطاته بالتاريخ ؟ أليس كل عمل قائما على نتائج استخلصت من مفاهيم تاريخية ؟وبالتالى هل يستطيع الانسان التحدث فعلا عن حالات خاصة تؤثر المثل التاريخية فيها فيما يعقب ذلك من تاريخ ، نظرا لأن ذلك الموقف يحدث فى كل مكان وفى كل زمان ؟

لعمرى انى أعترف بأننا حين نركز التفاتنا على الفكرات التى لا يتطرق الشك الى صفتها باعتبارها مفاهيم تاريخية مستقلة ، فاننا فى هذه الحالة نقنع بفارق تعسفى الى حد ما •

على أنى هنا سأبعد من المفاهيم التاريخية كلا من المفاهيم القائمة على البحث التاريخى أو الروايات التاريخية المجسدة والمفاهيم التى هى من نسج الخيال الميثولوجى • وذلك أنى سأوقف الاعتماد على الصحة التاريخية للمفهوم صارفا النظر عنها باعتبار أنها غير ذات أهمية فى اللحظة الراهنة ؛ وكل ما يهم هو ، هل تبدى ذلك المفهوم للمدافعين عنه أنه هو الصورة الحقيقية لحقيقة مضت ؟ غير أن هذا نفسه ليس فى الحقيقة ضروريا بصورة مطلقة : اذ الواقع أنه بحسبنا أن يستطاع تصور المفهوم كحقيقة حية — وذلك لأنه حتى الشخصية القصصية المرسومة فى رواية أو قصة رومانسية تستطيع تقديم الخدمة فى هذا الصدد بوصفها فكرة تاريخية • ومن هنا ربما صح تعريف مثل أعلى تاريخى للحياة بأنه مفهوم

ممتاز يستطيع الانسان اسقاطه على الماضى • وهناك عدد لا بأس به من أمثال هذا المثل الأعلى ، وهى من النوع العام تماما فى فحواها ، وهى ما تفتأ توحى بالهامها الى حقبة ثقافة بأكملها • كما أن منها ما تثبت صحته عند تطبيقه على دولة أو أمة ، فضلا عن أن منها كذلك ما يصحب حياة شخص واحد مفرد • وسأجتزىء هنا بالحديث عن الطراز الأول وهو الطراز العام •

ولو أننا استعرضنا هذه المثل العليا فى تتابعها الزمنى على مدى آماد طويلة من الزمان ، لأومأت الينا بمسيرها فى خط معين من التطور • فان تلك المثل فى الفترات الأولى للحضارة مثل أسطورية (ميثولوجية) يعوزها الأساس التاريخى الحق • فهى مثل عليا للسعادة البحتة ، تم تصورها فى ابهام وغموض بالغ ، كما أن البعد بيننا وبينها عظيم • ثم يحدث على التدريج أن تذكر ماض حقيقى ، يبدأ فى القيام بدور أكبر — فيزداد المحتوى التاريخى ، وتصبح المثل العليا أكثر تحديدا وأقرب الى منال ايدينا • فبينما المثل الأعلى للسعادة البالغة الكمال تبحث عنه الأعين بحسرة لانه فقد الى الأبد ، تنشأ الحاجة الى العيش وفق المثل الأعلى • ذلك أن الصفة التاريخية لم تزد وحدها ، فى المثل الأعلى بل زادت كذلك الصفة الأخلاقية •

والى جوار المثل الانسانية العامة ، تنشأ أيضا مثل خاصة من المثل التى لا يجعلها فحواها الضيق المحصور صحيحة الا بالنسبة لمجموعة بعينها • تلك المثل هى بنوع خاص المثل القومية • وقد عاشت الأخيرة بعد زوال المثل الانسانية العامة ، ومرد ذلك أنه بينما أزال الفكر التاريخى العصرى آخر آثار مافى الأخيرة من فخامة وامتياز ، بحيث فقدت سحرها الساذج بوصف كونها أمثلة مباشرة للعيش ، فان المثل التاريخى القومى الأعلى يمتص من التاريخ المزيد فالمزيد من الغذاء كلما زاد الاكباب على دراسته استقصاء • ورغم ذلك فانه يظل فى العادة مجرد رمز أكثر منه مثالا أعد للمحاكاة المباشرة • ولم يعد العالم العصرى يلتمس المثل التاريخية العامة للفضيلة والسعادة ، ولكنه يزداد طلبا للرموز التاريخية الحقة المعبرة عن الآمال القومية •

أن أقدم مفهوم لكمال الماضى انما هو فى الوقت نفسه أشد صنوفه عمومية : وهو مفهوم العصر الذهبى باعتباره الحقبة الأولى للانسان ، على ما عرف لدى اليونان والهنود (٤) • وسأخرج هنا من مجال بحثى الشكل

الخاص الذى يتخذه المفهوم فى قصة الفردوس الأرضى • ومن المعلوم أن رؤيا العصر الذهبى Kertayugam شملت المجموع الكلى لجميع أنواع المتع السوقى منها والرفيع ، ابتداء من مسرات أرض الوفرة والمباهج Cockaigne الى الاستمتاع بالتامل فى الله • على أنها تحتوى فى الطليعة مما تحتوى على السلام والبراءة وغيبة القوانين والشباب الأبدى وطول العمر • وكانت تلك الرؤيا لدى الأقدمين من المثل التاريخية العليا بأوفى وأكمل معانى الكلمة • فلم يقتصر أمرها على أن اعتبرها هسيود فحسب شيئا تاريخيا (٥) ، بل عالجها على هذا الوصف أيضا تاكيتوس وبوسيدونيوس •

غير أن هناك شيئا واحدا لم يشمله المفهوم : هو الوعد بالعودة أو الدافع المثير لكل امرىء أن يبذل طاقاته فى مجهود يقوم به لاسترداد تلك السعادة السابقة • ومن الناحية الأخرى تطورت كذلك فى ارتباط وثيق بفكرة العصر الذهبى فكرة جزر السعداء Elysium • ولو تاملنا الأساطير الهندية واليونانية المتأخرة ، لوجدنا مرحلة الانتقال التى يجعل بها ملك العصر الذهبى فيما مضى (وهو عند الهنود ياما وعند اليونان كرونس) حاكما بعد ذلك فى جزر السعادة (٦) • ولكن بينما كان المظنون أن الاليسيوم عند هوميروس وجزيرة السعداء عند هسيود ، انما يقومان على الأرض بمنطقة نائية ، نائية جدا فى الغرب ، وأن الوصول اليها يتم بغير موت ، فان ياما الهندى منذ عهد الأتهارفا فيدا كان « أول من هلك بين جميع البشر الفانين ، وأول الذين انتقلوا الى العالم الآخر .... » (٧) ، ولم يلبث المثل الأعلى للسعادة التى قامت من زمن بعيد بالغ البعد بأرض نائية بالغة النأى ، ـ لم يلبث حتى أصبح تصورا لحالة أخرى مستقبلة • وهو تحول لم يكن منه مفر : فان المثل الأعلى للسعادة المطلقة ، قد وجب عليه أن يعبر حدود الحياة ، وأن ينطلق الى متسعات التشوف الى الخلود •

ومن البديهى أن كل فترة من فترات الحضارة تتسم بحنين قوى الى المطلق ، مثل الفترة الأولى المبكرة من فترات البوذية أو زمن العصور الوسطى المسيحية ، لا بد أن تتغلب فيها الدار الآخرة تغلبا تاما على جميع المثل الثقافية العليا فكرات عن العالم الآخر • وواضح أن مثل هذه الفترات انما تتركز على الموت لا على الحياة • بيد أن أحدا من الناس لا يمكن أن يتخلى عن العالم والحياة وينبذهما بمثل هذه الشدة البالغة ،

كما أن الأمل فى الخلود لا يمكنه بأية حال امتصاص ثمالة لا تنضب من الطاقة الحيوية الباحثة فى الأرض عن السعادة والكمال •

أفلا نستطيع اذن التحدث عن المثل الثقافية العليا من هذه الوجهة ؟ لا • والسبب في ذلك أن فكرة اتصـاف الثقافة بالكمال غريبة عن أهل العصور الوسطى : اذ لم يحاول أحد النظر فى فكرة التطور التدريجى القائم على أساس الموقف الاجتماعى، كما أن الاحساس بالتحول المتواصل الذى هو قوام القوة الدافعة لكل ما فى العالم اليوم من رغبات اجتماعية وسياسية ، لم يكن له أى وجود لديهم • والمثل الأعلى الوحيد للسعادة فى القرون الوسطى الذى يمكن تســميته بالمثل الثقافى الأعلى بمعنى الكلمة الحق ، هو فكرة السلام العالمى ، الذى هو المثل الأعلى لدانتى •

أما جميع ما عدا ذلك من مثل عليا ، فلم تقم فقط على استعراض للماضى ، بل هى سلبية الى حـد كبير • وقد أنكرت الثقافة نفسها حين بدأت من فرض عميق الجذور هو أن كل شىء كان خيرا فى الأزمنة القديمة منه اليوم، وأنه لابد من رجعة الى ما كان للأخلاق والقانون من نقاء أصلى• وغلبت على الناس كراهية الزمن الحاضر ، ورغبة شديدة فى الفرار من الكراهيه والشقاء والظلم والصراع ، وادبار عما فى الأرض من حقائق ، أو بكلمة واحدة تفكيك الأغلال والروابط moksha — تلك هى الحلقة الجوهرية التى ربطت بين الأمل فى سعادة على الأرض وبين رجـاء السعادة السماوية •

والأشكال التى يمكن التعبير بهـا عن الفرار من يومنا الحاضر محدودة بحكم طبيعة الأشياء • والاشكال الثقافية على وجه الجملة محدودة جدا • ففى هذه الحالة التى كانت فيها نقطة البداية تقوم دائما فى المقت الشديد لما فى الحياة من تنوع وضجيج رهيب وجعل فيها الهـدف على الدوام البساطة والصدق والهدوء والسلام ، لا يمكن الاستفادة الا من عدد قليل من الأشكال •

وربما زعم بعضهم أن بين مفاهيم الماضى التى تروق الناس باعتبارها مثلا أعلى ، مفهوما ربما كان منذ البداية نفسها بالغ الوضوح كنموذج رفيع يتأسى به الناس : هو حياة المسيح والرسل ، المثل الأعلى للفقر الذى يحبذه الانجيل • ومع ذلك فقد كان من الضرورى أولا لأية فكرة تاريخية جديدة أن تتطور ، أى أنه قد وجب على صورة تاريخية للمسيح ، صـورة يراها الناس بوضوح ويمارسون فيها ألوان العذاب ، أن تنشأ الى جوار الصورة

الدينية قبل أن يحصل النموذج الانجيلي على قيمته العملية وأثره القوى كمثل أعلى للحياة • ومن العجب أن عبارة « ان شئت الكمال ، فاذهب وبع ما تملك وأعطه للفقراء » لم تصب مكانها في العقول كأمر واجب التنفيذ الا في القرن الثاني عشر • فان برنارد من كليرفوه لمحها بخياله المشرق ، وأدخلها كل من بطرس والدو وفرنسيس الأسيسى في العالم على اعتبار انها طريقة للعيش • فقد صاح بنا القديس برنارد قائلا : « ما الذى علمنا الرسل المقدسون، ولايزالون يعلموننا اياه؟ لقد علمونى كيف أعيش•» (٨) انه مثل أعلى تاريخى شعورى للحياة • وقال دانتى ، انه بعد انقضاء احدى عشرة مائة من السنين وأكثر أصيبت الفاقة ، وقد جردت من زوجها الأول — بالتحقير والاخناء وخمول الذكر ، حتى جاء القديس فرانسيس (٩) • ولقد كانت محاكاة المسيح ، كما تجلت في شخص القديس برنارد احياء وبعثا ، وعندما عمد توماس آكمبس فى ترسمه الوثيق لخطى القديس برنارد الى اعلانها من جديد بعد ذلك بثلاثة قرون ، كان ذلك احياء و بعثا لها : أى ميلادا جديدا لميلاد جديد •

ولا ريب أن الأمل الأساسى الكامن وراء ذلك كله ، وهو التخلص من الربقات والتحلل من الارتباطات ، لم يكن في الامكان التعبير عنه بطريقة أنقى منها في المثل الأعلى للفقر • وقد تغلب المثل الأعلى للفضيلة والأساس الالهى السماوى الى أقصى حد على المثل الأعلى للسعادة • برغم أن الثانى وهو الوعد بالسعادة على هذه الأرض قد ظل قائما هو أيضا (١٠) • وكذلك لم يحدث قط أن الدافع على هجران المنزل والتخلى عن الممتلكات كان في يوم من الأيام دافعا لاهوتيا فحسب ، انما هو أيضا التخلى العريق القدم عن الثقافة تخليا مقصودا لذاته ، وهو تشرد مقدس ، لقى فيه رجال ليون الفقراء وأول أتباع فرانسيس ، لقوا فيه العابث اللاعب والحاج والعالم المتجول والسفيه المفحش •

ومهما يبد التباين قويا عند أول نظرة نلقيها ، فثمة رغم ذلك رابطة وثيقة بين الفقر كمثل أعلى مساير لتعاليم الانجيل وبين حياة الرعاة كمثل أعلى ، والرابطة بينهما ، هى العاطفة الرعوية • فالحياة الرعوية بدورها دلت على نبذ الثقافة ، وحنين الى البساطة والصدق • ولكن على حين تخلى المثل الأعلى المتمثل فى حياة الرعاة عن الثقافة مفضلا عليها الطبيعة والمتعة ، فان المثل الأعلى المتمثل فى الرسل والدين أعرض عن كل من الثقافة والطبيعة مقابل الفضيلة والأمل فى السماء • ثم ان الأثر العملى لكل من المثلين الأعليين اختلف كذلك اختلافا بعيدا • فان محاكاة الفقر والتشبه به عد شيئا بالغ الجدية عند من يمارسونه • ولست اخال أحد يشك فيما أحدثته

تلك الفكرة في التاريخ من أثر هائل • غير أن تقليد حياة الرعاة ــ من الناحية الأخرى ــ لم يزد كثيرا عن ضرب من ألعاب الجماعات • ونحن نشك في أن هذه الصورة الخيالية الرقيقة الحالمة قد أثرت حقا في أى يوم من الأيام في التطورات الثقافية •

ان وهما خادعا لم يسحر البشرية بمفرده الى مثل ذلك الزمن الطويل وبمثل تلك الروعة المتجددة ، مثل وهم ناى الراعى الناضج بالشجن ، والحوريات المرتاعات بين خشخشة الآجام وتمتمة الغدران • وهذا المفهوم يمت بأوثق أواصر القربى الى مفهوم العصر الذهبى ، كما أنه يتواكب واياه على الدوام : فهو العصر الذهبى وقد بثت فيه الحياة • وبقدر ما يتجلى فى الخيال الرعوى وجود فكرة سعادة تقوم فى أغوار الماضى السحيق (قارن هنا ما كتبه هوراس فى جزيرة السعادة Beatusille (١١) يستطيع المرء منا أن يتحدث فى هذه الحالة أيضا عن مثل تاريخى أعلى ، أى مثل أعلى أساسه استعراض الذكريات • ومن النادر أن تقع القصيدة الرعوية فريسة للخلط بين النوازع الريفية الحقة وبين كوريدون ودافنيس (*) •

ولم يحدث قط أن كان القصيد الرعوى ساذجا وعلى الفطرة حقا • فمرده فى شخص ثيوقريطوس نفسه السأم بالمدينة : فهو فرار من الثقافة • ولو تأملت ما ظهر منه حتى فى أبكر الأزمان ، لاستمعت بين حين وآخر الى نغمة التهكم والى التنبه الى مافى القصيدة من الكذب • ذلك أن القصيدة الرعوية قد واصلت العيش على مجموعة متتالية من الابتعاثات • فثم ابتعاث لها عندما تحول شعراء الرومان فى عصر أوغسطس الى النزعة الرعوية ، وثم ابتعاث جديد عندما تطورت الرمانس الرعوية المتأخرة ، وآخر عندما راح الثقلاء ممن انتحلوا العبقرية Beaux-esprits فى بلاط شرلمان ، يتشحون بثياب ثيرسيس وادامويتاس ويوم تغنى الكوين بذكر طائر الوقواق(١٢) • ثم حدث فيما بعد أن القصيد الغنائى الفروسى تنال الفكرة الرعوية وطورها فيما يسمى بأناشيد الراعيات Pastourelle • على أن الخيال الرعوى ازدهر فى القرن الخامس عشر ازدهارا باذخا أكثر منه فى أى يوم آخر • وهو البادىء بالنغمة التى رددت الحانها بلاطات أورليان وبرجنديا ، كما رنت لحونها فى بلاط لورنزودى

(*) كوريدون Corydon : هو فى الميثولوجيا راع من صقلية وينسب اليه اختراع المقطعات الشعرية الرعوية • (المترجم) •

مديتشي • وقام أحد الملوك وهو رينيه ملك أنجو بوضع ذلك المثل الأعلى موضع الممارسة العملية (١٣) :

انى رأيت ملكا صقليا
يتحول الى راع
ورأيت زوجته اللطيفة
تتخذ نفس الصنعة
حاملين جراب الراعى
ومحجن الراعى وقبعته
حيث سكنا بين المروج
قرب قطيعهما من الأغنام

ثم وفدت من أسبانيا وايطاليا المسرحية الرعوية الكبيرة الجديدة والقصة الرعوية التى لا تنتهى : حيث ظهر كل من سنازارو ومونتى مايور، وتاسو ، وجواريني ، ودورفيه • وبعد ذلك بقرن من الزمان ، اقبلت الى الوليمة بلدنا الطيبة هولندا ، فاجلست فيها بطلها الرعوى أركادياس وكأنه مدرس فلاح يلبس قبقابا من خشب • وأخيرا أجتلب القرن الثامن عشر آخر وأروع نهضة فى الذوق الرعوى : اذ ظهر واطو وبوشيه من الرسامين ، كما ظهرت أناشيد الرعاة لسالومون جسنر •

ثم خمد هذا الشكل الادبى فلم يعد له وجود • وظلت النظرية الأدبية حتى القرن الثامن عشر تعد باخلاص تام القصيد الرعوى أمثل الأنواع الأدبية وأشدها أصالة واشد أنواع التعبير عن الطبيعة كمالا • ثم ران الاهمال على محجن الراعى المعقوف وشبابته القصبية ونايه المنسوب الى بان (*) بوصفهن أدوات وخاصيات قديمة الطراز • لقد أصبح الشكل فى النهاية رثا مهلهلا ، بيد أن الحاجة الروحية التى تولدت عنها القصيدة الرعوية استمرت : ولم يكن ذلك فحسب فى بول وفرجينى لبرنارد آن دى سان بيير بل بعد ذلك بأمد بعيد جدا ، أى الى أيامنا هذه • ولايزال بان الى الآن أطول آلهة اليونان عمرا وأبقاها الى اليوم •

(*) بان : اله يونانى مسكنه اركاديا ، يعتبر نصير القطعان ، يمثل فى صورة رجل له قرنا التيس وأذناه وحوافره ويعزف فى ناى الراعى (المترجم) .

وبعد ، فهل كان لهذا المثل الأعلى الرعوي للحياة أى نفوذ حقيقى على الثقافة ؟ أليس مجرد تاريخ أدبى ؟ ومع ذلك فان التاريخ الأدبى انما هو التاريخ الثقافى ٠

ومما له أهمية هائلة من وجهة نظر التاريخ الثقافى ، أن الانسان نعلم كيف يعبر عن الطبيعة والحب داخل اطار القصيد الرعوى ٠ بل لقد حدث حتى فى خارج حقل الامكانيات المتاحة للتعبير الجمالى أن نشيد الرعاة أحدث تأثيره في الثقافة : فمنذ أقدم عصور التاريخ الى عهد روسو استقت فكرة « الحالة الطبيعية » قوتها وحيويتها من مفهوم العصر الذهبى والمثـل الريفى الأعلى ٠

وكذلك أيضا تجلت الحيوية المذهلة للشكل الرعوى فى السهولة التى امتزجت بها الصورة الرعوية بالفكرات الأجنبية عنها كالفكرات الدينية مثلا ٠ وصار من الطبيعى أن أفكارا مثل « رعاة بيت لحم » و « الراعى الصالح » ، بل حتى « حمل الله » اتصلت بالفكرات الرعوية ، ومن ثم أصبح من اليسير العثور فى فترات مختلفة على المواد الدينية مدثرة فى الشكل الرعوى ٠

ولا شك أن السبب فيما يتصف به الشكل من حيوية كبيرة هو طابعه الغزلى أساسا ـ وهو طابع اشترك فيه الشكل الرعوى مع مثل آخر للحياة أقام معه تبعا لذلك ارتباطات وثيقة وهو المثل الأعلى للفروسية ٠

وبهذا المفهوم نصل الى مثل أعلى آخر للحياة له فحوى انسانى عام ، وهو يختلف تماما فى طبيعته عن المثل الأعلى الرعوى : فهو مادى أكثر منه كثيرا وحقيقى أكثر منه كثيرا ٠ هذا الى أنه بوجه خاص مثل أعلى ثقافى ذو أصالة أكبر كثيرا ٠ والصورة الخيالية الأركادية (*) مهما يبلغ من أهميتها فى النهوض بتطور الحضارة ، لن تزيد فى التحليل النهائى عن عنصر من الحديث المهذب ، ولا أكثر من ذلك ٠ ولم يكن لها الا أثر محدود على واقع الحياة الحقيقية وأعمال الناس ٠ أما فكرة الفروسية ، فانها من الناحيـة الأخرى ، قد تغلغلت فى كل أجزاء الحياة الثقافية وصارت مصدر الهـام الدول والقادة العسكريين ٠ فعلى حين أن القصيد الرعوى قد تولد عن الحنين المحض الى الأوطان ، فان الأصل فى المثل الأعلى للفروسية هو الأساس

(*) أركاديا : الهضبة الوسـطى بالبيلوبونيز (المورة ٠) ، سـكنها الرعاة والصيادون ٠ ورفع الادب طرائق حياتهم الى مستوى المثل بوصفها حياة لينة خالية من الهموم ٠ (المترجم) ٠

الوطيد للعلاقات الاجتماعية : وقد انبجس على أنه طريقة عيش احـدى الطبقات التي امتازت بقوة حيويتها ٠

وأدى تطور النظام الاقطاعي الى ظهور الفروسية كطبقة من الطبقات ، ولكن أصولها كطريقة للحياة أعمق مكمنا بكثير ، اذ تمتد تلك الأصول الى العادات الدينية فى الثقافة البدائية (١٤) ٠ وتنبثق أهم العناصر الثلاثة فى حياة الفروسية وأعظمها شأنا ـ والعناصر الثلاثة هي رسامة الفارس ومنازلات البرجاس والعهد ـ انبثاقا مباشرا عن الطقوس الدينية العريقة القدم ٠ ترى هل يعود السبب الى حد ما فى أن المثل الأعلى للفروسية اتخذ منذ البداية السمة الاسترجاعية للذكريات ، أو قل التاريخية (ان شئت) أقول هل يعود السبب في ذلك الى وجود تنبه غامض الى تلك الاصـول العريقة القدم ؟ وقد ظهرت الفروسية حتى وهي فى أوائل أطوار نموهـا بوصفها طريقة واقعية للعيش في أثناء القرن الثاني عشر ، فى صـورة انبعاث ، وبدت في صورة الابتعاث الواعى لماض رومانسي ، سواء أطلب الناس ذلك الماضى فى التاريخ القديم ، أم فى أيام شرلمان أو فوق كل شيء فى حلقة الملك آرثر ٠

وعلى ذلك فان المثل الأعلى للفروسية أصبح له بالموازنة الى المثل الأعلى الرعوى ، مضمون تاريخى أكبر ٠ اذ إن تقاليد الفروسية وجد لها أساس أقوى كثيرا قوامه ماض حقيقي ، كما أنها تعرضـت بدرجة أكبر كثـيرا للتحديد التاريخى مما فى القصيد الرعوى من صورة خيالية للسعادة مبهمة الوصف ثابتة لا تتغير ٠ وثمة فارق أعمق يتمثل فى التالى : اذ أن مفهوم العصر الذهبي والخيال الرعوى سيطر فيه المثل الأعلى للسعادة على المثل الأعلى للفضيلة ـ فالفضيلة هناك صفة سلبية ، هى قبل كل شيء براءة ، أو هى انعدام الدافع الى ارتكاب الخطيئة فى حالة البساطة والمساواةوالحرية ووفرة الخيرات ٠ أما المثل الأعلى للفروسية ، ففيه يرجع الطموح الىالفضيلة التطلع الى السعادة ٠ فان مهنة الفارس انطوت على الايثار والغيرية : أعني على حماية المظلوم وطاعة الحاكم وصالح المسيحية ، ومدار حياته خـدمة المملكة والثقافة ٠ وقد ظلت العقول التى تعيش فى عصر غير عصرها حتى القرن الخامس عشر تمجد الفروسية ، على اعتبار أنها نظام يقابل حاجات كل عصر ٠ ومن ذلك يتجلى أن تلك الفروسية انما هى مثل أعلى ثقافى خالص او يكاد ٠

ونتيجة لما انطوى عليه معنى الفروسية فى الحياة من ايثار ، فان ذلك المعنى ظل على الدوام مرتبطا أوثق ارتباط بالدين ٠ على أن تلك العلاقة

لم تكن فى الواقع اضافية بأية حال ، وذلك لأن الفضيلة عند الفروسية لم تكن فحسب منطوية على الايثار بل وأيضا على الزهد • اذ أن الأساس الزهدى يتجلى بوضوح فى عهود الفارس العجيبة ذات المظهر البدائى : بأن ينكر الفارس على نفسه كل راحة أواستقرارحتى تنجز مأثرة معينة من مآثر البطولة ، وان هذه العهود لتنم عن أصولها البدائية ، كما يبدو ذلك مثلا فى الدور الذى يلعبه فيها طريقة تصفيف الشعر واللحية • وما على المرء الا أن يسرح فكره فى عهد ليومى Lumey عند بداية الكفاح الهولندى مع أسبانيا • فهذه العهود ومعها تعذيب الذات ذو الوازع الدينى ، لها أصل مشترك يكمن بعيدا خارج نطاق تطور المسيحية ويسبقه بزمن بعيد• بيد أن عنصر الزهد فى الفارس لا يعثر عليه فقط فى مثل تلك العهود ، اذ الشجاعة نفسها شكل بدائى من أشكال الزهد : فهى أولى درجات انكار الذات ، وهى أبسط أنواع التضحية بالذات ، وهى النصر على مافطر عليه المرء من أنانية وعلى المصالح الحيويةالمباشرة ، وهى الفضيلة الأولية التى تولد فى وقت أبكر وتحتفظ بقيمتها الى زمن أطول من أى شكل من أشكال الزهـد •

الفارس الحق ينبذ العالم ظهريا • فهذا هو جاك دى لالانج الفارس المثالى فى القرن الخامس عشر ، أراد نقل حقوقه الوراثية الى أخ أصغر منه : « وذلك لأنه ركز كل همه فى استخدام حياته وتعريض جسمه للمخاطر والمهالك فى خدمة الله وفى أن يظل عند حواشى تخوم الكفرة دون العودة بعد ذلك من هناك أبدا » (١٥)

ولا مراء أن هذه السمة العميقة القرار ، سمة التضحية بالذات ، هى التى جعلت من السهولة بمكان طبع المثل الفروسى الأعلى بالطابع الروحى التام (١٦) ـ ذلك الطابع الروحى الذى تجلى فى ذلك التسامى والصعود من شـعر التروبادور الى قصـيد دانتى « الحيـاة الجـديدة » ومع ذلك ، فان تلك التضحية بالذات متأصلة الجذور فيما للمثل الفروسى الأعلى من تربة غزلية عميقة • وليس فى امكاننا أن نبرز بالقدر الكافى كيف أن وظيفة الفروسية وجدت فى منازلات البرجاس أعظم وسـيلة للتعبير عنها، وأن البرجاس ان هو ـ الا أشد أشكال المباريات الغزلية رشاقة وأكثرها نفقة فى الزينة ، وهى المباريات التى لا تقع أصولها فحسب خارج دائرة الثقافة العليا بل وأيضا خارج نطاق الثقافة البشرية عامة • اذ أن العنصر الجوهرى فى كل من الطعان والعهد الفروسى هو وجود النساء اللواتى يسفح الرجل دمه تحت أبصارهن أو يعرض عليهن شجاعته وقوته • ومعلوم أن هذا العنصر الجنسى ظل يشاهد بوضوح ويعبر عنه طوال العصـور

الوسطى • ومنه انبثق كل ما تحتويه الفروسية من عنصر رومانسى : كموضوع الفارس الذى خلص العذراء الجميلة ، وموضوع الفارس المجهول الذى أفضى ظهوره غير المنتظر وشجاعته الحاسمة الى تركز الأبصار كلها عليه ، وبعبارة موجزة جميع أجزاء الوضع الزاهي الألوان والخيال العاطفى الذى تزدان به نزالات البرجاس pas d'armes •

وفضلا عن ذلك فان هذه هي أيضا الرابطة التي تربط ربطا وثيقا بين المثل الأعلى الفروسى وبين القصيدة الرعوية • ذلك أن المثل الأعلى الفروسى أدخل التوتر على الخيال الهش الذى اعتاد الضرب الادبى genre المسمى بالرعوى أن يلفق به متعة حرة لا يشوبها مكروه بين أكناف طبيعة فردوسية ، ومثال الفروسية هو الذى تناول باعث الضعف فى القصيد الرعوى وهذبه وشرفه ورفعه الى عنصر المغامرة والمعركة •

ومن اليسير علينا الايماء الى ما للمثل الأعلى الفروسى من أثر مباشر في التاريخ • ففى المقام الأول ، لعب كل من قصيدة الحب الاستقراطى السائد في البلاط وقصة الرومانس الفروسية ـ شأن القصيد الرعوى ـ دورا هاما جدا في تطور الحاسة الجمالية • ولكن المثل الأعلى الفروسى أوتى نفوذا دائما على العلاقات والأحداث السياسية والاجتماعية • ومن ثم فانه حتى العلماء الذين يعتقدون أن عملهم الأساسى هو مجرد تعقب الأسباب الاقتصادية ونسبة كل حرب في العصور الوسطى اليها ، مضطرون أن يعترفوا المرة تلو الأخرى بآثار المثل الأعلى الفروسى على كل من طرائق الحرب ونتائجها • فالملوك يعرضون أنفسهم لأخطار أشد المعارك عنفا • وجازف خيرة الفرسان بأنفسهم فيما خاضوا من معارك مفردة دبرت مقدما • وأن منهم لمن يتقبل خوض احدى المعارك من أجل الشرف الفروسى وحده • وان منهم لمن يؤثر اقتحام أراضي الأعداء اقتحاما مباشرا لأن فى زحفه فى الطريق الملتوى خروجا على أصول الفروسية • وان منهم لمن خاطر بنجاح احدى المعارك من أجل عادة شكلية تقضى بأن القائد الذى يمضى الليل فى ميدان القتال يعد هو المنتصر (١٧) •

وكان للمثل الفروسى الأعلى نفوذ خارق في قوته ودوام أجله كطريقة للعيش • والواقع أن جميع الأشكال العليا للحياة البورجوازية فيما تلى ذلك من عصور ، مؤسسة بالفعل على محاكاة ما للنبلاء في القرون الوسطى من طرق العيش • وكان أبطال الطبقة الثالثة أى العامة من أمثال فيليب فان أرتيفلد وجاك كور Coeur قد عاشوا حياتهم كلها فى اطار مثل الفروسية العليا وأشكالها • ولاشك أن حياة البلاط ومفاهيم البلاط

عن الفضيلة والشرف ادت الى ظهور السيد المهذب (الجنتلمان) فى عصرنا الحديث ·

وهناك فوق هذا نقطة لابد من التأكيد عليها في ثنايا هذا النظر فى المثل الأعلى الفروسى والرعوى · تلك النقطة هى : لماذا مرت على كل من مثلى الحياة الأعليين هذين مجموعة من « الانبعاثات المتكررة » ؟ ولا يختلف موقف الفروسية من هذه الناحية عن موقف القصيد الرعوى ، ففروسية القرن الرابع عشر ان هى الا خلق جديد متعمد لفروسية القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، كما أن فروسية الخامس عشر لا تختلف عن ذلك ، وهكذا دواليك · وقد يبدو أن السبب فيما يصيب هذين المثلين الأعليين من انحطاط الطاقة وتجديد الحيوية يرجع الى ما فيهما من درجة عالية من الزيف · فالادعاء الخطير الذى يحتج به المثل الأعلى الفروسى لتحقيق ذاته فى العالم هو نفسه العلة فى الحد من قوته الدافعة · حتى ليجوز لنا القول بأن المثل الفروسى أخذ يتعرض دواما لتفريغه من مضمونه ، وكم جاءت مرة فى اثر أخرى فترة حافلة بأعلى درجات تزييف الحياة وخداع الذات تعقبها فترة من رد فعل · ذلك أن مواصلة استبقاء ما للمثل الفروسى الأعلى من وهم خائل فى الحياة الواقعية احتاج الى قدر من الرياء والنفاق لم يسمع بمثله الناس · ولم يكن يتيسر فعل ذلك دون حمرة خجل تتصاعد الى الوجوه ، الا داخل الدائرة المجاورة مباشرة للحاكم · فقد تكرر حوالى عام ١٤٠٠ اعداد أشد أنواع الاستعدادات جدية وتفصيلا للقيام بالمنازلات الفردية بين حاكمين لتسوية ما بينهما من خلافات ، وهى نزالات لم تجر الا بمقدار ما جرت الحملات الصليبية التى أعلن أصحابها اعتزامهم خوضها اعلانا مصحوبا بأغلظ الايمان وأشد العهود دويا · وهناك المعركة التى وجدت على الدوام أجمل الثناء وهى معركة « الثلاثين مع الثلاثين » التى تعد فى الذروة بين أنواع القتال الفروسى، ولكنها فى الواقع اتخذت مسلكا زريا الى حد ما ، حسبما يقرر فرواسار بنفسه (١٨) ·

وكان أنصار المثل الأعلى للفروسية أدرى الناس بما هو عليه من تمويه وزيف ، ومن أجل ذلك حدث منذ البداية نفسها تقريبا ، أن نزع ذلك المثال بين حين وآخر الى انكار ذاته بالتخفى وراء التهكم واللمز وخلط الجد بالهزل واللمسات الكاريكاتورية · ولم يكن كتاب « الدون كيشوت » الا آخر وأعلى تعبير عن ذلك التهكم : ويسير ذلك الخط فى العصور الوسطى من اولها الى آخرها · وقد يشوقنا أن نعلم أن ما يسمونه « عهد البطل » وهو الحادثة الذائعة الصيت التى حدثت فى بلاط ادوارد الثالث ملك انجلترا ، قد جرت فصولها كلها بين المزاح والضحك : اذ صرح جان دى

برمونت فارس هاينولت الفاخر فى سخرية بأنه يريد خدمة المولى الذى ينتظر منه أكبر قدر ممكن من المال (١٩) • وذلك بينما نجا المثل الأعلى الرعوى من مثل هذا الانحلال الدائم ، ولم يتعرض له بقدر تعرض مثال الفروسية الأعلى ، نظرا لبعده عن الحقيقة وقلة ما بينه وبينها من اتصال • ومن عجب أن سرفانتيز نفسه أخذ النزعات الرعوية مأخذ الجد •

وفي الحين نفسه ، شرعت فكرة أخيرة عن الكمال تحتل مكانها فى عقول الناس رويدا رويدا ، وهى فى هذه المرة مثل تاريخى أعلى للحياة بادق معاني الكلمة : هى مثال العصور القديمةاليونانية والرومانية•وليس ثم شىء أقل دقة من الفكرة القائلة بأن المثل الكلاسيكى الأعلى قد تنفس فجره فى ايطاليا ابان القرن الخامس عشر مشرقا على الانسانية اشراق الشمس • فان صورة وقورة مجيدة للعصر القديم سطعت طوال العصور الوسطى ، وكل ما في الأمر أن أحدا لم يميزه تماما ولا أدركه بوضوح • والواقع أن انبعاثا كلاسيكيا وجد مهدا دفينا ، لا بين أحضان المذاهب المدرسانية (الاسكولانية) ودراسة القانون الروماني فحسب : بل وجد عناصر كلاسيكية هامة حتى في الأشكال الفروسية للحياة التى تعدها طريقتنا في التفكير شيئا يمت الى القرون الوسطى الى أبلغ حد طرازى • فان نظام الحب السائد فى البلاط مستمد الى حد غير قليل من مصدر لاتيني: ولا مراء أن لأعمال أوفيد وفرجيل فى فكر العصور الوسطى أهمية تعلو كثيرا على مجرد كونها من كتب الحكايات (٢٠) •

ومما يبعد عن الصدق بعد الرأى القائل بأن المثال الكلاسيكى لم يولد من جديد حتى جاء « عصر النهضة » ، زعمهم بأن المثلين الأعليين المسيحى والفروسى قد استؤصلا عند ذلك • وحقيقة الأمر ضد ذلك ، فان ما نسميه « عصر النهضة » ، انما هو نتاج المطامح والآمال الكلاسيكية والفروسية والمسيحية ، تلك المطامح التى يتبوأ فيها العنصر الكلاسيكى منزلة القوة الدافعة الرئيسية ، ولكنها ليست القوة الدافعة الوحيدة(٢١)• وقد علمنا عمل بركهارت الذى يعد نسيج وحده ، أن نعد الطموح وشيئا من حاسة الشرف الخصيصتين المركزيتين الهامتين لدى رجل « عصر النهضة » • وفى الامكان تفسير هذين الأمرين بطريقة أسرع بأنهما الامتداد المباشر للشرف الفروسى لا بوصفهما نتيجة لانتعاش الدراسات الكلاسيكية (٢٢) واحيائها • وقياسا على المثل القديم « ما كل ما يتلألأ ذهبا » ، نقول : «ليس كل ما يتلألأ فى عصر النهضة تبرا من ذهب العصور القديمة » : ألا ترى أن الأخيلة الفروسية الممعنة فى بعدها عن النزعات

الكلاسيكية فى قصص أماديز(*) الرومانسية، كيف ظلت متسلطة فى عقول أبناء القرن السادس عشر ؟

والسبب الذى من أجله برز المثال الكلاسيكى متساميا فوق كل شيء آخر فى حياة « عصر النهضة » ، هو أن محتواه التاريخى أدسم وأغنى كثيرا من محتوى المثل الأعلى للفروسية ، وأنه يعد بمعنى اجمالى أرحب ، مثالا ثقافيا حقيقيا • ومن المعروف أن طريقة العيش الكلاسيكية هى الأولى من نوعها التى أمكن جعلها نموذجا يحتذى حتى فى أدق تفاصيله • ومن المعلوم أن العصور القديمة زودت الناس بالارشاد والتوجيه وأمدتهم بأروع الأمثلة فى كل شكل من أشكال التعبير • اذ كان من الميسور لفن الرجل من الناس أو علمه أو أسلوبه فى الرسائل ، وفصاحة لسانه ومفاهيمه عن الدولة والتكتيك الحربى وفلسفته وعقيدته ، التشبع بالقديم المقدس أو مسايرته ، لأنه عصر كان يزود الناس بالوفرة الغزيرة التى يجد فيها المثل الأعلى غذائه الدسم •

وكانت الزيادة فى الثراء الفكرى هى بيت القصيد ، وليست المحاكاة • فأما الثقافة العصرية فانها لم تستمد حيويتها عن طريق محاكاة مستمرة للعصر القديم ، بل عن طريق تسرب الروح والشكل الكلاسيكى تسربا يبث الحياة والقوة والحيوية • ذلك أن المقلد الذى أجهد نفسه فى تقليد شيشرون أو برونس قد أصبح مخلوقا ممقوتا مستحيلا يماثل فى استحالته الراعى فى صالونات القصور أو الفارس الكامل • ومع أن المحتوى التاريخى فى مفهوم العصر القديم كان أضخم وأكبر ، فليس معنى ذلك أن هناك زيفا أقل فى التعبير العملى عنه فى حياة أنصار الحركة الانسانية • فان كل انسانى محب للظهور ذرب اللسان من كل خوان أجوف ، وكأنه الطاووس فى كبريائه ، سرعان ما كان يفقد مكانته فى أعين معاصريه • وها هو ذا صوت رابليه يدوى بالضحك منه •

وطالما رأى العالم فى العصور القديمة اليونانية والرومانية كمالا موضوعيا جديرا بالمحاكاة على كر العصور جميعا ، ثم عاد بناء على ذلك فنسب اليها الصحة المعيارية وجعلها مرجعه الوثيق المطلق ، أو بكلمة واحدة مختصرة : طالما دام « عصر النهضة » فقد استمرت العصور الوسطى قائمة فعلا • ولكن كما هو الحال فى كل أنواع التعليم والتربية ،

(*) اما ديزدى جولا : بطل قصة رومانسية شهيرة ، يرجع مؤلرها الاول الى دائرة الملك آرثر • (المترجم) •

يتعلم المرء عادة والى الأبد نفس الأشياء بالضبط التى لا يلتمسها فى الكتب · وبالرغم من انهماك الناس وشدة انشغالهم بالعصور القديمة نتيجة لما يملأ صدورهم من اعجاب بها وما يشغفهم من رغبة فى بعثها ، فانهم أخـذوا يزدادون تنبها الى صفتها التاريخية : فهم حين التمسوا ما قد يستطيع توحيدهم ولم شملهم ، وجدوا ما يفرقهم ويشتت آراءهم · وعن طريق العصور القديمة ، ومن العصور القديمة أيضا ، تعلم الانسان كيف يفكر تاريخيا ، وما هو الا أن تعلم كيف يفعل ذلك ، حتى وجب عليه التخلى عما فى الحياة من المثل التاريخية العليا التى لها أهمية انسانية عامة ·

وفى آخر مرة أسفرت فيها الحركة الكلاسيكية عن نفسها كمثل عملى أعلى ، أى كاتجاه للحياة يمتاز بالتقليد المباشر ـ وذلك فيما أطلقته الثورة الفرنسية من عبارات فخمة طنانة ، وفى فن المصور دافيد ـ فانها بدت كأنما هى شىء فات أوانه مضاد للطريقة التى استقى بها جوته فى الفترة نفسها الحياة العصرية الخالصة من معين العصور القديمة ·

ومنذ ذلك الوقت خرجت من الصورة فيما يلوح المثل التاريخيـة العليا ذات الفحوى الانسانى العام · والواقع أنه حتى الحركة الرومانسية نفسها لم تكن فى يوم من الأيام جادة تماما فى تقليدها للعصور الوسطى · وما نرى داعيا الى الاشارة الى أن نقل الأشكال التاريخية فى فن القرن التاسع عشر ، شأنه شأن تقليد طرز العمارة الخاصة بالعصور الوسطى ، ليس له أدنى اهمية فى هذه الناحية · ذلك بأن ما رزقه التاريخ من حقيقة بسيطة واضحة فضلا عن الرغبة الظامئة ظمأ لا تنقع غلته ـ أصبح من قوة الوضوح أمام الوعى بحيث لم يعد فى امكان البشرية المعاصرة مواصلة البحث عن خلاصها فى تقليد ماض متخيل · على أن الحـاجات القـديمة تستمر · فالثقافة لا تبرح تميل الى الفرار من نفســـها ، ولا يزال الحنين المتواصل الى كل ما هو غير مثقف يواصل الزحف بمواكبه · ولعلنا من بالغ القرب من تلك الحاجات القديمة بحيث لا نستطيع ادراك ذلك ، وان تحررنا تماما من الأشكال القديمة ، على أن الحاجات المزاجية الأساسية التى اتسم بها كل من النزعات الرعوية والفقر الانجيلى لا تزال مستمرة فى المذاهب الفوضوية وفى مذهب التزام الطبيعة Naturalism فى الأدب وفى الكفاح من أجل اصلاح النواحى الأخلاقية للمسائل الجنسية ·

من هنا يتبين أن التاريخ نفسه هو الذى نبذ المثل التاريخية العليـا للحياة على أنها أطياف هزيلة · فالتاريخ هو الذى علم العالم التطلع الى أمام فى أثناء كفاحه التماسا للسعادة ، وجعله لا يخدر نفسه بعد ذلك بأحلام للحياة تنطوى على استعراض الذكريات · ولا شك أن أحدا لم يعد يلتمس

فى الماضى مثلا عليا لها من بالغ الأهمية العامة الانسانية ما يجعلها تستطيع أن تسهم وتوحد مجتمعا بأكمله . ولكن حدث فى الوقت نفسه أن مفاهيم تاريخية أخرى أكثر تحديدا من حيث قيمتها وأشد نوعية من حيث المحتوى قد دفعها الى الصدارة الطابع الجديد للتاريخ فى يومنا هذا . وأود فى الختام أن أقول بضع كلمات عن أهم هذه المثل : وهى المثل القومية ذات النوع التاريخى .

وتشترك المثل التاريخية العليا مع المفاهيم التى بحثت آنفا ، فى أنها مهما بلغ من صحتها تاريخيا ، تحافظ دائما على الطابع الرومانسى . فالقومية (ولست أقول الوطنية) بلا رومانسية تعتبر فى حكم العدم . وهذه المثل العليا تميز نفسها عن المثل العليا العامة القديمة فى أنها فى المعتاد لاتستخدم كنماذج ينبغى محاكاتها على الفور ، بل هى بالحرى تعتبر رموزا ، بل حتى مجرد شعارات . وفضلا عن ذلك فهى بمثابة مثل عليا للسعادة ، أقل كثيرا منها مثلا للقوة والشرف ، بله النجاح . وتجىء فى النهاية نقطة أخرى ، هى أن قيمتها الخلقية محدودة بطريقة فريدة : فهى قوية البروز أمام أعين المتمسكين بالمثل الأعلى ـ أو بعبارة أخرى أمام أعين المجموعة والدولة أو الأمة التى يعنيها الأمر ـ ولكنها شىء كثيرا ما يخفى على غير أعضائها ، فلا يستطيعون تمييزه مطلقا ولن يحظى من المثل العليا بالقيمة الخلقية المستقلة الا تلك المثل التى يجسمها بطل أصيل فى انسانيته أو التى تتمثل فى كفاح من أجل الحرية يلقى الاعجاب العام . فما أسعد الأمم التى لها فى تاريخها فصل من هذا النوع ، مثل بلاد الأراضى المنخفضة («هولندا») أو التى ستكون لها تلك الصحيفة البيضاء ، شأن بلجيكا فى المستقبل . غير أن العالم من الناحية الأخرى لا تتحرك له عاطفة عندما تشيد أمة برجل مثل تيمورلنك أو أى فاتح آخر مثله .

ومن المعلوم أن المثل التاريخى الأعلى ـ شأن المثل الانسانى الأعلى العام ، يتطور ناميا من النواحى الأسطورية Mythical والغامضة وغير المتمايزة ، متحولا الى المثل العليا المحددة والمختبرة تاريخيا . وآية ذلك أن البطل القومى وهو المعروف لدى الناس حتى فى أقدم العصور القديمة لا يختلف طرازه فى أى مكان عنه فى مكان آخر : فهو فوق كل شىء اما محارب ظافر أو خادم دءوب للرب الحق ، بل هو أحيانا أيضا مخترع أو محسن خير . اذ ربما حدث حتى فى وقت شديد التبكير من عبادة الأبطال القوميين هذه ، أن يعمل التزييف عن وعى والقصد السياسى عملهما . وان الناس جميعا ليعلمون الى أى حـــــد يتجلى عنصر التحوير المدروس

المختلق في سيرة آينياس الروماني Aeneas Saga (*) ، ويصدق هذا الشيء نفسه وبدرجة أكبر على المثل القومية العليا في القرون الوسطى • فكلها بلا استثناء قد نقلت حرفيا أو تكاد من سيرة آينياس الى مجال الفرسان • ولم تتنبه الأمم الا رويدا رويدا الى أبطـــالها التاريخيين الأقحاح والى عصورها البطولية • وهنا تزداد المفاهيم على الأيام تنوعا وغنى ودقة محتوى ويشتد اللجوء الى التاريخ بالحاح وتأكيد يتزايدان دوما ، ليتخـذ مبررا لمطامع الوقت الحاضر وآماله • ويقول ديتريتش شيفر ، كلما زادت الثقافة رقيا زاد بروز هذه النزعات التاريخية في الحياة القومية الى منطقةالصدارة ثم يضيف : « والعصر الحديث متشرب تشربا شاملا بهذا اللون من طرائق التفكير • وجاء تكوين الدولة القومية ، الذى ساد في القرن التاسع عشر ، ليستمد حيويته وقوته منها أكثر مما يستمده من أى شيء آخر • » (٢٣)

ومع ذلك ، فان الدور الذى تلعبه تلك المفاهيم التاريخية في حيــاة مختلف الأمم والدول وآمالها لايبدو عندى أنه يعتمد على مستوى ثقافتهـا وحده • فمن هذه الناحية ، يصبح من الاهمية بمكان أن نتبين أولا ، هل بلغت احدى الأمم فعلا مرحلة نموها الكامل أم هى لاتزال تكافح في سبيل بلوغه ؟ وربما قال قائل ان المثيرات التاريخية تعد لدى الأمم المتـذمرة شيئا لا غناء عنه • ومن هنا تجيء المكانة الممتازة التى لهذه المثيرات عنـد أمم البلقان : اليونان والرومانيين والصربيين والبلغار • فان هذه الشعوب جميعا تشعر نتيجة لاختلاط أنسابهم وارتباك حالتها السلالية Ethnic اختلاطا لا خلاص منه نظرا لاقامتهم فيمنطقة وسطىكبيرة ، تشعر بحاجتها الى تعديل حدودها وتحرير الأجزاء المغتصبة من أراضيها شعورا ليس أشد منه ايلاما للنفوس ، كما يتحكم فيها دافع قوى يدفعها الى التوســـع على حساب الغير ، حيث يقولون صربيا العظمى وبلغاريا العظمى وبلاد اليونان العظمى • وقد حدث في وقت من الأوقات أن كلا من اليونان والبلغـــار والصرب ، قد بسط سيادته على شبه الجزيرة البلقانية وأخضعوا جيرانهم لسلطانهم • على أنهم لـكى ينشئوا عروة تربطهم بذلك المـاضى العظيم ، اضطروا جميعا الى تناسى مدة طويلة من الاستعباد المشترك تحت نير الأتراك • وهو وضع من شأنه أن يضفى شيئا من الطابع الأسطورى على مثلهم القومية العليا : ويتصف كل من : ستيفن دوشان وتزار سيميون

(*) آينياس : هو فى الاساطير الكلاسيكية أمير من طروادة اصبح بطل الرومان وجدهم • وهو فيما يقول هوميروس بن انخيكس والربة افروديت • وقد اتخذ فرجيل قصته أساسا لاينيادته وفيها وصف فراره من طروادة واستقراره اخيرا فى اللاتيوم •

بقدر كبير من صفات البطل القومي التقليدي • وتنتشر بين الشعبين الصقلبيين ، الميول الرومانسية القوية المتأصلة بالطبيعة في ذلك الجنس ، لتساعد أيضا على جعل ذكرياتهم التاريخية عاملا فعالا بصفة خاصة في حياتهم القومية •

ويشكل هذان الميلان ـ والرومانسي منهما أكثر من التاريخي ـ نقطة ثانية تحدد وزن المفاهيم القومية التاريخية • وثمة نقطة ثالثة تتركز في هذا السؤال : الى أى حد يكون هناك الانسجام في أمة بين المطامح القومية المعاصرة وبين تاريخها ؟ فان من الظواهر العجيبة أن يلعب التاريخ مثل ذلك الدور الأكثر أهمية وبروزا في القومية الألمانية منه في قومية دول غرب أوربا • فان فرنسا وبريطانيا أيضا تفخران كلتاهما الفخر الكافي بتاريخهما النبيل • ولكنهما تستدران معونته بقدر أقل مما يفعل الألمان• فما قيمة فرسينجتوريكس وبواديكيا (*) لديهما ، بالمقارنة الى منزلة أرمينيوس (**) لدى الوعي الألماني ؟ ويواصل شيفر حديثه قائلا: « لاشك أن الشعب الألماني مدين بدين هائل الى تلك البؤرة التاريخية التى ركز عليها أمانيه ووجدانياته ، ألا وهي تذكره لماضيه • فالماضي انما هو ملكنا الروحي ، بل هو أعز ما نملك » •

ولا مراء في أن بامكاننا تعقب ذلك الفارق وارجاعه قبل كل شيء الى الميل التاريخي القوى الذى يملأ صدور الشعب الألماني • ورغم ذلك ، فالأمر من ناحية فرنسا بوجه خاص ، تلعب فيه النقطة الأخرى التى ذكرتها دورها كذلك • فالشعور القومي التاريخي لدى الفرنسيين انما تقطع السبيل على قوته فترات الانقطاع المتكررة التى حدثت في التاريخ الفرنسي ، فهو مضطر الى نبذ شيء بالغ الكثرة واطراحه جملة أو جزئيا • فعند البداية نفسها ، لا تستطيع القومية الفرنسية أن تستسلم ملء القلب لذكريات العظمة الميروفنجية والكارولنجية ، وذلك لفرط غلبة الطابع الألماني على تلك العظمة بشعبيتها • ومهما أشع ملوك فرنسا وأباطرتها من هالات المجد ، فلن يسع الشعب الفرنسي لعهد الجمهورية أن يوقر الملك الشمس (***) ، ولا حتى نابليون ، ويعدهما رمزا لذلك البلد

(*) فرسينجتوريكس : زعيم غالى مشهور قهره يوليوس قيصر •• وبواديكيا : ملكة انجليزية (المترجم) •

(**) أرمينيوس : ١٦ ق • م ـ ١٩ م : أشهر رؤساء قبائل الجرمان • عمل فى الجيش الرومانى حتى صار فارسا ، ثم تزعم القبائل الجرمانية المتذمرة على الراين ، وأفنى الكتائب الرومانية بقيادة فاروس • (المترجم) •

(***) الملك الشمس يعنى المؤلف لويس الرابع عشر • (المترجم) •

الذى يحبونه بمثل ذلك الحنان العاطفى الودود . هذا الى أن مبادىء ثورة (١٧٨٩) مفرطة التجريد ، فهى من ثم لا تستطيع القيام بتلك الوظيفة ، من أجل ذلك اتخذ الفرنسيون شخصية تاريخية مفردة (ولكنها شخصية أجمل كثيرا مما تملكه أية أمة أخرى) ، وهى جان دارك ، التى نزعت أكثر فأكثر الى احاطة نفسها بقيمة الرمز القومى واجتذاب تلك القيمة اليها .

وفى مقابل ذلك نستطيع أن نشهد الحاجة فى ألمانيا الى سبك جميع ما فى مخزن الماضى القومى من موجودات فى رموز حية ممتلئة بالقوة القومية ، رموز تعمل عملها فى مناطق بعيدة تماما عن الدوائر التى يدرس فيها التاريخ . ومن ذلك يتجلى كيف أن ارمينيوس وبارباروسا ولوثر ودورر (*) وفردريك الأكبر وبلوخر (**) قد صار لهم جميعا معنى مباشر حيوى لدى الروح الألمانية . وهناك مسألة ينبغى الا نبخسها حقها من التقدير ، هى أهمية الميثولوجيا السكندناوية فى الثقافة الألمانية المعاصرة ، تلك الأهمية التى ترجع قبل كل شىء الى فاجنر (***) .ومما يسترعى الأنظار بصورة فريدة ، مبلغ ما وصل اليه بسمارك فعلا من أهمية كرمز قومى ، بل حتى كبطل قومى ، بما أضفوا عليه من سجايا عصر البطولة ، وصوروه كأنما هو من أعلام العصور الوسطى ، ونظروا اليه على أنه « المثل الأعلى غير المقيد بالزمان والمجسم لقوميتنا ووضعنا كأمة ... » مع انزاله فى مكانه من « العصر الجرمانى القديم ، الذى هو أقدم عصور البطولة فى وضعنا كأمة(٢٤) ... » فهناك عنصر شديد القوة ، بل وربما أيضا شديد الخطر ، فى اتجاه الفكر الألمانى الى توجيه نفسه نحو الثقافة البدائية .

أم ترى يظن انه عند النظر الى الدافع الهائل الذى نشهد أمة تحدد به ارادتها ، لا يكاد يجوز لنا أن نعزو قيمة ذات وزن الى جميع هذه الرموز التاريخية ؟ أى أن هذه الرموز ينبغى ببساطة أن تحال الى دنيا البيان : بما تنطوى عليه من أسلوب زاهر ومجازات واستعارات زاهية التلوين ؟ واذا ما ترك السؤال بلا جواب فى البداية عاد مرة ثانية يلتمسه . وهو لا يزال بغير اجابة حتى فى هذه الأيام : وفى اعتقادى أن النتائج الناجمة عن المفاهيم التاريخية أضخم من أن تقدر بقدر معلوم ، ولكن فلنسلم أن أثرها قد يكون صغيرا صغرا لا نهائيا .

(*) دورر (١٤٧١ ـ ١٥٢٨) فنان ألمانى مشهور بمطبوعاته ورسومه التى تعبر عن دقة الملاحظة والتفاصيل الدقيقة . (المترجم) .

(**) بلوخر (١٧٤٢ ـ ١٨١٩) قائد بروسى فى الحروب النابوليونية ، له أثر كبير فى انتصار الحلفاء بليبزج وواترلو . (المترجم) .

(***) فاجنر (١٨١٣ ـ ١٨٨٣) موسيقار ألمانى شهير . (المترجم) .

ولـكن لا يلبث السؤال الآخر أن يعود هو أيضا • فالعنصر التاريخي في الفكر القومي لا يقتصر وجوده على مثل هذه المفاهيم الكاملة الاستدارة والتكوين ، وانما هو يستتر أيضا في جميع خواطرنا وانفعالاتنا : الوطن أرض الأبوة الأجداد وبعـــد الصيت والمصرع البطولي والشرف والوفاء والواجب والمصلحة القومية والتقدم • فهو شيء ملموس الأثر في كل كلمة وكل عمل • اذ ما من شك في أن حكمة الأعصر وحماقتها تتحـــدث في شخصنا بلا انقطاع • فلا نفتأ نصادف من الناس من يحسبون أن التاريخ يخنقنا جميعا •

وقد أسلفنا اليك حديث ذلك الدافع القديم الذي يدفعنا الى نبـــذ الثقافة ، والفرار من الحاضر وما يفعمه من شقاء • ففي مثل هذه الأوقات يأتينا الدافع بين حين وآخر على نحـو بالغ القوة • فأين الملاذ ؟ ان أمامنا عددا من الطرق التي لا تزال مفتــوحة • فعلى الرغم من أن الماضي لم يعـد يمنحنا ذلك الحلم البديع بفراديس الـكمال الوادع الذي قــد يعود في المستقبل ، فان الجمال والحكمة المـاضيين مازالا يستطيعان أن يعطيا شيئا من النسيان اللذيذ لـكل من يلتمس لنفسه الـكمال الوادع • فهل لدى المستقبل شيء آخر يمنحه ؟ ان في مستطاعنا أن نلحظ هذا العالم الهـادر ونحن على مسافة منه غير معقولة ، ونقول ان جميع ما في الصراع الراهن من جنون وجميع ماهنالك من حمق وارهاب ومصائر الدول والأمم ، تلك القيم الثقافية ذاتها التي تبدو الآن أعلى مطمح للأنظار ، ستحتاج الى ثلاثة آلاف سنة لتصبح من عدم الأهمية للانسانية بمثل ما لحروب آشور من أهمية لدينا الآن • وليس في هذا عزاء لنا ، على أن ذلك أيضا مجرد نوع من النسيان • غير أن مثل هذا الاستسلام يمكن بلوغه أيضا من مسافة أقصر : وفي مستطاعنا مشاهدة ذلك من خلال أعين الذين سقطوا صرعى • اذ لايزال ذلك أقصر الطرق الى التحرر • فالشخص الذي يريد أن يتخلى عن اليوم بكل ما حمل من أعباء التاريخ الثقيلة ، عليه أن يتخلى عن الحياة • أما الشخص الذي يريد حمل ذلك العبء ومواصلة الصعود الى أعلى ، فانه يجد أمامه طريقا رابعا مفتوحا : طريق العمل البسيط ــ ولا فارق مطلقا بين أن يكون ذلك العمل في الخنادق أو في أي عمل جدي آخر • فان بذل النفس هو النهاية والبداية لـكل فلسفة للحياة • والتماس التحرير أمر ممكن ، ولـكن ذلك لن يكون في التخلي عن الثقافة ، بل في تخلي المرء عن « الأنا Ego » الخاصة به •

الوطنية والقومية فى التاريخ الأوربى (*)

- ١ -

حتى نهاية العصور الوسطى

ينطوى زماننا الحاضر المنذر بالشبور على قوتين راحتا ـ سواء نزعتا الى الخير أو الشر ـ ترهقان العالم وتزلزلان كيانه • والوطنية احدى هاتين القوتين ، وهى كما هو معلوم ارادة المرء المحافظة والدفاع عما يملكه ويعتز به ، وتلك ارادة توضع فى كل مكان وفى كل يوم موضع الاختبار القاسى فيما يعركها فى زماننا من الصراع العنيف والخدمة الصابرة • أما القوة الأخرى فهى القومية ، وهى الدافع القوى للسيطرة • والحافز للمرء منا على دفع أمته ودولته على ابراز نفسها فوق الآخرين وعلى حسابهم •

ويقول الأحمق الذى يسكن بين جوانحنا جميعا ، ان الوطنية هى فضيلتنا ، وان القومية هىرذيلة الآخرين • ولكن هل من الضرورى أن يلصق بالقومية مثل هذا المعنى غير المناسب ؟ ان هذا السؤال يتوقف على أمرين : نظرة الانسان الى الحياة ، واللغة التى يتكلم المرء بها • وذلك لأن الشخص الذى يعتنق المسيحية أيا ما كانت الصورة التى يعتنقها عليها ، سيحس بأن تعريف القومية نفسها بأنها دافع الى السيطرة لابد أن يتضمن اتهاما لها ـ وذلك على افتراض أن التعريف صحيح • ولكن هذه المسألة تدخل تحت موضوع المصطلح اللغوى أو التعبير الخاص • ، والمصطلح اللغوى كما هو معلوم ليس ثابتا لا يتغير فى كل مكان وفى كل مرة وزمان تستخدم فيه الكلمة • فليس المصدر الصناعى المنتهى

(*) محاضرات للاث القيت فى ١٤ ، ٢١ ، ٢٨ فبراير ١٩٤٠ فى سلسلة محاضرات ألقيت تحت رعاية المنظمة المالية لجامعة ليدن وعقد موسمها تحت عنوان «دراسات عامة» والترجمة من النص الهولندى للطبعة الثانية التى اعيد طبعها فى Verzamelde werken مجلد ٤ ص ٤٩٧ ـ ٥٥٤ •

بمقطع «ية» (*) دليلا بأية حال على أن المصطلح المنتهى به خاطىء ولابد من الاعتراض عليه • ثم ان مجموعة المفردات اللغوية المتعلقة بالأشياء القومية ليست واحدة فى جميع اللغات • فبينما تميز اللغة الهولندية تمييزا واضحا بين Nationaal besef أى « التنبه القومى » وبين Nationalieits gevoel أى «حاسة القومية» وبين Nationaal bewustzijn أى « الوعى القومى » من ناحية ، وبين Nationalisme القومية من ناحية أخرى اذا باللغة الانجليزية تستعمل كلمة واحدة هى Nationalism أى القومية لكل هذه المعانى (**) ولو شئنا لصح أن نطبق كذلك لفظة القومية ببساطة للدلالة على أن مبدأ للتنظيم القومى يسود ، أو على أن هناك محاولة لمساندة ذلك النوع من التنظيم وتذكيته • ومع ذلك ففى مناقضة للوطنية ، أميل الى أن أفهم القومية على أنها نزعة لو تجاوزت حدودا معينة لم تعد خيرا بل شرا •

ولا سبيل للوصول الى تعريف أولى لقيمة مصطلحاتنا الا بتكرار التحذير الضرورى فى معظم الحالات ، والذى يقررأن المصطلحات التاريخية العامة التى من هذا النوع لايمكن أن تصف كميات دقيقة يمكن تدوينها وضبطها فى صيغ رياضية وانما هى تعبر عما يسمعه الناس فيها أو يريدون سماعه فيها • والقول اللاتينى المأثور Verba valent usu للكلمة قوة العرف وهو قول لا ينطبق بأية حال على علم من العلوم المضبوطة كالفزياء ، يعد من الحقائق التى ينبغى ألا تغرب أبدا عن عقل المؤرخ ، حتى وهو يستخدم كلمة تبدو مفهومة فهما مباشرا لدى كل انسان •

فما الوطنية ؟ ــ أهى كلمة متعلمين أطلقوها على حب المرء لبلاده وأرض آبائه ؟ أهى بهذه الدرجة من البساطة ؟ لست ممن يعتقدون ذلك فان معنى حب الوطن عند الهولندى ، أن بلاد الأراضى المنخفضة عزيزة عليه ، بل هى أعز على قلبه من أى قطر آخر • فالكلمة انما تدل على عاطفة ــ لا أكثر من ذلك • على أنه يبدو لى من الناحية الأخرى ، أن فى لفظة الوطنية كذلك شيئا من الادراك الشعورى الواعى ، فضلا عن مطمح مرجو : فهى تعبر عن اقتناع بالتزام يقيد صاحبه تماما نحو الوطن ، التزام لا يحدده سوى ما للضمير من مبدأ سام مرشد • والخط الفاصل بين الوطنية والقومية ، مهما كانت الشاكلة التى يفهم بها المرء تلك القومية واضح وضوحا مطلقا من الناحية النظرية ؛ فالأولى منهما وجدان ذاتى ،

(*) من أمثلة ذلك المصدر الصناعى الحرية والقومية والوطنية الخ (المترجم).

(**) وكذلك الشأن فى العربية • (المترجم) •

والثانية موقف يمكن ادراكه ادراكا موضوعيا • على أنه فى حالة التطبيق الفردية غالبا ما يكون ترسم الخط الفارق بينهما من أعسر الأمور •

وهناك رأى يذيع انتشاره بين المؤرخين وعلماء الشئون السياسية يقول بأن الوطنية والوعى القومى ـ مع التجاوز الى حين عن ذكر قومية هذا الزمان ـ انما هما من المظاهر الثقافية التى ظهرت فى عهد حديث • ولا شك أن الأساس الأكبر الذى يقوم عليه هذا الرأى هو أنه الكلمات والمفاهيم التى يرمز لها بصيغة اصطلاحية ، انما هى فى حد ذاتها حديثة تماما • فان كلمة « الوطنية » ظهرت فجأة لأول مرة فى القرن الثامن عشر ، بينما لم تظهر لفظة «القومية» الا فى القرن التاسع عشر • ففى الفرنسية ، يعثر على لفظة « Nationalisme » أى القومية مرة واحدة فى ١٨١٢ ، على حين أن أقدم أمثلة « القومية » فى الانجليزية يرجع تاريخها الى ١٨٣٦ ، ومن العجيب أن ذلك لا يكون الا مرتبطا بمعنى لاهوتى ، أى فى حالة الاشارة الى المبدأ القائل بأن أمما معينة قد اختارها الله • واذا راعينا أن لفظة « القومية » تمكنت فيما بعد من ملء دائرة من الأهمية والدلالة أكبر فى الانجليزية منها فى الهولندية (بل ومنها فى الفرنسية أو الألمانية) ، فان الكلمة الانجليزية نحتت لنفسها مكانا فى العالم احتفرته فى مدى قرن واحد فقط •

هذا وان من أيسر الأمور الوصول الى الاستنتاج بأن ظاهرتى الوطنية والقومية حديثتا الوجود ، لأن الكلمتين ومفهوميهما حديثتا الوجود أيضا ، على أن هذا وان كان استنتاجا سهل الاستنباط فهو مضلل • وهو ينبثق من العادة البشرية الراسخة التى تنسب الوجود الى الأشياء بمجرد وضع أسماء لها • وربما جاز للمرء أن يستنتج على نفس القاعدة والأساس عدم وجود أية أشعة كونية فى العصور الوسطى • أو اذا شئنا ذكر مشابه آخر أوثق صلة يقوم على أساس مماثل وهو اعواز ما بين أيدينا من مادة الى اسم أو مفهوم ـ لأشرنا الى انكار الناس وجود الدولة فى العصور الوسطى • أجل ان لفظ « الدولة » ومفهومها لم يبرز مكانهما الا فى «عصر النهضة» • ولكن على الرغم من أن الظاهرة المسماة «الدولة» توارت الى حد كبير وراء ظاهرة « الكنيسة » فى العصور الوسطى ، الا أن مجتمع العصور الوسطى أحسن استخدام مفهومى **Regnum & Civitas** أى المملكة والمدينة للتعبير عن الشئون السياسية • ولو أمعنا النظر لتجلى لنا أن الألفاظ المعادلة للوطنية والقومية كانت موجودة فى عصور أقدم • وأدعى من ذلك الى العجب وأوضح فى الدلالة ، أن التغيير الوحيد الذى أصاب الانفعالين بمضى الزمن لم يزد فى الواقع عن أنهما أصبحا أوضح

تحديدا الى حد ما . أما فيما عدا ذلك من أنواع ، فانهما ظلا على ما كانا عليه دائما : أى ظلا غرائز بدائية في المجتمع البشرى .

وقد نجنح هنا الى ألا نخصص للعصر القديم سوى بضع كلمات . اذ الواقع أننا قد نتساءل : ألم تكن كل أمة قديمة ، بل وفي الحق أليست كل أمة عتيقة على الجملة تعد نفسها مختارة لحكم غيرها وسيادتهم ؟ ثم أليس مفهوم كهذا ميراثا ورثناه عن عصر أولى شديد القدم ؟ وظلت الفكرة مرتبطة بالدين ارتباطا لا انفصام له ، ومن هنا ثبتت نفسها في صورة مالا حد له من كبرياء وما خبث من أوهام العظمة لدى ملوك كل من مصر وبابل . وهنا قد يستطيع المرء التحدث عن القومية الدينية بالمعنى الكامل للكلمة . فهل قوبلت مثل تلك القومية الدينية الصادرة من أحكام استجابة تمثلت في صورة قدر معادل من التنبه العميق الجذر لدى رعاياهم يمكن المؤرخ تسميته باسم الوطنية ؟ اذ لامراء أن خنوع هؤلاء الرعايا قد تأصل استقراره كذلك في صنوف الاخلاص الديني والعبادة والعبودية الذليلة . وهل رسخت في الوعي الشعبي أيضا نوازع المحبة والتعلق والوفاء ؟ ان دارسي تلك الحضارات القديمة ربما قطعوا في الاجابة عن ذلك برأى ، ان شهدت المصادر التاريخية بذلك .

على أن الصورة تغدو أكثر وضوحا بمجرد تحول البصر عن الشرق الأوسط القديم الى اليونان . فالعالم الهلليني تربة نمت فيها الوطنية وتطورت ، ولكنه حرم الا من القليل من الوعي القومي . فان « هيلاس » أنشأت بما أقامت من دولة المدينة ومن المدينة Polis تربة ممتازة المواتاة لاحساس بالوطن كان في الحين نفسه محصورا في أضيق الحدود وقائما على السياسة . وبلاد اليونان هي التي منحتنا اللفظة الدالة على الوطن (أرض الآباء) حين أطلقت عليها اسم Patris أى الوطن . والواقع أن أول مرة وقعت فيها لفظة Patris بهذا المعنى ، قد تجلى فيها فعلا وفي أكمل الصور أشد عناصر الوجدان الوطني أهمية . وهي تقع في الكتاب الخامس من الالياذة ، حيث يقول بانداروس لاينياس : « عندما أعود الى بلادى ثانية وألقى بصرى على أرض مولدى وزوجتي وبيتي المرتفع ... » (١) لاجرم أن العودة ومعاودة النظر ، انما هي على الدوام أحب نواحي العواطف التي يلهمها مسقط رأس الانسان . وفوق هذا التنبه الرقيق الى ما للانسان من رقعة صغيرة من الأرض ، تسامى فيهم تفاخر بمجتمع عام للهللينيين على كل من ليس اغريقيا : وهم البرابرة وكما هو الشأن في الحالات الأخرى المماثلة المكونة من مجتمع أكبر وأصغر لم يحل ذلك الاحساس لحظة دون نشوب أعنف *أنواع العداوات*

المتبادلة بين قبائل الاغريق ودولهم • وربما جاز تسمية ذلك الاحساس باسم الوعي القومي ، لا باسم القومية • ذلك أن العالم الاغريقي لم يكن به مكان للقومية • وآية ذلك أن ما قامت به الهللينية من انتشار عجيب بكل أرجاء منطقة البحر المتوسط في صورة مستقرات لم يحدث كنوع من التوسع القومي ، وذلك رغم جميع الأواصر الدائمة التي أقيمت بين تلك المستوطنات ومدنهن الأم • ومن أبرز ما يشهد بنقص التقدير للنواحي القومية بمعناها الدقيق المضبوط ، أن أحدا من أفلاطون أو أرسطو لم يخصص فيما عقد من تأملات عن الدولة ، أى تعقيب على العامل القومي في تكوينها •

وقد تناولت الممالك الهللينستية التي أعقبت الاسكندر الأكبر المفهومين الاغريقيين الوطن والأمة وأخذتهما مأخذ الشيء الأكيد المسلم به ، وان أخضعتهما للأحوال الشرقية بدرجة أعظم أو أقل • وأرجح الظن أنه لم يحدث في أى مكان ابان الأزمنة القديمة ، أن دوى شجن ما يملأ القلوب من حب للوطن بأوضح واصفى (وبصورة مألوفة لدينا أكثر) ، منه في الشكل اليهودي الهللينستي الذي يعكسه سفر المكابيين الثاني • ففيه ينصح يهوذا المكابي الجيوش التي جمعها بأن لاتصطلح مع العدو ولا أن تخشى بأسه • وهو يذكرهم بما أصاب حرمة الأماكن المقدسة من انتهاك وبالطريقة التي أعانهم الله القادر على كل شيء على سنحاريب وعلى الغلاطيين • « لقد بث فيهم الجرأة بهذه الكلمات ، وملأهم بالاستعداد للموت في سبيل الشريعة والبلاد • » (٢)

ومع أن كلمة Patria اللاتينية صيغت دون ريب على غرار كلمة Patris اليونانية ، الا أن مفهوم الرومان عن الوطن أنبثق بصورة مستقلة الى حد كبير عن المفاهيم اليونانية • اذ انه تطور ، والجمهورية في أوج عنفوانها ، في صورة عبادة أبطال اصيلة في قوميتها خصت بها فضائل الدولة ومجدها • وآية ذلك أن ممثلي الوطنية الرومانية يضمون أمثلة عديدة جدا من الشجاعة البطولية والفضيلة المدنية : فهناك كورتيوس الذي وثب الى الهوة ، وهناك دنتاتوس كوريوس الذي فضل اللفت طعاما على ذهب السمنيين ، وهناك رجيولوس الذي احتفظ بكلمته مع الأعداء وعاد الى الأسر في الحرب البونية برا بوعده اوبايجاز ، تلك المجموعة الكاملة من الرجال الذين قدر لهم أن يقوموا بدور ذي بال فيما أصابته أوربا في الأزمنة التالية من تربية سياسية وأدبية • ولا شك أن ما لكلمة الوطن من معنى عند الرومان ظل محتفظا على الدوام بسمة من الولع والحيوية وذلك نظرا لأنه ظل مركزا على مدينة روما ذاتها ، بكل

ما اجتمع لها من أماكن مقدسة وتقاليد ورموز ، حتى بعد انتشار رقعة المملكة وانبساط لوائها على الاقليم بعد الاقليم · وفضلا عن ذلك ، فقد استمرت الفكرة تحتفظ بطابعها من النشاط والقوة نتيجة لقيام أساسها فى حياة سياسية عملية امتازت بجودة التنظيم من الناحيتين التشريعية والدستورية ·

وحتى فى أثناء قرون الامبراطورية نفسها استمر الاحتفاظ بالمثل الأعلى لدولة المدينة City-State التى تبسط سلطانها على مملكة مترامية الأطراف · ولم يحدث قط انأصبحت الامبراطورية الرومانية دولة قومية· اذ أنها انضمت على عدة عشرات من الأمم ، لم تحس الدولة بأى اهتمام بميولهم الخاصة · ومن ثم يتبين أنه لا مكان هنا أيضا لأى قومية صادقة · اذ أنه على طول المدى ، لم يكن مفر للمعنى اللاتينى القديم من أن يضمحل ويضوى فى ذلك الخليط الضخم من الشعوب الممتدة من الشرق الىالغرب · ولو نظرنا الى الأمر من حيث علم الاصطلاح اللغوى · فان معنى لفظة Patriotes فى اليونانية هو ببساطة « ابن الوطن » وهى تسمية انطوت على شىءمن الامتهان بالموازنة الى Polites « المادن وابن المدينة » (*) · غير أن الكلمة لم تنتقل الى اللاتينية الا فى العصر بعد الكلاسيكى (**) وللفظة patria فى العصور القديمة معنى آخر يخالف معناها لدينا ، وذلك من حيث عدم اقتصارها تماما على مسقط الرأس ، الا ترى الى شيشرون كيف أتاح له مدلول تلك الكلمة أن يقول عندما منح أبى الوطن Pater Patriae مكافأة له : إن لكل إنسان موطنين اثنين أحدهما طبيعى والثانى قانونى · (Una naturae, altra civitatis oriocietiuris)

ولكن الجد الأكبر اينياس نفسه قد التمس لنفسه وطنا ووجده فى ايطاليا ، ومن هنا يتبين أنه عندما نطق شيشرون بعبارته : بلادنا هى المكان الذى ننعم فيه باليسار Ubicumque est bem ibi Patria فان العبارةأعوزتها عند ذاك نغمة التهكم الساخرة التى كثيرا ما نجنح بسهولة الىاستماعها فيها ·

على أن العقيدة المسيحية رفعت من عهد بعيد هو زمن القديس بولس فوق وجهات النظر المتناقضة المضطربة المتعلقة بالأمم والممالك · ولم يكن لها أى اتصال بأية مسالة تتعلق بالولاء السياسى ولا الكيان القومى·

(*) المادن : لفظة اشتقها المترجم للدلالة على قاطن المدينة ببلاد اليونان القديمة . (المترجم) .

(**) post-classical period

وتركت الدولة على ما هي عليه ، معطية لقيصر كل ما لقيصر من أشـياء ومعذلك ، فان منظمة العقيدة ، أعنى الكنيسة احتاجت الى منظمة سياسية تتخذها دعامة لأعمالها الدنيوية ، فأما عند الذادة المدافعين عنها ، فان عبارتى « أعط لقيصر » ـ و « لا قوة الا لله » لم تكفهم • ومن هنا لم يكن محيص من أن تضع الكنيسة نظرية المسيحية حول الدولة • ومن ثم ابتنى اوغسطـين ذلك الصرح الشامخ الهـائل الذى صـوره كتابه « مدينة الله De Civitate Dei » ، الذى اضطر فيه الى أن يسمى للدولة العلمانية ـ وهى فى حد ذاتها شيء مستوجب لكل لائمة ـ وظيفة ثنائية هى أنها نظام ضرورة لا يتهيأ بدونها قيام أى مجتمـع بشرى ولا انتشـار سلام ، وأن عليها خدمة الكنيسة وحمايتها ما دام هذا العالم باقيا • وستستمر الى حين الامبراطورية الرومانية آخر الامبراطوريات العالمية الأربع التى رآها دانيال فى رؤياه ، ولكن بعد أن تتطهر من أدرانها وتتقدس ، فى شخص الامبراطور المسيحى Imperator Christianus ومن المفارقات أنه بينما اوغسطين يكتب كتابه « مدينة الله » ، كان سلطان ذلك الامبراطور يتقوض ـ فى الغرب على الأقل ، حيث عاش ذلك القديس، فلا عرو أذن فى أنه من حيث المبدأ قد فضل قيام نظام دولى يتواصل فيه « قيام ممالك الأرض صغيرة فى مقدارها متسالمة فى توافقها وحسن جوارها وعندئذ تقوم بالعالم كثرة من الممالك ، تعادل كثرة ما باحدى المدن من العائلات • » (٣) فهنا يصاغ بوضوح لأول مرة مبدأ الدول المستقلة التى تعيش جنبا الى جنب تحت الوية السلام والوئام • وقبل بلوغ القرن الذى عاش فيه أوغسطين نهايته ، استطاع الغرب فعلا أن يحصر بين أكنافه كثيرا من الدول التى قدر لها لها آجلا أو عاجلا أن تعتنق المسيحية ، وان لم يسدها تماما ذلك الوئام الذى تمناه أوغسطين• وكل واحـدة منهن تصمد بقـدر مستطاعها ، مستمسـكة بتقاليد السلطـة الامبراطورية الرومانية ، سواء أكانوا هم القوط الشرقيين النازحين الى ايطاليا أو القوط الغربيين النازلين على جانبى جبال البرانس ، أو الوندال المستقرين بافريقية أو الفرنجة الضاربين فى غالة • ثم دوى من مملكة فرنسا على حين بغتة صوت نفير لتنبه قومى جديد اختلط فيه مجد الخلاص المسيحى بما للولاء القبلى لدى البرابرة من كبرياء بدائى ـ رغم ما يبدو فى ذلك الوضع من التناقض • واريد هنا أن أشير الى مقدمة القانون السالى (*) الذائعة الصيت ، وهى وان كانت أحدث قليلا من القانون نفسه ، فانهـا

(*) عن القانون السالى انظر للمترجم كتاب « ميلاد العصور الوسـطى » ٨٩ الالف كتاب • (المترجم) •

تمكس رغم ذلك كل حقائق الموقف فى عهد الميروفنجيين • فهى تتحدث عن « أمة الفرنجة المجيدة » التى ترجع باصولها الى الاله • « والشجاعة فى الحروب ، المخلصة فى السلم ، الحكيمة فى مجلس الرأى » ، وتنتهى بصيحة نصر مدوية •

حيوا المسيح الذى يحب الفرنجة • وليحفظ مملكتهم، وليملأ زعماءهم بنور فضله ، وليحرس جيشهم ، وليقو من عقيدتهم ، وليمنحهم المسرة والسعادة ، وذلك لأن هذه هى الأمة التى استطاعت بفضل ما وهبت من قوة وشجاعة أن تزيح عن كاهلها نير الرومان الثقيل،وبعد قبولها للمسيحية استودعت فى المبانى المزخرفة بالذهب وثمين الجوهر اجسام الشهداء المقدسين الذى أحرقتهم النيران أو قطعت رءوسهم أو قذف بهم الى الوحوش على يد الرومان •

لقد بدأت القومية الأوربية تسلك طريقها على كر التاريخ • وبدأ الغرب المسيحى تطوره السياسى على أساس مزدوج : « أ » مثل أعلى لسلطان عالمى للمسيحية ، « ب » وواقع مكون من تركيبات معقدة للسلطة غير ثابتة ، وهى بربرية فى طبيعتها ورومانية فى تقاليدها • ثم حدث بالتدريج وعلى امتداد فترة من ستة قرون كاملة ، أن المسيحية اللاتينية نظمت نفسها فى عدد من الممالك التى تتقابل والأسس القومية ، رغم ما يتصف به ذلك التقابل من خشونة بالغة • ولم يبد اى اثر لذلك الوئام وحسن الجوار الذى اشترط أوغسطين وجوده ، وان لم ينضج الزمان النضج الكافى لاحداث الحروب القومية الكبرى • ولو استثنينا بعض حملات الفتح العارضة التى انجزت بغاية السرعة ، فالأصل فى الأمور هو العنف الدائم والحاد ، ولكنه يدور على معيار صغير • والآن نعود فنسائل أنفسنا : ترى فى هذه العصور الوسطى الشديدة البكور، ماذا كانت نتيجة المثل الأعلى للدولة العامة التى تعلو تلك الكثرة من الدول المنفصلة وتتجاوز حدودها ؟ ان ذلك المثل الأعلى قد ابتعث الى الحياة كلا من امبراطورية شرلمان المسترجعة وما للبابا من سلطة علمانية عليا •

وقد جرت عادة العلماء منذ البداية نفسها أن ينظروا الى الخلاف الذى شجر بين البابا والامبراطور فى العصور الوسطى على ضوء نظرية

تمثيل القوانين بالجرمين السماويين (*) اللذين جعلهما الله فوق الأرض ساعة الخليقة • غير أن هذه الرمزية لم تطبق على الامبراطورية قبل زمان فردريك باربروسا (**) ، وقبل ذلك ظل الأباطرة منذ عهد شرلمان يدعون أنهم انما يواصلون سيرة الامبراطورية الرومانية ، دون أن يمارسوا السلطان الشامل على الدنيا • ولم يسمع الناس بهذا المثل الأعلى لأول مرة الا حينما كتب الحاكم من آل هوهنشتاوفن الى أحد الأساقفة يقول : « بحسب العالم اله واحد وبابا واحد وامبراطور واحد » • (٤) ولم يحدث مطلقا أن اعتمدت سلطة الامبراطور الحقيقية على ذلك الادعاء ، ولا على اللقب •

اما أدعاء البابا أن له الحق فى السلطة الشاملة ، فأمر يقوم على مبدأ بدرجة أكثر كثيرا مما يعتقد ادعاء الامبراطور ، كما أنه كان من حيث بعض معانيه أقوى أثرا • فمنذ أول نظرة قد يبدو أن من الكبرياء الكهنوتى المحض أن يطالب خليفة القديس بطرس بالحق الأعلى فى السلطان على جميع الأمم وفوق جميع ملوك الأرض ـ وذلك فضلا عن ادعائه الكلمة العليا فى كل ما يتعلق بأمور العقيدة Dogma وادارة شئون الكنيسة • ومع ذلك فان تلك المطالبة انبثقت مباشرة من سويداء قلب مبادىء الكنيسة نفسها • فالكرسى المقدس لم ينكر بحال على الملوك والأمراء سلطاتهم • غير أنه ادعى لنفسه فعلا الحق فى الحكم على كل عمل تشريعى وادارى يأتيه الحاكم فى ثنايا ممارسته تلك السلطة • وظلت أعمال الملوك خاضعة لسلطان حق القديس بطرس فى منح الغفران أو منعه ، وفق ما يعلمه ميزان الخير والشر ، بسبب الخطيئة Ratione Peccati على أن مثل هذا الحكم على أعمال الملوك بميزان الدين لم يكن مفر من أن يجتلب معه ميزان العدالة • ولذا فمنذ عهد البابا نيقولاس الأول فى القرن التاسع يجد المرء مبدأ السيادة البابوية على العالم وقد أخذ يصاغ صياغة تزداد سمتها الايجابية يوما بعد يوم ، ويستخدم المرة بعد الأخرى فى خلع الملوك ومنح الأراضى والتحايل على القوانين القائمة •

ففى هذا الصراع الكبير بين نظريتى السلطان البابوى والامبراطورى لم يعد هناك مجال لمزيد من التطور للوعى القومى والاحساس بالوطن • ومن الناحية الأخرى فان النظريتين لم تهيئا الجو لاعاقة تطور الصورة

(*) يقصد الشمس والقمر وهما فى الاجرام السماوية .

(**) هو فردريك باربروسا أى الاحمر اللحية امبراطور المانيا (ح ١١٢٣ ـ ١١٩٠) • (المترجم) •

القومية لأوروبا • وتواصل رويدا رويدا تماسك دول الغرب وأممه بعد سقوط دولة الكارولنجيين • فان كلا من فرنســا و انجلترا واسكتلندا والممالك السكندناوية الثلاثة وأرغونة وقشتالة والبرتغال وصقلية والمجر وبولنده ، تبوأت جميعا مقاعدها كوحدات في المسيحية اللاتينية حوالى ١١٥٠ • على أن مدعيات الامبراطورية التي يطلقون عليها اسم الرومانية نسبة الى روما والتى انتقلت الى أيدى الجرمان ، لم تستطع بالرغم من السلطان الامبراطورى منع هؤلاء الملوك جميعا من المطــالبة لأنفسهم بالسيادة التامة ، أو بالهيبــة الامبراطورية كما يقول مصطلح العصور الوسطى • وفى نفس الوقت بالضبط الذى بلغ فيه الكفاح بين البابا والامبراطور على السلطان الشامل أقصى ذروته ، وذلك قبــل عام ١٢٠٠ بقليل ، كان التنظيم القومي لأوربا قد صار على التدريج حقيقة ماثلة • وتكشف القديسة هلد جارد من بنجن عن بعد نظر ونفاذ بصــيرة رائعة بهذه الحقيقة فى رؤاها • اذ بلغ من بعد نظرها قبــل ظهور أعظم دعاة السلطان الشامل في العصور الوسطى ، وهما الامبراطور هنرى السادس والبابا انوسنت الثالث ، ـ أن استشفت أن مطامع الامبراطور الى الاستيلاء على مقاليد السلطة العالمية تتراجع أمام المبدأ القومي :

« فى تلك الأيام سيفقد حكام الامبراطورية الرومانية القــوة التي تقلدوا بها من قبــل أمور تلك الامبراطورية اذ سيصبحون مجردين من الســلطان فى مجــدهم • فان ملوك وأمــراء الأمم الــكثيرة الذين ظلوا حتى آنذاك يلزمون طاعة الامبراطورية الرومانية سينزعون أنفسهم منها ولن يظلوا بعـــد ذلك رعايا تابعين لهـــا ـ وبذا تتمزق الامبراطورية الرومانية نتيجة للتقصير وذلك ان كل ناحية وكل أمة سوف تضع نفسها تحت حكم ملك ، ستدين له بالطاعة (٥) • »

ومن هنا يتجلى أن الاطار الذى قدر للوعى القومي والاحساس بالوطن أن يتطورا في أوربا بداخله ، قد تأسس حوالى عام ١١٠٠ • فكيف تطور فى الحين نفسه استخدام ومعنى كلمتى Patria أى المــوطن و Natio أى الأمة ؟ الواقع أن هذين المصطلحين اللاتينيين ينبغى أن يتناولا كنقطتى ابتداء ، وذلك لأن هذين المفهومين قد تشكلا فى الكتابات اللاتينية ، على حين أن لفظة Patria أى الموطن لم تكن زالت عند نهاية العصر القديم • وبحسبها وجود التعبير Caelestis patria أى الوطن السماوى ، حافظــا كافيا للابقاء على ذلك المفهوم حيا ، كما أن اللفظة وجدت بمعناها الأرضى بمواطن كثيرة من العهد القديم • على أن لفظة Patria أى الموطن لم يعد لها فى حدود ذلك المعنى المكاني ـ نفس الرنين الكامل الذى رزقته

الكلمة الرومانية القديمة ، فانها أصبحت مصطلحا إداريا قد تجرد من قدر كبير من القيمة الانفعالية ، ولا يداخلنك شك في أن تلك الانفعالات وجدت فعلا كما تشهد بذلك عبارة « فرنسا الحلوة Douce France في أنشودة رولان ، ولكنها لم ترتبط بلفظة Patria الوطن ، اذ الواقع أن Patria اى الوطن تلك استخدمت للدلالة على نوع معين من الاختصاص الادارى ، فهى مقاطعة أو مجموعة من عدة مقاطعات ، فهى المقابل الدقيق للفظة Terra أو لفظة Pays اى الاقليم بالفرنسية ، وهى الكلمة التى أطلقها القوم على المناطق الكثيرة التى أضفت على فرنسا ما قبل الثورة ذلك النسق الأكثر سحرا وفتنة من محافظات فرنسا الحالية الشبيهة بمربعات الشطرنج ، ومن هنا يستبان لماذا طالما يتكرر فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر التقاء الانسان بعبارات مثل قولهم Tota Patria Congregatur أى أن الاقليم باجمعه ، الأرض بأكملها ، تستدعى معا للتجمع ، فالمرء انما ينفى من موطنه أو اقليمه Patria (٦) وطبيعى أنه جرت العادة بوجود تقابل بين دائرة الاختصاص الادارى وبين حدود مسقط الرأس الذى يتعلق به المرء بكل الولع الذى يستطيع الوطن Heimat بثه فى النفس ، ومن ثم يتجلى هنا المعنى القديم والأضيق للوطن ، أو ان شئت تعبيرا أدق : احساس بمحبة المرء لمسقط رأسه ، ولست أخال أن لفظة Patria يمكن أن يعثر عليها وقد استخدمت بطريقة مخالفة لهذه ، الا فى حالات نادرة أثناء تلك القرون ، والأرجح أنها تستخدم عندئذ بتأثير المطالعات ، والدراسات الكلاسيكية ، وقد حدث فعلا أن جربرت العالم الذائع الصيت فى أخريات القرن العاشر الذى أصبح فيما بعد البابا سلفستر الثانى ، استخدم لفظة Pays أحيانا بمعنى أكثر تحديدا وضيقا ، وأحيانا أخرى بمعنى أعرض وأوسع ، غير أن أعجب ما فى الأمر أنه لم يطلقها على أكيتانيا مسقط رأسه ولا على أوفرانى (Auvergne) التى هى اقليمه Patria بالمعنى الضيق المحدد ، كما لم يستخدمها بالتأكيد للدلالة على مملكة فرنسا فى جملتها ، وقد أيد جربرت أبلغ التأييد نقل التاج الفرنسى من الأسرة الكارولنجية الى أسرة هيوكابيت ، ومما يزيدنا عجبا أن نظريته فى الوطن Patria طبقت على الامبراطورين الجرمانيين أوتو الثانى وأتو الثالث ، اللذين عمل فى خدمتهما باخلاص ، كما أن للفظة Patria عنده رنينا يكاد يكون كلاسيكيا أو عصريا ، فهو يلح على أوتو الثالث بأن يلتمس ذيوع الصيت فى « مجابهة أعظم الأخطار فى سبيل الوطن ومن أجل العقيدة ومن أجل رفاهية شعبه ومن أجل الصالح العام rei publicae saluta » ولا مفر لنا من أن نستنتج من هذا أن تنبه الفرنسيين والجرمان الى

انفصالهم السياسى الواقعى بلغ غاية الضآلة حوالى عام ١٠٠٠ للميلاد

وقد ظلت كلمة Natio أى الأمة مستخدمة على الدوام فى الاستعمال الدارج أكثر من لفظة Patria أى الموطن . والواقع أن مفهومها لم يتغير منذ أيام اللاتينية الكلاسيكية الا قليلا . وهى اذ ترتبط ارتباطا وثيقا بلفظتى Natus أى الولادة ، Natura أى الطبيعة ، فقد كان لها بصورة مبهمة مدلول أوسع من لفظتى gens أى العشيرة أو populus أى الشعب ، ولكن ذلك كله يتم دون وجود أى تمييز ثابت بين المصطلحات الثلاثة . والترجمة اللاتينية الشائعة للتوراة والانجيل استخدمت الفاظ gentes أى العشيرة و populus أى الشعب ، nationes أى الأمة بالتبادل للدلالة على أمم العهد القديم ، كما أن ما جرى عليه العرف فى الكتاب المقدس قد حدد معنى لفظة Natio أى الأمة فى الحين ذاته . وهى تدل فيه على علاقة غير محددة نسبيا متبادلة بين قبيلة « ولسان » و « اقليم » ، وذلك فى معنى محدد أحيانا وفى معنى اجمالى أحيانا أخرى . وقد سمى البرجنديون والبريتونيون أبناء بريتانى والبافوريون والسوابيون باسم الأمم ولكن شاركهم فى التسمية الفرنسيون والانجليز والألمان . على أن لفظة Natio أى الأمة على العكس عن لفظة Patria أى الموطن أو الاقليم لم تحصل على أى معنى ادارى ، كما أنها فى البداية لم تحصل أيضا على أى معنى سياسى . ثم حدث رويدا رويدا أن ماانتج من علاقات مختلفة من التبعية والمجتمع اثر فى تضييق وقصر وتحديد فكرة Natio أى الأمة . فان مجد الملك والملكة والولاء للمولى الاقطاعى وحماية الأسقف واعتدال السيد فى معاملته ، قد أوجدت عددا كبيرا من الترابط الوثيق فى المجتمع . غير أنه لم يكن فى المستطاع التعبير بمصطلح Natio أى الأمة الا عن علاقات كبيرة من هذا النوع . ولكن سواء أكانت العلاقة كبيرة أم صغيرة ، فان أساس الانفعالات والعواطف التى تتجسم فى لفظة Natio أى الأمة واحد لايتغير فى كل مكان : فهى المجموعة الداخلية البدائية التى أحست أنها اتحدت اتحادا عنيفا بمجرد أن بدا أن الآخرين ، وهم الأجانب الخارجيون على أى نحو كان ، يتهددونهم أو ينافسونهم . وجرت العادة بذلك الاحساس أن يظهر نفسه فى صورة العداء وألا يتجلى فى صورة الوئام والاتفاق الا نادرا . وكلما اشتدت الاتصالات زادت البغضاء شموسا . ومن أجل ذلك السبب لم تجز هنالك من العداوات العنيفة ما هو أشد مما دار بين مدن متجاورة ، مثال ذلك التناقض بين جنوا وبيزا اللتين يقول عنهما سالمبينى فى مدونته التاريخية ، ان ما فرقهما من عداوة طبيعية أشبه بما بين الانسان والثعبان وما بين الذئب والكلب . وهو يذكر فى بيانه عن معركة

ميلوريا البحرية التى دارت فى ١٢٨٤ ، أن المدينتين العظيمتين دمرت كل منها الأخرى بدوافع خرقاء من الطمع والكبرياء والغرور « كأنما ضاق البحر فلم يعد فيه مكان لابحار » (٧) • وبنفس الطريقة كره الانجليز الاسكتلنديين وأبغض الدانمركيون السويديين ، وان حدث ذلك فيما يحتمل بصورة أقل عنفا ـ ومقت الفرنسيون من أهل لانج دوى Langue d'oil سكان اكيتانيا • وتشهد الطريقة التى عبر بها القوم عن هذه العواطف بما طبعت عليه من سمة غريزية • وهذا رادولف جابيه مدون التاريخ الفرنسى فى القرن الحادى عشر يوجه اللوم الى الملكة زوجة الملك روبرت الأولى لأنها فتحت أبواب فرنسا وبرجنديا لأهل آكيتانيا ، وهم قوم مفتونون خفاف الأحلام متصنعون فى أساليب عيشهم تصنعهم فى ثيابهم : فهم يطيلون شعورهم نصف الطول المعتاد ويحلقون لحاهم كالبهاليل ويرتدون أحذية وجوارب غير مناسبة ، وأسوأ ما فى أمرهم أنهم لايحفظون عهدا • وواضح أن ثيابهم أثارت الكاتب بقدر ما أثارته أخلاقهم على الأقل • على أن مثل هذا الحال لا يكاد يمكن تسميته باسم العاطفة السياسية • كما أنه ليس فى الامكان تسمية هذه الخصومة القديمة المتأصلة فى النفوس بين الشعوب ذات الأصول الرومانية Romance والشعوب والجرمانية ، تلك الخصومة التى طغت على كل الخصومات المحلية والاقليمية والقومية ، باسم عداوات وخصومات ، وذلك لأن ذلك الشنآن والبغضاء موجود حتى قبل حدوث الانفصال السياسى بين شطرى الامبراطورية الكارولنجية الرومانى والجرمانى • وهناك قصة حياة القديس جور التى كتبها حوالى ٨٤٠ الراهب واندالبرت فى دير بروم بمنطقة ايفل ، وهى تتحدث عن المانى يعيش على ضفاف نهر الراين •

> « ممتلئا بشىء من الكراهية القومية quodam gentilicio odio وهو يمقت كل شخص ينتمى الى الأمة واللغة الرومانية Romanae nationis aclinguae مقتا شديدا حتى أنه لم يرغب فى مجرد النظر الى وجه أحدهم باتزان ، وقد استولى هذا النوع من الغباء المتولد عن الشراسة البربرية على مجامع عقله بحيث لم يعد يطيق النظر الى قوم ينطقون باللغة اللاتينية ، دون أن يمتلىء قلبه بالحقد عليهم مهما بلغوا من الاستقامة والشرف » •

ومن المعروف أن الأساس السياسى الدائم لهذا التضاد السلالى الكبير لم يوضع بالفعل الا عام ٨٨٧ • فأن معاهدة فردان للتقسيم التى عقدت فى ٨٤٣ لم تزد عن مجرد تكرار مغلظ للتقسيمات التى اتخذت منذ

زمن بعيـد طابع الأمور التقليـدية في امبراطورية الفرنجة ، والتى تخلد وحدة الامبراطورية من حيث الاسم فقط • ومع ذلك فان التقسيم القاطع لامبراطوريتهم الى مملكة فرنجية شرقية ومملكة فرنجية غربية لم يصبح حقيقة واقعة الا بعـد أن فشل شـارل البدين في محاولته استرجاع تلك الوحـدة Hic divisio facta est inter Teutonicos et latinos Francos ويقول الحبر التاريخى الرسمي فيما يتعلق بمعاهدة ٨٨٧ : « هنا كان التقسيم الذى أجرى بين الفرنجة الجرمان والفرنجة والرومان » ومنذ تلك اللحظة صارت هناك دولة اسمها ألمانيا وأخرى اسمها فرنسا • وعندما حدث في بواكير القرن العاشر أن التقى بمدينة ورمز كل من شارل البسيط وهنرى ، الذى أصبح ملكا على الجرمان بعد ذلك بفترة وجيزة ، لم يجد النبلاء من الشبان في كل من الحاشيتين Linguarum idiomate offensi (وقد استاءوا من المصطلح اللغوى لدى بعضهم بعضا) ، مايشغلون به أنفسهم على جارى عادتهم (حسبما يقول تاريخ ريخر) ، الا تبادل الشتائم العنيفة ألوانا مكدسة ، وانتهى الأمر بأن استلوا سيوفهم وتقاتلوا حتى الموت ـ وفي هذه المعركة لقى أحد من حاولوا اقرار السلام بين الطرفين مصرعه •

وبدلا من أن توحد الحروب الصـليبية في ظل العقيـدة ماتفرق بسبب اللغة والنسـب والولاء ، فانهـا عززت من قوة العداوات القومية الناشبة اظفارها بين الشعوب المسيحية اللاتينية بجمعها تلك الشعوب المرة بعد الأخرى في صعيد واحد وهى في عدتها الحربية ، وفي تنظيمها على أهبة القتال وفيما سادها من منافسة اضفيت عليها القداسة الى حد ما • وهذا ايكهارت من أورا يتحدث عن العداء الناشـب بين فرسـان الجرمان والفرنسيين في أثناء الحرب الصليبية الأولى ذاكرا أنه حالة بغض تحدث بين الطرفين بطريقة طبيعية الى حد ما • (invidia quae inter utrosque naturaliter quodammodo versatur)

وفي المناسبة نفسها يعرض جيبرت دى نوجنت على أنظارنا صورة الألمان واللومبارد والصقليين مجتمعين معا على الفرنسـيين ، الذين لم يطيقوا تحمل كبريائهم • وممـا يسترعى النظر أنه وهـو الفرنسى يردف ذلك بقوله : ان الفرنسيين يميلون الى السلوك الجامح بين الأجانب ان لم يحسن كبارهم كبح جماحهم •

على أنه حتى هذا النوع من الأوضاع لا يمكن تسميته باسم القومية الواعية • وانما هو الشعور البدائى بالتنافر بين القبائل والأمم ، وهو شىء يوجد فى كل مكان ، كما أن من الواضح عدم امكان تجنبه • على أنه

تحول الى شيء آخر في أثناء القرن الثاني عشر ، يوم حدث بمحض الصدفة أن اتفق موعد تماسك انجلترا وفرنسا السياسي لأول مرة مع بلوغ الامبراطورية الألمانية ذروتها من القوة ـ وهي امبراطورية اتخذت سياستها شكل الامبريالية الحقة ـ التي بررها بشكل واقعي وجود اللقب الامبراطوري نفسه • وفي عام ١١٠٧ أرسل الامبراطور هنري الخامس بعثة فخمة يرأسها رئيس أساقفة تراير وتضم أسقفين آخرين وعدة كونتات ، الى مدينة شالون على المارن لمقابلة البابا • وقد وصل المبعوثون الجرمان في أروع مظاهر الفخامة والمراسم • وممن استرعى الانتباه اليه بوجه خاص الكونت ويلف البافاري • فانه أوتي بسطة عجيبة في الطول وضخامة الجسم Vir corpulentus et tota superficie longi et lati admirabilis etclamosus حسبما يروى سوجر من سان دنيس ، وهو شاهد عيان ، ويحمل أمامه فارس في كل الأوقات حساما• وظهر أن المقصود من البعثة هو الاخافة لا المفاوضة فيما عدا رئيس الأساقفة ، وهو رجل امتاز بالرشاقة والمرح vir elegans et iocundus وأجاد التحدث بالفرنسية الراقية (٨) • وكان مدار البحث مسألة هامة : هي الحق في تعيين الأساقفة • يقول سوجر : انه عندما اختلفت وجهات النظر ، « أثار المبعوثون العنيدون cervicosi legati ضجة صاخبة وثارت نفوسهم بما طبع عليه الجرمان من تهور teutonico impetu frendentes وهددوا بتسوية النزاع بحد السيف ـ ولكن ليس هناك ، بل في روما»• وهنا نستطيع مشاهدة الصورة التي يصورها الفرنسي للجرماني ، وقد صب فيها بالفعل كل من الشكل واللون • وبعد ذلك بقليل يستخدم سوجر عبارة التيوتوني المنيف furor teutonicus وهي عبارة اقتبست من كتاب « فارساليا Pharsalia » للوكان ، حيث كانت تطلق على التيوتون فيما خلى من الزمان ، وهم الذين ألقوا الرعب في قلب روما حتى جن جنونها في عهد ماريوس •

وواضح أن هذا صوت ونغمة يختلفان تماما عما يدور بين الفرسان الشبان من شقاق في أثناء حرب صليبية • اذ هو نغمة سياسية ، من سوء الحظ أنها لم يكتب لها أن تخبو بعد ذلك بأية حال •

وبعد ذلك بخمسين سنة أوشك فردريك باربروسا من آل هوهنشتاوفن على بلوغ أوج السلطة الامبراطورية ـ كما اقترب من ذروة الصراع بين الامبراطور والبابا • ولكن المعارضة السياسية المضادة

لفرنسا اتخذت أشـــكالا أبلغ حدة • وكان ممن هاجموا الامبراطورية بقلمهم من الأشخاص فرد برز عاليا فوق الآخرين بكثير هو يوحنا من سالسبورى • ومع ذلك فينبغى ألا يعد يوحنا ممثلا لوجهة النظر القومية الانجليزية • اذ الواقع أنه رجل دين ذو عقلية دولية ، وعلى هذا الاعتبار اشتد مقته للامبراطور ، الطاغية الجرماني **Teutonicus tyrannus** وقـد تبادل المناظرات مع المستشار الامبراطورى واستخدم العبـارة التى كثر اقتباسها وهى : **Qui Teutonicos constituit iudices nationum ?**
« من ذا الذى نصب الجرمان قضاة للأمم ؟ ومن ذا الذى فوض لرجال كالبهائم يركبون رؤوسهم عنادا أن ينصبوا من أنفسهم أميرا يختارونه ويعلونه على رؤوس أبناء الناس ؟ الحق أن جنونهم كثيرا ما زين لهم فعل ذلك ، ولـكنه أمر قهر فى كل مرة بارادة الله وشتت الارتباك شمله •• » ولم يفته هو أيضا أن تبدر منه هاتان الكلمتان الجرماني العنيف **Furor teutonicus** •

ولا يبـدو من المبالغة فى شىء القول بأن القوميـة السـيـاسية الواعية ظهرت فى الغرب لأول مـرة فى صـورة رد فعل لسـياسية آل هوهنشتاوفن الامبراطورية الألمانية • وبعـد ذلك بقرن من الزمان ، كانت النتيجة النهائية لما قام به الامبراطور من كفاح طويل مرير ضد قوة البابا ، وضـد ما فى ألمانيا وايطاليا من مدن وأمراء ، فضـلا عن زيادة سلطان ملك فرنسا ، ــ هى الخذلان التام لتلك السياسة الامبراطورية والانهيار الكامل لبيت هوهنشتاوفن المتكبر • أما فى أثناء ما تم بعد ذلك من عملية متواصلة لتنظيم شئون أوربا على أسس وخطوط قومية ، فشىء تزعمته منذ تلك اللحظة ولعدة قرون بعد ذلك ، كل من فرنسا وانجلترا ثم اسبانيا فيما بعـد • وقد ظل التضـاد القومى بين الأمم اللاتينيـة الرومانسية (*) والجرمانية على حالة التقديم المستديم : فهو تباين فى الثقافة قائم على أساس بدائى من الفوارق اللغوية والسلالية (**Ethnic**) • على أن التباين لم يؤد الى عداء سياسى الا فى الحالات التى يشتبك فيها الجيران من الجانبين فى صراع بعضهم مع بعض كصراع الفلمنك والفرنسيين عندما اضطر أهل ليليانرت الى نطق الكلمات الهولاندية الصـعبة **schild en vriend** اى « الدرع والصديق » بمدينة بروج فى ١٣٠٢ ، ويوم كتب الشاعر الهولندى ياكوب فان مايرلانت قوله **watwals is valsis** اى كل ماهو رومانسى (لاتينى) فهو زائف • وغنى عن البيان أن مشتقات الكلمة

(*) اللغـات الرومانسية تسمية للفئات القومية التى تطـورت عن اللاتينية الشعبية كالفرنـسية والبروفانسالية والاسبانية والرومانية •• الخ (المترجم) •

التيوتوبية القــديمة walh فال وهى (والوون Walloon وفاليــزى Valaisian ويلزى Welsh وفلاخ Vlach كان لها بطبيعة الحال عــدة معان مختلفة • تتوقف على نوع من تطلق عليه وهل هو على الفرنسيين أو الايطاليين أو أى أمة أخرى ، وذلك كشأن مشتقات كلمة Diota ديوتا وهى Dutch الهولاندى deutsch, diets وتيوتونى) • التى كانت تســتطيع تغطية المجال الكامل للأراضى الألمــانية بقسميها المنخفض والمرتفع • وبلغ من شدة القوة الايحائية للفظتين المتقابلتين diota أى الألمــــانى Walh (فال)، أن ، يان فان بويندال استطاع ببساطة تجاهل كل أمم أوربا الأخرى عندما كتب : (١٠)

• ينقسم عالم المسيحية الى قسمين
فاللسان الرومانسى هــو أحدهما ،
والآخر هو جميع الألسن الجرمانية •

ولم يكن هنــــاك ســـوى مكان واحد يمكن منه أن يرى بوضــوح التركيب القومى لأوربا الذى تطور رويدا رويدا :: هو محكمة الكرسى المقدس • ذلك أن روما كانت على اتصــال دائم مع جميع تلك البــلاد والشعوب ، ومع ذلك ، فانها تعالت عليها وتباعدت عنها على كثرة عددها واختلاف أنواعها وروما هى المكان الوحيد الذى يمكن فيه فعلا ممارســـة مسألة السياسة الدولية ممارسة حقيقية ، ونتيجة لمعرفة البابوية ببواطن الأمور وامتلاكها لموارد واســـعة النطاق من الاعلام المســـتمر ، فان ديبلوماسيتها سبقت بأشواط طويلة ديبلوماسية الدول العلمانية • وفى الحين نفسه زاد تنظيم النظم الادارية فى الأقاليم الأخرى كفاية حوالى ١٣٠٠ • اذ أصبحت وحدة الدولة مطلبا شعوريا ، لابد من تحقيقه • وفضلا عن ذلك فان النظم الادارية والقضائية والمالية ، قد اكتسبت بكل من فرنسا وانجلترا من تمكن قبضتها من الأمور ما يوطد أساس سياسة قومية قوية • وترددت فيهما أصداء « قومية » لا تدع من حيث ما حفلت به من حمية وطاقة ، الا القليل لما فى عصرنا من أشكال قومية ، وهى قومية قامت فى الحين نفسه على أساس من مواقف ومطامع سياسية حقيقية تماما ، تختلط بها أو تسترها وتنكرها مثل عليا مسيحيــة عموميــة فى نوعها • لقد انتهت الحروب الصليبية أى بمعنى آخر ، أن قوة اللاتين بالأراضى المقدسة انكسرت ، ولكن اعادة الفتح ــ وهو الوضع الجديد للحروب الصليبية بوصفها مفهوما سياسيا ــ ظلت الهدف المعترف به والمقرر لدى كل أمير مسيحى • وحدث بعد عام ١٣٠٠ بقليل أن بيير دى بواه وهو محام من نورماندى كتب رسالتين سياسيتين ، جعل عنوان الأولى

منهما « حول التقليل من حروب فرنسا وخصوماتها » ، وفيها دعا الى نظام عام للسلام ، يضم صنوف العقوبات والمقاطعة وتوسط المحايدين وما الى ذلك ، وجعل عنوان الثانية « حول اعادة فتح الأراضى المقدسة » وفيها توقع السيادة لفرنسا من أجل مصلحة عالم النصرانية · وكان ذلك الرجل فرنسيا متحمسا · جعل الايطاليين بوجه خاص مناط كراهيته · وفي اعتقاده أن الفرنسيين لم ينالوا قط حقهم العادل : ففرنسا فى نظره هى الزعيم المنطقى للحرب الصليبية ، وينبغى للبابا أن يتخلى عن سلطانه العلمانى للعاهل الفرنسى ، ولا شك أن من مصلحة العالم بأجمعه الخضوع لفرنسا لما تبديه الأمة الفرنسية من الحكمة وسداد البصيرة أكثر من أى أمة أخرى ·

ومن هنا يتبين أن هذه انما هى القومية السياسية فى أنضر وأقوى صورها · وثمة قومية مماثلة في كبريائها وشـــدتها تبدت من جانب انجلترا وتسببت في أول صراع طويل نشب بين اثنتين من الدول القومية الكبرى بأوربا ، وهو حرب المئة عـام التى دارت رحاهـا بين انجلترا وفرنسا ·

وفي كل من القطرين تم تماسك الوعى القومي بمحاذاة نمو الدولة نفسها ، وأصبح عاملا واضح الحدود والمعالم فى الحياة السياسية · وهذا ليس بالأمر الذى أمكن تحقيقه فى أقاليم لم تتطور فيها سلطة مركزية ودولة موحدة : مثل ألمانيا وايطاليا · فأما المانيا فلم تتمكن فيها الملكية ولا الامبراطورية من العمل كعامل فعال يتجه نحو تكوين تنبه سياسى قوى لأمة ودولة جرمانية عامة ، فان آخر عظيم من أسرة هوهنشتاوفن وهو فردريك الثانى ، قد أخلى يده فعلا من السيادة على أمراء الجرمان وتبلائهم ومدنهم · ومن المقطوع به أن روح الجرمانية تواصل لها احساس حى عام ، ولكنه روح مالبث أن انهار اما متخذا صورة ولاء لعشيرة أو اقليم أو مدينة ، واما صورة شعور تضامن لأسرة مالكة صادر من خلال ما لاحصر له من الوحـدات التى أخـذت بوادر التفرق اليها تتهدد الامبراطوريـة الرومانية المقدسة رويدا رويدا · وهكذا فقدت طابعها السياسى ، وظلت مستقرة على ما للعاطفة البحتة نحو الوطن Heimat من مستوى حدسى ·

فاما فى ايطاليا ، فقد تأخر أيضا كل مبدأ يبشر بوحدة سياسية قومية اذ قصر دون الغاية · فلو استعرضنا ما مر بها من قوى لوجدنا انه لا العاهلية اللومباردية القديمة ذات التـــاج الحديدى ، ولا مملـكة النورمان وآل هوهنشتاوفن الصقلية ، ولا مغامرة الفرنسيين فى سياسة

القوة التى حملت بيت أنجو الى نابلى ، يمكن اعتباره نقطة البداية لتكوين نظام ادارى قوى يشمل ايطاليا بأجمعها وانشاء احساس قرين لتلك الادارة بالوحدة القومية . فقد تعمدت السياسة البابوية سد الطريق دون تطور كهذا بدلا من مساعدته . ثم ان كلا من البندقية وجنوا وفلورنسا وميلانو وجميع ما عداها من مدن رئاسية كبيرها وصغيرها قد وقعت بينها أعنف العداوات وألد صنوف التحاسد . وعلى الرغم من ذلك وبين نيران تلك الخصومات والفتن ، أطرد نمو وعى قومى ايطالى عام ، فان اسمى روما وايطاليا لم يفقدا أبدا أصداء ماض مجيد . وذلك لأن التقاليد الكلاسيكية تبرز هنا فى جميع الأزمان بصورة أقوى منها فى أى مكان آخر ، وبديهى أن تلك التقاليد تنطوى ضمنا على الوحدة . ومما لوحظ أنه فى نفس الوقت الذى ظهرت فيه القومية الفرنسية المتقحمة متجلية فى سياسات فيليب الرابع الجريئة ، دقت أنغام وطنية وقومية ايطالية ، لكى تبقى خالدة لا تضوى بعد ذلك أبدا لأنها أرسلت فى صوت دانتى على أنها صدرت فى نغمة حزينة خافتة لأنها عاشت بين الردع والاخماد : « وأنت يا حانة الأحزان ، آه ، ايطاليا المتهنة ,Ahi serva Italia) di dolore ostello) .وأصبحت الفكرة الداعية الى اعادة توحيد ايطاليا وتحريرها مرتبطة بما لعب بالأخيلة من حلم قديم بالسيادة الرومانية العالمية . فمتى جاء امبراطور حاملا لواء السلام اجتلب معه الى ايطاليا الوحدة والهدوء اللذين ظل دانتى يعتز بهما ويؤثرهما على كل ما عداهما . اذ لا مشاحة أن السيادة العالمية (monarchia) هى النظام الذى تشاء ارادة الله أن ينبسط فى الأرض . وشعب روما وكلت اليه المقادير انتخاب الامبراطور . والآن انظروا ... فهاهو ذا هنرى السابع الامبراطور الجرمانى قد جاء للقيلم بما هو مقدور على يديه من العمل السلمى بايطاليا ، ولكنه فشل منذ اللحظة الأولى نفسها . فانه مات هناك وقد أفاق مما غشى على عقله من أوهام ، وهو من ثم يعيش الى الأبد فى احدى طبقات الأفلاك العليا من فردوس (١١) دانتى .

على هذا السرير العظيم تجتذب عيناك
بذلك التاج المعلق فعلا فوقه
وقبل ذلك فى وليمة العرس هذه قد وجب حضورك
والنفس النازلة فى الامبراطورية الأرضية ، ستجلس عليه
نفس هنرى العالى ، الذى جاء لتعزيز
الطرائق الصائبة فى ايطاليا ، وان لم تصبح حتى الآن لائقة لها .

وبعد وفاة دانتى بأقل من ثلاثين سـنة تحققت الوطنية الايطالية النارية الشاعرية الدينية وتجسدت الوحدة الشمولية اللتين طالما حلم بهما دانتى فى قصيدة : عن السيادة العالمية De monarchia ، وكانما تم ذلك فى أثناء فترة عجيبة خيالية من فترات ما بين فصول التاريخ ، على يد تريبيون الشعب كولادى رىينزى Rienzi الذى ظل نصف سنة يعمل عمل المحرر لروما الداعية الى وحدة ايطاليا وانشاء الامبراطورية الشاملة : وهو الذى ظل بعد ذلك لمدة سبع سنوات منفيا وسجينا وداعية سياسيا من نوع ردىء ، واذا هو أخيرا يرفع للمرة الثانية فى روما الى أعلى عليين ، وان تم ذلك فى هذه المرة بفضل السياسة البابوية ــ حتى قتل فى النهاية باحدى فتن الشـوارع • ولم يحدث قط أن اجتمع المثل الأعلى للحكم الشعبى ولا الحرية الكلاسيكية لمجلس السناتو والشعب ، ولا مجد روما ولا الكبرياء والتفاخر بايطاليا ، ولا الطموح المقدس الى السلام الشامل ، مثل ذلك الاجتماع الغريب الذى تم فى ذلك الرجل الصغير المفتون الخؤون كولادى رىينزى ، الذى لا تقوم عظمته الا فى ذلك الحلم الذى رآه •

وهناك مجالان وقعا خارج فلك العلاقات السـياسـية والكهنوتية المباشرة وفيهما تواصل على الدوام الاتصال بين شـعوب أوربا بطريقة تجبرهم على الترابط والتفاهم على أساس الثقة المتبادلة • وأول هذين المجالين هو التجارة والثانى هو مضمار العلم والدراسة ، أى الجامعة بعبارة أخرى • وقد عاد هذان المجالان ولا سيما الثانى منهما على ما تلا ذلك من تطور فى مفهوم كلمة الأمة ، بأحسن الثمار • فان المراكز التجارية الهامة التى يجتمع فيها التجار من كل مكان (ونشير هنا الى أنبروج أقرب أمثال تلك المدن الى الهولنديين) ، قد اتحد فيها التجار الأجانب مكونين «أمما» • ولا شك أن هذه « الأمم » ساعدت على تقوية الاحساس بالترابط القومى ، ولكن حقل نشاطهم كان مقصورا فى جملته على المدينة التى تؤويهم •

وقد اشتد المبدأ القومى ، فبدا أكثر استفاضة وعمومية بكثير فى الجامعات التى نشأت ابتداء من القرن الثانى عشر فصاعدا بكل من ايطاليا وأسبانيا وفرنسا وانجلترة ، وسرعان ما وجدت فى باريس مثابتها التى لا ينازعها منازع باعتبارها الأولى بين أقران متعادلين primus inter pares ولقى الدرس والتحصيل (Studium) أعظم آيات الاكبار ابان العصور الوسطى ، اذ اعتبر فى بعض الأحيان عضوا يقف على قدم المساواة فى ثالوث يجمع بين وظيفة الكنيسة sacerdotium، ووظيفـة الـدولة (imperium) • وسيطرت السلطة الكنسية على الجامعة الى أكبر الحدود • ولذا فان المعلمين والتلامذة كانوا جميعا من رجال الكنيسة •

كما أن المدرسة بوضعها ذاك اتسمت بالطابع الدولى بأدق معانى الكلمة ، هذا الى أن ما تقدمه من دراسـات فى الفنون الحرة واللاهوت والقوانين الكنسية والعلمانية والطب ، لم تجعل على الجملة تابعة ولا خاضعة لأية مصلحة قومية أو سياسة . ومع ذلك فان الحياة الجامعية قد أفضت منذ البداية نفسها الى حدوث التجمع القومى . فان الطلبة ، وهم كتلة مشاغبة من أشخاص أكثرهم أجانب ومعظمهم فقراء ، وهم على الدوام من صفار الأسنان ، كانوا عنصرا ومصدرا لتواصل الاحتكاك مع الشعب الذى يعيشون بين ظهرانيه . وكثيرا ما اضطرهم الحال الى الاعتماد بعضهم على بعض لحماية حقوقهم وتأمين وجودهم . فأى شىء طبيعى أكثر من انشائهم جماعات تبعا لأمتهم Natio ، اما أن تتشكل بالمعنى القديم الضيق الخاص بالاقليم الذى ولدوا فيه واما بالمعنى الأرحب المرتبط بالدولة أو المملكة التى يرتبطون بها بحكم القوانين أو اللغة أو العرف ؟ ومن ثم أصبحت الجامعة نقطة الانطلاق وبؤرة التركيز للتنظيم القومى . فمما يذكر أن الجامعة نفسها فى بولونيا تولدت بمعنى ما معين عن اتحاد الهيئات القومية للطلبة National Corporationes وقد كانت كل منها تسمى نفسها قبل ذلك باسم الجماعة أو النقابة (Universitas) . وكما هو معلوم ، فان لفظة (Universitas)لم يزد معناها حتى ذلك الحين عن لفظة مجتمع أو « نقابة » من أى نوع كان . وقد انقسم طلبة بولونيا الى مجموعتين كبيرتين ، هما أبناء من دون جبال الألب أى أبناء الداخل Cismontanes التى تشمل أمم اللومبارد والتوسكانيين والرومان ، وأبنـاء ما وراء الجبال أى الأجانب Tramontanes, Ultramontanes وقد تألفوا فى البداية من عدد لا يقل عن أربع عشرة أمة أجنبية .

غير أنه حدث بباريس أيضا أن حشدا ابتدائيا مؤلفا من أبناء عدة أمم سرعان ما غلبت عليه أربعة تجمعات أكبر منه : هى تجمعات الفرنسيين والبيكارديين (*) والنورمان والانجليز . فكان ثلاثة من هذه التجمعات قد مثلت مناطق فى شمال فرنسا ، على حين أن التجمع الرابع أى أبناء الأمة الانجليزية Natio Anglica ، لم يشمل فحسب كل من وفد من الجزر البريطانية سواء أتحدث بالانجليزية أو الأنجلو فرنسية أو احدى اللغات الكلتية ، بل وجب عليه أيضـا أن يتسـع للألمان والاسكندناويين.

(*) اقليم بيكاردى : منطقة قديمة بفرنسا موقعها الآن محافظة السوم وأجزاء من باس دى كاليه والاين والواز . (المترجم)

والبولنديين وغيرهم . ومن هنا يتبين أن مفهوم الأمةNatio يتصف هنا بعدم ثبات لم يكن بد من أن يؤدى الى الصراع بعد فترة من الزمن . ولم يحدث الا فى منتصف القرن الرابع‌عشر أن المجموعة المنتسبة الى الأمة Natio الألمانية فصلت عن الأمة الانجليزية ، ثم سرعان ما عادت الأمة الألمانية فقسمت بدورها الى الأمة الألمانية الدنيا أى أهل المنخفضات الشمالية والأمة الألمانية العليا أى أهل المرتفعات الجنوبية .

وناهيك بما دار فى الجامعتين الانجليزيتين أوكسفورد وكمبريدج من تحاسد وصراع بلغ أحيانا حد سفك الدماء ، وهى حال تعد من نواح كثيرة العنصر المميز لحال « الأمم » ، ومع ذلك فهى مهما خففنا القول فيها ــ لا تقل هنا وضوحا منها فى أى مكان آخر . فأما جامعة اوكسفورد فان لوائحها ذاتها تشترط وجود انقسام رسمى الى « أمتين » ، ومن العجيب أن ذلك الانقسام لم يفترض قيامه على أساس الاختلافات بين انجلترا وويلز وايرلندا (اذ لم تشترك اسكتلندا فى ذلك الموضوع) ، وانما بين شمال انجلترة وجنوبها . وحيثما تطورت الجامعات فيما بعد ذلك من الزمان ، كما حدث فى الأراضى الألمانية ، استخدم الناس نظام « الأمم » المختلفة . وقد جعل تسم الأمم تحت رئاسة الوكلاء الذين ينتخبون لمدة وجيزة من بين الشبان من حملة شهادة الاستاذية فى الآداب .M.A ، فكان لذلك أشد أقسام الجامعة اضطرابا وعدم قرار . وساعد ذلك النظام على تغلغل وعى قومى فى دوائر بالغة الرحابة بكل قطر من الأقطار ، كما احتفظ للمجموع فى نفس الوقت بالطابع الدولى .

ومضت على الهيئة الكنسية مدة طويلة سارت فيها أشواطا بعيدة فى طريق عملية معينة من بث الطابع القومى Nationalization فان انجلترا بوجه خاص احرزت قسطا هاما من الاستقلال فى شئون الكنيسة يرجع الى القرن الثالث عشر . والبابوات انفسهم هم أول من استخدم المبدأ القومى ، ليكون قوة توازن سلطة مجمع الكرادلة ، يوم التقى الأساقفة ورؤساء الأساقفة بمجلس ليون فى ١٢٧٤ ، فى صورة أمم الى جوار الكرادلة وفى معارضة لهم . وقبل ذلك تم التصويت النهائى فى مجمع فيين (Vienne) ١٣١١ ــ ١٣١٢ أمة أمة . وبدا للناظرين أن الانقسام الأعظم الذى بدأ فى ١٣٧٨ سيؤدى الى التعجيل بهذا التفكك الذى أصاب الكنيسة . فكان كل قطر يختار بين الانضمام الى البابا الذى فى روما أو بابا افينيون . وعندما عقد مجمع بيزا أخيرا فى ١٤٠٩ لاسترجاع وحدة الكنيسة ، فلا مشاحة أن مبدأ الأمم كان هو السائد

المسيطر فى أثناء ذلك غير منازع • وفيه ألفت أمم فرنسا وايطاليا وألمانيا وانجلترا الأربعة الهيئة الرسمية للمجلس • وانحل المجلس دون الوصول الى حل ، ثم عاد فالتأم ثانية فى كونستانس بعد ذلك بخمس سنوات • وهناك أثار مبدأ « الأمم » خصومة خطيرة بين المؤتمرين • اذ أن الانجليز والألمان أرادوا الاحتفاظ به ، على حين عارضه الكاردينال دايى d, Ailly ورفضت انجلترا فيه المركز الخامس ، بعد وضع أرجونة فى المكان الرابع ، ونفذت انجلترا ارادتها فعلا ، لأن براعة الملك سجموند السياسية دفعته الى الانضمام الى جانب انجلترا • وهناك عدة نقاط تستحق التفاتا خاصا فى هذا الصدد • منها فى المقام الأول أن الأمميين nationes فى ذلك المجمع اعتبروا الممثلين لسكان بلادهم بأسرهم ومنها - فى المقام الثانى - أن الامم لم تتقابل تماما والدول الموجودة • فاعطى ممثلو سافويا وبروفانس وشطر كبير من اللورين أصواتهم الى جانب الفرنسيين ، وان كانت كل تلك الأراضى لا تبرح تعتبر جزءا من الامبراطورية الرومانية المقدسة.

فما هى اذن الخصائص التى تطبع أمة وتجعل منها أمة ؟ أهى اللغة أم أواصر الأسرة الحاكمة أم الروابط الكنسية ؟

لقد بحث الموضوع دون الوصول الى اتفاق • ومع ذلك أحس الجميع أن هناك فارقا قائما بين الأمم العامة والأمم الخاصة - وهو وضع أنتج بدوره نقط خلاف أخرى جديدة(١٢) • وكان رجال من أمثال الكاردينال دايى على ذكر تام من أن من أخطر الأمور على وحدة الكنيسة الاعتراف بان الأمم هى عناصر عالم المسيحية •

وقد أتاح المجمع الذى التأم بمدينة بال فى ١٤٣١ بوصفه آخر تلك السلسلة من المجامع ، اتاح لمفعول المبدأ القائم على الأمة فى شئون الكنيسة أن يسقط ويزول فى ثنايا مناقشاته غير المجدية • غير أن البابوية وقد توحدت من جديد شغلت نفسها فى الحين نفسه بمحاولة الوصول الى تسويات مع البلاد الكبرى ثبتت ما اضفى على الكنيسة من طابع قومى بالغ التقدم فعلا وأكدته كحقيقة واقعة • وفى تلك اللحظة بدت تباشير الكنيستين الفرنسية Gallicanism والانجليزية Anglicanism ، اللتين أوشكتا على الظهور •

من هنا يتضح أنه عند قرب نهاية العصور الوسطى كانت قوى الوطنية والقومية توسع رقعتها فى كل من الكنيسة والدولة على سواء ، فضلا عن اكتساحها الميدان بدرجة لا تقل عن هذا فى كل من حقل الحياة والثقافة الشعبية •

- ٢ -

من النهضة الى عصر نابليون

لم يكن من العسير اظهار تهافت الفكرة القائلة بأن التناقضات القومية غريبة كل الغرابة على العصور الوسطى (١) ، وأن الوعي القومي انما هو ثمرة العصر الحديث (٢) . ومهما يكن مدى امتداد نظرة المرء منا خلفه في صميم العصور الوسطى ، فانه واجد بعض البينات التي تدل على احساس مرهف بالجنسية Nationality (أي نوع القومية) بل حتى بالقومية التامة من جميع الأوجه : يتمثل في الوجدانيات التي انبثقت مباشرة عن تربة أواصر الدم وحب الأرض الأم مسقط الرأس ، ومجتمع اللغة ، والمشترك من الأخلاق والعرف ، ثم (وهو ليس أقل هذه الأواصر بأية حال) الولاء لأمير مشترك . وفي البداية ، لم يكن لهذه المشاعر علاقة كبيرة بالدولة وادارة دفة شئون الدول ، وفضلا عن ذلك لم يكن للأهداف والمشكلات السياسية أدنى تأثير على تطور الروابط القومية . والروابط كانت منذ البداية على نوعين ، فمنها الأضيق حدودا ومنها الأوسع حدودا ، فالاحساس بالمجتمع يبلغ بطبيعة الحال أقصى قوته في الجماعات الأضيق حدودا ، غير أن تناقضا أرحب مجالا — كتضاد الفرنسي والايطالي والجرماني مع الروماني — ربما تمكن من التسلط على الموقف في أية لحظة من اللحظات . وكانت الطريقة الوحيدة التي يعبر بها تنوع القوميات عن نفسه هي الاتصال المشوب بالعداء . ومع ذلك ، فقلما تمخضت تلك العداوة في حد ذاتها عما حدث بين الدول من صراعات كبرى . اذ لا يستطيع انسان أن يقول عن الحروب المتمادية في الطول بين فرنسا وانجلترا انها انما نجت عن فروق قومية ، على أنه يمكن القول بأن الفوارق القومية نمت في أثناء تلك الحرب وكنتيجة مترتبة عليها . والكفاح القومي الوحيد الذي يمكن تسميته بذلك الاسم هو الذي شب في العصور الوسطى ودارت رحاه بين الجرمان والتشكيين في الحروب الدينية مع أتباع جون هس .

وقبل نهاية العصور الوســـطى بقليل كانت الوحدات القومية الرئيسية المقيمة غرب بلاد البلقان تشكلت وأصبحت مرتبطة بشكل ما بذاتيات وكيانات سياسية نوعية ٠ وقد اكتسبت التسمية العصرية للشعوب معناها ودرجت فى التداول منذ ذلك العصر البعيد : فهناك الايطاليون والفرنسـيون والألمان والأســبان والبرتغاليون والانجليز والدانمركيون والســـويديون والنرويجيون والبولنديون والمجريون ٠ مع ذلك ، فان كل واحدة من تلك الدوائر لم تزل تحتوى على أعظم ما يمكن تصوره من التنوعات السلالية Ethnic واللغوية والجغرافية ٠ وذلك على حين أن كلمة « أمة » لم تفتأ تطلق على الذاتيـــات الاقليمية الأضيق تحديدا ٠ ولكن أظلت تلك الوفرة من الذاتيات الصغيرة والكبيرة حاسمة تنبه الى الوحدة المسيحية العامة (أى المسيحية اللاتينية) ، وان لم تلعب تلك الوحدة دورا الا فى المسائل الكنسية دون غيرها ، وبخاصة فى محاولات ـ اصطبغت آنذاك تماما بالسياسة ، وقصد بها مواصلة الحروب الصليبية ، وفى مسائل تتصل بالانقســـام الكنسى والمجامع الكنســـية ٠ ولم يعـد للامبراطورية التى فقـدت قوتها الايجـــابية ، ولا للبابوية التى اجتذبتها أكثر فأكثر معقدات السياسة الدولية ، أى أثر يتجه نحو الوحدة فى الصورة القومية لأوربا ٠ أما الكنيسة فقد وقعت فريسة لعملية تفكك قومى دب اليها منذ القرن الثالث عشر ٠ وذلك على حين أصبحت الكنيسة الانجليزية فى كثير من الأوجه مستقلة فعلا عن كنيسة روما ، حتى اذا انتهت جلسات آخر المجامع الكبرى ، اذا بالكنيسة الفرنسية تتحرك فى الاتجاه نفسه ٠ ثم حدث فى القرن السادس عشر الانفصال الكبير عن روما الذى قضى الى الأبد بكل من انجلترا ، ونصف الأراضى الألمانية واسكتلندا والشمال السكنديناوى على ما استمتعت به الكنيسة القديمة من سلطان مطلق غير منازع ، وهو الانفصال الذى أدى أيضا الى أن ظهرت فى الدين منظمات وهيئات قومية بدلا منها ٠ وبلغ الأمر حتى بمذهب كالفن نفسه وهو مذهب يتسامى من حيث الجوهر على كل نزعة قومية ، أنه كيف وفق الظروف السياسية القائمة باسكتلندا والأقاليم المتحدة (هولندا) ونيوانجلند (بأمريكا) ٠

وتصـــادف أن وقعت الحركة الانســـانية Humanism « وعصر النهضة » فى تربة قد حدد عنصر القومية تركيبها مقدما الى حد كبير ٠ فما هى ردود الأفعال التى تولدت عن احتكاك المبـــدأ القومى بالروح الجديدة ؟ الحق انه لا حاجة بنا أن نذهب بعيـــدا فى التماس الاجـابة اذ ما أكثر وفرة المواد ، وما أكثرها من ثروة من الأخيلة والأمثلة والأفكار

والصيغ ، تلك التى وهبها التقليد الكلاسيكى المكتنز بالغنى ، والذى أصبح الآن أطوع للفهم ، وقدمها خالصـــة للحاسة الوطنية والوعى القومى • وقد حدث اتفاقا فى ناحية واحدة أن هذه الوجدانات انتهلت من ينابيع العصور العتيقة قبل ذلك بفترة من الزمن ، أى قبل ابتداء ما للنهضة من حركة كلاسيكية قوية ونقية • اذ أن الكبرياء القومى فى عدد من البلدان قد ظل عدة قرون قبل ذلك يتلمس لنفسه صلة ترجع نســبه الى طروادة ، سواء انتمى ذلك النسب الى بريام أم أنخيسس • وذلك لأن كل بيت ملكي يتفاخر بالنجار العريق ، قد اصطنع له فى أدب البلاط نسبا مهيبا يعود الى ابطال الاليوم (*) Ilium • ومن أجل أبهة روما وفخامتها ، أماط فرجيل فى زمانه نبرة عبادة الأبطال عن أخيل وأجاممنون ونقلها الى اينياس • ثم عاد الغرب المسيحى بعد ذلك احتراما منه لفرجيل ، فواصـــل بدوره التعلق بطروادة • وهو مثال رائع على ما للفكرة الأدبية من القوة •

على أن أنصار الحركة الانسانية الذين عاشوا حوالى ١٥٠٠ بما ملكوا من معرفة بأحوال العصـــور القديمة اســتبحرت وتعمقت بدرجة هائلة ، لم يعودوا بحاجة الى تلك القصص الزاهية الألوان الدائرة حول أمراء خرافيين يتخذون منها وسيلة تحبب اليهم المجد الكلاسيكى • وكيف لا ، وقد أصبح بين أيديهم أعمال ليفى وقيصر واسترابون وتاكيتوس ، يجدون فيها نقاط اتصال تاريخية ذات قيمة صحيحة معتمدة أكثر • ومن المحقق أن أصول معظم الشعوب ترجع فعلا الى العهد الرومانى ، ومن هنا لم يعد أحد يلتمس لأمة شرف المحتد فى نسل بريام ، بل عنــد الهلفتيانيين (**) والأللوبروجيين (***) Allobroges ، بل حتى عند القوط والسويفى • وفضــلا عن ذلك شرع القوم يلتقطون من بقايا حصــاد التقاليد الكلاسـيكية شيئا يتجـاوز كثيرا مجرد التفاخر والكبرياء بقديم الأسلاف • وقد تولى مؤرخو اليونان والرومان تعليم جيل عصر النهضة طريقة فهم ما كان للادراك السياسى والفضيلة المدنية من معنى فى يوم من الأيام وما قد يصبح لهما مرة ثانية من معنى جديد • وهنا عاد لمفهوم Patria أى الوطن عند الرومــان كامــل دويه ورنينه • ومن المعلــوم

(*) الاليوم : هى طروادة (المترجم) •

(**) هيلفتياى : شعب كلتى قديم سكن غربى سويسرا الحالية وبه سميت • (المترجم)

(***) الاللوبروجيون قبيلة غاليــة قديمة ســكنت بين الرون والايزر • (المترجم)

أن للفظة Patria كما رأينا معنى مزدوجا في لاتينية العصور الوسطى : وأول هذين المعنيين هو ملكوت السموات ، وثانيهما هو معناها كموطن أو مسقط رأس ، ولو نظرت الى الكلمة في أخريات العصور الوسطى لوجدتها تترجم فعلا بلفظة « الوطن » في كل من لغة الوسط الهولندية ولغة الوسط الألمانية والعليا والمنخفضة (*) على أن ذلك كان في حدود المعنى الديني دون غيره • وهنا دخلت في الاستعمال أيضا لفظة Patrie في اللغة الفرنسية ، وبمعنى أوسع من ذى قبل • ومما يسترعى الأنظار أنها قوبلت هناك في البداية بشيء من المقاومة • من له بلد ما عليه الا أن يصطنع لنفسه وطنا Qui a pays n'a que faire de patrie هكذا يلوم شارل فونتين جواشيم دى بللاى : فلفظة Patrie تعد من المصطلح الحديث، وما هي الا احدى المفاسد الايطالية Corruptions italiques وعندي أنه كان محقا بمعنى ما ، ومع ذلك فان الكلمة ثبتت واستقرت (٣) •

وربما جنح المرء الى القول عند أول نظرة ، بأن الحركة الانسانية بما وقر فيها من حماسة لابتعاث عظمة روما ومجد يونان • لا بد أنها نظرت باحتقار الى انقسام أوربا وتفرق كلمتها بين حشد من الأمم على اعتبار أنه انحراف عن المثل الأعلى يتصف بالبربرية • وربما تبادر الى الذهن أن ذلك المثل الأعلى نفسه قد أملى على أتباع الحركة الانسانية ضربا معينا من النزعة العالمية يتخذ شكل موقف فكرى في المسائل السياسية • وليس بد من أن يبدو تفكك الدولة الى أمم تشويشا مزعجا للحضارة الحقة • وبعد ذلك ، ألا تشير الديانة المسيحية الى نفس هذا الاتجاه ؟ في اعتقادى أن الفكرة الداعية الى قيام قوة توحيد دولية أو متسامية فوق القوميات ، تبدو كأنما هي مشتقة مباشرة من مبادىء الحركة الانسانية •

تلك هي في الحقيقة وجهة نظر ارازموس (٤) ، ذلك الانساني الذى طبقت شهرته الآفاق ودامت على الأيام • كتب يقول : « كل من شارك في الميراث المقدس لعرائس الفن ، وهو الميراث المشترك بين الجميع ، أعتبره مواطنى Homopatrida ». وكتب في مكان آخر : « انني حيال جميع الشعوب تقريبا أعد نفسي صحيفة بيضاء ••• » (٥) وهو يسخر من حب الذات القومى الذى يقلب أمة على أمة ويؤلب مدينة على مدينة ، « إن كل واحد منهم يعد الآخرين من المتبربرين ••• » ويعظ

(*) « لغات وسط المانيا ومرتفعاتها ومنخفضاتها Middle High & Low German.

رجال الدين الناس بفرنسا بأن « الله منضم لجانب الفرنسيين » ويعطون في انجلترا وأسبانيا بأن الذى يدير رحى الحرب ليس الامبراطور وانما هو الله » وهكذا . ومن الطبيعى أن هذا النوع المتثبت المقتنع من العداء للقومية ، لا يتعارض بل يستطيع أن يمضى متكاتفا مع تعلق صادق بأرض مولد المرء منا . وللفظة Patria نغمه رقيقة فى فم ارازموس ، وان أبدى قدرا معينا من التردد في استخدامه لذلك المصطلح . وهو يستخدمه أحيانا للدلالة على هولندا Mea Hollandia أى هولندتى العزيزة وهو الاسم الذى واصل اطلاقه عليها رغم انكاره الخلق الشعبى الهولندى. وهو يكتب قائلا : انه يرفع الولاء للوطن Patriae Pietas مكانا عليا . وفي موطن آخر يستخدم لفظة Patria للدلالة على جميع أرجاء الأراضى المنخفضة الواقعة تحت سيطرة شارل الخامس . فان ذلك الخليط المتكتل من الأقاليم لم يكن له حتى ذلك الحين اسم علم محدود ، يعرفه ارازموس ولا غيره من الناس . أما الذاتية السياسية فقد أسماها هو وكثيرون من أبناء عصره باسم برجنديا . ويبدو أن ارازموس قد ربط فى أخريات سنى حياته بين لفظة Patria وبين أقليم برابانت فوق كل شيء ، وهو الاقليم الذى رجا أن يختم فيه أيامه .

ورغم ذلك فان هذه النزعة العالمية Cosmopolitanism الذهنية والاحساس الوطنى المروض التى أبداها ارازموس كانت مع ذلك هى الاستثناء لا القاعدة بين اتباع الحركة الانسانية . ومهما بدا ذلك غريبا ، فان ما للعصر القديم من شذى مخدر قد أثار عند غالبيتهم حالة من التعاظم الذاتى القومى الجامح ، استطاعت الحصول من روح الدراسات الكلاسيكية على قدر دسم من التغذية لايقل عما حصلت عليه اية نزعة عالمية. وقد لقى العالم جيوم بوده شيئا من اللائمة المترفقة من صديقه ارازموس على عواطفه القومية الفرنسية : « سيلقى اخلاصك التام لبلادك ثناء الكثيرين ، كما سيقابل بدارا بالمعذرة من الجميع ، وان كنت أعتقد أن من الأليق بالفلسفة أكثر أن نقيم علاقاتنا بالأشياء والناس على أساس أن نعامل العالم أجمع على أنه البلد المشترك لنا جميعا » ولكن بوده شأن زملائه من رجال الفلسفة الانسانية جلهم أو كلهم ، لم يتزحزح قط عن حساسيته نحو شرفه القومى . وقد أشار ارازموس فى المقدمة التى كتبها « لرسالة بولس الرسول الى أهل غلاطية » الى قول الكاتب « أيها الغلاطيون الأغبياء » الموجودة في الاصحاح الثالث . وظن بوده أنه انما عنى الفرنسيين بهذه الاشارة ووجد فيها سببا لتكدر بالغ . ذلك أن

الانسان لا يمكنه مهما احترس أن يصل الى بالغ الحرص فى مثل هذه المسائل • وقد أورد ارازموس فى مكان ما بضعة أمثلة للأقوال التهكمية Schtham eruditum, negociatorem Integrum Poenum fidum, Italum bellacem وترجمتها : الاسكيذى العلامة ! ـ التاجر النزيه ! ـ الفينيقى (البونى) الأمين ! ـ الايطالى المقاتل !! ••

كيف ؟ ••• الايطاليون ليسوا بالغى الروح الحربية ؟ والواقع أن أسلاف إصحاب القمصان السوداء لم يسمحوا بأن يقول أحد فيهم ذلك ومن ثم انجلت المسألة عن حرب ضروس من الأوراق والنشرات لقى فيها ارازموس شرا مستطيرا لا نهاية له •

على أن النزعات القومية والوطنية المفرطة الحساسية التى ظهرت فى عصر النهضة كان لها نغمة مختلفة تماما عن نغمة العصور الوسطى • فانها أحكمت عند ذاك روابطها بفكرات سياسية معينة : من الوحدة القومية والمصلحة القومية • كما أنها أصبحت تتحدث بعبارات ومصطلحات تضرب بسهم فى التضلع فى العلوم ، وفى السنن الكلاسيكية ؛ وفضلا عن ذلك تعمد رجال الأدب والحكومات على السواء رعايتها وتنشيطها • وقد وجدت تحت تصرفها ذخيرة عظيمة زاخرة بالأمثلة والنظائر التاريخية التى تكدست من كل عصر خلا • وقد أخذ ينبثق بين ذوى الألباب المفكرين شىء يشبه الرأى العام فى سياسة الساعة الأوربية • مثال ذلك ، أنه ينبغى لنا أن نقرأ قصص توماس مور المترع بالذكاء والنكتة فى « طوباء Utopia » عندما تصور نفسه جالسا فى مجلس ملك فرنسا فى أثناء أشد مداولاته سرية • فالملك يتبادل الرأى مع مستشاريه فيما ينبغى له استخدامه من الخدع والمكايد للمحافظة على مدينة ميلانو ولاسترجاع نابلى ، ثم يشاورهم بعد ذلك هل ينبغى له أن يفتح البندقية بالجيش الفرنسى أو أن يخادعها بعقد محالفة مؤقتة معها ، وفى موضوع ايطاليا وبرجنديا (أعنى الأراضى المنخفضة) واخضاعهما بأسرهما لسلطان فرنسا، بل وأكثر من ذلك تباحثه فى غزو امم أخرى طالما غزا أراضيها بعقله من زمن بعيد • (٦) ومن الجلى أن مور كان فى الواقع يرى أن السياسية الفرنسية على ما هى ، تعد طموحا ماهرا ذكيا الى بسط السيادة القومية الفرنسية على أوربا ، يتمشى تماما مع آراء مكيافللى فى كتابه « الامير (وقد كتب فى نفس الوقت الذى كتبت فيه اليوتوبيا) •

وعلى حين أن الوعي القومي بكل من فرنسا وانجلترة وأسبانيا استطاع المضي في طريق النمو مرتبطا أوثق الارتباط بالدولة القوية ، بما تهيأ لها من وحدة موطدة ونظام ادارى مركزى ، فان الموقف اختلف عن ذلك اختلافا بليغا وكاملا في الأراضي الألمانية • ذلك أن الامبراطورية Imperium قد كفت تقريبا منذ أمد بعيد عن أن تكون عامل ارتباط — فضلا عن عامل توحيد • وقد تكاثرت بمضي الزمن الوحدات التي ارتبطت بها المشاعر القومية متطورة عن معقدات الدول الكبرى مثل بافاريا وبراندنبرج وسكسونيا ، ومتقسمة بدورها أقساما أصغر في أغلب الأحيان ، قد تصل الى حجم امبراطوريات المدن المفرطة الحقارة عادة • أجل ان احساسا بالعشيرة وشعورا اقليميا ورابطة لغوية وولاء لحاكم ظلت مسيطرة على التنبه القومي الألماني بوصفها روابط من بين كثير من عناصر الربط المفكك • ومع ذلك لم تبرح هناك على الدوام فوق جميع هذه الشواخص الجزئية التي تجسد ألمانيا ووعيها ، — حماسة ألمانية عامة ، قد بثت فيها من جديد روح الحيوية والجدة باذخة ، وهي لاتقيم أي فارق بين سكسوني وسوابي وبين ألماني علوى وألماني سفلى • ودامت هذه الحماسة تتغذى بذكريات الماضي ومثل المستقبل ، وهما شيئان تم تشربهما حديثا عن طريق المعرفة بالأدب الكلاسيكي • غير أن هذه الوطنية والقومية الجرمانية الجديدة ظلتا ملكا خالصا للكتاب والشعراء ، كما وجدتا وسيلة التعبير عنهما الى حد كبير في لاتينية الحركة الانسانية وأنصارها • وقد اكتسبت التسمية القديمة « جرمانيا » محتوى جديدا باعتبارها دلالة تشير الى الوطن الكبير المترامي الأطراف •

ولا يخفى أن للاسم معنى عظيما بالنسبة لكل شيء له علاقة بالوعي القومي • وقد أطلق الرومان على ألمانيا اسم جرمانيا • غير أن اللغة الأصلية للبلاد اكتفت باسمي دويتش deutsch, diets للدلالة على اللغة والبلاد والشعب • وهي كلمة ليس لها من معنى سوى « قومي » — و « بلدي » • وانتقلت الكلمة الى ايطاليا في صورة تدسكو Tedesco وذلك في حين أن الفرنسيين والأسبان أسموا سكان ألمانيا على التوالي باسمي الألمان Allemands, واليمانز Alemanes ثم جاءت لاتينية القرون اوسطى فخلقت لفظة التيوتوني Teutonicus باشتقاقها من ناحية من لفظة ديوتسك Diutisc, ودويتش Deutsch من ناحية أخرى من ذكريات كلاسيكية • ولم يبق مصطلح « جرمانيا » حيا الا عند رجال الكنيسة ، حتى جاءت الحركة الانسانية فبثت فيه روحا جديدة

وكاملة من الحياة • وهذا المصطلح لم تتردد فيه آنذاك فحسب أصداء فخار بماضي الكرامة والهيبة الامبراطورية في أثناء العصور الوسطى وبل رنت فيه أيضا رنة أسي على مدة أسطورية Mythical بدائية من قديم آيات البطولة والبراءة الجرمانية • وهنا يتجلى أن الدراية بكتاب تاكيتوس الموسوم « جرمانيا » قد أثمرت ثمارها • وتعرف ارازموس بهذه الوطنية المتعلمة المنتفخة الأوداج في اللحظة التي انهال عليه فيها الألمان من أنصار مذهب الانسانية في أثنــاء مقامه الأول بمدينـــة بال بأكداس الإكرام والتقدير والثناء • لقد اعتبروه ممثلا للرجل الألماني الذي تفوق على ايطاليا ، وتلك هي الناحية التي أكبروها فيه فوق كل شيء ولطالما تمنوا بحرارة بالغة أن يعلن صراحة أنه واحد منهم • بيد أن ارازموس ابن روتردام ، وقد دهش لأقوالهم واهتز لها قد انساق في البداية مع نغمتهم بكل فؤاده • فكتب الى فمبفلنج Germanus Germano أعني كما يكتب الماني الى المــاني ، قائلا انه « سيرتبط به ويخالطه بذلك الصدق الألمــاني البسيط الشائع بينهما • » • غير أن أصدقاء الألمان سرعان ما تغالوا في الأمر • حتى لقد أحس فعلا أن هذه النغمة لا تتوام واقتناعاته الدولية • كما أنه لم يكن يريد أن يجلب على نفسه كدر أصدقائه الفرنسيين ، الذين امتلأت نفوسهم بنخوة القومية الحارة نفسها التي اعتلجت في هؤلاء الأصـــدقاء الجدد الشديدى الحيوية • واذا هو يتحول سريعــا الى كتابة رسالته nostra Gallia أى فرنســا بلدنا الى بوده Bude . واذا هو يسائل نفسه فيها بما فطر عليه العالم الضليع من روادع علمية، وعلى أساس البيانات العهيدة (*) التي أوردها التاريخ، لماذا لاينبغى اعتبار هولندا بلاده منتسبة الى غالة لا الى ألمانيا ؟ وكلما ازداد الجانبان من ناحيتيهما تجاذبا له ، ازداد احجاما عن ابداء رأيه بالتفضـــيل لاحدى القوميتين • ومن هنا انسحب الرجل الى نزعته العالمية المتشككة ، متخذا مبرره من كل من وجهتى النظر المسيحية والكلاسيكية ، ومعلنا أن اختلاف الأوطان غير ذي بال عند العلماء ، بل حتى في النهاية أنه وان نزل في بال فهو في ألمانيا مقيم ــ وهو انكار من المحقق أنه لم يقم في ذلك الزمن على أى سند من الدستور ولا التقسيم الجغرافي • (٧)

ومنذ انبلاج فجر العصر الحديث ، شغل الاحساس بالقومية مكانا لم يبرح يتزايد ويتضخم في علم تدوين التاريخ الرسمي وشبه الرسمي ، وذلك بوصف الاحساس عاملا للفكرة ووسيلة لها • وامتلأ «عصر النهضة»

(*) العهيد : القديم العتيق الذى مر عليه زمن طويل • (المترجم)

باهتمام متوقد الجذوات بمعرفة المرء التاريخية الحقة بوطنه وشعبه • غير أن الرغبة انما اتجهت الى شيء أكبر وأحسن مما استطاعت الأخبار التاريخية القديمة تقديمه • ولم يجد فن الطباعة الحديث وقد أعوزه ماهو أفضل ؛ بدا من التحول نحو المواد القديمة ونشر من ثمار القرائح أمثال Divisiekroniek الأخبار التاريخية الهولندية والأخبار الكبرى لفرنسا • Grandes Chroniques de France ، وهي تصنيفات ومقتبسات غير ذات قيمة نقدية اطلاقا ، كما أنها في الوقت نفسه آخر أدوار علم التدوين التاريخي في العصور الوسطى وأول أدواره العصرية • والواقع أن الناشر والجمهور القارىء ، مهما ضاقت حدود ذلك الجمهور وقل عدده ، كانا بمعنى ما معين ، يسبقان الانتاج العلمى • وظلت ايطاليا ردحا من الزمان مثال الأقطار الأخرى ومدرستها في لون الدراسة الجديدة للتاريخ • وقد تميزت ايطاليا بمستواها العالى فى علم التدوين التاريخى منذ القرن الرابع عشر بفضل جهود فيلانى ، كما أن تاريخها امتاز برابطته المباشرة حقا واتصاله الأشد وثاقا بالعصور الكلاسيكية القديمة من تاريخ فرنسا أو انجلترة • ولا تنس أن قدرا عظيما من المعرفة التاريخية والألمعية الناقدة قد تطورت بايطاليا قبل عام ١٥٠٠ • وكانت نتيجة ذلك ، أن الحاكمين الجديدين بكل من فرنسا وانجلترة• وهما لويس الثانى عشر وهنرى السابع اللذان عرفا أحسن من أى انسان آخر قيمة الدراسات التاريخية الصائبة وفائدتها للدولة ، استقدما علماء التدوين التاريخي من ايطاليا • وهناك كلفاهم باعداد صورة مضبوطة وتفصيلية لتاريخ البلاد تستطيع السلطة الملكية أن تدمغها بخاتم الصحة الرسمية • والمؤرخ الفيرونى الذى كلفه الملك الفرنسى بتلك المهمة فى ١٤٩٩ يطلق على نفسه اسم باولوس اميليوس ، أما بوليدور فرجيل فهو رجل من أوربينو من أتباع الحركة الانسانية ، وقد التحق بخدمة ملك انجلترا ليعمل مدونا للتاريخ فى ١٥٠٧ • وقد أنتج كل منهما كتابات ضخمة باللاتينية : منها عشر مجلدات عن De rebus gestis Francorum « الأعمال المجيدة التى قام بها الفرنجة » جمعها باولوس أيميليوس ، وان تركها غير كاملة عند وفاته ، فضلا عن ستة وعشرين كتابا فى التاريخ الانجليزى Anglicae historiae تركها الآخر • بيد أن هذا الضرب من التدوين للتاريخ القومى المشمول برعاية الحكومة انما هو بطبيعة الحال ضرب فن التاريخ الموضوع تحت التضييق ، وان لم يكن التضييق بالغ الدقة على كل حال • فطالما لقيت الاسطورة myth القومية التى ظلت أمدا بعيدا لؤلؤة فى التاج

التوقير والاحترام . استمتع مصنفو المدونات التـاريخية بكامل حريتهم في تنمية مهارتهم في النقد • وقد استطاع باولوس أيميليوس أن يسقط مسالة الانتساب الى طروادة على أنها ادعاء محض ، كما أنه لا يشير الى اليمامة التي جلبت الـكرامة (١) charisma عنـد تعميد كلوفس ولا الى رولاند • ولما وليت العرش أسرة تيودور وضعت مدون التاريخ لديها تحت عين أشد يقظة نظرا لحداثة عهدها بملك البلاد وعدم استقرار شرعيتها تماما • ولذا فان بوليدور فرجيل يروى خرافة بروتس وحكاية الملك آرثر ، ويقدم الى جوار هذين الموضوعين بيانا واقعيا متريثا لأصـــول انجلترا دون أن يذكر رأيه فيما يرى أنه الصدق •

وليس ثم شك أن هذين العملين المعياريين ، وهما عملان ممتازان حقا من كثير من الأوجه قد أسهما اسهاما حقيقيا وهاما في تحديد الوعى القومى واثرائه ، وان لم تتح قراءتهما بادىء ذى بدء الا على يد حلقة صغيرة من الناس•ومالبث الوعي أن ازداد رويدا رويدا نصيبه من المنزلة الممتازة التي يتبوأها مذهب سياسى اتصف ببالغ الولاء وتحظى بها تقاليد الحكم الاستبدادى • وعندما تغلغلت الحركة الانسانية الى مستوى من لا يتهيأ لهم الزمن الكافى ولا المعرفة اللازمة لقراءة مباحث العلماء في اللاتينية ، وان رغبوا مع ذلك فى اتخاذ نظرة الى التاريخ فى حد ذاته ، عادت التبعة من جديد فنيطت بالمصنفين باللغة الوطنية ، حيث وكل ذلك الى هولنشد بانجلترة وبلفوريه Belleforest فى فرنسا • وقد وهبت الأقدار هذين الأخيرين شهرة أطول أمدا من شهرة سلفيهما الضليعين باولوس أيميليوس وبوليدور فرجيل ، على أن ذلك لا يعــود الى امتيازهما باية ميزات أعلى ، بل لأنه حدث أن شكسبير اتخذ منهما مصدرا ينتهل منه • وما كاد يتم الانتقال من اللاتينية الى اللغة الأهلية حتى تحول المستوى النقدى على الفور ، الى ذلك المسرح القـديم المهجور مسرح الأخبـــار التاريخية الكبرىGrandes Chroniquesوما شابهها • اذ حدث عند ذلك أن المقصـد والمعنى السياسى القومى قد دفع الى الأمام خطوة أخرى أكثر من ذى قبل • وقد نهج برنارد دى هيان Haillan وهو مدون التاريخ فى بلاط شارل التاسع نفس النهج الذى انتهجه باولوس أيميليوس ، ولكنه عاد فادخل الخرافات والأساطير القومية التى حذفها باولوس الانسانى المذهب ، وان أوضح رأيه فيها بصراحة • فان ماشاء اشباعه ليس

---

(١) الكرامة : الامر الخارق للعادة غير المقرون بالتحـدى ودعوى النبـوة ، يظهره الله على أيدي أوليائه • (المترجم)

التعطش الجادّ البحث الى المعرفة المعتمدة الذى ملأ صدور الجيل الأقــدم من أتباع الحركة الانسانية ، وانما أراد ارضاء ذوق أدبى يتطلب مواكب عرايضـــة زاهيـــة الألوان ، وهــو ذوق قراء روايات أماديز Amadis الرومانسية ، تلك القصص المبتذلة المسرفة فى رومانســـيتها المتغنية بالفروسية ، ذوق المتقاتلين النبلاء وأذكياء رجال البلاط • ومن هنـا وجب على دى هيان Du Haillan أن يتغنى بالنغمة الرومانسية والبطولية • ومن ثم اضطر الى تقديم واجب الاجلال مرة أخرىللمثل الأعلى للفروسية ، مهما يبلغ من رثاثة الحال التى آل اليها • وكانت نتيجة ذلك أنه لم يسهم فى تطور البحث العلمى التاريخى ، وان ضرب بسهم فى تطور الفكرة القومية المتصلة بمكانة فرنسا بين الأمم •

وربما جاز أن يقال ان « عصر النهضة » قد وهب الوطنية والاحساس القومى من ذلك الاكتمال والنضرة الزاهية وتلك الحياة النابضة بالحيوية، ما يشعه أيضـا الفن الذى أنتجه عصر النهضـــة والفكر الذى انبثق منه والعلاقات البشرية التى اتخذت شكلها فى أثنائه • ولا بد لى أن استطرد هنا منحرفا هنيهة عن قصد السبيل ، قبل المضى فى سبيلى نحو القرون الأشد حداثة فنحن فى تعقبنا حتى الآن للظواهر التى تهمنا وتشغلنا ، قد استخدمنا حالات بدا فيها منطلق التطور القومى واضحا تماما ، سواء أكان اقليما وسطا ومركز دولة قد حددته الطبيعة ، أم علاقة ســـلالية (اثنولوجية) ولغوية تقليدية ، أم ملكية جليلة عريقة أضفت عليهـا التقاليد هالة المجد • ومع ذلك فهناك أيضا حالات لتكوين الأمم يبدو لنا فيها النتاج النهائى لشعب من الشعوب أو دولة من الدول كانما هو مجرد ثمرة للأحداث التاريخية تولدت عن نزوات وعوارض هى وليدة الاتفاق والمصادفة • على أنه يكمن فى مثل هذا الحال احتمال لسوء الفهم • وهى حال لو تأملناها عن كثب ، لتجلى لنا حتى فى النوع الأول من الحالات التى قد تبدو فيها نقطة الانطلاق واضحة ، أن التطور لم يبلغ مطلقا من الضرورة التى لا محيص عنها ما نجنح الى اعتقاده • ومن المقرر أن التاريخ ليس به طرائق ثابتة لا تتبدل •

وهناك حالات لا يستطاع تلخيص نقطة انطلاق التطور القومى فيها فى كلمة أو اثنتين ، منها حالة الأراضى المنخفضة وسويسرا • فعند النظرة الأولى اليهما ، تبدو الظروف الطبيعية كانما هى العامل المسيطر تماما فى حالة كل منهما • غير أن هذا يعد فى نظرى تبسيطا رخيصا جدا للمشكلة • فان تكوين الاتحادات الكنفدرالية بالمناطق الألبية لم يستلزم

مطلقا أن يؤدى الى الانفصال عن الامبراطورية الرومانية المقدسة ، اذ أن ذلك شيء لم يتجهوا اليه بأية حال . فلم تختلف طبيعة تلك الاتحادات عن أحلاف المدن والطبقات التي قامت بجنوب ألمانيا ابان القرنين الثالث عشر والرابع عشر . فان الصنفين كليهما لم يكونا سوى اتحادات قامت خصيصا لسداد الثغرة الناجمة عن انعدام السلطة المركزية الفعالة . فلو اختلفت الظروف ولو اختلافا طفيفا لفقدت الأحلاف السويسرية كما فقدت الألمانية ــ معناها بعد برهة قصيرة ، ولاختفت من الوجود ثانية . وقل من النتاجات السياسية ما وجد بطريقة تماثل في سمتها العارضة وعدم توقعها ، طريقة قيام الاتحاد السويسرى الكنفدرالى ، الذى نما فى البداية عن تماسك الكانتونات الألمانية ، ثم عن ارتباط الكانتونات ذات اللغة الرومانسية الأصول بعد ذلك به . وعندى أن شيئا لن يستطيع اظهار ما عليه فكرتا القومية والوطن من مرونة خيرا مما يظهرها مجتمع سويسرا الثابت الركين : فهو مكون من مجموعات لغوية وثيقة ، ومع ذلك فهو أمة واحدة ، وهو مشاطرة فى مجموعات ثقافية ثلاث ، ومع ذلك فلا نزوع الى التفكك ، وذلك كله بينما الكانتونات كمجموع لا تنجذب حول ونحو مركز ثقافى واحد ، بل نحو خمسة مراكز أو ستة .

ولعلى أستطيع أن ألتزم شيئا من الايجاز فى موضوع نشأة وتطور الوعى القومى الهولندى : فانى كثيرا ما تحدثت عنه وكتبت فى أوقات مختلفة وسياقات متنوعة . فهنا أيضا لم يكن الاطمئنان الى تقارب المناطق المختلفة وتجمعها فى ذاتية مفردة أقوى على أساس الظروف الطبيعية وأشد توكيدا بأية حال منه فى حالة سويسرا . فان هذه المجموعة من الرقاع المنبسطة المنخفضة من الأرض لم يكن لها حدود واضحة لا من جهة الشرق ولا من جهة الجنوب . أما موقفهما اللغوى ، فقد نزع بها نحو الازدواج والثنائية ، ولكن الموقف من الناحية الاقتصادية والسياسية والثقافية كان أنزع كثيرا نحو الوحدة . ومع ذلك ، فان تلك الوحدة تمت مرتين بفضل جهود الأسرات المالكة والتجاهات السياسة الدولية ، ولكنها فشلت مرتين . وكان الخط الذى يفصل جمهورية الأقاليم المتحدة (هولندا) من الأراضى المنخفضة الأسبانية (بلجيكا) أشبه شيء بصدع فى أبريق . ثم يعود ما فى فكرة القومية من مرونة فيظهر من جديد : وهنا ينشأ فى تلك البلاد أمتان بدلا من أمة واحدة ، تعتز الشمالية منهما بقوتها من حيث تجانسها السلالى الوطيد (الفريزيون n'en déplaise the Frisians) وتعلقها المتأصل بمصائر

بيت أورانج ، على حين يبهظ كاهل الجنوب تلك الثنائية الأليمة المتمثلة فى الفلمنك والوالوون ، ولكنها مع ذلك قوية نتيجة لانجازاتها الرفيعة فى كل ما يخطر على البال من حقول الثقافة وبتلك المكانة الشريفة التى احرزتها لنفسها فى أوربا بسبب التضحية التى أبدت استعدادها للقيام بها فى اثناء الحرب العظمى • أما فيما يتعلق بالنمسا ، التى يمكن تسميتها بالمركز الدبلوماسى لأوربا لمدة لا تقل عن قرنين من الزمان ، فان مسـالة القومية أشد هنا تعقيدا منها بالنسبة للأراضى المنخفضة وسـويسرا وبلجيكا • ففى هذه الحالة كانت نقطة البداية لتطور النمسا نحو الوحدة والقوة كدولة مستقلة ، مجرد أسرة مالكة ، هى أسرة هابسبرج • فـان منطقة ايست مارك (التخوم الشرقية) الجرمانية East mark فى أوائل القرون الوسطى ، وهى منطقة بافارية من حيث أصولها السـلالية ، سرعان ما اشتد بأسها وقويت فى اطار الامبراطورية الرومانية المقدسة • فبرزت فى بادىء الأمر فى صـورة كونتية حدود أعنى مارجرافية Margraviate ثم بشـكل دوقية ، وأخيرا أصبحت فى زمن مبكر جدا كنتيجة لمركزها على المحيط الخارجى للدولة ، مركزا خاصا جدا للحضارة الجرمانية • وانتقل المنصب الامبراطورى الى أسرة هابسبرج ، وكان انتقاله عابرا فى بادىء الأمر حـوالى ١٣٠٠ ، ثم آل اليهم الى الأبـد فى القرن الخامس عشر • فانهم أخـذوا يضمون مجموعة كبيرة من الأراضى الموروثة حول دوقية النمسا ، وبغير أدنى مبرر شرعى رفعوا انفسهم فوق جميع أمراء الألمان الآخرين باتخاذهم لقب الأرشيدوق ، (٨) ثم أصبحوا بوصفهم ملوكا لبوهيميا أول المنتخبين Electors وجدير بنا أن نشير الى أن كل هذا النهوض الذى حظى به آل هابسبرج قد حدث داخل اطار الامبراطورية الرومانية المقدسة ، وان أمكن اسـتثناء حالة وحيدة بعد انتقال ميراث برجنديا اليهم • غير أنه لا شك أن لذلك الاستثناء أهميته : اذ أنه هو اقليم فلاندرة الغنى ، وهو اقطاعية تابعة للتاج الفرنسى واثمن رقعة فى الممتلكات البرجندية • وعن طريق فلاندرة صارت أسرة هابسبرج قوة دولية حقة وعن امتلاكها تولد العداء بين آل هابسبرج وفرنسا ، وهو عداء قدر له أن يسيطر على السياسة الأوربية عدة قرون متتالية • وكانما لم يتكدس القدر الكافى من المسائل المتنازع عليها حتى زاد عليها اتحاد النمسا واسبانيا والاستيلاء بعد ذلك على التاج المجرى ، مهما تلوث بشكل يرثى له بالفتوح التركية • ونتيجة لهذا ، اذا بالنمسا قد أصبحت عند منتصف القرن السادس عشر أعظم دول أوربا رقعة وأشدها صولة عالمية • وليس معنى ذلك بأية حال أن الانسان كان يستطيع التحدث

عند ذاك عن أمة نمسوية • اذ الواقع أن حشــــدا من العناصر القومية والأسرية قد اجتمع فى ظل أبهة لقب امبراطورى وفخامته ، أما ما بعد ذلك فلا شيء مطلقا • وفى تلك التشكيلة الدولية وهو الاسم الذى يستطيع المرء بحق اطلاقه على ملك آل هابسبرج حوالى ١٦٠٠ ، لم يعد العنصر الألمانى واضح الســـيطرة الى جوار البرجنديين والهولنديين والايطاليين والبوهيميين والهنغاريين وهلم جرا •

ولئن جلبت حرب الثلاثين سنة على آل هابسبرج زيادة فى المجد ، فانها جلبت عليها تفاقما أعظم فيما شجر بينها وبين فرنسا من صراع مزمن • ورغم ذلك ، حدث بعد ذلك بقليل ، أن النمسا أخذت على عاتقها عمـلا أوروبيا استطاعت القيـام به فى أمجد الصور : وهو مقاومة الترك ودفعهم الى الخلف بعد أن برزت روحهم الامبريالية العدوانية مرة أخرى أخيرة • ذلك أنه من النادر أن اشـــتد روح التعاون الدولى بين كوكبة العظماء الممتازين فى الدول الأوربية على النحو الذى ظهر به فى ١٦٨٣ ، يوم تكاتف الألمان والبولنديون جميعا وصدوا الأتراك عن فيينا ، ويوم حدث بعد ذلك بزمن قصير أن أميرا فرنسيا هو يوجين أمير سافوى انتصر بالنيابة عن امبراطور ألمانيا فى المعركة التى حررت أوربا من الخطر التركى الى أبد الآبدين • وقد استطاعت هذه السياسة القوية القيام بما لم تستطعه حركة التوسع الجامحة لسلطان آل هابسبرج فى عهد شارل الخامس : وهو أن النمسا فى عهد ماريا تريزا أصبحت دولة ووطنا أظهرت على الرغم مما يشوبها من تنوع الأجناس والسلالات قدرتها على استيعاب جميع مشاعر التعلق والولاء القومى • ففى أحضان تلك «النمسا السعيدة»، أعنى فى فيينا قصبة الامبراطورية ، تصل الحضارة الجرمانية الى ذرا مجدها فى شخص موزار وهايدن وبيتهوفن وشوبرت •

ومع ذلك ، فان روابطها الوثيقة المتينة العرى مع ألمانيا ، انما هى مكمن المصير الذى تخبئه الأقدار لقوة النمسا : الصراع مع بروسيا ، والانعزال عن الامبراطورية الجديدة ، والمحالفة التى أدت الى أحـــداث ١٩١٨ ، والاتحاد Anschluss القـــائم فى هـــذه الأيام • فأما المشكلة الفاجعة مشكلة انضمام النمسا الى ألمانيا أو احتفاظها باستقلالها الى جوار ألمانيا ، فانها قد حلت الآن حلا مؤقتا ، وبذلك خضعت النمسا تلك الدولة التى انتظمت اشتاتا من الدول والتى ربطت بين أشد أجزاء أوربا قلة استقرار على ما اتسم به ذلك الربط من قلة الجدوى •

ولعصر شارل الخامس وفيليب الثانى واليزابث أكبر الفضل على ظاهرتى الوطن والأمة لأنه رفعهما الى أقصى مراتب نموهما • وقد توثقت رابطة الفكرتين آنئذ بفكرة قيام دولة قوية وحكومة قوية • اذ أن العصر اتجه فى كل مكان نحو السلطة المطلقة والأشكال الادارية الاستبدادية المطلقة • فرفعت عظمة التاج أو القانون الى السماك الأعلى ، بفضل طراز الحياة الخاص بحركة الاصلاح الكاثوليكية : (الاصلاح الدينى المضاد) والبـــاروك Baroque • وهنا احرز شخص الحاكم تألقا شبه الهى • ولاح أن جوهر الدولة والأمة يجد وسيلته الكلية للتعبير عن نفسه فى جـــلال مهابة الدم الملكى • ومن ثم يمكن القول بأن سياسة حكام القرن السادس عشر انما هى قبل كل شيء سياسة أسر مالكة • ولعل الأحرى بنا التحدث عن سياسة التاج ، وذلك لان ما كان يحرك الحاكم ويسيطر عليه لم يكن ما للاسرة من مصالح مادية من حيث هى كذلك ، وانما الدافع هو فـكرة قومية ، أو قل تنبه الى عمل وواجب ، ولكنه شيء تستتر فيه بدرجة ما المصالح المباشرة للبلاد وشعبها وراء أبهة التاج وعظمته • ومن المقطوع به أن قدرا معينا من فهم المصالح الاقتصادية للبلاد قد لعب دورا قويا فى صياغة تلك السياسة ، بيد أن ذلك الفهم ندر ان استطاع رفع نفســه الى مستوى السياسة الواعية الهادفة الى الغنى والرخاء واستتباب القانون والنظام وازدهار الثقافة • وكان من الواضح تماما أن الصالح العام هو الهدف الذى يهدف اليه الحاكم من الناحية النظرية • فان كلمات مثل Respublica, Salus Publica أى الشئون العامة والصالح العام قد انضمت من قبل ذلك الزمان بأمد طويل الى معجم فن السياسة • وقـــد انتهى المؤلفون تماما ابان العصور الوسطى نفسها ، من النهوض بذلك الضرب الفنى genre من الأدب المسمى بمرآة الأمراء ، وهو البحث الذى يعقد حول واجبات الحاكم ويصف أعماله • غير ان ذلك الضرب الفنى أنتج من الزهرات الكلامية الكلاسيكية واخلاقيات المسيحية أكثر مما أنتج من فهم للعلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، وبدرجة تتفاوت من التمشى مع تقاليد « مرآة الأمراء » تطورت كتب ارشاد سياسية مثل كتاب «الأمير» لميكافيللى وكتابات جان بودين ومن يسمون باسم منشئى الملكيات « المونارکوماشست Monarchomachists » • على أن الواقع الفعلى ان الحكام ورجال السياسة واصلوا رغم ذلك المضى بسفينة الدولة مستخدمين فى توجيهها «بوصلة» سياسية بالغة البدائية • ذلك أن التقديرات استمرت غليظــة بدائية

قصيرة النظر ، كما أن الوسيلة (فيما عدا التآمر والرشوة) ظلت ضيقة الأفق عديمة الأثر • ومهما وقرنا فى أنفسنا من احترام للقادة والزعماء ومهارتهم السياسية ، فاننا حين نتأمل سياسة كسياسة فيليب الثانى أو أواخر ملوك أسرة فالواه من حيث هى تعبير عن قدرات فكرية لا نكاد نستطيع أن نعتبرها الا تخليطا وعبثا ازاء عوامل لم تحظ بمن يضبطها ولا بمن يفهمها •

حتى اذا وافى القرن السابع عشر ، ازدانت مذهبية (ايديولوجية) (*) التنبه الوطنى والوعى القومى (أو لعل الأسلم تسميتها باسم التعبير الاصطلاحى لا الأيديولوجية) أروع زينة بكل الألوان والرايات والزخارف المقتبسة من اقدم عهود التاريخ • وما على المرء الا أن يستعيد الى ذاكرته جميع الأفكار Motifs الكلاسيكية التى يحتويها مصطلح التسميات الأدبية عند فوندل (**) ومن بين الشخصيات الكلاسيكية ، شخصية أوتيت دويا اعتز به الناس اعتزازا خاصا ، هى شخصية أبى الوطن Pater Patriae ولم يكن لقب الشرف ذاك مناسبا فقط للرأس المتوج : اذ أن الروح الرومانية قد أوجدته فيما خلا من الزمان بمعنى جمهورى وأرادت منحه لشيشرون • والحق ان جميع صور الوطنية الرومانية والاغريقية كانت أسلس قيادا فى خدمة الأشكال السياسية القليلة التى لم تبرح قائمة على الحرية المدنية والاتحاد الكنفدرالى الادارى ، منها فى التطبيق على الحكم الاستبدادى المستقر وما له من أبهة متباهية • ومنذ أن تراجعت دولة الاتحاد الكونفدرالى السويسرى الى منطقة الظلال القاتمة بعد الأمجاد التى تبوأتها أمدا قصيرا أثناء فترتها البطولية ، ومنذ اشتد عود البندقية وجنوة رويدا رويدا واشتد ريشهما ، فان الجمهورية الهولندية كانت السباقة الى رفع سارية المثل الأعلى السياسى للحرية ، وكانت هى التى اتسعت جنباتها تماما لتقبل المفهوم الكلاسيكى عن الوطنية ومن ثم فان لقب الشرف : أبا الوطن كان هناك فى أنسب مكان له • فلو قدر للفظة Patria الوطن بالمعنى القديم أن تفهم فى اى مكان ، فذلك المكان هو الأراضى المنخفضة ، واذا قدر للأسى الكامن فيها أن يحس به

(*) Ideology : المذهبية Phraseology : الاسلوب التعبيرى أو العبارة Terminology التسمية الاصطلاحية أو مصطلح التسميات • (المترجم)

(**) فوندل (١٥٨٧ ــ ١٦٧٠) شاعر هولندى شهير كتب ٣٢ مسرحية • (المترجم)

أحد ، فان ذلك الاحساس ينبض كاقوى ما يكون فى قلب الذين عادوا الى «الأراضي المنخفضة الحلوة» بعد تجشمهم ما لا حد له من المحنوالاخطار فى أثناء أسفارهم وعيشهم بين آفاق المدارين ٠

ولكن ينبغى ألا يغرب عن البـــال أن رنين لفظتى Patria الوطن و Pater Patriae اى أبى الوطن ليس هو الشىء الوحيد المرتبط عند الهولنديين بجوهـــر تاريخ البلاد ذاته ٠ فهناك أيضا لفظـــة Patriot أى المواطن ٠ وذلك أنه حدث قبل استيلاء أخريات القرن الثامن عشر بزمن طويل على هذه الكلمة وتحويلها الى شعار حربى تدور حوله المنازعات العنيفة ، أنها دوت فى أبهاء قصر بيننهوف Binnenhof بمدينة لاهاى بنغمة احتفرت لها فى التاريخ الهولندى مكانا اشبه بالنقر فى الحجر ، يوم صدرت عن خادم الدولة الذى قال فى آخر لحظة من حياته : « أيهـــا الرجال ، لا تعتقدوا أننى خائن ، فانى قد تصرفت فى حـــدود النزاهة والتقوى تصرف المواطن الطيب ، وعلى هذا الوضع نفسه أموت» ٠

ونحن الهولنديين نرى انه حسبنا عبارة يان فان أولدن بارنفلت التى قالها فى ١٦١٩ دليلا على الأهمية التى احرزتها كلمة مواطن فى لغة الهولانديين وعرفهم فى أثناء القرن السابع عشر ٠ وقد دخلت الـــكلمة الى بلادنا مع الحركة الانسانية ، مشتقة من اللاتينية ومتقمصة فى الأصل معنى ابن الوطن Compatriot ولم تلبث حتى أحرزت معنى آخر أيضا هو محب وطنه ٠ وقد أورد معجم كليان الهولاندى فى ١٥٧٤ المعنيين كليهما : أى ابن الوطن ومحب الوطن Patriae amans ثم اذا هى تصبح منذ بداية الثورة الهولندية على اسبانيا اســـما حزبيا موسوما يطلق عادة مقترنا مع عبـــارة المواطنين الصالحين goede patriotten وقد جرت العادة بمناهضة الوطنيين patriote للحزب المناصرللاسبان أو المناصر للملكية وتالبهم عليهم ٠ فكانهم يعدون بهذا مساوين تقريبـــا للفظة «شحاذى البحر» (*) او على كل حال ، انصار أمير أورانج ٠ ومما هو جدير بالملاحظة أن لفظة Patriote اى الوطنى لم تدخل فى الاستخدام العام فى اللغة الفرنسية الا بعد ذلك بزمن طويل ، وان جاز وجودهامرات قليلة فى القرن السادس عشر داخل عبارة « الوطنيين الصـــالحين bons patriotes (٩) » ٠ فان الدوق دى سان سيمون أثنى على فوبان بوصفه

(*) شحاذى البحر : هم المتطوعون الذين جمعهم وليم الصامت ١٥٦٩ واهم اعمالهم رفع حصار ليدن ١٥٧٤ ٠ (المترجم)

وطنيا على محاولته ادخال الاصطلاحات الى الدولة ، فأفضى ذلك بروسو الى نسبة صوغ الكلمة اليه • وحاج آخرون بأنها دخلت الى الفرنسية نقلا عن الانجليزية • والواقع أن لفظة وطنى Patriot قد اكتسبت فى انجلترا شيئا فشيئا معنى خاصا هو صديق الحرية • ففى تلك البلاد قامت مجموعات أو أحزاب تحاول اصلاح النظم الادارية فى الدولة وتنزع الى التحدث عن نفسها على أنها «الوطنيين» حتى فى أثناء القرن السابع عشر • وقد حصلت الكلمة على التصديق والاقرار لمعناها هذا وهو «صديق الحرية» يوم نشر لورد بولنجبروك حوالى ١٧٣٨ نشرات المهاترة الجدلية التى هاجم بها روبرت والبول ووزارته الطويلة الأجل وما اتبعه من سياسة السلم والروتين • وقد جعل عنوان احدى النشرات : «ملك وطنى» وجعل عنوان الأخرى «حول روح الوطنية» • والنشرتان تحتويان على التماس الى الملك وسلطته الشخصية وروح الشعب استعداء لهما على الأرستقراطية المتجمدة التى امتلأ بها البرلمان • وربما جاز فوق هذا تسميتها باسم الوطنية الحقة وان جاءت مشوبة مقدما بطعم الفاشية • غير أن شخصية الكيبيادس(*) التى تقمصها بولنجبروك لم تكن طراز الرجل الذى يمكن أن يؤثر فى الرأى العام الانجليزى الا مؤقتا • وسرعان ما سخر الناس فى انجلترا من لفظة وطنى هذه حتى أصبحت رثة مبتذلة • ومما قاله الدكتور جونسون لبوزويل : «ان الوطنية هى الملاذ الأخير لأى نذل أفاك» ورغم ذلك ، فان هذا الاستخدام الانجليزى للفظة وطنى على أنها تدل على : «صديق الشعب» أو «صديق الحرية» هو الذى تغلغل الى الصميم من فرنسا ، وانتهى بها المطاف أن تكون ابان ما نشب فى الجمهورية الهولندية من خصومات مدنية فى خدمة أعضاء «حزب الوطنيين» Patriot Party بما لهم من قبعات مرفوعة الحوافى وغلايين جودية (**) Gouda وكلاب بومرانية بيضاء •

وبهذا يكون مفهوم لفظة «وطنى» قد انتقل من دائرة التعلق الوجدانى بالوطن الى معنى الكفاح السياسى من أجل الحرية الشعبية ، والمساواة أمام القانون واصلاح الدولة والتقدم الاجتماعى والثورة • ومع هذا ، فان الذى حدث نتيجة لذلك ، أن الفكرة تعرضت للانفصال عن قاعدتها الأصلية التى هى أرض ميلاد الرجل وأن تفقد محتواها الأصلى بوصفها ميلا غريزيا من المرء نحو التربة التى بها نشأ ، وذلك لأن هذا المثل الأعلى

(*) الكيبيادس قائد آثينى منفى حوالى ٤١١ ق • م (المترجم) •

(**) نسبة الى مدينة جودا الهولندية الشهيرة بالجبنة (المترجم) •

للحرية لم يعد هو المثل الاعلى للمحافظة على الحريات القومية التقليدية بل أصبح المثل الأعلى لبسط السعاده البشرية والكمال الاجتماعى بكل أرجاء الارض طولا وعرضا • ونشأ ضرب بعينه من التوتر بين المفاهيم السياسية العملية لكل من الدولة والأمة من ناحية وبين المثل الأعلى العام لحب الانسانية ومجموعة المواطنين العالمية من ناحية أخرى ، المثل الأعلى الذى بدأ تحقيقه للعقول الحساسة المتزنة التفكير فى القرن الثامن عشر هو المستقبل الذى يحمله الغد • اذ لاح لهم أنه قدر للامة والوطن أن يدخلا فى كيان انسجام الأسرة البشرية ووحدتها فكيف يمكن أن يوجد متسع لأى شكل من أشكال القومية فى الصورة المتفائلة للمستقبل لدى الفلسفات ؟ ان ذلك كان من الممكن ــ على الرغم من كل شيء ، والسبب بسيط ، هو أن تأملات الباحثين عن الحكمة ندر أن تكون من الاقناع ما تفترضه فيها نظم أولئك الباحثين • على أن زعيمى التفكير الاجتماعى فى تلك المدة : مونتسكيو وروسو لم يضعا الصورة المحسوسة لفكرة الأمم أو الأوطان فى المحل الأول • فان مونتسكيو مثلا فى كتابه «روح القوانين Esprit des Lois ، جعل مدار تفكيره النواحى السلالية والاجتماعية أكثر من السياسية • وآثر روسو أن يعبر عن نفسه بما ضربه من تجريدات على الحياة الاجتماعية البشرية وتركيبها السياسى • ومع ذلك ، فالذى حدث حتى فى طريقة تنسيق نظام كتاب « العقد الاجتماعى Contrat Social أن موضوع المجتمع الحر وهو المعبر عن الارادة العامة ، لم يمكن وضعه فى أية صورة سوى صورة القوة الحقيقية المعلومة ، أى الدولة أو الشعب، ومن ثم فان روسو هو الذى استطاع وضع برنامج لانشاء سياسة قومية حقيقية بما سطره فى رسالته «تأملات حول الحكومة البولندية» (١٧٧٢) وفيها اعتبر أن هدف القانون خلق روح شعبية ذات وعى قومى ، وهدف التربية والتعليم المحافظة على الأخلاق والتقاليد القومية حية فى قلوب الشعب •

وقد اجتمعت فى روح العصر الذى أخذ يهوى مسرعا نحو الثورة الكبرى ، فكرتان حاولتا التصدر : وهما «أولا» المثل الأعلى الغامض للأخوة العامة والتسامح والانسانية ، الأمل المرجو لمجتمع مسالم سيجد سعادته فى الحرية الشاملة وفى حياة منسجمة مع الطبيعة ، «وثانيا» ميل قوى لا يقل عن هذا فى قوته نحو كل شيء يتعلق بأرض المرء وشعبه • ثم جاءت الثورة ، يوم لم تبرح الأفواه والحناجر تنادى بالخير الشامل المتعين فى الفضيلة وحب البشرية ، غير أن القبضة الحديدية وجهت ضربتها

من أجل الوطن والأمة ، وكان هوى الأفئدة فى صف تلك القبضة • ولم يحدث قط أن بلغ عاملا الوطن والأمة من النفوذ الشديد ما بلغاه فى السنوات من ١٧٨٩ الى ١٧٩٦ • وعندى أن كل ما تفعله تلك الحقيقة هو أنها تؤكد أن الطبيعة تثبت على الدوام أنها اقوى من النظريات • ومع ذلك فقد زعم الناس دائما فى نفس الوقت أنهم انما يتصرفون تصرفا متمشيا مع النظريات • وجعلت الجمعية الوطنية همها الأول أن تصوغ « اعلانا بحقوق الانسان والمواطن » • ويجدر بك أن تلحظ هنا أن الانسان يجيء أولا على حين يتأخر المواطن • ولكن ما يكاد المرء يشرع فى صياغة حقوق الانسان حتى يتجلى له أن الأمر يحتاج الى الدولة لتصير اطارا لمجتمعه • فكأنه ليس من الممكن بداهة أن تتخذ الانسانية مطية أو وسيلة تحمل عليها الحرية المرغوبة بهذه الحرارة البالغة • اذ أن مقرها هو الوطن وموضوعها الشعب • ومن هنا يتبين أن الثورة الفرنسية قامت منذ البداية وقبل كل شيء بتنشيط وطنية وقومية تتصفان بالحماسة •

وقد عرضت على مسرح الثورة فى بعض الأحيان فصول اضافية غريبة • ففى ١٧٩٠ ، وهى السنة الشاعرية الرومانسية للثورة يوم خيل للناس ، أن كل شيء يمضى فى الاتجاه الصحيح وأن خلاص البشرية قريب ــ وذلك نظرا لأن البشرية ستتكتل بالاجماع فى اتفاق وتفاهم ــ خرج على الجمعية الوطنية ذات يوم (١٩ يونية) موكب عجيب من العرب والبروسيين والسويسريين والسويديين والهنود والسوريين وأهالى برابانت ولييج ومن اليهم ، وكل منهم فى ثيابه القومية ، وهم جميعا بقيادة البارون المافون اناكارسيس كلوتس (١٧٥٥ــ١٧٩٤) القادم من كليف (*) جاءوا مندوبين عن النوع البشرى ليلتمسوا من فرنسا السماح لهم بالاشتراك فى احتفالا الحرية والاخاء ، لكى يتمكنوا فيما بعد من اعلان أخبار التحرير القادم الى شعوبهم •

وقد صار من المبادىء المعروفة منذ عهد مونتسكيو أن الحرية ولدت فى غابات ما سماه تاكيتوس بجرمانيا ، وأن نظم انجلترا السياسية قد تطورت عن تلك الأرض أرض الحرية الجرمانية القديمة • ولم يفت فرنسا أيضا قبول ذلك المبدأ • وفضلا عن ذلك فإن امم لرومانس (**)

(*) البارون انا كلرسيس كلوتس : هو بارون بحما الجنسية البروسية انضم الى الثورة الفرنسية وتسمى باسم خطيب الحقوق البشرية وأعدم بالجيلوتين .

(**) الرومانس : هو اسم عام يطلق على اللغات التى نشأت من اللاتينية الشعبية ــ وهى الفرنسية والايطالية والبروفنسالية والاسبانية والبرتغالية والرومانية والرومانشيه بسويسرا • (المترجم)

أحست قبل ذلك بزمن بعيد بقدر معين من الفخار بالعنصر التيوتونى فى أجدادها ، على أن الأصل الجرمانى أصبح آنذاك ـ وقد مدت المذاهب الأدبية الرومانسـية Romanticism أطنابها وانتشرت ـ ورقة لعب رابحة • وتغلغلت الفكرة حتى أن دى توكفيل نفسه ظل يتخدث دون تردد عن «آبائنا الجرمان Nos Pères Les Germains » ، وانتقلت الفكرة منه الى صديقه جوبينو • ثم عادت الفكرة فوجدت تعبيرا بالغ الروعة عنها فى أثناء الثورة الفرنسية • ففى ٢٤ ابريل ١٧٩٣ ، ظهر أناكارسيس كلوتس نفسه فى المؤتمر الوطنى ليكشف للأعضاء عن مشروعه الخاص باقامة جمهورية عالمية عامة • وقد طالب «حسبما تقول المضابط» بالغاء لفظـة الفرنسية لاعتقاده أن لفظة الجرمانية أنسب تماما وأوفق» (١١) • ولكن ذلك جاء بعد كتابة « المارسيلييز » ، وقد تفجرت الحماسة أنهارا فى كل مكان ، واستعدت جيوش الثورة لاعطاء فرنسا «حدودها الطبيعية» ومنح شعوب العالم حريتهم •

أجل الحدود الطبيعية ••• هكذا كلما تغيرت السياسة زادت ثباتا على ما هى عليه • وها قد ابتعثت فى صورة تحقيق الآمال فى بلوغ الحدود الطبيعية ، سياسة التوسع القومى العسكرية ، التى خططهـا ريشليو وواصل المضى بها لويس الرابع عشر • على أن لفظة « الطبيعية » هذه قد أصبحت آنذاك مثقلة بكل فلسفات القرن الثامن عشر ، التى جعلت من الطبيعة القوة العليا الهادفة الى الخير وحتمت على الانسان والحياة والروح أن تتوافق معها ، وأن ينظموا أنفسهم على غرارها طائعين • فهنا صـار التوسع العسكرى للوطن أمرا لا يتجاوز مجرد الطاعة لأوامر الطبيعة • وهناك كذلك المثل الأعلى المتعلق بالتحرر الدام لجميع الشعوب المظلومة وهو يتوائم تواؤما تاما مع أفكار روسو • على أن روسو حين لم يؤسس فكرته عن «عقد اجتماعى» على الدولة أو أمة بعينها ، واقتصر على تعيين نظام يتصف بطابع الصحة العامة ـ وقد وضع أساس ما قد يصح تسميته باسم القومية العالمية الشاملة ، وذلك نظرا لأن الدولة القومية هى وحدها التى تستطيع القيام بعمل وحدة تتمثل فيها الدولة المثالية • وبهذا المعنى لم تجد نظرية روسو السياسية تعبيرا أنقى من العمل الذى واصل به بونابرت اتمام ما بدأت به آنفا انتصارات جيوش « المؤتمر الوطنى » وهو الانشـاء الشـورى لسلسلة من الجمهوريات الحرة التى تزدان باسـماء كلاسيكية زخرفية : الجمهورية الباتافية والهلفيتية والسرالبية والليجورية والبارثينوبية (ودلك أن لفظة النابوليّة لم تعد كلاسيكية الجرس بالقدر الكافى) •

ومع ذلك فقد وجدت قوى أخرى عدا مذهب الطبيعة لروسو وعلم الاجتماع لمونتسكيو تولت تغـذية فكرة الأمة والوطن فى القرن الثامن عشر • ذلك أن فكرات الحياة القومية والطابع القومى وفكرات أغـــانى الشعب والنساجا والحكايات والأساطير لم تحصل على لونها الزاهى ودفئها الحار ونبضها المختلج من المجادلات الفلسفية ، بل تلقتها عن الادراك الجمالى والوصف المتلىء بمشاعر المحبة • وحلت الحركة الرومانسية محـــل ما لمـذهب الاســـتنارة والحركة العقـــلانية Rationalism من ضياء بارد كأنما هى سحابة صيف مثقلة بالمطر والرعد • على أنه قد وجب أولا ازاحة الثرى عن ثروات الوعى الرومانسى هذه ، وتلك غاية ما كان يكفيها بأية حال عمل الفيلسوف ولا شعر الشاعر لولا أن رجال العلم الكادحين قد هبوا يقدمون العون • ومن المعلوم أن ما أســـدى فى التـــاريخ وفقه اللغة من عمل طليعى رائد قدر له أن يضفى كامل القوة على روح الحركة الرومانسية قد تم فوق كل شىء على يد الـكاتب يوهان جوتفرايد هردر (*) • وهردر أسن من جوته بخمس سنوات ، كما انه مات قبل شيللر بسنة واحدة • وهو من تلك العقليات العظيمة التى تعوزها القوة التشكيلية الكبيرة وان أوتيت رغم ذلك نفوذا تمخض عن ثمرات هائلة • وهو لم يكتب أية أعمال متكاملة متماسكة لا تزال تقرأ ، غير أنه زود الناس بجميع العناصر التى تطورت عنها منذ زمنه فكرتا الأمةوالوطن وقد ساعد على تحرير الأدب من محاولة جرت لوضعه فى صورة قانون للجمال مكان فى أغانى الشعب وعرف الشعب وتقاليد الشعب ، على أنها الموضوع الحق للحياة الاجتماعية والمفسر الاكيد للحضارة • فهو الأب الحق لكل ما يسمى الآن باسم المأثورات الشعبية (فولكلور) . كما أنه أبو الأدب المقارن ، وقد ساعد على تحرير الأدب من محاولة جرت لوضعه فى صورة قانون للجمال يحيط بكل شىء ، وهى محاولة لم تبرح حتى آنذاك تتخذ من فولتير أسيرا لها • فتوخى أن يلتمس فى كل شىء ناحية التعبير عن كل ما هو خالص وأصيل وطرازى • وموضع العجب أن نفاذ بصيرة هردر العميق فى الطابع القومى والروح القومية لم يبدأ فى الاشراق وهو بعد بين ظهرانى بنى قومه من الألمان بل فى أثناء مقامه فى ريجا بين اللتفيين Latvians ذلك وان هردر ليس من الأشخاص الذين يفكرون فى السياسة ومصطلحها • اذ أنه كان يكره فن السياسة بكل ما أوتى من غطرسة وفتوح • هذا الى أنه

(*) هردر (١٧٤٤ ــ ١٨١٣) شاعر وناقد وفيلسوف ألمانى ولد فى بروسيا الشرقية (المترجم) •

أبعد الناس عن التفكير على أساس الجنس والعنصر . أليس مما يستدعي العجب أن الرجل الذى اسهم أكثر من أى فرد آخر فى تشكيل مفاهيم مثل الطابع القومي والروح القومية Volkstum لم يستمسك بالنظرية القائلة بوجود عنصر قومي ووراثي ، بل كان على النقيض من ذلك مقتنعا أن البيئة هي العامل الحاسم فى تشكيل العقل البشرى . ومع ذلك فقد قدر له أن يكون من أشد دعاة الشكل العصرى القومي نفوذا .

وقد انتهى القرن الثامن عشر بحقبة سلطت فيها الأنوار فى الحياة الأوربية أشد من أى زمن آخر على مسالتي الأمة والوطن . على أن ذلك لم يتم على صورة نزاع فلسفي ولا تبادل دبلوماسى بين دول متنافسة تبغى توازنا ، بل حدث فى بحران فترة طويلة من الحروب وما جرته من اضطراب . وقد شغل بونابرت كل الشغل بتحويل المثل الأعلى للحرية والمساواة للشعب والأمم على نحو ما تمسك به الناس فى «الثورة الفرنسية» الى السبيل الذى تستلزمه شهوته الى القوة والسلطان ومواهبه كحاكم . وأفضى ذلك الى أن مبدأى القومية والوطن ، وان ظلا مرفوعين شعارا مجردا من كل اخلاص ، قد غطى عليهما مؤقتا ما أحرزته امبريالية غشوم من نجاحات باهرة لم يسبق لها مثيل . فأصبح الجنرال قنصلا وأمسى القنصل امبراطورا ، واصطنع الامبراطور الممالك من حطام القبعة المرفوعة الحوافى لأوربا قبيل ذلك بقليل . ومن ثم فصاعدا صار حتما أن تصبح باريس القصبة والعاصمة التى تصدر منها جميع القوى والسلطات والتى تتجه صوبها جميع الثقافات . وقضى على الأغرار أهالى باتافيا أن ينسوا من جديد أنهم سموا قبل ذلك بقليل باسم الهولانديين الى حين ، وعلى التوسكانيين أن ينسوا أنهم أوشكوا قبل ذلك بقليل أن يتسموا باسم الاترسك . اذ أن اسم «فرنسي» فيه الكفاية لكل فرد منهم . ذلك أن حلم الامبراطورية القاتل ليس فيه على الاطلاق أى متسع لفكرتى الوطن والقومية .

وظل ذلك الوضع حتى جاء الأوان الذى أصبح من الواضح فيه أن الدول والأمم لايمكن ركلها وطرحها جانبا ودفنها بمثل سهولة التسيطر عليها وقمعها مؤقتا بقوة السلاح . وقد استعادت الكيانات الراسخة الأصول في أوربا قوة مقاومتها ، ومن ثم فان القوى القومية : انجلترا غيرالمقهورة واسبانيا المتوقدة بالتعصب وبروسيا المجددة الشباب ـ هى التى تولت قيادة أوربا من ليبزج الى واترلو .

- ٣ -

القرن التاسع عشر

من المحقق بداهة أن الحكام والدبلوماسيين الذين التأم شملهم بمدينة فيينا (*) فى ١٨١٤ لينشئوا لأوروبا الحائرة القوى نظاما جديدا وخالدا على الأيام لم يفشلوا نتيجة لشدة وفرة ما بين أيديهم من المبادىء. أجل أن من الظلم البين وسم عملهم بأنه فى مجموعه فشل • فان النظرة الى ما أبرم فى مؤتمر فيينا من معاهدات ، مهما كثر ما يعتورها من نقص توضح أنها وهبت أوربا فترة سلام دامت نصف قرن تقريبا وذلك بعد التجاوز عن بعض الاضطرابات السطحية • ولا يزال موضع الأخذ والرد المحكم فيما اذا كانت هذه النتيجة النافعة ترجع الى ما أوتيه الدبلوماسيون من حنكة ناضجة أم الى مجموعة من الظروف تخرج تماما عن هيمنتهم • ولعل الواقع بالضبط هو أن ما اتجه اليه المؤتمر من عدم التمسك البالغ الشدة بالمبادىء له أثره السلمى • اذ أنه قام بدور الجلاد الذى نفذ حكم الاعدام فى امبراطورية نابليون • ولم يزد • وكان فى جعبة ذلك المؤتمر قدر كاف من المبادىء يستطيع استخدامها : منها الحرية الحبيبة ، على أى وجه كان فهمها ، ومنها وحدة ما ينتمى بطبيعته الى أصل جامع ومنها الاعتراف بحق كل أمة فى الاستقلال ، مهما يكن الشكل الذى تحقق عليه ذلك ، ومنها التوازن الضرورى بين الدول ذات السيادة التى لا تستطيع احداها الاستغناء عن الأخريات ولا تجنب بعضها بعضا • ومنها أخيرا حق المواطن فى أن يكون له صوت ورأى فى حكم الدولة • ومن حسن الحظ دون ريب أن لم تتهيأ الفرصة لاتخاذ جميع هذه النقاط أساسا للعمل • وقد وجد المؤتمر أن من الصعوبة بمكان أن يصل الى نتيجة مرضية ولو اعتمد على اجراءات أساسية بدرجة أقل ومجملة بقدر أكبر ، أجل ان أحد شخصياته القائدة وهو تاليران ممثل فرنسا المنهزمة ، جاء

(*) انظر ما كتبه ولز عن هذا المؤتمر فى « معالم تاريخ الانسانية » مج ٤ ص ١٢٥٧ ط ٣ (ترجمة المترجم) .

فعلا وفى جعبته مبدأ • والمبدأ الذى أدخله فى المؤتمر قد سمى «الشرعية» وبفضله أحرز هناك نجاحا ضخما • ومن سخريات التاريخ أو بالأحرى من نزواته وشطحاته : ان الشرعية وهى الحق الوراثى فى العرش لأسرة مالكة ، وهى فكرة انتقصتها حكمة قرن كامل واتهمتها بأنها غير معقولة ومضحكة وغير جديرة بشرف الانسان ، وهى التى داستها أقـــدام الامبراطور بالنعال منذ أمد وجيز جدا ، قد ظهر آنذاك أنها المبدأ العام الوحيد الذى تهيأ للمؤتمر بفضله احراز أية نتيجة عملية سياسية •

على أن هناك شخصا آخر اقترح مبدأ فى سبتمبر ١٨١٤ ، غير أنه لم يحظ بمكان بين صفوف المجموعة الباذخة من المؤتمرين ، وقد حلقت فكرته فى أضغاث أحلام أبعد كثيرا من الحرية والقومية والحكم الدستورى والوحدة السياسية وهو الكونت دى سان سيمون • فان سان سيمون كتب لمناسبة افتتاح المؤتمر خطابا مفتوحا أصدره من جنيف يحمل هذا العنوان : « حول تنظيم المجتمع الأوربى أو حول الحاجة الماسة الى وســـيلة لربط شعوب أوربا فى وحدة سياسية مفردة » • فكأنه بناء على هذا يرى أن أوربا ــ وهذا وجه العجب فى الموضوع ــ مجتمع موجود فعلا ، أى أنها مجتمـــع Société لا يحتاج الا الى اعادة تنظيم • ولا حاجة بنا أن نشير الى أن ذلك الخطاب المفتوح لم يحدث أدنى أثر •

وقد أتى مؤتمر فيينا بما سمحت به الظروف من أعمـــال وأثمر ما أتاحته الموازنة العسيرة بين المصالح المتناقضة • اذ أضفى صـــبغة ارجاع الشرعيـــة على أكبر عـــدد ممكن من قراراته • فان توسع النمسا بايطاليا جعل فى صورة التعويض لها عما فقدت فى ألمانيا ، ولاح وضع مملكة بولندة تحت حكم القيصر الروسى كأنما هو اســـترجاع يعوض بدرجة ما كل ما أصابها من التقسيمات ، وخيلوا توسع بروسيا فى أرض الراين ونصف سكسونيا فى صورة التعويض والمكافأة • وفى كل هــذا الذى ترى ، لعبت المطالب القومية بالاستقلال دور عبارة رنانة فى أحسن الأحوال • فهل يمكن أن يوجه ذلك الى مؤتمر فيينا على أنه غلطة أساسية فى بعد النظر والسياسة ؟ ان حكما كهذا لن يكون الا حكمة تاريخية هينة رخيصة لأنها واتتنا بعد ظهور الحقائق • ومرد ذلك أن مبدأ القومية لم يكن أنضج ولا أنسب من أى تجريد عام آخر يطبق ويتخذ أساسا للمجتمع السياسى الأوربى • فهو مبدأ لم يتيسر له احراز الوعى بوصفه مطمحا عاطفيا معترفا به من الجميع وفكرة باعثة للحيوية الا فى أثناء القرن ، وعندئذ أسفر كذلك أنه ينطوى على عواقب خطرة •

وقد رأينا كيف أن التنبّه الكامل لطابع قومى أهلى قد انبثق من تربة الحركة الرومانسية • اذ أصبح من العرف الدارج ترجمة كل حاجة ذهنية الى ما هو فطرى وأصيل وخالص الى لغة المصطلح الشعبى • فان الوعى القومى قد اتخذ لون وشكل احساس بالروايات التاريخية المأثورة وتجسد كمادة للشعر والقصص • ولكنه لان اصبح مطلب الناحية القومية شعارا لذلك الزمان بدرجة تزداد قوة وطغيانا فى كل آن ، فان تيار الفكر الرومانتيكى ليس وحده المسئول عن ذلك ، بل المسئول أيضا هو التحولات المادية والتكنولوجية الملحوظة بجلاء فى حياة شعوب أوربا • وهنا أخذت وظائف الحياة الاجتماعية العصرية بكل ما داخلها من تنظيم رميكنة (*) Mechanization متزايدى المعيار تعملان بصورة متزايدة فى ظلال سياق جو قومى • والواقع أنه قد تحددت الآن من الناحية القومية كل مهنة وكل خدمة ، فان المواصلات والتجار والتعليم والاعلام والعلانية ورعاية المصلحة العامة وانشاء الطرق ، لم تقتصر فقط على شغل منزلة أهم منها قبلا ، بل شغلت أيضا قدرا كثيرا من الطاقة والالتفات الفردى والعام • وقد فعلت الامم ذلك بشكل ما أمة فى اثر أمة • وهنا أصبح الناس يقاربون الحياة ويعالجون شئونها من وجهة نظر قومية ، أكثر منهم آنفا بكثير • حتى لقد بلغ الأمر أن المثل العليا نفسها للحياة سرت اليها نزعة اتخاذ الاتجاه القومى • ولم تعد فكرة الحرية تنطبق على العالم ولا على البشرية ، بل على شعب المرء فقط • وهنا صارت المشكلات التى يواجهها كل مجتمع نوعية أكثر كثيرا منها قبلا ، سواء أكانت تلك المشكلات سياسية أم اقتصادية أم فكرية : وسواء أدارت حول دستور أم سكة حديد أم التشريع الاجتماعى أم تصحيح جميع أنواع الأخطاء والاساءات • لقد تم تحديد جميع هذه الحاجات تحديدا قوميا : واذا هى تنطبق بصفة عامة على أية بلاد وأى شعب كمجموع •

فلا غرو أن يفوز مبدأ القومية بوصفه قوة هادية لكل سياسة وتدبير للدولة باكتساب ميادين متزايدة الاتساع ، وأن تتعرض صحة المبدأ القومى وقدرته على أداء المهمات لخطر المبالغة فى تقديره مثلما تعرض فى الماضى عادة لصنوف من الاهمال وعدم الاكتراث • وفى ثنايا ذلك ازداد على مدى الأيام الميل الى نسيان مسألة واضحة ، هى أن الدولة انما هى على المدى الطويل حقيقة الحياة السياسية وواقعها ، وأن الأمة هى المثل

(*) الميكنة : التحول بالصناعة والاعمل الى الشكل الميكانيكى
(المترجم)

الأعلى لتلك الحياة وهى البرنامج والشعار والمطمح المرجو • ولو تأملنا الدولة من الناحية التاريخية لتجلى لنا أنها تحتل المكان الاول بكل أرجاء أوربا ، وأن الامة هى ثمرة الظروف الحية داخل حدود دولة بعينها • ولم تكون الأمة نفسها الا فى ظل السلطة وداخل سياقها ، حتى فى تلك الحالات التى تبدو فيها الوحدة القومية والتجانس اللذان أصبحا واضحين فى النتيجة النهائية للتطور كأنما هما أمران ضمنيان باعتبارهما النتيجة النهائية التى تحتمها الضرورة فى ظل الظروف الطبيعية لماض سحيق •

ومع ذلك ، فمنذ نهاية القرن الثامن عشر فصاعدا ، وبينما فكرة الوطن والأمة تكتسب محتوى ولونا وانفعالا نفسيا ودم حياة مطردة الزيادة على كر الأيام ، فقد تطور بالضرورة تنافر مؤلم كلما عجز الوعى عن التقابل وطبيعة الدولة • فلو سارت الأمور على ما يرام ، لوجب أن يتوائم كل من العاطفة القومية وحب الوطن وحاسة الولاء نحو احدى الدول تواؤما تاما عند كل شعب • غير أن ذلك التواؤم لم يحدث بأية حال فى كل مكان • فحيثما أعوزت الوضع علامة منسجمة موحدة المركز ، تطورت التذمرات المؤذنة بالتمزق • ومن المعلوم أن أوربا فى عهد اعادة الملكية امتلأت بمثل هذه الأنواع من التذمرات ونقاط التمزق المحتملة • فان قاهرى نابليون : ــ انجلترة والنمسا وبروسيا والروسيا ، أصبحن بالاضافة الى فرنسا المنهزمة (التى ظلت احدى القوى القائدة رغم سقوط امبراطوريتها) ، سادة المسرح السياسى بوصفهن الدول العظمى المعترف بها • والواقع أن المعنى الضمنى لتبوؤ احدى الدول مكانة الدول العظمى ، انطوى على خرق للمثل الأعلى الذى شكلته النظريات السياسية فى القرن الثامن عشر والذى طورته الثورة « الفرنسية » ، وبمقتضى تلك النظريات لم يكن ثمة مكان لتسلط الدول الكبرى على الصغرى • على أننا لو استعرضنا تاريخ قرنين كاملين من الاتفاق الاوربى والصراع الاوربى لوجدنا هذا التسلط شيئا مألوفا بالغ الالفة • وها قد ظهر آنذاك بوضوح أعظم منه فى أى وقت آخر ، أن الاعتراف بأسبقية الدول الكبرى انما هو النتيجة الحتمية للحقائق ، غير أن هذا التنظيم الفعلى لأوربا الى دول صغرى وكبرى لم تكن له علاقة كبيرة بمبدأ القومية • اذ أنه أقيم على القوة السياسية لا على صلة القربى السلالية فليست ألمانيا هى الشىء الهام كدولة عظمى ، ولا حتى الاتحاد الكنفدرالى الالمانى المنشأ حديثا ، الذى ادعى أنه هو الذى تجسدت فيه وحدة ألمانيا ، وانما هو بروسيا • ومما يجدر ذكره هنا أن بروسيا نفسها كانت لا تزال بعيدة كل البعد عن أن تسمى أمة متجانسة • وهى لم تدع يوما أنها نهضت

الى القوة كامة • وكل ما فى الامر أنها كانت دولة ، وأنها تريد إن تظل كذلك • وفى ١٨١٣ ، العام الذى أهاب فيه فردريك الثالث برعاياه أن يحرروا أنفسهم من نير الفرنسيين فى منشوره الذى جعـــل عنوانه « استنفار لشعبى » ، لم يخاطب هؤلاء الرعايا لا بوصفهم بروسيين ولا على أنهم ألمـان ، بل أحصـــاهم بأسمائهم فهم البراندنبرجيون والبروسيون والبوميرانيون واللتوانيون وهلم جرا • وهنا يتجلى أن التفريق بين مفهومى الدولة والأمة عندهم بلغ أضأل مبلغ • فلا غرو أنه فيما سلف من أيام أسرة هابسبرج ، لم يعد تنوع الفوارق القومية داخل ممتلكاتهم المترامية الأطراف على أحد بأية متاعب بالغة الخطورة فيما يتعلق بالنمسا •

وقامت الى جوار الدول العظمى بضع من الدول الاوربية الصغرى المستقلة يتقابل سكانها بدرجة ما وعددا مماثلا من القوميات • وقد قام الأساس فى تلك الدول اما على صلة قربى سلالية ولغوية تقليدية ، كما هو الحال فى الأمم السكندناوية ، واما على تقليد سياسي من الوحـــدة والتماسك التاريخى الأساس كما هو شأن سويسرا ، كما أنه يقوم عادة على خليط من الأمرين • فأما الوحدة السياسية لمملكة الاراضى المنخفضة الجديدة فكانت لا تزال بحاجة الى أن توضع موضع الاختبار • وقل من الدول ما تم فيه الى حد ما اكتمال التجانس القومى بين السكان • وذلك بينما التذمرات القومية تتطور وتختمر فى كل مكان تقريبا ، فان الذى حدث بالأراضى الألمانية وايطاليا و أيرلندا ، وبدرجة لاتقل عن ذلك — فى أماكن لم يبرح الناس يعيشون فيها فى حالة خضوع وقهر تام كما هو الحال ببـلاد البلقـان ، أنهم أصبحوا على وعى بطابعهم القومى وشرعوا يكافحون فى سبيل الحرية والاستقلال • ثم ان التربة الرومانتيكية التى تطور فيها الوعى القومى قد أنتجت أيضا فى تلك المدة ثمرة فاخرة وناضجة زاهرة • فلئن حدث ذات يوم أن الفكرات الرومانتيكية لنخبة من الخاصة المفكرين ، أثرت أثرا مباشرا فى السياسة العملية ، فان موطن ذلك الأثر نشوب حرب استقلال اليونان • فهى حركة نشطت فيها المثل العليا للعصر بأسرها : مثل التحمس للحرية ، والحمية للعصور الخالية العهيـــدة ، والاعجاب القشيب بكل ما هو شعبى أصيل ، وعاطفة الأحزان العالميـــة لدى الشاعر بيرون ، وليس عاطفته فحسب ، بل وشجاعته أيضا •

ونتيجة لذلك زادت المجموعة السياسية للدول الأوربية عضوا آخر جديدا ، هو بلاد اليونان وذلك فى نفس الوقت الذى بدأت فيـــه اعادة الملوك الى عروشهم • ثم جاء بعد ذلك دور صربيا ورومانيا وبلغـــاريا ، فانضمت جميعا الى الصفوف التى تضخمت فى هذا القرن بانضمام طائفة من الأعضـــاء الجدد • غير أن الحركة المضـــادة نحو انقاص عـــدد الدول

ما لبثت أن تجلت سريعا بدورهـــا فيما حدث من اختفـــاء خمس دول في ايطاليا وأربع بالمـانيـــا حين أسست بكل منهمـــا دولة متحـــدة وقومية • ومضي القرن العشرون في نفس ذلك النهج • فان من الخصائص التي تجلت في التاريخ الاوربي منذ نهاية عهد نابليون اجتماع كل من العمليتين معا : عملية التوحيد (وبها ينقص عدد الوحدات السياسية) وعملية التقسيم (وبها يزداد من ثم عدد تلك الوحدات) • على أنه يجدر بنا مهما تحملنا من مشقة ، أن نتأمل هنيهـــة تلك النزعة في اتجاهين متقابلين ، وذلك لأن التضاد هنا ينطوي على مشكلة ذات طبيعة عامة : مشكلة الدولة الكبرى والدولة الصغرى •

لقد تعلمنا منذ أيام دراستنا أن ننظر الى حادثين تاريخيين عظيمين حدثا في القرن التاسع عشر ، وهما توحيد ايطاليا وتوحيد المانيا ، من زاوية التقدم قبل كل شيء أو اذا لم يكن ذلك التقدم محققا تماما ، أي كان مجرد تحسن تناولناه من حيث هو على كل حال ضرورة منطقيـــة وطبيعية تعطل التفكير في اصـــدار الحكم الناقد ، والواقع أن التـاريخ قد قال كلمته • ولن يفكر انسان في المجادلة مهما أجاد انتفاء الأســباب بأن نتائج هاتين العمليتين التاريخيتين مستوجبة للأسف • ويهمنا أن نشير الى مسألة أخرى مختلفة تماما ، هي التعبير عن الشك بوجه عـام في هل يصح اعتبار تمثل الوحدات السياسية والثقافية وامتصاصها في الوحدات الكبرى نعمة وبركة على العـــالم • اذ يبلغ من شـــدة نزوع عصرنا الى الانبطاح على الأرض اظهـارا للاعجـاب بكل ما هو ضـــخم الـكم ، ان كل كلمة تقال دفاعا عن الدولة الصغرى تصبح شيئا يجيء في أوانه المناسب • فمن جنح الى أن يفترض دون مزيد من اللغط والزئاط أنه يحسن تفضيل الدولة الكبرى على الصـــــغرى ، فهو فريسة لمغالطة منطقية لو أن فرانسيس باكون كان حيـــا لمنحهـــا مكانا بين ما سـماه أصنام السوق ، قاصدا بذلك الأفكار التي تقف حجر عثرة في ســبيل الحكم الواضح على الامور • ذلك أن المغالاة في تقدير قيمة الكم انما هي من أرخص تحيزات الانسان العصري الذي أرهقته وأذهلته انتصارات السرعة والقوة الميكانيكية وسهولة التنقل • ومنذ أمد غير بعيد أتحفنـا المؤرخ السويسري فرنر كايجي بتقويم ممتاز للدولة الصغرى ومركزهـا في الفكر الاوربي في القرون الاخيرة ، وقد استخدمت فيما يلي دراساته شاكرا له (١) أياديه على العلم •

ولو تأملنا الفكر السياسي في القرن الثامن عشر ، الذي لم يضع في حسبانه بحكم طبيعة الاشياء سوى العلاقات والامكانيات السياسية المحدودة لوجدت ، أن تقدير المجتمعات السياسية ذات الحجم المعتدل كان هو السائد على الأفكار غير منازع. مثال ذلك أن مونتسكيو كان يعد الشكل السياسي للجمهورية مقيدا برقعة صغيرة من الارض ، ويعتبر شكل الحكم الملكي مناسبا لرقعة أرضية معتدلة الكبر ، على حين أن الحكم الاستبدادي القائم على مبدأ الخوف ، قد اعتبره مونتسكيو شيئا طبيعيا للمملكة الضخمة المترامية الأطراف • فقد كتب يقول : ان الدول الصغرى تقع فريسة للدول الكبرى ، ولكن الدول الكبرى تقع فريسة لنفسها • على أنه لا شك أن تفضيل مونتسكيو للنظام الجمهوري شيء لا ينكر ، فهو بذلك يؤثر الدولة الصغيرة : اذ أن أساسها حسبما يرى مونتسكيو نفسه هو الفضيلة ، على حين ان أساس الدولة الملكية هو الشرف • وهو يذكر بصورة نوعية محددة أن الفضيلة التي يعنيها ليست الفضيلة المسيحية ، انما هي حب للوطن وللمساواة • فكأن الوطنية اذن قد رفعت حتى أصبحت أساسا معترفا به لخير أنواع الأشكال السياسية • فاذا انتقلنا الى روسو وجدناه يرفض فكرة الدولة الكبيرة رفضا باتا هو الآخر : ذلك أنه كتب فيما كتب أن المملكة المترامية ليست دولة ، لأن الفرد لا يمكن عندئذ أن يكون له فيها نصيب في توجيه الشئون •

ولم تبرح دول المدن الهللينية في الازمنة الخالية والامتداد المتواضع الذي بلغته روما كجمهورية ، كالمعهد بها دائما ، منارات تشخص اليها الأنظار بوصفها التجسيد التاريخي للمثل الأعلى السياسي • وعندما رأى سيسموندى أن المثل الأعلى المثمر للمراكز الثقافية قد مثلته تقريبا المدن الجمهورية الايطالية بكثرتها المفرحة ، أو عندما أعتقد ك٠ل٠ هولر أنه مستطيع استرجاع مثله الأعلى الملكي المحافظ فيما يقوم بما سماه بدولته الوراثية من علاقات أبوية ، فان الصورة التي تمثلها الفكرات في عقليهما ، على أنها الوضع الأمثل ، ان هي على الدوام الا الوحدة السياسية ذات الأبعاد المحدودة • وكذلك شأن فولتير ، فانه ممن اعتقدوا أن الحب الحق للوطن لا يمكن أن يقوم الا في منطقة ذات إتساع محدود • قال : كلما زاد اتساع الوطن قل حب المرء له ، وذلك لأن الحب المقتسم يصبح أضعف • ومن المستحيل على المرء منا أن يحب بحنان عائلة بالغة الكبر لا يكاد أن يعرف أفرادها » (٢) • وعندى أن ذلك ينطوى على مسكة من الصدق : ذلك أن لباب الوجدان الوطني يجتمع فيه على الدوام تعلق وثيق بأرض المرء الأصيلة • وقد وجد دى توكفيل في أعظم دول الدنيا جميعا

وهى الولايات المتحدة الامريكية ما يؤكد رأيه من أن أصغر جماعة سياسية ، وهى المدينة municipium الرومانية ، وهى هنا المدن القائمة في نيوانجلند ، انما تشكل مناط القوة من دولة حرة ، وبذلك عاد بشكل ما الى صورة تجريدية تتعلق بتكوين الدول التي قدمها بالفعل توماس الاكويني في كتابه (De regimine principum) .

ولسنا ننكر أن الامبراطورية الرومانية المقدسة القديمة التي تهاوت مجللة بالعار في ١٨٠٦ كانت مسخا شائها بشعا سخيفا لدولة ، بما اجتمع فيها من وحدات مستقلة متفاوتة الاستقلال يقارب عددها الثماني عشرة دولة ، كما أن العدد المحدود الكثرة للاتحاد الكنفدرالى الألماني الجديد، الذى اجتمع فيه ، ما يقارب خمسا وعشرين دولة ، كان أيضا غير مرض من وجهة نظر كل من السياسة العملية والنظريات السياسية على السواء .

وربما جنح المرء الى تصور كل ألماني قح محب للحرية على أنه انسان تلهمه منذ ١٨٤١ الرغبة الجارفة الى الوحدة الالمانية التي نشهدها عند أرنست موريتزارندت . على أن الواقع يخالف ذلك تماما . ومن العجب أن المؤرخ ارنولد هيرن الذى لا مجال للشك في عواطفه نحو ألمانيا ، قد اعتبر احتمال اتحاد ألمانيا في دولة واحدة في المستقبل : « القبر الذى ستوارى فيه الثقافة الالمانية والحرية الاوربية » . وليس ثمة شيء أدعى الى هدايتنا وأرشادنا في هذا الصدد من أن ننظر المكان الذى شغله مفهوم « الوطن » في عقل ذلك الألماني النبيل القح الذي استطاع كهلا في منتصف العمر أن يبسط للعالم معنى العدالة والحرية عنده : وأعنى به ياكوب جريم . فان الأخوين جريم بدآ عملهما مع بداية العام الجديد (١٨٣٠) ، فقبلا في جوتنجن المنصبين اللذين فقدا بعد ذلك بثمانية أعوام بطريقة غاية في الشرف : أولهما ياكوب ، وهو في الخامسة والأربعين من عمره وقد طبقت شهرته العالم كله كاستاذ علامة وأمين مكتبة ، وأخوه فلهلم وهو أصغر منه بسنة ويعمل أمينا مساعدا لمكتبة . وكتب ياكوب عند مستهل الصيف ترجمة ذاتية قصيرة بناء على طلب جستى (٣) . وجاءت محاضرة الافتتاحية بالجامعة بعد ذلك في نوفمبر (٤) ، وقد جعل عنوانها عن الحنين الى الوطن De desiderio patriae وهى خطبة مدرسانية لاتينية طرازية استوحى الهامه فيها من قراءات نثار في شيشرون (٥) . وواضح من كل كلمة تحتويها المحاضرة أن جريم يفهم من كلمة الوطن مجرد مسقط الرأس Heimat باضيق معانيها : « حيث أبلى المرء جميع الطرقات والممرات باقدامه منذ عهد الطفولة والصبا » ، « حيث تعتقد أنك مستطيع

أن تستمع الى أصوات من قبور اجدادك توجه اليك النصح والتشجيع » • فالالمانية على حد قوله ، تتحدث عن ذلك الحب المضنى للوطن الذى يتسمى بذلك الاسم الجميل الحنين الى الوطن Heimweh » • والحق أنه لم يضطر الى الاعتراف لصديقه لحمان أنه « عنى فى سره أيضا ولاية هس Hesse بكلماته » ، واطراؤه للغة الألمانية لا يسمع فيه لفظ واحد عن الوطنية السياسية الالمانية • هذا الى أن ضيق حدود وجدانه الوطنى يكاد يسمع بشكل أوضح فى الترجمة الذاتية • فالوطن الذى تعلم حبه هو واخوته منذ نعومة الأظفار هو ولاية هس المنتخبية Electoral Hesse وذلك لأن دارمشتات (*) Darmstadt لاتكاد تشترك هنا فى ذلك الحب • وكان تعلقه بها شديدا ، حتى لقد صمم أن يعيش فى هس Hesse ويموت فيها ، فرفض قبول كرسى أستاذية بجامعة بون فى ١٨١٦ ، على أنه عاد بعد ثلاثة عشر عاما فاباح لنفسه أن يعين فى جوتنجن ولكن فى كثير من التمنع • حتى اذا اضطر الى مغادرة منصبه والولاية فى أخريات ١٨٣٧ بوصفه أحد رجال « جوتنجن السبعة » الذين رفضوا أن يسمحوا بأن يحلهم الملك من قسم أقسموه يوما ما ، لم يبرح قلبه متعلقا أشد التعلق بولايته هس Hesse (٦) الحبيبة •

وكان احتمال توحيد ايطاليا موضع التشكك أيضا من جهات متعددة • فان نابليون لم يكن ممن يؤمنون بذلك ولا مترنيخ أيضا • وكان نيبور ورانكه يريان ذلك الرأى أيضا ، بل الواقع أنه حتى جيوبرتى نفسه رغم كونه أحد مؤسسى جماعة التحرير والوحدة الايطالية Risorgimento لم يستطع ـ شأن كثير من الايطاليين فى زمنه ـ تصور ذلك التوحيد الا بشكل اتحاد كنفدرالى (**) •

على أن قوة الدفع التى لا سبيل الى مقاومتها فى ذلك القرن اتخذت الاتجاه المضاد • فكل شىء فى الحياة السياسية والاجتماعية والتقنوية والاقتصادية ، اجتذبه دافع التجمع التركزى للكم فى حالة تشبه تأثير الجاذبية • فان بعض ما فى المجال غير المادى من قوى كيفت نفسها أعجب تكييف وأجوده وفق هذا التحول فى النظام المادى للعالم وكأنما دلت

(*) دار مشتات : هى عاصمة دار مشتات هس بالمانيا قرب فرانكفورت . (المترجم)

(**) الفرق ظاهر لكل دارس لتاريخ بين الاتحاد الفيدرالى ذى الدولة المندمجة القوية التماسك والوحدة ، والاتحاد الكنفدرالى المكون من اجزاء شبه مستقلة . (المترجم)

جميع الظواهر على أن تقدير الدولة الصغيرة قد فات أوانه وانقضى . اذ حدث حتى في أثناء القرن الثامن عشر في معارضة واضحة لآراء مونتسكيو وروسو ، أن الدولة الكبيرة التي عمادها وجوهرها القوة والتي آلتها وأداتها الممكنة هي العنف قد لقيت الثناء . ومن أول من بشروا بها المؤرخ الألماني أوجست لودفج شلوتسر (١٧٣٥ ــ ١٨٠٩) . فالقوة العسكرية واتساع رقعة المساحة وضخامة عدد السكان هي عنده الأشياء التي تحدد قيمة الدولة . أما الفن والشعر فلا مكان لهما في وجدانه ، وأما الاغريق القدماء فموضع احتقاره ، وأما الدولة فلا عمل لها في رأيه الا السياسة . وكثيرا ما يشير بعض الباحثين الى أن شلوتسر قضى زهرة أيامه في الروسيا ــ وفي القرن التاسع عشر ظهر في هذا الاتجاه من تمجيد القوة ، أحد أفراد الطليعة فيمن كونوا جبهة معارضة للمثالية السياسية Political idealism هو المؤلف يوهان جوستاف درويزن (١٨٠٨ ــ ١٨٨٤) . فقد أعلن درويزن أن القوة في حياة الدولة ضرورية كضرورة الحب للعائلة والايمان للكنيسة والجمال للفن . وفي عالم السياسة يحدث قانون القوة أثره بنفس الطريقة التي يحدث بها أثره قانون الجاذبية في عالم الطبيعة والماديات . ومهما يبلغ مدى ماقد تحتويه هذه العبارة من الصدق ، فانها لا تكاد تقبل كمبدأ مرشد يحتذى ، حتى تؤدى مباشرة الى الذهاب الى أن القوة والعنف هما أسمى مبدأين في العالم ، على الرغم من أن درويزن يفترض مع ذلك أن مثل تلك القوة ستتجمع على أساس من العدالة والحرية .

وكان تطور القرن التاسع عشر يواصل بأسره التحرك صوب التماسك واتساع رقعة التكوينات المركبة الكبرى ، وهى الحال التي بدت فيها مجموعة الدول الصغرى كانما تشغل مركزا ثانويا لا يحتمل الا طالما وجدت الدول الكبرى أمامها شيئا تكتسبه من وجود الصغرى ، ورغبت في أن تستظل بظل من الشرعية . ولقد تحول الناس على وجه التقريب الى الاعتقاد في الدولة الكبرى . ولأمر ما صارت عبارة الدولة الصغرى Kleinstaaterei مثار التعيير والسخرية بألمانيا ، البلد الذى قاسى من قبل طويلا من التمزق المؤنس والعجز السياسي . ومن سوء الحظ أن سرت هناك نزعة الى النسيان مضت بتأثير ما أحدثته فكرة الكم من خداع عام ، نزعة الى نسيان حقيقة واضحة ، هي أن واحدة من قيم العالم العظمى الخالدة لا تدين بوجودها الى دولة كبرى من حيث هي كذلك ، وأن جميع ثمار الحكمة والجمال والحضارة وأجودها صنفا قد انبثقت في دائرة علاقات سياسية بالغة التحديد

والضيق • وينبغي أن يتضح لكل انسان من نظرة واحدة يلقيها على ما نعرفه عن تاريخ العالم إبان الآلاف القليلة من السنوات التي تغطي تاريخه ، أن عالمنا هذا المنكوب قد قاسى من الدول الكبرى Großstaaterei أكثر كثيرا مما لاقي من الدول الصغرى Kleinstaaterei ولعل الكفة تنقلب يوما فتصبح الدولة الكبرى Grosstaaterei في يوم ما معبرة هي الأخرى ، اذا ظلت الأسس الجوهرية للحضارة صحيحة واسترد القانون سلامته •

وتسلطت الى حد كبير على الفترة الوسطى من القرن التاسع عشر تيارات أو حركات كبرى ثلاثة : الحركة الليبرالية التحررية (مفهومة سياسيا واقتصاديا) والامبريالية الناهضة والاشتراكية المنبثقة • فالى أي مدى تأثرت الحركتان الوطنية والقومية ، وهما قوام المطامح المرتقبة التي يدور حولها بحثنا ، بنشاط تلك القوى ؟ •

ولم تفقد كلمة الحرية شيئا من نغمتها الحارة منذ أيام « الثورة الفرنسية » بيد أن المثل الأعلى للحرية تدثر باشكال أكثر ايجابية ــ كما اتشح بمعنى ما معين باشكال أكثر تحديدا • ومع ذلك فان محتوى الطموح الى الحرية اختلف بين كل حالة نوعية وأخرى وذلك لأن معناها عند من يعيشون تحت نير الحكومة المطلقة كان حق المواطن في الحصول على صوت شئون الدولة • ورأى الكثيرون أن تحقيق تلك الرغبة ربما حصل على وسيلة للتعبير عنه في صورة امتلاك دستور مكتوب يقوم على الايمان المغلظة ويشترط في سلامة قاطعة تامة تحكم البلاد • وقد امتلأ العقد الأول من السنين بعد رجوع الملكيات بالثورات البلهاء الساذجة ــ قامت مثلا في نابلي وبيد مونت وأسبانيا والروسيا ــ التي اعتقدت أنها بلغت أهدافها بمجرد اعلان مثل ذلك الدستور ، الذي كثيرا ما وضع مشروعه طبق نموذج جاهز • على أن الجماعات التي تولت القيادة في تلك الحركات باسم الشعب ، لم يكن لها في العادة أي تفويض يخول لها اعمالها عدا حماستها • بل هي أشياء لايمكن تسميتها هيئات محبوكة التماسك • وكلها لم تزد عن دسائس أو مؤامرات دبرت في الأندية السرية للكربوناري (*) في جو من الايمان والخناجر والكتمان • والحق أن هذه هي المدرسة الرومانتيكية لتدبير الثورات •

(*) الكاربوناري : جمعية سياسية ثورية سرية قامت بجنوب ايطاليا في النصف الاول من القرن ١٩ ، وحاربت الحكم البونابرتي والبوربوني ، ولعبت دورا في حركة مازيني • (المترجم) •

وليس معنى ذلك أن ما يبذل فيها من شجاعة وتضحية أقل قدرا • اذ أن في الامكان تسمية العاطفة التي تلهمهم بأنها وطنية حميمة ، لاتنبها قوميا طرازيا • ذلك أن الوطن الذى يثورون من أجله يصح أن يبلغ مبلغ أسبانيا أو الروسيا من الاتساع ، وقد يبلغ أيضا مبلغ نابولى أو بيدمونت من الصغر •

وقبل انقضاء زمن طويل وجد هذا الدافع القوى الى التحرر الذى ظهر فى بواكير القرن التاسع عشر شخصية تجسد فيها ، شخصية تجتمع فيها الوطنية والقومية بحرارة ، وقد أدخلت فى مثال الحرية جميع ما يتصل من فكرات بالنهضة الفكرية والاجتماعية التى ملأت آفاق العصر • ولم يكن ذلك البطل سوى جيسيبى مازينى رسول الوحدة الايطالية • لقد عادت الى الحياة فى شخص مازينى جميع آيات المثالية التى تأثر بها القرن التاسع عشر • فلئن ظل مؤسس نظرية الوحدة القومية أكثر منه منقذ تلك الوحدة ، فليس ذلك عن نقص فى الشجاعة أو قصور فى ارادة العمل• ذلك أنه أورد حياته موارد الخطر من أجل ايطاليا منذ مطالع شبابه الى أن انتهت حياته • وحكم عليه بالاعدام مرتين ، كما أنه قضى زهرة عمره فى المنفى • وقد اعتبر التقدم حقيقة ماثلة ووعدا صريحا • وتوقع الحصول على المنافع جميعا من مبدأ الترابط الذى استعاره من سان سيمون ، وتقبل العمل القومى على أنه رسالة أى ضرب مما يأتيه « المسيا » (*) Messia من تضحية وخدمات • فقد أراد أن ينظم الشباب فى كل مكان حتى ينهض بأعباء الحرية ، وأنشأ على التوالى جمعيات ايطاليا الفتاة وسويسرة الفتاة وأوربا الفتاة • وقد علم الناس أن الثورة التى تعود بالنفع فى كل مكان صارت تحمل فى أيامه اسم الجنسية أى نوع القومية Nationality وينطبق مثله الأعلى على كل الشعوب وكل الدول ، على أنه كان يعتبر أن شعب ايطاليا قد تلقى الدعوة الاولى والرائدة • ومن رأيه أن فرنسا قد قامت بدورها وانتهت فى ثورة ١٧٨٩ ، وها قد جاء دور ايطاليا الفتاة الدائمة الفتوة •

والمعروف أن نقطة الابتداء عند مازينى هى منطلق روحى بحت • فهو يرى أن الله تجلى فيما جرى به قدره التقدمى من تطور الشعوب ورفعها صعدا • فالآن ستحل محل المطامع الفردية البارزة فى الماضى حركة جماعية Colectivism قد أجيد تخطيطها • وهنا أيضا يشم القارىء أثر سان سيمون وأفكاره • والثالوث المقدس الذى اشترط

(*) هو المخلص المرتقب او المهدى المنتظر • (المترجم) •

مازيني وجوده كاساس للمجتمع المقبـــل يأتلف من الحرية والمســـاواة والانسانية • والشعب هو المفسر الذى من حقه تأويل الارادة الالهية • والجمهورية هي الشكل السياسى الصالح الوحيد ، والمنسك الذى يستطيع به الشعب تنفيذ واجبه هو حق الاقتراع العام • والذى ينبغى أن يكون « المسيا » المسيح المنتظر لهذا التنزيل الجديد ليس شخصا مفردا بل هو شعب مجتمع • وسيهب الناس من فورهم ويعقدون جمعية أو مجلسا •

وسيصدر عن تلك الجمعية اعلان يتخذ شكل ضرب من معجزة عيد الحصاد ، وهو فى هذه المرة ليس اعلانا للحقوق بل للمبادىء ، أى أنه اعلان بواجبات الانسان : واجبات الاخلاص والتضحية والتضامن • وفى الوقت المناسب ستنضم جميع الامم الاخرى الى الاعلان وتتمسك به • وينبغى أن نشير هنا الى أن شـــــكل هذه الأفكار يذكرنا بقوة بأفكار كولادى ريانزى ، وان اتصف مازيني ـ بصورة لا تدع مجالا لموازنة ـ بقدر من النبل والنقاء أكبر كثيرا مما لكولا دى ريانزى تربيون الشعب المتهوس الذى عاش قبل ذلك بخمسة قرون •

على أن مازيني اتصف بمغالاته فى المثالية العنيدة ، وهو أمر انتهى به الى مصير من اليأس الفاجع • فتخلى عنه أصدقاؤه وانفصـــــل عن غاريبالدى ، كما أنه ظل فى صراع دائم مع كل ما يتصـــل بالاشتراكيــة أو يمت اليها ، وهى فى رأيه شىء يتصل بالتقدم فى مطبخ البشرية • وفى أثناء حرب ١٨٥٩ ، أصبح نفوذه عائقا له أكثر منه مساعدا ، كما أن ما أسفرت عنه الحرب من نتيجة ، هى قيام مملكة بايطاليا واعتلاء بيت سافوى العرش ، خلفت الجمهورى القوى الأمين فى حالة يأس دائم • ومع ذلك كله فالى مازيني يرجع الفضل فى اثارة الشعب ودفعه الى ارادة الوحدة ، وتعليمهم احتقار انقساماتهم التافهة والتركز على بكرة أبيهم على العمل العظيم الذى يواجه تلك الأمة بصورة أوضح وأشد حتمية منه مع أية أمة أخرى ، وهو تاسيس الدولة بوصفها الاطار الركين الدعائم للأمة •

أما الحرية ، فانها بوصفها مبدأ سياسيا بحتا قد بدا أنهـا لا تقتصر فقط على سهولة الامتزاج بمبدأ الجنسية أى نوع القومية، بل وتتطلب أيضا الاعتراف بالقومية بوصفها أساسا لا غناء عنه ، ذلك لأن الحرية تحتاج الى موضوع تدور حوله • وقد أخفقت الدولة فى نقاط كثيرة فى اظهار نفسها بمظهر المعبر الكفء عن الحرية • فانها لم تستطع تماما ارضـــاء جميع الناس الذين يعيشون داخل حدودها ، اما لأن الســـكان أعوزهم

التجانس القومي أو لأن النظم الادارية كانت تسرف في أدائها عمليـــة ذات جانب واحد • على أن الجنسية من الناحية الأخرى ، وهي التي تعلق بهـــا بحرارة بالغة قدر كبـير من الاحســـاس الاجتمــاعي للعصر ، بدت الموضوع الطبيعي للحرية المشتهاة ، والسبب في ذلك هو ما قام بين الدولة والحرية من اعواز شديد في الانسجـام • وآية ذلك أن أصدقاء الحرية في المدة من ١٧٨٩ الى ١٧٩٢ قد خامرهم شعور ما باحتقار الدولة وعدم الثقـــة بهـــا • أجل انهم أحسوا أنهـــا لا بأس بهـــا كشكيمة كابحة تحول دون استخدام الحرية بغير اكتراث ، أما فيما عدا ذلك من أغراض فانها ينبغي ألا تتدخل في حياة المجتمع الا في أضيق الحدود • هذه هي الطريقة التي كان توماس جيفرسون وأمثاله يفهمون بها معنى الحرية وواجب الديمقراطية في الجمهورية الحرة (الكومنولث) الجديدة للولايات المتحدة • على أنه قدر لذلك الاتحـاد الفدرالي أن يستكشف بسرعة ، أن الحرية لا تخدم باظهار مثل ذلك الاحتقار لعمل الدولة أما الأقطار الأوربية بما تجمع لها من تقاليد سياسية أقدم ، فقد ألف الناس فيها عادة وجود توازن معين بين الســلطة والحـــرية • وكانما النزعة التحررية الليبرالية السياسية والكفاح من أجل الاستقلال القومي لا يبدوان الا مجرد شكلين من أشكال عملية التقدم ، التي لا يشك فيها انسان •

وقد اكتسب المثل الأعلى للحرية منذ أمد بعيد ناحية أخرى الى جوار الجانب السياسي هي الناحية الاقتصادية • وذلك أن التوســـع المستمر للحياة الاقتصادية قد ركز روح العصر أكثر فأكثر على مصالح الصناعة والتجارة والزراعة • اذ أن فكرة الرخاء اكتسبت رنة مقدسة تقريبـا لدى جيل شغلته المنفعة ، جيل تعلم في مدرسة بنتام (*) • ولو بحثت فكرة التجارة الحرة في حد ذاتها لما ظهر أن لها الا أضعف العـــلاقات بفكرة الوطنيه أو القومية • غير أن الموقف الواقعي أدخل ذلك المثـــل الأعلى عنوة الى أشكال الدولة والقطر والأمة ، وذلك لأن الوحدات الفعلية في الحياة الاقتصادية والتجارية لم تكن هي النقل بالسفن ولا تجـــارة الحبوب ، ولا التعدين ولا نظم المصارف ، وانما هي المظاهر المحددة لتلك كلها من فروع التجارة على ما وجدت ونظمت في مختلف الدول • وقد جرت العادة منذ أيام العصور الوسطى أن الدولة حاولت بكل مكان تقريبا تنظيم التجارة جهد مستطاعها لمصلحة خزانتها وشعبها • وها قد ظهـر

(*) بنتام (١٧٤٨ — ١٨٣٢) فيلسوف واقتصادي ومصلح تشريعي انجليزي • (المترجم)

المبدأ الجديد الخاص بالتجارة الحرة الذى شاء أن ينكر على الدولة أى تدخل فى هذه الشئون جميعا • وهنا اكتسب المثل الاعلى للحرية شكلا جديدا ماديا ونفعيا صرفا • ومع ذلك ، فان الحرية ظلت هى المثل الاعلى ومن المحقق أن ريتشارد كوردن لم يقل مثالية ولا تفاؤلا فى الحقل السياسى عن مازيني ، كما لا شك أنه يكمن وراء تبشيره بالبديهة والعقل السديد Common sense والخلق البسيط قدر من الحمية المقدسة والاخلاص المجرد من الغرض يساوى ما يكمن وراء تأملات الايطالى الحافلة بالتنبؤات ، كما يعادل ما فيها من الوهم والخداع الكثير • وقد قام النظام الفكرى للمدرسة المانشسترية على افتراض وجود عالم ملؤه النظام والتقدم يسيطر عليه ، بما قام عليه بنيانه من دول مستقلة متكافئة — الاعتراف بمبدأى العدل والاحسان ، وهكذا مضى ذلك النظام فى سبيله القائم على الانتاج والتبادل متجها نحو الرخاء والنجاح والسعادة فى ظل المنافسة السلمية • وقد افترض نظريا أن وحدات الانتاج فيه هى الاقطار المتمايزة بعضها عن بعض من الناحية الجغرافية بما حوت من موارد طبيعية ، وارتأى من حيث الانتاج ضرورة أن تقصر كل أرض نفسها جهد الطاقة على ما تنتجه بصفة طبيعية • وهو نظام يفترض أن المنافسة الدولية الحرة لا بد أن تخلق من التجانس فى التبادل التجارى ما يكفل الرخاء العام ويضمنه • وستظهر البضائع الرخيصة أنها الحل الذى يقضى على كل شر اجتماعى ؛ فبفضلها ستتم الاصلاحات الاجتماعية الضرورية ويصان السلام • وقد كتب كوبدن يقول : « ان التجارة الحرة هى اللقاح الذى يملأ جميع أمم العالم بالرغبة الصحية النافعة التى تدفعها الى التماس الحضارة » • وهو يرى أن الصادرات وعدم التدخل فى عملية الانتاج هما العاملان اللذان يحددان سياسة جميع الحكومات التى ستظهر مستقبلا • ولا شك أن انجلترا تخدم الآخرين حين تجعل من نفسها مثالا لهم وهاديا ومرشدا • وقد حصلت سياسة توازن القوى على زمانها ومضت • وكذلك نالت قسطها من الوقت سياسة التوسع الاستعمارى التى ولى أوانها هى أيضا • ومن ثم أحس كوبدن أن اليوم الذى لا تملك فيه بريطانيا قدما واحدا من الأرض فى قارة آسيا سيكون دون ريب يوما سعيدا •

وذلك كله شىء جميل جدا ، لولا أن ارتبطت به لفظة « لو » : فهو يعمل عمله لو أن العالم اتصف حقا بالفضيلة التى يتطلبها النظام ، ولو أن العوامل الموجودة فى العملية كانت بالفعل الوحدات الجغرافية للانتاج ، لا الدول الموجودة حاليا بكل ما فيها من قلقلة وقلة انسجام • على أن

المسألة لا تقتصر على ذلك فقط • فان نظاما يقول : « كل انسان لنفسه والحرية لنا جميعا » ، انما ينطوى ــ حتى وهو فى أنقى صــوره ــ على الاعتراف بخصومة قومية خطرة ، بل يحتضن فى الحقيقة قانون الغاب ضمنيا • وذلك أن نظرية الحرية الاقتصادية خبأت فى دخيلة نفسها بذور توسع جامح للمذهب الرأسمالى من ناحية ، فضلا عن بذور لا مفر منهــا لامبريالية حتمية لابد أن تصدر عن الدول والأمم القوية • ولم يحــدث قط أن تهيأت الظروف لتزويد النظام بالشرائط التى يتطلبها لا فى الماضى ولا فى الحاضر • اذ أن الوحدات المنتجة تقاسمت الموارد تقاسما أبعــد ما يكون عن المساواة • كما أن سلوك الدول لم يضبطه القانون الدولى الا فى أضيق الحدود • وفضلا عن ذلك ، فانها لم تسيطر عليها تماما المصالح الاقتصادية على الاطلاق بالشكل الذى يوائم نظـــام مانشستر ولا نظام ماركس • مثال ذلك أن كافور وبسمارك أدارا تفكيرهما على أساس وتصرفا وفق موازين تختلف تماما عما لدى كل من كوبدن (*) ومازينى • ومع ذلك فان نظرية التجارة الحرة وعدم تدخل الدولة فى الحقل الاقتصــادى ــ لو أخذت كــكل ــ لظهر أنها أفضت على الرغم منها الى تزكيــة الصــورة القومية لأوربا ، بل حتى تزكية نزعات الوعى القومى الحادة بها ولم تكن عائقا لها بحال •

وفى الحين نفسه أنتجت أواسط القرن سياسيا ما لبث أن أتيحت له الظروف التى يستطيع بها اختبار مبدأ القوميات المستقلة وعجم عوده : هو نابليون الثالث وهو مغامر سياسى أصبح امبراطورا وحالم اجتمــاعى واقتصادى وصــــاحب نظريات ، دعى ليلعب الــدور الرئيسى على مسرح السياسة الأوروبية العملية • على أننا لن نعنى هنا الا بموقفه من مبــدأ القومية ، وحسبنا هنا تذكرا بسيطا لبعض الوقائع التى يعرفها الجميع • فهل كان تدخله فى صف الوحدة الايطالية لو وضع موضــع التحليــل النهائى الا ارتدادا منه لم ينل حظه من الدراسة والبحث ، الى سياســة مضادة للنمسا هجرت من زمن بعيد ؟ وهل هو فى اخفــــاقه التمس فى محاولة التدخل فى المكسيك أشد اهتماما باستقلال المكسيــكيين القومى منه باحراز نجاح لدى الأوساط الشعبية السياسية لأوربا ؟ وربما لم يتح لنا بأية حال أن نسبر أغوار عقل نابليون الثالث ، وهو عقل لاشــــك فى

(*) ريتشارد كوبدن (١٨٠٤ ــ ١٨٦٥) سياسى انجليزى ، امتلك مصــانع نسيج بما نشستر ، كان له أثر كبير مع جون برايت فى الغاء قوانين الغلال ، وفاوض فرنسا لعقد معاهدة كوبدن لوضع تعريفة جمركية على قاعدة المعاملة بالمثل ، وعارض حرب القرم ، وعرضت عليه الوزارة فرفضها • (المترجم) •

ضحالته على الرغم من حسن مقاصده ومواهبه التى لاتنكر • ومهما يكن من شأنه فانه لم يضف اية عناصر جديدة الى تطور أوربا القومى •

وعلى حين أن الامبراطورية الثانية قامرت بفرص فرنسا وهيبتها حتى أضاعتها ، فان بلمرستون ودزرائيلى دأبا وراء بحر المانش على تشـــييد بنيان شامخ هائل من القوة ، انطبق عليه كل الانطباق فى أثناء النصف الثانى من القرن التاسع عشر مؤهلا القومية والامبريالية الجـــديدان • اذ الواقع أن سياسة انجلترا حافظت على سمتها القومية الجادة أيام العصور الوسطى • وقد سبق أن أوضحنا آنفا أن الانجليزية تستخدم لفظة واحدة للدلالة على فكرتى « التنبه القومى » و « الدافع الى رجحان الكفة القومية » ونتيجة لما اقتضته الظروف أصبحت السياسة الانجليزية امبريالية أيضا ابتداء من القرن الثامن عشر • وأتيح لبلمرستون ذلك الموقف السعيد الذى يستطيع فيه أن يتغطرس ويتعالى ويصدر التحذير الدبلوماسى كلما لاح فى أى مكان من العالم أن احدى مصالح بريطانيا تتعرض للخطر أو متى شاء أن يدس أنف بريطانيا فى بعض الشئون • وهى سياسة اعتبرهـا الجمهور العام سياسة عدم اكتراث ، وبوصفها كذلك ، تمخضت عن اثارة الاعتراضات حتى فى بريطانيا ذاتها • وحدث حوالى ١٨٧٨ أن البريطانيين أنفسهم أطلقوا لفظة الجنجوية Jingoism أى المبالغـة المتعصبـة فى الوطنية ، على ما أبداه مواطنوهم من نزعة قومية فظة متغطرسة • ولا ريب أن ما أصاب الوعى القومى من الغلظ والفظاظة اللذين تطورا فى عدد من الأقطار فى أثناء الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، وثيق الارتباط بما أصاب الصحافه من غلظ وبســباق التســلح الناشىء الذى هو النتيجـة الفتاكة للحروب التى نشبت من ١٨٦٤ فصاعدا • ففى فرنسا مثلا تمخضت فكرة الانتقام Revanche عن قيـام حزب كان أول حزب ســمى نفسه بالحزب القومى (أو الوطنى) • واتخذت شخصية بول ديروليد مؤسس « عصبة الوطنيين » Ligue des Patriotes وشاعر « أناشيد الجنـد Chants du Soldat » تظهر بالفعل سمات متعددة مما اتصف به دعاة سياسة القوة القوميون الذين ظهروا فى القرن التالى • وقد أراد أن تحل محـل الجمهورية البرلمانية جمهـورية استفتائية وهى مثـل أعلى نظـرى لا يتحقق الا فى صورة حكومة استبدادية شعبيـة • وكان له دخـل فى حادثة (*) بولانجيه ، كما كان له فيما بعد ضلع فى اعتداء وقع على قصر

(*) بولانجيه (١٨٣٧ ـ ٩١) قائد فرنـى • حصـل على شعبية هائلة بسـبب خطبه المعادية للالمان حتى اتهم فى ١٨٨٩ بانه ينوى احداث انقلاب فى فرنسا ، ففر الى لندن • حوكم غيابيا بتهمة الخيانة ثم انتحر فى بروكـل • (المترجم) •

الايليزيه من أحـد القواد ، فان طريقة اندلاع الثورات المفاجئة Putsch أخذت تخطو الى الأمام ٠

وهناك ظواهر سخيفة تضفى على السنوات الخمس الأخيرة من القرن ظل الانحلال والتمزق، منها قضية دريفوس(*) وغارة جيمسون(**) وغيرهاـ وفيها احتلت النزعات القومية الحادة التي كانت لاتزال تلتمس لنفسهـا عبارة تصاغ فيها ، مركزا أكبر مما أدركه الناس يومئذ ٠ اذ لم يستطع أحد التنبؤ بما ستجره من تصرفات متطرفة أثناء القرن الجديد بوصفهـا القوة الظاهرة لحياة الدولة والحضارة بأسرها ٠ وخيل للناس كأنما قـدر لتيار آخر من الفكرات عريض وقوى ومختلف تماما ، أن يغمر قبل انقضاء زمن طويل الوطنية والقومية بأجمعها ، وأن ينتهي في الختام الى جرفهما أمام سيله العرم : وأعني به تيار الاشتراكية ٠ وقد طبعت الاشتراكية من حيث الجوهر على أشد المناهضة للقومية ، ولذا فانها قاومت مقاومة سلبية كافة القوى التي سيطرت على الامبريالية والنزعات العسكرية طوال معظم القرن ٠ وقد علم ماركس أن العامل لا وطن له ٠ وعندما حدث في تلك السنة الحرجة التي صدر فيها اعلان (مانفستو) الشيوعية لماركس ، أن ضربت الاشتراكية ضربة قاضية دامية في شوارع باريس بحيث لم تعد لمدة عشرات كثيرة من السنين خطرا مباشرا على النظام الاجتماعي القائم ، فانها واصلت تكريس نفسها للتنظيم الداخلي ولدفع عجلة التطور الفلسفي والعلمي لدعايتها انتظارا لليوم الجديد المرتقب ٠ غير أنه على الرغـم من نشـاط « الدوليات Internationals (***) وحسن القبول الذى لقيته لدى عمال العالم ، فان التنظيم والدعاية لم يستطيعا الفرار من التحديدات التي فرضتها عليهما حقيقة نظام الدول ٠ ومن ثم فان الديمقراطية الاشتراكية لم تستطع التطور الا بوصفها تعقيدا مركبا للهيئات الحزبية القومية ٠ ومع ذلك ، فكلما زادت تلك الهيئات قوة ، نقص الشـك في أن الاشتراكية ستظل في ساعة الامتحـان والحسم وفية وفاء مجيدا لدعوتها الدولية المقدسة ٠ ودقت ساعة الامتحان في أغسطس ١٩١٤ ، وهنا صار الانهيار

(*) فضيحة عسكرية اتهم فيها دريفوس بالخيانة (١٨٩٤) لم تثبت براءته (١٩٠٦) (المترجم) ٠

(**) طبيب اسكتلندى قاد في ١٨٩٦ حملته على ميفكنج ودخل الترنسفال ٠ انظر للمترجم ج ٤ « معالم تاريخ الانسانية » تأليف ولز (المترجم) ٠

(***) الدولية اسم يطلق على عدد من الهيئات الدولية التى أقامتها المنظمات الاشتراكية والعمالية لتنسيق سياساتها ٠ وهى الدولية الاولى بلندن ١٨٦٤ والثانية ١٨٨٩ ، والدولية الثالثة وهى الدولية الشيوعية المعروفة باسم الكومنترن، أسست في موسكو ١٩١٢ ثم حلت في ١٩٤٣ ٠ (المترجم) ٠

السريع والتام المطلق الذى ألم بمعارضة الاشتراكية للسياسة القومية فى جميع الأقطار المتقاتلة ، نذيرا مبهما بالنسبة للمستقبل • وقـد اظهرت تلك الواقعيه ضآلة المشابهة بين ما يسمونه بأيديولوجيات العصر الحديث وبين تلك الاقتناعات التى سقط من أجلها فى أحد الأيام شهداء العقيدة •

ولكى لا أتجاوز الحد التاريخى الزمنى الذى وضعته لمبحثى ، أحب فى الختام أن أنظر الى الخلف مدة بضع دقائق أخرى الى ظاهرتى الوطنيـة Patriotism والقومية باحثا فيهما من الناحية العامة ، كمـــا حاولت تلخيصهما فى الأشكال التاريخية التى عبرا فيها عن نفسيهما • فهل ترى هناك أى قيمة تجنى من وراء اختبار عواملهما التاريخية والاجتماعية ؟ لقد حاول الكثيرون فعل ذلك أكثر من مرة • بل انى أنا نفسى قد مسست بيدى فى هذه المحاضرات أكثر من مرة المصادر التى اشتقت منهـــا تلك العواطف : فاما حاسة الوطن فقد أوضحت أنها انبثقت من الفكرة القديمة عن سلطان الملك وملكيته ، ذلك السلطان الذى عبرت عنه التوراة من زمن سحيق ، وقلت عن الوعى القومى انه قد زكته ورفعته الروابط الكنسية التى عاش الناس بظلها ، والأخطار الخارجية التى أرغمتهـم على الوقوف صفا واحدا وهكذا • على أن هذه كلها ان هى الا تفسيرات ربما كانت لها قيمتها فى كل حالة نوعية تطبق عليها ، وان لم تضف فى الواقع الا قليلا من الأشياء الجديدة للمعنى المفرط البساطة الذى يميل فيه كل انسان أن يفهم عليه المصطلحين تلقـائيا • ويبدو كل من المفهومين على الدوام كأنما ينزع الى الاختزال الى أبسط شكل له : وهو الشكل المنطوى على كل بدائى من انفعالات التعلق والولاء والتضـامن الجمـاعى • وجميع أنواع الأردية المرقشة التى يتشحان بها فى معرض التـاريخ ذى الألوان البهيجة تمنحنا انطباعا بالنمو والتطور • ولـكن علينـــا مع ذلك أن نلقى نظرة أخرى الى ما للمفهومين من محتويات سيكولوجية واجتماعية وأخلاقية •

وقد رغب أحد قدماء الفلاسفة الاغريق فى أن يرجع كل شىء يحدث فى الـكون الى وجود تناقض أبدى بين مبدأى المحبة والخصومة • فلنقبل وجهة نظره لحظة واحدة ، لـكى نسأل أنفسنا عن أى الجانبين تنتسب اليه ظاهرتا الوطنية والقومية • وسيتضح على الفور أن الوطنية تنتسب دون ريب الى الناحية الايجابية • بل ان اللفظ فى حد ذاته ينطق بهذا كله بوضوح ، اذ معناه حب المرء وطنه • أم ترى أن ذلك مجرد اضفاء تقدير بالغ السمو على ذلك المفهوم أثناء ترجمته ؟ فان كانت صفة الحب الحق أنه يعطى أكثر مما يطلب ، فعندئذ ينبغى للوطنى الصالح أن يمتحنّ عاطفته •

ومن البديهي أن تعلقا فطريا من المرء بما يملك لا يستحق في حد ذاته أن يتسمى باسم الحب . فان رفرفت الوية السلم على الدولة وحظيت بأحسن ما يحظى به مجتمع بشرى من الحكم الصالح ، توافق ولاء المواطن لبلاده وخدماته لها متجلية في صورة طاقة واخلاص وأرصدة ، وتلاقت في جملتها مع مصالحه هو الحيوية الخاصة . فيجازيه الوطن على ولائه بمنحه الأمان والعدالة ، بل وحتى الحرية في بعض الأحيان . على أنه وهو يؤدى واجباته الوطنية Patriotic لا يقوم بعمل من أعمال الحب . ولن يغدو عطاؤه تضحية ولا خدمته مكابدة ولا ولاؤه حبا ، الا متى تعرض الوطن للخطر . فهنا يتحول العالم للمرة الثانية الى مشاهد يرتجف فرقا تلقاء مايستطيع فعله حب وطن قائم على الأناة والتدبر والعزيمة الصلبة .

لقد مسسنا عرضا عدة مرات صفات الوطنية بوصف كونها انفعالا يختلج في النفوس . وربما جاز لنا أن نقول أشياء كثيرة فوق الذى قلناه ولكن ذلك ينطلق بنا على الفور من مجال التاريخ الى مجال الشعر الغنائى ذلك أن تنبهنا الى بلادنا يزدهر في دائرة ذكريات الطفولة والحنين الى الماضي . فهو يوقظ أرج أشجار الصنوبر ويملأ الأنوف بشذى الحقول المحروثة والسواحل الرملية . وهو يتغذى على قيم رمزية . أحدها النشيد الوطني .

والأناشيد القومية بشكلها الحاضر حديثة نسبيا لدى معظم البلاد . ومنها ما تطور بمحض الصدفة تماما ، ومنها ما اصطنع اصطناعا بتكليف. فأما نص النشيد ومدى صلاحيته فأمر في الدرجة الثانية من الأهمية ـ اذ ليس من المهم أن يعكس ذلك النص موقفا تاريخيا معينا يرجع تاريخه الى أكثر من قرن : فليس من الضرورى أن تكون الكلمات معاصرة ليومها ، وعلى كل حال فلن يعرف انسان أكثر من فقرة أو فقرتين . على أن حالة النشيد القومي الهولندى فريدة في بابها . فقد نشأ فى الساعة البطولية التي ولدت فيها البلاد أنشودة معركة وصيحة تدعو الى التحرر . فاكتسب أهمية قومية رمزية : وفيه تحدث مؤسس الحرية هو نفسه ، أما اللحن ، وقد نقل أولا من موضوع خفيف الى آخر ذى جدية أعمق ، فانه انحط حتى أصبح جعجعة شديدة على أفواه الشعب ، غير أن الطعم السياسى الخاص الذى أحرزه نشيد « فلهلمس Wilhelmus » أثناء المنازعات الأهلية التي نشبت في أخريات القرن الثامن عشر آثارت استياء الآباء المؤسسين فى ١٨١٤ ، ومن ثم لم يعد العصر يفهم أنغامه . وأعلنت السلطات عن مسابقة لنشيد قومي جديد .

ومنحت الجائزة لنشيد تولنز الذى مطلعه Wien Neerlands Bloed بدلا من نشـــيد براند فان كاباوف الذى مطلعـــه Wij Levenvrij والذى يفضله كثيرا كمـا يؤكد ذلك كتاب الأدب الهولندى الذى درستاه بالمدارس • وتلك لا جرم لمسة من لمسات الحظ الحسن والا لما عاود نشيد « فلهلمس » الخروج من بين الرفات التى انحدر اليها • وكان استرجاع موسيقى هذا النشيد عملا وطنيا ذا دلالة كبرى • وفضلا عن ذلك فان نصه قد أعيد اكتشافه بطريقة ما • وهنا استطاع جيل جديد أن يفهم بروح هولندية مجددة ، مغزى تلك الكلمات التى لم تفقد شيئا من القوة المحركة لجديتها الصاحية المتزنة بعد نسيان قارب الأربعة القرون ، تلك الـكلمات التى ستظل حديقة قشيبـــة على الزمان مهمـا مر على الأراضى المنخفضة من أحداث •

ولنعد الآن الى المصطلح الآخر وهو القومية من حيث مباينته للوطنية وقد كنا نحاول أن نطبق على الفكرتين ذلك التقسيم القديم للكون الى حب وخصومة • وقد أحسسنا أن الوطنية تقع دون أدنى نزاع فى الدائرة الايجـابية ، وهى دائرة الحب • وفضلا عن ذلك فالظاهر أنهـا ترتبط ارتباطا لا انفصام له بالدائرة الذاتية والحالة المحسوســة • وهى موقف سيكولوجى واجتماعى ، كما أنها ميل وقوة وشهوة ، ولـكنهـا لا تـكاد تفصل عن مثال معين لها حتى تفقد شكلها الخاص •

غير أن الوعى القومى من الناحية الأخرى شىء يمكن مشاهدته وتحليله والحـكم عليه وتقديره كـكم موضوعى • وهو من الناحية النظرية اقتناع ، بل هو فى واقع الحقيقة كبرياء ــ الى حد كبير • وهو يزدهر ازدهارا كاملا تقريبا فى جو المنافسة والمعارضة • ومن ثم فهو يزدهر فى جانب الخصومة على أن حياة الأمم مجتمعة بعضها مع بعض يمكن أن تكون حياة منافســة شريفة ، ولـكن لم تغب قط واحدة من الجنيات الواقفات حول مهـــد الأمم : الـكبرياء والجشع والـكراهية والحسد ، فجنية الـكبرياء تحول نفسها الى الخداع والعماية • فيتصور أناس أو شـــعب فى أنفسهم أنهم جنس سيد ممتاز • ومن ثم يحتاجون الى عبيـــد • فمن أين لهم بهؤلاء العبيد ، وقد أقفلت أسواق النخاسة القديمة ؟ وهم على تنبه برسالة يكلفون بها أو دعوة سماوية لابد من تلبيتها أو أنهم قـــد اختيروا لأداء احدى المهام • فأما الاله الذى ينوط بهم رسالة يؤدونها فلا تكاد تبقى له ضرورة بعد ذلك : فالأمة حسبها نفسها فقط • وتلك خداعات رثة تخادعنا بها أنانية القطيع ، وما للدولة المتوحشة من غرائز محـزنة مستوجبـــة

للوثه • وتنزع أنفسنا الى المغالاة في تقدير القيمة الخلقية لاحساس الناس بكونهم شعبا مختارا لأننا نتنبه اليه أولا وقبل كل شيء في حالة اسرائيل حيث رفع ذلك الاحساس نفسه من أساسه البدائى الى مستوى أعلى بأن أقام بناءه بجميع أركانه على « الكائن الأزلى » نفسه ؟ ! • • •

ولكيلا أختم حديثى فى هذه النغمة الحزينة ، اسمحوا لى أن أتحول برهة وجيزة من القوميـــة كموقف منافســـة الى الجنسية (نوع القومية Nationality) كظاهرة عقلية وتاريخية • وفى اعتقادى أن كل شخص مثقف قويم العقل انما تنطوى جوانحه على محبة خاصة نحو عدد قليـل من الامم غـير أمته ، أمم يعرف أرضـها ويحب روحها • وسندعك الآن تستحضر بين يديك صورة لأمة كهذه ، وتستمتع بها • وليس من الضرورى لك أن تزور من جديد ريفها ولا أن تتفقد متاحفها ولا أن تعـــاود قراءة شعرائها ، فانك فى تأملاتك مستطيع تجميع كنوز تلك الأمة الأجنبيـة بأسرها فى منظر واحد • وأنت مدرك جمال فنها والأشـكال القوية فى حياتها ، وأنت ممارس ما مر بتاريخها من اضطرابات ، وأنت ترى ما يملأ جنباتها من مناظر الطبيعة السـاحرة ، وانت تتذوق كل حكمة حملتها كلماتها وتسمع صوت موسيقاها الخالدة وتخبر صفاء لغتها وعمق فكرها ، وتشم أرج خمورها ، وتعطف على شـجاعتها وقوتها ونضارة حيويتها ، وتحصى ذلك كله موسوما بما لا يستطاع محوه من ميسم تلك الجنسية (أعنى تلك القومية الخاصة) ، التى ليست جنسيتك ، ان ذلك كله أجنبى عنك ــ كما أنه كنز ثمين بوصفه ثروة وترفا تجمل به حيـاتك • واذن فلماذا الخصومة ولماذا الحسد ؟

وقد أردت كشف الستر عن مشاهد هذا الركب حتى نهاية القرن التاسع عشر لا أكثر • لا لأن الشخصية المزدوجة التى استحضرتها بين يدى قد أتمت دورها وغادرت المسرح عند ذلك ــ اذ الأمر على عكس ذلك • تماما ، بل لأنى لم أشأ أن أدع الأشعة العنيفة الصادرة من جهاز الضـوء الكشـاف الوهاج المســتخدم فى عصرنا هـذا ، تمرق مندفعة فى الجزء ذى الأنوار الهادئة المتوازنة من مسرح التاريخ الذى تفقدناه • وبحسبنا

ومضة من ضوء الادراك التاريخي • وبنا نعود الى منازلنا كما يفعل رواد مسرح غادروه قبل انتهاء التمثيـل • وسنسدل الستار ونمتنع عن كل تعقيب ، بينما المؤامرة الفاجعة تزداد في كل ثانية تعقـدا واستعصـاء ، وبينما اعوالات العطف والرعب لا تسمع الا عن بعد • ولنحاول مفارقة موضوعنا كأنما نحن نجهل ما سيحدث بعد ذلك ، ولنحـاول أن نمـاثل أولئك الأشخاص الذين عاشوا عند مستهل القرن ، والذين هم أنفسنـا السابقة منذ أربعين سنة خلت ، والذين استطاعوا مع ذلك أن يتصوروا انهم شهدوا في مؤتمر السلام (*) الأول الذى انتهى عمله لتوه ، فجر عصر مجيد جديد من التقدم والحضارة •

(*) هو الذى عقد فى فرساى بعد الحرب العظمى الاولى وانتهى بعقد معـاهدة فرساى فى ٢٨ يونيه ١٩١٩ (المترجم) .

البـــاب
الثـــانى

العصور الوسطى

يوحنا السالسبورى

عقلية قبل القوطية (*)

فى ربيع ١٩٣٠ اجتمع لدى من المواد التى حشدتها تمهيدا لدراسة القرن الثانيعشر التى كنت بدأتها قبل ذلك ثم أسقطتها مؤقتا ـ شخصيات ثلاث أردت أن أتحدث عنها فى سلسلة من محاضرات ثلاث ألقيت بجامعة السوربون تحت اسم « أرواح ثلاثة قبل القوطية Trois esprits pregothiques » والثلاثة الذين عنيتهم هم أبيلارد ، الذى حاولت معالجة شخصيته فى المجال الفكرى ، ويوحنا السالسبورى الذى راقنى بوجه خاص فى المجال الخلقى ، وآلان دى ليل ، وهو الممثل البالغ الروعة للقرن الثانى عشر فى المجال الجمالى • غير أن دراسة الأخير هى التى استكملت سمتها فى الوقت الحاضر(١) •

وعندما سنحت لى فرصة تناول الشخصية الثانية من هؤلاء الثلاثة بالدراسة مرة ثانية ، صار لزاما على أن أبحث فى الامكانيات التى ربما توقع منى أن اطرقها الخبير اللامع فيذلك الحقل : وهو كلمنت س•ج•وب ، الذى أتبع فى الحين نفسه طبعاته الممحصة بالنقد والتعليق لكتاب بوليكراتيكوس Policraticus (٢) وكتاب«ميتالوجيكون» Metalogicon (٣) ببحث فى المؤلف(٤) وقد اظهرت الأيام أنه لا أساس لمخاوفى • ذلك أن «وب» قد عنى بابراز تحليل لامع لعمل يوحنا وتاريخ حياته ، تاركا مجالا فسيحا لجهودى فى سبيل تفهم يوحنا السالسبورى كطراز خلقى من الناس • وانى لأقر « وب » على القدر الصغير الذى قاله عن شخصية يوحنا

(*) وهى كلمة ألقيت فى اجتماع فقهاء اللغة الهولنديين الخامس عشر الذى عقد فى ٢١ ابريل ١٩٣٢ بجامعة ليدن • وقد نشرت اولا فى (Tijdschrift voor Geschiedenis مج ٩٨ (١٩٣٢) ص ٢٢٥ ـ ٢٤٤ • الترجمة عن النص الهولندى فى Verzamelde werken مج ٤ ص ٨٥ ـ ١٠٢

وخلقه بحيث أستطيع ـ دون التعرض لأى خطر ـ اللجوء اليه فى دعم وجهة نظرى •

ولن أحاول تعريف ما أسميه بالاتجاهات « قبل القوطية » عند يوحنا السالسبورى بكتابة مقدمة راجحة الوزن عما للفظة « القوطى » تلك من مفهوم • فان الحقائق تستطيع التحدث عن نفسها •

واذا اضطرتنى الظروف الى تلخيص شخصية يوحنا السالسبورى فى جملة واحدة ، لأسميته الرجل ذا الابتسامة الجادة • ولن أستطيع فى محاولتى لتلخيص شخصيته ابتداء أن أزيد عن مقارنته بابيلارد ، الذى اشتدت مشابهته الوثيقة به كما اشتد على ذلك تناقضه واياه • على أنه لكى يستطاع فهم أبيلارد ، لابد للمرء كما قلت آنفا ـ من تأمل عقليته ، فكل من حاول فهم يوحنا وجد خلف مذهبه ومعرفته ميوله وقلبه • وقد أوتى أبيلارد أساسا طبيعة سلبية وقدرة على التحدث فى المحافل العامة ، فأما يوحنا السالسبورى ، وهو الايجابى فى كل شىء ، فقد مكث بارادته فى ظلال الخلفية طول حياته ، وقد ظل يعمل ويتصرف وديدنه على الدوام تقديم الخدمات واضفاء الرعايات وبذل ما جبل عليه من نزاهة وشجاعة واخلاص •

وقد حدد تاريخ ميلاده فى موعد يتراوح بين ١١١٥ ، ١١٢٠ ، فهو من ثم أصغر من أبيلارد بجيل كامل • وهو شديد الفخار بما عليه مسقط رأسه من عراقة فى التاريخ الرومانى ، وهو مدينة ساروم القديمة أو سالسبورى القديمة ، التى سمى عليها فيما بعد • وهناك أسس وجيهة تدفعنا الى اعتباره من أصل أنجلوسكسونى(٥) • ويبدو أن اسم عائلته أوكنيتها هوبارفوس : وبذلك يكون لقبه هو الصغير أو القصير • وقد أطلق على نفسه اسم الرجل الشعبى Homo plebeius . ولابد أن اللاتينية والفرنسية بوصفهما لغتى الحديث والكتابة لديه قد دفعتا لغته الانجليزية الى الوراء منذ زمن مبكر تماما •

وفى ١١٣٦ ذهب الى فرنسا ليتلقى العلم على الأساتذة الذائعى الصيت ، وفى مقدمتهم أبيلارد ، عند جبل سان جنيفييف بباريس ، فضلا عن مجموعة أخرى منهم فى شارتر • وقد ترك لنا أوصافا لطرائق بعضهم وأخلاقهم • وحسبما يروى هو بنفسه ، فانه أنفق اثنتى عشرة سنة فى الدراسة • ومن هنا يبدو أن حياته العملية التى بدأها كاتبا فى خدمة البابا ثم موظفا فى خدمة رئيس أساقفة كانتربرى ، قد بدأت حوالى زمن مجمع ريمز فى ١١٤٨ ، وهو المجمع الذى وصفه وصفا بالغ النصوع ،

على أن الأيام لم تقدر له أن يكون نصيبه من الحياة عيشة كنسية هادئة فى ظل الكاتدرائية • ولكثرة ما يكلفونه به المرة بعد المرة من بعثات فى سبيل خدمة السياسة الكنسية ، كنت تراه آنا فى فرنسا وآنا فى ايطاليا • فقد قال ذات مرة أنه عبر جبال الألب عشر مرات • وتنم كتاباته بوضوح عن معرفته بالبابا يوجينيوس الثالث واتصاله الودى مع مواطنه نيقولاس بريكسبير ، وهو البابا أدريان الرابع •

وفى ١١٥٤ زكاه برناركلير فو نفسه ، فدخل خدمة رئيس الأساقفة ثيوبالد ، وقام عند ذلك أيضا برحلات رسمية متعددة عبر البحر • وهناك توماس آبيكيت ، وهو كبير شمامسة كنتربرى قبل تعيينه مستشارا للملك ، وقد عرفه يوحنا زمنا طويلا أحسن معرفة : فاهدى اليه باسمه أكبر عملين له : « بوليكراتيكوس » — (وفى نفس السنة (١١٥٩)) كتابه الآخر « ميتالوجيكون » ولكن عندما عين توماس بعد أن أصبح مستشارا للملك رئيسا للأساقفة فى ١١٦١ ، ثم تحول الى قبول الكفاح العظيم ضد الملك من أجل حرية الكنيسة ، حل سخط الملك على الخادم القوى النفوذ وسيده على سواء • ومن ثم اضطر يوحنا الى مبارحة انجلترا فى أوائل ١١٦٤ — والراجح أن ذلك بأمر من الملك رغبة منه فى ابعاده من جانب مولاه كبير الأساقفة — وذهب الى فرنسا مع شقيقه • وهناك وجد ملاذا يلجأ اليه عند صديقه القديم بيتر (بطرس) من سل celle وهو عندئذ رئيس دير سان ريمى ، وهنا بدأ من حياته فترة فى المنفى تجاوزت ست سنوات ، لم يلبث رئيس الأساقفة نفسه أن لحق به فيها • وقام بدور ناشط فى محاولات الصلح بين هنرى الثانى وتوماس آبيكيت • حتى اذا لاحت بوادر بامكان نجاح تلك الجهود سبق سيده وعاد الى انجلترا • وكان قائما فى الكاتدرائية مع الشهيد ذائع الصيت فى ٢٨ ديسمبر ١١٧٠ فى اللحظة التى لقى فيها الأخير مصرعه • وكما حدث كثيرا من قبل ، فانه حاول كف مولاه عما لا ضرورة له من الحدة • فهل تراه فر مع الآخرين فى ساعة العسرة والعنف ؟ يظهر أنه لا داعى مطلقا لوجود ما يبرر الشك فى وفائه الشجاع حتى النهاية نفسها •

ثم أخذ يوحنا يروج بكل قواه لادخال توماس فى عداد القديسين • وعندما دعاه ملك فرنسا الى شارتر فى ١١٧٦ ، حيث اختارته هيئة قساوسة الكاتدرائية أسقفا ، تقبل ذلك التكريم فى واقع الأمر — باسم شهيد كنتربرى الكبير ، الذى أقيم له فيما بعد شباك من الزجاج الملون تكريما لذكراه فى كاتدرائية شارتر الفخمة • وقد تولى ارشاد أبروشيته

الفرنسية مدة أربع سنوات ، ثم مات في شارتر في ٢٥ أكتوبر ١١٨٠ بعد حضوره مجمع اللاتيران الثالث في السنة السابقة على وفاته •

وينبغي لنا حين نلخص عمله ككاتب أن ننوه أولا بعمله الضخم « بوليكراتيكوس » ، وهو دليل في ثمانية كتب للبصيرة الصائبة : والحياة الصحيحة بالنسبة للحكام وولاة الشئون الادارية • وعنوان الكتاب بالكامل هو (Policraticus sive de nugis curialium et vestigiis philosopho-rum) أي « رجل السياسة والتدبير وحماقات رجال البلاط وأبحاث الفلاسفة » • وقد ترجم ر٠أ٠بول اللفظ الرئيسي فيالعنوان (وهي لفظة لا علاقة لها بلفظة بوليكراتيس) بكلمة كتاب: «رجل السياسة والتدبير» • ذلك بأن العناوين اليونانية هي الطراز الشائع في ذلك الزمان ، وأن يوحنا لم تكن لديه الا فكرة غامضة عن معنى لفظة Polis أي مدينة ، ولفظة Kratein أي الحكم والسيطرة اللتين اشتق منهما اسم كتابه • وقد تم الفراغ من العمل في ١١٥٩ ، وجعل اهداؤه الى توماس آبيكيت وهو بعد مستشار للملك • وأعقبه في السنة نفسها العمل الفلسفي المعنون ميتالوجيكون Metalogicon أعني ما وراء العقل والمنطق ، وهو أول مبحث في عالم الغرب المسيحي بني على جميعماحواه كتابالأورجانون(*) لأرسطو•ومما يمت أيضا الىالفلسفة بسبب قصيدته انتثيكوس Entheticus، وسنضرب عنها هنا صفحا(٦) غير أن جيسبرخت(٧) هو أول من اكتشف أن يوحنا هو المؤلف الحقيقي للكتاب الممتع تاريخ الأحبار Historia Pontificalis وهي مذكرات عن البلاط البابوي من ١١٤٨ الى ١١٥٢ ، أصابها العطب فلم يبق منها الا أجزاء(٧) • ثم انه كتب أيضا قصة حياة قديسين ، هما أنسلم وتوماس آبيكيت ، متوخيا في كتابتهما أغراضا عملية ومحددة تماما ؛ وسأعاود الحديث في الثاني منهما • فلئن كان كتاب رجل السياسة والتدبير Policraticus مستودع معرفته الشاملة الراجحة الحية ، وكتاب ميتالوجيكون Metalogicon مختزنا لدرايته وقوة بصيرته ، فان أغنى المصادر بالمادة اللازمة لفهم شخصيته وعقله هي رسائله ، التي تولى جمعها بنفسه(٨) •

ويعد يوحنا السالسبوري المثال الطرازي لاحد أدوار ثقافة العصور الوسطى ، وهو يعرض علينا شخصية لم تعد تعثر على مثلها بعد القرن الثاني عشر • وهناك مجموعة كاملة من الشخصيات التي تنتمي الى ذلك

(*) كتاب لارسطاطاليس جمع فيه المباحث المنطقية • (المترجم)

العصر ـ منها الشعراء أمثـــال هيلدبرت من لافاردن وماربوه من رن ، وأبيلارد الذى لا يقل عن أى واحـــــد منهم فى شىء ـ وقد أظهرت تلك المجموعة عددا من السمات تتراءى لنا كأنما هى تباشير الحركة الانسانية الباكرة • ومع ذلك فمتى امعنا النظر فيها ، ظهر أن هذه الخصائص شبه العصرية ان هى الا بقايا ثقافة واتجاه عقلى ، أوشك الزمن عند ذاك أن يعفى على آثارهما • فالأرجاء الحرة التى استطاعت لغة مثل هذه العقول أو فكرها أن تبسـط فيهـــا أجنحتها لم تلبث الفلسفة المـــدرسانية (الاسكولائية) أن سورتها بسياجها المغلق ، الذى صفد فيه شـكل التعبير بأغلال القيـــاس المنطقى Syllogism وربط الرأى الفلسفى بالعقيـــدة Dogma • وعندئذ لم يكن العـــالم والفـكر قد حصرا بعـد فى أطواق النســـق الراســخ الصـــارم الذى وضـعه الأكوينى وبونافنتيورا • ولم يكن شكل العالم ولا أشكال الحياة والروح ، قد تبلورت بعد فى الأسلوب الذى استنته الروح القوطية (Gothicism)

وسنبدأ عملنا بمحاولة فهم شىء من المزاج الشخصى ليوحنا • وأول ما يبدو للمرء منه على الفور طبيعتـــه المرحة ونغمته المتفـــائلة ، حتى والاضطهاد ينوشه • ولا يكاد ينطوى على شىء من كل ذلك التاوه والتفجع والتهديد والنصح ، التى كثيرا ماترددت أصداؤها مدوية فى الأدب الكنسى المكتوب قبل زمانه وبعده • أما أدبه فكله لين ومرونة من أوله لآخره • فهو يجيب عن رسالة شكوى تسلمها من صديقه بيتر (بطرس) من سل :

« ولـكننى من باب الحصافة أتعمد الا اقول شيئا عن الحزن والألم اللذين حملتهما الى رســــالتك خشية أننى لو أضفت ألمى الى ما أحدثته لك النوائب من آلام ، لنؤت بما لا طاقة لك بتحمله من موجع البرحاء ••• أجل أن تذكر الشرور قد يفرج الكربة ولكن ذلك لا يتم الا بعد ذهابها • وعندئذ ••• وعندئذ فقط ، متى تغلبت شجاعتك على عدوك ، فهل ترى أن من الممتع أن نتذكر انه قد ألقى بك على الأرض • وربما وجد المرء متعة أيضــــا فى التفكير فيما ألم به فى المـاضى من شقاء ، ولـكن ذلك لا يكون الا متى كنت رافلا فى الابتهاج بسعادتك » (٩) •

اليست هذه من اللازمات البيانية العتيقة ؟ بيد ان الفاظ «الثبات» و « الأمل » و « الوفاء » و « الثقة » تتردد على الدوام • وأن فى صوته لشيئا من الروح العسكرية • فهو مصمم معقود العزم « متى كان فضل الله

رائدا لى وهاديا ، أن أقاتل مع مولاى سيد كنتربرى فى سبيل ربى وحرية الكنيسة ••• » (١٠) وتتكرر فى كتاباته المرة بعد الأخرى عبارة « لقد عقدت العزم على fixum mihi est propositum » • وهو لا يشـكو من نفيه : « نحن نتحمل بالرضا ما يضعه الله على عواتقنا ، موقنين بأن شيئا لن يستطيع أن يضرنا ما سعينا فى طلب الخير ، أعنى القانون الالهى »(١١) وهو يكرر الشكر لأصدقائه فى انجلترا على ما يحبونه به من هبات وما يخصونه به من صلوات ، لا تجعل منفاه محتملا فحسب ، بل وتجلب اليه فى الحقيقة الشرف ووفرة الخير (١٢) •«لقد صرح أحد العصاة بأنه انسان مبعد عن وطنه قد أسلم الى يد الفاقة ••• ولـكننى فى ذلك كله أحس بربى يختصنى بفضله ، ومن عميم نعمـه على تقبلى للمنفى بسرور فى سبيل العدالة » (١٣) • ويقول فى مرة ثانية « من كان منفيا وهو فى وطنه ، فان نفيه أبلغ خطورة • فالمرء يسأل الناس وهو بين الأجانب بجرأة أكثر مما يسأل وهو بين أبناء شعبه • ومن نعم الله أنه قد مسح عنى فعلا مرارة النفى ؛ فاحتماله اليوم أسهل منه فى أول يوم • » ذلك أن له من الأصدقاء والمعارف ما وفى له بجميع مطالبه (١٤) • ثم تجىء هذه الفقرة فى الختام :

« ان هذه وان تكن السنة الرابعة لمنفاى ، والثالثة التى اعتبرت فيها من الخوارج على القانون، انى لفى كل يوم أقل جزعا منزوابع الحظ وأقل تأثرا بالأرزاء ••• وأكثر حرية منى حين رزحت تحت أعباء ما ملكت من الممتلكات الأرضية ، فأنا فى حال سعيدة ، ان لم أقل أنى فى فاقة سعيدة ، وانى لأمارس تعليمة الفلسفـة التى تقول ان كل بلاد وطن للقوى ••• » (١٥)

وقد مدح أشياء كثيرة منها الفاقة ولـكن بطريقة تبدو بالغة الاختلاف عما صدر من القديس فرانسيس الذى جاء بعـد ذلك بنصف قرن من الزمان • ان النغمة لاتزال كلاسيكية الى حد ما • وربما تسنى لفقهاء اللغة أن يقدروا مدى قرب ذلك من سنيكا أو أى مؤلف آخر ، على أنى لا أظن أن هناك من يخالفنى فى أن الـكرامة والقوة الروحية والعزم الأكيد التى تتجاوب أصداؤها فى كتابات يوحنا لن يقلل من اصالتها ولا مسيحيتها ارتباطها بالنموذج الكلاسيكى الذى تحتذيه •

وحياة يوحنا السالسبورى حياة جد وعمل وهموم ومتاعب لا إنقطاع لها • فانه قضى زمنا طويلا يحمل على منكبيه العبء الثقيل لـكل الشئون الكنسية فى كل أرجاء انجلترة(١٦) • ولسنا نعثر فى أى مكان على أدنى

اشارة تشير الى أنه فى أثناء قيامه بتلك الأعباء قد التمس لنفسه الشهرة يوما فضلا عن ميزة شخصية حققها • ذلك أنه لم يكن على شىء من التمركز الـــذاتى Egocentricity الذى جبـــل عليه ابيـــلارد ، ولا الطغيـــان الروحى صـــفة سان برنار • بل انه ظل دوما الخادم المتحمس لكل من عرف أنهم يعلونه مرتبة ـ مثل رئيس الأساقفة ثيوبالد والبـــابا ادريان الرابع وتوماس آبيكيت ـ وان حدث أنه كثيرا ما بدا لأعيننا متفوقا عليهم من الناحية الذهنية • ولعل مما ينم على لمسة من لمسات الفنون ميله الى اظهار نفسه بمظهر المستشار الحكيم المتزن لذلك القديس توماس آبيكيت المندفع المتغطرس(١٧) • وأريد أن أؤكد هنا مسيس حاجـــة توماس الى مستشار كهذا • وأن ذلك الأثر الضئيل من الافتتان بالذات الذى له ما يبرره ، يوازنه بقوة بل ويرجحه كثيرا اخلاصه وولاؤه لأمير الكنيسة المحارب وشهيدها المبارك • ولا شك أن يوحنا كان فى حالة اعياء يوم قبل كنيسة شارتر منصبا جديدا يتقلده ـ بل وايضا ملاذا يلجأ اليه • ويبدو أن الذى دفع القوم الى هذا الاختيار بصفة خاصة هو الرغبة فى تكريم الشهيد الذى اكتسب يوحنا صداقته الحميمة بفضل ما جبل عليه من ســـجايا حميدة (١٨) • ولذا لم تغب تلك الحقيقة عن يوحنا نفسه • وشاهد ذلك أنه منذ تلك اللحظة أخذ يصف نفسه فى رءوس رسائله بهذه العبارة : « بفضل من الله وسجايا القـــديس توماس ، الخادم المتواضع لـــكنيسة شارتر • » (١٩) فهنا مناط انتسابه الى المجد •

ولم يطل الأجل بيوحنـــا حتى يرى روعـــة نوافـــذ الزجاج الملون والثروة الضخمة من التماثيل والنحاتات التى سرعان ما ازدانت بهـــا كاتدرائيته • غير أن النافذة المهداة لذكرى القديس توماس من كنتربرى(٢٠) انما هى كذلك تخليد غير مباشر لذكرى الخادم الأمين الذى ظل حتى وهو يشغل منصب أسقف فرنسى ، راغبا فى البقاء فى ظلال القديس •

وبما جبل عليه من صفات اقطاعية يكاد يبدو فيها الطابع العسكرى فان يوحنا سالسبورى يندرج تحت طراز رجل الكنيسة الذى أميل الى تسميته باسم « القس الفروسى » ، وهى شخصية غير نادرة المثـــال بأى حال فى القرن الثانى عشر ، شخصـــية أميل ، كما أسلفت الى تسميتها بذلك الاسم تمييزا لها عما فى الفروسية الروحية من اشـــكال للحياة جمدتها وثبتتها هيئاتها الكبرى • وكانما الفكرتان الكبيرتان فى الحيـــاة الاجتماعية اللتان صيغ منهما شكل العصور الوسطى ، وهما الفـــارس والعالم القسيس ، لم تنفصل احداهما عن الأخرى فى بعض الحالات حتى الآن •

وينتسب أبيلارد الى ذلك الطراز نفسه ، وكذلك سوجر من سان دنيس (وهو شخصية انسانية ومرحة بصورة مرضية) وهو الذى وصفه كاتب سيرته على أساس فكرة « ان القلوب هى التى تصنع الفرسان nobiles efficit animus » (٢١) ، وهى الفكرة التى يسمع فيها المرء خطأ صوت البشير الآذن « بعصر النهضة » · غير أن هذه السمة الفروسية توجد أيضا فى شخصية أوتيت قدرا غير مألوف من الجاذبية ، هى شخصية بيتر (بطرس) الوقور رئيس دير كلونى ، « وهو محوط تماما بوقار مرح ، ومرح وقور » (٢٢) « شخصية شبيهة بالأمراء » (٢٣) ولعلنا نذكر أن بيتر (بطرس) الوقور أول من بشر بضرورة زيادة الالمام بتعاليم الاسلام ، وهو الذى آوى لديه أبيلارد المضطهد الهائم على وجهه ، وهو الذى كتب بعد وفاة أبيلارد تلك الرسالة المهيبة بل والمؤثرة أيضا الى هلويز ، وهى رسالة تشف عن أن ما أوتيه الراهب العظيم من قلب نقى قد انطوى على قبس من الفهم لتلك الناحية الدنيوية من سوء الحظ الذى ألم بهذين العاشقين الذائعى الصيت ·

ومع ذلك ، لا يسعنا الا أن نقرر أن أحدا لم تجتمع فيه صفات رجل الدين الفروسى والقس النبيل بدرجة الكمال التى اجتمعت بها فى توماس آبيكيت نفسه · فانه تجنب قصدا المغالاة فى اتخاذ المظهر السافر للاعتدال ديدنا له رغبة منه فى عدم الظهور بمظهر النفاق ·وكان يرتدى من الثياب أغلاها نفقة ، ويبدو على الدوام مرحا باشا ، وبذل قصاراه لاخفاء فارس المسيح تحت فخامة أثوابه وحلله ، حتى لا تقلل الشهرة الرعناء مما لتلك الفروسية من قدر · وامتلأت مائدته بالكثرة الموفورة من الألوان · وأضفت عليه فخامة ثيابه وجهازه وعتاده ، وأبهة حاشيته ، و ىو فى منصب المستشار ، شهرة بعيدة بالكبرياء وحب الظهور كما أنه ظل يبدو فى عين أعدائه متكبراً بما أفاء عليه منصبه الكنسى من مجد ، وكفاحه من عنف ·

وان صورة توماس التى جمع ملامحها يوحنا السالسبورى لتسمح لشخصية النبيل المتركزة فى القديس أن تتألق على الدوام · ويتصف يوحنا بادراكه اليقظان لما فى الفروسية من جد · وهو يروح بصورة مرحة لعوب فيسمى نفسه بالفارس ، فارس صديقه جودوين كما وعده « بدوام الاخلاص لصاحب التاج » ، وتحدث عن حزام فارس كان أعاره اياه صديقه فى مدينة (٢٤) سانز · وهو يروى عن توماس أنه ظل ساهرا ليلة بأكملها بمدينة سواسون أمام الهيكل بكنيسة القديس

دروسيوس ، الذى يجعل المقاتلين قوما لا يقهرون • وهذا اللون من سهر الليل بالعبادة معروف فى أصول الفروسية : فهناك روبرت دى مونتفورت الذى ظل ساهرا فيما يروى يوحنا ، بنفس المكان قبل خوضه منازلته الفردية مع هنرى صاحب اسكس • (٢٥)

وكانت أوجه الشبه بين تنصيب الفرد قسيسا وفارسا أمرا بالغ الخطورة لديه ، فهو يتحدث عن التنصيب العسكرى المقدس الذى يتم تثبيته عند الهيكل • وقد خصص شطرا كبيرا من الكتاب السادس من كتاب رجل السياسة والتدبير Policraticus للحديث عن كرامة الفروسية (٢٦) • ولسنا بحاجة أن نذكر أن المؤلف يرجع هنا المرة بعد الأخرى الى العهد القديم والى فيجيتيوس (*) • فان بداية الفصل التاسع لها وزنها : « لا فارق بين أن يخدم الجندى مؤمنا أو يخدم كافرا ، مادام يقوم بالخدمة دون اضرار ولا افساد لعقيدته وايمانه » • وهو فى هذا الصدد يفكر فى الكتائب المسيحية التى عملت بقيادة دقلديانوس وجوليان ، ومع ذلك فان العبارة تنطبق على جميع الحالات الملحة •

ويعلم كل من تعمق فى دراسة مصادر تاريخ الحياة الكنيسية أيا كان عصرها ، أن طريقة حياة رجل الكنيسة كانت على الدوام شيئا يتجاوز مجرد شكل دينى فقط • فالحياة فى كنف تلك الجماعة لها على الدوام ناحية اجتماعية هامة أيضا • وهو قول يصدق بوجه خاص على حياة الدير • ذلك أن الدير بوصفه مجالا للنشاط الاجتماعى كانت له مجموعة أخرى من الوظائف بالاضافة الى تطوير علم اللاهوت وممارسة الزهد • فقد ظلت مقصورة الدير (القلاية) منذ أيام جيروم تربة تغذى طرازا نبيلا وعليما من الصداقة أثر فى العالم أثرا قويا بوصفه قوة اجتماعية وفكرية ، كما أنه وجد أثره الباقى الخالد فى تبادل الرسائل • وينبغى الا يغيب عن الأذهان أيضا أن الأديرة ظلت منذ القرن الحادى عشر أماكن تستقر فيها الروح على مستوى محلى ومادى خالص : فان حركة تبادل الزيارات واجتماعات مجالس الكنائس ، لم تبرح على الدوام ذاهبة غادية ، هذا الى أن الاديرة استخدمت مضايف للمسافرين والحجاج •

(*) فيجيتيوس Vegetius : مؤلف مقال عن الشئون العسكرية اهداه الى الامبراطور فالنتنيان الثانى (المترجم) •

ولم يكن يوحنا السالسبورى من رجال الأديرة•ولكن أصدقاءه كانوا منهم ، ومع هذا فاين تدفع به حياته كدبلوماسى تابع للكنيسة أكثر مما تدفع به الى الأديرة ؟ وغنى عن التأكيد أنه شأن جربرت الذى سبقه فى هذه الدنيا بنحو مائتى سنة يعد من أنبل دعاة الصداقة بين رجال الدين • وينبغى الا يغيب عنا أنه من المستبعد عليهم فى هذا الموقف من الصداقة الحميمة بين الأقران ان يكونوا تتلمذوا جميعا على شيشرون ، وأن يحاكوا طريقته سيما وأن رسائله لم تكن معروفة الا الى حد محدود ، وان سلمنا بداهة بأن ما تحتويه رسالته عن الصداقة de amicitia من فكر ، كان معروفا لديهم • يقول يوحنا : « ان الحب Caritas الذى هو أعظم الفضائل طرا ، هو ما أود بملء الثقة والتبرير الا أطلقه على أى أمر آخر عدا الصداقة الحقة التى تفوق كل شىء يستطيع الفرد منا اتخاذه شرعة له فى الحياة ومنهاجا ، لا فى جلاله فحسب ، بل وأيضا من حيث ندرة جوهره » • من أجل ذلك توفر على التعلق به منذ مطلع شبابه • اذ بلغ من قوة تعمق ميله نحو الآخرين وتأصله كعادة فيه ، أن انضوى تحت دائرة حبه حتى من لا يهتمون به • (٢٧) وينبغى موازنة نبرة تعبيرات يوحنا عن الصداقة التى وجهها خاصة الى بيتر (بطرس) من سل ، بتلك الدرة الرائعة المسطرة فى بضعة أسطر التى كتبها هيودى سان فيكتور فى رسالته حول موضوع «لن يذهب الاحساس سدى» (٢٨) Charitas nunquam exidit أو باعترافات سوجر من سان دنيز عندما يكتب الى برنارد دى كلير فو فى نغمات تكاد تذكر المرء بالقرن الثامن عشر (٢٩) ، أو برنة صوت بيتر الكلونى فى رده على هلويز بعد زيارته لمحراب الباراكليت • (٣٠)

غير أن هناك شيئا من النغمة الخفيفة الممازحة لم تعوز مراسلات يوحنا • كقوله مثلا ان بيتر (بطرس) من سل ينبغى أن يتذكر أنه وهو الانجليزى ، يحتاج الى مقدار كبير من الخمر • والا لغص حلقه بأرغفته الناشفة • وهو مغرم بالجعة أيضا ومع ذلك فان اهتمامه بخمور بيتر أعظم • وقد سمع بأن بيتر بنى معصرة للخمر « يكثر بواسطتها عصر النبيذ بقصد اثارة الندم وتأنيب الضمير فى قلوب الآثمين ، أو بقصد فرحة التعبد ، وخلاص الاخوان ومنفعة كل من سمع •• » (٣١) على أنه لا يكتب بمثل هذه النغمة الطائشة الا نادرا • اذ العهد به أن تدور رسائله حول الكتب أو حول التقوى أو حول ما يساوره من هموم لا حد لها على الكنيسة • فهى على الدوام أشبه برسائل رجال الاعمال ومنطبعة بالطابع الشخصى فى الحين نفسه ، كما إنها محكمة العبارة على الدوام • وبعد

فيا لذلك الجرس الجاد الوقور والقلبى الاصيل الذى يتجلى فى مشوراته ونصائحه لتوملس آبيكيت .. ، الذى عرف يوحنا منذ البداية نفسها خطورة مركزه . فعسى أن يوجه رئيس الأساقفة كل أفكاره نحو ربه . فالوقت ليس مناسبا لدراسة القوانين الدنيوية والكنسية : « فمن ذا الذى تخامره وخزات الندم على مثل تلك الأشياء ؟ انى لأوثر أن أقلب الفكر فى المزامير وأن أتلو كتاب الأخلاق Moralia للقديس جريجورى على التفلسف على الطريقة المدرسانية .. ويعلم الله مدى جدى واخلاصى فى حضى اياك على ذلك . فخذ الامر على الوجه الذى يرضيك . » (٣٢)

ويغلب على الرسائل طابع السرور والقوة . فليس فيها الا القليل النادر من التمرد على الحياة ، ولا النحيب الدامع على اقتراب العالم من نهايته ، ولا الخوف الدائم من الموت والجحيم والحساب ، وهى لا تضم صورا جهمة تمثل الارهاب والعقاب السرمدى (٣٣) . وينبغى للمرء أن يتخذ الاعتدال له رائدا أثناء تقليبه الفكر فى الموت . وهو يكتب فى قصيدة الانثيتيكوس (Entheticus) (٣٤) :

انه يلوث كل شىء بخفة ذلك الذى يعتقد أنه
سيموت سريعا ويتذكر أن كل شىء سيهلك عما قريب
ولكن اذا ترك التفكر فى الموت طليقا
بحيث تذهل القلوب بالارتعاش المفرط
وتنتقل العدوى الى الأمل ، فيسقط وقد أزعجته كثير من العواصف
لفاقت رؤيا الموت الحد المسموح
ولجاوزت الحدود التى تقرر الشريعة المحافظة عليها .
كما أن رؤيا الموت تولد الموت الحقيقى .

فلو أن هذا التحذير قيل فى عصر تال لما أثر فيه تأثيرا قلبيا . وفى اعتقادى أن عمل عدد من الكتاب الكنسيين الآخرين فى القرن الثانى عشر ـ منهم مثلا هيودى سان فيكتور وبيتر الوقور ـ يشاركه أيضا فى قلة عدد الأخيلة القاتمة المترعة بالتهديد .

واليكم الآن من كتاب رجل السياسة والتدبير Policraticus تعبيرا عن التفاؤل المسيحى الذى يسمح بقبول الحياة الدنيوية قبولا تاما رغم قيامه بأمره على الايمان . ويعلم يوحنا قائلا : « ان الصالح العام Salus Publica مستودع قداسة الحياة Incolumitas vitae . وهو

لا يوجد الا حيثما حكم الله الروح • وحياة الكمال للروح هى تلك التى تملأ روح الله كل أجزائها • وذلك أن الفهم عندما يخاف الله ـ بقـدر ما يؤذن له وما تتيحه له قوته والله هو كمال الخير ، وعندما يبحث الميل ـ غير ملوث ـ عن الخير الذى يراه ، ويشير العقل الى الطريق حتى لايضل أحد يمنة أو يسرة ، اذ يجتذبه الى الخير دافعه الصحى السليم ، فعسى أن تبلغ حياة الروح عندئذ مجد الخلود • » (٣٥)

ومما قيل عن يوحنا السالسبورى ، أنه جمع فضائل المتمسكين بالمذهب الانسانى دون أية واحدة من رذائلهم (٣٦) • ولعل هذا هو خير تصوير لخلقه • ذلك أنه يمتاز بما يمتاز به المذهب الانسانى من روح حرة وقوية وما له من احساس بالحقيقى والتفصيلى ، وما عليه معرفته واهتماماته من سعة أفق • ولغته اللاتينية واضحة وقوية وأسلوبه محكم وبسيط وتعوزه اللغة البيانية المزخرفة التى يستخدمها كثير منمعاصريه كما يعوزه طريقة التشويه المتعالم التى شاعت بين من عقبه من الكتاب •

وقد أطلق يوحنا على نفسه اسم الأكاديمى (Academicus) . وليس معنى ذلك بداهة أنه كان أفلاطونيا صميما • فذلك من المستحيل • بيد أنه يدل على بغض لكل مماحكة فى تصريف الأفكار المتصلة بالدين ، واتخاذ الاعتدال وسيلة للدراسة الحافلة بالمعانى : فانه كتب فى التمهيد الذى استهل به الميتالوجيكيون : «ان أى ادعاء للفلسفة لا يثمر ثماره فى ازدراع الفضيلة وهداية سلوك المرء ، فشىء زائف لا غناء فيه • ونظرا لأنى رجل أكاديمى فى مسائل يأخذها العاقل ماخذ الشك ، فانى لا أستطيع أن أقسم على صدق ما أقول • وسواء أمكن أن تكون تلك القضايا صحيحة أم كاذبة ، فانى راض أن أقف عند مستوىالتحقق المرجح » (٣٧) • وانظر كم احتقر زملاءه القدماء فى الدراسة عندما وجدهم عند عودته من ايطاليا رابضين على جبل سان جنيفييف وهم لا يبرحون مشغولين بنفس المسائل الكلامية العقيمة • (٣٨)

وهو يقول فىالفذلكة التمهيدية للجزء الرابع من كتاب رجل السياسة والتدبير (٣٩) : لايستطيع ولوج سبيا الفلسفة الا من عمل ـ متجاوزا حقول الغرور ـ على استرضاء الحرية وخدمة الروح : « فحيثما وجدت روح الله ، فثم الحرية ubi enim Spiritus Dei, ibi Liberatas » (٤٠) • فالروح هي التى تقول الحق(٤١) أمام الأمراء دون أن تخجل ، وتضع الفقراء فوق الملوك من حيث الروح •

وسنسمع المزيد من ذلك اللجوء الى الحرية تجاه الملوك والطغاة ، عندما نصل الى نظرية يوحنا عن الدولة • وقد أظهر جدارته بالحرية بتلك المساواة الحكيمة وذلك العطف المتزن الذى أنصف به كلا من الخصمين : برناردى كليرفو وجلبرت دى لابوريه فيما سطر من بيان عن مجمع ريمز (٤٢) ، وبما أظهره من تنبه جاد الى مسئوليته كمؤرخ (٤٣)•

وربما خالجنا الأسف لأنه لم يطلق العنان بدرجة أشد لاحساسه بالحرية الفكرية فى ناحية واحدة : هى ناحية الاعتماد التام والثقة المطلقة فى العصر القديم ومأثوره ، فلقد كنا نؤثر كثيرا لو أن يوحنا السالسبورى (وكثيرين من أمثاله من الكلاسيكيين) أعطانا عن عصره تفاصيل أكثر مما أعطانا وقلل من الشخصيات القديمة والأمثلة القديمة التى يحفل بها كتاب « رجل السياسة والتدبير » • ولكن الرهبة العميقة والتواضع المقترن بالاحترام هما اللذان يحدوانه الى اتباع نهج العهود القديمة ومأثوراتها • فهو يقول معتذرا : « هناك أشياء معينة لم أجدها فى الكتب ولكنى جمعتها من الاستخدام اليومى والخبرة اليومية كأنما التقطتها من ضرب من تاريخ العادات وآداب السلوك » (٤٤) والمشهور أنه هو الذى نقل الينا تلك العبارة الذائعة الصيت التى نطق بها برنار من شارتر الذى « اعتاد مقارنتنا بالأقزام (الضئيلة) الجاثمة على أكتاف المردة • وأوضح أننا نرى قدرا أكثر والى مسافة أبعد مما رأى أسلافنا ، وليس ذلك لأننا رزقنا نظرا أثقب ولا طولا أفرع منهم بل لأننا مرفوعون محمولون صعدا على هامة قاماتهم المديدة » (٤٥)

ووجهة نظر هؤلاء الانسانيين من أبناء القرن الثانى عشر كاملة الوضوح • فليس فيهم شىء من غموض من جاء بعدهم من العلماء : وكل ما لديهم من طابع الكلاسيكية خاضع تماما لجهودهم فى سبيل العثور على وسائل لتثبيت الايمان • وفوق ذلك فانهم عرفوا ما ينقصهم : وهو المعرفة بالمصادر الحقة • وقد حث أبيلارد معاصريه على دراسة الاغريقية والعبرانية دون أن تتاح له فرصة اكتساب تلك المعرفة هو نفسه (٤٦)• وأطلق يوحنا على أعماله اسماء يونانية جميلة الجرس ، ولكنها لغز عويص يخفى على قرائه بل عليه هو نفسه • (٤٧) وبيان ذلك أنه اشتق لفظة أرتس artes من أريتى Arete أى الفضيلة (٤٨) ، ولفظة analytica عن لفظتى Ana و Lexis أى الكلام « الرصين الصحيح » (٤٩) • بيد أنه راح فى نفس الحين يراسل رجلا اسمه يوحانيز ساراكينوس (أى الشرقى أو العربى) أرسل اليه ترجمات

عن الاغريقية معها تعليقات شديدة الحصافة على منهجه فى الترجمة وتفسيرات لبعض الكلمات • (٥٠)

ولو وازنا أسلوبه بأسلوب من جاء بعده من الانسانيين،لكانت النتيجة طبقا لمعاييرنا أن يصبح كل شىء فى صالح رجل القرن الثانى عشر وشاهدا له بالتفوق • فليس هناك أى التواء أو تلاعب فى العبارة ينطوى على التصنع ولا اية جمل طويلة يتجلى فيها التعالم ، وليس فيها شىء ينم عن الاطناب والتقعر • اذ ان اللغة موجزة وواضحة : فثم العبارات القصيرة والمصطلحات البسيطة والمضبوطة ـ وثم أسلوب قوى الحيوية متين التماسك يجذب اليه النظر ، أسلوب جاد ومع ذلك فهو خفيف ملىء بالفكاهة (٥١) . وبغضت المبالغة والتزيد إلى يوحنا. فالمتملق يقول: «ألف شكر «ingentes gratias»». فلماذا ذلك، بينما لفظه كثير Magnas ، تغنى تماما ؟ • (٥٢) وقد كتب الى البابا ادريان : « نعلم أن قداستك كثير المشاغل •• وهو أمر يتحتم معه على كل انسان يحادثك فى أمر ان يوجز فى قوله • والواقع ان مانريد قوله موجز ، لايزيد فى طوله الا الانفعال الذى يحدثه فينا • » (٥٣)

واذا هو كتب باسم مولاه رئيس الأساقفة يتخذ أسلوبه على الفور نغمة الهيبة الشريفة الباذخة ، وان بقى مع ذلك موجزا (٥٤) • وعندما يشرع فى وصف حياة الشهيد المجيد ، سيده المبجل ، يزين أسلوبه المتعجل أو يكاد فى غير هذا من مقام ، بلألاء فخم ذى جلال ويمضى به بخطى متئدة وقور • واستهلاله لكتابه « حياة القديس توماس » أشبه الأشياء بنافذة من الزجاج الملون مقامة فى كاتدرائية ، مضرجة بلون أحمر دموى •

ومن ناحية أخرى ـ كنا نود لو أن نفس يوحنا السالسبورى.انطوت على قدر أقل قليلا من الاحترام لنماذج العصر القديم ، فاعطانا من نفسه ومن زمانه قدرا أكبر بدلا من اخفاء شخصياته فى قديم أزياء كورنيفيكيوس واجناثو وثراسو وتاييس •

ورغم ذلك لا يفوتنا أن نشير الى أن احترامه للعهود الخوالى كلن يتوقف فجاة متنحيا عن وثنية تلك العهود • ولم يبلغ منطقة جمال الفن الوثنى • ولست أملك أن أمر مر الكرام على حادثة بالغة الغرابة يوردها يوحنا فى كتابه « تاريخ الأحبار Historia pontificalis »(٥٥) اذ انتهز أسقف ونشستر ، وهو هنرى من بلواه Blois شقيق الملك ستيفن

والقاصد الرسولى بانجلترة فيمـــــا سبق ، فرصـــة مكنه بروما فى ١١٥٣ ، فاشترى من هنـــــاك التماثيل القديمة ليحملها الى ونشستر ، ويقول يوحنا تعقيبا على ذلك : « انها أوثان حرص الوثنيون على صنعها بعناية نتيجة لخطأ ملك عليهم أيديهم دون عقولهم » • ثم يشير بعـــد ذلك الى أنه ربما يمكن القول بأن الأسقف كان يبذل قصاراه لحرمـان الرومان من آلهتهم رغبـــة فى الحيلولة دون اعادتهم شـعائر عبـادتهم القديمة،مشيرا إلى أنهم على أتم استعداد لمعاودة تلك العبادة ، وذلك نظرا لأن شحهم الفطرى المتأصل الذى لا سبيل الى محوه جعلهم بالفطرة من عبدة الأوثان باطنا وقلبا • ومن الجلى أن روح القرن الثاني عشر لا تمت الى « عصر النهضة » بأدنى صلة • ومع ذلك ، فان هذا الشـبيه للورد ايلجن (*) النازل في ونشستر لاشك أنه رأى فى تلك التماثيل «شيئا» •

ويبقى على الآن أن أقول شيئا عن آراء يوحنا السالسبورى السياسية والاجتماعية • فان اسمه ظل حيا يتردد صداه فى الدوائر الفكـــرية العريضة الأرجاء لأسباب ليس أقلها آراؤه حول القضـاء على الطغيان • وسننظر الآن نظرة فاحصة الى عمله الأكثر أهمية ، وهو كتاب : « رجل الســـياسة والتـــــدبير Policraticus » وهو المعنى الذى قصده من العنـوان • (وسأضرب صفحا الى حين عن العنـوان الثانى للكتاب) • فالكتاب يدور ابتداء من الجزء الرابع حول الحاكم الحق ، وحكم الدولة وتركيب المجتمع • وهو فيما جمع فأوعى من أسلوب جدلى ــ وفيمـــا رصع به من شخصيات الأقدمين والاقتباسات من أقوالهم وما فيه من روح النقد المثالى ، والانسانية الخالصة وحب الحرية ، أقرب الاشياء الى المقالات السياسية التى دونها ارازموس • على أن رجلنا مؤلف القرن الثانى عشر وهو رجل ناشط فذ فى خدمة الكنيسة ، يبدو أكثر ايجابية وأكثـــر قربا الى الأستاذ العـالم الحق بالسياســـة من الانســـانى Humanist العظيم الذى ظهر بعده بثلاثة قرون • أجل ان فكره ــ شأن فكر ارازموس أحفل بالروح الاجتماعية منه بالروح القانونية من حيث توجيهه • فهـو فى شكواه المرة من شرور الحياة السياسية الناشبة أظفارها فى مجتمع زمانه ، يتحدث عن قوانين البلاد وعاداتها وعرفها متهما اياها بأنهـــا مجموعة ضخمة من أحابيل البهتان (٥٦) ، ويعد اباحة مطاردة الصــيد خرقا لكرامة الطبيعة البشرية • (٥٧)

(*) لورد ايلجن Elgin : فى ذلك اشـــارة الى لورد ايلجن الذى شغف فى أوائل القرن التاسع عشر بجمع التحف النادرة من بلاد اليونان • (المترجم) •

وكم من مرة حاول يوحنا الى حد ما تلقف المصطلحات التي حاول بها مؤلفو العصور الخوالى كشيشرون وسنكا ـ التعبير عما نفهمه من كلمتى « المجتمع والحضارة » • فهو يقول فى احدى المناسبات (٥٨) Conviventium coetus ومعناها الحرفى « حيـاة مجتمعنا » • ويفيض قلمه المرة بعد المرة بقوله : الحياة السياسية ، الجماعة البشرية الخاصة به Politica vita, ius humanae Societatis « لما كان المرء لايكاد يستطيع حتى أن يتصور كيف أن أى نوع من السعادة يستطيع العيش بمعزل تام عن الترابط والمشاركة المتبادلة وانفصال عن المجتمع البشرى ـ فمن يهاجم ما يسهم فى تأسيس النظام الصائب وتزكيته فى ذلك المجتمع (الذى هو بطريقة ما الوسيلة الفذة الوحيدة للاخاء بين أبناء الطبيعة) ، يظهر بمظهر من يقف حجر عثرة فى الطريق المؤدى الى سعادة الجميع » (٥٩) • أجل انه يتناول الفكرات الكلاسيكية • ولكن كم من كتاب ذلك الزمان اسـتطاعوا تطبيقها بمثل هذا الوضوح والايجاز ؟

ومع أن لفظة Civilitas ينبغى ترجمتها بالتأدب civility فان المعنى الذى تكون عنده عنهـا ، والذى وجد له فى الكتب المنزلة بعض السنن والنواميس ، وهو تأدب لا يحول دون المرح(٦٠) ـ يقع على حافة معنى فـكرة « الحضارة » •

وعلى الحاكم (ويوحنا يتعقب فى هذا أيضا النهج الصائب للفلاسفة) أن يطيع القانون وأن يحكم الناس بما يمليه عليه القانون ، دون أن يعـد نفسه الا خادما لهم • فهو القوة العمومية وهو فى الارض ضرب منالشبيه للجلال الالهى • (٦١) ولا يجوز تحليله من الزامات القانون الا فى حدود محدودة جدا • فهو المدبر المنوط بالمصلحة العامه والعبد الخادم لقسطاس العدالة ، وهو أيضا المدبر لشئون القساوسة ، كما أنه أدنى منهم • (٦٢) « ومن ثم فهو مدين لربه بكل نفسه ومدين بمعظم نفسه لبلاده ، ومدين بالكثير منها لأقاربه وأصدقائه ، ومدين باقل القليل للأجانب ، ومع ذلك فهو مدين لهم شيئا ما » • اذ ان هناك عبارة تقول : Minimum, non nihil tamen ، وهى عبارة تكمن فيها نواة القانون الدولى السائد بين الأمم •

وتمشيا مع المناقضة الارسطية القديمة عن الملك والطاغية ، فان هذه الافكار تؤدى مباشرة الى فكرتى المقاومة والعصـيان • والفكرتان الأخيرتان كنسيتان تماما فى وجهة نظرهما ، فليس ثم مسيحى طيب لا

تلتهب نفسه غضبا على أعداء خير الجماعة . فالطاغية عدو عام . والطغيان أنكى حتى من الخيانة العظمى crimen plus quam publicum وبالتالى فليس قتل الطاغية مجرد شيء مشروع فقط بل هو أيضا تصرف صائب وعادل . فمن لم يهاجمه فهو آثم ضد نفسه وضد الهيئة العامة للدولة العلمانية بأسرها . (٦٤)

لقد كتب يوحنا ذلك كله في ١١٥٩ ، وتوماس آبيكيت بصدد في منصب المستشار الملكي . ومع ذلك طفق حتى في ذلك الحين نفسه يهاجم ما يرى بانجلترة من مواقف . وفي نفس تلك المدة تقريبا خاطر بالكتابة عن توماس في قصيدته رسالة الانثيتيكوس Entheticus (٦٥) حيث قال :

« هذا الذي يلغي القوانين الظالمة

للوحوش الذين طال بهم الامساك بانجلترة في الأسر بوصفهم ملوكها ،

وهي اذ تعتبر من تحملتهم كطغاة ملوكها .

انما تكرم أعظم التكريم من أنزلوا بها أعظم الضر » .

وذلك أمر ينطبق على من خلوا من الطغاة . وفي رأى يوحنا أن طاغية ذلك الزمان ، طاغية الساعة والمستقبل ، هو الامبراطور فردريك باربروسا الذيأسماه يوحنا بالطاغية التيوتوني Teutonicus tyrannus بما اشتهر به من عواطف مضادة للألمان . ومع ذلك ، فما أعظم الأثر الذي خلفته بانجلترة دون ريب بعد ذلك بقليل ، تلك الفصول التي دبجها في « رجل السياسة والتدبير » في أثناء الصراع الكبير بين الملك وكبير الأساقفة !

ومهما يبلغ من كونه أحد رجال الكنيسة ، فان يوحنا لم يدخر بأية حال وسعا في التنديد بالشر الذي مد جذوره فيها . وانضم صوته عاليا الى زمرة الشاكين من خطايا رجال الكنيسة في ذلك العصر . فان رجال الكنيسة أيضا وقعوا في جريمة الطغيان (٦٦) . ولم يكن قضاة الكنيسة يقلون سوءا عن القضاة العلمانيين : « فكما يكون الشعب ، يكون القسيس sicut populus sic et sacerdos » . فلم تقتصر ممارسة الشر على الشمامسة ورؤساء الشمامسة ، بل ان الأساقفة أيضا بل حتى المندوبين البابويين ، كثيرا ما عاثوا فسادا في الأقاليم الواقعة بدائرة

اختصاصهم كانما هبط الشيطان لينزل سوط العقاب على الكنيسة (٦٧) . ولن يشفي الدنيا من ذلك كله الا روح الله ، الروح الذى يجلب الصدق والحرية» • (٦٨)

وهناك التحرر من القمع والكذب ومن الظلم والنفاق • وبهذا نصل الى الجزء الآخر من « رجـل السياسـة والتدبير » ، وهـو الجزء الذى تشـير اليه كلمات العنوان الاضـافى وهـو De nugis curialium أى « حول حماقات رجال البلاط » والا فكيف يمكن ترجمة كلمة nugae هنا ؟ ان الـكلمة تسـتخدم كمعارض ونقيض لقوله الأثر الفلسـفى الدائم(٦٩) de vestigiis philosophorum ، كما أنها تنطوى على كـل شىء يجتمع فى صدر أى رجل جاد ومستقيم • ويجد يوحنا الحماقات nugae مسيطرة فى كل مكان ، فجميع الاماكن حافلة بها : الكنائس والاديرة وبلاطات الامراء وقصر البابا • والقسيس والجندى والصغـار والكبار والريفى والشريف ـ النساء والرجال جميعا يستسلمون لها• (٧٠) ولكن البلاط الملكى يذكيها فوق كل شىء ويغـذيها : فالبلاط لا يحب ولا يستمع ولا يكرم الا « ضروب الخفة والطيش Curia nugaces solos amat, audit, honorat » . (٧١)

ويرى يوحنا أن البلاط ممتلىء تماما بمجموعة من الطرز السيئة يصنفهم حسب طبائعهم ، وينعتهم من باب التقية والحذر بأسـماء كلاسيكية • ولو اخـذوا جمـلة واحـدة فهم أبيقوريون Epicuraei وهو يسمى المزهوين بأنفسهم باسم ثراسونيس Thrasones ، ويمكن العثور عليهم بين أبناء كل هيئة• والمتملقون عنده هم الأجناثونيكيون (*) gnathonici • وهم يتحولون عنده الى مجموعات من الشخصيات المعنوية المتخيلة من ذلك النوع الذى كان الخيـال فى العصور الوسطى ميال الى اصطناعه وخلقه ، وهو يصف المتملقين بالمعنى الدقيق ويرسم البكائين الشكائين والوشاة النمامين، والقادحين فى الأعراض، والحاسدين، والماشين بالاغتيابات ، والملتمسين مصلحتهم الذاتية ، والمستعدين لتقبل الفساد ، والباذلين الوعود ، وغير المخلصين فى عواطفهم والمتغطرسين ، والميالين الى الشجار ، والمؤمنين بالخزعبلات ، والفساق الماجنين ، والخائنين لـكل واجب يناط بهم • وثم ما تمارسه الطبقة النبيلة من ملذات دنيوية ، وهى تقع أيضا تحت عنوان الحماقة والطيش nugae ، منها القنص والصيد

(*) هذه كلمة يونانية معناها المتملقون (المترجم) •

بالهان، والموسيقى ، وفـوق كل شيء جميـع ما يحتـويه حقل المسرح والتمثيل Histriones المقوت • (٧٢)

فاذا لم يجانبنى الصواب ، فان هذا الذم الذى يوجهه نحو عدو يصفه بدقة بالغة وملاحظة دقيقة حائدا عن النموذج المعيـــارى المألوف لتصنيفات الخطايا ، قد ركز توجيهه على جهتين مختلفتين • ففى المقـام الأول كان يوحنا يهاجم فى الصميم المساوى الحقيقة التى دنست الملكية الانجليزية فى زمانه • فانه رأى أن جميع الخدمات التى تتم فى البلاط هى مصدر الشر السياسى ، وهى الشىء الذى جعل الملك مسرفا شديدا فى طغيانه • فالطائشون والحمقى تعاونوا جميعا على مقاومة القانون ، وهم أعداء سلامة الدولة (٧٣) • فباليتهم سمحوا على الاقل للشـــئون الخطيرة للدولة أن تسبق منازعتهم وتعلو على تفرق كلمتهم ، وذلك على الأقل بعد أن يصقلهم بلوغ سن الحكمة (٧٤) • وقد تمكن يوحنا نفســه من تجنب نقد العلماء ومحترفى الفلسفة ، ولكنه وقع فى حيرة تامة من أمره أثناء محاولته تفادى تواجد رجال البلاط الناهشة (٧٥) Curiales وقد اعتاد توماس صديقه ورئيسه الشكوى من اضطراره الى الكفاح بلا انقطاع ووحوش البلاط الضارية (٧٦) ad bestias curiae

ولكن ينبغى أن نحرص على ألا يغيب عن بالنا مطلقا ما ارتبط به كل من توماس ويوحنا من علاقات فى الفترة التى أهدى فيها الثانى إلى الاول مجموعة كتبه«رجل السياسة والتدبير» و«الميتالوجيلون» و«الانثيتيكوس» الواحد بعد الآخر • وفى ١١٥٨ استرعى توماس إليه جميع الأنظار بمظاهر الابهة الرائعة التى ذهب بها الى فرنسا لتثبيت استيلاء مولاه الملكى على مدينة نانت (٧٧) • وقد شاع بكل البلاد أن توماس هو الذى تولى تنظيم وتنفيذ حملة هنرى على تولوز فى ١١٥٩ • وتولى توماس بنفسه قيادة فريق من الفرسان عدته سبعمائة فارس ، وهم خيرة فرسانالجيش وأحسنهم عدة وعتادا • وقد استطاع فى المنازلات الفردية أن يقذف فارسا فرنسيا عن سرجه • وهناك فى تولوز ، أرسل اليه يوحنا كتابه الصغير الذى جعل مداره الحياة الصالحة « لرجل السياسة والتدبير » • وهو يقول ان المستشار قد اتبع عادات البلاط وأخلاقه لا لشىء الا لكى يســـتطيع استدراج رجال البلاط الى اتباع سنة الحياة الصالحة (٧٨) • وذلك هو السبب الوحيد الذى نزع من أجله الى المشـــــاركة بين حين وآخر فى استعراضات المنشدين الحمقى والتحدث بلغتهم • (٧٩) ولكن حدث فى ١١٥٩ ان ذلك المعجب الوفى بتوماس أحس بشىء من عدم الارتياح فى قلبه • فانه عرف ما جبل عليه المستشار من كبرياء وغرور • (٨٠)

ذلك أن ما ختم به كتابه « رجل السياسة والتدبير » من جمل تكاد تتسم بالحماسة الحارة ، له نغمة مؤثرة من النصح الذى يمس القلوب • (٨١) فهل تريد لنفسك السعادة ؟ وهل تلتمس تأييد الرجال وثناءهم ؟ وهل ترغب فى القوة الشخصية والمجد والثراء ؟ وهو فى كل مرة يجيب عن السؤال بعبارة من المزامير نصها : « كل ذلك ستجده في الرب » • ثم عاد باشارة مباشرة الى ما اشتهر بة توماس من حب للابهة فقال : « لست أحاول منعك من كساء نفسك بالثياب الزاهية المزركشة بالذهب ومن اقامة الولائم الفاخرة كل يوم •• كما انى لكى أضم الشيء الكثير داخل حيز ضيق ـ لا أمنعك من مفاكهة نزوات الزمان بل حتى الأخلاق المنحرفة وأنت المستقيم شخصيا فى كل الامور ، ومن السخرية بدنيا تهزأ بما يصدر منها هى نفسها من مداهنة وتزلف • » ثم يذكر بعد ذلك : « وانما هذا الكتاب نجاح أو فشل لك أنت الذى ينتسب اليه •• فما قيل بصدد خفة رجال البلاط وطيشهم فشيء لم ألحظه في واحد منهم ، وربما كان ذلك فى نفسى أو فى من يماثلوننى • والحق أنى أكون مقيدا بقانون شديد الضيق اذا لم يؤذن لى بنقد نفسى وأصدقائى والدعوة الى تحصين أنفسنا • »

وهنا لا يسع المرء الا أن يسمع بوضوح أن يوحنا لا يتحدث كشخص غير معرض للروح التى يقاتلها • فكما رأينا آنفا ، قد أبدى هو نفسه عددا من خصائص روح الفارس والمحارب • وهو يعلم أن الكبرياء ليس غريبا عن أنبل العقول نفسها ، وأنه أبعد الخطايا عن افساح الطريق الى الحكمة الحقة (٨٢) • وهو يقول مع أيوب النبى : ان حياة الانسان فى هذه الأرض حرب مستمرة • ولكن لو أن لدى النبى أيوب أية فكرة عن زمان يوحنا ، لقال ان الحياة « ملهاة أو كوميديا » ينسى فيها كل انسان دوره ويلعب دور غيره من الناس (٨٣) • وهكذا اسماها بيترونيوس أيضا (٨٤) • ويرى يوحنا أن الممثلين أو المنشدين Histrio يلقون التكريم فى كل مكان • الا أنه مما يعد جديرا بالثناء أن يعمد العلية من الرجال الى الغناء والى عزف أغانى الحب ، التى يسمونها stulticinia ، أى الحماقات (٨٥) • هذا وان رجال البلاط يفخمون حكمة الكوميديين والممثلين ، ويرتعدون كالعبيد الأذلاء فرقا من تاييس أو تراسو خشية أن ينظرا اليهم نظرة استنكار أو يقولا فيهم قولا يعقرهم(٨٦) • وربما اقبل توماس هو ايضا على تفضيل ممثل على فيلسوفه (٨٧) • بيد أن توماس لم يخيب رجاءه فيه •

فماذا هناك وراء هذا الانشغال بأخلاقيات البلاط ؟ ان الامر يتضح بمجرد ترجمتنا المصطلحات اللاتينيـة · فان معنى لفظـة Histrio هو المنشـــد الذي هو بالفرنسيـــة Jongleur ، ومعنى Curialis هـــو رجل البلاط Courtois أو ذو التربية الكريمة اللائقة بالبلاط · وليس من المصادفات أن كتاب « رجل السياسة والتدبير » قد أرســل الى نواحي جنوب فرنسا التى أخذت حياة البلاط Cortezia تنبثق فيها كنموذج جديد لحياة النبلاء أى كثقافة علمانية قشيبة · وهنـــا اذا لم يخطئنى حكمى ، نلمس احتجاجا على ثقافة البلاط النابتة ، صادرا من شخص يعرف أن مثله الأعلى من مسيحية نبيلة، المخبوء فى الحرية الكلاسيكية أثمن كثيرا مما للحسام المرح gai saber من أخلاقيات جـــديدة · ولسنا بحاجة ان نذكر أن يوحنا السالسبورى لم يســتطع أن يبتكر مفهوما جديدا هو «ثقافة البلاط » · وكل ما هنالك أنه رأى زمانــه يتحول الى أشياء غريبة عنه وعدوة له · وقد شهد ما تنطوى عليه حيــاة البلاط من خداع عجيب شهدها من ناحيتها الضعيفة ، وشهد ذلك الخداع مجتمعا ومنتسجا مع عالم همه التماس المكانة والغرور وعدم الاخـلاص فى الأعمال ·

فاذا صح هذا التفسير، فان كلمتى de nugis curialium الواردتين فى العنوان الثـانى لكتاب « رجل السياسة والتدبير » يجوز ترجمتهما بالتالى « مناهضة ثقافة البلاط » · (٨٨) وعندئذ كيف يمكن ترجمة بقية العنوان وهى De vestigiis philosophorum ؟ الواقع أن ذلك ليس بالامر العسير على « مسيحية حضرية » · ان هـــذه الشخصيـــة القوية الشجاعة المتلئة بالحماسة السياسية العملية ، والواقفة فى زحمة الحيـــاة والمعتدلة فى كل ناحية من النواحى ، : وهى (فضيلة القصـد المعروفة فى البلاط) ، والتى اتصفت بالولاء والاخلاص والواقعية ، والتى ظهرت عدم لياقتها للتصـوف حتى وهى فى دور الصبا ، ـ وأعنى بهـا شخصية يوحنا السـالسبورى تمثـل امام ناظريها المثـل الأعلى لمجتمع يمزج بين أنقى أنواع الايمـــان بأعلى صـــنوف الحضـــارة (٨٩) ·

ولكنه رغم اعتناقه لذلك المثل الاعلى الروحى النقى لم يسعفه حظهبالناحية الراجحة ولا الجانب الظافر • اذ أن نمطا للحياة أشد حرافة قدر له النصر والسيطرة على القرون التالية : هو نمط الفلسفة المدرسانية المشيد بقوة على المذهب الاعتقادى ذى الصيغ الاصطلاحية وعلى شكل القياس المنطقى ونمط التصوف الدينى الباطنى Mysticism الذى ازدهر فى حياة ديرية عمقت أسسها وبثت فيها الحيوية من جديد وقدر لها أن تصل الى الناس بكل وسائل الحماسة العنيفة •

وانى لارجو ان أكون وفقت فى أن ابسط بصورة مرضية نقلا عن المصادر الأصلية نفسها ، ما عنيته حين سميت السالسبورى عقلية قبل القوطية •

أبيلارد (*)

فى سلسلة من ثلاث محاضرات ألقيت منذ بضع سنوات ، وصفت ثلاث شخصيات من أبناء القرن الثانى عشر بأنهم «ذوو عقول ما قبل القوطية» ـ دون رغبة فى الحاق أية أهمية مفرطة الى ذلك المصطلح • فأما الثلاثة فهم أبيلارد ويوحنا السالسبورى وآلان دى ليل • والذى حاولت مقاربته عن طريقهم هو روح القرن الثانى عشر الخارق القدرة الابتكارية ، كما انعكست فى الاتجاه الفكرى لأبيلارد ، وفى الاتجاه الخلقى ليوحنا السالسبورى ، وفيما أبداه آلان دى ليل من اتجاه جمالى• والمادة التى جمعتها حول آخر هؤلاء الثلاثة ، وهو اللاهوتى الشاعر ، قد نميتها ووسعتها ، حتى أصبحت رسالة (١) رحبة الجنبات ، كما أنى عرضت آرائى عن يوحنا السالسبورى المفكر السياسى الاخلاقى على مؤتمر علماء فقه اللغة (٢) المنعقد فى ١٩٣٣ • أما الثالث ، وهو أبيلارد (**) رجل اللاهوت والفيلسوف ، فقد وضعته حتى الوقت الحاضر داخل أضابيرى لأنى عرفت أن معرفتى بالفلسفة واللاهوت أضعف من أن تسمح لى بالاقدام على تقويم هذه الشخصية التى كثرت حولها المجادلات • وفى

(*) محاضرة ألقيت فى الاجتماع السنوى لجمعية آداب الاراضى المنخفضة فى ١٢ يونية ١٩٣٥ وقد نشرت الترجمة عن النص الهولندى فى (Verzamelde werken) مج ٤ ص ١٠٤ ـ ١٢٢ •

(**) هو بطرس ابيلارد (١٠٧٩ ـ ١١٤٢) فيلسوف فرنسى مدرسانى ولد قرب نانت واصبح قسيس نوتردام بباريس واستاذا بمدرسة الكاتدرائية فى ١١١٥ ، وعندما افتضح امره ثم زواجه من تلميذته هلويز دخلت الدير ووثب عليه بعض الغوغاء فجبوه . وعاود التدريس بعد سنة فاتهم بالهرطقة واصبح ناسكا فى نوجنت حيث بنى دير الباركليت ثم عين رئيسا لدير فى بريتانى واصدر كتابه Historia Calamitatum وفيه ذكر الرسائل الغرامية الشهيرة الى هلويز ومات فى شالون على الساؤن وهو فى طريقه للدفاع عن تهمة اخرى بالهرطقة . ودفنت هلويز الى جواره فى الباراكليت فى ١١٦٤ ثم نقلت رفاتها الى مقبرة الاب لاشيز بباريس فى ١٨١٧ • (المترجم)

امكانى أن أسوق عذرين مبررين أعتذر بهما عن أنى الآن ـ برغم ذلك ـ أعبر عن آرائى وملاحظاتى بصدد أبيلارد : المبرر الأول هو أن الجمعيـــة الأدبية بالأراضى المنخفضة احتاجت أن تجد محاضرا يستطيع فى مدة وجيزة اعـداد حديث ، والمبرر الثـانى هو أن غرضى الحقيقى ليس البحث فى فلسفة أبيلارد ولاهوته ، بل محاولة تحـديد مركزه الى حد ما فى ثقافة عصره ، وحرصا منى على تجنيب القارىء خيبة الأمل ، استرعى الأنظار الى أن عنوان خطابى هو « ابيلارد » وليس « أبيلارد وهلويز » ٠

فاذا شئنا أن نحدد العصر الذى اتشحت فيه الحضارة المسيحيـة الغربية بشكلها القاطع أى صورتها الماثلة ، وجب أن نتخذ قرارا بأن ذلك العصر هو القرن الثانى عشر ٠ وذلك أن القرن الثانى عشر قرن خلاق وتشكيلى لا نظير له ٠ اذ الواقع أنه حدث فى القرن الثانى عشر قدر من اليقظة ومن كشف اللثام عن الحقائق أعظم كثيرا مما حدث فى العصر التاريخى الذى اعتدنا أن ننسب اليه اسم « عصر النهضة » ٠ وهذا التغير أشبه الأشياء بلحن ينتقل الى طبقة موسيقية أكثر حدة ووضوحا وايقاع أسرع وأكثر حيوية ، أو باشعة الشمس حين تنساب نافذة بين أطباق الغمام فهنـا أكثر منه فى أى موضع آخر يبـدو أن هناك ما يبرر التحدث عن ميلاد جديد ٠ فان مجموعة من الأشكال الجديدة للنشاط العقلى والحيـاة الاجتماعية أخذت تتطور وتنمو فى أثناء القرن الثانى عشر أو حواليه ، أشكالا وأسسا لا تزال بمثابة دعائم يرتكن اليها الى يومنا هذا ٠

والحق ان نغمة ضرب جديد من الشعر أخذت تتردد فى ذلك العصر بل هى لم تكن فى الواقع نغمة واحدة فقط ، وذلك لأن شعر البلاط المكتوب باللغات القومية ، قد سبقه الى الوجود الشعر المدرسانى (الاسكولانى) المكتوب باللاتينية والمسمى باسم القصيد الجوليادرى ، وهو شعر جزل مزدهر يهيج الالوان ممتلىء بالحيوية ٠ وقد ظهر ضرب جديد من الملحمة هو أنشودة المآثر والبطولة Chanson degeste وهى قصيـــدة لم تكد تستكمل تماما شكلها الدقيق المتزن حتى اتخذت الصـــورة المهذبة لقصص الفروسية الرومانسية ٠ فلقد أخذ العصر ينســج ذلك النسق الفكرى والاجتماعى العجيب الذى سداه الفروسة ولحمته آداب السلوك فى البلاط ٠ ولم يكد فن العمارة المسمى بالرومانسكى أن يطور بعد ما عرف فيه من وقار وسمو لا نظير لهما حتى انبثق فى الأشـكال الزاهرة التى نسميها بالقوطية ٠ وربما بدا للناس أن فن النحت بلغ على

حين بغتة المستويات السامية النبيلة التى لا يسع المرء الا الاعجاب بها فى أقدم بوابات شارتر • وتالقت أول نوافذ الزجاج الملون •

ونم شكل جديد للاتصال الاجتماعى الأشد نشاطا ، وقد تطور فى المدن التى غطى بها الغرب كله صدره : ومنها القديم الذى عاد الى الازدهار ثانية ، ومنها المدن المنشأة حديثا • وقامت هيئات ديرية جديدة : فالى جوار أديرة القديس بنيدكت الموفورة العدد العتيقة العهد ، جاءت أديرة الكـــارثوثيين (*) Carthusians والاوغسطينيين (**) Augustinians والسستركيـــانيين (***) Cistercians والبريمونستراتنســـيين Premonstratensions وزاد فى اتساع رقعة أوربا ماحدث من توسع زراعى داخلى ، ومن أعمار واستيطان لمناطق الحوافى الخارجية للبلدان•واجتمع كل من الفروسية والزهد ليؤلفا المثل الأعلى للهيئات الفروسية الدينية ، فى

الشرق وفى الغرب على السواء • فأما الدين نفسه فقد اتجه نحو أشكال جـديدة للتعبير : فظهرت حركة دينيـة صـــوفية باطنية Mysticism هى مذهب القديس برنارد ، بما اجتمع فيها من تعبير مزدهر مشرق عن النشوة والوجد بما لفضل الله من مدهشات العجائب • أما المدارس ، وهى بعد قليلة العدد صغيرة الحجم فى القرن الحادى عشر ، فانهـــا أصبحت المراكز البؤرية التى تتركز فيها حياة مستفيضة متعمقة مدارها التأملات والمنازعات الفلسفية والاعتقادية (الدوجماطية) • وقد اتخذت ذلك الشكل النوعى المحكم النسج الذى قدر فيما بعد أن يسمى باسم الجامعة وأن يتحدى كر القرون •

ويخيل الى أنه لم يحدث قط ان اجتمعت فى عصر واحد عملية خلق وتكوين وتشكيل فى مثل ذلك العدد الضخم المتنوع من العناصر الثقافية

(*) عقد رهبان فى الكنيسة الكاثوليكية أسسه القديس برونو • وكانوا يعيشون فى صمت تام ويمتنعون عن تناول اللحم ويتناولون وجبة واحدة •

(المترجم)

(**) اسم يطلق على جميع المجتمعات الدينيـة التى تتبع قواعد القـديس أوغسطين ، والاسم يضم أيضا جماعة البريمونستراتنسيين • (المترجم) •

(***) عقد رهبان بالكنيسة الكاثوليكية النشوء فى مدينة سيتو •

(المترجم)

مثلما احتشدت في القرن الثاني عشر • ومع ذلك فلا يجوز للمرء بداهة أن يتشبث بشدة بتلك السنوات المائة : اذ لا ينبغي أن تنسب الى التغيير أية قوة خفية في حد ذاتها • اذ الواقع أن القرن الثاني عشر قد تولد عن الحادي عشر ، الذى له الفضل فى انتاج الحركة الدينية الكبيرة التى عبر عنها كل من «الهدنة الالهية » (*) وجريجورى السابع والحروب الصليبية ، والذى شهد النورمان ، بما لهم من قدرة هائلة كبناة للدول ، ينتشرون الى انجلترة وجنوب ايطاليا ، والذى تماسك على يديه النظام الاقطاعى فاصبح النظام الذى يقوم عليه كيان الغرب الاقتصادى والاجتماعى • ولكن الدهر اختص القرن الثاني عشرة بميزة كبرى : فان كل ماتكونت براعمه في الغرب ابان السنوات الثلاثمائة السابقة ازدهر فجأة وأخذ يثمر ثمارا ناضجة • هذا الى أنه لم يظهر في الحضارة الغربية عصر آخر بلغ مثل هذه الدرجة من الشمول ، ولا بلغ مبلغه (على كل ما اجتمع فيه من فوارق فى الخلفية السلالية أو الجغرافية أو مستوى التطور) من حيث ضآلة تأثره بالحدود وتعويقها لتبادل الخبرات المادية والروحية. على أن فرنسا هي البلاد التي أسهمت بأعظم قسط يفوق كل ما اصطنعته غيرها فى تشكيل ثقافة تلك الايام وخلقها • ففرنسا هى التى دمغت العصور الوسطى بطابعها • فان السيطرة الفرنسية على القرن الثاني عشر ، انما هى فى الواقع مشهد أشد روعة بكثير وأبلغ أصالة بكثير من مشهد العصر الأعظم (**) Le grand siècle • غير أن نفير الثناء لم يدو فى الآفاق حتى ذلك الوقت بالقوة الكافية وان بلغ من تقدم باريس ، التى أصبحت بدورها المركز الفعلي لفرنسا التى هى قطب التطور الفكرى ، ان اعتبرت « شجرة الحياة المغروسة فى الفردوس الأرضى ، ونبراس بيت الله ، ومنهل كل حكمة، وتابوت عهد الرب، ومليكة الامم ودرة الأمراء » • (٣) وعندما عاد يوحنا السالسبورى الى باريس فى ١١٦٤ وشاهد وفرة ما فيها من السلع وانشراح الاهالى واحترام رجال الدين وروعة الكنيسة وفخامتها والمناشط الفعالة للفلاسفة Philosophantes الذين انجذب اليهم قلبه ، بادر بمقارنة المدينة بمعراج يعقوب ، الذى بلغت قمته عنان السموات وأصبح الطريق الذى تعرج به الملائكة

(*) الهدنة الآلهية فى العصور الوسطى محاولة من قبل الكنيسة لتحديد الحروب الخاصة ، حرمت الحرب من مساء الاربعاء أو الخميس حتى صباح الاثنين وفى أعياد دينية معينة ، وكان المخالفون يعاقبون بالحرمان من الغفران • (المترجم)

(**) العصر الاعظم : يعنى به عهد الملك لويس الرابع عشر • (المترجم) •

الى السماء صعودا وهبوطا • فاقتبس كلمة الكتاب المقدس : « لا شك أن الله موجود بهذا المكان دون أن أدرى ذلك » كما اقتبس قول الشاعر : « ما أسعد من منح هذا المكان منفى • » (٤)

ورغم ذلك ، فان ما أحرزته باريس من سبق لم يستطع حتى ذلك الحين ان يضفى شيئا من العتمة على نور المدن التى تصغرها • ذلك بأن مدنا مثل شارتر وأورليان وريمز حظيت أيضا فى الحياة المدرسـانية (الاسكولائية) بشهرة ذائعة أقدم أو أحدث من شهرة باريس • اذ جرت العادة بألا يكون عصر التطور عصر تركز • وذلك أن نشوء أشكال وأفكار جديدة يعنى حدوث الاختمار والقلق بل حتى الارتباك والبلبلة • والحق ان القـرن الثانى عشر ليس الا عصر مرونة عظيمة فى الحـركة ، حتى بالمعنى المادى للكلمة • فان كل انسان قد شد عصـا الترحال وحمل عكازة الحاج : أما الحجاج أنفسهم فهم صليبيون أو وعاظ وعلماء وفرسان، يبحثـون عن خدمة يؤدونها أو مغامرة يقومون بها ، وهم ممثلون وصناع وتجار وعصاة وغجر ومهاجرون الى أوربا الشرقية ، فضـلا عن طائفة أخرى لا تقـل عنهم جميعا ، هى طائفة الرهبان • وعاد الاتصال الجديد الحى بالشرق ، بمواد وأفكار وعادات ، وردت من الخـارج بوفرة أعظم من ذى قبل • فاصـبح عالم الغرب أكثر تنويعا وأحفل بالالوان : وذلك – بالمعنى الحرفى للـكلمة – عن طريق المنسوجات والزجاج الملون ، ومن الناحية الفكرية عن سبيل سريان المادة الجزلة الفنية المتمثلة فى الحكايات الخرافية والأخيلة والتصورات ومن خلال ما أظهرت من امـكانات أعظم للتعبير اللفظى •

فهل ينبغى أن يطلق اسم « عصر النهضة » على هـذا التقدم العام الذى أحرزه القرن الثانى عشر ومضى به نحو الكمال الانسجامى للثالث عشر؟ وهل هذا الاسم الذى يواتينا بطريقة طبيعية جدا، ينطبق على الاقل على جـزء مـن ظـواهـر الاسـتيـقـاظ والتطـور هـذه؟ لقـد أصـدر تشارلز هومرها سكنز فى ١٩٢٧ كتابا أسماه « عصر نهضة القرن الثانى عشر » The Renaissance of the Twelfth Century دبج فيه فى

مجموعة مكونة من اثنى عشر فصلا مدعمة بالوثائق الغزيرة وصف فيها كل ما وجد فى ذلك العصر من طريف تولد عن معرفة مجـددة الحيوية بالعصور القـديمة • فهناك – فى المقـام الأول – الشعر اللاتينى الذى سطرته أقلام كبار رجال الكنيسة : هيلدبرت من لافاردن وبالدرك من بورجيل وماربوه من رن ، وهو شعر قوى الطـابع الكلاسيكى نقى نقاء

عجيبا من حيث اللغة والعروض ٠ وكان هنالك كذلك الشعر الغنائى الزاهر المسمى على اسم الفاجانتيس أو الجوليارد ، وان اتفق الرأى فى عصرنا هذا أن شعراءه ليسوا جميعا بأية حال من أبناء الكنيسة المدهشين المسمين باسم العلماء الجوالين ٠ ثم يعود هاسكنز بعد ذلك فيتناول بالبحث احياء القانون الرومانى وما بذله المترجمون عن العربية واليونانية من جهود مضنية وهامة ، وهم الرواد الذين هدوا الناس السبيل الى الفلسفة المدرسانية ٠ وقد أصاب هاسكنز اذ سمى كل ظاهرة من تلك الظواهر باسم احياء الحضارة الكلاسيكية ، ذلك الاحياء الذى عاد بالخصب والتحرر والسعة على حضارة الغرب المسيحى ٠ ويرى هاسكنز فى هذا الرجوع الى التقاليد الكلاسيكية السبب الأكبر فى التطور الثقافى الذى أدى الى ما عرف عن القرن الثالث عشر من وفرة وامتلاء ٠

على أنى أسائل نفسى : ـ ألم يصطنع هاسكنز المغالاة فى تقدير اثر ذلك الرجوع الى التقاليد الكلاسيكية واعتباره مصدر ذلك التطور ودوافعه ؟ أجل ان دراسة أرسطو والقانون الرومانى هما فى حد ذاتهما أثنان من أهم النهضات الثقافية المعروفة فى التاريخ ، وأنهما يعتبران دعامة لقدر هائل مما جاء بعد ذلك من تطورات ولكنهما ليسا السبب الأساسى ، كما أنهما يعتبران فى حد ذاتهما ثمرة ونتيجة لغيرهما من الأسباب ٠ اذ ان أعظم القوى المحركة ـ فيما يبدو لى ، لا يعثر عليها فيما أضفى على المدارس من طابع كلاسيكى ٠ أما ما يؤكده هاسكنز من أن الأساليب الكلاسيكية كانت مدرسة تدربت فيها على المهارة روح العصور الوسطى التى ظلت تتصف حتى ذلك الحين بالهزال والجمود ، فأمر قد يدفعنا بسهولة أن نغفل ما تجلى فى ذلك القرن من قوى عظيمة تشكيلية ودافعة ٠ ويمكن اجمال تلك القوى فى أنها فكرة الحرية وسيادة السلطة الكنيسة كنقيض للسلطة العلمانية ، وهى فكرة ترتبط بدير كلونى أو جريجورى السابع ، و الدافع الذى ادى الى انشاء هيئة ديرية كبرى بعد أخرى ٠ ثم تجىء بعد ذلك أشياء كثيرة منها ٠ نظام الاقطاع ، وهو من حيث آثاره يغلب عليه من الناحية السياسية جمع الشمل لا التمزق ؛ وفكرة الفروسية ، وهى فكرة ناشطة فى كل مجال من مجالات الحياة ؛ ثم الدافع الذى دعا الى انشاء الجمعيات الاخوانية والنقابات التى اورثت الحياة الاقتصادية بجميع صورها عوامل القلق والتفكك ، ثم تجىء أخيرا وليس آخرا فكرة الملكية والملك ، التى تطورت على أساسها النظم القانونية وتماسكت حولها الدول ٠ وموجز القول ، أن المبادىء الحقة التكوينية والتشكيلية والخلاقة للحياة التى انتشرت فى العصور الوسطى

وهي في عنفوانها قامت واستقرت بمنأى عن المدرسة ودوائرها الأدبية والاجتماعية ، التي ترعرعت فيها أزاهير العصور القديمة وثمارها ٠

وبشيء من التغيير ندخله على عبارة الكتاب المقدس ، ربما جاز لنا أن نقول عن العلاقة بين حضارة العصور الوسطى وبين التقاليد الكلاسيكية : ان العهود القديمة كانت معنا على الدوام ٠ ومن المعلوم أن المسيحية الناشئة ظلت منذ عصورها البربرية الأولى ، ترى أن الثقافة الكلاسيكية كانت على الدوام كنزا دفينا مفعما بالاعاجيب والأخطار ينبغي لكل من تمتد اليه يده أن ينهل منه بحذر ٠ وظلت الأبصار شاخصة على الدوام الى نموذج للحضارة لا سبيل الى محاكاته ٠ ذلك أن التقاليد الكلاسيكية كانت تستلزم الالتفات على الدوام : ـ فاما أن تنبذ واما أن تتبع بدقة أو تقلب الى معنى جديد ٠ فالماضي الكلاسيكي ظل ينهض من جديد نهوضا متكررا ٠ فكلما حاولت الصفوة الفكرية الممتازة التماس التعبير المهذب الرشيق ، عمدت الى أنموذج كلاسيكي فاتخذته لها مثالا ، دون أن يؤدى الى تمكين روح العهود القديمة تمكينا فعليا من تخلل جسد الثقافة المتسلطة ٠ وبديهي أن القارىء السطحي لا يجد الا فارقا طفيفا بين جميع هؤلاء الشعراء المقلدين ابتداء من فينانتيوس فورتوناتوس في القرن السادس (وهو ذو الاتصال المباشر مع العهود القديمة ذاتها) الى ماربود في الحادى عشر مارا بالكوين في القرن الثامن : وكلهم يبدو فعلا كأنما هم من أصحاب المذهب الانساني ٠ ولكن نشاطهم لم يسهم الا بقسط ضئيل جدا في نمو الكيان الحيوى لمسيحية العصور الوسطى٠ وفي حوالي ١١٠٠ كان ذلك الكيان قد اشتد عوده حتى بلغ مرتبة القوة والاستقلال ٠ واذا بالغرب اللاتيني وقد افترق عن الشرق المسيحي بتلك الحقيقة الواقعة ، وهي الانقسام الأعظم (*) The Great Schism يظهر شعورا جديدا من الوحدة المقدسة والعمل المقدس ضد العالم الإسلامي ٠ وهنا كانت اشكال سياسية قوية تنبثق ، وكانت مدن تنتعش ومدارس تظهر في كل مكان ٠ الآن وقد نضج ذلك الغرب وصلب عوده وامتلأ بالرجولية الصحية ، فانه ـ ان صح هذا القول ـ اكتشف لنفسه من جديد التقاليد والمأثورات الكلاسيكية ، ووجب عليه أن يقدم حسابا عن أهمية تلك العصور القديمة الدائمة الجدة والنضارة ودلالتها بالنسبة لمسيحية راغبة في المعرفة والقوة ٠ ورغم ذلك ، فان العلاقة

(*) الانقسام (الصدع) الاعظم : هو انفصال القسم الشرقي من الكنيسة في القرنين التاسع والعاشر عن عالم النصرانية الغربية ٠ (المترجم) ٠

بين هذا القرن الباحث المتطلع وبين العصور القديمة Antiquity المستعدة على الدوام الى الكشف عن خبايا أسرارها كانت علاقة من نوع آخر جديد ومغاير • لم يعد ذلك الغرب مجرد صفوة صغيرة من الأذكياء الطلعة تعيش بين ظهراني مجتمع همجي ، حاولت لافتقارها الى ثقافة أصيلة خاصة بها امتصاص الحياة الأدبية التي كانت لماض أجنبي • اذ الواقع ان العصور القديمة وضعت آنذاك في بوتقة الامتحان الصارم التي وضعها فيها أوغسطين في يوم من الأيام لكي يحتفظ لها بكل ما له قيمة أصيلة وينفي عنها كل ما عدا ذلك • لقد اتشحت العصور القديمة بمعنى جديد ونغمة جديدة بالنسبة لروح القرن الثاني عشر الشابة الفتية القوية • وهنا فهمها الناس فهما احسن واعمق من ذى قبل • فهل تسمى ذلك « بالنهضة » ؟ الواقع أنه لا اعتراض لى على ذلك ما دام فى الامكان تجنب سوء الفهم الذى يعلق بغاية السهولة بذلك المصطلح • والحقيقة أن لفظة « عصر النهضة » تنطق على الدوام بمعان أكثر مما يقصد منها أن تقوله• والنهضة فى المصطلح الأجنبى وهو Renaissance معناها الميلاد الجديد ، فما الذى ولد من جديد ؟ أهى العصور القديمة ذاتها ؟ كلا بالتأكيد • اذن فهل المولود هو الشكل الكلاسيكى ؟ ان ذلك الشكل قد مات وسيظل ميتا • وفى الامكان ملؤه بمعنى جديد ، ولكن لا أكثر من ذلك ولا أقل • أما الذى ولد فهو حضارة لاتينية مسيحية تنتمى الى القرون الوسطى استثارها عنصر كلاسيكى امتصته • فكأن شيئا لم يولد من جديد • بل الحق ان لفظة « ولد » ليستمن جيد الأخيلة •وانما الذى حصل هو نضج أو بلوغ لسن الرشد •

وغنى عن البيان أن بلوغ الرشد يتضمن أزمة ومدة قلق واضطراب وانزعاج • وتلك سمة من أشد السمات الجوهرية فى القرن الثانى عشر فان تلك الروح ظلت تغلى • وأيا ما كان الاتجاه الذى اتجهت اليه تلك الروح ، سواء اقتبسته من نموذجها الكلاسيكى ، أو دفعتها اليه حميتها، فانها تجاوزت كل ما تسمح به الحكمة والاعتدال • فلم يقتصر أمر العصور القديمة نفسها على أن اظهرت للمرة الثانية انها مستودع مملوء بالاخطار ، وانها أيضا نهج فكرى تم تدريبه طبقا لدروس العصور القديمة نفسها : التى هى الفن المكتشف من جديد ، فن التمييز الدقيق الذى كتب له أن يقود الفكر الى منحدرات غير منتظرة • مثال ذلك أن المثل الأعلى للحياة الرسولية الذى تجلى ناشطا فى أرنولد من بريسكيا وبطرس والدو ، ظهر خطر عواقبه قبل أن تبدو ثماره عند القديس فرانسيس •

هذا ولم تستطع الكلاسيكية المجددة ولا النزعات المنطقية التى لا يكبح جماحها شىء ولا الحركة الانجيليكانية المتطرفة أن تصمد فى الميدان على طول المدى • فبدلا مما ظهر فى القرن الثانى عشر من قلق واضطراب فى الأفكار ، تهيأ للثالث عشر أن يجلب النظام النسقى الثابت الرتيب والانسجام السماوى اللذين استطاع عصر القديس توماس بواسطتهما الاحاطة بالروح احاطة الذهب بقطعة من الماس رصعته • وجاءت المذاهب المدرسانية بما وهبت من قدرة على استئصال الأعشاب وتشذيب الأغصان ، فخلقت الشكل المضبوط والمخططى Schematic الذى كان له أن يسود • على أن هذا النشاط يجمع بين الدلالة على التقدم والتضييق • وقد استخدمت المدرسانية (الاسكولانية) القياس المنطقى Syllogism فجعلت منه شكيمة (*) للروح تورثها الصحة ، بعد أن لم يكن المنهج النظرى المقالى Discursive إلا دافعا بها الى متاهة الاستدلال العقلى الذى لا كابح له • فكان عمل القرن الثالث عشر هو الثمرة والنجاح اللذان احرزتهما سلامة المبدأ •

أما القوة التى نالت النصر فهى قوة الكنيسة • اذ أنه لا ينبغى أن يغيب عن اذهاننا البتة ، أن الذى حدث ابان القرون الوسطى ، هو أن الكنيسة فضلا عن كونها جهاز الدين وأداته ، كانت أهم وسائل الثقافة على الاطلاق ، كما أنها الأداة الوحيدة القادرة على ضم شتات العناصر الجوهرية اللازمة للثقافة والمجتمع وصهرها بعضها فى بعض • فلئن نجحت العقول المستمسكة بالروح السلفية ــ كالقديس برنار والقديس دومنيك ــ فى احداث أثر أقوى وأدوم فى الثقافة الأوربية من اثر بطرس والدو وأرنولد من بريسكيا ، فليس ذلك حتما بسبب نقاء عقيدتهما أو تفوقهما فى المواهب ، وانما بسبب حقيقة هى أنهما كانا يعملان فى الكنيسة ويتخذان منها الوسيلة ، ومن ثم أثرا فى ملايين من الناس على حين أن صوت المخالفين للكنيسة لم يبلغ الا آذان الآلاف •

وقد بدا بطرس أبيلارد مزاولة نشاطه واضطرابات مطالع القرن الثانى عشر فى عنفوانها • واسمه الذى هوآبا ايلاردوس Abae Lardus مكون من خمسة مقاطع ، كما يدل على ذلك المقطع الشعرى للنقوش التى على شواهد قبره (٥) (٦) (**) •

(*) يقال شكم المعتدى : رده بقوة ، والشكيمة أو الكابحة هى ما يسمى بالفرملة (المترجم) •

(**) تضيع الشواهد فى الترجمة العربية لتلك النقوش • وقد أورد منها الاصل ثلاثة امثلة رأينا حذفها • (المراجع) •

ويكاد يكون من المحقق أن اللقب أضيف فى المدرسة لأول مرة الى بطرس (وهو أسمه المعترف به) ٠

كان من أبناء مقاطعة بريتانى بفرنسا ٠ وربما جاز لنا أن ننسبه الى الكلت (ا) وأن نتهيأ لاستنباط حياته كلها وفكره بأجمعه من هذه الأرومة السلالية التى ينتسب اليها ٠ بيد أن بلدة باليت بالقرب من نانت لم تكن من بريتانى فى الصميم ، اذ يقول أبيلارد لنفسه انه لم يعرف اللغة المحلية ، كما أنه قل أن تكلم عن سكان بريتانى (٧) بكلمة تنم عن المودة ٠ وفضلا عن ذلك فان أباه كان من مدينة بواتوه (٨)

ولن اعيد على مسامعكم سرد ترجمة حياته القلقة التى طالما رددتها الألسن ، كما انى لن احاول ان اقدم رسما تخطيطيا لشخصية ابيلارد المدهشة قائما على تحليل كامل لها ٠

وبحسبنا أن ندلى ببضع سمات عامة ٠ على أنه أحد أولئك الناس الذين ظلوا ماعاشوا-يثيرون اما أعمق الاعجاب وأحره واما أعنف الكراهية فهو من اولئك النفر الذين لا يستطيع أحد أن يقف ازاءهجامدا غيرمبال٠ وقد أتيح له أن يكون منبها ومثيرا للأذهان بفضل ما اوتى عقله من نصاعة ،وما أوتى ذكاؤه من حدة ، وبفضل تعدد جوانبه ومزاياه وما اجتمع فى شخصيته من متباينات حادة ٠وقد أجاد روسكليتوس التعبير عن ذلك فى رسالة التشهير العنيفة التى وجهها الى أبيلارد (٩) حيث قال : « ان ما اتسمت به حياته من طرافة ليس لها نظير « Vitae tuae inaudita novitas » هو الذى دفع معاصريه الى الثورة عليه » ٠ اذ اجتمع فيه عقل نافذ ممتاز وانفعالية عنيفة (١٠) ، فجعلا منه شخصا لا يطاق الا ببالغ العسر ٠ وقد قال والصواب ما قاله (١١) : « ان ما أتعاطاه من منطق قد جعلنى مبغضا الى العالم » ٠

ولوق هذا فانه طبع على شىء من التأنق الفكرى ٠ فاحب كل ما هو مغرب بعيد الاحتمال وجنح الى ادهاش الناس واثارة أعصابهم ٠ فاصدر مثلا ذلك الاسم الشاذ الذى أطلقه على ديره الجديد وهو الباراكليت (*) أى الشفيع Paraclete وهو اسم بدا للناس أنه يدل على قلة احترامه للأقنومين الأولين من الثالوث(١٢) ولم يكن شخص أبيلارد يضم فحسب لاهوتيا عميق الجدية وفيلسوفا عظيما ، بل وفارسا

(*) الباراكليت : هو الشفيع او المعزى وهى لفظة تطلق على الروح القدس (انجيل يوحنا ١٤ : ١٦) (المترجم) ٠

وفنانا ومعلما وصحفيا أيضا • ومن العجيب أن بعض أسماء اعماله تتجه نحو شيء من النزعة الأمريكية مثل Avant la Lettre أى قبل الرسالة ومثل Sic et non أى لا ونعم ومثل Scito te ipsum أى اعرف نفسك ـ ألم تكن تلك العناوين التى وضعها لكتبه من نوع لم يسمع به الناس بالنسبة للقرن الثانى عشر ؟ لا شك أن فيه شيئا من روح أوسكار وايلد • فانه حتى وهو فى غمرات محنته وفى ثنايا جديته اللاذعة ، لم ينس قط ما سمعت به سنواته الأولى من مجد • فانه تحدث بافتخار لا يكاد يخفيه عن القصائد الغرامية التى كتبها : «التى لايزال الناس يتغنون بها فى كثير من المناطق» وهى قصائد غنائية قرضها على سبيل التسلية لهلويز وهى « من حلاوة اللفظ والصوت »بحيث أورثته وحبيبته ذيوع الصيتفى كل مكان•(١٣) فهل عسى أن يكون هناك الى الآن قصائد حية لأبيلارد بين تلك الثروة من الاغانى الجوليياردية المجهولة المؤلف الموجودة الآن ؟ فلئن كان فى يوم ما شاعرا حقيقيا ، فانه يبدوأن الشرارة قد انطفأت ابان الكارثة العظيمة التى حلت به ، اذ لم يبق الا القليل مما قد يبدو للعين صادرا عن نزعة شاعرية أصيلة فى تلك القصائد اللاتينية الكثيرة نوعا ما التى ألفها فى سنواته الأخيرة ، ومعظمها يدور حول موضوعات دينية (١٤) •

وساشير بايجاز شديد الى قصة حبه لهلويز • وقد بذل بعض الباحثين جهدا يبغى من ورائه أن يثبت»على أساس من الأسلوب وبينة من الواقع لا يمكن نبذهما اعتباطا«أن جميع الرسائل المتبادلة ، بما فى ذلك ما سطرته هلويز قد كتبها أبيلارد على أساس رسائل حقيقية (١٥)•• وعندى أن ذلك أمر ليس من الأهمية بدرجة عظيمة : فهو شيء يستطيع المرء افتراضه لو شاء • وكل ما يهمنا هو أن أبيلارد لم يزيف الأمر نفسه : اذ أنه كان أمرا معروفا للعالم بكل ما حوى من تفاصيل مخيفة بينما أبطال القصة لا يزالون على قيد الحياة • كما أن الرسائل ينبغى مع ذلك أن تعد صحيحة ومعتمدة تماما • فأين كان أبيلارد يستطيع أن يكتشف النغمات العميقة للعاطفة الأنثوية التى لا حد لها اللهم الا اذا مارسها فعلا مع هلويز ؟ فهل عساه قصد الى الشهرة حين أعطى نفسه ذلك الدور الشرير غير البطولى فى كتابة قصة الكارثة Historia calamitatum ؟ ومع ذلك فستظل الحقيقة الهامة قائمة دائما ، وهى

أن كاتبا من كتاب القرن الثانى عشر استطاع فهم الحب والتعبير عنه بمثل تلك الألوان والأنغام العميقة أيضا بحيث يستطيع كل انسان أن يتذوق فيها حتى اليوم طعم الصدق وقوة الحيوية بعد انقضاء ثمانية قرون ٠

وتطور الحب المتبادل بين أبيلارد وهلويز ، فاصبح من موضوعات الأدب ، واصبح قضية شهيرة Cause célèbre فى تاريخ الأخلاق فى عصر بلغ من تبكيره أن صار من العسير الى حد ما تجنب الانطباع التقليدى الذى خلفه الموضوع ٠ فلو اضطرتنى الحال أن أكون رأيا حول قيمة هذه الآية الشاهدة على حب تمكن من نفسيهما فعلا بوصفها وثيقة من وثائق تاريخ الثقافة ، فانى أميل الى تسميتها باسم الشاهد الفردى الوحيد الذى لدينا والذى يدور حول الحب فيما قبل عصر البلاطات ٠

ومن المحقق أن عواطف هلويز لا عواطف أبيلارد هى صاحبة الأهمية لدينا ــ ومن المحقق أن تلك العواطف والشكل الذى تعبر به عنها لا تقوم بينها أية خلة مشتركة وبين طريقة الحب المتبادل فى ظل البلاط الذى تهيأ له أن يفرض صوته وقانونه على العالم المثقف بعد ذلك فى القرن عينه ٠ وان مجرد كوننا نجابه هنا بالحب على ما مارسته امرأة ، لكاف لوضع المسألة خارج مجال فكر الذكور الذى كان سائدا فى البلاط ٠ على أنه كذلك ليس بالتعبير الكلاسيكى عن الحب ، أى عاطفية أوفيد (*) ، ولا بالعاطفة الساذجة الشعبية التى نجدها عند أى تافه كلاسيكى والتى تسمعها فى الأنشودة الجولياردية (**)٠انه حب عنيف وقاتم ، انه قلب ممزق قد مزقته القوى المتصارعة فى غير هوادة : فى قوى العقيدة الراسخة من جهة وأبلغ الانفعال الدنيوى عمقا من جهة أخرى ولا شك أن فى سيل عواطف هلويز المنهمر لشيئا بالغ التلقائية

(*) أوفيد (٤٣ ق ٠ م ــ ١٧ م) شاعر رومانى كتب عدة كتب فى الحب وقصائد غرامية وخطابات غرام تصور صدورها من سيدات (المترجم) ٠

(**) الانشودة الجوليارديه : ينسب هذا النوع من الشعر الى جوليارد ، وهو كاهن سيء السيرة متشرد فى العصور الوسطى ادمن السكر والمجون وكتابة الاهاجى بالشعر اللاتينى ، وهو يعد من اتباع أسقف وهمى اسمه جولياس ٠ (المترجم) ٠

بالغ الاسراف ، قد برز بشدة تجعل الانسان يسأل نفسه أين يجدنظيرا لهذا الا عند شكسبير · فهى تقول انها لن تتردد فى أن تتبع أبيـــلارد حتى ولو رأته مندفعا نحو الجحيم · وينبغى له ألا يظن أنها على خير ما يرام فى ديرها · فعلى رسلكم جميعا : وذلك أنها لاتبرح تخشى أن تكدره أكثر مما تخشى أن تكدر الله (١٦) ·

ويبدو أن هناك لمسة من البدائية فى هذه الصراحة الخالية من كل تكتم ، هـذا الهيام المبـــاشر الخالى من العـاطفية الجارفة · واستميح القارىء عذرا اذا جنحت الى تسمية مثل هذا التعبير الجامع بأنه شىء غير لاتينى · وان هلويز لتـذكرنى بالنســـاء المذكورات فى مـلاحم السير (الساجا) الأيسلندية · فلو أنك جردت قصـــة أبيلارد وهلويز من العنصر المسيحى ، وحاسة الخطيئة ومن الانابة المتأخـرة ، فان ما يتبقى سينطبق تماما على احدى تلك القصص الضـــارية المنطوية على الهيام والعنف التى تركتها لنا الروح النوردية فى نفس ذلك الوقت · ولا شك أن اسمها جرمانى قح فهـــو هلفس أو هلفيدس ـ ولـكن هكذا كانت أسماء الغالبية العظمى من الرجال والنساء الفرنسيين فى ذلك العصر·

على أنه ينبغى ألا يداخلك أى خوف من أننى ساخوض فى حديث نظريات الأجناس البشرية · فانى لست أدفع بأن هلويز كانت جرمانية دما وانفعالات ، بوصـــف ذلك شـــيئا يناقض الأجـــناس اللاتينية (الرومانسية) · وكل ما فى الامر أنى أشير الى أن العالم الفرنسى فى ذلك الحـين كان أقرب الى أصوله البـربرية ، وأن من الخير أن ننسى الى حين النبرة الرومانتيكية التى اتشح بها اسم أول محبـــوبة عظيمة فى الأدب الغربى ، رغبة فى أن أتحسس فيه نغمة أقدم وأعمق ·

على أن الموضـــوع الذى يشغلنـا هنا هو الوصول الى شىء يشبه التقويم لشخص أبيلارد فى أثناء الانتفاضة المتلاطمة التى ألمت بالحيـاة فى زمانه · فما معنى هذه الكلمات Vitae suae inaudita novitas «حياته التى ليس لغرابتها مثيل » ؟ والواقع أنه لكى يتسنى للمرء منا فهم القرن الثانى عشر فهما صحيحا ينبغى له أن يتصور مجتمعا ندرت فيه الكتب ، ونـدر فيه كذلك من يســـتطيعون قراءتها ، على حـين أن من يستطيعون تفسيرها أندر كثيرا · وآية ذلك أن هيودى ســـان فيكتور يفسر أســـتخدام كلمة Lego (انى أقـــرأ) فى لغـة المدرسة بعبـــارة Lego Librum انى أقرأ الكتاب بنفسى ، أما عبـارة

Lego Librum illi فمعنــاها عنــده اني أفسره لشــخص آخر ، أى أنى أعطي دروســا فيــه ، على حين أن Lego Librum ab illo معناها انى أسمعه وهو يفسره ، انى أتابع محاضرته (١٧) • ولاشــك أن ندرة الـكتب والمضطلعين بفن القراءة أضفت على الـكلمة التى يتفوه بها الاستاذ قوة تأثير خارقة • أما نحن الذين يغمرنا طوفان من الكلمات التى نراها مطبوعة على القرطاس أو مترددة فى الهواء فالكلمة قد أخذت تفقد لدينا أكثر فاكثر ما كان لها أساسا من أثر سحرى • أما المجتمع الأكثر بدائية ، فالكلمة فيه تهبط على أرض بكر متعطشة الى الخصب ، فهى تقنع وتأمر ، وهى تقصى وتبعد أو تربط وتمتقل ، وهى بالاختصار تؤتى أثرها وتنــجز الافاعيل • وعنى عن البيان أن سلطان القلة من الأساتذة المتملكين ناصية الكلمة عظيم عظما خارقا • فكل أستاذ أعجوبة بدرجات متفاوتة • فهو يعرف ويعلم ، ولديه أسرار يكشفها لنا ان نحن استرضيناه •

فاين ينبغى أن يعثر عليهم ـ أولئك الاساتذة ؟ فى المدارس • ان المدارس أيضا كانت نادرة فى القرن الثانى عشر ، وكل واحــدة منها منارة تشع بالمعرفة • وفى الوقت الذى تقل فيه الكتب أو على الأقل لا تستطيع الجموع اليها وصولا ، والذى لا يوجد فيه شكل منتظم لتبادل الفــكر المكتوب ، تصبح المدرسة ـ شريطة وجود دافع الى المعرفة قوى وعام ـ مركزا،ثقافيا من الطراز الأول حقا • وذلك هو الموقف فى القرن الثانى عشر • ومهما يكن شأن ندرة المدارس آنذاك ، فان زيادة عددها مقيسة الى القرون السابقة ، كانت رائعة • ولم تكن المدرســة تحتاج الى الشىء الكثير : فبحسبها قاعة ومقرأة لحمل الكتاب ومعلما ـ وذلك كل ما فى الأمر •

وعلى الرغم من ذلك ، فان القرن الثانى عشر يمتــاز بزيادة عدد المدارس وعدد الطلبة بسرعة عظيمة فضلا عن التغير الذى ألم فى الحــين نفسه بحوافز المعرفة من حيث اتجاهها وشــكل مناشطها • فبــدلا من النشاط الفردىالمتفاوت فىدرجات انعزاله والصادر عن أوائل رجالاللاهوت والأدباء ، ظهرت آنذاك وبطريقة مفاجئة فيما يظهر حاجة الى تبــادل الجدل علنا أو الوصول الى التفاهم على ملأ من الناس ، حاجة الى خوض حومة الخصومة رغبة فى أظهار الناس جميعا على صــحة حجة أو مفهوم أو منهج ، وعلى أنها تفوق سواها • ذلك لأن علنية التعلم أخذت تبحث لها عن مدخل تلج منه • وهنا تقدمت طريقتا سلسلة المحاضرات والجدل

بوصفهما الشكلين الخارجين ، متخذتين من المنطق وسيلة ومركبا • ومن ثم وجب على المنطق على ما عرفه الناس عنه فى التقاليد الكلاسيكية أن يروى كل ظمآن الى برهان • وبدا كانما كل استدلال وكل قدرة على الحكم قد صارت مغلقة فى المنطق الصورى (الشكلى) •

ومن ثم حدث فى المدارس أن البحث عما أثبت بالبرهان فلسفيا بدأ يدفع الى الخلف دراسة علم الجراماتيكا Grammatica أى دراسة الآداب بأوسع معانيها • ولذا فان الروح الشاعرية الكلاسيكية لدى شخص مثل هيلدبرت من لافاردين ـ كانت ـ بوصفها ذاك ـ أقرب الى مرثية وداع للماضى منها الى بشارة آذنت بالعصر القادم •

ولكى يتسنى لنا الوصول الى الفهم الصائب لما أصابته الفلسفة من تحليق أثناء القرن الثانى عشر ، يجب علينا أن نوضح خلة بالغة الجوهرية تكاد توجد تقريبا فى كل ظاهرة من ظواهر التجديد الثقافى الحيوى • وأشير هنا الى موضوع بحثته فى محاضرة ألقيتها منذ أكثر من سنتين كاملتين (١٨) ، وآمل أن أبحثه عما قليل بطريقة أكثر تفصيلا : وهو موضوع عدم امكان الفصل بين عنصر اللعب وعنصر الجد فى الثقافة ذلك أن النشاط الفكرى لمثل هذا العصر من عصور التجديد ، ينطوى بدرجة تتفاوت زيادة ونقصانا على سمة من اللعب ، ولكنه لعب جاد راجح الوزن ، بل حتى خطر ، وان يكن رغم ذلك كله لعبا على كل حال•

وتتجلى سمة اللعب بأوضح صورة فى الحركة الفلسفية فى القرن الثانى عشر • وهناك شكلان يتبادلان المكانة على أصدق وجه ومعنى : وهما شكلان اتخذتهما غريزة المنافسة التى ارتقت الى منزلة شريفة فى عصر يستفز بقوة حياة لا تزال متبرعمة ، وهذان الشكلان هما برجاس الفروسية وألعابها والجدل المدرسانى (الاسكولائى)

وقد سمى أبيلارد باسم الشاعر الغنائى الجوال « التروبادور » بين علماء المدرسانية (الاسكولائية) • وليست هذه تسمية بعيدة عن الصواب ، غير أن لقب « الفارس الجوال » ربما كان أفضل (١٩) •

فانه هو نفسه عد عمله ضربا من المقارعة بالسلاح • ذلك أنه فى شبابه على حد قوله بادل على أسلحة للحرب مقابل اسلحة العقل مفضلا لأسلحة الاستدلالات الجدلية والخصومات على مغانم الحرب (٢٠)، وقد طوف مجادلا فى جميع الأقاليم التى قيل أن فن الجدل قد ازدهر فيها • وأقام « معسكر جيش مدرسته » على جبل سان جنفييف

« لكى يحاصر » المنافس الذى احتـــل مكانه فى باريس (٢١) • وقد حذر خصومه الناس من المعلم بطرس لابوصفه صاحب حجاج وجدل بل باعتباره محتالا ملغزا يلعب دور المضحك لا دور الحكيم العالم (٢٢) •

وكان كبار أساتذة الجدل يكتســـبون الأموال الطائلة • وكانت شهرتهم وثيقة الشبه جدا من شهرة أبطـال الرياضة فى عصرنا هذا • وكان الناس يتعقبون المعلمين الكبار ويفخـرون بأنهم رأوهم واتبعوهم (٢٣) • ويصور روسكلينوس ابيلارد صورة أقرب الى النم والمثلبة قائلا انه يعد كل ليلة النقود التى اجتلبها عليه تعليمه الزائف ، قبل انفاقها فى الخلاعة والفسوق (٢٤) • أما أبيلارد نفسه فهو يقول انه بدأ الدرس والتحصيل لكى يكسب المال ، وانه يكسب أموالا طائلة • وهو يحدثنا أيضـا كيف تحـــول عن دراسة الفيزيكا Physica أعنى الفلسفة، الى تفسير الكتب المقدسة نتيجة لرهان عقده (٢٥) •

قامت حياة المدارس فى القرن الثانى عشر على لمنافسة والخصومة المحتدمة ، وعلى التحاسد والتنابذ بالمثالب ، والوقاحة والتشهير •فيالها من لعبة ألغاز وقدح متحامل •••• يقول يوحنا السالسبورى ، كم من فخاخ من الكلمات قد نصبت وكم من شباك من مقاطع الحروف (٢٦) • ويصف هيودى سان فيكتور مدرســـة يحاول فيها العلماء غش بعضهم بعضا بألف حيلة وخدعة (٢٧) •

وليس يبدو عندى من المبالغة فى شىء ، الدفع بأن هناك علاقة معينة بين الأسبقية الطويلة الأمد لمسالة الكليات فى تطور الفلســـفة المدرسانية (الاسكولائية) وبين صفة الخصومة الرياضية التى تتصف بها المناشط المدرسانية (الاسكولائية) فى ذلك الحين •

وان عنصر اللعب المكون من المنافســـة العنيفة ، لو نظر اليه على اعتبار أنه ظاهرة احتماعية لشف عن اتجاه فكرى احتصت به العصــور العتيقة • وربما جاز تسميته باسم اتجاه السفسطة • فان قدرات البصيرة العقلانية تشحذ ، ولكن لا تتبين بوضوح حدود قدرتها على الحسم القطعى (Conclusiveness) كبرهان • وهذا الاتجاه الفـكرى البدائى الى حد ما هو بالضــــبط الشىء الذى جر مفكرى القرن الثـــانى عشر الى المنحدرات الوعرة الخطرة ، وجعل من أكثر من واحد منهم منشــــقا على الكنيسة بل ربما هرطيقا مارقا • ذلك أن المهارة فى استخدام طريقة

المحاجة الجدلية ، أفضت بهم الى منهج للبحث ، لم يتهيأ له عصرهم بعد ، بما هو عليه من افتقار الى المعرفة الطبيعة معرفة سليمة جيدة التمثل . وذلك بأن أية حجة كانت تعد لدى هؤلاء أساتذة الجدل سليمة وحاسمة قطعية متى كانت فى عرف المنطق الصورى غير قابلة للتفنيد . فلما أن طبقوا الحجاج الجدلى (Dialectic) على ما تحويه الديانة من صنوف الصدق ، اكتشفوا ثغرات وهوات لم يتوقعوها .

وليس الدافع الذى حدا بأبيلارد الى حقل اللاهوت هو التقوى . فقد أسلفنا اليك أن رفاقه غرروا به بطريقة أقرب الى اللعب ، وهو الفيلسوف ، حتى اجتذبوه الى المسائل اللاهوتية . وما كاد يستقر فى ذلك الميدان ، حتى راحت مهارته المنقطعة المثيل تلهم عقله أن يجد الحلول التى لم يشتبه فيها أحد قبله . توصل حول مسألة الكليات الى الرأى الذى أسماه فيكتور كازن (فيما يرى بعض العلماء وان لم تكن التسمية بالغة الصحة) باسم المذهب التصورى Conceptualism . وكما أوضح للمرة الثانية منذ بضع سنوات الكتاب الذى ألفه ج.ج . سايكس ، فان رأيه كان وجهة نظر يمكن ان يطلق عليها أسم مذهب أرسطو في الواقعية . وقد توصل اليه أبيلارد دون أن يطلع على كل ما كتبه أرسطو . فهو مذهب للواقعية يخفف من حدته أحد التحفظات . وعلى ذلك فان الرأى الجذرى البدائى ، الذى اكتسبت فيه المفاهيم العامة أعنى الكليات (Universals) طبيعة تكاد تكون أسطورية (ميثولوجية)، قد حل بتعريف تجريبى لم يكن وجهة نظر وسط بين بين ؛ بل هو تعريف دل على حدوث توجيه للمسألة قد غير تغييرا تاما وتعميق لنفاذ البصيرة . لقد أدخل الى المسألة قدر معين من النسبية . فان أبيلارد قد فهم أهمية وظائفنا الفكرية بوصفها كذلك ـ لامكان المعرفة والتعبير أيا كان نوعهما . وقد أدخل بين الأشكال المتضادة وهى الصوت (Vox) والقضية أو الشيء (Res) فكرة اصطنعها هى المدلول (Sermo) وابطل مسألة ماقبل Ante وما بعد Post . (٢٨)

على أن صياغة ما سمى بالمذهب التصورى لم تحول أبيلارد بأية حال الى محطم للأباطيل والنظم . بل لعلها على العكس من ذلك حولته الى طليعة رائدة لمن سيأتون بعده بمن فيهم توماس الأكوينى نفسه . والحل الذى ابتدعه معناه امكان قيام هدنة بين الجماعات المتصارعة . فقد قضى على المذهب الاسمى Nominalism القديم المتطرف ، ولم يعد الى الظهور

ثانية وبطريقة أكثر خفاء الا ابان القرن الرابع عشر • وهنا وجد المذهب الواقعي الذى لا غنى عنه مهربا من دائرة الأسطورة (الميثولوجيا) •

وماذا ينبغي للمرء أن يقول فى عبارة أبيلارد الشـهيرة «نعم ولا» Sic et non التى أثارت ذلك القدر الضخم من عدم الثقة بين معاصريه ، والتى كثيرا ما تعتبر أنها تمثل الأخذ المطلق بمذهب النسبية فى كل أمور الأخلاق والعقيدة ؟ وفيها يضع أبيلارد جنبا الى جنب أقوالا متناقضـة قالها آباء الكنيسة الأولون • وقد أوضح ما بينها من تناقض ، ثم طبق عليها الأصول الفنية للنقد فى ظل الحجاج الجدلى دون الوصول الى نتيجة• وكانى بذلك درسا فى التشكك لا نظير له • وان عبارة « نعم ولا » لتحوى بذور منهج كامل فى فقه اللغة(*)، يطبق على الكتب المقدسة ومأثور الروايات التاريخية • وفيهـا يثير الرجل كل لون من ألوان الشك : فهل النص محرف ؟ وهل أخطأ الكاتب ؟ أم هل أساء الناس فهمه ؟ على أن أبيلارد قد عرف فعلا أنه لا بد من وضع الظروف موضع الاعتبـار ، وأنه حتى آباء الكنيسة الأولون كانوا ينطقون بين الحين والآخر على أساس آرائهم الخاصة أكثر منهم على أسـاس الحقيقة ex opinione magis quam exveritate وأن من أنعم الله عليهم بنعمة التنبوء اتخذوا منه عادة يجرون عليها ، ولم يعرفوا على الدوام ما اذا كان الالهام الالهى يقودهم أم لا • وهو أمر قال انه نافع جدا أعانهم على الاحتفاظ بتواضعهم (٢٩) •

ويفسر أبيلارد عبارة الكتاب المقدس « أطلبوا تجدوا » بهذا المعنى : «وذلك أنك بالشك تصل الى البحث وبالبحث تصل الى الحقيقة(٣٠) ••» وهو قول كان يمكن أن يقوله فرانسيس باكون بعد ذلك بخمسة قرون • على أن الواقع هو أن تلك عبارة نقلت عن أرسطو •

فهل كانت عبارة نعم ولا الشهيرة تلك نزعة عصرية لم يسبق لها نظير ؟ أم تراها بالحرى أستعراض قوة « Tour de force » من الطراز العتيق لغريزة الكفاح والجدل ومظهرا Epideixis اى «استعراضا»، من النوع الذى كان سفسطائيو الاغريق يقيمونه ، وملحة فلسـفية بارعـة Jeu d'esprit ؟ ان جميع الظواهر تشير الى أنها لم تكن هذه ولا تلك • فان أحدث من درسوا لاهوت أبيلارد ، وهما جان كوتيو (٣١) و•ج•ج•

(*) يقصد بفقه اللغة هنا دراسة جميع فروع علوم اللغـة من نحـو وصرف وهجاء وبيان ونقد أدبى ، وهى فى الاصل المعارف التى كانت تمكن الناس من دراسـة وتفسير لغات اليونان وروما ‹‹ (المترجم) •

سايكس سالف الذكر يؤكدان أن أبيلارد هنا شانه في مواطن أخرى (ولم يكن الأول في هذا) انما كان يسير في خطى أرسطو عندما لخص المعرفة الموجودة وترك الالتباسات Aporiai لتكون أساسا لأبحاث تالية

ورغم هذا كله يظل أبيلارد الرجل المدرك لأضأل ظلال الفروق، رجل فهم العلاقات القائمة مع كلا جانبي أي موضوع ، الذى يعرض نقاط الاتفاق ووجهات النظر ويترك المسائل المبهمة مفتوحة لبحث تال بدل أن يعلن في ثقة مطلقة أن « هذه هي الطريقة التي عليها الأمر » · فهو يوضح كيف أن الكلمات التي لو بحثت على حدة لبدت كأنما لها نفس المعني الواحد ، سرعان وعلى حين فجأة ما يظهر أنها تدل على شيء مختلف تماما ، وهي في متن الجملة وسياقها · (٣٢) ولذا فان كوتيو يسمي فكرته « فكرة تبحث عن نفسها وتصحح نفسها ····· » (٣٣) وبدلا من قبول مبدأ الخلاص بمعناه الحرفي والمستيقى ، يستذيب جوهر تلك الفكرة بوصفه عملية الخلاص بأنها استثارة الشعور بالحب فى أرواحنا أو بتفسيره الخلاص بأنه أمر وتعليم الهي الينا بدل كونه فداء حقيقيا (٣٤) · وهو وان أنكر هو نفسه أنه علم الناس أن الخطيئة لا تقوم في العمل ولا الارادة ولا الرغبة ولا السرور ، فانه جرد اللاهوت من أساس نظريته فى الخطيئة بتخفيفه الخطيئة حتى جعلها حقيقة سيكولوجية بحتة · (٣٥)

وقد اقتربت روح أبيلارد من نواح كثيرة اقترابا عجيبا من وجهة نظر أصحاب المذهب الانسانى فى العصور المسيحية المتأخرة وبخاصة ارازموس · وقد خامره بالفعل نفس ماخامرهم من التوقير للأصول النقية للعقيدة في اللغات الأصلية على أن تفهم فهما صحيحا ، وان لم يلجأ هو نفسه للأصل اليونانى (٣٦) · وقد نسب صفة الالهام الى الفلاسفة الكلاسيكيين ، وكأنى به يضع قدرهم فوق قدر الأنبياء · ذلك إنه من المفكرين المستنيرين الذين لم يعلقوا أدنى أهمية على منجمين ولا الأثر الناجح صحيا للبركات والشفاء بطريق الايمان (*) ، ولطالما سخر برفق من القديس نوربرت الذى كان يؤنب الناس اذا لم ينجح في شفائهم بصلواته · (٣٧)

وان أناشيده النثرية المسجوعة وتراتيله التى الفها لعذارى دير الباراكليت لتنطوى على نغمة التفاؤل والرضا اللاهوتى بالعالم مما يذكرنا

(*) الشفاء بالايمان : هو الزعم بشفاء الامراض بواسطة الاعتقاد فى تأثير الصلوات المقامة لذلك الغرض . (المترجم) .

بالقرن الثامن عشر (٣٨) • وهو يبرز احساسا واعيا ونبيلا نحو حقوق المرأة وكرامتها ندر أن وجد فى الأدب الكنسى فى العصور الوسطى كما أن له وجه شبه ضخم باحساس ارازموس • (٣٩) ومن بين أعماله المفقودة كتـــاب اسـمه « Introductiones parvulorum المقدمات للأمور الصغيرة • »

ومن الواضح مع ذلك ، أن أبيلارد فى كل هذا الذى ذكرنا ينبغى ألا يعد بشيرا مؤذنا « بعصر النهضة » ؛ بل مفكرا من مفكرى العصر قبل القوطى • نعم ان عصريته الظاهرة انما هى فى ذاتها روح مبكرة ؛ أو قل انفتاح أفق عقلى لم يتطرق اليه بعد الاعتدال الدقيق الذى أدخله فى حقل الفكر الساذج النسقى الذى ظهر فى القرن التالى • وقد عد متطرفا مغاليا لأن الميدان كان لا يزال مفتح الفجاج والجنبات ، ولم يحط بعد بسور ولا سياج • ويقول اتيين جيلســون ، ان روح القرن الثانى عشر لتبدو لنا أقرب الى روح « عصر النهضة » من روح القرن الثالث عشر • فان القرن الثانى عشر يعد عصر اعداد ـ (٤٠) يعنى اعدادا لعمل الثالث عشر • فان بدا فى هذا شىء من التناقض ، فان الخطأ فيه يقع على عاتقنا ؛ ذلك أننا ألفنا أكثر مما ينبغى أن ننظر الى عصر النهضة ، على أنه النتيجة العامة النهائية لتطور العصور الوسطى • فلكى يفهم القرن الثانى عشر على وجهه الصحيح ينبغى ألا يوضع الى جوار السادس عشر جنبا الى جنب، بل الى جوار الثالث عشر •

ومهما تكن الزاوية التى ننظر منها الى أبيلارد فســـنجده كثمرة باكرها النضج ، اذ أنه نما فكريا أسرع قليلا مما تحتمله طاقته • فلم تنضج روحه فى دفء القوى السيكولوجية العظيمة التى أخذت تتدفق فى أكناف قرنه كما أن فكره لم ينبع عن أعماق الأزمة الخلقية الناشبة فى عصره • فانه كان رجلا اتجه الى الناحية الفكرية بدرجة بالغة أشد من ان تمكنه من أن يومىء لعصره الى الطريق الذى يطلبه قلب ذلك العصر ويستحث عليه • وفضلا عن ذلك فان المحتوى الايجابى لمحصوله العلمى اضال مع ذلك من أن يتيح له ان ينشىء عالما جديدا من المعرفة • ومعظم ما قد استشفه وحدسه واشتبه فيه أو توقعه ، فشى استخلصته عقليته العجيبة من القواعد الجوفاء للحجاج الجدلى باستخدامها احدى الحيل •

على أن خصمه اللدود برنارد كليرفو هو الذى يمثـــل القـــوى السيكولوجية الكبرى التى تلهب قرنه • فان هذين الرجلين اللذين وقفا

على طرفى النقيض من فكر القرن الثاني عشر كانا يتبادلان أعمق البغضاء. ويجمع كل عظماء رجال العقيدة على بغض أبيلارد بقدر ما أبغضه برنارد ان لم يكن أكثر ، وعلى الاتفاق على بكرة أبيهم على مقت ما اظهره أبيلارد من أساءة استعمال لفن الاستدلال وعلى الشكوى مما تولد عن ذلك من العقلانيه Rationalism غير المستساغة .

وقد رزق أبيلارد وروحه ابان حياته طائفة من المعجبين المتحمسين والمدافعين الغيورين . (٤١) وقل من الكتابات ما يلقى من الضوء الساطع الكشاف على الخصومة الفكرية فى القرن الثاني عشر ، مثل ماتلقيه كتابات الكاتب المدرساني برنجاريوس Berengarius من بواتيه في دفاعه عن أبيلارد ضد برنارد . اذ يكشف لنا عن كل شيء استطاع العصر أن يهاجم به « القس العالم الرقيق » (٤٢) . فانه راح فى أسلوب حيوى عنيف لاذع مليء بالتوتر الدرامى ، يصف « مجمع سانس Sens » الذى قضى بادانة أبيلارد . وهو يتهم برنارد بعدم التسامح والنفاق ، ويضيف الى ذلك قوله :

« اسمحوا لبطرس (يعنى بذلك ابيلارد) أن ينضم اليكم فيصبح مسيحيا . وان شئتم فسيصبح كاثوليكيا معكم . واذا لم تشاؤا ؛ فانه سيكون كاثوليكيا على الرغم من ذلك . وذلك لأن الله رب لنا جميعا.... لا يختص به واحدا منا بعينه . » (٤٣) ونعود فنقول ، ألسنا كأنما نسمع حديث أصحاب المذهب الانسانى المسيحى الذين ظهروا فيما بعد ؟

وثمة رجل دين آخر معاصر عظيم جاءت تصرفاته مطابقة لتلك الدعوة الى الصلح ، وهو الرجل الذى التمس منه أبيلارد ووجد عنده ملجأ وملاذا فى نهاية حياته القلقة غير المستقرة بعد أن أرهقته الملاحقة وانهكت قواه ، واعنى به بطرس الوقور رئيس دير كلونى .

وان أبيلارد فى قصة حياته ليدعو نفسه بالسهل سليقة وطبعا (٤٤) . ولا شك أن الأرواح العويصة الثقيلة لاتتسامح ازاء مثل هذه الروح السهلة ، أيا كان العصر الذى قد تظهر فيه . ولذا كرهوا أبيلارد مثلما حدث أن لوثر أبغض ارازموس بعد ذلك بأربعة قرون .

كما أن رد فعل القرن الثاني عشر لما ينطق به أبيلارد من كلم قريب الشبه جدا من عدة نواح لرد فعل السادس عشر ازاء آراء ارازموس .

ولو استعرضنا تطور الفكر المسيحي من أوله الى آخره ، لوجدنا طرازين فكريين في صراع دائم • وهو صراع من يحبون أن يستندوا الى أفكار جيروم ، ومن يقيمون فكرهم تأسيسا على آراء أوغسطين ، وهو التباين بين المزاجين الدينيين اللذين ظهرا على لسان أبوى الكنيسة الاولين • فجيروم كان رجل الدماثة الحضرية ، وكان رغم كل ما اتصف به من زهادة وديرية متأثرا بما للثقافة من متاع : كالأدب والعلاقة القائمة على التعاطف الفكري والفكرات المستنيرة وأشكال الفكر الأنثوى والحاجات التعليمية • أما أوغسطين فأمره لا شك معروف لدينا جميعا ، فهو الرجل صاحب القلب المتأجج والايمان المطلق •

وينتمى أبيلارد الى الفئة المنضمة الى جيروم • فانه أكثر من الاقتباس منه المرة بعد المرة ؛ كما أنه امتدحه ؛ والتمس عنده ونقل عنه تفسير الكتب المقدسة • (٤٥) ووقف ارازموس بعد ذلك في نفس الجانب •

وانضم الى صف أوغسطين من الناحية الأخرى كل من برنارد من كليرفو وهيودى سان فيكتور وغيرهم كثير قبل أن ينضم لوثر أيضا اليهم• وبلغ الأمر بالقديس برنارد أن سمى في حياته باسم «أوغسطين المبتعث» «وبهيو» أن دعى باسم «لسان أوغسطين» • وكثر تردد اسم أوغسطين على الألسن حتى أصبح ككلمة السر لأى حزب من المحافظين ، ليس فقط بوصفه رمزا للاحترام العميق للحجية والتقاليد الدينية بل وأيضا بوصفه رمزا لجوهر الايمان • وقد تعاورت التقلبات على قيمة كلمات أبوى الكنيسة الأولين واختلف ما لهما من وزن على الدوام في تاريخ العقيدة المسيحية • فكلما تأزمت أزمة دينية كبيرة رجحت كلمات أوغسطين كلمات جيروم في موازين العصور •

الأهمية السياسية والعسكرية لأفكار الفروسية في أخريات العصور الوسطى (*)

لا شك اني ساشعر بالحرج أن أقف بينكم ، وأن أتحدث في هذه الجمعية العامة اذا لم استمحكم عذرا في الاشارة الى الشرف العظيم الذى نال جامعة ليدن (التي أتشرف بتمثيلها) بتفضلكم بتوجيه الدعوة اليها . ومنذ بضعة أشهر ذكرنا عالم فرنسي في رسالة قدمها الى السوربون بالدين الذى تدين به جامعة ليدن لفرنسا . والواقع أن ذلك شيء لم يغب عن ذاكرتنا ، فكيف يستطاع نسيان أسماء سكاليجييه ودونوه وريفيه وسوميز الذين أضفوا باهر الضياء على ليدن و هولندا ؟ واني باسم احياء تلك الذكريات القائمة على تقارب روحي مديد الاجل بين فرنسا و هولندا ، أرجوكم التفضل باعارتي انتباهكم .

واني اذ أتحدث اليكم عن الأهمية السياسية والعسكرية للأفكار الفروسية في أخريات العصور الوسطى ، لست أدعي تقديم شيء جديد اليكم . وكل ما أبغيه هو أن أركز بؤرة الالتفات على بضع حقائق معينة معروفة جيدا وأن أسجل شيئا من رد الفعل المضاد للنزعات الحاضرة في عالم التاريخ .

والواقع أن مؤرخي العصور الوسطى في أيامنا هذه لا يكادون على الجملة يعطفون على الفروسية . فانهم اذ نقبوا في السجلات ، وهي التي يقل في الواقع ذكر الفروسية فيها ، قد نجحوا في تقديم صورة للعصور

(*) La valeur politique et nulitaire des idées de chevalerie à la fin du Moyen-Age. وهي في الاصل محاضرة القيت في الجمعية العامة لجمعية التاريخ السياسي في ١٦ يونية ١٩٢١ وقد نشرت لاول مرة في مجلة التاريخ السياسي Rev. hist. Dip. مج ٣٥ (١٩٢١) — ص ١٢٦ — ١٢٨ . ونشرت الترجمة عن النص الفرنسي في Verzamel de werken مج ٣ ص ٥١٩ — ٥٢٩ .

الوسطى غلبت عليها وجهات النظر الاقتصادية والاجتماعية غلبة تدفع الانسان في بعض الاحيان أن ينسى أن الفرسية كانت ـ بعد الدين ـ أقوى الفكرات التى ملأت عقول وقلوب أولئك الأقوام الذين عاشوا فى ذلك العصر الخالى . فكأننا قد ابتعدنا أشواطا بعيدة جدا عن الرومانتيكيين الذين رأوا أن العصور الوسطى انما هى فى المحل الأول حقبة الفروسية.

ومهما يكن شأن الفروسية فى زمن الحروب الصليبية ، فان مما يجتمع عليه الرأى اليوم أنها ابان القرن الرابع عشر أو الخامس عشر لم تكن الا ابتعاثا مصطنعا أو يكاد لشىء مات وفات أوانه من زمن بعيد ، والا ضربا من ميلاد جديد متعمد وغير مخلص لفكرات جردت من كل قيمة حقيقية . وهذا الهيام الرومانتيكى بجرأة آرثر ولانسيلوت واضرابهما يتمثل فى الملك يوحنا الطيب الذى أوشك أن يعرض للخطر استقلال فرنسا مرتين : أولاهما بهزيمته فى معركة بوآتييه ثم بمنحه مقاطعة برجنديا لأشجع أبنائه . وكان كل انسان فى عصره مشوقا الى تأسيس الهيئات الفروسية ، ومن ثم أصبحت حومات البرجاس والمقارعة هما البدعة (الموضة) الجديدة الشائعة آنذاك أكثر من أى عصر آخر ، وأخذ الفرسان الجوالون يقطعون أوربا طولا وعرضا تنفيذا لأعجب العهود وأشدها سرفا ، وكتبت القصص الرومانسية مرة ثانية ، كما أعيد احياء بدعة الحب الأرستقراطى السائد فى البلاط .

وهذا كله شىء يستطيع المرء منا لو شاء أن يعده ظاهرة سطحية وغير ذات بال : أعنى بدعة (موضة) جديدة أدبية ورياضية انتشرت بين النبلاء ثم هى بعد ذلك لا شىء .

على أنها حتى لو لم تكن الا ذلك ، لكانت رغم ذلك حقيقة تاريخية لها أهمية من الطراز الأول . وذلك لأنها كانت تدل على نزعة قامت فى روح العصر تدفع الناس الى أن يخلقوا من جديد فى الحياة الواقعية صورة مثالية للماضى . وغنى عن البيان أن تاريخ الحضارة حافل بمثل هذا النوع من الرغبة التى تدفع الناس أن يعيشوا الماضى من جديد . وليس ثم موضوع للدراسة أكبر أهمية . أليست تلك الرغبة الخالدة فى كمال لم يعد له وجود ، تلك الحاجة الى الابتعاث التى لا تروى غلتها أبدا ، شيئا أكثر أهمية وتشويقا للأنفس من معرفة ما اذا كان هذا السياسى أو ذاك من الخونة أو من الأغرار المخدوعين، وما اذا كان الهدف من هذه الحملة الحربية أو تلك هو منذ البداية الفتح أو مجرد تلهية الناس ولفت أبصارهم ؟

وأود أن أنبه الأذهان الى أنني استعملت لفظة الابتعاث أو « الميلاد الجديد » renascence • وينبغي أن يتضح أن الروابط بين « عصر النهضة » بمعناها كعصر تاريخي وهذا الابتعاث للفروسية ابان الفترة المتأخرة من العصور الوسطى أقوى كثيرا مما يدركه الناس عادة • ذلك أن ابتعاث الفروسية ليس في الواقع الا مقدمة « لعصر النهضة » تتصف بالسذاجة والبعد عن الكمال • فلقد زعم القوم أنهم لو أعادوا الفروسية الى الحياة لاستتبع ذلك نشورا لعصور التاريخ القديمة Antiquity ، ولا يخفى أن صورة العصور القديمة لم تقم في عقل القرن الرابع عشر منفصلة عن فكرة « المائدة المستديرة » • وان الملك رينيه ليصور في قصيدته « القلب العاشق » Le coeur d'amours قبور لانسيلوت وآرثر الى جوار قبور قيصر وهرقل وترويلوس (*) وكل منها قد زين بدروعه • والواقع أن تطابقا مصادفا من التسمية والاصطلاح قد ساعدنا على تقصى آثار أصول الفروسية الى العصور القديمة الرومانية فكيف يمكن التحقق من أن لفظة ميلس (Miles) الواردة في المؤلفات الرومانية لم يكن لها نفس معناها المعروف في لاتينية العصور الوسطى : أي « الفارس » ، أو أن اى اكويس Eques روماني لم يكن يتطابق والفارس الاقطاعي ؟ ونتيجة لهذا ، فان رومولوس اعتبر مؤسسا للفروسية لأنه أسس فرقة مكونة من ألف محارب راكب • وكتب مؤرخ يوميات برجندى اسمه ليفيفر دى سان ريمى يمتدح هنرى الخامس ملك انجلترا بقوله : « وقد حافظ على نظام الفروسية أحسن محافظة ، كما فعل الرومان من قبل » •

ومن الواضح أن التاريخ السياسي والعسكرى في القرون الأخيرة للعصور الوسطى كما وصفه فرواسار ومونستر ليه وشاستلان وغيرهم كثير ، يكشف عن قدر ضئيل جدا من الفروسية وقدر بالغ الضخامة من الجشع والقساوة وبرود الأعصاب والبعد عن العواطف مع اجادة ادراك المصلحة الذاتية والتحايل الدبلوماسي • تبدو حقيقة التاريخ كأنما تقوم على انكار بحت ومستديم لما للفروسية من مثل أعلى خيالى •

ومع ذلك فان هؤلاء الكتاب جميعا كانوا ينظرون الى تاريخ عصورهم مستضيئين بكامل أنوار مثالهم الأعلى العظيم ، وهو الفروسية • وعلى الرغم

(*) ترويلوس : هو في الاساطير اليونانية ابن هيكوبا وبريام ملك طروادة .
(المترجم)

مما يتجلى فى حكاياتهم من ارتباك ورعب رتيب ممل ، فانهم اعتقدوا أن التاريخ يسبح فى جو من الشهامة والمروءة ، والوفاء والواجب • فهم جميعا يستهلون حديثهم باعلان خطتهم من تمجيد الشجاعة وفضائل الفروسية ومن انتوائهم سرد « المغامرات النبيلة والفتوح وأعمال البسالة والمهارة فى المقارعة بالسلاح » كما يقول ديسكوتشى d'Escouchy — أو « الأعاجيب العظيمة والألاعيب الممتازة بالسلاح التى جرت نتيجة للحروب العظمى ، كما عبر فرواسار • ثم لا يلبثون جميعا فيما بعد أن يتوارى الأمر عن أبصارهم • فان فرواسار « الابن الطويل اللسان » للفروسية يسرد قائمة لا نهاية لها من الخيانات والقساوات دون أن يبدو عليه الشيء الكثير من التنبه الى التناقض بين آرائه العامة وبين محتويات رواياته المسرودة •

وهؤلاء المؤلفون جميعا مقتنعون أرسخ اقتناع أن خلاص العالم وقيام قسطاس العدالة فيه يعتمدان جميعا على فضائل النبلاء • فالزمن زمن سوء ؛ ولا علاج له الا بالفروسية • واليكم ما قاله كتاب أعمال الماريشال بوكيكوه فى هذا الموضوع : « شيئان استقرا فى العالم بارادة الله ، كعمودين قاما ليدعما نظام القوانين الالهية والإنسانية ••• وبدونهما يصبح العالم مثل شيء مرتبك مشوش قد خلا من كل نظام ، وهذان العمودان المبرآن من كل عيب هما « الفروسية والعلم » ، وهما فرسا رهان يحسنان الجرى معا » •

وتجنح فكرة الفروسية الى غزو كل أرض حتى ميدان الميتافيزيقا نفسها • فان جان مولينيه يمجد أعمال المقارعة بالسلاح التى قام بها ميكال كبير الملائكة بقوله : « انها أول أعمال الفروسية وبسالة الفرسان » • من هنا يتجلى أن فكرة الفروسية شكلت عند هؤلاء المؤلفين المجموع الكلى لمفاهيم عامة راحوا يفسرون لأنفسهم بمساعدتها ميادين السياسة والتاريخ • ولا مراء أن مثل هذه وجهة النظر شيء خيالى مضحك وضحل قليل الغور • أما وجهة نظرنا نحن فهى أرحب افقا بكثير : فهى تضم مثلا الأسباب الاقتصادية والاجتماعية • ومع ذلك فان هذه الرؤيا التى تمثلوها لعالم تحكمه الفروسية ، مهما يبلغ من سطحيتها وخطئها ، انما هى أوضح فكرة استطاع العقل العلمانى فى العصور الوسطى بلوغها فى مجال الفكرات السياسية • فهى القاعدة التى استطاع بها الانسان فى تلك الأيام بطريقته الضعيفة المسكينة فهم التركيب المعقد المروع للأحداث • فكل ما رآه حوله ان هو الا العنف والارتباك • والعادة أن الحرب كانت عملية مزمنة من الغارات المفردة المتباعدة • على حين أن الدبلوماسية كانت

اجراء بالغ الجدية والوقار شديد الحشو واللغو ، يصطدم فيه حشد عظيم من المسائل المتعلقة بتفاصيل الاختصاص ، مع بعض التقاليد البالغة الشيوع وبعض نقاط الشرف ٠ فجميع المفاهيم التى نستخدمها لكى نفهم التاريخ كانت تعوزهم تماما ، ومع ذلك ، فانهم ـ شأننا تماما ـ أحسوا بالحاجة الى التماس نمط فيه يتخذونه قاعدة لأحكامهم ٠ لقد أحسوا بالحاجة الى شكل يصاغ فيه فكرهم السياسى ، وهنا دخلت الحومة فكرة الفروسية ٠ وقد تحول التاريخ لديهم بفضل قصص الفروسية الى منظر وقور يمثل الشرف والفضيلة ، أى الى لعبة نبيلة ذات قواعد بطولية تقوم الأخلاق ٠

ورب قائل يقول ان هذا كله ، وان انطوى على أهمية قصوى بالنسبة لتاريخ الفكرات ، الا أنه لا ينطوى على القدر الكافى من البرهان الذى يثبت أن تقاليد الفروسية كان لها اى أثر حقيقى فى مجرى الأحداث السياسية ٠ وهو الأمر الذى نهضت لشرحه وبسطه ٠ فهل هو مع هذا ينطوى على بعض الصعوبة ؟ ولعلكم اذ تذكرون أنى أطلقت على الملك يوحنا الطيب اسم الطراز الممثل لهذا الميلاد الجديد للفروسية فى العصور الوسطى ، تتذكرون دون أدنى ريب ، أن حكمه قد جلب الكوارث على فرنسا ، وذلك بالذات بسبب تحزبه الشديد لنظام الفروسية ٠ فانه خسر معركة بواتييه بسبب ما أبداه من حماقة ومن عناد أملته عليه الفروسية ازاء فنون الحرب والتكتيك التى استخدمها الجيش الانجليزى الأقل منه عددا ٠ وبعد فرار ولده الذى كان رهينة ، ذهب الملك بنفسه الى انجلترا فى ولاء منه لكلمة الشرف التى قطعها ، تاركا مملكته لأخطار وصاية أخرى على العرش ٠ وثمة عمل آخر من أعمال الفروسية يستولى على الاعجاب كله : وذلك أن فصل برجنديا مهما كانت التقديرات السياسية التى استترت وراءه ، كان الدافع الأكبر اليه دافعا فروسيا ، أصبحت مصلحة الدولة تلقاءه لا قيمة لها ـ وهو المكافأة على الشجاعة التى أبداها فيليب الصغير فى حومة بواتييه ٠

ونقتصر على هذا المثال لاقناع القارىء بأن فكرات الفروسية استطاعت أن تؤدى دورا حقيقيا وجالبا لأفدح المصائب فى مصير الأمم ٠ بل لعله يصح لنا أن نقول ان السياسة والحرب أمران كان الناس يتصورونهما من وجهة النظر الفروسية ، مهما كانت الحقائق الدبلوماسية أو الاستراتيجية ٠ فكل نزاع ثار بين بلدين كان يتخذ فى عقول الناس صورة قضية قانونية بين شخصين نبيلين ، باعتباره « نزاعا » بالمعنى القانونى للكلمة ٠ وكان المرء من هؤلاء يؤيد سيده ومولاه فى أى « نزاع » مثلما يتبعه الى ساحة

القاضى ليقسم اليمين مؤيدا له · ونتيجة لهذا ، لم تكن أية معركة لتختلف الا فى الدرجة ، عن النزال القانونى أو نزال الفرسان فى الحلبات ·.ومما يؤيد ذلك ، أن أونوريه دى بونيه فى كتـــابه « شـجرة المعـــارك » Arbre des batailles يضع الأمور الثلاثة تحت جنس واحـد ، وأن فرق بعناية بين « المعارك العامة الكبرى » وبين « المعارك الخاصة » ·

وعن هذه الصورة الكلية للحرب باعتبارها مجرد بسط للنـزال الفردى نجمت الفكرة القائلة بان خير الوسائل لتسوية خـلاف سـياسى هى النزال الفردى بين الأميرين ، أى طرفى « النزاع » · وهو مثال عجيب لمفهوم سياسى راود العقول لعدة قرون بوصفه احتمالا خطيرا جدا ومنهاجا عمليا حقا ، وان لم يجرب عمليا فى أى يوم من الأيام · نعم انه حدث حتى عهد متأخر من القرن السادس عشر أن عددا من الحكام فى بلاد مختلفـة أعلنوا عن عزمهم على دعوة خصمهم الى القتال فى ساحة النزال · فقدموا التحدى فى صورته المناسبة ، واستعدوا للقتال بحماسة عظيمة · ولكن لم ينجم عن ذلك بعد هذا أى شىء ·

وربما أمكن اعتبار هـذا شيئا لا يتجاوز شكلا من أشكال الاعـلان السياسى ، اما للتأثير على العدو أو لتهدئة مشاعر الرعايا وما يحسونه من ضيم وضيق · غير أنى أميل الى الاعتقاد أن الأمر انطوى على شىء أكثر من ذلك ، شىء أحب أن أسميه بالتوق الى التطابق الوهمى ، والمخلص فى الحين نفسه ، مع المثل الأعلى للفرسنية ، بالوقوف أمام العالم كله فى صـورة نصير العدالة الذى لا يتردد فى التضحية بنفسه من أجـل شعبه · والا فعلى أى وجه آخر نستطيع تفسير ذلك الدوام المدهش لمثل هذه الخطط الداعية الى المبارزات بين الملوك والأمراء · مثال ذلك أن ريتشارد الثانى ملك انجلترا عرض هو وأعمامه دوقات لانكاستر ويورك وجلوستر القتال مع ملك فرنسا شارل الخامس وأعمامه أدواق أنجو وبرجنديا وبرى · وتحدى لويس دى أورليان هنرى الرابع ملك انجلترة وكذلك تحـدى هنرى الخامس الانجليزى ولى عهد فرنسا الدوقين قبل زحفه على آجنكور· كما أن دوق برجنديا فيليب الطيب أظهر حالة تقارب التعلق الجنـونى بهذه الطريقة لتسوية المنازعات · فانه فى (١٤٢٥) تحـدى همفرى دوق جلوستر فيـــما يتعلق بالمسألة الهولندية · وكانت طريقة التعبير عن الموضوع كشأنها دائما ــ على الصورة التالية : « انه رغبة فى عدم اراقة الدم المسيحى وهلاك الأهالى ، الذين يمتلىء قلبى بالرحمة لهم ، أرغب فى أن يسوى هذا النزاع بجسمى ، دون الانفلات الى طريق الحرب التى ربما

استتبعت هلكة كثيرين من نبلاء الرجال وغيرهم من كل من رجال جيشك وجيشي ، والقضاء على حياتهم بصورة مستوجبة للرثاء . »

وتهيأ كل شيء لخوض النزال : فجهزت الدروع الفاخرة وثياب التشريفة الفخمة وأعدت السرادقات والرايات والأعلام والشعارات المطرزة على دثارات ودروع كل حكم، وقد حلى كل شيء حلية فاخرة بشعارات الدوق وشاراته ، وهيى الصوان والفولاذ وصليب القديس أندروز . وشرع فيليب في القيام بممارسة تدريبه ، « جمعت بين الامتناع عن الطعام وأخذ التداريب على تنظيم التنفس » . وطفق يتدرب على يد أساتذة المسايفة في حديقة هسدان Hesdin التي يملكها . وان دى لابورد ليكتب بالتفصيل النفقات التى ترتبت على تلك المسالة ، ومع ذلك فان المعركة لم تقع .

على ان هذا لم يمنع الدوق بعد ذلك بعشرين عاما من ابداء الرغبة في الفصل في مسألة تمس لوكسمبرج بنزال مفرد مع دوق سكسونى . واذا هو يقسم اليمين أيضا قرب نهاية حياته على الاشتباك فى مبارزة فردية مع سلطان الأتراك .

وسنجد عادة التحديات هذه بين الملوك والأمراء لا تزال قائمة حتى وقت بلغ فيه «عصر النهضة» عنفوانه . فان فرانسيسكو جونزاجا يعرض أن يتولى تخليص ايطاليا من سيزار بورجيا بمقاتلته بالسيف والخنجر . وحدث فى مناسبتين أن شارل الخامس نفسه اقترح على ملك فرنسا أن يتوليا بنفسيهما تسوية ما بينهما من خلافات بالنزال الفردى .

وعلينا الآن الا نحاول ان نحدد بالضبط البالغ درجة الجدية والاخلاص فى هذه المشروعات الخيالية السخيفة التى لم توضع أبدا موضع التنفيذ . ولا شك أنها كانت خليطا يجمع بين الاقتناع المخلص والزهو البطولى المصحوب بالجلبة الصاخبة . وينبغى ألا يغيب عنا أن كل حضارة من الحضارات العهيدة يفلت منا فيها ويخدع نواظرنا الخط الدقيق الفاصل بين ما هو مخلص مطبوع وما هو مصطنع موضوع . وحياة الفروسية يختلط فيها على الدوام عنصر من اللعب الجاد الوقور مع العقل وتقدير العواقب . ولن يتهيأ لامرىء فهم جميع نواحى السياسة فى العصور الوسطى ان هو أهمل عنصر اللعب ذاك .

وأقرر أمامكم أنى قلت « اللعب »،أليس الأحرى أن يسمى ذلك بالانفعال أو الشهوة ؟ وليس معنى ذلك أنى أريد أن أقول انه لا وزن

للانفعالات والشهوات في الحيـاة السياسـية في زماننا • ولكنها ابان العصور الوسطى كانت تجد وسيلة التعبير عنها في أشكال محددة مميزة ، أشكال تكاد تتجسد مثل الأشكال والرسوم المعنوية التي ترى في الطنافس• ذلك أن شهوة الشرف والمجد والانتقام اكتسبت في عقول الناس فخامة الفضيلة وجلال الواجب • فان أي أمير من أمراء القرن الرابع عشر كان يعد الانتقام واجبا سياسيا من الطراز الأول ، ولا شك أنه واجب لا يمت الى المسيحية ، ومع ذلك فهو لديه واجب له صفة القداسة • والحق انه ليس هناك دافع آخر الى الحرب راق أخيلتهم بقدر ما راقها عنصر الانتقام • فانه حسـبما يروى في « منازعات أبطـال السـلاح الفرنسـيين والانجليـز « Débat des heraulx d'armes de France et d'Angleterre وجد « النزاع العادل » الذى يلزم ملك فرنســا بفتح انجلترا ، أساسا له هو في المحل الأول حادثة مقتل ريتشارد الثاني ، وهو زوج أميرة فرنسية، وأن القتيل لم يجد من ينتقم له • ولم يرد الا في المحل الثاني ذكر التعويض عن « العدد الذى لا حصر له من الشرور » التي قاسـتها فرنسـا على يد الانجليز فضلا عن « الثروات الضخمة » التي ترجى من وراء الفتح •

ولكننا أوشكنا على الخروج عن الموضوع ، وذلك أن الانتقـام حين يحلل التحليل النهائي ، يقع في طبقة من العقل البشرى أعمق كثيرا من الفروسـية وان كان نقطة من نقاط الشرف تحتـل مقام الصـــدارة من الفروسية نفسها •

من أجل ذلك أرى أن نرجع الى آثار فكرات الفروسية ، في أضيق معاني ذلك المصطلح ، على ادارة دفة الحرب • وبحسبنا مثـالا واحـدا لتوضـيح كيف أن المصالح الاسـتراتيجية والتكتيكية ظلت عـلى الدوام تصطدم بتحزبات الفروسية وتحاملاتها• ففي ذات ليلة قبل معركة آجنكور ببضعة أيام ، ركب ملك انجلترة لملاقاة الجيش الفرنسي ، فتجاوز عن طريق الخطأ القرية التي اختارها له الموكلون بالأعلاف في جيشه لقضاء الليل فيها • وكان أمامه متسع من الوقت للعودة وكان له أن يفعل ذلك لولا أن اعترضته احدى نقاط الشرف • ذلك أن الملك « بوصفه الحارس الأكبر لمراسم الشرف المحمودة » •• كان أصدر من توه أمرا كلف بمقتضاه فرسانه بخلع دروعهم أثناء الاسـتطلاع ، وذلك لأن شرف الفـارس لا يسمح له بالتراجع وهو لابس عتاد القتال ودروعه • وقد حدث أن الملك نفسه كان ارتدى دروعه ، لذا لم يستطع الرجوع الى القرية المعينة بعد أن تجاوزها • من أجل ذلك قضى الليل في المكان الذى بلغه وجعل الطليعة تتقدم تبعا لذلك ، على الرغم من الأخطار التي ربما نجمت عن ذلك العمل •

وليس ثمة شك أنه عندما يتخذ قرار هـام فلا بد أولا أن تتغلب الحكمة الاستراتيجية على نقاط الشرف في معظم الأوقات • وهناك الدعوات المألوفة الى العدو للتفاهم على اختيار مكان للمعركة ـ وهي دلالة واضحة على ما قام في عقول الناس من التشابه بين المعركة والفصـل في قضية قانونية ـ وهي دعوات كانت تقابل بالرفض على وجه العموم من الجانب الذي يحتل المركز الأنسب • ومع ذلك ، فان دواعي العقـل لم تكن هي الراجحة في جميع الحالات • فقبل معركة ناجيرا أو نافاريت التي أسر فيها برتران دي جسكلان ، صمم الدون انريك دي تراستامارا على قياس قوة جيشه على قوة العدو في السهل المنفسح مهما كان الثمن • فضحى بإرادته بالمزايا التي أتاحها له وضع الأرض بمنطقة العمليـات ، وكانت نتيجة ذلك أن خسر المعركة •

وليس من المبالغة في شيء القول بأن الأفكار المتعلقة بالفروسـية كان لها على الدوام أثر ثابت في كل ما يتعلق بادارة دفة الحرب ، فهي تارة تتسبب لنا في تأخير نهاية احدى الحروب ثم في التعجيـل بها آنا آخر ، وتتسبب في اضاعة الفرص واهمال اجتناء الفوائد • فكانها نتيجة لذلك ذات أثر حقيقي ، ولكنها لو أخذت في مجموعها ، لتجلى أن أثرها ذلك سلبي •

وبرغم ذلك ، فان هناك جانبا آخر للمسالة ينبغي أن نخصص لبحثه بضع لحظات • وقد سـبق لي وأنا أشـير الى نظام الفروسية وفكراتها بوصفها لعبة نبيلة من قواعد الشرف وسنن الفضيلة ، أن لمست النقطة التي يستطاع فيها تعقب علاقة بين الفروسية وبين تطـور قانون الأمم أعني القانون الدولي • وأشير هنا أن أصول ذلك القانون الدولي تكمن في عهود التاريخ القديمة وفي القانون الكنسي ، بيد أن الفروسية هي الخميرة التي هيأت أسباب تطور قوانين الحرب • وفكرة قانون الأمم سبقها الى الوجود ومهد لها المثل الأعلى للفروسية ، ذلك المثل الداعي الى قيام حياة صالحة تقوم على الشرف والولاء •

وليس قولي هذا فرضا افترضه وأقدمه اليكم • فان أول عناصر قانون الأمم يمكن العثور عليها مختلطة بقواعد من الافتاء الصبياني التـافه في غالب الأحيان تدور حول مرور الجيوش وحول منازلات الحلبة • وقد حدث في ١٣٥٢ أن الفارس جفرواه دي شارني (الذي توفي فيما بعد بساحة بواتييه وهو يحمل العلم) ، وجه الى الملك وقد أنشأ من فوره « عقـد فرسان النجمة » رسالة مكونة من قائمة طويلة من المطالب أو الاستفسارات

Demandes ، أى الاستفتاءات المتعلقة بالعـــاب الفروسية وباليرجاس والحرب • وتقع مبارزة ألعـاب الفروسية ومنازلات البرجاس فى المقام الأول ، ولكن أهمية الأسئلة المتعلقة بشئون الحرب تتجلى من خلال تفوقها العددى الكبير فى تلك القائمة • وينبغى ألا يغرب عن القارىء أن « عقـد فرسان النجمة » هو الذروة العليـا التى بلغتهـا النزعات الرومانتيكية الفروسية ، التى أنشئت صراحا وقصداً « على نسق المائدة المستديرة » •

وهناك عمل أذيع صيتا من استفسارات Demandes جفرواه دى شارنى ظهر فى قريب من نهاية القرن الرابع عشر وظل معمولا به حتى القرن الســـادس عشر وهو كتاب « شجرة المعـــارك « L'arbre des Batailles » الذى ألفـــه أونوريه بونيـــه ، وهـــو رئيس دير ســيلونيه بمقاطعة بروفانس• ومما أدهشنى أن أرنست نايز Nys ، الذى وجهعناية بالغة ودراسة مستفيضة للمؤلفين الرائدين الذين بشروا بجروشيوس ، وأونوريه بونيه بوجه خاص ، قد تجاهل نفوذ فكرات الفروسية وأثرها فى تطور قانون الأمم • على أن مدى كون الفروسية الفكرة المرشدة التى ألهمت المؤلف (رغم أنه من رجال الدين) فكراته الرائعة لن يبدو أوضح فى أى مكان منه فى كتاب « شجرة المعارك » • ذلك أن المسائل المتعلقـة بالحرب العادلة وغير العادلة ، وفكرتى الحق فى الغنائم والوفاء بالعهود ، انما تعتبر فى رأى بونيه من حالات السلوك الفروسى التى لابد من معالجتها فى تفصيل خاص وشكلى ، بينما هو يمر مرا عاجلا بالمســائل المتصلــة بالشرف الشخصى وأشد مسائل قانون الأمم جدية وخطورة • واليكم على ذلك مثلا أو مثلين : « هل ينبغى التعويض عن عدة السلاح التى تفقد فى المعركة ان كانت مستعارة ؟ » • « وهل لو حدث أن عدة السلاح والخيل المستأجرة للمعركة فقدت فى أثنائها ، أينبغى التعويض عنها أم لا ؟ » • ومن المعروف أن افتداء الأسرى النبلاء كانت له أهمية قصوى فى حروب القرون الوسطى ، وعلى هذه النقطة بوجه خاص يلتقى الشرف الفروسى ومبادىء القانون الدولى • « وهل يجوز أنه لو أخذ رجل أسيرا وهو فى حراسة آخر ، أن يلزم الأخير بافتدائه على نفقته الخاصة ؟ » • « وهـل يجوز أنه اذا اضطر رجل الى العودة الى السجن بعد اطلاق سراحه منه ليزور أصدقاءه وليتفقد شئون ديونه دون أن يستطيع تسويتها ، أن يطلب الى ذلك الرجل العودة الى السجن ولو تعرض للموت ؟» • «والحالات النوعية الخاصة تنهار أمام المسائل ذات الطبيعة العامة • وانى فى هذه المرة أريد أن أضع السؤال التالى : وأعنى به ، « بأى حق أو لأى سبب يستطيع المرء أن يشعل الحرب على العرب أو الكفرة ، وهل من حق البابا أن يمنح العفو

والغفران على مثل تلك الحروب » . ويثبت المؤلف أن هذه امور لا يجوز السماح بها ، حتى ولو بقصد دفع الوثنيين الى اعتناق العقيدة . أما عن المسألة الهامة وهى « هل يجوز لأمير أن يمتنع عن السماح بمرور أمير آخر من خلال بلاده » . انى لا آكاد أتفق مع المؤلف عندما يثبت أن ملك فرنسا له الحق فى طلب المرور من خلال النمسا ليقاتل المجر . على أننا من الناحية الأخرى نوافق تماما على جواب بونيه عن سؤاله عما اذا كان يجوز لملك فرنسا ان كان فى حالة حرب مع انجلترة أن يأسر « الانجليز المساكين من تجار وعزاق أرض ورعاة يرعون قطعانهم فى الحقول . » ويجيب بونيه عن هذا السؤال بالنفى قائلا : ليست الأخلاق المسيحية هى وحدها التى تنهى عن ذلك ، بل « شرف العصر أيضا » . هذا وان روح الرقة والانسانية الذى يحل به المؤلف هذه المسائل يصل الى حد منح الحراسة والتوصيل الآمن فى أرض العدو لوالد طالب انجليزى يرغب فى زيارة ولده المريض فى باريس .

ومما يؤسف له أن كتاب « شجرة المعارك » لم يكن الا بحثا نظريا. اذ أننا نعلم علم اليقين أن الحرب اتصفت فى تلك الأيام بأقصى القساوة. فان القواعد الممتازة والاعفاءات السخية التى عددها ذلك الأب الطيب رئيس دير سيلونيه قلما عمل بها أحد . ومع ذلك فلو ان شيئا قليلا من السماحة دخل ببطء فى المعاملات السياسية والعسكرية ، فلعل ذلك جاء نتيجة لمشاعر الشرف أكثر منه للاقتناعات الخلقية والقانونية . وقد كان الواجب العسكرى يعد فى تصور الناس وفى المقام الأول شرفا ينسب الى الفارس .

فمما يروى عن تين Taine قوله : « ان الدافع الأكبر للسلوك عند الطبقات الوسطى والدنيا هو المصلحة الذاتية . أما الأرستقراطية فالدافع الأكبر للسلوك عندها هو الكبرياء . والواقع أنه لا يوجد بين عواطف الانسان العميقة ما هو أشد من الكبرياء تعرضا للتحول الى الأمانة والوطنية والضمير ، وذلك لأن الرجل المتكبر يحس بحاجته الى احترام الذات ، ولكى يحصل عليه يدفع الى أن يستحقه » . ويخيل الى أن هذه هى وجهة النظر التى ينبغى أن ينظر من خلالها الى أهمية الفروسية بالنسبة لتاريخ الحضارة : اذ يتخذ الكبرياء لنفسه صورة لها قيمة خلقية عالية ، وهو كبرياء الفارس الذى يمهد الطريق للسماحة والقانون .

وما عليكم ان شئتم أن تقنعوا أنفسكم بأن مثل هذه التحولات في مجال الأفكار حقيقية ، الا أن تقرءوا قصة الفتاة الصغيرة « Le Jouvencel » وهي قصـــة الترجمة الرومانســـية التي ألفها جان دي بويل de Bueil رفيق السلاح لعذراء أورليان · واسمحوا لي الآن أن أنقل اليكم فقرة وجدت فيها سيكولوجية الشجاعة طريقة بسيطة ومؤثرة للتعبير عن نفسها ·

ان الانسان منا ليشتد حبه لرفيقه في الحرب اشتدادا · ومتى رأى الانسان ان معركته عادلة وأن اخوانه في الدم يجيدون القتال ، يترقرق الدمع في العين · وان شعورا حلوا من الولاء والرثاء ليملأ القلب عندما يرى صديقه يقدم بكل شجاعة عـلى تعريض جسمه للمخاطر لكي يؤدي ما عليه في سبيل تنفيذ أمر خالقه · وعندئذ يستعد المرء للقاء الموت معه أو العيش معه ، ومن أجل المحبة لايتخلى عنه · وعن هذا تنشأ متعة بالغة توحي بأن من لم يجرب ذلك لم يؤت من الانسانية ما يمكنه من أن يتحدث عما فيه من بهجة · أفتظنون أن رجلا يفعل ذلك يخشى الموت ؟ مطلقا ، وذلك أنه يحس أنه من فرط القوة ، ويحس من بالغ النشوة ما يجعله لا يدري أين هو · والحق انه لا يخاف شيئا ·

وهذا هو روح الفروسية الذي لابد أن يحول نفسه الى وطنية · ففيه تكمن أجود العناصر كلها : روح التضحية والرغبة في العـدالة وحماية المظلوم وقد انبجست في تربة الفروسية · وان البلد الأمثل للفروسية وهو فرنسا ، لهو المكان الذي سمعت فيه لأول مرة النبرات المثيرة ، نبرات حب الوطن مختلطة بعاطفة العدالة · ولا حاجة بالمرء أن يكون من كبار الشعراء لكي يقول هذه الأشياء البسيطة بكرامة · وليس بين الكتاب في تلك الأزمان من أعطى للوطنية الفرنسية تعبيرا أشد تنوعا ومسا للنفوس من يوستاش ديشان Eustache Deschamps وهو شـــاعر متوسـط لقدرات أو يكاد · واليكم مثلا العبارات التي يخاطب بها فرنسا :

لقد احتملت ودون أدنى ريب ستحتملين
ما دام العقل موضع حبك
وليس أمامك من سبيل آخر تملكينه ، فارفعي الميزان اذن
ميزان العدل في نفسك ، واحرصي على الحفاظ عليه جيدا

ولم تكن الفروسية لتظل المثل الأعلى للحياة على كرعدة قرون لولا أنها تنطوى على قيم اجتماعية عالية· والواقع أن مبالغتها فيآرائها السمحة الكريمة الخيالية هى نفسها مكمن قوتها · فلم يكن فى الامكان قيادة روح العصور الوسطى ، تلك الروح الشرسة المحتدمة ، الا باتاحة مكان بالغ السمو يتبوؤه المثل الأعلى الذى ينبغى أن تنتهى اليه آمالها المرموقة ·

وعلى هذا النهج درجت الكنيسة ، وعليه أيضا دأب الفكر الاقطاعى · ولا يستطيع انسان أن ينكر أن الواقع قد كذب على الدوام مثل تلكالأوهام الرفيعة التى تحلم بقيام حياة اجتماعية نقية ونبيلة · ولكن أين كنا نكون ان لم تتسام أفكارنا مطلقا فوق الحدود الدقيقة لما يمكن دركه ؟

القديسة جان دارك (*) كما عالجها برنارد شو

- ١ -

المسرحية والتمثيل فيها

لو أن هناك معجزة واحدة أهون شأنا من أن تبرر ضم جان دارك الى عداد القديسين ، فان تلك المعجزة تتجلى فى أنهـــا تمكنت من أن تمسح التلعيبة الساخرة عن أسارير شو المازحة ، وأن ترغم ذلك البهلوان على الركوع على ركبتيه لحظة من الزمان ، وهو الذى ظل الدهر كلـه ينقلب ويدور رأسا على عقب حول عمود المتدلية (**) التى يستعرض عليها مهارته • وليس لأحد الحق فى أن يطلب الى أستاذ الكوميديا الساخرة أن يمتنع عن نكتة وعن كل أثر كوميدى هازل على امتداد مقدمة طولها اثنتان وستون صفحة ، وتمثيلية تستغرق ثلاث ساعات ونصف الساعة • ولكن حتى بغض النظر عن أثر المسرحية نفسها ، فان مجرد احساس الانسان أنه مستطيع فى هذه المرة أن يقرأ المقدمة دون أن يهز كتفيه هزة استهجان واحدة ، لهو برهان على أن شيئا غير عادى يحدث • ذلك أن شو الذى على يديه أصبح قيصر « رجل المقادير » صغيرا وأحمق ، قد جرب الآن قوة العمل البطولى وكتب ـ أراد أم لم يرد ـ وهو صاغر فى خدمة موضوعه الذى لا ضريب له •

(*) نشرت لأول مـــرة فى De Gids مج ٨٩ (١٩٢٥) ، الجـزء الثـــانى ص ١١٠ ـ ١٢٠ ، ٢٢٠ ـ ٢٣٢ ، ٤١٩ ـ ٤٣١ • والترجمة عن النص الهولندى فى Verzamelde werken مج ٢ ص ٥٢٠ ـ ٥٦٢ (والمترجم يوجه الانظار الى ترجمـة الدكتور أحمد زكى لتلك المسرحية داعيا القراء أن يدرسوا مقدمتها التى كتبها شو نفسه) •

(**) هى ما يسمونها فى الالعاب الرياضية بالعقلة • (المترجم) •

وكلما زدنا في هذا الشأن تفكيرا ، بدت المعجزة أعظم • ان رجلا يتسم بما يتسم به شو من تحديدات ، وهو صاحب تلك العقلية النثرية الصرفة (بالمعنى الحسن للكلمة) الذى يبدو غريبا كل الغرابة ازاء كل شيء يبدو لأعيننا نبيلا رفيعا في القرون الوسطى وبالغ الأهمية فى تاريخ جان دارك : ـ وهى العقيدة الكاثوليكية والحياة القوطية فى أيامها المتاخرة وما تتصف به الروح الفرنسية من نغمة نقية صافية ، رجل هذا شأنه ما الذى يفيده ويستنبطه منها جميعا ؟ •

ان ما قد صنعه منها شيء من المحقق أنه انتاج غريب الطراز ، ويقوم ضده هنا عدد لا حصر له من الاعتراضات ، من كل من وجهتى النظر الفنية والتاريخية • ومع ذلك فان المسرحية تسافر في طول العالم وعرضه ، كما أنها تجتذب اليها الناس وتحركهم وتؤثر فيهم وترفع من أرواحهم دون أن يرجع ذلك فحسب الى أن المؤلف هو شو • ان شو قد عاد من جديد الى وضع مساله موضع البحث ، وان وضعها فى هذه المرة على الرغم منه ، وهى مسألة نجاحه • ولعل هناك من الأسباب ما يدعو المؤلف كمؤرخ الى تقديم بعض ملحوظات تاريخية هامشية على هذه التمثيلية ، التى شهدها كل فرد منكم أو قرأها أو لعله جمع بين الأمرين فيها • وتدور معظم هذه الملحوظات حول تصور شو للشخصية التايخية لجان دارك ، ولكنها نتيجة لهذا ليس لها محيص من أن تنفلت الى تقويم التمثيلية والتمثيل كذلك •

ان العمل الذى نصب شو نفسه للقيام به يسامى أعلى الأعمال التى نجح العقل البشرى مرات قليلة فى انجازها • وهو خلق التراجيديا من التاريخ خلقا • فمن ذا الذى استطاع عدا كتاب التراجيديا الاغريق وشيكسبير ، أن ينجح فعلا في أن يعرض على العين فى صورة واحدة محبوكة النسج ، تحتوى على أرفع دلالة وأشدها جوهرية ، شيئا قد حدث فى الواقع فعلا ؟ (أو ذاع على الألسن أنه حدث فعلا ، اذ ليس من المهم أن يكون الموضوع هو قصة السبعة وحربهم مع طيبة ، القصة التى غرقت فى ظلال الأساطير ، ولا هنرى الثامن الذى مات قبل عهد شيكسبير بمدة لا تزيد عن نصف قرن كامل •) لقد حاول شو القيام بهذا العمل ، وهو مدرك تماما كل ما يحتاج اليه من مستلزمات • كما أنه حاول ذلك بمادة زادت ما عليه من مطالب ، وذلك لأن الموضوع من الناحية التاريخية خارق فى كثرة تفاصيله ، محدد أقصى تحديد ، حافل بموفور الأسانيد ، ولأن الرواية التاريخية فى حد ذاتها طافحة بالانفعالات المستعلية التى تحاول الدرامة اثارتها : ففيها المزج الكلاسيكى بين العطف والخوف ، والاعجاب المختلط برعشة الخوف ازاء البطلة ، وانجراف المشاهد بحكم تيار الأحداث

القاهر، وتطهير الانفعالات(*) من كل شائبة تطهيرا لاسبيل الى تحديده وان جاء شعوريا واضحا • فلو اتخذنا « هاملت » مثلا للمأساة ، وجدنا العنصر المأساوي فيهـا من صنع الشاعر من أوله لآخره ؛ وربما عد واضع آية مسرحية عن جان دارك نفسه سعيدا ان هو لم يزد عن أن يسمح للسان التاريخ الناطق أن يتردد بنفسه على أنقى صوة يستطيعها •

وقد أظهر شو فى ثنايا ابتنائه لمأساته أنه يفهم مبدأ واحدا هاما : أن الشيء الفاجع حقا على حد نص عبارة هيجل (وقد أدهشنا أننا لم نجده وضعها كاقتباس فى المقدمة) لا يقوم فى الصراع بين الصواب والخطأ ، بل فى الصراع بين الصواب والصواب • ذلك أن جان دارك التى شاء سوء حظها ألا يحيط بها سوى الجبناء والأوغاد ربما جاز أن تكون شخصية رومانتيكية ، ولـــكن ليست بالدرامية • وبرغم ذلك ، فان جان دارك الشخصية السامية الرفيعة وقد طحنت بين قوتين هائلتين لا غنى عنهما ، هما الكنيسة ومصالح الدولة ، هى الشخصية الحقيقية التى تتمثل فيها البطلة المأسوية • ومن المعلوم أن التاريخ من حيث أسسه المتأصلة العمق أقرب كثيرا الى الصورة المأسوية عن الماضى منه الى صورته الرومانتيكية • ولا يخفى أن الذى يحـدث عند كل تحليل تاريخى لصراع ما ، هـو أن الاحساس بحتمية رهيبة ، أى بالعدالة النسبية لقضية كل من الطرفين ، يظهر على الدوام فى صورة النتيجة الختامية • على أن الانفعال الرومانتيكى أو بمعنى آخر استقطاب العنصر الفاجع ، وهو الشيء الانفعالى الحميم والشخصى فيما يجرى من أحداث ، انما هو عاطفة من نوع أكثر سطحية•

ولو استعرضـنا المسألة بصفة عامة ، لرأينا أنه لم يكن من الضرورى لشـــو أن ينتهك حرمة التـــاريخ بتقديمه القضـــاة فى صورة أشخاص محدودين ، ولكنهم محترمون ، واضفائه على بيير كوشون أسقف بوفيه ، ما يدانى لمسة من عظمة (وسنبحث فيما بعد مدى استحقاقه اياها كشخص حقيقى) ؛ وفى تصويره دونواه زنيم أورليان ، فى صورة الأنانى العادى ذى النوايا الطيبة ؛ وفى محاولته اقناعنا بالعدالة ذات المستوى الخفيض التى اتصفت بها دبلوماسـية رئيس أســاقفة ريمس المقترنة بالقلق ، والتماسه العذر للنزعة الانهزامية لدى شارل ولى العهد (الدوفان) • على أنه حين صنع ذلك استطاع أن يحس ــ يسانده شيء من التبرير ــ أنه كان اللسان المعبر عن التاريخ • وهو دور فخر به الى حد كبير • وفى رأيه

---

(١) تطهير الانفعـــالات Catharsis : هو ما عده أرسطو وظيفة للدراما • (المترجم)

أنه قبض على الجوهر التاريخي للأحداث • فالالفاظ التي يضعها على أفواه شخصياته : كوشون وعضو محكمة التفتيش : ليميتر ، وايرل وارويك، بوصفهم شخصيات تتجسد فيها الكنيسة ومحكمة التفتيش ونظام الاقطاع « انما هي الأشياء التي ما كانوا ليقولوها فعلا لو أنهم عرفوا ما هم فاعلون حقا ••• » (*) أما القديسة جان دارك نفسها فان المسرحية « تحتوى على كل ما ينبغي معرفته عنها • » فهل يعتقد شو حقا أننا لا نريد أن نعرف المزيد ؟ ألا يفهم أن كل كلمة فاهت بها ، وكل تفصيل لهيئتها ومظهرها وحركاتها عزيز علينا ؟ فان لم يكن حاله كذلك ، فهو اذن أبعد الناس عن العلم بالطبيعة الحقة للاهتمامات التاريخية • بيد أن التحليل النهائي يظهر أن ما يشغل شو ليس القاء نظرة على الماضي ، وانما هو الدرس الذى لايزال على « قضية » جان دارك أن تعلمه الناس • « ولو أن الأمر اقتصر على حب الاستطلاع التاريخي ما أضعت من وقت قرائي فيه ولا وقتي خمس دقائق • » وقوله هذا يشف عن الغلطة المعتادة في سوء تصور الاحساس التاريخي من حيث طبيعته وقيمته : فان ما للماضي من أشياء ، على ما نشهدها ، ليست في حد ذاتها أكثر من عاديات وتحف ما لم يمكن أن يستنتج منها تطبيق عملي نفعي (برغماطي) على مسائل اليوم • ومع ذلك، فان التاريخ ينتقم من شو •

ولسنا بحاجة أن نقول ان المؤلف الدرامي لا لوم عليه لو هو تعمد ايجاز الحقائق التاريخية ، مثال ذلك تركيزه للاستجواب والحكم وانكار التهمة بالقسم ، والنكوص ، وتنفيذ الحكم وجمعها كلها في مشهد واحد• وقد أعطى المؤلف لشخصية وارويك المكان الذى كان ينبغي أن يشغله بدفورد الوصى على العرش ، وهو أمر له أساس يبرره من الناحيةالدرامية، وذلك لأنه رغب في أن يجسد أمام نواظرنا المبدأ القديم للأرستقراطية القائم على مقاومة الملوكية الناشئة ، وكان النبيل وارويك أنسب لهذا الغرض من بدفورد ، وهو أمير يجرى في عروقه الدم الملكي • فأما أنه حول شرف رفع الصليب أمام جان دارك ، الذى هو من حق الأخ ايسامبارد دى لابيير الى مارتان لادفينو ، فأمر لا يحز الا في نفس عالم ضليع ملم بجميع تفاصيل القصة • واني لأفضل السيد المجهول جون تريسارد الوزير الملكي على الرغم مما اتصف به من غموض حيث قال وهو يبكي بحرقة : « لقد ضعنا جميعا ، وذلك لأن التي أحرقتها النار كانت امرأة طيبة ومقدسة » ، مؤثرا اياه على القسيس دى ستوجومبر التافه المتهوس

(*) هذا اقتباس من مقدمة شو لمسرحيته • (المترجم) ■

فى وطنيته الذى كون شو شخصيته بناء على عبارة مفردة نصها ، «قسيس بعينه تابع لكردينال انجلترا » وهى عبارة وردت فى سجل محاكمة رد الاعتبار (*) . غير أن من حق شو تماما أن يخلق شخصية كهذه ان رأى ذلك ضروريا للمسرحية .

ثم ان تكرر عدم الدقة غير المقصودة لا يؤثر فى قيمة المسرحية . فان ظن شو أن من الأجمل وقعا فى الآذان أن يقول ولى العهد : « ان آنى ستحتاج الى أردية جديدة » ، فانه سيسعدنا أن ننسى أن اسم الملكة هو مارى دى أنجو ، وأكثر من ذلك امعانا فى الخطأ أن دونواه زنيم أورليان لم يظهر الا بعد أكثر من عشر سنين أى بعد ١٤٢٩ ، على أن معلما مثلى هو الذى لا يتمالك الا أن يذكر مثل هذه التوافه .

ومع ذلك ، فان برنارد شو يتظاهر فيما يتعلق بالاخلاص للتاريخ والتمسك بأحداثه أن عمله ينطوى على أكثر من جهد المدقق فى ضبط التفاصيل ، وهو أمر غير ذى بال فى رأيه . فهو يقول فى مقدمته : «ينبغى لكاتب السير المثالى (وهى السمة التى يعد نفسه متسما بها ، بمعنى ما)ـ أن يفهم العصور الوسطى ... فهما أعمق وأوثق كثيرا من فهم مؤرخى حزب الهويج (الأحرار) (**) لها.» فان العصور الوسطى فترة أصبح مافيها من التفكير شيئا قديم الطراز كما أن ظروفها لم تعد تنطبق على الحياة الواقعية ... » بيد أن شو يعرفها بفضل ما ألم بحقل الدراسات التاريخية من تقدم : « وانى لأكتب وأمامى منظر كامل للعصور الوسطى ، التى يمكن القول أنها استكشفت من جديد فى منتصف القرن التاسع عشر بعد أن (فيأ) عليها الكسوف مدة قاربت اربعمائة عام ... فالآن قد ظهر أنه ليس ثمة أدنى اثر من جو العصور الوسطى فى مسرحيات شيكسبير التاريخية » . فهل تحتوى قصة القديسة جان على أى اثر لتلك العصور ؟ لاشك أن حاجبى كل انسان منا ترتفعان هنا دهشة رغما عنه .

عند هذه النقطة نقترب مما تستثيره مسرحية شو من أسئلة تكاد تحير الألباب . ذلك لأن مدار الأسئلة ليس عن مدى تشبع التمثيلية بجو العصور الوسطى ، بل وأيضا عما اذا كان وجود ذلك الجو أو غيبته ينتقص

(*) حوكمت جان دارك للمرة الاولى وحكم عليها بالموت حرقا ثم رأت الاجيال التالية اعادة محاكمتها فى عام (١٤٥٦) ، وهى المسماة بمحاكمة رد الاعتبار .
(المترجم)

(**) مؤرخو حزب الهويج : هم الذين ظهروا بانجلترا وذلك الحزب فى منقوان قوته . (المترجم) .

مما للتمثيلية من آثر وقيمة درامية • وعن هذه النقطة الأخيرة ستكون اجابتنا المباشرة الفورية هي قولة « نعم » بصورة قاطعة جدا •

ان القارىء العـــام فى هذه الأيام يركز عين بصيرته بابلغ حدة على ما بين الأزمان بالنسبة اليه من فروق ، بحيث لا يستطيع تحمل أى تناقض داخلى ضخم • ولا يخفى أن جان دارك من قوة الرسوخ والتأصل فىالتاريخ الفرنسى أثناء القرن الخامس عشر ، بحيث لا يمكن استخدامها كشخصية درامية مجردة من الزمن مثل فيدرا أو الكيستيس(*) • واذن فلابد لدراما القديسة جان من أن تحملنا حملا الى العصور الوسطى على الصورة التى نبصر بها تلك العصور • فهل تفعل ذلك تمثيلية شو ؟ الواقع أنى لاأجرؤ أن أقول « لا » بصورة قاطعة ، على أنى أقل جراة من أن أقول «نعم» • فان رئيس أساقفة ريمس يقرع العين كانما هو قسيس أنجليكانى بصورة لافتة للنظر ، وكأنى به « حين تزوج » أقرب الناس لحمة الى أى أسقف • وقد ظهر ولى العهد (الدوفين) الى حد كبير جدا فى صورة أقرب ما تكون الى طالب فاسد بكلية ايتون • وذلك فى الاخراج الانجليزى للتمثيلية ، التى اعتقد أنهم بالغوا فى تمثيلها الى حد ما بالنسبة الى اخراج التمثيلية فى هولنـــدة • أما العنصر الكوميدى فى لاهير فهو مقبول تماما وليس مزعجا بأية حال ، ولكن نغمة الحوار بكامل صورتها ، وما للتابع من أثر هزلى بحت حين يدق الأرض بفأس القتال طلبا للسكوت ، مؤثرات غلبت عليها جميعها روح شو وطريقته بحيث لا تنمى الى العصور الوسطى ولو عن طريق التخيل •

ومع ذلك ، فهل الواقع أن اعواز التمثيلية الى احساس بالعصر هو الذى يقف فى سبيلنا حقا ؟ أليس الأغلب أن هذا الاعواز يرتبط ارتباطا لا انفصام فيه بعيب درامى فى الرواية من نوع أشد خطورة بكثير : هو افتقارها الى أسلوب سام ؟ ولست بطبيعة الحال أعنى الأسلوب الأدبى واللغوى ، وانما الذى أعنيه هو الأسلوب الدرامى • فلا شك عندى أن مسرحية شو ما كانت لتكتسب شيئا بل كانت تخسر خسارة كبيرة لو أن حوارها أترع بالعهيد من الحذلقة الطنانة ومن الوقار الذى يتسم به والتر سكوت • أما اذا كان ذلك يجعلها أقرب الى العصور الوسطى حقا فمسألة فيها نظر • ذلك ان قصص Novella القرن الخامس عشر وأقوال الشاعر

(*) فيدرا والكيستيس : تراجيديتان مؤثرتان كتبهما يوريبيدس اليونانى (القرن الخامس ق • م) (المترجم) •

فيون Villon (*) وجان نفسها فى اجاباتها عن أسئلة قضاتها ، براهين كافية على أن الحديث العامى فى تلك الأيام كان يمكن أن يكون طليقا حرا كحديثنا تماما · على أن ما نفتقده هنا شيء آخر : هو الانتقال بعقولنا الى مجال اكتسبت فيه كل عاطفة وكل انفعال قوة وامكانية أسمى ، وكل كلمة فيه تؤثر تأثيرا أعمق وتدوى تدوية أوفى منها فى جو الحياة اليومية · ويقول شو انه ليس ثمة أثر لنفس واحد من أنفاس العصور الوسطى فى تمثيليات شيكسبير التاريخية · ونجيب أن : « لا » اذ ربما لا يوجد شيء من ذلك من الناحية الفنية (التكنيكية) للتاريخ · ولكن هناك وفرة من الأسلوب الدرامى العالى الذى يلقى ضوءا على الفارق فى الأزمان دون الكشف عن ذلك الفارق كشفا تاما · وشاهد ذلك أنه على الرغم من كل ما يعيب مسرحية رتشارد الثانى من لازمات ، فلست أعرف دراما تاريخية أصدق منها صفة تاريخية ولا أشد أصالة · انها تنتمى حقا الى عهد ايليزابث ولا تعود الى أخريات القرن الرابع عشر ، ومع ذلك فان شكسبير استطاع على الرغم من أنه لم يعتمد الا على هولنشد (**) كمرجع أن يكون أقرب من أى مؤرخ آخر الى لباب الشخصية التاريخية لآخر أفراد أسرة بلانتاجينت (***) ·

والتراجيديا قد تجيء على أى صورة الا أن تجيء على الصورة الطبيعية والواقعية الخالصة · ويمقت شو كل شيء رومانتيكى مقته للطاعون : ومن حقه تماما أن يفعل ذلك ، ولكنه متى استخدم رفع الكلفة والفكاهة ليطرد العنصر الرومانتيكى من عمله انما ينفى عنه العنصر البطولى أيضا · أما اظهار الفضائل البطولية للقديسة جان دارك على المسرح ، فأمر لن يفيه حقه أسلوب أقل من الصيغ المستخدمة فى التراجيديا الاغريقية ولا أدنى من عبقرية شيكسبير المتفردة (١) · وذلك هو أيضا السبب فى أن أحدا قبل شو لم ينل قدرا أفضل من النجاح فى اظهار « العذراء » على المسرح ·

(*) فيون : (١٤٣١ — ١٤٨٥) شاعر فرنسي ولد بباريس وتعلم بجامعتها . (المترجم)

(**) هولنشد : (١٥٢٠ — ١٥٨٠) مؤرخ انجليزى أكثر شيكسبير من الاعتماد عليه فى تمثيلياته · (المترجم) ·

(***) بلانتاجينت : هو الاسم الذى يطلق على البيت الملكى الذى حكم انجلترة من (١١٥٤ — ١٣٩٩) · (المترجم) ·

وما يكاد المرء يدرك عند قراءته مسرحية القديسة جان دارك ، أنها شديدة المماثلة الوثيقة لقصة « الانسان والسوبرمان Man and Superman » وسائر ما كتبه شو ، بحيث لا تليق أن تكون دراما مرضية تدور حول موضوعها النبيل ، فانه سيفاجأ حين يراها على المسرح ، اذ يكتشف أن المسرحية ليست فحسب خبرة مثيرة بل هي كذلك خبرة مؤثرة ومهذبة للأنفس • ولا شك أن المسرحية تتصف بتلك الصفات الى حد ما (بغض النظر عما أبداه الممثلون من مهارة) ، وذلك بفضل قدرة شو على التصوير المشرق ، خذ مثلا لذلك الحوار الممتاز الذى دار فى المحكمة قبل دخول جان دارك ، والحادثة بين وارويك وكوشون ، والمحقق عضو محكمة التفتيش (وذلك بوجه خاص فى تمثيل أ• ب• كلارنس اياه عند اخراج الرواية على مسارح لندن حيث أظهره فى صورة الرجل الأشيب اللحية المؤدب الذى يحمر وجهه خجلا) • ومع ذلك فان أهم وأبرز نقاط المسرحية هى بالذات التى يكتفى فيها المؤلف بعرض بعض عناصر جوهرية معينة فى الحركة (*) نفسها : مثل الشجاعة الجارفة الغلابة التى اكتسحت بها جان دارك ولى العهد والمحكمة وبساطة الكلمات التى نعرف أنها فاهت بها حقا • ويتجلى شو فى أمثل صورة عندما يلتزم أحداث التاريخ أشد التزام • « أهذا أنت زنيم أورليان ؟ » ان تلك هى نفس العبارة التى يشهد بها دونواه فى ١٤٥٥ ، والتى بادرته بها جان دارك محيية • وقد صاغ شو بأصدق ما استطاع من أمانة من سجلات المحاكمة نفسها جميع اجابات جان دارك على القضاة ، وفيها ذلك الجواب المؤثر على سؤالهم اياها عما اذا كانت تظن أنها فى حالة بركة وقداسة حيث قالت : « اذا لم أكن فانى أضرع الى الله أن يبلغنى اياها • وان كنت ، فانى أضرع الى الله أن يديمها على » •

وفى اعتقادى أن التمثيلية تبلغ أعمق درجات تأثيرها خارج دائرة نشاط شو تقريبا ، كأنما كل ما فى الأمر أن الفكرة العظيمة قد مرت من خلاله مجرد مرور لكى تكشف عن نفسها كشفا مباشرا بكل ما فيها من صدق يفيض على العقول ونقاء مبرأ من كل شائبة • وحتى عندما يحدث عند نهاية مشهد الختام الذى تمتد اليه سهام الشك الى أبلغ حد ، فان الشعاع الأبيض من النور الذى يسقط على العذراء يرسل فى أنفسنا رعدة • وغنى عن البيان أن مبعث تلك الرعدة ليس عظمة شو نفسه ، بل

(*) هى الحركة المسرحية التى تتألف من الاحداث والاعمال التى تشكل الحبكة (المترجم)

عظمة القديسة التي وقف المؤلف هنا بين يديها خادما • ولكن أى فخر يبتغيه شو أكثر من هذا ؟ لو نظرنا الى الدراما فى أعظم عصورها ، ألسنا نجد أن خير صورها هى التى رجح فيها صدق الموضـوع وعظمته تماما قدرات المؤلف المسرحى المحدودة ؟

ومما يرتبط بهذا أن هذا الجزء من تأثير التمثيل ، انما يرجع الى تقنيات المسرح العادية • وكأنما الأسلوب البطولى الذى لم يتمكن شو من اضفائه على التمثيلية ، أمر قضت الظروف بخلقه فيها على الرغم من المؤلف، وأكدته المناظر والوسـائل المشهدية الأساسـية التى استخدمها رجـال المسرح • وهذا يدفعنا أن نوازن بين تمثيل المسرح المتحد Vereenigd Tooneel بهولندا للمسرحية وتمثيل نفس القطعة على يد الفرقة التى مثلتهـا بلنـدن فى مسرح هاى ماركت أولا وتمثلهـا الآن فى مسرح الريجنت • (٢)

أما من ناحية الأسلوب فان الانسان يميل الى أن يقول مقدما ، ان نظريات ادوارد فركاد التى طبقها فى هذه المسرحية بمهارة المخرج المسرحى وجدفلد وهو اخراج متزن يتم بمقتضاه تحول الخداع التاريخى الى انطباع مبهم عن قديم الأشكال، أى الىالواقعية الملطفة تلطيفا حادا ــ تلكالنظريات تفضل كثيرا على زخارف النزعة الواقعية التاريخية التى لا يزال المخرجون فى انجلترة يعتزون بها ، وان أصبحت فى هولندا تعتبر منذ عدة سنوات رثة قديمة الطراز • ومع ذلك فانى بعد أن تهيأ لى مشاهدة التمثيل فى المسرحين شرعت أحس ببعض الشكوك ، كما أن الصورة التى صورها بها تشارلز ريكيتس أبقى أثرا فى ذاكرتى باعتبارها أشد قوة وأوقـع فى النفس منها فى اخراج وجدفلد • ولكن سيقال ان ذلك هو موضـع الخطأ بالضبط ، فان الزخارف الخارجية ينبغى ألا تروق الناظرين بمثل هذه الصورة المباشرة • واذن فهل هى لا تزيد عن مجرد قشر لا غنى عنه ، ان لم نقل شر لابد منه ؟ فاذا كان الحال كذلك فان هناك عيبا فى المسرح • والواقع أن ذلك هو الحال بكل تأكيد ، ولكن هذه الملحوظات لا تدعى أنها تجد حلولا جوهرية لمثل هذه المسائل المسرحية الدرامية التى لا تزال فى طور الاختبار والتجربة•فلنقتصر اذن على وزن مزايا كل من طرازى الاخراج والتمثيل فى هذه الحالة بالذات •

ويظهر أن ميزة الاخراج المسرحى التاريخى تنحصر ــ شريطة تصميمه على مثل هذه الحال الفائقة التى صممه عليها ريكيتس ــ تنحصر فى أن عيوب المسرحية ، ولا سيما منها افتقارها الى الأسلوب ، قد أخفيت الى حد ما • ذلك بأن شيئا معينا من وحدة التمثيل والثياب والديكور يتطور

في المسرحية ، وقد تماسك شتاته وترابط بفضـل درجة مشتركة من الواقعية أو ما يمكن أن يعتبر واقعية • وهـذا القول يصدق على مشهد المحكمة ومشاهد الخيمة والكاتدرائية وقاعة المحكمة ، وان لم ينطبق على المشهد المعقود في قلعة فوكولير Voucouleurs والآخر الذى ضرب بجوار النهر • وكلما زادت الحاجة الى أن يكون حسن العمارة أو الطبيعة الذى يروقنا مباشرا أكثر ، زادت جميع الاعتراضات على مطابقة الاخراج المسرحى للواقع الحاحا فى ابراز صحتها : فالمشهد المضروب بجوار اللوار فظيع فى اخراج لندن ، ولكن أوضاع الطنافس ذات الأشكال الزاهية الجميلة فى الخيمة والمحكمة جيدة التمشى مع ثياب الممثلين • على أن الاخراج على طريقـة فركاد يعوزه قـدر معين من الانسـجام بين التمثيلية والثياب والديكور • ولو أن التمثيلية أوتيت أسلوب شيكسبير الفاخر ، وهو شىء تحتاج اليه ايما احتياج ، لكان مايوصف لها من علاج هو اصطناع الاتزان والرصانة فى الأوضـاع والملابسـات ، وذلك لأن كل مؤثر مسرف فى مبالغته ما كان ليعود على المسرحية عندئذ الا بالتـدمير والانتقـاص من قدرها•ولكن الرصانة تتناقض وروح شو ومن ثم كان للألوان الزاهية التى أضفاها ريكيتس أثر طيب جميل : فانها دون أن تتسم بالمنافرة والنشوز تخفف قليلا من روح شو ، وتلهينا عنها شيئا ما •

ولم يقم فى وهمى قط أنى سأشهد القرن الخامس عشر فى يوم ما ــ ولا أى عصر آخر ــ ممثلا على المسرح مثلما آراه بعين بصيرتى ، وكما تقيمه أمامى حتى أضأل الوثائق التاريخية ، سواء أكانت فى شكل كلمة مكتوبة أو صورة مرسومة• ولكنى لابد أنأعترف أنى لمأشهد يوما تمثيلا واخراجا تاريخيا أشد اقناعا للنفس من ذلك العمل الذى قام به ريكيتس • وتنهض أمام ذاكرتى بوجه خاص أول دخول للمحكمة ومشهد الخيمة • وليس معنى ذلك أنى أميل الى الدفاع عن أنواع الثياب فى المسرحية من أولها لآخرها• فان دروع صفائح الحديد ، وان أمكن أن يكون استخدامها أضبط وأشد دقة من الناحية التاريخية من الزرد شبه الرمزى الذى استخدمه فركاد ، ــ تظهر على المسرح بالغة الصقال والصـغر ، فهى من ثم مرفوضة عـلى المسرح دائما • ثم ان الثياب التى استخدمها فركاد يمكن أن يقال عنها أيضا انها شبه تاريخية • ولكن بصـورة يشوبها بعض النقص : فان أساقفته الثلاثة جميعا قد جعلت شخصياتها فى بزة الثياب التى اتخذت بعد مجمع ترنت (*) ، ومع ذلك فبالمقارنة الى ماقدمه فركاد يكون ماعمله

(١) مجمع ترنت : عقدته الكنيسـة الكاثوليكية ١٥٦٢ لاصلاح الكنيسـة •
(المترجم)

ريكيتس تنويعا ممتاز الانسجام : فان « ساعات شانتيلى Heures de Chantilly » تعود الى الحياة · وتستخدم شخصيات حاملى الشارات والشعارات باسراف شديد ، ولكن بأى قدر عظيم من العناية والتدبر ! انى لتروعنى على الدوام قدرة العين الانجليزية على ادراك جميع ما فى اللون الأحمر من امكانيات · ولا بد لنا نحن الهولنديين بكل ما لدينا من تقاليد فى استخدام اللون الرمادى أن نتذكر ، قبل أن نظهر استخفافنا بهذا كله ، ان الفترة التى بدأت لدينا بجوزيف اسرائيل (*) بدأت فى انجلتره بمدرسة ما قبل رافائيل (٢) فى التصوير · والواقع أن جميع الألوان الوحيدة التى نعرفها عدا جميع ظلال اللون الرمادى المختلفة ، انما تنحصر فى قدر كبير من اللون الأخضر وفى شىء من الأزرق وبعض المناظر والسحب لا الأشخاص · فأما العين الانجليزية فقد دربت على يد مجموعة متصلة الحلقات من الأساتذة الذين دربوا جميع حواسهم الجمالية على الشكل الانسانى المكتسى بكل ظل من ظلال الألوان وعلى حركته فى مواكب زاهية الالوان · وانى لاعلم أن هذا الميل الزخرفى فى انجلترة يتمخض فى كل يوم عن أعجوبة من الاعاجيب ـ ومع ذلك فاننى عندما أرى ريكيتس ينهج على آثار وليم موريس(***)وروزيتى وفورد مادوكس براون ـ لا أجرؤ على ابداء أى طعن ·

وفى رأيى أن هناك شيئا من الخطر فى محاولة النظر الى الفن وقيمته على اعتبار أنه منفصل تمام الانفصال عن القومية · أليس من الجدير بالملاحظة أن الشخصيتين الانجليزيتين وهما واروبك والقس هما خير شخصيتين فى الاخراج البريطانى ؟ ولعل الأصح أن القس الذى بالغ شو فى وضعه الكاريكاتورى ليس فى الواقع خيرا من كوشون ، بيد أن أحدا لا يتفوق على واروبك فى مظهره فضلا عن أشياء أخرى · وخير شاهد على شدة العناية بالضبط التاريخى أنه حتى طراز وجهه نفسه قد نقل نقلا واضحا عن الصورة البرونزية المذهبة الموضوعة على قبر الايرل فى واروبك وتلك هى انجلترة السعيدة التى لم تعرف حركة مدمرة « كالثورة

(*) جوزيف اسرائيل (١٨٢٤ ـ ١٩١١) رسام هولندى للمناظر الريفية ·

(**) مدرسة ما قبل رافاييل : مجموعة من فنانى العصر الفيكتورى هجرت قواعد الفن المتطورة على يد رافاييل ، ورسمت موضوعات الكتاب المقدس والموضوعات الادبية بأسلوب واقعى · (المترجم) ·

(***) وليم موريس : (١٨٣٤ ـ ١٨٩٦) شاعر انجليزى واشتراكى وصانع أثاث وورق حيطان ومصمم زخارف كنسية (المترجم) ·

الفرنسية » • أما سحنة بييركوشون ، فشيء ينبغي أن يقنع فيـــه المرء برسم لشاهد قبره نقل في القرن السابع عشر ، وهو قبر دمر منـذ زمن بعيد في ليزييه (Lisieux) .

والواقع أن عنصر الدقة التاريخية قد لعب في تقديري للتمثيل دورا أعظم مما توقعت وكان ذلك على الرغم مني • وهي حقبة أجنح لأن أعدها دليلا على صحة نظريتي ، من أن الأثر القوي الذي تحدثه التمثيليـة انما يتولد عن الموضوع التاريخي ذاته • وهناك حجة أخرى تؤيد هذه وجهة النظر • فان سيبل ثورندايك اشتهرت بأنها ممثلة انجلترا التراجيدية الأولى • واني لأرجو ألا أظـــلم نل ستانت حين أدعوها بالممثلة الصغيرة الناهضة ، وبرغم ذلك ، فان شخصية جان دارك التي قدمتهـــا الممثلة الهولندية كانت أقرب الى مرضاتي من الشخصية التي قدمتهـــا زميلتها الانجليزية الذائعة الصيت ، وذلك لأن نل سانت أمكنها ان تكون صغيرة وتلقائية وطبيعية وصبيانية ـ ولها نفس الوجه المرح الضاحك الذي يصفه معـــاصرو جان دارك • وقد نفرني في سيبل ثورندايك بما أبدت من مبالغتها في الفن الدرامي: وهي رنة نشوة ومراح في صوتها وحركاتها،ولمسة من التراجيديا البالغة كانت أقرب الى عامل ازعاج منها الى عامل اسهـام نافع • وقد بلغني أنهم في أمريكا قد وقع اختيـــارهم على فتاة ريفيـة ساذجة لتدريبها على القيام بالدور • وذلك هو الشذى الخاص الذي يفوح عادة من أمريكا والفيلم السينمائي • ولكنه اتجاه يؤكد أن هذه الدراما يبلغ من خضوعها الشـــديد لجاذبية التاريخ القوية أن تتشوه فيهـــا المستلزمات الدرامية العادية •

وقد لوحظ أنه على الرغم من أن عددا ضخما من الـكتاب قد حاولوا وضع صورة أدبية مكيفة لتاريخ جان دارك ، فانهم اخفقوا جميعا دون تلك الغاية • ومن ثم فان العمل الفني الذي يصورها لجميع الأجيال القـادمة لم يوجد بعد • ولن يكون هذا العمل هو القديسة جان دارك لبرنارد شو ، كما أنه ليس : « فتاة أورليان الصغيرة Die Jungfrau von Orleans كما أنه قطعا مؤكدا ليس « العذراء ذات القلب الـــكبير La vierge au grand coeur » التي وضعها فرانســـوا بورشيه ، ومثلت في باريس (ولعله قصد بها أن تكون شيئا من الاحتجاج على رواية القديسة جان دارك لبرنارد شو) مدة من الزمان ، حتى جاء شو بتمثيليته اليها وشوهد بهـا وأحرز النصر عليها حتى في تلك المدينة •

واذن فما هي الكتابات العظيمة التي يقروهـا المرء عن جان دارك وحياتها ؟ انها ميشليه أولا وقبل كل شيء · ثم قد يفضل المرء بعد ذلك عمل أناتول فرانس ذلك المتشكك (أو بالحرى الملحـد) ، أو المونسنيور توشيه الذى كرس من عمره عدة سنوات من الـكد للوصول الى رسـالة جان قديسة ، أو كتاب جبرييل هانوتوه الذى حاول أن يقرب بين وجهتي نظر العقلانيين والكاثوليك · على أن الـكتب التي تحاول تقديم بيـان مضبوط بتاريخ الفتاة ، هي التي يلجأ اليها القاريء ـ بما في ذلك القاريء العام ـ ليبحث فيها عن عذراء أورليان · أليس في هذا ضربا من الدلالة ذات المعنى ؟ أليس ينبغي أن يفترض أن هناك شيئا في الموضوع ذاته له قدرة على مقاومة المعالجة الأدبية ، وبخاصة التصوير الدرامي ؟ أن هناك موضوعات مثل موضوع طروادة تجد أعلى وسيلة للتعبير عنها في الملحمة ، وأخرى لا تزدهر الا في التمثيل والدراما · وهناك أيضا موضوعات تكمن خاصيتها كمونا عميقا في الشكل التاريخي ذاته ، فهو يحتويهـا احتواء لا انفصام له ، أى أن منها ما تكون فيه أسمى انفعالات العنصر المأسوى ، وأعني بها الشخص المـكابد للعذاب والتطهير العاطفي ـ مرتبطة بالقصـة التاريخية بوصفها ذاك · وتلك آية تدل على أن كليون (ربة التاريخ بين عرائس الفنون) تتفوق على ملبومين (ربة التراجيديا) بين حين وآخر على كر العصور ·

- ٢ -

شخصية جان دارك

لقد وجهنا اللوم الى شو لشدة افتقار تمثيليته الى صفات الشعر المأسوى بصورة لا تهيىء لها أن تتطاول الى ما للموضوع من سمو ،وأنها من حيث الصياغة ذات صبغة نثرية (*) عصرية مسرفة بحيث لايتيسر لها أن تحلق التحليق لدرامي المراد ، وهي نثرية لا من حيث الشكل وحسب بل وأيضا من حيث التصور • والحق أن كتابة المأساة منزلق خطر ؛فهي أشد خطرا بكثير على خير العقول والرجال من زلاقة الثلج على الغشيم المبتدىء •

ومع ذلك فاني لست أدرى هل كان شو ، وهو الذى يخيل الى أنه أشد كتاب عصرنا رزانة واعمال فكر ، مستطيعا أن يبث فى نظرته ما يعوزها من انفعال شعرى ، لو أنه أراد أن يفعل ذلك ؟ على أن من المحقق على كل حال ، أنه لم يرد أن يفعل ذلك • وذلك لأن شو يحاج فى مقدمته بأن الشعر انما هو بالضبط مصدر ذلك القدر الكبير من الشر الذى أصاب الفهم الصحيح لشخصية جان دارك • ذلك بأن نزعة رومانتيكية من النوع الرخيص تصور البطلة فى صورة الفتاة الجميلة التى شغف بها جميع أتباعها حبا ، قد شوهت صورة جان دارك تشويها لا مرد له • فليس ثمة أية فكرة خاطئة أخرى يواصل شو الدوران من حولها مهاجما بكل ما أوتى من غضب ، وبكل حق وعدالة ، مثل هذا النوع من النزعة الرومانتيكية الرخيصة • على أن العاطفة الرومانتيكية شيء والسمو الشعرى شيء آخر • ومع ذلك فاغلب الظن أنه حين قذف من النافذة بمهد النزعة الرومانتيكية الصغير قذف معه بالطفل الرضيع أيضا وهو التراجيديا •

وفضلا عن ذلك ، فان شو فى هجومه على النظرة الرومانتيكية يصطنع المبالغة كعادته • فهو يتمنى لو قضى بالدليل المنطقى على كل لمسة من لمسات السحر الأنثوى عند جان دارك ، مهما يكن ثمن ذلك •

(*) يعنى الكاتب بلفظة نثرية ، التجرد من الروح الشاعرية والانطباع بالطابع الواقعى غير المثير • (المترجم) • (المترجم)

يقول شو : « ان أحدا من رفاق جان فى القرية أو المحكمة أو المعسكر.. لم يدع يوما انها كانت جميلة » . وهو أمر يناقض الحقيقة . وشاهد ذلك أن حنا دولون رئيس دائرتها العسكرية دعاها : « بنتا جميلة متناسقة الشكل والقوام » كما أن برسيفال دى بولانفيلييه كان يرى فيها « حسنا ترضاه العيون » . ولعل من المناسب للمقام هنا أن نسرد بضع تفصيلات قليلة عن شكلها . (وأكرر للمرة الثانية أنى لا أقصد بهذا المقال الا الادلاء بطائفة من الملاحظات الهامشية) .

ونقلا عن الجانب المعارض لهؤلاء المعاصرين الذين أشرنا اليهم من تونا، استطاع شو أن يلجأ الى الراهب اللومباردى الذى يصف بايجاز بعد شقة غير قليلة من الزمن ، منظرها الخارجي . حيث تحدث عنها بأنها « قصيرة البنية جافة الملامح » . على أن معظم ماقدمه ذلك الراهب من بينات غير ذى وزن كبير . فان طائفة منوعة من المؤرخين يحسون بشيء من عدم الارتياح ازاء الرأى القائل بأن جان دارك كانت قصيرة القامة . وقديما حاول فالليه دى فيريفيل أن يثبت العكس . ووصفها هانوتو بأنها « ضخمة وقوية » ، وبذا اتبع رأى كيشراه الذى ترجم عبارة Haulte et Puissante الواردة فى تاريخ اللورين ذى الطابع الرومانتيكى المفرط بعبارة « ضخمة وقوية » . ومهما يكن مبلغ قامتها من الطول ، فقد أصاب الراهب اللومباردى فى تفصيل آخر : هو أن لجان شعرا داكنا . وذلك لأن هذا هو الوصف الذى ورد عنها فى تاريخ معاصر عثر عليه فى لاروشل ، وربما أيدت هذه الحقيقة شعرة سوداء ألصقت بطريقة واضحة التعمد فى خاتم رسالة جان الى مدينة ريوم .

غير أنه ربما صح لى أن أقول ان هناك نزعة عامة تماما الى تصور جان فى صورة الشقراء المرتدية على الأرجح ثوبا أزرق . وتلك هى الهيئة التى يعرضها فيها بوتيه دى مونفل فى كتاب الصور الممتازة الذائع الشهرة الذى وضعه . وتمثلها كل من الممثلتين سيبل ثورندايك الانجليزية ونل ستانت الهولندية فى صورة الشقراء . وفى ظنى أن استعراض الأمر على أساس قولنا : « هل تتخيلون جان دارك شقراء أم سمراء ؟ » لابد أن يؤيد اختيار الممثلتين للشقرة باغلبية كبيرة . فهل ترون فى هذا فكرة رومانتيكية ؟ الواقع أن أريوستو (*) قدم خالص

(*) لودوفيكو اريوستو : (١٤٧٤ — ١٥٣٣) شاعر ايطالى من العظماء الذين برعوا فى نظم الملاحم والمقطوعات الغنائية . (المترجم) .

الاجلال لمثال البطلة الشقراء • ومع ذلك فانى أستطيع هنا أن أتصور شو المعادى للرومانتيكية وهو يجادل مع الممثلتين محرضا اياهما على تجنب كل أثر للسحر الرومانتيكى فى الشخصية • فهو لا يأذن ببذل أية تضحية فى سبيل المثل الأعلى للشقرة ، فضلا عن التضحية من أجل الموضة المعاصرة ؛ وتذكر المصادر تخصيصا بالتفصيل أن شعر جان ينبغى أن يكون مقصوصا فوق الأذنين مباشرة مع حلق شعر العارضين بالموسى ، تمشيا مع أسلوب القرن الخامس عشر • بيد أن الممثلتين يوضحون لشو بجلاء أن سلطانه عليهم كمؤلف لا يبلغ ذلك الحد ، وينفذون فى ذلك الشأن مشيئتهم •

وما أدرى ما اذا كانت حماسة شو فى تأييد رغبته فى أن يرى أمامه صورة لجان متمثلة فى التمثال النصفى النسوى ذى الخوذة المنصوب بكنيسة سان موريس بمدينة أورليان — لاتتم — بعد التحليل النهائى ، عن قدر معين من احساس فروسى يخامره • فان محاجته « ان لم تكن هذه المرأة هى جان دارك ، فمن تكون ؟ » فضلا عن تحديه لاثبات العكس ، — يقعان فى روعى نظرا لعدم قيامهما اطلاقا على أى أساس أنهما آيتان على الرومانتيكية • ومن أسف أنه ليس لدينا صورة صحيحة للعذراء تقوم على دليل يمكن الاعتماد على صحته • ومن المحقق أننا لن نجدها فى الصورة التخطيطية التى أنشأها ضئيلة فى حجم ظفر الابهام مسجل برلمان باريس كلمنت دى فوكمبرج ، وزين بها حافة سجله • (ويزيدنا أسفا تصور كيف أنه كان فى امكان المصور الفلمنكى جان فان آيك أن يزورها فى سجنها بمدينة آراس فى خريف ١٤٣٠ ويرسم صورة لها !)

ولعل أثمن ما تحتويه التفاصيل القليلة الباقية عن شكلها الخارجى ، تلك العبارة التى تصف صوتها • فقد حدث فى يونية ١٤٢٩ بمدينة سل على نهر الشير ، أن سمعها الاخوان دى لافال تخطب رجال الدين الواقفين أمام الكنيسة « فى صوت نسوى بالغ الأنوثة » وهى جالسة على الحصان الشموس الذى روضته من فورها • وقد أخذ دى بولانفيلييه أيضا بصوتها النسائى الساحر •

وعندى أن المرء يتمنى لفهم شخصيتها الحصول على شىء يماثل صورة لهيئتها ، ومع أننا لا ينبغى أن نتصورها فى صورة الجميلة بالمعنى العادى للكلمة ، فلابد من وجود الانسجام فى مظهر قسماتها • فلنحاول

اذن أن نكون صورة مستقيمة متماسكة من تلك المعطيات الضئيلة القليلة التى حفظها لنا معاصروها ، الذين قل اهتمامهم بالأوصاف الشخصية .

فتاة قليلة الكلام نزرة الطعام والشراب (والمتحدث هنا لا يزال دى بولانفيلييه في يونيـة ١٤٢٩) وهى تبتهج بالخيـول المطهمـة وبالدروع ، وتعجب أيما اعجاب بكل نبيل وكل مدجج بالسلاح . وهى تتجنب الاتصـال بالكثرة من الدهماء والتحدث معها . » وهى تذرف الدموع بكثرة ، وتعبير وجهها ينبض بالفرح .
(**Abundantia lacrimarum manat, hilarem gerit vultum**)

وهذا المزج العجيب بين القوة والجذل وبين الانفعـال الدامع مع ميل غالب الى الصمت يزودنا بما لعله اقرب وسـيلة الى مقاربة جوهر كيانها .

ويخيل الى أن شو قد لمح بجلاء الخطوط الأساسـية المكونة لذلك الجوهر ، وأنه صورها بوضوح تام . ولن أنقل لكم هنا ذلك التصور ؛ فان كل انسان يجده بين يديه فى المسرحية ومقدمتها وما أنا بمستطيع بما أنقل أن أمنحها قدرا أكبر من الانصاف .

« انى بقوة الله سأتجرأ وأتجرأ وأتجرأ حتى ألقى حتفى » . بهذه الكلمات ، ولعلهـا أشد ما فى المسرحية من كلمـات تحريكا للأنفس ، يعرض علينا شو جوهر شخصية جان دارك . والواقع أنهـا أطلقت على نفسها اسما يلخص شخصيتها بأكملها ، عندما سمعت «أصواتها» تدعوها « الفتـاة ذات القلب الكبير » . La fille au grand coeur ولعـمرى ان لفظة « قلب » Coeur ينبغى أن تترجم فى سـياق هـذه العبارة « بالشجاعة » ، ومع ذلك فان ترجمة كهذه لا تكون كامله ، لأن جميع ما تنطوى عليه لفظة « القلب » من معان تتردد هنا فى صـورة أنغام خافتة . فشجاعتها وثقتها ـ انما هى أشد عناصر طبيعتها بلوغا الى القصد ، كما أنها العناصر التى تمدنا بأعظم تفسير ملموس لنجاحها وهى عظمة تجلى نفسها فى صورة شجاعة فائقة ممتازة سارية كالكهرباء ولاسبيل الى مقاومتها . فأية علة تلتمس عذرا للشك فى رواية برتراند دى بولونجى وجان دى متز اللذين اقتـاداها من فوكولير الى شـينون عندما يشهدان بأنهما لم يجدا فى نفسيهما طاقة على مقاومة ارادتها ؟ اذ الواقع أن مجرد أخذهما لها الى شينون خير برهان على ذلك . ويظهر أناتول فرانس تشككه ازاء الشـهادات الـكثيرة التى أدلى بها الشهود فى محاكمة رد المكانة والاعتبار حيث أعلنوا أنهم لم يحسوا نحوها قط

بأية رغبه جسدية • ويقول شو انهم استبد بهم الخوف منها فلم يجرءوا على الوقوع فى حبها • ويستطيع المرء أن يقول أيضا ان تركيزها المطلق الأمانة والصدق على هدف واحد تولد عنه رهبة عبرت عن نفسها فى صورة احساس كبير بالخجل ملأ قلوب من حولها • ثم ان جمود الرغبات الجسدية بحضرتها يقف على قدم المساواة مع ما كانت تحدثه فى الرجال من الامتناع عن السباب والبذاءة (كما تؤكد ذلك المصادر بالاجماع) فمن لم يستطع أن يقبل أن الشخصية العلية المبجلة تستطيع أن تحدث تأثيرا يجعل الشاذ غير المألوف هو القاعدة ، فانه انسان لن يتهيأ له فهم حقيقة جان دارك •

على أن أحدا لا يشك فيما عليه معدن شجاعتها من سمو نبيل لا سبيل الى مقارنة أى شىء به • بيد أن هناك من يرتابون فى أن عمق بصيرتها وموهبتها العسكرية قد لعبت أيضا ـ الى جانب الدافع الضخم المنبعث عن شجاعتها ـ دورا بارزا وقويا فى الأعمال الكبيرة التى أنجزت تحت قيادتها : وهى رفع الحصار عن أورليان والحملة العسكرية على ريمس• وهذه المسألة من أعسر المسائل التى يعرضها علينا تاريخ جان دارك ، كما أنه لا مجال هنا للدخول فى كثير من التفاصيل حول هذه النقطة • فمنذ أيام محاكمة رد الاعتبار ، أدلى حنا لويلييه ، وهو حضرى من سكان أورليان بجواب حاول فيه التملص حين سئل : هل تم رفع الحصار بواسطة العذراء أكثر منه بقوة المحاربين ؟ على أن الرأى القائل بأن جان طبقت موهبة طبيعية استراتيجية وتكتيكية بتقدير للأمور رصين متعمد، يقوم بصفة رئيسية على شهادة زميل فى السلاح هو دوق آلنسون Alençon فهو يثنى عليها لأنها « فى الحرب •••• خبيرة جدا ، سواء فى حمل حربة أو تجميع جيش أو فى تنظيم معركة أو فى توجيه المدفعية •» ويجنح شو كما فعل هانوتو (وكيشراه من قبله) الى افتراض أن هذه المواهب انما هى مواهب حقيقية لا شك فيها • على أن أناتول فرانس يعد من الناحية الأخرى أقرب الى الاتساق مع المؤرخين الكاثوليك فى هذه النقطة ، وان جاء ذلك منه لأسباب مختلفة تماما • ففى رأى الكاثوليك أن نسبة المهارة العسكرية الخارقة اليها لا بد أن تنطوى ضمنا على شىء معين من الانتقاص مما لرسالتها من سمة خارقة للطبيعة • فأما عند أناتول فرانس ، فان ذلك الرأى لا يتفق مع نظريته القائلة بأن جان كانت أداة هينة فى أيدى أشخاص رائدهم عمق التقدير والدهاء •

ومن الحقق أن فن الحرب الحديثة لا يمكن أن يؤمن بوجود مثل هذه المهارة الاستراتيجية فى فتاة بسيطة قادمة من الريف • غير أن الموهبة العسكرية ابان ذلك الزمان البسيط البعيد عن التعقيد لم تبرح الى حد كبير شأنا من شئون سداد البديهة وبعد النظـــر النافذ • ومن ثم فما يكاد المرء يفترض العبقرية فى شخصيتها حتى يتجلى له أنه ليس ثمـة أى سبب للظن باستحالة وجود مثل هذه الموهبة عند جان دارك •

هذا الى أن الجمع بين سداد البديهة والاســـتقامة الفطرية وبين الحماسة البطولية أضفى على شخصيتها الطابع الفذ تماما الذى يجتذب اليه نفس كل انسان على الفور • فانها وهبت القدرة أن ترى عند أول نظرة كل شىء فى صـــورة الحقيقة مجـــردا من كل غلالة من غلالات المواضعات التقليدية • ومن هنا جاء ما تتصـــف به أجوبتها من بديهة حاضرة ، مثـل اجابتها عن ســـؤال عميد كلية اللاهوت فى بواتييه ، حين سألها : بأى لسان يتحدث ملاكها ؟ حيث قالت : « بلسان أحسن من لسانك » ، وذلك لأن الأخ سيجان كان يتكلم اللهجة اليموزينية (١) •

ومما هو جـدير بالالتفـات أن عالم تصـــورات جان يقع خارج مواضعات زمانها تماما • ولا مراء أن كل من عرف قوة تســـلط النزعة الرومانسية للفروسية على ثقافة القرن الخامس عشر ، سيذهل من تلك الحقيقة • ذلك ان كل ما كانت تعرفه هو أعمال الفروسية : المتعة بالخيل والســلاح ، والشجاعة والوفاء ، اما ما للفروسية من مفـــاهيم الزهو فشىء غريب عنها تماما • اذ أن روحها البســـيطة لم تكن ممن يفتذون بأوهام عقود (جمعيات) الفروسية وحفلاتها وايماناتها وعهودها ، لـم تكون روحا موجهـة نحو المثل الأعلى الاجبـارى الذى يقضى بتحرير بيت المقدس ، بل موجهة نحو المثال الدانى القريب ، وهو تحرير فرنســـا • ولا تنس أن كل الثقافة العليا التى احتواها عصرها يقع على بعـــد عدة اميال منها • فليس ثم اى اتصال بينها وبين المفاهيم الفروســـية التى هى بدعة الارستقراطية • ومما له دلالته القوية انه حتى بعد موتها لم يجد الخيال الأدبى بالفعل أى مكان لها فى الصورة الزاهية التى تمثـل مجد الفروسية • فما الذى كان يمكن فعله بها ؟ لقد كانت حقيقة واقعية أكثر مما ينبغى •

وهناك حقيقة أخـــرى هى ان المفاهيم المحكمة للحياة الدينية فى زمانها ، كانت كلها من حيث التفاصيل غريبة عنها فعلا • ولن يتبين لنا اعوازها الى كل عنصر من عناصر المستقية الدينية وكل عاطفة متطـورة

من عواطف الوجد الروحي الا متى قارناها بغيرها من قديسات الزمان كالقديسة كوليت مثلا . فلا نجدها تسهم الا في واحدة فقط من حركات التقوى الدينية المنتشرة في القرن الخامس عشر : وهي تمجيد اسم يسوع ، الذي توجت به رايتها ووضعته في أعلى رسائلها . ولكن ذلك هو كل ما هنالك ، اذ ليس ثمة شيء يدل على انشغال بالها بالمفاهيم الدينية الكبرى في زمانها ، وأعنى بذلك تنبه الناس لما كابده السيد المسيح من آلام تنبها حادا بالغ العنف ، فضلا عما اقترن به موته لديهم من أخيلة صارخة مزعجة . اذ لم يكن في وقتها براح ولا في صدرها متسع لذلك النوع من المفاهيم .

ولن يستطيع أحد أن يعرف الى أي حد كانت اشكال عالم التصورات في ذلك الزمان واضحة لدى جان دارك . ولاشك أنها كانت تتمثل لديها اشكالا بالغة البساطة بالغة القوة والقصد المباشر الى الغاية وهو أمر واضح تماما ، وهنا نصل الى مسالة « اصواتها » وما لها من دلالة وهناك ناحية اخرى من النواحي الثمينة المحيطة بجان دارك . اذ الحق ان تاريخها يرغمنا أن نعمل لاعتقاداتنا الخاصة حسابا مضبوطا دقيقا . فان غير الكاثوليك من الناس يستطيعون ان يفهموا وينعموا بقصة القديس فرانسيس أو القديسة كاترين من سيينا Siena فهما مقترنا بالاعجاب بكنيسة العصور الوسطى ، ولان كان مرد ذلك الاعجاب هو بلا ريب دراسة للتاريخ مجردة من التحيز ، فانه شيء قد يكون أعمق كثيرا من مجرد التقدير التاريخي والجمالي البحت . وتجبرنا قصة جان دارك على الاعتراف فورا بما اذا كنا نؤمن بفئة القديسين بالمعنى الدقيق المفهوم عند الكاثوليك ام لا ؟ فكل من لا يستطيع الايمان بأن الأرواح المباركة لأشخاص بأعيانهم عرفوا يوما باسم كاترين ومرجريت أظهرت نفسها في صورتها الجسدية لجان ، خير له ألا يرغم نفسه على فعل ذلك . فالمعجزة لا تقوم بذلك ولا تسقط .

ويبدو لي أن شو قد أدى خدمة جليلة حين عارض بعنف الفكرة القائلة بأن تسمية أصوات جان «بالأعراض المرضية » أمر كاف لتحديد دلالة تلك الأصوات . ولكنه حين فعل ذلك أبدى من الأصالة أقل مما زعم لنفسه . فان كيشراه وان كان عقلانيا أكثر من شو ، أبى ان يعتبر جان شخصا مريضا . ولعمرى لئن قوبل كل الهام يهبط على المرء منا بمثل ذلك الالحاح الأمر القاهر الذى يجعله يرن في الآذان رنين الصوت المسموع ، بمجابهته فورا بالاصطلاح العلمى المسمى بالعرض المرضى

أو الهلوسة ، فمن ذا الذى لا ينضم الى جان دارك وسـقراط فى صف المجانين ، لا الى كلية السوربون فى جانب العقلاء ؟ ونحن نعلم أن أى شذوذ لا يصبح مرضا الا اذا عاد بالاضطراب على اتجاه الأهداف لدى الكائن الحى • فأما أصوات جان فربما عادت بالاضطراب الشديد على غرضها الأدنى فى هذه الحياة من الاستمتاع والأيلولة الى الشيخوخة ، بيد أن مثل هذه الأشياء ليست مما نروم أن نقيم عليه استنتاجنا • ومهما بلغ من وضوح تقرير الطبيب النفسى عن حالتها العقلية ، فان الحكم التاريخى يحتفظ مع ذلك بحقه فى ألا ينظر الى الأصوات على أنها قبل كل شىء « اضطراباتها وهلوساتها المستديمة » ، كما فعل أناتول فرانس ، بل أن يجد فيها علامة على عقل منشغل انشغالا كاملا بدوافع عالية • والتاريخ هنا أقرب الى الاهتمام بشجاعتها ، ودلالة تلك الشجاعة منه بتحديد نوع رؤاها من الناحية الفسيولوجية •

وهناك حجة خاصة أخرى ينبغى أن تحجبنا عن الافراط فى النظر الى حالة جان من خلال عدسة تشخيص الأمراض • ذلك أن بعض السادة الذين حاكموها فى روان عام ١٤٣١ بذلوا قصارى جهدهم للتغرير بأفكار جان وجرها الى منزلقات مس الشياطين بسؤالهم اياها : هل كان القديس ميكال عريان ؟ ، وأى الأجزاء من أجساد القديسين عانقت ؟ وهلم جرا• بيد أنهم لم ينجحوا معها مرة واحدة • فلو كان بعقلها مرض حقا ، لاكتشفوه بكل تحقيق • اذ لاشك ان محقق محكمة التفتيش فى القرن الخامس عشر بلغ من المهارة مبلغ أصحاب فرويد العصريين فى اخراج عكارات النفس الى العيان • فهل أشارت جان ولو مرة واحدة الى الشيطان ؟

وهناك مسألة أخرى تتعلق أيضا بالشكل الذى تصورت به جان دارك ناصحيها السماويين ، وهم القديس ميكال والقديسة كترين والقديسة مرجريت ، اذ يبدو أن شو قد مرق هنا راسا الى لباب الموضوع • غير أن الشكل مرتبط بعالم التصورات الذى عاشت فيه • انه عالم كان من الطبيعى والمنطق لها أن تتمثل فيه الأصوات فى صورة القديسين والملائكة مثلما يحل للرجل العصرى أن يستعير مصطلحاته من مفاهيم الفيزياء • وعندما راح شو يجعل جان دارك تقول لكبير الأساقفة : « وحتى لو أنها (أصواتى) ليست الا أصداء لعقلى ، فانه يستطيع أن يرجع الى جلسة ١٥ مارس : « ولما سئلت كيف عرفت أنها لغة الملائكة : تجيب بأنها صدقت على الفور ، وأنه كان لديها الارادة أن تصدق » •

وفيما يتعلق بمسألة الطريقة التى حددت بها جان وفسرت المفاهيم المرتبطة بالهاماتها ، أحب أن أمضى أبعد من شو قليلا • فان جميع من قرأت لهم من الكتاب الذين كتبوا عن جان دارك (وهم قلة من المجموع الذى لا يبلغه الحصر) يذكرون كحقيقة ثابتة ومقررة ، أنها ربطت بين أوامرها السماوية وبين أشخاص كبير الملائكة ميكال والقديستين كترين ومرجريت ، وذلك حتى وهى فى بداية رسالتها • فهل ذلك أمر محقق الى هذا الحد ؟ لقد أعربت عن ذلك الارتباط بهؤلاء فى ١٤٣١ أثنـــاء المحاكمة عندما طلب منها ان تصف رؤاها بالتفصيل • على أن الشهود الذين شهدوا فى محاكمة رد الاعتبار والذين سمعوها تتحدث عن أصواتها فى ١٤٢٩ ، أثناء ازدهار مجـــدها ، لم يبدوا فى جملتهم أنهم يعرفون شيئا عن القديستين ولا كبير الملائكة • وفى هذا وحده بالضبط وبسببه بالضبط ما يجعلهم يبدون فى نظرى موضع الاعتماد والثقة المكينة • فلو أنهم اقتصروا على مجرد « تسميع » ما عرفه كل انسان فى ١٤٥٦ ، وما أراد كل انســـان سماعه منهم ، لذكروا دون ريب ميــكال وكترين ومرجريت • فمن المعلوم أنه كان من الطبيعى تماما لشخص يعيش فى القرن الخامس عشر أن يربط فكرة ما بقديس مثلما هو من الطبيعى لأبناء عصرنا أن يستخدموا ألفاظا مثل « العقلية والحدس » • ولكن ماذا كان على هؤلاء الشهود أن يقولوه ؟ لقد تجرد « نصـــيح » جان دارك السماوى من كل هيئة مرئية ، فهو مجرد روح فوق انسانية Daimonion تحدثت عنه بكل أحجـــام وتكتم • فهى لا تتحـــدث الا عن نصيحها Son Conseil • وعنـدما سألها كريســتوفر دى هاركور بحضرة ولى العهد (الدوفان) « الا تفسرين هيئة نصيحك عندما يتحدث اليك » ، Modum vestri consilii تضرجت وجنتاها بالحمرة وأجابت نعم ، ولكن ما قالته عندئذ لا يحتوى على أى اشارة الى الشخوص المقدسة الثلاثة وعندما سألها حنا دولون ، أحد المقربين اليها ، من نصيحها ؟ لم تجبه الا بقولها : « انهم ثلاثة ، أحدهم بين يدى على الدوام ، والثـانى يجىء ويذهب ، والثالث هو الذى يستشيره الاثنان الآخران » • ومن هــذا لا يكاد يتضح أن اثنين من الثلاثة من الاناث •

ومن الأمور التى تبدو لى معقولة ، أن جان لم تعمد الا مؤخرا قليلا ـ ولعل ذلك لم يجىء الا فى أثناء محـــاكمتها ـ الى ربط الهـــاماتها بالشخوص التى عرفتها جيدا واعتزت بها أشد الاعتزاز من بين جميع القديسين • ذلك أنها حتى فى أثناء الجلسات لم تبد الا أقل الميل الى

الدخول فى التفاصيل حول رؤاها · فهى حين سئلت عن النور العظيم المرافق لهن ، اجابت : « أنتقل الى سؤال آخر passez oultre » ·

وجميع ماصرحت به جان حول الحالة الروحية التى كانت تسمع فيها أصواتها بالغ أقصى غاية البساطة · كانت حالة ابتهاج وانتشاء عظيم ، تمنت لو شملتها دائما · لقد ملأها شعور بالمعرفة يفوق كثيرا ما يمكن أو ما تتمنى الا ما تستطيع ــ التعبير عنه · قالت لرجال الكنيسة الذين استجوبوها فى بواتييه : « ان فى كتب الله لأشياء آكثر مما فى كتبكم »· فكل ما يدور حول الرؤى من عبارات اصطلاحية من النوع العادى ، فهو شىء غريب بصورة مطلقة ·

ومما له دلالته ذلك التشكك الكامل الذى أظهرته نحو رؤى كترين دى لاروشل ، التى تمكنت من الوصول الى الملك كمنافسة لها · وقد زعمت كترين بأن سيدة بيضاء الثيـاب تزورها كل ليلة · ولذا طلبت جان أن تبيت معها ليـلة ، وظلت سـاهرة حتى منتصف الليل فلم تر شيئا ، وعندئذ نامت · فلما طلع الصبح سألت : هل جاءت السيدة ذات الرداء الأبيض ؟ فاجيبت بنعم ، جاءت وأنت نائمة ، ولم يمكن ايقاظك · وعندئذ نامت جان نهارا ، وظلت مستيقظة ليلها ، وهى تعـاود سؤال كترين : ألا تجىء ؟ فتجيبها كترين : نعم ، حالا ·

وتختلف الهامات كترين دى لا روشل فى نوعها عن الهامات جان : فانها كانت تمر بالمدن ومعها رسل الملك المبلغين والأبواق تدوى من حولها لكى تدعو كل من لديه ذهب أو فضة أو كنز مخبوء الى التبرع بها · فان تلك الأموال كانت مطلوبة لدفع أعطيات جند جان · أو هى تذهب الى دوق برجنديا لتعقد الصلح معه · ولكن جان نصحتها بالعودة الى زوجها لتعنى بدارها واطفالها ؛ وآلت على نفسها الا تعقد أى صلح « الا على أسنة الحراب » ·

ولم تكن جان دارك من ذوات «الوجد التصوفى بمعناه المعروف» ، من حيث أنها كانت تلم بها فى بعض الأحيان نوبات من التردد والارتياب· ولم يدر ذلك التردد فحسب حول ندائها السماوى بل وحول مصـيرها أيضا · وعندما كانت تخوض المعارك لم تكن واثقة مطلقا أنها لن تلقى مصرعها · ولذا فان ترددها قبل معركة مونتبييللوى أفضى بها الى الهزيمة· ومن الأمور التى تمس الفؤاد تنبهها الى أن الله يحب مخلوقات حية أخرى

أكثر منها (وهو أمر شهدت به أثناء المحاكمة ، دون أن تضيف اليه المزيد من التوضيح •)

وتنزع أشد سماتها انسانية الى اضفاء مزيد من الاشراق والنصاعة على عظمتها • ولست أحب أثنـاء عرضى لصورتها أن يفوتنى وأنا أذكر نقاءها ورصانتها وبساطتها ، أن أنوه بحبها للثياب الغالية الثمن وهى صفة قد تبدو فى ظاهرها فقط مناقضة لتلك الصفات • « وكانت ترتدى ثيابا فاخـرة جدا جيـدة التوشـية بالفراء صـنعت من قمـاش الذهب والحرير ••• » وكانت تفضل ارتداء اللون الأحمر • فقد عثر على أمر بدفع مبلغ ثلاثة عشر كرونا ذهبيا قديما ثمنا لثوبين فاخرين صنعا فىأورليان فى يونية ١٤٢٩ ، على نفقة شـارل دى أورليان وعثر على الايصال مع ذلك الأمر •

ومن المعروف أن صور الشخصيات التاريخية لا تكون نفسها فى العقولعلى أساس التعريفاتالسيكولوجية•فانها تنشأ فى الظاهر دون وجود وظيفة منطقية شعورية كمنظر لشىء لم يستطع الانسان رؤيته من قبل ، أو لم يره الا رؤية غير واضحة • وهى انما تتكون من المعطيات المتسفة أو الجزيئات العرضية التى جاءت بها الظروف الى حد ما واحتفظت بها لنا الروايات التاريخية • على أن الاقتناع بأن ما بين أيدينا من صورة لابد أن يكون صحيحا مضبوطا (أو على الأقل ذا قيمة) وأن الروايات التاريخية مما يمكن الاعتماد عليه ، انما ينجم عن الاحساس ـ الذى يصعب فى العادة وصفه ـ بأنه على الرغم من أن المعطيات المختلفة مفككة فى حـد ذاتها لا يربط بينها رابط ، فانها تولد الألفة والانسجام وتتوافق فيما بينها • وتنبثق صورة جان دارك عن مصادرها انبثاقا تؤلف بين شتاته درجة عالية علوا غير مألوف من التجانس والاقناع • والذى حدث حتى بين علماء تباعدت مذاهب مدارسهم فى الحياة والعالم ، أن ما بينهم من فروق فى تصورهم لجان دارك ضئيل نسبيا • وكأنما شخصيتها فرضت نفسها على كل انسان شهد بأنه رآها ، وتم ذلك بصورة أجبرتهم عـلى الاكتفاء بمجرد قول الصـدق بكل ما فيه من بساطة ، الصـدق الذى لا تحجبه نماذج الأشكال الفروسية أو الدينية التى كانت تحدد طريقة التعبير لدى هؤلاء الشهود فى العادة • وفى اعتقادى أن جميـع الأعمال والأقوال المنقولة الينا حول جان تتلاءم بعضـها مع بعض • فهى تقول : « ان العلامة التى عندى من الله هى رفع الحصـار عن أورليان » • ـ وتقول : « سيخوض الجنود المعركة ، والله واهب النصر » • وهى تحمل

العلم لكيلا تضطر الى قتل أى انسان ! وعندما حضرت اليها نساء بورج تحملن السبح لكى تمسها بيدها ، قالت ضاحكة لمضيفتها : « المسن أنتن السبح ، فان فى لمستكن مثل ما فى لمستى من الخير تماما • » ولم تكن تحب أن تشترك فى غرفة نوم مع العجائز ، ولم ترد أن يكون حولها الا العذارى الصغيرات • وكلما أقبل مساء ومالت الشمس للمغيب جعلتهم يدقون جرس الكنيسة مدة نصف ساعة • وبينما هى فى ذروة سعادتها قبيل التتويج فى ريمس بقليل ، حين لم تدرك بعد أن المد قد أخذ ينحسر، تسامع الناس الأنباء على الطريق من كريبى فى فالواه فى اليوم الحادى عشر من أغسطس ١٤٢٩ ، وهى تركب فرسها بين رئيس أساقفة ريمس وزنيم أورليان ، والأهالى يحيون الملك بهتافات السرور صائحين « نويل Noel أى مرحى» • ولما عقدت محاكمة رد الاعتبار، أدلى دونواه بشهادة تتعلق بذلك ، شهادة ربما عدلت لسوء الحظ فى ذاكرته ، ولم تحفظ لنا مع الأسف الا فى صورتها اللاتينية • تقول جان : « هـذا شعب طيب • لم أر شعبا فى مكان آخر أبدى مثل هذا القدر من السرور عند قدوم ملكنا النبيل • » ثم أردفت ذلك بقولها : « أتمنى من فضل الله أن يسعدنى حين أختم أيامى ـ بأن أدفن فى هذا الثرى • » وهنا سألها كبير الأساقفة : « جان ••• فى أى مكان تتمنين أن تموتى ؟ » فأجابته : « أينما شاء الله ، فأنا لا أدرى فى أى وقت ولا بأى أرض أموت • ولست أدرى عن ذلك أكثر مما تدرون • غير أنى أتمنى أن يتفضل على المولى خالقى ، أن أتقاعد الآن وأضع السلاح ، وأن أخدم أبى وأمى ، فأحرس لهما غنمهما (٣) مع أختى واخوتى ، الذين سيبتهجون كثيرا لرؤيتى •• »

أما الأشخاص الذين يميلون الى الاعتراض على الشهادات التى سمعت فى محاكمة رد الاعتبار التى عقدت فى ١٤٥٦ على اعتبار أنها شـديدة العطف على جان التى كانت تلقى بالفعل معاملة من يرام اعادة تقييمه ، فيرون أن محاكمتها فى ١٤٣١ تتصف هى الأخرى بالنقاء المبرأ من كـل شائبة • فقد روى الأخ ايسامباردى لابيير والأخ مارتن لادفينو ان الجلاد صرح بأن قلبها قاوم كل جهد بذل لاحراقه • وهو أمر لا يلزم أى امرىء منا بتصديقه • وان كان هناك شىء آخر يعد معجزة عظيمة تعادل هـــذه تماما ، ولكنها من نوع آخر أكثر دقة ورهافة : فان جميع أولئك الأشخاص المتحيزين الذين لاحقوها فى ١٤٣١ ، ومنهم قضاتها بقلوبهم القاسـية وأقلامهم الجامدة ، لم يستطيعوا أن يطمسوا ما لذهب كلماتها من بريق • وسأقدم الى القارىء مثلا واحدا فقط من كثير : فانها حين سئلت عن الكلمات التى كانت تستخدمها لتستدعى عون أصواتها ، أجابت : « أبتهل اليك

يا الهى الرحيم ، باسم آلامك المقدسة ان كنت تحبنى ، أن تكشف لى عن الطريقة التى ينبغى أن أجيب بها هؤلاء القساوسة . فانى أعلم جيدا فيما يتعلق بهذه العادة ، الوصية التى من أجلها تعودتها ، بيد أنى لا أدرى بأى طريقة ينبغى لى أن أتركها . فتفضل وامتحنى العلم ... »

والذكريات فى الشهادات التى أدلى بها الشهود فى محاكمة رد الاعتبار غالبا ما كانت جذاذات ، فهى بالحرى تفاصيل غير مترابطة ابتعثتها الذاكرة بكل مافى سلبيات صور الأفلام من قلة تفكر، وهل من أجل ذلك بالضبط تعتبر باعثة للثقة . خذ مثلا حديث سمكة الشبوط ، الذى يستخدمه شو ولعنات دى استيفت . وهناك اجابتها عن سؤالهم هل كنت يوما ما فى الموضع الذى ذبح فيه الانجليز ؟ حيث قالت : « باسم الله ، بطبيعة الحال ! .. فكم تتكلمون برفق ! .. » وفى ١٤٥٦ لم يستطع توماس دى كورسل نفسه أن يتذكر من العظة التى وعظها بهنا جيوم ايرارد فى فناء كنيسة سان أوين الا هذه الكلمات : « كبرياء هذه المرأة .» لم يستطع أن يتذكر غير صورة وحيدة لسحب جان أقوالها : هى صورة كوشون فى حديثه مع بعض أناس آخرين . وتوقف فى وسط احدى الجمل ، ولكن دى كورسل لم يعد يعرف بعد ذلك ما قيل . فان توماس دى كورسل ، أظهر فى ١٤٥٦ ، وهو أحد أعلام الكنيسة والجامعة ، أن ذاكرته ضعيفة جدا ساعة محاكمة رد الاعتبار .

ان صورة جان دارك واضحة بالغة التحديد ، ومع ذلك فاننا لا نستطيع أن نحدد نوعها بدقة بالغة . ولاشك أن كل انسان يحاول وضعها تحت مصطلحات السيكولوجيا العلمية ، سيشعر أنه ينتهكها . وذلك هو الوضع الجوهرى فى حالة كل صورة لشخصية تاريخية ، ولكنه وضع يزداد وضوحا كلما زاد انحراف الشخصية عن المعايير السوية المعتادة للشخصيات والتصرفات . يقول هانوتوه وبحق ما يقول : « ان الرجل العظيم شخص لا سبيل الى معرفته » . ويقول شو : « ان الكائن الفائق شخص لا يطاق لأن أحدا لا يستطيع مطاولته ... » وشخص جان دارك يقع تماما فى نظرنا داخل النطاق البطولى البحت بصورة لعلها أشد نقاء من أية شخصية أخرى فى التاريخ . ولذا فعبثا ما نحاول البحث عن اللفظ الذى يلخص لنا جوهرها . ولقب « البطلة » بالنسبة اليها لفظ لا نرضاه . وأقل من ذلك كلمة « عبقرية » . على حين أن لفظة « قديسة» سواء أفهمناها تماما أم لم نفهمها بمعناها الفنى (التكنيكى) الكنسى ، تعد خير مصطلح يصح لها بصورة مطلقة .

- ٣ -

راى ابناء عصرها

يقول أناتول فرانس : « لم يحدث فى أية لحظة من لحظات وجودها أن عرفت جان دارك الا عن طريق الخرافات ، ولئن أمكنها أنتحرك الجماهير فلم يكن ذلك الا نتيجة للضجة التى أحدثها ما لا حصر له من الأساطير التى انبثقت حيثما وضعت قدمها ، وانتشرت تسبق خطاها . » والجزء الأول من هذا الخبر حقيقى دون ريب ؛ على حين يتضمن الجزء الثانى غلطة منطقية خطيرة . فهل يجوز تفسير تأثيرها بأنه نتيجة لما لا حصر له من الأساطير ؟ ولكن ما الذى يفسر الانبثاق المباشر لتلك الأساطير ذاتها ؟ ان وجود صانعى الأعاجيب لم يكن شيئا غير مألوف فى القرن الخامس عشر ، وقد أحدث كثير منهم قدرا لا بأس به من الضجيج ، ولكن أحدا منهم لم يستثر من الذهول ومن الحماسة والرعب ما أحدثته جان دارك على الفور . وليس شىء أقوى دلالة فى هذه الناحية منالأوامر الملكية الانجليزية التى تحاول الحيلولة دون انصراف الجنود أفواجا عن الميدان الى الجزيرة ورفضهم الدعوة الى حمل السلاح تحت الراية الانجليزية.(١)

وخير مصدر عرفنا منه بالطريقة التى ذاعت بها شهرة جان دارك ، ملحوظات وردت فى المدونة التاريخية التى كتبها انطونيو موروسينى فى القرن الخامس عشر ، وهى مدونة لم تلتفت اليها الأنظار لأول مرة الا فى ١٨٩٥ . فان ذلك الرجل البندقى ظل يخط نوعا من المفكرة التى تحوى الأخبار التى كانت ترد الى البندقية حول أروع أحداث الزمان . وكان يسجل الاخبار فى أية صورة استطاع الحصول عليها ، وعلى هذا النحو أيضا أدخل فيها عددا من الرسائل التى أرسلها بانكرازيو جيوستنيانى ، وهو تاجر من البندقية يعيش فى مدينة بروج ، الى والده ماركو فى ١٤٢٩، و١٤٣٠ فضلا عن رسائل وردت من شخص آخر من أبناء البندقية يقيم فى أفينيون . وهذه الرسائل لا تسترعى الأنظار منأجلدقتها فىالتفاصيل الواقعية بقدر ما هى كذلك من أجل تصويرها ، للطريقة التى تهيأ بها لشخص جان أن يتشكل من يوم ليوم فى عقل انسان محايد مكونا سيرة

حيـاتها • ذلك أن جيوستنياني وهو ايطـالى وتاجـر يعيش بالأراضى البرجندية ، لا يمكن أن يتهم بالتهور فى ميله والتسرع فى المبادرة بالاعتقاد فى معجزة العذراء • وتقاريره المتعلقة بجان تبـدأ بذكر عابر يجىء فى نهاية بيان مفصل عن رفع الحصار عن أورليان ، كتب حـوالى منتصف مايو ١٤٢٩ : « كثر الحديث فى الأسبوعين الأخـيرين حول التنبؤات الكثيرة التى ظهرت فى باريس ، وأشياء أخرى تنطوى فى جملتها عـلى الوعد بالخير والنجاح العظيم لولى العهد (الدوفين) ••• وقابلها كثير من الناس بطائفة من أسخف النكات وأشدها هذرا ، وخاصة ما ظهر من تلك الأعاجيب عن احدى البنات ، وهى راعية من اللورين • » (٢) ذلك أن بعض من فى برجنديا من التجار كتبوا اليه حول ذلك الموضـوع • وهو ملم بالمعالم العامة لنشاطاتها فى شينون • وهو ينقل أن أحد الاشخاص الذين كتبوا اليه عنها قال : « ان هذا أمر يكاد يورثنى الجنون • » ويبدو الأمر كله بعيد التصديق ، ومع ذلك ••• فانه فى اشارته التالية المؤرخة فى التاسع من ٩ يولية ، (٣) لم يدع الا بارقة واحدة من الشك حيث قال : « ان هذه أمور عجيبةجدا ان تكن حقيقية ، ويظهر لى أنها كذلك ••• اننى أومن أن قدرة الله عظيمة ••• » ثم يعود فيقدم الأسـانيد فى رسالتيه التاليتين المؤرختين ٢٠ نوفمبر ١٤٢٩ والرابع من يناير ١٤٣٠ ، ومنهما يتجلى أنه يعرف رأى حنا دى جيرسون فى جان دارك ، وهو الرأى المملوء بالحذر المقترن بالفهم (وسأعود اليه فيما بعد) ويشركه فيه : « صدق من الأمر ما شئت ؛ اذ المقول أن العذراء تفعل هـذه الأمور جميعا وألفا أخرى غيرها من الأعاجيب ، وهى أشياء لو صحت ، لكان فاعلها هو الله • وهو شىء عجيب جدا فى أيامنا هذه » • وكتب آخر كلمة له عنها فى ٢٤ نوفمبر ١٤٣٠ وقد أرسلت الفتاة La poncela الى ملك انجلترا فى روان (٤) ؛ وحصـل يوحنـا دى لوكسمبرج عـلى عشرة آلاف كرون فى مقابلها • « أما ما سيحدث لها بعد ذلك فشىء فى طى المجهـول ، ولكن يخشى أن يتركوها تموت ، والحق ان هذه الأشياء عجيبة وعظيمة • »

ولئن حصلنا من أخبار موروسينى على تقرير عن مناشط جان فى صورة ساذجة فجة ، فان صورة أخرى ذات لون أدبى تطورت أيضا ، فى الشهور الأولى ذاتها • فعلى حين أن بعض الناس الذين رأوها اقتصروا على مجرد تدوين انطباعاتهم عن العذراء ، كما فعل ذلك الاخوة دى لافال فى رسالة بعثوا بها الى أمهم ، فان غيرهم يتخذ من الحديث العجيب وسيلة لاختبار أسلوبهم وذكائهم ، مثلما يفعل صحفى حديثا ازاء أبطال الرياضة والموسيقيين • ومن هـؤلاء الأخيرين برسـيفال دى بولانفيلييه ، وهو

تشريفاتي شارل السابع ومستشاره ، في رسالة لاتينية بعث بها الى فيليبو ماريا فسكونتي مؤرخة في الحادي والعشرين من يونية ١٤٢٩ · فأما الثاني فكاتب مجهول ، يظن أنه آلان شارتييه في رسالة مماثلة لتلك بعث بها الى أمير مجهول بعد ذلك بشهر · وقد يتوقع المرء أن يكون مصدر الالهام للشكل الذى صاغ فيه هؤلاء المؤلفون صورة جان دارك ، المفاهيم والمعانى الفروسية التي تسلطت بشدة على العقول في ذلك الزمان · ولكن ذلك لم يحدث · فانهما راحا يوشيان بالتفاصيل الاعجازية المحكمة نموذجا على طريقة المذهب الاسباني وعلى نسق سير القديسين بقصد الحلية مع اضافة قدر كبير من البيان ، بحيث صار واجبا ـ بصورة عجيبة جدا ـ أن تعد تلك المصادر الأصلية والأولية ـ أبعدها عن الاعتماد والثقة ·

وهناك شخصيتان من أرفع من أنجبت فرنسا من عقلية ممتازة مفكرة وممن التقت أفكارهما في موضوعات رفيعة بميدان آخر قبل ذلك بزمن مديد ، وقد كرس كل منهما عمله الأخير الذى كتبه قبيل وفاته ـ لمناشط جان دارك · فان حنادي جيرسون كتب كتابه الموسوم «تأملات فى حقيقة العذراء Considerations on the fact of the Maid » في الرابع عشر من مايو ١٤٢٩ ، ومات بعد ذلك بشهرين · كما أن كريستين دى بيزان ، وهى تقضى أيام شيخوختها فى عزلة كتبت في اليوم الحادى والثلاثين من يولية ١٤٢٩ عملها المسمى « المكتوب ditié » وهو فى واحد وستين مقطعة ، وهي القصيدة الأخيرة المعروفة عنها ، وتتصف الى حد ما بأنها عمل تافه وكليل ، ولكنه مشحون بالايمان المطلق برسالة الفتاة العذراء · أما جيرسون وهو السيكولوجي الحذر الذى ألف قبل ذلك رسالة طويلة عن وسيلة التمييز بين الرؤى الصادقة والكاذبة ، وأبدى أنه لا يخشى شيئا قدر خشيته من أن تنتصر جميع أنواع الخرافات الكاذبة والرخيصة ، ـ فانه يكتب عن جان دارك في قدر معين من التحفظ وقلمه يفيض بما يملأ قلبه من عطف على هذه المسالة التي أثارت العالم كله · والواقع أن أهم الحجج التي دفعته الى وضع ثقته في قدسية رسالة جان تتطابق تطابقا تاما مع الصورة التي صورها لها شو ، ذلك أن ما حدث فعلا من أن دعوتها استطاعت تحريك مستشارى الملك والقواد الى مهاجمة العدو ، كان له وزن ضخم عند جيرسون ، وهو استنتاج صائب · وهو يرى أيضا أن من علائم أصالة رسالة جان ، أنها هى والقواد الذين يتبعونها لا ينبذون طرائق البشر في الحذر ـ على الرغم من الأمن الالهى · وهو يحس فيها حقيقة واقعة وهى أن فكرتها معقولة وأن معقوليتها تنم عن قوة مكينة والهام · وانه ليواصل حديثه قائلا : وحتى لو فرض أن فيها الشيء الكثير

من الأمور الطبيعية ، الا أنها مع ذلك يمكن ان تكون معجزة ، وهو يستدل على ذلك أن فى المعجزات القديمة التى تشهد بها الكتب المقدسة ، مايشير الى أن معجزات ديبورة وجوديث، « كان يمازجها على الدوام شيء طبيعى ٠٠» ثم يحذرنا جيرسون بحرص « وبعد المعجزة الأولى لا يمضى كل شيء دائما على النحو الذى يتوقعه النـاس • ومن ثم ، فحتى لو حـدث أن خيبت الظروف توقعات العذراء وتوقعاتنا ــ وحاشاى أن أتمنى ذلك ــ لم يجز لنا أن نستنتج ، أن كل ما حدث كان من صنع روح شريرة ، أو على كل حال لم يكن من صنع الله ٠ »

وقد أثبتت الحوادث أن الآراء التى كان يصل اليها أى متصرف من رجال الكنيسه كانت أميل الى التردد ، فى كل حالة لا يدور الموضـــوع فيها حول حب الوطن والاخلاص لفرنسا ، كما هو الشان مع جيرسون • فهناك مثلا ، استنتاج هندريك فان جوركم ، وهو مدير احدى المدارس اللاتينية بمدينة كولن ، وهندريك فان جوركم هذا قد أشار اليه هوجو جروشيوس فى المقـدمة التى مهد بها لكتاب « De iure belli ac pacis عن شرعية الحرب والسلم » وذكر أنه أحد أسلافه فى العمل بانيا قوله على كراســة دينيــة عن « الحرب المشروعة De iusto bello » (٥) •
ولكنه عندما عاد فى يونية ١٤٢٩ فوضع جنبا الى جنب ما للعذراء وما عليها من القضــــايا Propositiones لم يدر بخلده قط أن حربها أيضا يمكن أن يشار اليها باعتبارها حربا عادلة • غير أن اعتراضه الجاد على أصالة رسالة جان السماوية هو أنه فى هذا الأوان من الحقب المسيحى المبارك ، لا يبدو محتملا أن تكون رسالة روحية تهدف الى تزكية أمر دنيوى بحت مثل قضية الفرنسيين ضد انجلترا صادرة من الله جل شأنه • فان كان كل شيء يمضى على سجيته الطبيعية فيما يتعلق برسالة جان السماوية ، فانها لابد اذن أن تكون مقدسة قداسة غير عادية • فاما أن يرتدى مخلوق قدسى مثلها لباس محارب دنيوى ــ فأمر لشد ما بعد عن كل لياقة ؛ ان جوديث واستر لم تفعلا ذلك • وعلى هذا النحو كان الأمر كله يناقش بكامل الصور المنطقية والواقعية البحتة على قلم ذلك المعلم الهولندى الطيب هندريك فان جوركم •

وهل كان رئيس أساقفة ريمس ريجنولت دى شارتر يؤمن حقــا برسالة جان السماوية ؟ الواقع انه كان يرى بعد أن نادى بالصلح عن طريق التقـارب والوفاق مع دوق برجنديا ، أن كل شيء أرادت انجازه بعد اتمام التتويج فى ريمس كان يتنافى وما ينبغى عمله • فما كادت تقع أسيرة بأيدى البرجنديين فى كومبيانى Compiegne فى الثالث والعشرين

من مايو ١٤٣٠ ، حتى تخلى عنها • أجل انه لم ينكرها انكارا تاما ، ولكن ما صنعه فعلا كان أسوأ : فانه قذفها بأول حجر • كتب رسالة الى سكان ريمس (٦) قائلا : انها غلطتها وقد استحقت عليها الجزاء الذى حل بها • فانها أبت أن تصغى الى النصيحة ، وفعلت كل شيء حسب هواها • وقد أذن الله بالقبض على العذراء بسبب كبريائها والثياب الثمينة التى ارتدتها، ولأنها لم تتبع أوامره تعالى بل انساقت وراء ارادتها •

وعن هذه النتفة الصغيرة من المعلومات صاغ شو فى مشهده الخامس، شخصية رئيس الأساقفة مصورا اياه تصويرا يتمشى الى حد لا بأس به مع المأثور التاريخى • ومن أسف أن رباطة جأش جان دارك التى لا تدفع قد فسرت على أنها كبرياء وعناد : ولعل تلك النقطة أفجع ما فى تاريخها من نقاط • فان اتباعها أنفسهم لم يستطيعوا صبرا على شجاعتها الرفيعة •

أم أن حقيقة الأمر فعلا وكما يريد شو أن يصوره ، هو أن جان دارك لقيت حتفها المحتوم فسحقت بين الكنيسة والقانون الرسمى بوصفها نذيرا مكين القوة لا يطاق : ـ يدعو الى حرية جديدة للفرد وقوة جديدة للمجتمع ؟ ان برنارد شو ليريدنا ألا نعد محاكمتها الا فى صورة الدفاع الضرورى الذى نهض به عصرها ثائرا على الخطر المجهول الذى أراد أن يدمر ذلك العصر •

ولا ريب أن أشد ناحية فى عمل شو أصالة واستثارة للأنفس ، قيامه برد المكانة والاعتبار الى حد ما الى قضاة جان دارك ، فلو أن هذا الجدل الدرامى استخدم فى حالة أى موضوع آخر ، مثل قيصر أو حتى نابليون ، لبادرنا الى الاذعان لمثل هذا الرأى فى هذه المسألة دون أن تزعجنا الموانع التاريخية • ان شو يريد منا منذ الساعة ألا نعتبر المحاكمة خطة جهنمية للقضاء على جان دارك وعدها غلطة منطوية على حسن النية ومستوجبة للأسف ـ وهو أمر يبدو بالغ المنطق قريب الفهم بالغ المرضاة للأنفس بالغا فى تاريخيته • ولاشك عندى أن العديد الذى لا حصر له من الناس فى أرجاء العالم قاطبة الذين سيحملون فى مخيلتهم لعدة سنوات مقبلة خيال جان دارك على الصورة التى طبعها شو لديهم ، لابد أنهم سيقومون بهـذا التصحيح لرأيهم الأول : فان بيير كوشون لم يكن قاضيا مرتشيا ولا غير نزيه ، وانما هو رجل محترم وشريف نسبيا لم يدخر وسعا فى انقاذ العذراء • وعلى الرغم من ذلك ، فانى أعتقد أن هناك فى هذه المسألة قوما كثيرين ليسوا فى العادة ممن يهتمون قبل كل شيء بالمجرى التاريخى

للأحداث ، بل يركزون المتعة والاهتمام على ما للفنـان من قوة ابتداع تخيلية ـ وهم لا بد متسائلون : هل رأى شو هنا صحيح ٠

ان فى الامكان اضافة نقاط كثيرة فى صالحه بغير كثير من الضجيج٠ فان ما حدث فى محاكمة الادانة الأولى المعقودة فى ١٤٣١ من اجراءات ، انما هى من كثير من الأوجه أصح وأدعى الى الثقة من اجراءات محاكمة رد الاعتبار التى أجريت فى ١٤٥٦ ٠ والواقع كما لاحظ شو بضحكة ساخرة، أن القضاة الذين انعقدت محكمتهم فى روان ، والذين عادوا بعد اعدادات طويلة فقضوا أكثر من ثلاثة أشهر من وقتهم فى محاكمتها الفعلية ، نظروا الى مهمتهـم نظرة مفرطة الجـدية بالموازنة الى الاجراءات المتسرعة التى نستطيع تذكرها عن الحرب العظمى وما تم فيها من محاكمات ٠ فهل هذا مما يمكن فى الوقت ذاته اعتباره دليلا على تجرد من التحيز ؟

وظل شو يتقصى الرأى القائل بان كوشون كان يخدم قضية الانجليز، وأن المحاكمة تمت تحت الضغط ، وما زال بذلك الرأى حتى أرجعه الى خطيئة قائمة أصلا فى المذهب الرومانتيكى ٠ وتتلخص تلك الخطيئة فى التالى : ـ ان جان دارك فيما تقول العاطفة الرومانتيكية طاهرة مبرأة من كل وصمة ، فلابد اذن أن يكون قضاتها من الأوغاد ٠ ولذا راح شو ـ وبحق ما فعل ـ يندد بهذه « المقابلة » التافهة ٠ ولكن ما الرأى اذن ؟ أنه حتى أشد أنواع البحث التاريخى جدية لم تسفر الا عن نتيجة واحدة هى تجريح القضاة ٠ أجل ان ما استخدم من ألوان الضغط عليهم كثيرا مابولغ فيه ٠ فقد ادعى بعضهم دون أى أسـاس من سند أن الاجراءات زيفت ٠ بيد أن المحاكمة جرت فى المجرى الصحيح٠ وبرغم ذلك ، فان بيير شامبيون بعد اعترافه بهذا كله ، وهو أدرى من كل الناس بفرنسا فى القرن الخامس عشر ، يشير اليها بأنها « آية طريفة من التحزب غلفت فى مظهر أشـــد الاجراءات سلامة» لذا فهى تبقى فى نظره « فظيعة » ، ومن قبله بلت فى هذا الثوب نفسه لهانوتوه وكيشراه ولآلف غيرهما من المؤرخين ٠

ولو أنا راجعنا بدقة ما كتبه شو عن اجراءات المحـاكمة من أولها لآخرها ، لحصلنا فعلا على انطباع من الرقة النسبية ، ومن الرغبة الجدية فى الابقاء على جان دارك وانقاذها ٠ ولكن شو ، الذى أقام رأيه على هـذه الانطباعة ، أصبح هو الغر الذى وقع فى خديعة القضـاة أنفسهم ٠ وقد قامت تفاصيل المحاكمة وما اتصفت به من اعتدال على أساس من هـدف سياسى هو الحيلولة جهد الطاقة دون جعل ادانة جان دارك موضع أى ذم أو استنكار ٠ وحتى كثرة عدد القضاة كثرة غير مألوفة ، تعد فى حد

ذاتها مثارا للريبة والتهمة ، بدل أن تثبت وجود عدالة جادة حية الضمير. فوجودهم بهذه الكثرة يدمغ المحاكمة بأنها مسالة سياسية وأنها اهتمام متعمـــد « بقضية ذات أهمية خاصة Cause célèbre » • فان كوشون قال حتى قبل بداية المحاكمة « ان المقصـــود منها هو اعطاؤها محاكمـــة ممتازة •••» وفى أثناء مداولات القضاة فيما اذا كان من الواجب استخدام التعذيب أو عدم استخدامه ، أجاب أحدهم بالنفى ، لأن ذلك « قد يجلب سوء السمعة لمحاكمة اديرت حتى الآن بمثل هذه الجودة ••• ».كما أن جميع ما نطقوا به من النصح الرقيق والعطف على طبعها المخشوشن يمكن أيضا تفسيرهما بانهما تلطف مصطنع • ولعل شو قد فاته التنبه الى أن الكلمات التى كانت تستخدم عند نقل متهم من المحكمة الكنسية الىالنزاع العلمانى ، « مع التماس معاملتها بالرافة » ، ان هى الا عبارة رسـمية مألوفة لا يتوقع معها أى انسان أنها ستؤدى الى شيء آخر عدا المحرقة •

أما فيما يتعلق بأسقف بوفيه ، فان شو استطاع الرجوع الىالمصادر الأصلية فى أكثر من نقطة واحدة فى الصورة التى صورها لكوشون •• واتهمه الانجليز بالتحيز لجان ، فاجابهم بقوله : « انكم كاذبون : فان على بحكم القانون أن التمس خلاص الجسم والروح لجان هـذه ••• » وعندى أن الاتهام العام فى كل من المدونات التاريخية المعاصرة والشهادات التى أدليت فى محاكمة رد الاعتبار : من أن الكراهية والتآمر السياسى هما أسباب ما حدث فى ١٤٣١ من صنيع ، لا يمكن اعتباره أساسا كافيا لدمغ كوشون بعدم العدالة فى القضاء ، وان وجدت أشـياء كثيرة جدا تدينه • على أنه حتى سوابقه فى خدمة انجلترا وبرجنديا لا تثبت أنه خرج عن واجبه فى روان • وعلى الرغم من ذلك ، فان من بين الشهادات التى قيلت فى ١٤٥٦ ، شهادة من العسير جـدا نبذها باعتبارها غـير ذات أساس ، وهى تكاد تكون كافية لادانة كوشون وابطال رأى شو • وقد أدلى بها بعبارات تكاد تكون متطابقة كل من الأخ ايسامبار دى لابيير والأخ مارتن لادفينو • فقد حدث عندما ذهب القضاة ليروا بأنفسهم ، أن جان دارك عادت بعد سحبها أقوالها فارتدت ثياب الرجال مرة ثانية ، واضطروا نتيجة لهذا الى الحكم عليها بأنها زنديقة ومرتدة ، أن سمع أسقف بوفيه عند مغادرته السجينة ، وهو يخاطب واروبك من بين عدد من الانجليز قائلا بصوت رنان والضحك على شفتيه « •••• وداعا ، وداعا ، لقد انتهى الأمر ، فانشرحوا صدرا ، أو ما ماثل هذا من كلمات » •

فاذا كان من العسير تاريخيا اثبات حسن نية كوشون ، واذا كان كثير من القضاة من صنائعه ، واذا كان الذين رفعوا أصواتهم فعلا ضده

قلة ، فليس شيء من ذلك كله بقـادر مع ذلك على الدلالة أن المحاكمة بأجمعها تنطوي على الخبث المطلق والتحيز المتعمد البات • ومع أنها سئلت أسئلة ماكرة لم تحر عنها جوابا ، ومع أن الاستدلال قام على أساس المنطق الصوري والتحيز لجانب واحد ، فان المسألة الحاسمة وهي هل استطاعت جان تطوير قوتها المذهلة نتيجة للعون الالهي أم الشيطاني ــ كانت مسألة خطيرة جدا ، مسألة لو فحص عنها على أساس مقوماتها الجوهرية ، لأثارت الشكوك تماما بالنسبة لأية محكمة أخرى في تلك الايام • فمن المفهوم جيدا أن القضاة الكنسيين الذين لم يسـهموا في الحماسة لقضية شارل السابع ، كانوا يرون ضم اسم جان الى عداد الاشخاص ذوي النفوس المضطربة والاعصاب المرهقة الذين أرقموا في العالم الفتن • « واذا حدث يوما حتى الآن أن الناس بما عرف عنهم من التهور كانوا أميل الى الاصغاء الى العرافين منهم الى رعاة الكنيسة ومعلميها فقد قضى عـلى الدين دون ريب ••• » وسيرى القارىء أن هذه الكلمات المنتزعة من رسالة مرسلة من جامعة باريس الى البابا والامبراطور ومجمع الكرادلة ، هي الأساس لعبارات شو التي وضعها على فم كوشون في المشهد الرابع • وقد استخدم قضاتها القياس المنطقي بصورة سليمة حين فكروا في أن : الوحي المنزل من الله يقود دائما الى الطاعة • فأما جان فقد فرت من والديها وارتدت ملابس الرجال ، وكلاهما بينة تشهد بالعقوق والعصيان ؛ ومن ثم فان وحيها ليس من لدن الله • ومن الناحية الاعتقادية (الدوجماتية) يعد من الصواب تماما أنه لا يجوز لانسان أن يؤمن بالرؤى والالهامات «بمثل القوة» التي « آمن بها أن المسيح قد صلب ••• » فلو أن جان قالت « يبدو لي » بدل قولها « أعلم بيقين » ، ما وجد رجل يدينها ، ــ وذلك ما قاله السيد جيهان لوهير الذي عرف بالعطف والميل اليها ، لجيوم مانشون • وهناك أيضا رأي السيد جيهان باسيه حيث قال : ان رؤى مثل التي تراها جان غـير بعيدة على الله ، ولكنها لم تؤيد تلك الرؤى بمعجزة ولا ببرهان من الكتب المقدسة ، ولذا وجب الا تصدق • وهنا أيضا كان الأمر منطقيا تماما حسب القواعد الصورية للعقيدة •

فلو توفرت طريقة التصور الفكري في ذلك العصر لدى قاض محدث غير متحيز ، لاستطاع أن يصدق تمـاما على النتائج التي استنتجت من مداولات ١٤٣١ • فان القضاة وصلوا الى نفس القرار الذي يصل اليه حتى في أيامنا هذه أي قاض لا يؤمن بقضية جان • فقد أعلنوا أن رؤاها « خرافات محققة تصورتها عقلية بشرية أو هي رجس من عمل الشيطان•• » فهي لا تملك « القدر الكافي من العلامات التي تبرر لها أن تؤمن بعلك

الرؤى وتصدقها » والواقع أن جيهان بوبير أستاذ اللاهوت ، حين جنح الى اعتبار الظاهرة « شيئا لا ينطوى على أمر خارق للطبيعة ، بل يمكن من ناحية ارجاعها الى أسباب بدنية ، ومن ناحية أخرى الى الخيال والاختراع البشرى ٠٠٠ » ، لم يبعد عند ذاك كثيرا عن تفسيرها بأنها أعراض مرضية٠ والفرق الرئيسى بين قضاة ١٤٣١ وبعض المعاصرين من علماء النفس ، هو أنه بينما احتاج القضاة الى عدة أشهر ، فان علماء النفس ربما كانوا ـ لو أنهم فى مكانهم ـ أقرب الى الادلاء برأيهم فى مدى نصف ساعة على أقصى تقدير ٠

ولا شك أن منهاج قضاة ١٤٣١ يعتبر منهاجا علميا بحتا ٠ وكتب التاريخ توجه اليهم فى العادة شيئا من الثلب والتعيير (حتى من كتاب شامبيون نفسه) بسبب القيمة التى علقوها على ألعاب الطفولة البريئة التى قامت بها جان فى شبابها بمدينة دومريمى ، الى جوار النبع وتحت شجرة الزان المسماة بشجرة الفيرى ، التى رقصوا حولها وعلقوا عليها طاقات الزهر ٠ ولكنهم بسبب ذلك يتهمون ظلما بالمكر والعداء ٠ بيد أنها كانت لديهم نقطة ذات بال ٠ فلو أنه اتضح مما أدلت به جان من بيانات ، أن هناك حلقة اتصال بين ظهور « أصواتها » وبين العادات الوثنيةالمتركزة حول الشجرة ، فان الصفة الشيطانية لرؤاها تكاد تصل عندئذ الى حد الاثبات ٠ ومن هنا جاءت الرغبة الشديدة فى معرفة : هل حادثتها القديسة كترين والقديسة مرجريت يوما ما تحت تلك الشجرة ؟ ٠

وهناك أخيرا مسألة رأى جان فى الكنيسة ورفضها الخضوع دون تحفظ لحكم « الكنيسة المكافحة للشر Church Militant فى الأرض»٠ وكم عاود القضاة سؤالها المرة بعد الأخرى عما اذا كانت تريد ترك الفصل فى طبيعة أعمالها للكنيسة ٠ وكم حاولوا أن يفسروا لها الفرق بين « الكنيسة السماوية المنتصرة Church Triumphant » ـ و « الكنيسة المكافحة للشر فى الأرض » ٠ ـ بيد أنها لم تفهم ٠ فانها تقول ردا على ذلك : « انى أرجعهم الى ربنا ، الذى بعثنى والى مولاتنا العذراء ، والى جميع من فى الفردوس من القديسين » ٠ « وعبرت عن اعتقادها بأنهما واحد : ربنا والكنيسة ، وأن هذه الصعوبات ينبغى ألا تقام فى وجهها ، وتساءلت لماذا نقيم الصعوبات بينما الكل واحد ٠ » ويقول مراجع حسابات محكمة الروتا (وهى محكمة الكرسى البابوى الكاثوليكى) وقد قام حوالى ١٤٥٤ أثناء بحث مسألة رد الاعتبار ، بدراسة دقيقة للبنود الاثنى عشر التى استخرجت من اعترافاتها : انها فى بعض الأحيان فهمت أن قضاتها هم الكنيسة وأنها فهمت أحيانا أخرى أن الكنيسة هى مجرد المبنى الذى

لا يسمح لها بالذهاب اليه للاستماع الى القداس • واجابة عن سؤالهم ، هل ترغب فى الخضوع ، جاء جوابها فى الجلسات مسجلا مرة بانها ستخضع فقط للكنيسة فى الأعالى ، ومرة بعد ذلك أنها ستخضع للكنيسة المكافحة للشر فى الأرض ، « على شريطة الا تامرها بشىء مستحيل ••• » والحق ان المحكمة الكنسية فى ١٤٣١ كانت من وجهة النظر هذه ترتكز على أرض ثابتة بالغة الصلابة عندما اعتبرت مثل هذا الموقف معاديا لها بشدة • فقد وجب اذن أن يوضع حد للصراحة أو البساطة المقدسة Sancta simplicitas.

على أن سوء سمعة قضاة روان ليستبسبب القيمة الموضوعية لقرارهم الذى أصدروه • فقد أمكنهم تبرير ذلك القرار ، باعتباره مسالة هامة فى حد ذاتها ، بالنسبة لاحساسات زمانهم وبالنسبة لضمائرهم • بل ان أشد هيئات الزمان العلمية هيبة وجلالا : وهى جامعة باريس ، قامت بأضخم دور فى المساعدة على اعداد الحكم ، وفى ايضاحه وتنويره وفى تغليفه بدثار سلطانها وسندها • ولذلك ينبغى أن تتحمل جامعة باريس من أثقال الذكريات نصيبا أكبر مما يحمله قضاة روان • فلو فرض أن رئيس الجامعة الذى أدار مناقشات الجمعية العامة الوقورة لتلك الجامعة فى ٢٩ أبريل ١٤٣١ ـ وأعنى به بطرس من جودا ، وهو قسيس من اترخت ولد بمدينة ليدن ـ كان رئيسا غير ذى وزن فان الجامعة أصدرت حكما منطقيا ومرا وعنيفا ؛ لقد حكمت من مسافة بعيدة وبناء على الحقائق المجردة دون أن ترى ضحيتها •

على أن من بين من رأوها فعلا ، وهم قضاة روان ، أكثر من واحد تنبه الى حد ما الى ما هى عليه من عظمة وطهارة وأظهر ميلا الى اصدار حكم أقرب الى صالحها • ولكن الأغلبية لم تستطع أن ترى فيها الا « حقدا عنيدا وقساوة فى القلب » ـ والا « عقلا ماكرا ينزع نحو الشر ويخلو من سماحة الروح القدس » • وأنها مجردة من الفضيلة والتواضع على ما يفهمونهما • فتصرفاتها فى نظرهم كلها كبرياء وخروج عن الطاعة • وقد زعموا أنهم انما يعاقبون فى شخصها خطيئة أبليس Lucifer نفسه •

والآن ، هل يمكن أن الحكم الصادر من محكمة روان يعتبر بحق رد فعل « الكنيسة المكافحة للشر فى الأرض » ، على تلك الروح الجديدة ، روح الرأى الدينى الفردى الذى قدر له أن يهز تلك الكنيسة من أساسها بعد ذلك باقل من قرن ؟ أو بعبارة أخرى ، هل هناك مبرر تاريخى لتلاعب

شو بالنكتة فى كلمة « البروتستنتية » ؟ وما فيها فى أصل لفظ الكلمة الأوربى من معنى الاحتجاج ؟

لست ممن يعتقدون ذلك • ذلك أن البروتستنتية ذات مفهوم مركب • فهو مفهوم يفترض شيئا أضخم كثيرا من مجرد عناد جان الساذج وثورتها على « الكنيسة المكافحة فى الأرض » فى ثنايا فرط انشغال بالها المباشر حول مجد « كنيسة السماء المنتصرة » • أما مصطلح البروتستنتية فليس له من معنى الا فيما يتعلق بالأشخاص الذين عادوا بعد دراسة واختبار المفهوم الكاثوليكى الكامل للكنيسة فى العصور الوسطى ، فنبذوه نبذا متعمدا • فلو لم تورط الظروف جان فى محاكمة تديرها الكنيسة ، لما ظهرت النقطة الضعيفة فى ايمانها على رءوس الأشهاد • فهى لا تشهد ضد الكنيسة ولا تهاجمها متطوعة بارادتها الحرة ، ولكن محكمة كنسية ترغمها على أساس من الشكليات الصورية الى التعبير عن نفسها تعبيرا مستقيما تبدو فيه سمة الهرطقة • أما البروتستنتية الحقة فلايمكن أن تقوم الا فى الجانب الآخر المقابل لمجموع نظام اللاهوت المدرسانى (الاسكولانى) بأسره • وظاهر أن ايمان جان المقترن بالجهل انما يقع بأجمعه فى هذا الجانب من المسألة ـ أو خارجه • وليس بين روحها وبين روح هس أو ويكليف أى شىء مشترك • فهى فى بساطتها القديسية كاثوليكية تماما كتلك العجوز (الأسطورية) التى حملت حزمة الحطب لاحراق هس • أما البروتستنتية فهى ارهاص بالمذهب الانسانى والتطور الفكرى ، وهى روح عصرية • وجان دارك من حيث عقيدتها يجتمع فيها المعنى الكامل للفظة « البدائى » • ولذا فان مما يؤسف له أن يسمح العالم غير الكاثوليكى لسلطان شو كمؤلف بالتغرير به وجره الى حرمان الكنيسة الكاثوليكية من مجد أشد قديسيها مسا للقلوب •

وبحسبنا هذا القدر الذى نخصصه لاكتشاف وارويك حيث قال : « انى لأسمى هذا بالبروتستنتية ان وجب على أن أضع له اسما ••• » وينطبق نفس الشىء الى حد ما على الحركة المضادة التى ذهب اليها كوشون حيث زعم أنها « القومية » • غير ان شو هنا لا ينفرد بهذا الخطأ وحده • فان كثيرا من المؤلفين الفرنسيين قبله أعلنوا أن جان دارك تؤذن بمولد الوطنية الفرنسية • ومع ذلك فهو اتجاه صائب بمعنى ما معين • فان الحب العظيم لفرنسا بمجموعها مركزا فى شخص الملك ، أصبح شيئا شعوريا فى أثناء (وبسبب) الحرب الطويلة الأجل التى دارت مع انجلترا • على أنه حدث قبل جان بزمن طويل أن كان لتلك الوطنية شهداؤها وأبطالها ، مثال ذلك ، أن لينجواه وهو ربان سفينة من آبفيل ، ألقى به

فى البحر فى دوفر فى ١٣٦٠ لأنه طلب اليه حلف يمين الولاء لملك انجلترا نتيجة لقوله « انى فرنسى » • وقد شهد يوستاس ديشان بتلك الوطنية فى عدد كبير من القصائد قبل أن تولى آلان شارتييه التعبير عن ذلك الحب الوطنى بثلاثين سنة • بيد أن شو يعنى شيئا آخر يتجاوز مجرد حب الوطن • فالتحول الذى يريد نسبته الى جان هو ابراز الملكية القومية بوصفها خصما مناهضا للفردية والتجزئة الاقطاعية ، وليس ذلك فى فرنسا فقط ، بل وأيضا فى انجلترا • ويعتقد وارويك أن لكل امرىء شأنا يغنيه Tua res agitur وهو لعمر الحق اعتقاد خاطىء خطأ تاما • فان الملكية القومية بكل من فرنسا و انجلترا ، كانت منذ البداية نفسها مدركة لما بين مركزها وبين الاقطاع من تناقض ، متنبهة الى واجبها الأسمى وحقها الأسمى • فأما انجلترة فقد صارت للملكية فيها اليد العليا فى ذلك الصراع منذ عهد وليم الفاتح ، وان تكرر المرة بعد المرة أن الأرستقراطية لم تفز ببعض المكاسب المؤقتة الا نتيجة للأزمات والشدائد • وأما فرنسا فأخذت الملكية تنتصر فيها على اللوردات الاقطاعيين انتصارا وئيدا وأكيدا • وبدأ الصراع قبل القرن الخامس عشر بزمن طويل — اى منذ عهد لويس السابع وفيليب أوغسطس فى القرن الثانى عشر • وظهرت عناصر الدولة الحديثة فى فرنسا فى القرن الثالث عشر فى عهد القديس لويس وفيليب الأشقر • وحدث فى القرن الخامس عشر أن لويس الحادى عشر فى كفاحه مع برجنديا وعصبة الصالح العام League of Public Weal رجحت كفته فيما لم يكن الا مجرد آخر ازمة خطرة ، وأتم بذلك بنيانا احتاجت اقامته الى عدة قرون خلت • ثم جاءت جان دارك فاجتلبت روحا وطنية جديدة ، ولكنها لم تجلب مفهوما جديدا يتعلق بالدولة • وكان حبها لوطنها بدائيا كايمانها ، كان شيئا ينتمى الى ما قبل العهد الاقطاعى لا الى العصر الحديث • وهى ترى — وليست فى ذلك وحدها — أن قضية فرنسا التى تؤازر انما هى « معركة ملك فرنسا » • فهم حزب الملك ، وهم أتباعه الموالون المخلصون ؛ فهو سيدهم ومولاهم ، وفرنسا هى ميراثه ، الذى ينازعه فيه دخيل ظلما وبغير حق • ومن ثم فان وطنية جان مكونة من فكرات بدائية تماما • وهى فى هذا أيضا مثال البساطة السامية والشجاعة المطلقة • ونتيجة لهذه الخلال الرفيعة امكن ان يكون لفكرتها عن الحب والتضحية سلطان حيوى أساسى على الفكرة العصرية عن الدولة ، وان لم تكن هى خالقة تلك الفكرة • وذلك على حين أن ما ألح اليه شو عن « القومية » التى وضعها على لسان كوشون ليس الا لمسة براقة من توقد فكره •

هذه هي جان دارك ــ كموضوع لقضية تاريخية ــ وهي الصورة التى أرادها لها شو ، حيث جعلها معرضا تفسر فيه بعض طرائق معينة للتفكير، وهو وضع يحتوى على عنصر مزعج • وعندى أنها فى اطار تفردها الفذ الذى لا يمكن انقاص شيء منه ــ لا يتأتى فهمها الا بواسطة احساس من الاعجاب المقترن بالعطف • فهى لا تسمح بأن تتخذ وسيلة لتوضيح تيارات زمانها ومفاهيمه • اذ أن شخصيتها تجتذب اليها الانتباه كاملا بمجرد أن يلمس المرء تاريخها • فهى من شخصيات التاريخ القليلة الذين لايمكن أن يكونوا الا فى الذروة بين القادة ، والذين لا يمكن أن يكونوا أتباعا ، والذين هم « غاية » دائما وليسوا البتة وسيلة • وهذا ــ ان جاز لى أن أختم هذه الملحوظات الهامشية بكلمة اعتذار شخصى ، هو أيضا السبب فى أنه لا تكاد توجد اشارة اليها فى العمل الذى كتبته منذ بضعة أعوام حول الحياة فى فرنسا والأراضى المنخفضة فى أثناء القرن الخامس عشر • وقد اعتبر اغفالها غلطة منى • بيد أنى حذفتها عن روية متعمدة • فانى عرفت مقدما أن جان دارك لابد أن كانت تخرج الكتاب الذى تمثلت صورته فى ذهنى ، عن كل توازن • فالذى منعنى من ادخالها فيه هو احساس بالانسجام ــ يجتمع الى تواضع هائل ينطوى على التوقير الكريم •

الباب الثالث

مسألة عصر النهضة

مسألة عصر النهضة (*)

- ١ -

كلما رنت كلمة « عصر النهضة » أطافت بخلد الحالم بمنصرم الجمال أخيلة من أرجوان وتبر • هنا يسبح عالم بهيج فى لطيف الصفاء ، وتتردد فيه أنغام طنانة • ويتحرك الناس فى أرجائه تحفهم الرشاقة والجلال ، لا تكدر صفوهم محن الزمان ولا اشارات الأبدية • فكل شىء فيها ناضج سائغ دافق الحيوية والنماء •

ويسأل السائل : أن فسر قولك هذا بتفصيل أوفى • ويتمتم الحالم متلجلجا : ان « عصر النهضة » عصر ايجابى كله ، كما أن الأنغام التى تتردد أصداؤها فيه أنغام مرحة وقوية مما ينسب فى الموسيقى الى مقام « مى » من سلم الديوان الكبير • ويبتسم السائل • وعندئذ يستعرض الحالم أمام ذاكرته كل ما تعلم من أشياء قيل له انها تحدد الظاهرة التاريخية التى نسميها « بعصر النهضة » : — أمد امتدادها الزمنى ، واهميتها كعامل فى تطور الحضارة ، وأسبابها وطابعها — ثم يمضى فى شىء من ادعاء الرصانة وقد فرضت المصطلحات نفسها عليه ، فيهتف بالصلاة الربانية ودستور الايمان • «وعصر النهضة» هو انبجاس الفردية، واستيقاظ الحافز الى الجمال وانتصار النزعة الدنيوية والمتعة بالحياة Joie de vivre وتمكن العقل من غزو الحقيقة الدنيوية ، واحياء روح وثنية من الحمية للحياة ، وتطور الشعور بالشخصية فى علاقاتها الطبيعية بالعالم • ولعل قلب الحالم قد شرع يدق وهو يتحدث ، كأنما يتلو دستور الايمان (**) الخاص بحياته • أم تراه يبدو كمن شمر فعلا عن ساعد الجد ؟

(*) نشرت الترجمة عن الاصل الهولندى فى Verzamelde werken مج ٤ ص ٢٣١ — ٢٧٥ •

(**) وهو المسمى ايضا بالصلاة الربانية عند المسيحيين • (المترجم) •

ويأبى السائل أن ينتهي • فما هي أسماء ذلك الحشد من الشخصيات التي تمر أمامك حين أنطق بلفظة « عصر النهضة » ؟ تختلف في هـذا كل اجابة عن الأخرى ، كانما نحن واقفون عند أول معاقل بابل • يقول أحدهم ، اني لأرى ميشيل أنجلو مغضبا محنقا ووحيدا منعزلا • ويقول آخر ، واني لارى بوتيتشللي (*) مسترخيا ورقيقا• وهل هذان هما رافاييل واريوستو أو دورر ورابليه ؟ كلا بل هو رونسار (**) ، بل هو هوفت • بـل ان منهم من يرى القـديس فرانسيس في الصـدارة حاديا ، ويرى جان فان ايك في وسط الموكب • وهناك من يقول : اني أرى مائدة وكتابا مجلدا وبرجا للكنيسة • ذلك أنه يفهم كلمة عصر النهضة في معناها الأضيق الذى يصورها فى صورة مصطلح أسلوبى Stylistic بدل رؤيته اياها بالمعنى العريض لها كفكرة ثقافية •

ويبتسم السائل مرة ثانية ويصعد الينا بصره فى شيء من الخبث ويقول : ان « عصر نهضتكم » انما هو كالبرمائي المسمى بروتيوس بنصه وفصه • فأنتم في خلاف حول كل مسألة تمسه من قريب أو بعيد : فمتى ابتدأ ومتى انتهى ؟ وهل الثقافة الكلاسيكية أحد أسبابه أم هى مجرد ظاهرة مرافقة له ؟ وهل يستطيع المرء أن يفصل بين « عصر النهضـة » والحركة الانسانية أم لا يستطيع ؟ ان المفهوم الذى يمثله لفظ « عصر النهضة » لم يتحدد لا من حيث الزمان ولا المدى ولا المحتوى ولا الدلالة • فهو يكابد العناء مما به من ابهام ونقص وقيام على الصدفة ، ومع ذلك فهو فى الحين نفسه تخطيط خطر ونظرى غير عملى • حتى ليوشك أن يصبح مصطلحا غير قابل للاستخدام •

هنالك تتقدم جوقة كورس الحالمين وتحاج بقولهـا : بالله عليك لا تحرمنا من « عصر النهضة » ! فنحن لا نستطيع الاستغناء عنه ، لأنه قد أصبح بالنسبة لنا تعبيرا عن موقف نحو الحياة : ونحن انما نريد أن نعيش فيه ومنه اذا شئنا • وهذه الكلمة « عصر النهضة » ليست ملـكا لك : وانما هى فكرة عن الحياة ، وهى العصا والصولجان للبشرية أجمع، وليست فحسب مصطلحا تقنيا للمؤرخين وحدهم •

(*) بوتيتشللى : (١٤٤٤ ــ ١٥١٠) رسام فلورنسى تحت رعاية آل مديتشى، اهتم بالميثولوجيا الكلاسيكية • (المترجم) •

(**) رونسار (١٥٢٤ ــ ١٥٨٥) شاعر فرنسى ، نشأ خادما ببلاط دوق اورليان • (المترجم)

ومن ثم ـ يقول السائل : فهي ليست ملكي اذن ؟ الست أنا من علمكم ذلك المصطلح ؟ أليست الدراسة المجدة الدؤوب للتاريخ الثقافي هي التي طورت وحددت المفهوم المسمى «عصر النهضة» وخططت معالمه ؟ ومع أنه قد وقع الآن في أيدي جيل همجي متبربر ينكر تبعية ذلك المفهوم الى علم التاريخ ، فليس من حق أحد عدا المؤرخ وحده أن يستخدم هذا المصطلح ، على أن يكون استخدامه اياه عندئذ على الطريقة التي يستحقها : اي باعتباره لصيقة تلصق على زجاجات التاريخ ساعة حفظه فيها ، وليس في أي غرض آخر أكثر من ذلك .

على أن السائل يجانبه الصواب في هذا . اذ ليس مصطلح « عصر النهضة » بالتسمية العلمية في الأصل . كما أن تطور مفهوم «عصر النهضة» من أوضح الأمثلة على ضآلة حظ علم التاريخ من الاستقلال ، أي من العلاقة التي هي في الوقت نفسه نقطة الضعف فيه ومناط المجد : وهي رابطته التي لا تنفصم بالحياة المعاصرة . ومن ثم فان مشكلة « عصر النهضة » ـ وهي مسألة ماذا كانت النهضة وعصرها ـ مشكلة لا يمكن فصلها عن تطور المصطلح الدال عليها (١) .

والفكرة الذاهبة الى حدوث مولد جديد أو انبعاث للثقافة الفكرية ، انتعش بفضله العالم من حال العقم والجدب بل التعفن والانحلال في وقت ما ، فكرة تجمع بين القدم الشديد والجدة النسبية : هي قديمة في قيمتها الذاتية subjective كفكرة ثقافية ، وهي جديدة من حيث صفتها باعتبارها مفهوما علميا له رنين موضوعي Objective .

والعصر الذي نشير اليه باسم « عصر النهضة » وبخاصة النصف الأول من القرن السادس عشر قد أحس هو نفسه أنه ولد من جديد بين احضان الحضارة ، وأنه قد عاد الى المنابع الصافية للمعرفة والجمال ، وأنه يملك بيمينه المعايير الثابتة للحكمة والفن . ورغم ذلك فان معنى الميلاد الجديد أوشك من حيث تعبيره المباشر أن يقتصر تطبيقه على الثقافة الأدبية ، وهي ذلك الحقل العريض للدراسات والشعر الذي يغطيه مصطلح « الأدب الجيد أو الرفيع « bonae literae » . وان رابليه ليتحدث عن « استرجاع » الأدب الرفيع « bonnes lettres » . على اعتبار ذلك حقيقة معروفة للناس عامة لا سبيل الى الجدال فيها (٢) . ونظر بعضهم الى ذلك الانبعاث بوصفه العمل الجليل الذي قام به الأمراء حين بسطوا رعايتهم على الفنون والآداب . ففي (١٥٥٩) كتب جاك أميوه الى هنري

الثانى فى اهداء ترجمته لبلوتارك (التى زودت مونتينى (*) Montaigne وشيكسبير بمعين ضخم من المادة) : « اليك يزجى الثناء لأنك بصورة مجيدة قد توجت وأتممت العمل الذى بدأه الملك الراحل العظيم فرانسوا والدك ، قصدا منه الى اعادة ميلاد الآداب الرفيعة وازدهارها فى أرجاء هذه المملكة النبيلة(٣) ». وثمة آخرون يتبينون فى هذا «الاحياء» روح أسلافهم العظماء . اذ ينسب الى ارازموس فى مقدمته لاحدى طبعات كتابه Adagia أنه صاحب الفضل فى أنه أوشك أن يكون « أول من اعتز بالآداب التى أخذت تولد عند ذاك من جديد renascentes bonas Literas والمنبثقة من كالح دياجير التبربر المديد ... (٤) »

وقبل ذلك بما يقارب القرن تحدث الكتاب فى ايطاليا بكبرياء وسعادة عن المولد الجديد للحضارة النبيلة ، مدخلين أيضا بنوع خاص فنون التصوير فى ذلك المولد الجديد . وكتب لورنزوفاللا فى مقدمة كتابه « اللغة اللاتينية الرشيقة Elegantiae Linguae Latinai» وهى مقدمة سميت بمنشور المذهب الانسانى ـ وعد فيها بالا يصدر اى حكم على أساس الطريقة التى حدث بها أى شىء .

« ان تلك الفنون التى هى وثيقة القربى من الفنون الحرة ، وأعنى بها التصوير والنحت والعمارة قد أصيبت فى البداية بالانحلال المديد الكبير ، وكادت أن تهلك مع الآداب نفسها ، وأنها توقظ الآن وتبعث من جديد ، وان هناك ازدهارا بالغا بين الممتازين من الفنانين وأرباب الأدب . فما أسعدها من أزمنة هذه التى نعيش فيها والتى لو أننا بذلنا محاولة أكثر قليلا ، فانى على يقين من أن لغة روما ستنمو سريعا بصورة يانعة أكثر من المدينة نفسها ، وسترجع معها العلوم كلها » (٥) ..

ولم يكن على القوم آنئذ الا أن يستعيروا من العصور القديمة لفظة « الانسانيين Humanists » للدلالة على الممارسين الجدد للدراسات المجددة الشباب ، ألم يتحدث شيشرون نفسه عن الدراسات الانسانية والأدبية (٦) Studia humanitatis et literarum. (•)

(*) مونتينى (١٥٣٣ ـ ٩٢) اديب فرنسى وفيلسوف متشكك . تعد مقالاته نموذجا لادب المقالة فى تاريخ الآداب كلها . (المترجم) .

وكان الايطالي الذي يعيش حوالى ١٥٠٠ يعد زمانه ووطنه متأثرين بمنبه يدفعهما الى حياة جديدة بعد انحطاط وانحلال . ويختم ماكيافللي رسالته في فن الحرب Dell'arte della guerra بنصيحة الى الشباب الا ييأس، لأن هذا الاقليم يبدو كأنما هو منشغل بكليته باعادة الحياة Risuscitare مرة ثانية الى الأشياء الميتة ، كما يتجلى من الكمال والاتقان الذي يرفع اليه الشعر والتصوير والكتابة .. » (٧)

فما الذي كان القوم يعدونه سببا لهذا الانتعاش الكبير ؟ انه ليس تقليد اليونان والرومان بوصفهم كذلك . وذلك أن احساس القرن السادس عشر باعادة الميلاد كان بالغ التعميم في صفته وبالغ القوة في محتواه الخلقي والجمالي ، بحيث استحال على مفكري ذلك الزمان وضع الظاهرة أمام أنفسهم في صورة مسألة من مسائل فقه اللغة . ان العودة الى الأصول والمصادر ، وارواء الظمأ من صافي ينابيع الحكمة والجمال، انما هما النغمة الأساسية لمعنى الميلاد الجديد . فاذا تضمن ذلك المعنى أيضا الحماسة الجديدة للأدب الكلاسيكي والمطابقة بين الأزمنة العصرية والزمان القديم الخالي ، فما ذلك الا لأن الكتاب الكلاسيكيين أنفسهم يبدون كأنما يملكون في آفاق المعرفة ذلك الصفاء وتلك الأصالة ، وهما المعياران البسيطان للجمال والفضيلة .

ويعد جيورجيو فاساري (١٥١١ ـ ١٥٧٤) الذي اشتهر بكتابة تراجم المصورين أول من نظر بوضوح الى حدث الميلاد الجديد باعتباره حقيقة تاريخية جرت في وقت معين من الماضي ، وهو الذي تم على يديه في الوقت نفسه اشتقاق الصورة الايطالية المعادلة لكلمة Renaissance أي عصر النهضة من الكلمة اللاتينية Renasci ، مطبقا للفظة بوجه خاص على احياء الفنون (وبذلك اتخذها مفهوما في تاريخ الفنون) . ومنذ تلك الساعة أصبحت كلمة Rinascita تعتبر لديه المصطلح المعياري الدال على الحقيقة الكبيرة في تاريخ الفن الحديث . فنصب نفسه للقيام بمهمة « كتابة حيوات ووصف أعمال وابراز متنوع العلاقات بين أولئك الذين نهضوا ، وقد باد الفن ، فبدءوا أولا باعادة الحياة اليه Risuscitate ثم أعقبوا ذلك بدفعه رويدا رويدا الى تلك الدرجة من الجمال والجلال التي نراه عليها الآن (٨) » لمن استعرض تاريخ الفن في عهدي ارتفاعه وسقوطه سيستطيع الآن أن يميز بسهولة أكثر مدى ما حصله من التقدم أيام مولده الثاني Della Sua rinascita وما ارتفع اليه ثانية من كمال واتقان في أزماننا » (٩)

ويرى فاسارى أن أعلى ما بلغه الفن من ازدهار ورفعة لم يتم الا فى عهود اليونان والرومان الخالية ، ثم أعقبت ذلك الازدهار فترة طويلة من الانحلال بدأت فى عهد الامبراطور قسطنطين · وكل ما فعله القوط واللومبارد ، هو أنهم اقتصروا على اسقاط ماكان يتداعى متفتتا من تلقاء نفسه · وجاءت على ايطاليا عصور لم تعرف فيها سوى «التصوير الغليظ الجاسى المستوجب للرثاء » · الذى خلفه الأساتذة البيزنطيون · ومع أن فاسارى لم يحس الا بوجود قليل من العلامات المبكرة جدا المنبئة بيقظة جديدة ، فان التجديد الأكبر لم يظهر الا فى أخريات القرن الثالث عشر، بظهور الأستاذين الفلورنسيين العظيمين تشيمابووى (*) وجيوتو · فانهما هجرا الطريقة اليونانية القديمة *La* vecchia maniera greca أعنى التقاليد البيزنطية التى كثيرا ما سماها فاسارى المرة بعد الأخرى بالغليظة ، والتى عارضهاموازنا بها الطريقة الحسنة القديمة La buona maniera antica وربما كان تشيمابووى وهو المتسبب الأول فى ارجاع فن التصوير الى سابق عهـــده ، على حين أن جيوتو هو الذى « فتح أبواب الطريق الحق أمام الذين تمكنوا فيما بعد من السمو بالفن الى مرتبة الـكمال والعظمة التى يتجلى فيها فى عصرنا ···»(١٠) وكان فاسارى يرى هذا الكمال فى عصره متمثلا قبل كل شىء فى ميشيل أنجلو ·

وفى رأى فاسارى أن الاسترجاع الكبير الذى أحدثه تشـيمابووى وجيوتو انما يقوم فى محاكاتهما المبـاشرة للطبيعة · وعنده أن العودة الى الطبيعة والعودة الى العهود القديمة شىء واحد تقريبا · فما يمتاز به الفن القديم من التفوق كان نتيجة لحقيقة بسيطة ، هى أن الطبيعة نفسها كانت مثاله المحتذى ومرشده الهادى : فمحاكاة الطبيعة هى المبدأ الأساسى للفن(١١) · فمن تتبع سبيل القدماء فقد استكشف الطبيعة من جديد وهذه سـمة جوهرية فى مفهـــوم « عصر النهضة » بأجمعه أثناء زمانها نفسه ·

ومما قد يترتب على هذا ، أن أهمية فاسارى بالنسبة لتطور فكرة النهضة قد يبالغ فيها فى بعض الأحيان · ذلك أن فاسارى لم يكن يعبر عن شىء لم يسبقه اليه أحد لا من حيث وضعه تشيمابووى وجيوتو فى الطليعة ولا من حيث نسبته الانتعاش الى العودة الى الطبيعة · ومن قبل ذلك أثنى بوكاتشيو بالفعل على جيوتو بوصفه صاحب الفضل فى اعادة

(*) تشيما بووى (١٢٤٠ ــ ١٣٠٢) رسام ايطالى ، وهو معلم جيـوتو ، ويعدونه أستاذ التصوير الايطالى كله · (المترجم) ·

فن التصوير الطبيعي الى الحياة مرة ثانية بعد أن رقد دفينا عدة قرون • وخلد ليوناردو دافنشي ذكراه بنفس الطريقة • ومنذ عام ١٤٨٩ حدد ارازموس تاريخ انتعاش الفنون التصويرية بأنه تم قبل زمانه بمئتين أو ثلاثمئة من السنين • وفي رأي دورر أنه كان من المعروف جيدا أن التصوير « استعادته » الأمم اللاتينية (الرومانسية الأصل واللغة) أو « اعادته ثانية الى النور » قبل ذلك بمئتي سنة (١٢) • وهو أيضا يرى أن التشوف الى الطبيعة الحقة والرغبة الحارة في فن العهود القديمة وأدبها ، انما هما من حيث الأساس شيء واحد •

ويبدو أن فكرة مولد الحضارة مولدا جديدا قد عاودها النعاس في أثناء القرن السابع عشر • فلم تعد تقذف بنفسها نحو الأمام بوصفها تعبيرا عن احساس بالحماسة نحو مجد أعيد اقتناصه • وقد حدث ذلك لأن الروح قد أصبحت ــ من ناحية ــ مهذبة ورصينة كما أنها أصبحت من ناحية أخرى أكثر واقعية وأقل انفعالا • اذ أمسى الناس متعودين على وفرة انتشار الشكل النبيل الممتاز ، الكلمة المؤثرة الجليلة ، والقدر الموفور من اللون والصوت وصفاء العقلية القادر على النقد • فلم يعد أي شيء من هذه يمارس على أنه انتصار جديد مدهش • ومن ثم لم تعد كلمة « عصر النهضة » كلمة سر تقال عن قصد شعوري ، ولم تقم هناك حتى ذلك الحين أية حاجة اليها بوصفها مصطلحا فنيا في التاريخ •

فلما عادت فكرة مولد الثقافة فاستولت ثانية على مكان لها في الفكر ، كان الشيء الذي أفاد منها هو روح النقد ، بوصفها وسيلة لتمييز الظواهر التاريخية • ومن ثم فان « حركة الاستنارة » « Enlightenment » البازغ فجرها في القرن الثامن عشر التقطت مصطلح « عصر النهضة » من حيث أسقطه جيل القرن السادس عشر • على أن الذي حدث في الحين نفسه أن مفهوم ذلك المولد الجديد ، وهو المفهوم الذي لم يعد مشحونا مثقلا بالانفعالات الحية للأشخاص الذين كانوا هم أنفسهم شراحه ومفسريه، قد أصبح بصورة فريدة وعجيبة لفظا أكاديميا وصوريا ، منطويا على التحيز وعدم الضبط • وانك لتجد فعلا في القاموس التاريخي والنقدي الذي وضعه بيير بايل وهو بمثابة الركن الحصين والمفتاح الفصال « لحركة الاستنارة » المقبلة ، مفهوما « لعصر النهضة » ، يحتوي فعلا على جميع عناصر الاتجاه الذي استطاع أن يمد أجله باعتباره الممثل لوجهة نظر الكتب المدرسية ، حتى عهد متأخر من القرن التاسع عشر •

ومن المحقق أن معظم العباقرة الادعياء (Beaux-esprits) ورجال العلم الانسانيين مذهبا بايطاليا يوم كانت العلوم الرفيعة (*) تزدهر هناك من جديد ـ (وفى طبعات أخرى « عندما شرعت الآداب أن تولد من جديد ») بعد سقوط القسطنطينية ، كانوا مجردين من كل دين • ولكن حدث من ناحية أخرى ، أن استرجاع لغات العلم واستعادة الآداب ، مهد السبيل أمام دعاة الاصلاح الديني ـ كما تنبأ بذلك الرهبان ومناصروهم، الذين دابوا بلا انقطاع على الضجيج بالشكوى المرة من ريوخلن (**) وارازموس ، وغيرهما ممن نصبوا أنفسهم لالهاب ظهر البربرية بالسياط (١٣)

من هنا يستبان أن من الحقائق المقررة لدى بايل (***) ، أن الحركة الانسانية فى ايطاليا اتسمت باللادينية ، وأن السبب فيها هو سقوط القسطنطينية ، وهو أمر معناه بعبارة أخرى وفود اللاجئين اليونان محملين بمعرفة اليونان •

أما فولتير الذى ظهر بعد ذلك ببضع عشرات من السنين ، فانه نبذ وجهة النظر هذه وراء ظهره وكل من يطلع على مقالته : « رسالة عن سمات الأمم وروحهـا Essai sur les moeurs et l'esprit des nations (وهى على كل نقائصها تستحق الاحترام بوصفها النموذج للتاريخ الثقافى العصرى) ويقرأ الأجزاء التى يلخص فيها فولتير تطور الفنون والعلوم منذ أواخر العصور الوسطى ، ستعروه الدهشة لما انطوت عليه الرسالة من اجمال متقطع وعدم تماسك وسطحية وتحيز وانعدام نفاذ النظرة وقلة العطف التى يظهرها فولتير ، اذ يمضى كالمقاتل الأهوج فيكسر حربة فى ظاهرة بعد أخرى ثم ينطلق مندفعا • ولكنه سيدهش بالمثل ازاء الادراك المتوقد الذكاء الذىيستشف به مؤلف المقالة السياقاتوالملابسات العريضة ويشير اليها • ويخيل الى أن من المبالغة القولبأن فولتير هو مصدر الالهام

(*) العلوم الرفيعة او الدراسات الانسانية (Humanities) : هى علوم النحوه والبيان واليونانية واللاتينية والشعر ، وقد سميت بالانسانية أحيانا بسبب اثرها التهذيبى فى نفس الانسان • (المترجم)

(**) يوهان ريوخلن (١٤٥٥ ـ ١٥٢٢) فيلسوف المانى إنسانى المذهب ومن رواد الدراسات اليونانية والعبرية بالمانيا • (المترجم)

(***) بايل (١٦٤٧ ـ ١٧٠٦) ناقد فرنسى وكاتب مجادلات واستاذ فلسفة بالجامعات وقاموسه التاريخى اثر فى الموسوعيين الفرنسيين • (المترجم) •

لبركهارت عن موضوع كتابه « حضارة عصر النهضة بايطاليا » (١٤) ، ولكن أحدا لا يستطيع أن ينكر على المقالة احتواءها على اشارة الى ذلك المعنى . وفى رأى فولتير وبركهارت كذلك ، أن المهاد الوثير الذى ترعرع فيه « عصر النهضة » هو جو الثراء والحرية الذى أظل المدن الايطالية فى القرون الوسطى . فبينما كانت فرنسا لا تزال ترزح فى الشقاء ،

كانت الحال بعيدة عن ذلك كل البعد فى المدن التجارية الكبرى بايطاليا ، فهناك عاش السكان فى يسر وراحة عظيمين واستمتعوا بالثراء ونعموا بكل مافى الحياة من عذوبة . وانتهى الأمر بأن استنفد الثراء والحرية كل عبقرية الأمة وشجاعتها . (١٥)

ثم يعود فى الفصل المعنون « العلوم والفنون الرفيعة فى القرن الثالث عشر والرابع عشر » فيتابع الرأى الذى كان له ذلك الأثر الطويل الأجل والمزعج والذى يجعل من : دانتى وبترارك وبوكاتشيو وتشيمابووى وجيوتو طليعة رائدة لكمال جاء فيما بعد :

وفى تلك الآونة كان دانتى الفلورنسى أوضح بالفعل جمال وقوة اللغة التوسكانية بتلك القصيدة الحائلة المعنونة بالملهاة Comedia وهو عمل اشتهر بما فيه من آيات الجمال الطبيعى ، فضلا عن أنه يسمو كثيرا فى أجزاء عديدة فوق ما انتشر فى ذلك العصر من ذوق فاسد ، حيث كتب بدرجة عالية من الجمال حتى لكأنما المؤلف من معاصرة أريوستو وتاسو(*) ونحن نلتقى عند دانتى — ولكن عند بترارك بوجه خاص — بعدد جم من الفقرات التى تماثل تلك الأشياء الأثرية الممتازة التى أضفى عليها القدم سمات جماله ، مجتمعة الى نضرة الأزمنة الحديثة » . وكذلك الشأن مع الفنون التصويرية اذ كان حالها مماثلا لحال اللغة والشعر :

فان الفنون الرفيعة التى تمضى جميعا يدا بيد ، وتنحط وترتقى فى جملتها معا ، أخذت تنفض عنها آنذاك فى ايطاليا غبار البربرية . والواقع أن تشيمابووى قد أصبح بدرجة كبرى ودون أن يتلقى أية مساعدة من أحد مخترعا جديدا للتصوير فى القرن

(*) تاسو (١٥٤٤ — ١٥٩٥) شاعر ايطالى . اشتهر بالقصائد الرعوية والرومانتيكية (المترجم) .

الثالث عشر · ورسم جوتو (١٢٦٦ ـ ١٣٣٧) بضع صور لاتزال متعة للعين حتى اليوم ··· وشرع بروليللسكى فى اصلاح فن العمارة القوطى ·

ويرى فولتير ان عبقرية أهالى توسكانى الحيوية هى القوة الخلاقة لعملية التجديد ·

ولسنا مدينين عن جميع هذه المستحدثات الا للتوسكانيين وحدهم ، وهم الذين قاموا بدافع قوة العبقرية وحدها فابتعثوا تلك الفنون وكان ذلك قبل أن انتقلت البقايا القليلة الباقية من العلوم والدراسات اليونانية ومعها اللغة اليونانية نفسها ، من القسطنطينية الى ايطاليا ، بعد الفتوح العثمانية · وكانت فلورنسا فى ذلك الوقت بمثابة أثينا أخرى جديدة ··· ومن هنا يتضح أننا لسنا مدينين للاجئين من القسطنطينية باسترجاع الآداب القديمة فان أولئك الرجال لم يكونوا يقدرون على شيء سوى تعليم الايطاليين اللسان اليونانى (١٦) ·

ومن هنا يتضح أن هذه كانت أفكارا جديدة ومثمرة · وربما توقع المرء من فولتير أن يتبع هذه البداية بتدبيج وصف لقرنى الأربعمئات quattrocento أعنى القرن الخامس عشر ، والخمسمئات cinquecento أى القرن السادس عشر (*) لكى يتأتى له ايضاح الخط المتصاعد · وليس معقولا أن المادة اللازمة لذلك قد أعوزته · غير أن المقالة لا أثر فيها لذلك· ولذا فان الصورة التخطيطية التى دبجها لذلك الازدهار الأول من نوعه تنقطع وتحل محلها فقرات طويلة من الاستطراد فى موضوع الدراما واسترجاعها وهناك اشارة عابرة الى وجود مجموعة متماسكة الحلقات من الشعراء الذين جاءوا بعد بوكاتشيو ، انتقلت كلها الى تراث الخلف ، وهى مجموعة بلغت ذروتها باريوستو ، فاذا عاد فولتير بعد ذلك الى التطورات الثقافية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر (فى الفصل ١٢١) فعبثا ما يبحث القارىء عن تفصيل محكم لصورة «عصر النهضة» التى خططها الكاتب ببالغ السعادة ·

وهو يعتقد أن الفنون واصلت سيرتها من الازدهار بايطاليا لأن وباء الخصومة الدينية لم ينتقل الى ذلك القطر : وهكذا حدث

(*) يرد فى الاستعمال اليومى قولهم أربعينات وخمسينات القرن للدلالة على العقد الخامس والسادس منه والاربعمئيات والخمسمئات ضيفت فى الايطالية بالمثل للدلالة على الفن والادب أثناء القرنين الخامس عشر والسادس عشر · (المترجم)

أنه بينما الناس فى ألمانيا وفرنسا وانجلترا يذبحون بعضهم بعضا، من أجل أشياء لا يفقهون لها معنى ، فان ايطاليا وقد (غمرتها) الراحة التــامة منذ الحــادثة المذهلة ألا وهى نهب روما على يد جيش شارل الخامس ، تعكف أكثر من أى وقت آخر فى تاريخها على تحسين الفنون الحرة (١٧) ٠

وهــذا هو كل ما ورد عنــد فولتير حول الخمسمئات أعنى القرن الســادس عشر ٠ فأما ليوناردو ورافاييل ومايكلانجلو وتيتيان ، فان واحدا منهم لم يجر ذكره بالاسم ٠

فما الذى حال بين فولتير وبين تقديم صورة وافية متكاملة لثقافة « عصر النهضة » ؟ لقد عبر عن أن لديه فــكرة عامة عن مدة واضحة الحدود ازدهرت فيها الفنون والآداب ، وتركزت حول آل مدتشى ابان القرنين الخــامس عشر والسادس عشر ٠ وهو يرى أن ذلك العصر أحد الأعصر السعيدة الأربعة فى تاريخ العالم ٠ يقول فولتير فى كتابه عصر لويس الرابــع عشر « وهــذه العصور السعيدة الأربعة هى تلك التى تقدمت فيها الفنون ، والتى ـ بينما هى تعمل كحقبة مثالية لعظمة الفهم البشرى ـ تعتبر مثالا على الخلف أن يحتذيه » ٠ (١٨)

وأول تــلك العصــور عصر بريــكليس ، وثانيهــا عصر قيصر وأوغسطس (*) ، وثالثها عصر آل مدتشى بعد سقوط القسطنطينية ٠ هذا وان وصول العلماء اليونان الى فلورنسا كان لايزال يعد عند ذاك فى ١٧٣٩ ، سببا فى الانتعاش ، وهى نظرية تأتى له فيما بعد أن ينبذها فى مقالته ٠ بيد أن مجد العصر الثالث ما لبث أن أخفى عليه عصر لويس الرابع عشر ، « أشد تلك العصور كلها استنارة » ٠ وانهال فولتير على ذلك العصر بالمديح والتقريظ ، ولو على حســـاب عصره هو ، فهنا مناط اهتمامه وموضع تقديره ، وهذا هو ماجعل من المستحيل عليــه تصور روح « عصر النهضة » وجماله ٠

فكأن فولتير اذن ، قد غادر صورة « عصر النهضة » وراء ظهره ، على اعتبار أنها رسم كروكى غير مكتمل ، ولم ينج عصره من هذه الزلة نفسها ، فانه تجاوز عما حوله والتفت الى مشاهدة أخرى فى الماضى ٠ فأما بلوغ المزيد من استكشاف «عصر النهضة» فلم يكن بد له فحسب من أن

(*) عن هذين العصرين بالتفصيل انظر للمترجم المجلد الثانى من معالم تاريخ الانســانية تأليف ولز ط ٣ ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ٠
(المترجم)

يقوم به من هو صاحب ذكاء لامع وحاسة نافذة من ذلك النوع الذى تملكه فولتير بل وجب أيضا أن يتأتى من انسان أوتى نفس الدرجة أو أكثر من الميول الجمالية والحاجات الانفعالية • وفى هذا الحقل من الوجدان والأحلام ليست روح فولتير هى التى سادت ، بل روح روسو • فماذا عسى أن يكون هناك للتنوع الزاهى الألوان الموجود فى الجمال الشكلى للثقافة الأرستقراطية « لعصر النهضة » من معنى لدى أشخاص لايتجاوز مقدورهم مجردالاشتياق الى بساطة الطبيعة وحساسية القلب الباعثة على الفتور ؟فقدشغلت الأذهان بهمهمة أشجار البلوط والسحائب الجبلية عند أوسيان (*) أو الالتفات العذب لمغامرات روح كلاريسا هارلوى بدرجة بلغ من قوتها ان لم تدع مجالا لصورة « لعصر النهضة » بكل ما حوى من ضياء الشمس ونحاس يدوى بالرنين • ولقد التفتت أخيلة الحركة الرومانتيكية الى العصور الوسطى ، تنشد عندها آثار ضوء القمر المعتمة القاتمة والسحائب الهائمة التى هى من أعز الأشياء الى قلبها • وكان الانتقال الكبير الى النزعة الرومانتيكية الذى هو بمثابة التحول الى النغمات العذبة سببا فى الحيلولة دون تطور صورة « لعصر النهضة » ، كما أنه ظل ردحا طويلا من الزمن حجر عثرة فى سبيل ذلك التطور • فاما الذى يستطيع أن يكتشف من جديد وحدة «عصر النهضة» ويفسرها للبشرية فلن يكون الا روحا مشابها لروحه •

فهل عساه أن يكون جوته ؟ تلك الشخصية السابرة لكل غور الباذخة الارتفاع فوق كل من الزوجين المتناقضين فولتير ورسو ؟ كلا انه ليس جوته أيضا • ومن البديهى أن جوته ألم بالمفهوم الدارج القائل بحدوث انتعاش للفن • وقد لاحظ عندما زار شيفاليه داجينكور فى روما شدة انشغاله بكتابة « تاريخ الفن منذ تدهوره الى انتعاشه »(١٩) وقد تيسر له من المادة التى جمعها ذلك الفرنسى لتلك الغاية ، أن يتبين « كيف أن العقل البشرى ظل شديد الانشغال طوال تلك الفترة الغامضة الكليلة • » ولم يكن يعسر على فاسارى قول ذلك كله أيضا • وقد تركز اهتمام جوته وتقديره أبلغ التركيز على القرن السادس عشر • وعند بداية القرن السادس عشر كانت روح الفنون التصويرية قد استنقذت نفسها تماما من براثن بربرية العصور الوسطى ، وأخذت تتطلع الى مؤثرات أكثر حرية وأعلى مكانا » (٢٠)• واذا هو يدون ذات يوم فى مفكرته

(*) اوسيان (ح ٢٥٠ م) شاعر وبطل لولندى ، روى قصة فن وابطال السحر ، وذاع صيته بعد ١٧٦٠ عند نشر ملاحمه • (المترجم) •

اليومية أنه يضع رافاييل فوق قمة هرم ـ (٢١) وهو أمر لا يمحو أن ذلك العصر كان يبـــدو له قديم الطراز بالموازنة الى مايكلانجلو . وعندما ذكر بعض الناس أن صورة الصراع « الدسبيوتا Disputa » هي خير ما أنتجته مرقاش رافاييل ، عد جوته ذلك دلالة على الميل الذي ما لبث بعد ذلك أن أبرز نفسه في مناصرة المدرسة القديمة . وهو وضع لايسع المشاهد الهادىء الا أن يعده دلالة على مواهب متوسطة ومعوقة ، وألا يرضى بأية حال بأن يضع نفسه في هــذا الموضع » (٢٢) على أن المدة التي رأى فيها جوته أنها زمن ازدهار الفنون ، لاتشمل العصر الذي نسميه « بعصر النهضة » ، وانما هي بالحرى آخر أدوار النهضة مع أول أدوار عصر الباروك Baroque ذلك بأن نقطة البؤرة من مشاهدته وتقديره ، احتوت الى جوار مايكلانجلو الفنـانين المتاخرين بنفنوتو تشلليني وبالاديو وجويدو ريني . كما أن ذلك الازدهار العظيم لم يتبد في عين جوته كمسألة تاريخية الا في أضيق الحدود . لقد كان أشد ما يشغله هو البحث عن القيمة المباشرة والمستقلة للأعمال الفنية التي كان يشاهدها .

وهكذا انشق فجر القرن التاسع عشر دون أن يمنح مفهوم « عصر النهضة » مضمونا يتجاوز ما كان له عند بايل وفولتير . فهو لم يصبح حتى آنذاك دلالة على فترة ثقافية بوصفها كذلك . وظل المصطلح يستخدم حتى آنذاك باعتباره تسمية عجفاء لا اسم علم له مدلوله وجرت العادة به أن يربط بعبارة اضافية تشير الى ميلاد جديد . واستمر يعد تقريبا في نفس مستوى مصطلحات مثل « التدهور والسقوط » . أجل انه احتوى في حد ذاته على طرب بحياة جديدة ، ومن ثم على تقييم محدد ، بيد أنه احتفظ من حيث التطبيق بشيء من طبيعة كائن غير مخلق ، كما أنه لم يكن له عادة سوى معنى محدود . وانظر الى ستاندال حيث كاد في كتابه « تاريخ الرسم Histoire de la peinture en Italie» (١٨١٧) يقصر استخدامه لعبارة نهضة الفنـون على الربع الأول من القرن السادس عشر ، الذي ركز عليه كل حماسته ، واعجابه ، وفي رأيه أن الفن الفلورنسي في القرن الخـامس عشر لم يزل ينطوي على « الجمال المثالي للعصـور الوسطى » . وهـذا جيزوه في كتابه التاريخ العام للحضارة بأوربا Histoire générale de la civilisation en Europe (١٨٢٨) قد تحدث عن نهضة في الآدب،دون أن يكون للمصطلح عنده أدنى فرق في المعنى بينه وبين ما كان له على فم فولتير ، أو حتى

على لسان رابليه أو أميوه · وقد نقل سسموندى المعنى الى حقل الفكر السياسى فى كتابه « تاريخ نهضة الحرية فى ايطاليا Histoire de la Renaissance de la liberté en Italie ١٨٣٢) · وسنرى فيما بعد أن « النهضة » كفكرة سياسية لم تكن شيئا جديدا بأية حال ، بل الحق انها كانت أحد الجذور التى تطور عنها مفهوم « عصر النهضة » بأكمله ·

ويرى فالترجويتس (٢٣) ، أن أول شخص افترض أن مصطلح « عصر النهضة » (دون اضافة أى تقييد آخر له) ، انما هو شيء مألوف كمصطلح نوعى يطلق على حقبة ثقافية معلومة الحدود ، ــ هو الكونت ليبرى الفلورنسى المجهول الذكرى الذى ما لبث بعد أن فر الى فرنسا فى ١٨٣٨ ، أن أصدر عملا عنوانه « تاريخ العلوم الرياضية بايطاليا منذ عصر النهضة حتى نهاية القرن السابع عشر» · ومع ذلك ، فان رأيه غير صائب · وذلك أن كل ما عمله ليبرى أنه اتبع عرفا رسخت أقدامه فى الأوساط الأدبية الفرنسية · فقبله بما يقارب عشر سنوات استخدم بلزاك لفظة النهضة باعتبارها مفهوما ثقافيا مستقلا فى روايته القصيرة المسماة « حفل صو الراقص Le bal de Sceaux » التى صدرت فى ديسمبر ١٨٢٩ ، وفيها يقال عن احدى شخصياتها القائدة : « كانت تستطيع الجدل بطلاقة فى موضوع التصوير الايطالى أو الفلكى وفى شئون العصور الوسطى أو « عصر النهضة » ··

وهذا معناه أن الأسلوب الفكرى الذى أصبح التاريخ الثقافى لأوربا يتصور على أساسه منذ تلك اللحظة فصاعدا ، كان يتخذ رويدا رويدا شكله الثابت ومرونته الكاملة : جاعلا من العصور الوسطى وعصر النهضة ضدين جمعتهما مقابلة لاشك فيهما ، وكل منهما على هيئة صورة ثقافية · ولكن قبل أن نترسم ما ألم بمفهوم « عصر النهضة » من تطورات تالية ، ينبغى الاشارة الى حقيقة عجيبة أعتقد أن لها أشباها فى حقول أخرى كثيرة ــ هى أن الرأى السائد فى المعاهد الدراسية ، وهو الرأى المركز عن « عصر النهضة » الذى تنشره الكتب المدرسية كان لايزال حتى ذلك الحين متخلفا وراء ما فهمه المؤرخون من ذلك المصطلح ·

وربما جاز أن يوصف ذلك الرأى المدرسى على النحو التالى : حدث قرب نهاية العصور الوسطى (وهى العصور الوسطى حسبما يراها العقلانيون بوصفها ممثلة للظلام والبربرية) ، أن ابتعثت الفنون والعلوم وبدأ ذلك أولا فى ايطاليا ، لأن اليونانيين الفارين من القسطنطينية وصلوا العالم أوثق الصلة بالهام الروح الاغريقية القديمة · وحتى فى

الحالات التي لم ينسب الى هؤلاء اللاجئين ذلك الدور المبرز وذلك النفوذ المسيطر ، فان احياء الثقافة الكلاسيكية نظر اليه على أنه العنصر المتسبب في النهضـــة وأنه طابعها الخارجي في وقت معا • « فعصر النهضة » انما جاء لأن الناس تعلموا كيف يفهمون روح القدماء ، وكان العنصر الجوهري فيه محاكاة الفن والأدب الكلاسيكي • ومن الكتب المدرسية ما أفسح متسعا غير كبير لفن الطباعة ، وجعله هو واستكشاف أمريكا من بين أسباب الانتعاش العام • ولست متأكدا من اسم الكتاب المدرسي الذي يقال ان فصوله في تاريخ العصر الحديث ابتدأت بهذه الجملة الاستهلالية الممتلئة بالثقة « يبـدأ المولد الجديد للروح البشرية منـذ استـكشاف الأسلحة النارية » ، وهي جملة لو أعطيناها ما تستحق من دراسـة وتأمل لتجلى لنا أنها الماركسية نفسها في أقصى درجاتها •

ومهما يكن من أمر ، فان الرأى المنتشر آنذاك ، وهو أن محاكاة القديم هي كل شيء في «عصر النهضة » ، لم يرتفع قط عن مستوى تبسيط رث لآراء من أحبت عقولهم مفهوم « عصر النهضة » وأوصلوه الى مرتبة النضج • وقد رأينا كيف أن فولتير نفسه اتخذ رأيا أرحب كثيرا حول ظـاهرة الاحياء • فلو وجب أن يحدد شخص تلقى عليـه مسئولية ذلك الرأى المدرسي ، لكان هو بيير بايل •

وها نحن قد وصلنا الى يد ياكوب بركهارت ، وهي تمتد بالنشر التام لطوايا مفهوم « عصر النهضة » بكل ما حوت من نواح ثرية مليئة بالألوان بوصفها شـكلا للحياة يتسامى كثيرا فوق حـدود الدراسة التاريخية المقصودة لذاتها •

ومن الحقائق المقررة أن ذلك العـالم السويسرى العظيم قد ألهمته عبقرية عالم ثاقب النظـرة أنارت رؤاه علم التـــاريخ بما يشـــبه ومضات البرق :وهو العالم جول ميشليه • فقد شهد عام ١٨٥٥ ظهور كتاب ميشليه الموسوم : « تاريخ فرنسا في القرن السادس عشر » ، وهو المجلد السابع من كتابه « تاريخ فرنسا Histoire de France» وقد صدر بعنوان ثانوى هو « عصر النهضة » • هذا وان موقف ميشليه حيال ذلك التحول الثقافي العظيم ، انما هو موقف «حركة الاستنارة» كما تحولت الى المذهب التـحريرى Liberalism وانعـكست في عقله اللامـع • فالشيء الذى اجتلبه القرن السادس عشر ، كان في نظره ـ شأنه عند أصحاب المذهب العقلاني في القرن الثامن عشر ـ هو النور الذى أشرق في دياجير القرون الوسـطى المتبربرة • فمفهـوم العصور

الوسطى لم يكن لديه سوى جزء من الفكرة العظيمة للتقدم الذى بدأ مسيرته الظافرة يوم استيقظ العقل من أغلال الخداع والظلم التى فرضتها عليه المدرسانية (الاسكولائية) والاقطاع • وقد اجتلب القرن السادس عشر شيئين عظيمين :

١ ـ استكشاف العالم

٢ ـ استكشاف الانسان

وعندى أن القرن السادس عشر يمتد فى اطار مداه العظيم ومجاله المشروع ، من كولمبس الى كوبرنيقوس ، ومن كوبرنيقوس الى جاليليو ، أى من استكشاف الأرض الى استكشاف السموات•

لقد وجد الانسان نفسه من جديد • وقبل أن يكشف له فيساليوس وسرفتيوس عن الحياة ، كان قد نفذ فى سرها الخلقى مع لوثر (*) وكالفن (**) ، ومع ديمولان وكوجاس ، ومع رابليه (***) ومونتينى وشكسبير وسرفانتيس • وقد سبر الأساس العميق لطبيعة الحياة • وبدأ يجنح نحو الاستقرار بين أحضان العدالة والعقل •(٢٤)

وبعبارة أخرى أصبح الانسان فى القرن السادس عشر على بينة من علاقته الحقة الطبيعية بالعالم ، فتعلم كيف يفهم خواص العالم واهميته وأصبح يدرك قيمة شخصيته وقدراتها • وقد كتل ميشليه عصر الاصلاح الدينى وعصر النهضة بعضهما مع بعض متخذا منهما الفجر السعيد للمثل الأعلى « لحركة الاستنارة » • واعتقد أن الاستيقاظ قد حدث فى القرن السادس عشر • وفيما عدا كولمبس وجاليليو لم يذكر ايطاليا واحدا بين قادة تلك العملية الهائلة •

فان تمكن بركهارت بناء على هذا من استعارة نظريته عن التحول الثقافى الكبير من ميشليه ، فلقد كان ذلك لمجرد توجيهها نحو أشياء مخالفة تمام المخالفة • فانه طبق تلك القاعدة الموضوعة «لعصر النهضة»

(*) لوثر (مارتن) (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) : زعيم الاصلاح الدينى فى المانيا • (المترجم)

(**) كالفن (١٥٠٩ ـ ١٥٦٤) ولد فى لوايون وحرض على الاصلاح فى فرنسا سويسرا ، وانشأ الطائفة الكالفينية (المترجم) •

(***) رابليه (١٤٨٣ ـ ١٥٠٠) كاتب فرنسى ولد فى شينون ونشأ طبيبا وله اسلوب ساخر • (المترجم) •

وهي « استكشاف العالم والانسان » ، على ظواهر لم يهتم بها ميشليه الا اهتماما ثانويا ، فهو فى الحق قد فهم القاعدة بطريقة تختلف اختلافا جوهريا عن ميشليه موجدها • وقد أعلنها ميشليه باعتبارها أمارة أو كلمة سر ، ولكن لم يتم على يديه استنباط تلك الثروة العظيمة من الأخيلة النوعية التى تثبت صحة قاعدته تاريخيا • ولعلها كانت تضيع كصرخة فى بهمة الليل لولا أن تصادف أن سمعها بركهارت •

على أن ما اجتمع فى بركهارت من مزيج من الحكمة والعمق ، ومن قدرة على التوليف synthesis على معيار ضخم ومن دأب العالم الصبور وجده الذى يجمع مادته ويقتلها درسا ، ـ ذلك كله يجعله رجلا نادر المثال فى ميدان علم التاريخ • وفوق هذا فان عقله اتصف بذلك التحفظ الارستقراطى ، الذى جعله لا يمدح رأيا جديدا ظهر فى زمانه لمجرد أن الزمن طالب به • ولم يحدث قط أن تورط بركهارت فى أفكار تافهة حول التقدم ، وكان ذلك كافيا فى حد ذاته لتمكينه من الغوص أعمق كثيرا من ميشليه • فانه أول من نظر الى «عصرالنهضة» نظرة بعيدة عن كل علاقة « بحركة الاستنارة والتقدم ، ولا بوصفها تمهيدا أو ايذانا لامتياز تال ، بل بوصفها مثلا أعلى ثقافيا هو الوحيد من نوعه Sui Generis •

وقد اقتبست من مقارة قديمة لياكوب بركهارت عبارة تحدث فيها « عما يسمونه بعصر النهضة »(٢٥) • وترجع المقالة الى عام ١٨٣٨ (وقد ولد بركهارت بمدينة بال فى ١٨١٨ وتوفى فى ١٨٩٧) ، وفى تلك السنة زار ايطاليا لأول مرة ، على أن الفن الجرمانى والفلمنكى فى العصور الوسطى ظل بؤرة دراساته ومحل تقديره فى السنوات التى تلت تلك السنة مباشرة ـ وذلك أيضا بعد اقامة ثانية فى ايطاليا • وفى أخريات ١٨٥٢ ظهر مؤلفه عن عصر قسطنطين الأكبر • وفى السنتين التاليتين عاد فزار ايطاليا ثانية ، وفى ١٨٥٥ أصدر كتاب «الشيشرون The Cicerone » « دليل الاستمتاع بالأعمال الفنية فى ايطاليا» • ثم صدر عنه فى ١٨٦٠ كتاب « حضارة عصر النهضة بايطاليا • »

ولا أدل على أهمية ذلك الكتاب من تاريخ طبعاته • فان الطبعة الثانية ظهرت بعد الأولى بتسع سنوات ١٨٦٩ ، والثالثة والرابعة كل منها بعد ثمانى سنوات ١٨٧٧ ، ١٨٨٥ • وبعد الطبعة الخامسة فى ١٨٩٦ بدأ التيار يجرى على المنوال التالى : ١٨٩٧ ، ١٨٩٩ ، ١٩٠١ ،

١٩٠٤ ، ١٩٠٨ ، ١٩١٣ ، ١٩١٩(٢٦) ٠ واذن فالجيل التالى هو وحده فقط الذى أصبح ناضجا نضجا تاما لتلقى ما يقدمه بركهارت ٠

لا شك أن بناء هذا العمل الذى لا نظير له ، والذى يعد مثالا بين الجهود التوليفية (Synthetical) الثقافية التاريخية ، ــ بناء لا يقل قوة ولا انسجاما عن أى عمل فنى أنتجته العصور الوسطى ٠ وقد وضع أساس البناء فى الجزء الأول ، الذى جعل عنوانه « الدولة كعمل فنى » وهو يعالج التقاليد السياسية والاجتماعية التى تطور فى اطارها بالدول الايطالية حتى ابان العصور الوسطى نفسها اتجاه شخصى أقوى وشعورى أشد ، للفرد نحو الدولة ونحو الحياة ٠ فالقارىء يدفع منذ البداية نفسها الى الاتصال مع الروح الباعثة على اجراء تعريف شخصى للاهداف وتحديد حر لمجرى حياة المرء ، وهى الروح التى عدها بركهارت الخصيصة الأساسية « لعصر النهضة » ، والتى يرسمها فيما يورد من نماذج الطغاة وقواد الجند المرتزقة Condottiere والدبلوماسيين ورجال البلاط والمتحزبين لذوى قرباهم من رجال الدين ٠ غير أنه لا ينسى فى الحين نفسه أن يزود القارىء باستعراض لا غنى عنه ، للتاريخ السياسى للفترة ٠ ثم يعود بركهارت بعد ذلك فيكشف النقاب عن مدار الفكرة الأساسية فى عمله ٠ فأما الجزء الثانى الذى جعل عنوانه «تطور الفرد» فانه يبدأ بالصحيفة التى كادت تكون عقيدة لبركهارت والتى ينبغى أن تورد هنا بكاملها ٠

وعلى طابع هاته الدول ، سواء أكانت جمهوريات أم استبداديات ، يقع السبب الرئيسى بل الوحيد فى التطور الباكر الذى نال الايطالى ٠ فالى هذا الطابع يرجع السبب فى أنه يعتبر بكر أبناء أوربا الحديثة ٠

وفى أثناء العصور الوسطى كان كل من جانبى الوعى البشرى ــ ما اتجه منهما للخارج وما اتجه للداخل ــ يرقد بين أحضان الأحلام أو نصف مستيقظ تحت لثام مشترك ٠ وقد نسج ذلك اللثام من العقيدة والوهم والتعصب الطفولى ، وهى الأشياء التى كان العالم والتاريخ يربان من خلالها متدثرين بالوان عجيبة ٠ فلم يكن الانسان على شعور بنفسه الا كعضو فى جنس أو شعب أو حزب أو عائلة أو هيئة ــ أى من خلال فئة عامة أو نوع عام ٠ على ان ايطاليا هى الاقليم الأول الذى تبخر فيه ذلك اللثام ٠ فصار فى الامكان القيام بصورة « موضوعية » بمعالجة أمور الدولة وتأمل شئونها وبحث جميع ما بالعالم من أشياء ٠ وفى الحين نفسه برزت الناحية « الذاتية » نفسها بما يقابل ذلك من

تأكيد ، وأصبح الانسان فردا روحيا ، وأخذ يعرف نفسه على هذا النحو • (٢٧)

ويترسم بركهارت هذا التنبه النامى للشخصية فى كل حقل من الحقول • والفصل الذى عقد بعنوان « البلوغ بالفرد الى الكمال » يجعل من ليون باتستا البرتى (*) أكمل طراز للرجل العمومى الذى طور كل قدراته وتحكم فيها بوعى شعورى • وفى استجابة لهذا التطور الذى ألم بالفرد ظهر أيضا «نوع جديد من الامتياز الظاهرى ـ وهو الشكل العصرى المجد » • فان ما نالته موضوعات دانتى (بل دانتى نفسه) من ذيوع شهرة جامع ، ونباهة ذكر بترارك ، وتوقير الأبطال القوميين الكبار : أمور يراها بركهارت كلهـــا قائمة تحت راية الفـكرة الجديـدة عن الشخصية والقيمة البشرية ـ كما أنه يشـــهد معها تحت نفس الراية أيضا نقيضها ، وهو « الذكاء العصرى والهجو العصرى » •

وعندئذ فقط يجىء « احيـاء العصر » مكونـا الجزء الثـالث من الكتاب • ولكن فى هـذا الوقت لا يكاد يصح أن يقال ان احياء العصر القديم فى رأى بركهارت لم يكن المنصر العلى فى ظهور «عصر النهضة»• ولا هو عنده الخصيصة الجوهرية لتلك الحقبة • فانه بادر منذ البداية برفض هذا الرأى :

والآن وقد بلغنا هذه النقطة فى نظرتنا التاريخية الى الحضارة الايطالية ، فقد آن لنا أن نتحدث عن تاثير العصور القديمة ، التى جعل « ميلادها الجديد » ـ فى تحيز ظـــاهر ـ علمـا يشـمل الحقبة كلها ويلخصها •

من هنا يتجلى أن العصر القديم لم يكن المنصر العلى ولا الجوهرى فى ظهور « عصر النهضة » ، ولكنه رغم ذلك شرط ضرورى وعنصر حيوى فى تطورها • فان الكلاسيكية Classicism كانت شـــيئا لا يستغنى عنه كوسيلة للتعبير عما تم اكتسابه حديثا من نفاذ البصيرة فى شئون الحياة : وعصر النهضة (ويضعها بركهـــارت نفسه ، لا المترجم ، بين علامتى تنصيص ليوضح للقارىء أنه انما يستخدمها هنا بالمعنى الأضيق أى بمعنى احياء الدراسات الكلاسيكية) ما كان ليكون تلك العملية المعروفة

(*) البرتى (١٤٠٤ ـ ١٤٧٢) مهندس معمارى ايطالى ، الف أول كتاب مطبوع فى الهندسة المعمارية ، كان له فضل كبير فى تقييم الطراز الرومانى الكلاسيكى • (المترجم)

ذات الأهمية العالمية الشاملة ، لو أنه أمكن أن تفصل عناصره احداها من الأخرى بمثل هذه السهولة •

ولكنه عاد من فوره فقيد دور « الكلاسيكية » في تجديد الروح :

هناك شيء ينبغي لنا أن نصر عليه بوصفه أحد القضايا الرئيسية في هذا الكتاب ، هو أن فتح العالم الغربي (٢٨) لم يتم باحياء العصر القديم وحده ، بل باتحاده بعبقرية الشعب الايطالي •

وقد ناقش بركهارت نفوذ العصر القديم بأكمله في جزء وحيد من كتابه (على حين خصص جيورج فواجت لذلك النفوذ نفسه كتابه « احياء العصر القديم الكلاسيكي ، القرن الأول للحركة الانسانية » Wiederbelebung des klassischen Alter tums oder das erste Jahrhundert des Humanismus. قبله بقليل في ١٨٥٩ ، دون أن يتمكن بركهارت من الافادة منه)، وذلك بينما نصف مواد بركهارت لاتزال تحت البحث والمعالجة• ثم جاء الفصل المعنون «اكتشاف العالم والانسان»• وفي هذا الجزء من المقالة أوضح بركهارت ماينبغي أن يكون عليه التاريخ الثقافي فعلا• ويناقش ماطبعت عليه العلوم الطبيعية من اعتماد على التجريب والاختبار ، ويبحث استكشاف جمال المناظر البرية ، ثم انبثاق التصوير السيكولوجي ، عند دانتي أولا ثم بترارك وبوكاتشيو ، وفي تطور التراجم، والنظرية الجديدة في الخصائص القومية والتنوع السلالي (الاثنولوجي Ethnic ثم ينتهي ببحث ازدهار المثل الأعلى للجمال • فأين الذى فكر قبله في البحث في أهمية أدب اللياقة (الاتيكيت) الاجتماعي والبدع الجديدة (الموضة) والولع وهواية الفنون فضلا عن الاحتفالات بالنسبة للتاريخ الثقافي ؟ ويختتم الكتاب بالجزء الذى يدور حول « الأخلاق والدين » • وفيه تبرز الى الصدارة أحكام بركهارت والنتائج التي وصل اليهما ، وتوضح اللمسات الأخيرة على صورة « انسان عصر النهضة » : الفردية الجامحة التي تنزع الى الخروج التام عن الأخلاق ، واتجاه ذاتي Subjective نحو الدين ـ يتسم بالتسامح والتشكك والسخرية ، بل ربما بلغ أحيانا حد الرفض المطلق للدين ، وأيضا وثنية « عصر النهضة » ، وهي خليط من قديم الخرافات وحديث التشكك • ثم اذا هو في السطور الأخيرة من الكتاب يمتدح الأفلاطونية النبيلة لأهالي فلورنسا ممثلة في لورنزو دي مدتشي ودائرته •

فهنا تصل الى مرتبة النضج واحدة من أثمن ثمرات المعرفة بالعالم والانسان ، تستند اليها وحدها تسمية عصر النهضة الايطالى باسم زعيم العصور الحديثة • (٢٩)

وها قد حصلت كلمة « عصر النهضة » على كامل دلالتها • ولم تلبث أفكار بركهارت أن نفذت رويدا رويدا حتى جاوزت كثيرا الدوائر التي قرأت كتابه • وكما يحدث دائما جردت تلك الأفكار فى أثناء عملية انتشارها ، من جميع التفاصيل التى تبث فيهـا الحياة والتى تقوم فى الوقت نفسه بتضييق الخناق عليها بما فطرت عليه من تماسك وتكامل • لقد اكتسبت أفكاره طابع الغلظة وتعرضت للبتر وتفككت أوصالها فى عقول من تقبلوها • فان بركهارت استدعى رجل « عصر النهضة » وأوقفه أمام وجه الزمان كأنه أحـد أولئك الآثمين الباذخين القـادمين من قلب الجحيم Inferno ، واذا هو شخص شيطانى فى كبريائه الذى لا يلين راض عن نفسه وجسور جرىء ، فهو « الرجل الفذ Uomo Singolare» وتلك هى الشخصية الوحيدة فى كتابه التى استهوت أخيلة هواة الفنون • وأصبح مفهوم « رجل عصر النهضة » مرتبطا بالتهور فى قبول الحياة والسيطرة عليهـا • فقد تصور الناس أن حضـارة « عصر النهضة » كطراز ونموذج ، انما تشـاهد فى الشـخصية الحرة للعبقرية ، وقد ارتفعت فوق المبادىء والأخلاق ، شخصية رجل الملذات المتكبر المرح ، الذى عمد فى حب الوثنى للجمال الى التمسك بالقدرة على العيش وفق معاييره الخاصة • وقد احس دعاة المذهب الجمالى فى أخريات القرن التاسع عشر صدى لرغبتهم الخاصة فى تلك الصورة الوهمية للحياة التاريخية • ولو راجعنا أشد حالات التخليط بين المصطلحات خطورة لوجدنا ، أن نفس « روح التمرد » الأثيرة المحبوبة شقت طريقها عنوة حتى استوت داخل صورة « عصر النهضة » • ولم يكن شىء من هذا كله راجعا الى خطأ صادر عن بركهارت بأية حال • فان الأغنية التي غناها تولى جيل تال عزفهـا موزعة على الآلات الموسـيقية الأوركسـترالية فى أسلوب نيتشه ، وهو كما يعلم الجميع أحد تلاميذ بركهارت •

ومع أنه حدث فى الحين نفسه أن المبالغة السطحية حلت فى كثير من العقول محل الصورة الغنية التى أضفيت علىدراسة تاريخ الفنونوالتاريخ الثقافى ، فان تلك الدراسة لم تقف عند حد كتاب بركهارت • ولا شك أن كتابا منبثقا الى مثل هذا الحد الكبير عن فكرة وحيدة لا بد أن يكون بالضرورة متحيزا ذا جانب واحـد • فالجوانب الضـعيفة فى مبـحث بركهارت لم يكن فى الامكان أن تظل متوارية عن الأنظار •

لقد راح بركهارت يحملق فى وهج شمس الأربعمئات أى القرن الخامس عشر العنيفة بايطاليا ، فلا عجب أنه لم يستطع أن يرى مما يقع وراء ذلك العصر الا صورة تتسم بغاية النقص • ويرجع بعض السبب فى تلك الغلالة التى رآها مسدلة فوق روح العصور الوسطى الى عيب فى جهاز تصويره • لذلك شـــاهد تباينا بالغ الحدة بين حياة ايطاليا لأواخر العصر الوسيط وبين الحياة بأماكن أخرى • لقد خفى عليه أنه وراء أمجاد « عصر النهضة » استمرت الحياة الشعبية الأصيلة للعصور الوسطى بايطاليا متشحة بنفس الأشكال التى تزينت بهـا فى فرنسا والأقاليم الجرمانية ، مثلما خفى عليه أن الحياة الجديدة التى راح يصفق لاستهلالاتها بايطاليا أخذت تنبعث أيضا فى أقطار أخرى لم يستشف فيها بركهارت سوى القمع والبربرية اللذين طال بهما العهد • لم يكن على تنبه كاف الى التنوع العظيم والحيـــاة الباذخة التى أوتيتهـا ثقافة العصور الوســطى فى خارج ايطاليـا • وكانت نتيجة ذلك أنه وضع « لعصر النهضة » النابت حدودا مفرطة الضيق •

وهناك أمر آخـر يعد غرضا لقدر أكبر من النقد ، هو التـحديد التاريخى الذى وضعه بركهارت « لعصر النهضة » • فانه اتخذ من حوالى ١٤٠٠ بداية للازدهار التـام لعنصر الفردية ، التى رأى فيهـا العنصر الجوهرى بتلك المدة • بيد أن النصيب الأوفى من المادة الموفورة التى أوضح بها وجهة نظره يعالج فى الأغلب الأعم القرن الخامس عشر والجزء الأول من السادس عشر • فأما ما وقع قبل ١٤٠٠ فهو شىء عده بركهارت مجرد اشـــارة ، أو بذرة بهـا بارقة أمل • فالمركز الذى حدده لدانتى وبترارك لم يتجاوز منزلة « الرواد الطلائع » « لعصر النهضة » • وذلك هو نفس المركز الذى رآهما فيه ميشليه ـ بل حتى فولتير الى حد ما • ولا يخفى أن فكرة « الرواد الطلائع » لاتجاه ما أو حركة ، تعتبر على الدوام من التعبيرات المجازية الخطرة فى علم التاريخ • فتصور أن دانتى يعد رائدا للنهضة ••• لربما جاز لى بنفس الطريقة وبمبررات مؤكدة أن اســــمى رامبرانت طليعة ورائدا لجوزيف اسرائيلز ، ولكن أين الذى يتبعنى فى هذا الرأى ؟ والواقع أن وسم أى انسان باســـم الطليعة أو الرائد ـ يخرجه من اطار زمانه الذى ينبغى أن يفهم فى داخله ، ومتى فعلنا ذلك شوهنا صورة التاريخ •

وما أن بدأ بركهارت عمله بفكرة استشفاف « عصر النهضة » كله فى مذهب الفردية ، حتى اضطر الى التهليل لذلك العصر فى كل ظاهرة تناقضت مع كل ما اعتبره الخلفية المعتمة لحضارة العصور الوسطى •

ولا عجب أن الفن الزخرفي الذى استحدثه كوزماتي فى القرن الثانى عشر، والعمارة التوسكانية للقرن الثالث عشر ، وما ظهر ، فى القرن الثاني عشر من شعر دنيوى كلاسيكي مترع بالحيوية ، تمثله مجموعة أغانى « كارمينا بورانا (*) Carmina burana – قد أصبحت كلها عنده نموذجا أول للنهضة • ولا ينطبق هذا على الفن وحده بل ينطبق أيضا على الخلق البشرى • فكل انسان فى القرون الوسطى اظهر شخصية بارزة وقع تحت شعاع الضوء الكشاف العظيم لعصر النهضة •

ولو استعرضنا العصور الخوالى المفرطة القدم ، لأمكننا أن نستشف هنا وهناك تطور الشخصية الحرة التى اما أنها لم تظهر بشمال أوربا مطلقا ، أو لم تستطع أن تكشف عن نفسها بالطريقة نفسها • (ولكن كلا ، فان أساطير البطولة (الساجا) النورسية تقدم صورة للشخصية الحرة لا نظير لها فى أى مكان آخر) • غير أن تلك العصابة من الآثمين الجسورين فى القرن العاشر ، التى وصفها لنا لويد براند Luid Prand ، وبعض معاصرى جريجورى السابع ، وعددا قليلا من خصوم الامبراطور الأول من آل هوهنشتاوفن ، تكشف لنا عن شخصيات من هذا الضرب (٣٠) •

من هنا يتبين أن بداية خط « عصر النهضة » كان يمكن مدها الى الخلف الى مالا نهاية • والنتيجة التى أدركها ميشليه فعلا ، هى أن كل يقظة للحياة الفكرية الجديدة ، أى لآراء جديدة فى الحياة والعالم فى العصور الوسطى ، لم يكن بد من أن تعتبر فجرا « لعصر النهضة » • ومتى فعلنا ذلك اضطررنا الى تطبيق الفرد شبه الشعورى الذاهب الى أن العصور الوسطى فى حد ذاتها كانت شيئا مواتا أو جذعا متعفنا (وهو فرض أورده ميشليه مذهبا معترفا به صراحاً) •

فكأن النتيجة : وهى أنه لابد لنا على الدوام من تقديم تاريخ « عصر النهضة » أكثر فأكثر ، – قد استخلصت فعلا • والأشخاص الذين ينسب اليهم الفضل فى الكشف عن جذور « عصر النهضة » هم اميل جبهارت وهنرى تود ولويس كوراجوه وبول سباتييه وثمة الفكرة القائلة بانتساب «عصر النهضة» الى العصور الوسطى ، فالى أى حد تكامل تكوينها فى وقت مبكر مثل عام ١٨٧٧ ؟ ذلك مايكشف عنه كتاب « عصر النهضة » الذى ألفه وألتر باتر ، وفيه عمد بغير مقدمات وبغير بحث قاطع واضح ، الى

(*) كارمينا بورانا مجموعة من الاغانى معظمها باللاتينية وبعضها بالالمانية كتبها الجوليارد او العلماء الجوالون فى القرنين ١٢ ، ١٣ (المترجم)

مفهوم لفظة النهضة،فرص تحته كل ما حوته العصور الوسطى من أشياء اجتذبت نظره بما حوت من تلقائية وروعة ـ فقد فعل ذلك مثلا بالباكورة الفرنسية الأولى فى القرن الثالث عشر وهى أوكاسين ونيقولت Aucassin et Nicolette حيث عدها من ارهاصات «عصر النهضة» ·

وفى ١٨٧٩ أصدر اميل جبهارت وهو كاتب مقالة ممتاز ومؤرخ مبدع للثقافة كتابه «أصول عصر النهضة فى ايطاليا «Les origines de la Renaissance en Italie وقد اتفق تصوره لطبيعة «عصر النهضة» مع ماتصوره بركهارت عنها ، حيث قال : « لم تكن النهضة فى ايطاليا فحسب تجديدا للأدب والفنون ناتجا عن عودة العقول المثقفة الى الأدب الكلاسيكى احياء وانتهالا ، وعن تهيئة السبل لتدريب أفضل للفنانين الذين عادوا الى استكشاف ما بالمدرسة اليونانية من احساس بالجمال ، وانما هى جماع الحصيلة المركبة للحضارة الايطالية ، هى التعبير الصحيح لعبقرية ايطاليا وحياتها الخلقية (٣١) · على أن ما اقتصر بركهارت فيه على اشارة مترفقة ، قد تقبله جبهارت تقبلا تاما ، حيث قال : « الواقع أن النهضة الايطالية تبدأ قبل عهد بترارك ، اذ أنه حدث منذ أيام مثالى بيزا وتجلى فى أعمال جيوتو ، وفى عمارة القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، أن تجددت الفنون ··· واذن فأصول النهضة قاصية عريقة فى القدم ، وتسبق بأشواط بعيدة الثقافة الأكاديمية التى نشرها أدب القرن الخامس عشر » (٣٢) ·

وعندما ظهر كتاب بركهارت « حضارة عصر النهضة Civilization of the Renaissance فى ترجمة فرنسية قام بها م· شميت فى ١٨٨٥ ، وضع جبهارت السؤال بطريقة أدق قليلا (٣٣) · فقال : ان النقاط التى ترتبط عندها النهضة بالعصور الوسطى لا تكاد تستبان عند بركهارت ؛ ولذا وجب أن يسلط ضوء أسطع على كتابه عند أطرافه · وقد تولى جبهارت نفسه تسليط ذلك الضوء على بداية الكتاب · فانه فى كتابه «ايطاليا المستيقية : تاريخ النهضة الدينية فى العصر الوسيط (١٨٩٢) « L'Italie mystique : Histoire de la Renaissance religieuse au Moyen-Age واصل البناء فوق ما أسماه « بمصادره » متخذا من يواقيم من فلوريس (وهو المتصوف الكالابرى الذى ظهر فى أخريات القرن الثانى عشر) وفرانسيس الأسيسى نقطتى البداية والانطلاق للحركة الفكرية بأسرها ·

والواقع أن هذا لم يعد يعتبر شيئا جديدا · وفضلا عن ذلك ، فان ميشليه كان من هذه الناحية ، قد استطاع بكل ما أوتى من قوة وفى

أوسع دائرة ممكنة نثر البذرة التي رآها غيره من الناس وهي تنبت ناجمة من الأرض · وفي اعترافه اللاهث المنفعل الذي صدر به كتابه في تاريخ النهضة كان مدار البحث فعلا هو : لماذا تأخرت النهضة ثلاثة قرون؟ (٣٤) والواقع أنها أعلنت عن نفسها مرارا وتكرارا : فعلت ذلك في القرن الثاني عشر بظهور « أنشودة البطولة الملحمية الفرنسية القديمة Chanson de geste » وأبيلارد والأب يواقيم ، وفعلت ذلك في الثالث عشر بظهور الرسالة الخالدة Evangelium aeternum وهي نشرة الدفاع الجدلي التي أذاعها الفرنسسكيون الذين قامت على أكتافهم الدعوة ، وفي الرابع عشر بظهور دانتي · كتب ميشليه : والواقع أن العصور الوسطى كانت ميتة فعلا في القرن الثاني عشر ، وأن ما أخر « عصر النهضة » ليس الا ما أبداه العصر الوسيط Le Mayen-Age من مقاومة عنيدة للعودة الى أحضان الطبيعة (وطريقة ميشليه التشبيهية (Anthropomorphic في التفكير معروفة للجميع) ·

وقد شاعت هذه الأفكار بين الناس جميعا بفضل ميشليه ، ومنذ تلك اللحظة أصبح من الميسور فهم كيف أن والتر باتر استطاع بسهولة تامة الربط بين مفهوم النهضة وبين شخص القديس فرانسيس حتى قبل اقدام جبهارت على تطوير الفكرة على أساس أكاديمي ·

فلا وجه للعجب اذن ، من أن المؤرخين الفرنسيين والألمان ، وقد سار كل منهما في طريقه الخاص ، قد وصلوا الى موقع واحد ونتيجة واحدة · وقد ظهرت في ١٨٨٥ دراسة هنري تود المعنونة : « فرنسيس الأسيسي وبدايات الفن في عصر النهضة بايطاليا Franz von Assisi und die Anfange der kunst der Renaissance in Italien » لم يكن تود معنيا بالانتعاش الديني المنبعث عن حركة القديس فرانسيس في حد ذاتها بقدر عنايته بالاثر الذي أحدثه ذلك الانتعاش في تجديد الفنون · اذ أنه اعتبر الأمر الثاني ذا أهمية قصوى · فان ما أبداه فرانسيس من حمية شعرية غنائية ومن وجدان ذاتي ، بالاضافة الى انفعاله الجديد ، وحبه لجمال العالم ، لم تكن فحسب دافعا قويا نحو روح فنية عميقة ومادة لخيال فني جديد ، بل انه من الناحية الاجتماعية كذلك ، كانت جماعات الرهبان المتسولين mendicant مصدرا للدافع والباعث على ذلك الاندفاع

(*) جمعيات دينية من الرهبان نشأت في الكنيسة في أوائل القرن الثالث عشر وأهمها الدومينيكيون والكرمليون والفرنسسكيون · يتبعون انكار الذات واذلالها . ويعيشون على الصدقات · (المترجم)

الجديد نحو البناء • وأقدم تود متعمدا على محو الحد الفاصل بين العصور الوسطى «وعصر النهضة» : «فمن جيوتو الى رافاييل يحدث تطور مطرد متسق ، قائم على نظرة عالمية متسقة وصورة دينية كلية متسقة • فالجنوح الى الفصل بين الفن القوطى ، الذى يمتد حتى ١٤٠٠، وبين النهضة البادئة في ١٤٠٠ ، (الأمر الذى لايزال يجرى عادة فى الكتب الدراسية لتاريخ الفنون) ، معناه أنه قد فاتنا أن ندرك الوحدة العضوية التى تضمهما جميعا (٣٥) • ويرى تود أن المضمون الفكرى للعملية هو تحرير الفرد : « الذى استطاع أن يأخذ حقوقه قهرا تلقاء جمهـــرة الشعب الحاشدة بواسطة تصور شخصى وانسجامى للاحساس بالطبيعة والدين ـ وهو لايزال فى جملته داخل حدود العقيدة الكاثوليكية ، وان أخذ فعلا يتجاسر عن غير وعى منه الى الخروج عن تلك الحدود » • « والدافع الجوانى العميق الذى يحدث مثل تلك المعجزات انما هو الحساسية المستيقظة المفرطة الفردية » • فالى أى حـد تشوهت صـــورة فرانسيس ، والى أى حـد بولغ فى أثر نفوذه على تطور الثقافة الايطالية ؟ ـ تلك أمور لا حاجة بنا الى بحثها عند هذه النقطة •

ولم يكن هنرى تود هو المصدر الروحى للتقدير الواسع الانتشار الذى يلقاه فرانسيس فى الدوائر الجمالية • اذ أن كتابه ظل مقصورا على دائرة ضيقة هى دائرة المهتمين بتاريخ الفنون ، ومن ثم راح تود فى شىء من التكدر فى مقدمة الطبعة الثانية (١٩٠٤) ، يدعى لنفسه شرف تخطيط الصورة الجديدة للقديس فرانسيس قبل أن استهوى ساباتييه قلوب العـــالم بزمن طويل بكتــابه « حيــاة ســـان فرانسوا دى أسيسى » (١٨٩٣) •

على أن عمل بول ساباتييه ظل خارج حومة النزاع فيما يتعلق بموضوع أصول « عصر النهضة » ، من حيث أنه لم يعن ابتداء ـ على العكس من جبهارت وتود ـ بتحديد العلاقة بين فرانسيس والنهضة ، بل بوصف حياة القديس ذى الالهام ، بكل ماحوت من ألوان ولحون ممتازة وقوية • ومن الشائق أن الصورة المعجبة والبعيدة عن الدقة التى دبجتها يراعة ذلك اللاهوتى البروتستنتى الفرنسى فى كتابه ذى الطابع الشـــعرى اللطيف تمثـــل القـديس روحا ذاتية subjective غنائية شعرية ، تمكن من غزو مافى العالم من جمال من أجل الاخلاص الحار القوى الذى يدخل فى الدين الحاجات الشخصية الانفعالية ؛ والذى قدر له ـ اذ ينحنى باحترام بنوى أمام الكنيسة العجوز الصلبة ، التى رأت مافى هذا النوع الجديد من العبادة من خطر ـ أن يتحول إلى

رجل أميط عنه الخداع فران عليه الأسى ، بل حتى أوشك أن يغدو شهيدا في سبيل هدفه السامي الباذخ • بيد أن هذه هي بالضبط الصفات التى أصبحت رويدا رويدا مرتبطة بمفهوم « عصر النهضة » : الحساسية الفردية ، وتقبل العالم على علاته ، ووجدان نحو الجمال ، واتجاه شخصى نحو مبادىء الدين والسلطة • ومن ثم فلعل ساباتييه أسهم أكثر من أى انسان آخر فى احداث نقلة وتغيير فى طبيعة وموعد المفهوم الذى يعبر عنه مصطلح « عصر النهضة » • فلم يعد أحد يتصور ذلك المصطلح قائما قبل كل شىء على نمو العقل ، بل على نمو القلب : أعنى فتح الأعين والروح على كل ممتاز جميل فى العالم والشخصية الفردية • والآن دفعت نظرية بركهارت حول الفردية واستكشاف العالم والانسان الى أقصى مدى لها • وهنا دفعت الى قرار الخلفية تماما أهمية احياء الثقافة الكلاسيكية لعملية « النهضة » • فأما أن «لورنزو فاللا» توقع أن يعود استرجاع اللاتينية الفصحى النقية بأثر صحى ناجح ومجدد للحيوية تماما ، وأما أن «بوليتيان» قد كتب أشد ماظهر فى الشعر اللاتينى منذ هوراس قوة وجاذبية ، وأما أن«أفلاطون»لقى التوقير فى فلورنسا بوصفه الرسول الجديد للخلاص ، ــ فتلك وسمات أخرى غيرها « لعصر النهضة » لم يعد لها وزن على الاطلاق فيما يبدو •

فماذا حدث ؟ الذى حدث هو أن مفهوم «عصر النهضة» ، الذى أصبح مطابقا تماما للفردية ولروح دنيوية ، قد وجب أن يمط مطا تاما حتى لقد فقد كل مرونة له • الواقع أنه لم يعد له أى معنى • فلم يكن ثم أية ظاهرة ثقـافية كبرى واحدة فى العصور الوسطى ، لم تقع تحت مفهوم « النهضة » فى واحدة من نواحيها على الأقل •• ولم يلبث كل مابدا جزءا تلقائيا وفريدا من العصور الوسطى فى عهدها الأخير أن رفع منها على التدريج ، وأعطى مكانا بين مصادر « عصر النهضة » • لذا لم تظهر للأمر نهاية على امتداد البصر • فاذا كان انفتاح الأعين ، وايقاظ النواحى الشخصية ، هو روح « عصر النهضة » فأى داع هناك لعدم توقير تلك الروح الغنائية الأخرى ، الى جوار فرانسيس بل وفوقه ــ وهو برنار دى كليرفو ، بوصفه أول من حمل تاج « عصر النهضة » • ولو أنعمنا النظر ودققنا الفحص ، هل ترانا نكتشف أنه كانت هناك أية عصور وسطى ؟

لم تكن هنا الا خطوة واحدة لم يبرح فى الامكان اتخاذها : هى فصل مفهوم النهضة فصلا تاما من أساسها ، وهو احياء الدراسات الكلاسيكية • خذ مثلا حقل تاريخ الفن بمعناه الدقيق حيث قام بتلك الخطوة قبل ذلك بزمن طويل مؤرخ الفنون الباريسى لويس كوراجوه أحد

تلاميذ دى لابورد . فان كوراجوه فى كتابه دروس ألقيت بمدرسة اللوفر Leçons professées à l'Ecole du Louvre (1888) — وبخاصة فى القسم الثانى منه ، الذى يدور حول «المصادر الحقة لعصر النهضة» قد طور المبحث المزدوج القائل بأن الطراز القوطى جدد نفسه فى استقلال تام بالاتجاه نحو نزعة التمشى المطلق مع الطبيعة ، وأنه نتيجة لهذا التجدد انبثقت النهضة . ومن الجلى أنه لا النموذج الكلاسيكى المبتعث ولا ايطاليا كان لهما أية أهمية علية فى تلك العملية من النوع الذى نسب اليهما فى أوقات سابقة : اذ أن أشكالا جديدة أخذت تنبثق بمواضع مختلفة من أوربا منذ أيام القرن الرابع عشر ، فأما فى فرنسا ، فان الأساتذة الفلمنكيين كانوا أول من اجتلب الاحساس الجديد نحو الطبيعة والواقع . فلئن حدث فى مكان آخر أن « الفردية » أصبحت المصطلح الذى استخدم لتلخيص مفهوم « عصر النهضة » ، فان كوراجوه كان يرى أن عمادها هو « المذهب الواقعى » . والاتجاه الواقعى المدقق المربك الذى اعتنقه يان فان ايك ، بدا لعين بعض العلماء أنه أبرز مثال للروح الأصيلة للنهضة . ومما يجرى وفق محاولة كوراجوه ، أن فيرنز جيفارت مؤرخ الفنون البلجيكى أفرد حصة من دراسته للفنانين ملكيور برويدر لام وكلاوس سلوتر وآل فان ايك ومن سبقوهم جعل عنوانها « عصر النهضة باقليم الشمال » La Renaissance Septentrionale (1905)

أما الذى يرجع اليه الفضل فى القضاء النهائى على اعتبار العصر القديم الأصل والمصدر للنهضة ، فهو مؤرخ الفنون الألمانى كارل نيومان — وهو مؤلف كتاب رائع عن رمبرانت . فان نيومان اتخذ الدراسات البيزنطية نقطة البداية لعمله فلاحظ أن هناك أوجه تشابه مريبة بين الاستاذية الشكلية فى الفنون لدى الانسانيين الايطاليين والجدب المدرسانى (الاسكولانى) عند بيزنطة (٣٦) المحتضرة . فانه وقد أحس بالفعل احساسا تاما أن المصادر الحقة للنهضة انما يعثر عليها فى ثنايا تطور الاحساس بالشخصية ، أى فى التنبه الى الطبيعة والعالم ، وصل الى الرأى القائل بأن محاكاة القدماء ليست العنصر الخصب فى النهضة ، بل هى على العكس عنصر معرقل بل حتى قاتل . ولو نظرت الى أهم النواحى الطرازية للنهضة بمعناها القديم المحدود ، واعتنى بهما ما أبداه أتباع المذهب الانسانى من الحذلقة الرشيقة والعنجهية (القنزحة) الأدبية ، لم تجدها الا نزعة بيزنطية والا ابتعادا عن الروح الأصيلة الخصبة للثقافة الغربية الجديدة التى أخذت تزدهر منبثقة مباشرة عن العصور الوسطى ، ولم تكن بوصفها ذاك لتستطيع أن تؤدى الا الى الجدب والعقم . والواقع

أن مد البصر الى العصر القديم حول النهضة الحقة عن سبيلها : « فالآن تناول الناس الأمثلة الكلاسيكية بوعي تام واتخذوا منها معايير للحياة والخلق ، والآن حرم الفن من روحه بدافع التماس ما للقدماء من الأجواء العظيمة الجبارة والايماءات النبيلة وأبعدته المهارة الاستاذية الشكلية عن كل مضمون حقيقي • »

فهل يمكن أن يكون مثل ذلك العكس الكامل للمفهوم الأصيل لعصر النهضة صحيحا ؟ أم أن مبحث نيومان المقترن بالذكاء والألمعية في طريقة العرض غير خال من قدر معين من العبقرية ؟ انى ساقتصر هنا على مجرد اظهار بضع اخطاء في مقدمته (*) الكبرى • فمن المعلوم ان فولتير نفسه في زمانه عرف أن النفوذ المباشرة للعلماء البيزنطيين اللاجئين فى احياء الثقافة العليا لا يمكن أن يكون كبيرا • فان أظهر بعض أتباع المذهب الانسانى بعض السمات التى تذكرنا ببيزنطة ، فليس مرد ذلك أن تلك السمات تجيء من بيزنطة • وحتى لو فرض أنه كان لبيزنطة فعلا نفوذ معين على الحياة الأدبية ، فمن المحقق أن « عصر النهضة » لم يكتسب عن تلك المدينة نموذج العهود القديمة في الفنون التصويرية • وأخيرا لو فرض أن الكلاسيكية أدت الى روح التزام اللزمات والى الجمود فى اطواء بيزنطة المصابة بالشيخوخة ، فما أعظم اختلاف أثرها عن ذلك فى ايطاليا ، حيث وقعت على أرض بكر حقا تنبض فوقها حياة شعبية خصبة ناضجة • ومن المقطوع به أن الغاء العنصر الكلاسيكى من « عصر النهضة » لا يمكن أن يساعد على توضيح المفهوم •

(*) يشير الكاتب هنا الى القياس المنطقى فى احتواله على مقدمة كبرى ومقدمة صغرى ونتيجة : المترجم) •

- ٢ - •

ألم يكن الأفضل أن يعمد الناس الى أحد أمرين : فاما التوقف التام عن استخدام مصطلح النهضة في الوقت الحاضر أو اعادته الى معناه الأصلي المحدود ؟ ولا بد أنه قد اتضح مما ألم بذلك المفهوم من تقلبات أن التناقض بين العصور الوسطى » وعصر النهضة » ، الذى لم يبرح بعد من المسلمات الأساسية ، ذلك التناقض لم يحدد بعد التحديد الكافى ، ولو جاز أن يظهر فى النهاية ان له معنى معقولا • وقد اتخذ العلماء على الدوام فكرة غامضة عن « الثقافة الوسيطية » جعلوها نقطة بداية لهم ، وهى فكرة استخدموها باعتبارها النقيض المطلق المقابل للفظة « عصر النهضة » ، بغض النظر عن نتائج التبكير بنهاية العصور الوسطى قليلا أو تأخيرها قليلا ، رغبة فى تيسير ظهور ثقافة جديدة • ومع ذلك فهل حدثت فعلا محاولة جادة فى أى يوم من الأيام لوضع تعريف واضح وايجابى لذلك المفهوم : الثقافة الوسيطية ، التى هى النقيض المسلم به لكلمة « عصر النهضة » ؟ لقد تم منذ زمن بعيد رفض رأى ميشليه الذى يجعل من العصور الوسطى مثابة لكل ما هو راكد وتافه وميت • وفضلا عن ذلك ، فان تضسييق حدود « عصر النهضة » كمفهوم ، لم يكن فحسب غير مرض فى ناحيتها المتصلة بالقرون الوسطى : بل ان العلاقة بين « عصر النهضة » والاصلاح الدينى بوصفهما ظاهرتين ثقافيتين كانت أبعد ما تكون عن التحديد المضبوط •

هذا الى أن أهل الرأى كانوا يتسرعون دائما فى قبول أن القرن الخامس عشر والنصف الاول من السادس عشر ، ينبغى أن يعد « عصر النهضة » بدون تحفظ ، وذلك فى ايطاليا على الأقل • فهل بحث أحد من العلماء بالقدر الكافى كم من العناصر الوسيطية القديمة للثقافة واصلت العيش الى عهد متأخر من القرن السادس عشر بل تجاوزته ، حتى بعد أن علت كلمة الروح الجديدة ؟

وأخيرا هل كانت نهاية « عصر النهضة مسألة منتهية حسم فيها الخلاف ؟ فقد يذكر القارىء أن مصادر ذلك العصر درست بغاية الجد والاهتمام ، غير أن العلماء ظلوا قانعين عادة فيما يتعلق بانتقاله الى عصر البـاروك Baroque والحركة المضادة للاصلاح الدينى Counter Reformation باطلاق التعميمات التي تبلغ حد القول بأن الحركات الهسبانية (*) واليسوعية قد جلبت الموت المبكر على النهضة الحيوية الحقة بايطاليا ، جالبة عليها الانحدار الى درك التمسك باللزمات، وان حدث فى الجهة الأخرى من جبال الألب أن سمح لروح «عصر النهضة» أن يواصل العيش حتى عهد متأخر من القرن السابع عشر • وهنا أيضا احتاج الأمر الى الادلاء بايضاح عما يريد الناس فعلا فهمه من مصطلح «عصر النهضة»، وعن علاقته بالتيارات الفكرية فى القرن السابع عشر •

والحق انه كانت ترتسم وراء هذه المسألة الأخيرة مسألة أخرى : هى أن علاقة « عصر النهضة » بحركة « الاستنارة » الكبرى لم يكن بد من أن تتطلب توجيه الالتفات اليها فى النهاية • فهل كان « عصر النهضة » فجر الاستنارة ؟ وهل هناك رابطة اتصال بين «عصر النهضة» «والاستنارة» أم ان هناك بالحرى تباينا بينهما ؟

لقد راح العلماء يفترضون متعسفين دائما أن ثغرة عظيمة ترقد بين العصور الوسطى « وعصر النهضة » (وان أظهرت الأيام أكثر فأكثر الا سبيل الى العثور على هذه الثغرة) ، وأن رجل « عصر النهضـة » فى حدود أشد سماته الجوهرية يمثل بالفعل الانسان العصرى • ولكن السؤال جرى على النحو التالى : ألا يمكن أن يظهر نتيجة لفحص أكثر دقة أن الخطوط الكبرى الفاصلة تقع على الأقل بنفس الدرجة من الوضوح بين « عصر النهضة » والثقافة الحديثة ؟

ان أحدا لم يقدم حتى اليوم جوابا مرضيا عن كل هذه الأسئلة ، بل ان أحدا لم يكد يشرع حتى الآن فى الرد على بعضها • الحق ان مسألة « عصر النهضة » لم تدرس حتى الآن بأية حال من كل نواحيها •

وفى زمن أبكر من زماننا كان عصر « النهضة والاصلاح الدينى » فى العادة يعتبران معا فجرا لعصر جديد • ولكن ذلك النوع من الاتجاه انما هو الاتجاه التاريخى لأصحاب المذهب العقلانى • ذلك أن جيلا من أتباع المذهب العقلانى التحررى ، لما لم يعد يدرك مدى تباعده عن

(*) الحركة الهسبانية : الدعوة الدينية للكنيسة الاسبانية (المترجم) •

البروتستنتية الباكرة ـ اعتقد أنه مستطيع أن يجد فى هاتين الحركتين التحرير الكبير للروح ، والتحطيم النهائى للأغلال عن الأيدى وازاحة الغشاوات عن الأعين • وبدت الحرية والصدق كانما هما نصيب الحركتين جميعا ، على حال يناقض ماصدر من لاهوت العصور الوسطى وكنيسة العصور الوسطى من خداع واضطهاد • بيد أنه عند المزيد من بحث التفاصيل، لميتمالك العلماء من الحكم بأن مضمون «عصر النهضة وآلاصلاح الدينى» ، لميسيرا متوازيين الا الى مسافة قصيرة جدا• وقد حدث فىفرنسا وحدها أن التيارين فاضا فوق مجرى واحد فى البداية : فان دائرة المحيطين بمرجريت دى نافار ـ نصيرة رابليه وكلمنت ماروه (*) ولوفيفر دى ايتابل (**) ويونافنتور ديسبريه (***) ـ لم تكن تستطيع أن تميز حتى ذلك الحين بين نزعات « عصر النهضة ونزعات الاصلاح الدينى » • على أن ذلك بين نزعات « عصر للنهضة ونزعات الاصلاح الدينى » • على أن ذلك الانسجام بينهما لم يلبث أن انتهى بظهور كالفن ، وترامى الأمر فى النهاية الى أن التباين بين المبدأ الدينى الجديد والثقافة المجددة ، أوشك أن يصير أقوى بتلك البلاد منه بالأقاليم اللوثرية : فبظهور رونسار وزمرته خطت النهضة الفرنسية خطوة التقهقر النهائى وارتمت فى أحضان الكنيسة الأم • فان ماطبع عليه البروتستنت من تقوى متشددة ، وما أخذوا به أنفسهم من تطهر وما لهم من دافع عنيف الى العمل ، بالموازنة لما عليه « الانسانيون » من هدوء بل من عدم مبالاة كثيرا ما اجتمع اليهما الخفة والمرح ـ أمور من شأنها أن جعلت « الاصلاح الدينى وعصر النهضة » أمرين متباينين لا تعبيرين مترابطين عن روح واحدة حقا • ولعل أشد ما فرق بينهما ، الطابع الشعبى الأصيل لحركة «الاصلاح الدينى» ، وذلك بضد النعرة الاعتزالية التى غلبت على النهضة بسبب ما اتصفت به من ارتباط بالبلاط أو تعمق علمى أو حتى عنجهية متعالية أحيانا • لقد كانتا نقيضين متقابلين ، لا كيانا واحدا للثقافة العصرية يسطع ضياؤه ويهدى الناس بشكل مزدوج •

ومما زاد نزعة هذا التناقض بين النهضة والاصلاح الدينى قوة ، ذلك المقال (١) المقنع الذى أصدره ارنست ترويلتش (Troeltsch)

(*) ماروه (١٤٩٥ ـ ١٥٤٤) شاعر فرنسى ولد فى كاهور • (المترجم)

(**) لوفيفر (١٤٥٥ ـ ١٥٣٧) لاهوتى من اتباع كالفن • أول من ترجم الانجيل كاملا للفرنسية • (المترجم)

(***) بونافنتور (توفى ١٥٤٤) رواية وشاعر فرنسى، خادم خاص لمارجريت فرانسوا الاول ، ترك مجموعة روايات • (المترجم)

وأظهر فيه أن الاصلاح الدينى ليس معناه اشراق فجر الثقافة العصرية بأية حال ، وأن البروتستنتية الباكرة انما هى فى حد طبيعتها وفحواها ـ استمرار للمثل العليا الوسيطية الأصيلة للثقافة • وذلك بينما الروح الحديثة التى كتب لها فيما بعد أن تجد أداة التعبير عنها فى حركة الاستنارة وفى فكرات التسامح وفى الايمان بحق الفرد فى ابداء رأيه الشخصى فى كل المسائل المتعلقة بالضمير ، أمور مهدت لها « النهضة » السبيل • والحق ان البروتستنتية الباكرة تعد امتدادا فى عمر العصور الوسطى ، ما دامت نقطة الأبتداء التى يستمسك بها ، هى أن فكر العصور الوسطى يعنى أن يتخذ العقل اتجاها قاطعا محضا يضع الكنيسة ـ باعتبارها الجسم الحى والهيئة المنوطة بالوحى المباشر من الله ـ فى صدر الصورة نصا ، ويعترف بأن الغرض الوحيد للفرد وللبشرية كافة هو بذل مجهوداتهم فى سبيل الخلاص ، دون أن يشغلوا أنفسهم بالحضارة العلمانية بوصفها كذلك • وقد استمسكت البروتستنتية الباكرة بغير تحفظ بالسلطان الاجبارى للمذهب الدينى ونفرت من الحضارة الدنيوية على أساس من مبدأ لا يقل قوة عما فعلته الكاثوليكية الوسيطية • « وازاء هذه الظروف ، يتضح أن البروتستنتية لا يمكن أن تكون الممثل المباشر لبداية العالم الحديث • وانما هى على عكس ذلك تبدو فى الوقت الحاضر كأنما هى تجديد وتقوية لمثل أعلى لثقافة تكبلها الكنيسة بالاغلال أى رد فعل كامل للفكر الوسيطى يلتهم بدايات ثقافة دنيوية حرة ثم انجازها » •

فكأن الاصلاح الدينى اذن فى مناقضة حادة منه لاتجاهات النهضة، يكاد يتحدى الثقافة ويناصبها العداء : وذلك هو مدى ما بلغته وجهة نظر ترويلتش المدهشة • على أنه وقد أذعن بعد ذلك للنقد الذى وجهته اليه جهات كثيرة ، عاد فسلم بأن الاصلاح الدينى تمكن فى نقاط كثيرة أيضا ـ وان لم يكن ذلك هدفه الأول ـ من ايجاد « التربة الجديدة » التى أقيمت عليها أسس الأشكال السياسية والاجتماعية الجديدة : بفضل خروج نصف أوربا من دائرة السلطة البابوية الشاملة • والغاء هرم المناصب الكنسية والنظام الديرى ، وابطال المحاكم الكنسية ، ومصادرة أملاك الكنيسة واستخدامها فى أغراض سياسية وثقافية ، والقضاء على العزوبة واحتراف الزهادة •

ومع ذلك ، فلا يعنينا هنا سلامة مبحث ترويلتش ومدى قدرته على الصمود فى حد ذاته ولا التفريق الضخم الذى أقامه بين أهمية مذهب

كالفن والتعميديين بالنسبة للتاريخ الثقافى من ناحية وبين المذهب اللوثرى من ناحية أخرى (الذى يحقر ترويلتش من شانه الى أقصى حد) وانما الذى يعنينا هو نتائج استبصاراته الجديدة وأثرها فى مسألة عصر النهضة .

فلو حدث حقا أن الثقافة الوسيطية واصلت انسيابها فعلا تحت « عصر النهضة » حتى فاضت فى غدير « الاصلاح الدينى » ، فان الخط الفاصل بين العصور الوسطى « وعصر النهضة » لا ينبغى فحسب أن يرسم رأسيا بل وأفقيا أيضا . ففى تلك الحالة ، لا يكون « عصر النهضة » بداية لعصر جديد الا بدرجة ضيقة والى حد صغير . وتلك هى الحقيقة التى استطاع ترويلتش مهما يكن مبلغ ما فى رأيه فى البروتستنتية من الصحة ، ايضاحها بدرجة تفوق فى وضوحها كل ماتم قبل ذلك : اذ أن « عصر النهضة » لم يحدد بأية حال ثقافة القرن السادس عشر فى جملتها ، وانما ناحية واحدة هامة منها فقط . وان مجرد ذكر أسماء سافونا رولا(*) ولوثر وتوماس مونتسر(**) وكالفن ولويولا(***) لفيه الكفاية لانكار أن لفظة النهضة مرادفة لثقافة القرن السادس عشر . اذ مانحن بحاجة أن نؤكد أن هذه الشخصيات القوية جميعا غارقة لآذانها فى انتسابها الى القرن السادس عشر ، بعيدة كل البعد عن كل صلة « بعصر النهضة » . ذلك أن « عصر النهضة » كمفهوم لا يغطى الا ناحية واحدة من نواحى العملية الفنية للحضارة التى لم تقتصر قبل كل شىء على الفنون والعلوم والآداب . وانما هو يقتصر على تثقيف نخبة ممتازة من الرجال ولا يزيد . ولعله لا يضم تلك النخبة الممتازة الا فى شطر من جوهره المعقد والمتناقض . أما التطور الثقافى فانه يواصل المفيض من دون « النهضة » . فأما « النهضة » فليست الا ظاهرة سطحية جدا ، على أن التحولات الثقافية الحقة الجوهرية فاضت مباشرة من العصور الوسطى (٢) . وعندى مع ذلك أن هذا يبدو ضربا من المبالغة فى وجهة

(*) سافونا رولا (١٤٥٢ ـ ١٤٩٨) صاحب الفكرة فى انشاء جمعية الرهبان الدومينيكيين ، حاول بغير نجاح أن ينشىء بفلورنسا دستورا ديمقراطيا دينيا ، اتهم بالهرطقة واعدم حرقا . (المترجم) .

(**) توماس مونتسر (١٤٩٠ ـ ١٥٢٥) مؤسس طائفة التعميديين .

(المترجم) .

(***) اجناتيوس ليولا (١٤٩١ ـ ١٥٥٦) مؤسس جمعية الآباء اليسوعيين (الجزويت) .

(المترجم)

نظر صحيحة فى حد ذاتها • وسنعاود الآن اقتباس عبارات بركهارت الحكيمة ، ولكن مع مدلول آخر لها فى هذا المقام : « ما كانت النهضة لتصل الى تلك الأهمية العالمية التى بلغتها لو أن فى الامكان فصل عناصرها بعضها عن بعض بمثل هذه لسهولة » • ومع ذلك ، فما يستطيع أحد أن ينكر أن النهضة حلة قشيبة مما يلبس يوم الآحاد •

أم أننا لا نملك حتى الآن الا منظرا للنهضة مفرط الضيق ؟ هل نحن نراها فى صورة اضخم كثيرا بالموازنة الى بناء الثقافة الشعبية الرابض تحتها ؟ وهل عسانا أن نكون مغالين فى تقدير افراطها وسرفها وبالتبعية صفتها العصرية ؟الواقع أنالصورة الحائلة الواضحة التىتصورهابركهارت لا تزال مطبوعة على شبكية أعيننا بشكل لا يمحى — وهى صورة تقوم سماتها على احساس بالشخصية حر لا كابح لجماحه وعلى حمية وثنية نحو العالم ، فضلا عن عدم اهتمام بالدين ، بل احتقار له • ويحتمل أن النهضة نفسها كانت مغرقة فى طابعها الوسيطى بدرجة أكثر مما تعودنا • وبهذه الطريقة لابد أن الثغرة التى تفصلها عن الاصلاح الدينى، والتى تبدو كأنما أصبحت بالغة العرض والاتساع ، سيتجلى أن عبورها ليس — مع ذلك — بالأمر العسير •

ولعمرى أن روح « عصر النهضة » لأقل عصرية بكثير مما يجنح الناس على الدوام الى اعتقاده • وهناك نقطة تناقض ثابتة مقررة بين الثقافتين الوسيطية والعصرية ، هى أن العصور الوسطى كانت تفرض سلطانا ملزما على كل عقل ومعايير قاطعة لكل ما هو فكرى — وليس ذلك بقاصر على ناحية الدين ، وفى أعقابه الفلسفة والعلوم ، بل وأيضا فى مناحى القانون والفنون وأدب اللياقة (الاتيكيت) والتسلية • أما العصر الحديث فانه يقرر حق الفرد فى تحديد طريقة حياته ومعتقداته وأذواقه ولكن أين اذن يقف « عصر النهضة » ؟ المحقق أنه لا يقف فى الجانب العصرى (٣) • اذ أن ما يدمع « عصر النهضة » بميسم الثقافة القائمة على الأسانيد والسوابق القاطعة ، لا يقوم فقط على توقيره الحسير النظر للقديم بوصفه مرجعا ثبتا ومثاليا ؛ بل ان روحه بأكملها مفرطة فى سمتها المعيارية Normative التى تبحث عن موازين سرمدية الصحة لكل من الجمال أو السياسة أو تدبير الملك أو الفضيلة أو الصدق • وسواء تناولنا بالدراسة دورر او ميكافيللى أو أريوستو أو رونسار ، فانهم جميعا يحاولون البحث عن أنظمة للفن أو المعرفة تمتاز بأنها غير شخصية متسمة بدقة التحديد ، وعدم الابهام وكمال التعبير •

ولم يظهر أحـد منهم تنبها الى ما يتصـف به الانســان من حيث أعمق دوافعه من تناقض وتلقائية بعيدة المنال تفوق كل وصف · وهنا تحوم الشكوك ولو للحظة وجيزة ، حول مذهب الفردية في « عصر النهضة » وهو الذى قبله الجميع بلا تحفظ وهل هو الفرض النـافع المفيد كما يبدو فى الظاهر ؟ غير أننا نميل الى اهمال تلك الشكوك فى الوقت الحاضر ·

وقبل أن تحـدد العـلاقة بين « عصر النهضة » والاصلاح الدينى بوضوح ،وجب أن تصلح غلطة خطيرة سرت في ذلك الوقت فى نظـرة الناس الى النهضة ـ وهي الفكرة التي تدور حول طابعها الوثني أو على الأقل المناهض للدين · ومن المقطوع به تماما أن لبركهارت نصيبا كبيرا في تطوير تلك الفكرة · فانه افرد جانبا عظيما من التفاته لدراســة الخصــائص الوثنية في مذهب الانســانيين · ثم ان تأكيده القـوى على الارادة الحرة فى شئون الضمير وغلبة الطابع الدنيوى على رجل « عصر النهضة » ، كانت في حد ذاتها آية كافية للدلالة على أن رجـــل « عصر النهضة » الحق أبعد الناس عن المســيحى الحق فى تفكيره · وفيما عدا ذلك ، الم تكن كتابات الانسانيين ابتداء من بوجيو وفاللا حتى ارازموس ، طافحة بكل الوان السخرية بالكنيسة والرهبان ، دافقة بالتشـــكك والتعالى المتلىء بالعنجهية ! وحتى بيير بايل نفسه في زمانه قد اقتنع بأن هؤلاء الأقوام جميعا لا ينطوون الا على ـ «النزر اليسير من الدين» · واستطاع بركهارت أن يصرح : « بأن الدين بايطاليا فى « عصر النهضة» (عدا ما لعله جاء فى صورة الخرافة) لم يبق حيا حقا الا فى صـــورة الفن » (٤) ·

وهنا ينطوى الموقف على أفكار خاطئة جديدة · ففى المقام الأول ، لم تكن عادة الســخرية من الكنيسة أو رجالها أو التعالى عليهم بعنجهية مقصورة بأية حال على أصحاب المذهب الانسانى ولا اعتبرت موضـــوعا اختصوا به · وانما هى شيء واسع الانتشار جدا منذ بداية أيام الفلسفة المدرســانية Scholasticism ولقـــد بلغ الأمــر أن مذهب ابن رشد Averroism انتشر فى القرن الثـــالث عشر نفسه الى جوار توماس الاكوينى · فحتى فى ذلك الزمان شـــاع فى قاعات محاضرات جامعة باريس وبمدن ايطاليا وبلاطات أمرائها ، وجود جيـل من « زنادقة الصالونات » الذين تفاخروا بنبذهم لفكرة الخلود واستطاعوا أن يقيموا بينهم وبين الكنيسة سلاما رائده الحـذر · وهم القوم الذين حكم عليهم دانتى بالخـلود فى جهنم تحت اسم الأبيقوريين · وكما هو

معروف ، كان جيوتو نفسه موضع تلك التهمة •وليس ثم موضع يتضح فيه ، مثلما يتضح هنا ، كم من العسير على الانسان أن يرســـم خطوطا فاصلة دقيقة فى التاريخ الثقافى • ولا تنس أن دانتى نفسه الذى شهد والد صديقه جويدو كافالكانتى يتسعر فى النواويس المتاججة الى جوار فاريناتا من أوبرتى ، شهد استاذ مذهب ابن رشد ، سيجردى برابانت ينعم فى الفردوس الســـماوى الى جوار توماس نفســـه بين مصـــابيح اللاهوت (٥) •

فاذا أمكن أن يحدث هذا لدانتى ، وجب أن نصـطنع نحن الحيطة والا نسم « عصر النهضة » بمجـــافاة المسيحية على أساس فلذة صغيرة من القدح وطائش الخفة • وفوق هذا ، فان النهضـــة بأكملها لا تتألف بأية حالمن الانسانيين غير الاتقياء أو ذوى السلوك المجرد من التقوى• فلو جاز أن الطبيعة الحقة والمدلول العميق «لعصر النهضة » تجلت حقا فيما اتصفوا به من عدم اكتراث ، فان معنى ذلك وجود ســـخف غريب فى مفهوم تلك الظاهرة الثقافية العظيمة بمجموعها ، وذلك أنه لاشـــك أن كل انسان على دراية تامة بأن فن النهضة بكل ما حوى من سدى ولحمة من الكلاسيكية والتجديف ، كان ولا يزال مسيحيا مادة ومحتوى ، وأنه لا يقل فى ذلك مسيحية عن الفن الوســـيطى قبله وفن الحركة المضـــادة للاصلاح الدينى بعـــده • وسواء تناولنا بالدراســـة الفن الرومانســـكى والقـــوطى ، أو فن ســـيينا وطرائـــق جيـــوتو Giottesque ، أو الفلمنكيين ، أو أبنـــاء الأربعمئات (القرن الخامس عشر) ، او ليوناردو ورفاييل ، أو فنانى فيرونا وجويدوريني ، وواصلنـــا متـــابعتهم صعدا حتى مراقى الباروك فى أعلى ذروته ، لوجدنا أن الهدف المقدس والموضوع المقدس هما على الدوام مصدر الالهـــام الرئيســـى للفن • ويفترض كل انسان أن فن العصر الوسيط تولد عن أعمق مشاعر التقوى • وفوق هذا فان أحدا لا يستطيع الشك فى التقوى الصارمة المخلصة التى امتلأ بها قلب الذين اعتنقوا حديثا المذهب الكاثوليكى الذى نقاه وطـهره مجمع ترنت وجماعة اليسوعيين • وهل يعقل لفن « عصر النهضة » ذاتها فيما بين هذين الأمرين ، أن يكون الطابع الغالب فيه ادعاء للتقوى أو تظاهرا مصطنعا بها الا فى حالة قلة ؟ وهل ينبثق أعظم ازدهار للفن عن أوهى أنواع الالهـــام ؟ أفلا تكون نتيجة ذلك أن يســـتعصى علينا تماما فهم « عصر النهضة » ؟

وبديهى أن الانسان لابد أن يعرف الأمر معرفة أصوب متى تذكر الشخصيات الفردية ذاتها ، مسقطا من حسابه الى حين الفكرة العامة عن اتصاف « عصر النهضة » بالوثنية • فما الوثنية الا القناع الذى ارتداه الأفراد ليحوزوا الامتياز ؛ أما أعمق طوايا الأنفس لدى معظم الشخصيات فقد انطوت على ايمان دينى راسخ الأسس • وربما اتخذنا من تقوى مايكلانجلو البطولية رمزا لما صيغ منه قلب النهضة فى هذه وغيرها من النواحى •

وقد بالغ الناس مبالغة مفرطة فى تقدير عنصر الوثنية فى النهضة • والذى حدث حتى فى أدب الحركة الانسانية ـ وهو المضمار الوحيد الذى انطلق فيه لها العنان ـ هو انها لم تستول على شىء يمكن أن يشابه المكان الذى كان من المنتظر لها أن تحتله • ولاشك أن نورا مبالغا فيه قد سلط على ما سمى بالوقاحات الوثنية ، التى لم تزد غالبا عن موضات جديدة من الطنطنة والتعاظم والثقة بالذات ؛على حين أنالأساس العريض لليقين المسيحى فى مؤلفات الانسانيين ، ذلك الأساس الذى لم يداخله أى وهن رغم ما يشوبه من آراء الرواقيين ، قد ترك مغمورا بدامس الظلام • ولقد تمنى بترارك بوكاتشيو لو وضع العصر القديم بأكمله فى خدمة العقيدة المسيحية (٦) • ولو استعرضت من أعقبهما من شخصيات لوجدت أنهم لم يفصموا مطلقا بين حبهم للقديم الوثنى وبين العقيدة المسيحية ـ الأمر الذى قد يفترضه المرء لو أخذ الأمور على ظواهرها

والآن وقد خففنا على هذا النحو الفكرة التى تتهم « عصر النهضة » بعدم المسيحية ، فان التباين بين عصر النهضة والاصلاح الدينى يفقد الشىء الكثير من حدته • كما أنه يتضح تماما أنه يوجد بين التيارين الثقافيين مر النواحى المشتركة أكثر مما كان يبدو ممكنا ، بالنظر الى التباين العظيم فى موقفهما من الحياة والعالم • وقد أدت أبحاث كونراد برداخ العالم اللغوى الألمانى الى ايضاح أشياء عجيبة فى هذه النقطة حول انتماء الأصول المشتركة لكل من النهضة والاصلاح الدينى الى دائرة فكرات واحدة • اذ أوضح ذلك العالم أن النهضة والاصلاح الدينى (بما فى ذلك الحركة الكاثوليكية المضادة للاصلاح) اشتركا من حيث بدايتهما فى فكرة ، هى توقع الخلاص ، وهى نواة عريقة القدم لفكرة عن التجديد الفكرى • ولا يتضمن ذلك بطبيعة الحال أن الظاهرتين جاءتا نتيجة لتلك الفكرة • فان أحدا لن يرضى أن يحاول قبول تفسير كهذا مفرط المثالية Ultra-idealistic يقوم على نظرة ذات جانب

واحد . والنهضة وحركة الاصلاح الدينى كانتا ثمرة التطورات الثقافية للعصور الوسطى بكل ما حوت من تركيب معقد ، فهما من ثم وليدتا عوامل فكرية واقتصادية وسياسية . بيد أن مما له دلالته الهامة أن الفكرات التى ملأت صدور من تصدوا لشرح الحركتين الكبيرتين انبجست جزئيا عن جرثومة واحدة .

ولست أنكر أننى أهملت قصدا هذه العلاقات أثناء أبحاثى السابقة فى كيف أن التنبه الى الاحياء أو الاسترجاع أو الميلاد الجديد أو التجديد ، ما لبث رويدا رويدا أن تطور عند شراح « عصر النهضة » وقد آن لنا الآن أن نوضح أن فكرة « استرجاع الأدب الرفيع » التى نلتقى بها عند رابليه ، ان هى الا تقليد لأمل أوسع كثيرا فى الاحياء شغل العقول أمد قرون عديدة . والآن صار من الممكن منح الرأى القائل بأن يواقيم من فلوريس هو الطليعة والرائد الأول للنهضة ، موطىء قدم أقوى وأثبت داخل سلسلة من الفكرات يمكن تحديدها بدقة .

وينحصر الأصل فى السلسلة الكاملة للفكرات فيما ورد فى « العهد الجديد » من فكرة عن الميلاد الجديد ، وهى بدورها فكرة مغروسة جذورها فى فكرات التجديد التى أوردتها المزامير وأسفار الأنبياء (٧). ثم ان الأناجيل والرسائل عرفت العقول بأفكار عن التجديد والميلاد الجديد وتجدد التكوين ، وهى أشياء يرتبط بعضها بتأثير الاسرار المقدسة وبخاصة التعميد والعشاء الربانى ، ويرتبط البعض الآخر بتوقع الخلاص النهائى ويرتبط بعضها الآخر بالتحول بالانسان الحى الى حالة النعماء والبركة(٨) وقد استخدمت النسخة اللاتينية من الكتاب المقدس Vulgate مصطلحات الميلاد من جديد Renasci والتجدد Regeneratio والحياة الجديدة Novavita والتجديد Renovari والابداع الجديد Renovatio والاصلاح Reformari .

ثم ان هذه الفكرة الدينية ، القائمة على السر المقدس وفلسفة الحشر والنشور والآراء الخلقية ، اي فكرة التجديد الروحى ، مالبثت أن اكتسبت مضمونا جديدا عندما حدث فى أخريات القرن الثانى عشر ، أن يواقيم الفلوريسى (Floris) حولها الى توقع لتحول جديد أوشك حقا أن يلم بالمسيحية . والحالة الأولى فى العالم ، وهى التى ورد ذكرها فى « العهد القديم » انما هى حالة الشريعة والقانون ؛ والحالة الحالية حال « نعماء وبركة » ، بيد أنها سيعقبها سريعا حالة نعماء أشد وأجزل من النوع الذى يعدنا به انجيل يوحنا (٩) . وقد أسس العصر الأول فى ظل

المعرفة ، وأسس الثاني في ظل الحكمة ؛ أما الثالث فسيكون في ظل كمال المعرفة • والعصر الأول كان عصر عبودية ، وكان الثاني عصر طاعة بريئة ، وسيكون الثالث عصر حرية • وانطوى الأول على الخوف ، والثاني على الايمان ؛ وسينطوي الثالث على المحبة • وقد أضاء الأول نور النجوم ، وأضاء الثاني شعاع الفجر ، وأما الثالث فسيعمه ضياء الشمس• وجلب الأول نبات القراص والثاني الورود ، على حين سيجلب الثالث السوسن • وسينشأ زعيم جديد : بابا عام لأورشليم الجديدة يجدد الديانة المسيحية •

ولست بحاجة أن أبحث هنا الى أى حد أثرت فكرات يواقيم الفلوريسى على القديس فرانسيس الأسيسى ذاته • على أنه من المحقق أن شطرا من أتباعه ، وهم الآباء الروحيون The Spirituals تناولوا فكرات يواقيم بالتفصيل والاحكام • ومن المحقق كذلك أن وعظ الفرنسسكيين وشعر الفرنسسكيين وتصوفهم الديني ، قد تولت نشر فكرة الحياة المجددة Renovatio vitae بين أوسع الدوائر نطاقا ، مع توكيد التركز الآن بدرجة أكبر على التجديد الداخلي للشخص الفرد ، ثم توكيده كذلك بشكل أشد على توقع حدوث حادثة علمانية واقعية تجلب التجديد الروحي وأصبحت كلمتا التجديد والاصلاح كلمة السر الروحية في القرن الثالث عشر •

وعلى هذه الصورة والمعنى تناولها دانتي • ولن يستطاع فهم مراده من كتاب الحياة الجديدة Vita nuova الا على أساس هاته الأفكار • ومع ذلك فالكوميديا الالهية تشهد بأن مفهوم التجديد قد وسع • على أن الفكرة وان ظلت واقعة بشدة تحت نفوذ الآباء الروحيين من أتباع فرانسيس ـ قد اكتسبت في أعمال دانتي أهمية سياسية وثقافية بالاضافة الى معناها الديني • فمن قدر له أن يجيء ، فانه سيجلب السلام ويحرر ايطاليا • والآن وبطريقة بالغة الروعة التقت فكرة الميلاد الجديد للمسيحية بفكرة انتعاش كلاسيكية محضة ، وهي التي وردت في اكلوغة (*) فرجيل الرابعة •

ان التعاقب الأكبر للعصور يبدأ من جديد • فالعدالة ، العذراء تعود لتعيش معنا ، وقد عاد حكم الاله ساترن (**) سيرته الأولى• فالابن البكر للعصر الجديد منطلق فعلا في طريقه من السماوات العلى الى الارض•

(*) الاكلوغة Eclogue : مقطوعة شعرية قصيرة (المترجم)

(**) ساترن أوزحل : هو اله الزراعة عند الرومان • وقد عم في عهده العدل والرخاء • (المترجم)

ولا يخفى أنه حتى أقدم رجال اللاهوت المسيحي أنفسهم فسروا هذه الكلمات بأنها نبوءة بميلاد المسيح ، غير أن دانتي ربطها آنئذ بالتجديد السياسي الذى توقدت نفسه بالرغبة فيه والتجديد الجمالى الذى أحس بوجوده واضحا في زمانه .

وقد اتخذ كل من دانتي وبترارك من « روما المعولة بالنحيب » رمزا للعالم المتحرق شوقا الى التجديد والتحرير . وهو رمز يتسم بكثرة الثمار ودنو القطوف ، وذلك لأن روما يمكن أن ترى في أى عدد من الأدوار مهما كبر . فترى بوصفها عاصمة ايطاليا المعرضة لضغوط ما بين الأحزاب من خصومات وعنف ؛ وبوصفها مركزا للكنيسة المحتاجة الى التنقية جسما ورأسا ؛ وباعتبارها موضع الفضيلة الحضرية الكلاسيكية والثقافة الكلاسيكية : « روما التى شادتها الدنيا الطيبة لتكون مثابة للانسان .... » (١١) وواضح أن أساس الصورة كان على الدوام الفكرة التى تذهب الى أن العودة الى قديم الأزمنة تجلب الخلاص.

ولم ينقض طويل زمن حتى نهض حالم متحمس هو كولادى رينزى فحول ذلك الانشغال الشديد بروما القديمة الى اساس لعمل سياسى . وكما أوضح برداخ ، كان لباب ما أورده ذلك التريبيون الشعبى من فكرات فى خطاباته العجيبة يتألف من فكرتى الميلاد الجديد والتجديد Renasci, Renovari بصورة يقوم نصفها على المعنى التصوفى (المستيقى) الدينى ونصفها الآخر على المعنى السياسى . وقد سقط رينزى نتيجة لضعفه ، وسقط معه عمله الذى ظهر فى غير أوانه ، ولكن رمز روما المولودة من جديد Roma rinata ظل حيا وملأ عقول الأجيال التالية . وجاء وقت سيطرت فيه على ذلك الرمز فكرة العودة الى نظم روما القديمة وفضائلها ، وجاء آخر سيطرت فيه فكرة استرجاع اللاتينية النقية والفنون الرفيعة ، وجاء وقت آخر أيضا رانت فيه الفكرة المرغوبة ببالغ الحماسة فكرة تنقية الكنيسة والعقيدة من كل شائبة . ومن هنا يتجلى أن كلمات التجديد والاحياء والنهضة صارت بالفعل مناط التشوق والاهتمام لعصر بأكمله وأصبحت حنينا شديدا الى قديم الفخامة ، حتى قبل أن حدثت التحولات الايجابية فى الفن والعلم والحياه التى سنلخصها فيما بعد تحت عنوان تلك المصطلحات . وما أن أصبحت العقول متنبهة الى نشوء تجديد حق للأشياء المحيطة بهم والمتمثلة فيهم ، أى بمجرد أن احسوا أنهم شراح مثل فنى أعلى جديد وذوق أدبى أكثر امتيازا ووسيلة ثرية للتعبير ، وموقف أحفل بالجرأة

على نقد التقاليد والروايات المقدسة ، حتى وجد ذلك التنبه يدا تمتد اليه بالتصنيف وتضعه تحت بريق المثل الأعلى للاحياء الموجود فعلا . فلما بدا النبع يفيض كانت اليد تمتد فعلا بالابريق الذى يتلقى ماءه الصافى .

وهكذا يشهد المرء الانسانيين فى جانب ودعاة الاصلاح الدينى فى آخر وهما يستخدمان مفاهيم الاسترجاع والميلاد الجديد ، وهى تطبيقات وتحديدات جزئية لما كان فى الأصل فكرة عريضة جدا تدور حول التجديد . ولو تأملنا دائرة العالم زوينجلى (*) لرأينا لفظة النهضة قد أوشكت حين طبقت على المسيحية والأناجيل ، أن تصبح شعارا (١٢) . وقديما صاح ميلا نكتون : «ما أسعدنا لو أمكن أن تولد الدراسات الصائبة من جديد بفضل الآلهة» . وتنغمر الناحية الخلقية والدينية والناحية الجمالية والأدبية للمثل الأعلى للنهضة احداهما فى الأخرى دون أى حد واضح يفصل بينهما (ولاشك أن لفظة « الآلهة » البسيطة التى أوردها ميلا نكتون بصيغة الجمع تنطوى على مجلدات : لا بالنسبة للسمة الوثنية للمذهب الانسانى بل من حيث سمته المسيحية) . واليكم ما كتبه صديق الى زوينجلى : « فالآن تزهر من جديد الاستقامة والأمانة والعدل وبكلمة واحدة ، الانجيل الذى اختفى فى غياهب الظلمات زمنا طويلا فالآداب تولد من جديد Renascuntur ويرجى أن يجىء اليوم الذى تولد فيه طهارة الأولين ثانية ، مثلما نشهد الميلاد الجديد لحضارتهم » . وقد كتب المصلح السويسرى بنفسه الى بياتوس ريناتوس . ثم قدم ارازموس الذى انبجست عنه هذه الأفكار لأول مرة الى تلك التوقعات الثلاث الكبرى ، فوضعها جنبا الى جنب فى رسالة بعث بها الى البابا ليو العاشر تاريخها ١٥١٧ :

ان هذا عصرنا ، الذى يبدو محتملا أن يكون عصرا ذهبيا ، ان حدث يوما أن وجد مثله ، الذى أشهد فيه تحت رعايتكم السعيدة ، وبفضل نصائحكم المقدسة ، أن ثلاثا من بركات الانسانية أوشكت أن تعاد اليها . وأعنى بهن : ــ أولا تلك التقوى المسيحية الحقة التى دب فيها البلى من كثير من الأوجه ، وثانيا : ــ قيام

(*) اولوينح زوينجلى (أو بالحرى تسفنجلى ١٤٨٤ ــ ١٥٣١) بروتستانتى سويسرى ولد فى سان جال ، وهو فى الاصل قسيس كاثوليكى ، ولكنه صار من دعاة الاصلاح الدينى فى سنة ١٥١٩ ، وقاد حركة الاصلاح بسويسرة (المترجم)

علوم ادبيـــة من أرفع الأنواع (وهي هنــا أفعل التفضـــيل من bonae Literae) ، وهي شيء لا يلقى حتى الآن الا الاهمال من ناحية والفســـاد من ناحية أخرى ، وثالثا : ـ الوفاق العلني والدائم للمسيحية مصدر التقوى واللوذعية وأمهما • (١٣)

وعندنا ونحن ننظر الى الخلف ونحكم على الأشياء حسب نتائجها ، ان مسافة الخلف بين شعبتي الانسانيين: المستمسكة منهما بالأدب القديم والمعتصمة منهما بالكتاب المقدس ، تبدو أضخم مما كانت فعلا • اذ الواقع أن الفكرة التى ألهمت الجانبين مدموغة بنفس الطـــابع ، وان كان عقل احدى الشعبتين أقل تقى من عقل الأخرى • على أنهما كليهما مشرب الفكر بحنين الى نقاء القديم ، وصفاء العصور البدائية وبطموح الى تجديد نفسيهما من الداخل • وسواء أوجهت تشوقاتها نحو المسيحية البدائية ، أم نحو روما النبيلة الجيدة الادارة والحـكم لعهد آل كاتو وآل سكيبيو وأقرانهم أم الى اللاتينية الفصحى ، أم الشعر البالغ حد الكمال ، أم الفن المكتشف ثانية ، فان ذلك كله كان على الدوام حنينا الى العودة بالزمان نحو الخلف : أى الى اعادة التجديد Renovatio والاسترجاع Restitutio واعادة الأمور الى نصابها Restauratio .

على أن الدراسة الدؤوب لتطور فكرة « عصر النهضة » ، التى لم أقدم لكم عنها آلا عجالة سريعة ، ـ لها أيضا أخطارها • فكل من سولت له نفسه التعمق فى دراسات من النوع الذى أخذ به نفسيهما برداخ وبورينسكى(اللذان يتصيدان حتى فى أبعد أركان الأدبالكلاسيكىوالوسيطى وأعمقها غورا حلقات وروابط فى السلسلة الكبرى لفكرة الاحياء) ، لن يستطيع على الدوام أن ينفي عن نفسه الاحساس بأنه بالرغم من ذلك كله ، فان مشـــكلة عصر النهضة نفسه ـ أى مســـألة ماذا كان ذلك العصر ، ومم تألف ـ تتعرض فى بعض الأحيان لخطر الاضمحلال والتراجع الى الخلفية • ومن النـــافع الى أقصى حد والذى لا غنى عنه للوصول الى فهم صحيح للموضوع ، أن نعرف كيف تطورت فكرة الاحياء وعاطفته ، ومع ذلك فالسؤال الهام الذى ينبغى لنا العودة اليه سيظل كالتالى : ماذا كانت بالفعل حقيقة ذلك التحول الثقافى الذى نسميه « النهضة » ؟ ومم تألف ؟ وماذا كان أثره ؟

وقبل امكان الاجابة عن هذه الأسئلة ، هناك شرط مسبق لم يتم حتى الآن تحقيقه : هو الوصول الى تعريف واضح للكلمتين المتعارضتين « العصور الوسطى ـ والنهضة » • وشرط مسبق ثان لم يحقق هو

الآخر الا بدرجة أقل : وهو وضع تعريف واضح بالمثل للعلاقة بين عصر النهضة والثقافة العصرية ·

وقد أدلينا اليك أعلاه بوصف يوضح كيف تعرض مفهوم « عصر النهضة » لخطر فقدان كل محتوى لأن العلماء رأوا أنفسهم مطالبين بدفعه الى الخلف أكثر فأكثر في أعماق العصور الوسطى · وكلما ازداد عدد ظواهر العصور الوسطى البارزة التي ادعى الدارسون أنها من أصول ومصادر « عصر النهضة » ، ـ زاد تعرض صورة الثقافة الوسيطية للذوبان والانصهار كأنما هي تمثال من الثلج · وانتهى الأمر بأن أطلق اسم « عصر النهضة » على كل شيء كان حيا في العصور الوسطى · واذن فما الذي تبقى بعد ذلك من العصور الوسطى نفسها ؟ ألم يكن من الممكن أن يبدأ العلماء أولا بتحديد الخواص الجوهرية للروح الوسيطية الحقة في كل أشكال تعبيرها : ـ الدين والفكر والفنون والمجتمع ـ ثم يثنون بعد ذلك بتعقب النقاط التي انفصل عندها « عصر النهضة » عن ذلك كله ؟

ان هناك طريقة لمعالجة هذا الأمر ترى أنها مستطيعة أن تستشف الفاصل الكبير والتضاد الجوهري بين العصور الوسطى و «عصر النهضة»، وانها قادرة على وصفه وصفا دقيقا · وهي معالجة ، مبلغ علمى أنها لا توجد في الأدب الأكاديمي الذي خلفه لنا مؤرخو الثقافة والفنون ، ولكنها حية في صورة اعتقاد مثمر في قلوب كثير من فنانينا المعاصرين · فمن ذا الذي يجرؤ أن ينكر عليهم الحق في الادلاء بصوت في مثل هذه المسائل ؟ ولو وجب على أن أذكر اسم شخص بث الحياة في هذه المعالجة ، فهو فيولليه لودوك ، الذي ربما ضممنا اليه وليم موريس · وخلاصة الرأى في تلك المعالجة هي التالى : ان العصور الوسطى هي في كل نواحيها فترة الفكر التوليفى synthetic والاحساس القوى بالمجتمع · ذلك أن الجوهر الحق للثقافة الوسيطية انحصر في فكرة البناء الجماعي · فكان الفن منتبها الى أن واجبه أن يمنح الشكل لأرفع الفكرات ، وليس ذلك ابتغاء الابتهاج الذى لا طائل وراءه ولا اللهو الشخصى ، بل ابتغاء التعبير السامى لما له من أثر في كل انسان · ومن ثم فان الفن البصرى جميعه أخضع لفن العمارة واتصف بالرمزية والضخامة ؛ فلم يحدث قط أن كانت محاكاة الواقع الطبيعى هي الهدف النهائى · اذ أن أسرار ما للتناسبات الهندسية من القوة التكوينية الخفية، كانت لاتزال معروفة ومطبقة · فانتصرت الروح الوسيطية الأصيلة في الكاتدرائية الرومانسكية ، بل حتى في القوطية المبكرة ، فضلا عن

الفسيفساء البيزنطى ، مثلما انتصرت فى المهـــارات الفكرية التى بلغها توماس الأكوينى وبرزت فى رموز التصوف المستيقى ٠

وبناء على هذه النظرة الى الامور لا يكون لقدوم « عصر النهضة » من معنى سوى اضعاف هذه المبادىء جميعا وضياعها بأسرها من قبضة البشرية ٠ وبمقتضاها يحل الفرد الطموح محل المجتمع المتعاون (وهنا تمس هذه وجهة النظر مبحث بركهارت) ٠ والواقع أن مذهب الواقعيــة الشخصية الذى اتخذه جيوتو يدل بالفعل على وجود اضمحلال ٠ ذلك بأن فنا تحليليا يرسم الحقيقة بنصها أفرط فى نموه حتى عرقل الفن الرمزى التوليفى القـــديم ٠ وحتى التصوير الجصى (الفرسكو) نفســه انطوى على احكام ما لا أهمية له من التفاصيل ، بيد أنه احتفظ على الأقل بعــلاقته بفن العمــارة ٠ وذلك بينما نبــذت اللوحة المصــورة panel تلك العلاقة نبذا كاملا : وأصبح التصوير عملية تأثيث وسلعة تشترى، وغدا ضربا من التحف الفنية الممتازة بدل أن كان لبنة فى كائن عضوى روحى ٠ وما مذهبا الفردية والتمشى مع الطبيعة (وهما يعتبران من الخصائص الثابتة « لعصر النهضة ») الا مجرد أعراض مرضية فى عملية ضخمة من الانحلال ٠

ولعل من المحال أن ننـــكر أن هذا الرأى ـ وقد قصر على تطور الفنون البصرية ـ انما يحتوى على عناصر من الصدق العميق ٠ ولا شك أن رأيا كهذا فى العصور الوسطى ، مؤسس على ادراك وتمييز لأهم عنصر يحدد ثقافة تلك المدة ٠ بيد أنه يبتر ويبسط ما بالتاريخ من مادة غنية غير متجانسة ، ولا يزال بها حتى تصبح غير ذات فائدة كأداة تســـاعد على فهم التاريخ ٠ ومكانه هو مجموعة الازدواجات الميتافيزيقية الكبيرة ، وهى أشياء ثمينة كدعائم للحياة ولكنها غير صالحة للاستخدام بوصفها مميزات أكاديمية يأخــذ بها العــلماء ٠ ويعرف كل من له المام بالتاريخ الوسيط فى أى قدر من التفصيل ، أنه مادة تقاوم التلخيص تحت فكرتى المذهب الجماعى collectivism والتركيب التوليفى Synthesis والواقــع أن الاعتقــاد بأن الأناشـــيد الملحمية الفرنســية القـــديمة Chansons de geste والكاتدرائيات هى ثمرة روح شعبية تعمل بصورة خفية وغير شخصية ، انما هو ميراث عن المذهب الرومانتيكى ٠ وقد نبذه علماء العصور الوسطى من زمن بعيد ٠ ففى كل موطن تســمح لنا فيه المصادر الهزيلة بأكثر من لمحة خاطفة الى الطريقة التى ظهرت بها ثمرات الروح الى حيز الوجـــود ، يبرز الأفراد فيه الى المقدمة ، ومعهم أفكار وأطماع واضحة السمة الشخصية ٠ فكيف يستطيع أى انسان أن يدعى

يوما وجود المذهب الفردى فى « عصر النهضة » ، مع وجود أشخاص مثل أبيلارد وجيبرت دى نوجنت وبرتراند دى بورن وكريتيان دى ترويس وولفرام فون ايشنباخ وفيللاردى هونكور ، وعشرات غيرهم على الجانب الآخر من الخط الفاصل ؟ ولكى يتمسك الانسان بفكرة قيام العصور الوسطى على المذهب الجماعى والتركيب التوليفى بكامل الصحة الدقيقة التى تتطلبها وجهة النظر تلك ، يضطر أن يبدأ عمله باستبعاد ثلاثة أرباع الانتاج الفكرى بأسره فى العصر الوسيط وقصر جهوده على مدة مبكرة جدا لا يوجد حولها الا مصادر قليلة ومعلومات أقل ، بحيث لا يرتكز المبحث بعد ذلك الا على أساس مفرط السلبية • والبناء الاجتماعى والاقتصادى نفسه للحياة الوسيطية لا يمنحنا من الدعم ما نتوقعه ، ففى هذا المجال أيضا ، أوضحت الأبحاث الحديثة وجود عدد من سمات مذهب الفردية فى مواطن لم يكن أحد يشهد فيها قبل الآن بقليل سوى المذهب الجماعى وحده(١٤) •

هذا الى أن رفض هذا النوع من التقسيم الباث الواضح الحدود بين العصور الوسطى و « عصر النهضة » يؤثر أيضا فى عبارة لامبرخت التى كانت لها روعة يوما ما وهى فن العالم القديم **Kulturzeitalter** والتى تتعلق بهاتين الفترتين • وعندما ارتفع لامبرخت بالعصور الوسطى حتى جعل منها « العصر الطرازى » كنقيض لعصر الفردية الذى أعقبها ، فان الذى فعله حقا أنه اقتصر على مجرد تناول ما ارتآه بركهارت فى مذهب الفردية ، حيث اتخذ منه الخصيصة الأساسية « لعصر النهضة » واعتبر كل ما يناقضه صفة من خصائص الفترة الثقافية السابقة • اذ كان المفروض أن رجل العصور الوسطى بعكس سليله ابن النهضة كانت عينه تدرك فيما حوله الطرازى فقط من الأشياء ، يعنى السمات العامة التى توحد الأشياء جميعا ، ولكنها لاتدرك الشىء النوعى المحدد الذى يقتاد العقل الى التفاعل مع كل شىء على حدته • وقد اعتقد لامبرخت أنه استطاع أن يصف الحياة الفكرية الوسيطية بأكملها بفكرته الوحيدة تلك وهى « الطرازية » ، التى لم تكن فى الواقع سوى عكس « الفردية » •

وقد انقضى زمان نظرية لامبرخت هذه ، وليس هذا موطن مناقشته الحساب تفصيلا ؛ وعلى مبلغ علمى ، لم يعد أحد يستعمل لفظة « العصر الطرازى » التى أوجدها • فقد أصبح الناس جميعا يدركون أنه لا جدوى من انكارنا على العصور الوسطى كل أثر لوجود النزعة الفردية •

وسيقول بعضكم ان هذا حق ؛ بيد أن هذا لا يغير شيئا من حقيقة أن « عصر النهضة » هو عصر مذهب الفردية فى أروع صوره ، وأن الفرد

لم يجعل نفسه يوما أساسا لأفكاره وأفعاله الشخصية أكثر مما فعل فى أثنائه • وحتى لو فرض أن لم تكن فكرة من يصفون العصور الوسطى بالجماعية والتركيب التوليفي سليمة بالمعنى الدقيق الذى ظنه الناس ، فان الفردية تظل الصفة الأساسية والجوهر الحقيقى « لعصر النهضة »•

غير أن هناك احتجاجا لابد أن يدرج هنا أيضا ضد هذا الاعتقاد • فان من الخطأ متابعة بركهارت فى اعتبار مذهب الفردية السمة الأساسية الشاملة السيطرة « لعصر النهضة » • فهى فى خير أحوالها سمة واحدة بين كثيرات ، تعترضها سمات أخرى مناقضة لها تمام المناقضة ، والحق ان التعميم غير المدعم بالأسانيد هو وحده الذى استطاع الارتفاع بمذهب الفردية حتى جعله المبدأ الوحيد الذى يفسر « عصر النهضة » •

واثبات هذه النظرية ، أو اساغتها فى العقول ، ربما ظل موضوعا لدراسات تالية ، لو أن المرء منا سلم في اللحظة الحاضرة بصحة قولهم ان المرء ينبغي له أن يبدأ على كل حال بالتخلى عن عبارة اصطلاحية واحدة في سبيل تفسير « عصر النهضة » بأكمله • وينبغى للعالم أن يفتح عينيه بأقصى اتساع لهما ليتبين الوفرة البالغة بل حتى المتناقضات الكثيرة فى الصيغ والأشكال التى عبرت عن « عصر النهضة » • وما دام المذهب الفردى يبدو وأنه ظل طويلا عاملا مسيطرا فى التاريخ قبل « عصر النهضة » وبعده بكثير ، فان الأفضل لنا أن نعتبره من المحظورات والتابوهات التى ينبغى التباعد عنها •

ونعود الآن الى القول بأن « عصر النهضة » كمفهوم ليس محددا لا من حيث حدوده فى الزمان ولا من حيث طبيعة وجوهر الظاهرات التى تشكله • فالمصطلحات التى عليها أن تحدده لا يمكن استعارتها من تاريخ « عصر النهضة » نفسه • ولا بد من المباعدة بين القوائم والعلامات التى تدل على حدوده • وينبغى لنا أن نضع الثقافة العصرية قبالة العصور الوسطى • وينبغى لنا أن نسأل : ما هى مميزات الثقافة التى يمكن أن تسمى بالوسيطية ؟ وما هى السمات الأساسية التى تتباعد فيها الثقافة العصرية من الوسيطية ؟ ان «عصرالنهضة» انما يقع بين الاثنتين • وكثيرا ما يسمى باسم فترة الانتقال ، على انه يوضع مع ذلك بصورة لا ارادية فى الجانب العصرى أكثر مما ينبغى • اذ من المعلوم أننا كانما نساق بصورة لا مناص منها الى سبق الزمن فى أحكامنا التاريخية • ويبلغ من شدة حساسيتنا بالعلاقات التى نميزها بين الماضى وبين ما تطور منذ أيامه الخوالى الى اليوم ، وأصبح مألوفا لدينا ، أننا نكاد نغالى دائما فى

تقدير قيمة العناصر الجديدة المنبثقة في احدى الثقافات • ولا بد للمصادر نفسها من أن تصحح آراءنا المرة بعد الأخرى ، تلك المصادر التى تظهر لنا الفترة تحت الدرس فى صورة أكثر بدائية بكثير ، ومحملة أكثر مما توقعنا بالتقاليد والروايات التاريخية المتراكمة •

ان « عصر النهضة » يعد تحولا للتيار • والصـــورة التى تمثل الانتقال من العصور الوسطى الى العصور الحديثة ليست صـــورة دورة واحدة لدولاب عظيم (وكيف تملك الا أن تكون كذلك ؟) ، وانما هى صورة سلسلة متعاقبة من الموجات تتدافع فى البحر حتى الساحل ، كل منها تعلو وتتكسر عند نقطة مختلفة ولحظة مختلفة • والخطوط الفاصلة بين القديم والجديد مختلفة فى كل مكان ؛ وكل شكل ثقافى ــ أى كل فكرة ــ يدور ويتقلب فى وقته المعلوم ، فكأن التحول لا يمكن مطلقا أن يكون تحولا ألم بكامل التركيب المعقد للحضارة •

ونتيجة لهذا ، فان تعريف «عصر النهضة» من حيث علاقته وموقعه بين العصور الوسطى والثقافة العصرية ، سيصبح واجبا لا بد من عدد كبير من العلماء للقيام به • وفى هذا المقام الذى لا أعنى فيه الا بالحالة الحاضرة للمشكلة ، استجيز لنفسى أن أقصر جهدى على تخطيط عابر للخطوط التى ينبغى لبحث كهذا اتباعها ، وبخاصة خارج حقول الفنون والآداب بالمعنى الدقيق (١٥) •

وعندما ابتدأت الفترة الحديثة ، وذلك وفق ما تقتضـــيه عادتنا (التى لا غنى عنها) من تقسيم التاريخ الى فترات أو عصور ــ لم يكن شىء من أشكال الفــكر الوســيطية الكبرى قد خمد بعد • ففى كل من العقيدة القديمة والجديدة (وفى كل شىء يتصل بهما ، وبالتبعية أيضا فى « عصر النهضة » بما حوى من ركاز من المواد الدينية) حافظت طريقة التفكير القائمة على الرمز والسر المقدس على نفسها (وهى طريقة لا تبادر أولا وقبل كل شىء الى الاستفهام عن العلاقة العلية الطبيعية بين الأشياء ، بل عن دلالتها وأهميتها فى الخطة التى وضعها الله للعالم) • وهناك شكلان أساسيان للفكر الوسيطى اضـــمحلا بغاية المهل ، همـــا المذهب الصورى Formalism والمذهب التشبيهى Anthropomorphism ولم يكن مكيافللى أقـــل أخذا دقيقـــا بالمذهب الصـــورى من البابا جريجورى الســـابع • وكان معنى البـــحث عن الصـــدق واكتشاف المعرفة لدى العقل الوسيطى ، التدليل بالبرهان المنطقى عن صـــنوف معلومة ومستقلة من الصدق ، سواء أكانت هذه الصنوف ظاهرة تحت

ضوء النهار أو عميت علينا في الوقت الحاضر ، لأن المصادر القديمة الأصيلة قد عفى عليها النسيان • فالصدّق بأجمعه المتعلق بأي شيء ، كان يمكن التعبير عنه ببضع صيغ وتراكيب منطقية ، كما أن الوحي أو التجلي من الممكن العثور عليه في مكان ما ـ اما في الكتب المقدسة واما في تراث العصور القديمة • فهذه اذن هي الطريقة التي تصورت بها العصور الوسطى الدافع الى الصدق والمعرفة • على أن هذا الدافع نفسه لا يقوم في العقل الحديث الا على أساس التقدير والتطوير والتحديد لصنوف الصدق التي لم يتم التعبير عنها بعد ، وكل منها بدوره يثير أسئلة جديدة • ذلك أن البحث الاستقرائي ، أعني النظر الى الطبيعة والعالم بوصفهما سرا لابد من كشف الستر عنه ـ هو منهاج المفكر العصري في مقاربته لعمله • ولكن هل جاء هذا التغير في الروح بمجيء « عصر النهضة » ؟ كلا بالقطع • وربما كان ليوناردو دافنشي هو نفسه ممثلا للطريقة العصرية في البحث عن الصدق والحقيقة ، بيد أن النهضة كانت في مجملها لا تزال جانحة نحو الاتجاه القديم ، من حيث الاعتقاد بالمصدر الثقة والاعتماد عليه • ولم تظهر نقطة التحول الا بظهور ديكارت (١٥٩٦ ـ ١٦٥٠) •

ثم جاءنا كوبرنيق باكتشافاته الفلكية بفكرة العالم غير المحدود • ولكن ليس معنى ذلك القول بأن النظرية القائلة بمركزية الأرض ومركزية الانسان قد انهارت على الفور في القرن السادس عشر • فان « عصر النهضة » كان يجعل من الأرض والانسان قطبا ومحورا للعالم مشفوعين بتأكيد اختلف عما في رأي العالم الوسيطي من تأكيد ، ولكنه لم يكن أقل منه قوة • ولعمري ان أشد الأفكار حفولا بمركزية الانسان وهي النظرية الغائية (*) Teleological التي تجعل من الخليقة وسيلة حكيمة لتهذيب الانسان وابتغاء مصلحته ، لم تزدهر الا في القرن الثامن عشر • أم ان الحقيقة أن من المحال علينا بحكم الطبيعة التخلي عن جعل الأرض والانسان مركزا للأشياء ؟

والحد الزمني الفاصل بين تخلي العصر الوسيط عن العالم ، وبين قبوله اياه أثناء حقب الفكر الأحدث عهدا ، بعيد من الوضوح بنفس الدرجة • ومن أيسر الأمور تصور أن العصور الوسطى في مجملها آمنت باحتقار العالم Contemptus mundi ، وأنه على حين فجأة وبمجرد

(*) النظرية الغائية هي مبحث العلة الغائية (في الميتافيزيقا) الذي يقوم على ان العالم مرتبط بعضه ببعض ارتباط علة بغاية • (المترجم)

ظهور عصر النهضة عزفت الأوكسترا بأكملها نشيد الابتهاج الذى يصدح بأن من المفرح أن يكون الانسان حيا Luvat vivere ، ولكن الحقيقة تختلف عن ذلك اختلافا بعيدا • غير أن الواقع انه لم يحدث قط أن الفكر الوسيطى للمسيحية قد رفض العالم يوما بما حوى من جمال ومسرات بالصورة الكاملة القاطعة التى تفترض عادة • فان الاستمتاع بالعالم منح مكانا مشروعا بالف طريقة وطريقة فى الحياة التى يرضى عنها الله • كما أن نظرة جمالية متفائلة الى العالم أخذت تخترق ظلمات الانكار القديم حتى عند ذوى العقول الممثلة للمدرسانية وهى فى ذروة أوجها : مثل توماس الأكوينى ودانتى • حقا انه فى هذه النقطة بالذات ، كان « عصر النهضة » هو الصوت الذى غنى لحن الابتهاج الجديد الكبير بالعالم ، بأصوات بيكو ورابليه وعشرات غيرهما • ولكن هل سيطرت تلك الأصوات على عصرهم ؟ من المحقق أنهم لم يستطيعوا أن يغطوا على أصوات لوثر وكالفن ولويولا • وهل من المحقق تماما أن لحنهم هو صوت « عصر النهضة » فى جملته ؟ أم أن النغم الأساسى لمعظم من يمثلون « عصر النهضة » لم يكن أشد عمقا بكثير مما نتصور ؟ فكأن انتصار التفاؤل الأساسى لم يجىء هو أيضا الا مع قدوم القرن الثامن عشر (فهل تراه كان انتصارا بيروسيا ؟) (*) والمشكلان اللذان تجسد فيهما الفكر المتفائل ، وهما فكرتا التقدم والتطور ، لم يكونا كلاهما من أشكال « عصر النهضة » • وفى هذا أيضا لا يمكن بحال وضع « عصر النهضة » على مستوى واحد مع الثقافة الحديثة •

ومن الأمور الغريبة عن عقلية العصور الوسطى مجموعة كاملة من الآراء المتعلقة باتجاه الفرد من الحياة والمجتمع ، وهى آراء تعتبر أساسية نوعا ما لدى الثقافة العصرية • فمنها اتخاذ عمل الشخص فى حياته هدفا فى حد ذاته ، أى محاولة المرء التعبير عن حياته وشخصيته بتطويره تطويرا شعوريا جميع ما له من قدرات وما فى امكانه من قوى ؛ ومنها التنبه الى الاستقلال الشخصى ، والوهم القاتل المتمثل فى حق الانسان فى السعادة الأرضية ؛ وما ارتبط بذلك كله من مسئولية الفرد نحو الجماعة البشرية ، وهى الفكرة التى توجه العمل الشخصى نحو المساعدة على وقاية تلك الجماعة والمحافظة عليها أو تغييرها وتحسينها ، ومنها الدافع

(*) فى ذلك اشارة الى النصر الباهظ التكاليف الذى أحرزه بيروس ملك أبيروس اليونانى أحد أقرباء الاسكندر الاكبر على الرومان . «انظر معالم تاريخ الانسانية» مج ٢ ص ٤٢٠ ط ٣ • (المترجم) .

الى الاصلاح والرغبة فى العدالة الاجتماعية ، وهو يتجلى فى الحالات المرضية لبعض الأشخاص فى صورة الشكوى الأساسية والدائمة من المجتمع مهما يكن النظام السائد فيه ، تلك الشكوى التى تعبر عن نفسها بشكل احساس بالظلم أو شعور بالتعالى على المجتمع ـ كل هذه الانفعالات أمور اما أن يكون رجل العصور الوسطى لم يعرفها على الاطلاق أو لم يعرفها الا فى ثوب الواجب الدينى والأخلاق الدينية ٠

فماذا عرف « عصر النهضة » عن تلك الأشياء ؟ انه لم يعرف عنها ما يتجاوز الجرثومة ٠ نعم ان انسان « عصر النهضة » ملك شيئا من الاحساس بالاستقلال الشخصى أو الأهداف الشخصية وان لم يكن ذلك الاحساس بأية حال بالشكل القوى ولا العام الذى عزاه اليه بركهارت ٠ ولكن يمكن أن يقال ان عنصر الغيرية بأجمعه فى هذا العرجون الكبير من الأفكار ، أى الاحساس بالمسئولية الاجتماعية كان غير موجود الى حد كبير ٠ « فعصر النهضة » كان من الناحية الاجتماعية يتصف ببالغ الجدب والجمود ، فهو من هذه الناحية يعد فترة ركود آسن أكثر منه احياء وانتعاشا جديدا بالموازنة الى العصور الوسطى وما تم بها من تنبه اجتماعى قائم على الدين ٠

ومن أهم أوجه الخلاف وأشدها جوهرية بين الثقافة الوسيطية والعصرية التحول الذى ألم بمفاهيم الطبقة والخدمة والاحترام ، فضلا عن الالمام الاضمحلال بها الى حد ما ٠ وهذه التغيرات من شديد التعقيد بحيث لا يعود هناك محل للتفكير فى رسمها هنا٠ وكل ما فى الامكان هو مجرد اشارة موجزة الى نتيجتين معروفتين بصفة عامة لتلك العملية بقصد تبيان أن النهضة فى هذا الحقل أيضا لا يمكن بأية حال أن توضع على نفس المستوى مع الثقافة العصرية ٠ وعندى أن العملية الكبيرة من التجريد التى عمدت ، بدلا من مواصلة النظر فى التباين بين العالى والمنخفض فى الدرجة نتيجة للتفاوت فى القوة والثراء ، الى نقل ذلك التباين الى المضمار الخلقى والفكرى ، قد بدأت فعلا فى أثناء القرن الثالث عشر ٠ ألا ترى الى شعراء التروبادور كيف أنهم فى شعرهم الغنائى البلاطى ، طوروا فكرة نبالة القلب ؟ ثم جاء بعد ذلك التقدير ـ التقدير الممعن فى سمته النظرية ـ لحياة الفلاح البسيطة الكادحة وساعد على نموه ماحفل به قصيد الزعاة من أخيلة ٠ وورث « عصر النهضة » هذه الفكرات جميعا عن العصور الوسطى ورقشها بالألوان الكلاسيكية ٠ فعند ذلك تم التآلف بين مثل عليا للحياة ظلت قبل ذلك منفصلة : فاجتمع النبيل البلاطى

المتعلم والراهب اللوذعى الذى عرف أساليب التصرف والسلوك فى هذه الدنيا ، والحضرى ابن المدينة الثرى بما له من تقدير للعلوم والفنون ، وزودوا المجتمع بطراز الرجل المؤمن بالمذهب الانسانى ، وهو الخبير بالأصول الذى يعيش بغير كلفة فى كل بلاط حل به العارف بكل العلوم الفقيه باللاهوت ، واللائق (أو المتصور فى نفسه اللياقة) لكل وظيفة فى المدينة أو الدولة • ولكن ليس معنى ذلك بأى حال ان الأشكال المبكرة المستقلة للحياة قد انقطع وجودها • فان القوم لم يحتفظوا فقط بالمثل الأعلى الوسيطى للفروسية ، وقانون الفروسية القديم وكل مايتصل به ، سليما بكامل قوته ، بل ان ذلك المثال قد بثت فيه حرارة جديدة على يد أريوستو وتاسو وقصص أماديز الرومانسية • فأما مفهوم الطبقات ، مهما ازدادت كثرة ما فيه من الفروق الصغيرة ، فقد ظل على ما كان عليه فى العصور الوسطى فى كل من شكليه الخشن والممتاز ، حتى بعد انقضاء « عصر النهضة » بزمن بعيد •

ويرتبط مفهوم الخدمة ارتباطا وثيقا بمفهوم الطبقة • فقد روجت الثقافة العصرية للفكرة القائلة بأن خدمة اى انسان أو أى شىء ــ الخدمة الصادقة فى تواضع وطاعة ــ تعد حطا من الكرامة الانسانية ــ اللهم الا أن تكون فى الله أو الصالح العام • وذلك بينما عرفت العصور الوسطى اللون الصادق من الخدمة والصنف الصادق من ولاء الانسان للانسان ، (ولكن ذلك كله كان يرى دائما فى صورة انعكاس لخدمة الله) ، مثلما يعرف قلب الشعوب الشرقية الخدمة الى اليوم ــ اذا لم تكن الدعاية الغربية استأصلت من قلوبهم ذلك الاحساس • فماذا كان موقف « عصر النهضة » من هذه الناحية ؟ هو من الناحية الظاهرية مشابه للموقف الوسيطى تماما • ولو تأملت رجل « عصر النهضة » ، وهو الذى اعتمد عادة على مرضاة البلاط أو عون نصير للآداب والفنون Maecenas لوجدته يخدم كادحا مخلصا متحمسا ، بكل أوتار قيثارته وكل شرارة يقدحها ذكاؤه ــ ولكن ليس بقلبه • فقد فر ولاء العصور الوسطى من كل شىء • وما عليك الا أن تنظر كيف أن ارازموس وهو يكتب الى صديقه باتوس ، يتبرأ من نصيرتها السيدة بورسلن ، بينما هو يرسل اليها فى الوقت نفسه رسائل مملوءة بأشد آيات التمجيد تملقا ، أو كيف أن أريوستو ، وان مدح بأنه من أشد عقول زمانه اخلاصا واستقلالا ، يرفع من شأن ابوليتو الكريه كاردينال دى است الى أعلى عليين فى كتابه « أورلاندو فوريوزو » ، بينما ينحى عليه بالسنة حداد فى أهاجيه الساخرة غير المعدة للنشر • فهنا دون أى مكان آخر تجد حقلا

يظهر فيه « عصر النهضة » التناقضات التي لا محل لها والتي تزخر بها الدورة التي يدورها تيار الفكر في ذلك الزمن ٠

وعند توجيه النظـرة الأولى ، يبدو البون الفاصـــل بين « عصر النهضة » والعصور الوســـطى كاملا من حيث منتجات كل من الفنون المرئية والأدب ٠ اذ يستطيع المتصفح أن يحس فيهـا نضجا واكتمـالا أعوزا القرون السابقة ، ووفرة شديدة في اللـون ويسرا في التعبير ، وفخامة وعظمة ، تعطي بمجموعها احسـاسا بالطابع العصرى ، الطابع الذى لم يعد بدائيا ٠ ولكن هذا كله لو فحص عن كثب أشد ، ســواء أوضعه الانسان منا بمرتبة أعلى أم أدنى من حالة الشدة والتحفظ التي عليها الفنون الأولى ، لتجلى لنا في النهاية أنه لا علاقة له الا بنوع الفن وصفته دون أسسه الجوهرية ٠ فهناك يتجلى أن عنصر الاستمرار أعظم كثيرا مما يفترض عادة ٠ فان واحدا من الأشكال التخيلية الكبرى التي ازدهر بفضلها الأدب والفن الوسيطى في أعلى صورهمـا لم يمت فعـلا بظهور « عصر النهضة » ٠ ففي حقـل الأدب مثلا احتفظت رومانســية الفروسية بكيانها حتى أعماق القرن السابع عشر ٠ كما واصل كل من الأدب والفن المرئى تنمية أناشيد الرعاة بوصفها شـكلا أثيرا محبـوبا للتعبير عن العاطفة حتى القرن الثامن عشر نفسه ٠ ولم يتراجع المجاز الرمزى عن الميـدان لا في الفنون المرئية ولا الأدب ، وان شـذبه « عصر النهضة » وهذبه قليلا ، ونمقه في صورة أحفل قليلا بالذوق والرشاقة ٠ على أن الجهـاز الأسـطورى (الميثولوجى) للخيال ، كان من الناحيـة الأخرى يمر في عملية انبجاس قبل « عصر النهضة » بزمن طويل ، كما أنه ظل موضع التكريم ، هو والمجاز الرمزى (Allegory) بعـد أن انتهى العصر بزمن طويل ٠

وموجز القول، أنه لو صيغت المسألة بحيث يصـبح أهم شيء هو اعطاء « عصر النهضة » مكانه الصحيح بين الثقافة الوسيطية والعصرية ، لبقي بعد ذلك عدد ضخم من المسائل غير المحلولة أو المحددة تحـديدا غير كاف ٠ وهنا نوضح أن « عصر النهضـة » لا يمكن أن يعتبر نقيضـا صريحا للثقافة الوسيطية ٠ ولا هو حتى بمثابة منطقة تخوم تفصل بين الأزمنة الوسطى والعصرية ٠ فان من بين الخطوط الأساسية التي تفصل بين الثقافة الفكرية القديمة وتلك الأكثر عصرية لدى شـعوب الغرب ، بعض خطوط تمتد بين العصور الوسطى « وعصر النهضة » وأخرى بين « عصر النهضة » والقرن السابع عشر وأخرى أيضا تمتد رأسا مخترقة

قلب « عصر النهضة » وأكثر من خط واحـد يرجع فى قدمه الى صميم القرن الثالث عشر ويمضى فى تأخره الى الثامن عشر ٠

والصور التى يعرضها « عصر النهضة » تمثل التحول والتردد ، والانتقال والامتزاج بين العناصر الثقافية ٠ فكل من ينشـد فيها وحدة كاملة فى الروح يمكن التعبير عنها بصيغة اصطلاحية بسيطة ، لن يتمكن من فهمها فى كل ما لها من وسائل تعبير ٠ وينبغى للمرء منا قبل كل شيء أن يوطن نفسه على تقبلها بكل ماحوت من تعقيد ، وما فيها من تجانس ومن تناقض ، وأن يستخدم الطريقة التعددية (*) فى معالجة المسائل التى تقدمها لنا ٠ فكل من أعد خطة مفردة متخذا منها شـبكة لاصطياد ذلك البروتيوس(**) لن يمسك فى عيونها الا نفسه ٠ ان من الغرور أن يطمع أحدنا فى التمكن من وصف رجل « عصر النهضة » ٠ فان الطرز الكثيرة التي تعرضها علينا تلك المدة الفنية تنقسم بواسطة خصـائص أخـرى انقساما أسـاسيا أعمق كثيرا من أن يسـتطيع أى مذهب للفردية أن يوحدها ٠ وعندى أن البحث ينبغي أن يركز على كل واحدة على حدتها من الصفات المنفصلة لمجتمع « عصر النهضة » ٠ وقد أزجى الينا بركهارت مقدمة باهرة لهذا المنهاج عندما لمح بعينه الثاقبة ماران فى «عصر النهضة» من حب الشهرة ، وما بها من سخرية وتوقد ذكاء ٠ وعندى أن من الممتع أن نشهد شجاعة أهل عصر النهضة » وغرورهم واخلاصهم » تعالج بنفس هذه الطريقة ، فضلا عما تجلى فيهم من محبـة للأسـلوب ومن كبرياء وحماسة وروح نقد ٠ وذلك كله على يد علمـاء متفتحى الأذهان كعقـل بركهارت ، خلو من ذلك الشعور بالتعالى والاعتزاز بالنفس الذى كثيرا ما يحول بيننا نحن الأوربيين الشماليين ، وبين فهم « عصر النهضة » ٠ ذلك لأن الشيء الذى ينبغى أن يوضع تحت أبصارنا بغاية الوضـوح : هو أن « عصر النهضة » كان أحد انتصارات الروح الرومانسية : (أعنى

(*) الطريقة التعددية Pluralistic approach : المبدأ القائل بأن هناك اكثر من مبدأ غالى واحد للوجود والعلية ٠ (المترجم)

(**) البروتيوس فصيلة اوربية من البرومائيات المذنبة ساكنة الكهوف لها خياشيم دائمة ٠ (المترجم)

اللاتينية المتأخرة) • فكل من شاء فهمها ينبغي له أن يكون متفتح الجنبات لما شكلت منه الروح الرومانسية من جدية رواقية واردة واضحة التركيز (ارادة منشغلة بأشياء أخرى تماما غير التعبير الكامل عن الشخصية) مع مراح خفيف سعيد ؛ وطيبة قلب غنية ورحبة ؛ وعدم مسئولية ساذجة• وينبغي له أن يكون قادرا على التخلي عن البحث في كل مكان عن الروح لكي يمارس اهتماما عنيفا ومباشرا بالأشياء من أجلها في حد ذاتها • وينبغي له أن يكون قادرا على الاستمتاع بجوهر الأشياء في شكلها البهيج• وينبغي له أن يكون قادرا على أن يستشف ضحك رابيليه من وراء محيا صورة بريشة هولبين (*) أو أنطوني مور (**) •

(*) هولبين (١٤٩٧ ـ ١٥٤٣) مصور ألماني • (المترجم)

(**) والسير انطوني مور (١٥٢٥ ـ ١٥٨١) مصور هولندي الاصل سكن انجلترة . (المترجم) •

عصر النهضة والمذهب الواقعي (*)

اذا نحن شئنا أن نظل قانعين بالعبارة التى وضعها بركهارت وجعلها أساسا لفهم « عصر النهضة » ، أصبحت العلاقة بين الفكرتين : « عصر النهضة » و « المذهب الواقعى » من الشئون الثابتة المقررة مقدما. وهى لا تزال تبدو كذلك فى عين كثير من الناس . فان فهم المرء المذهب الواقعى Realism على أنه الحاجة والمهارة فى تقريب الحقيقة الطبيعية للأشياء الى أدنى حد ممكن بواسطة الكلمة أو الصورة ، واذا كان معنى « عصر النهضة » هو استكشاف العالم والانسان ، أى قيام نظرة وتصور للحقيقة شخصيين ومباشرين ، فسيترتب على ذلك فيما يبدو أن المذهب الواقعى لن يكون الا قرينا مصاحبا للنهضة . فالانسان، يغدو متنبها الى علاقته الطبيعية بالعالم من حوله ، ويكتسب القدرة على التعبير عن تلك العلاقة ببساطة ووضوح . وهنا يصبح المذهب الواقعى بوصفه محاولة للمطابقة الصادقة مع الطبيعة ، وانتاج النسب الطبيعية بالضبط ، ـ خاصية وميسما « لعصر النهضة » لا سبيل الى فصلهما عنه .

وقد لحق بركهارت منذ أمد بعيد بمصف الأساتذة الكبار الذين يسمون فوق تناقض الخطأ والصواب : فلم يعد الانسان منا يسأل ماذا كانت آراء هؤلاء الرجال ، بل ماذا كانت روحهم . والحق ان الواجب أصبح من عدة جوانب يملى على التاريخ الثقافى أن ينفصل عن بركهارت

(*) Renaissance en realisme محاضرة ألقيت بلندن فى ١٩٢٠ ، كما ألقيت صورة منها منقحة تنقيحا كاملا بمدينة بال وبرن وزيورخ وفرايبرج فى مقاطعة برايسجاو فى ١٩٢٦ . ونشرت بهذا الشكل لأول مرة فى . Cultuurhistorische verkenningen (هارلم ١٩٢٩) ص ٨٦ ـ ١١٦ . والترجمة من النص الهولندى فى Verzamelde Werken مج ٤ ص ٢٧٦ ـ ٢٩٧ .

دون أن يجرح ذلك الانفصال عظمته بأية حال والا يغض من قدر الدين الذى ندين له به ٠

وقد انقضت مدة صالحة من الزمان لم يعد فيها مفهوم « عصر النهضة » يبدو بمثل البساطة التى بدا بها لعين بركهارت ٠ اذ شرع التهدم ينال من أطرافه جميعا ٠ فكل محاولة لتعريفه تصطدم بافتقاره الى التحديد وبما يشوبه من تعسف نسبى ٠ ومن هنا صارت أسلم طريقة لمعالجته ، هى استخدامه بالمعنى التقليدى ، أى بوصفه دلالة على ازدهار الثقافة الفكرية الأوربية ، ذلك الازدهار الذى بلغ ذروته بعد ١٥٠٠ بقليل ، واتخذ من ايطاليا مركزا ونقطة ابتداء ، ومنها أرسل اشعاعه نحو الخارج ، وسطع ببريق جديد بكل من فرنسا وأسبانيا وألمانيا العليا والمنخفضة وانجلترا ٠ وليس من الضرورى ضرورة مطلقة تحديد طبيعة ذلك الازدهار الثقافى وجوهره ، رغبة فى استعراض الظاهرة وانسجامها النوع الاشكال والاحساس بهما ٠

وجاء أوان بدا المذهب الواقعى فيه أبعد ما يكون عن الانفصال عن المذهب الفردى ، كما بدا المذهب الفردى أبرز صفة رئيسية للنهضة ، بحيث جنح الناس أن يتنسموا ريح « عصر النهضة » فى كل لحظة من لحظات العصور الوسطى أبرزت فيها الأعمال والأشكال الواقعية نفسها ٠ ونشير هنا الى أن بركهارت بنفسه بحث الشعر الجوليياردى فى القرن الثانى عشر بتلك الروح ٠ ونسب كوراجوه فن سلوتر وآل فان ايك الى « عصر النهضة » ، ووجد من يستمع اليه حتى أيامنا هذه ٠ وبهذه الطريقة اقتصروا على مجرد احلال مفهوم المذهب الواقعى محل فكرة « عصر النهضة » ، وفات الناس أن يسألوا هل الظاهرة المعنية بذلك الاسم تعكس حقا نغمة « عصر النهضة » بالمعنى الأصلى للكلمة ٠ ومهما تكن طريقة تفسير اصطلاح «عصر النهضة » ، فانه يظل فكرة تاريخية يستطيع المرء فهمها على الوجه الذى يريد ٠ ولا يخفى أن مفهوم المذهب الواقعى ، بالمعنى الجمالى العصرى الذى نستخدمه هنا ، يمكن تعقبه ووصفه بطريقة موضوعية أكثر كثيرا بغية الوصول الى تعريف لعلاقته « بعصر النهضة » ٠

وعندى أن المعنى الدارج للفظة المذهب الواقعى يرى فى أوضح الصور استقراء من بضعة امثلة يمكن تطبيقه فيها ، وبضع حالات أخرى مناقضة يستخدم فيها ٠ فنحن نسم بالواقعية الصورة التى تمثل ناظر العزبة بالقرية المصرية ، وهو رسم هولاندى يعود الى القرن السابع عشر،

كما نسمى روايات الكاتب جوستاف فلوبير بأنها واقعية • ويعد المذهب الواقعى نقيضا للمذهب المثالى (١) ، والرومانسى والأسلوبية stylization على أنه يبدو فى معظم الحالات قرينا للمذهب الطبيعى Naturalism وبديلا منه ، وان ذهب الناس فى حديثهم العـــادى الى التفريق بينهما بفوارق نوعية مميزة • فان محاكاة صورة خارجية أو داخلية تبدو كأنما هى الأمل الذى يراود الأنفس للوصول الى خلق الأعمال الواقعية •

ومع ذلك ، فلو أننا تتبعنا ظهــور الأشـــكال الواقعية فى تاريخ الثقافة ، لاتضح لنا على الفور أن المذهب الواقعى ليس قطعا اتجاها عقليا عاما يتبادل السيطرة على آماد بأكملها هو وأضداده • وهو بعكس ذلك يتجلى فى صورة نمو ثقافى اضافى الى حد ما ، ينبت هنا حينا وهناك حينا آخر ، وغالبا ما يكون ذلك النبت غير متوقع تماما ، ثم اذا هو يختفى فجأة كما ظهر • على أن العمل الانشائى الواقعى فى الأدب والفنون التصويرية لا ينتهج على الاطلاق منوالا واحدا ، ولا هو يفعل ذلك داخل مضمار الفنون التصويرية ذاتها • فان أحد العصور قد ينتج اعمالا فنية واقعية الطابع دون أن تكون روحه واقعية بصورة ملحوظة • فان عصرا أو أسلوبا بعينه قد يقدس أبسط درجات المذهب المثالى كمبدأ للشكل يعتنقه ، ومع ذلك فهو ينتج أيضا الى جوار الأعمال الفنية التى يتجلى فيها ذلك المبدأ أعمالا أخرى تطابق الطبيعة تماما • وقد عاشت الحضارة المصرية متصفة بالطابع الواقعى الى أقصى غاياته ان أخذ المرء الكلمة بمعناها المدرسانى (الاسكولائى) ـ أى مركزة على العلم وعلى الفكرة وعلى الرمز • ويشهد فن تلك الحضارة بهذه الحقيقة • فهو لايرسم الشخصيات ولا الأحداث بدقة ، وانما ينقل اليك الطرز أو الفكرات (٢) • ومع ذلك ، فان هذا الفن نفســـه يزودنا بما لا حصر له من امثلة المطابقة الرفيعة للطبيعة التى يستمد منها أوساط الناس من محبى الفنون أشد أنواع المتعة قوة بوصفها فنا « مصريا » • والحق ان عملا فنيا واقعيا لا يحدثنا بشىء عن عقــل منشئه • ىدىه أنتج نسخة من الهيئة الطبيعية لأشياء بعينهــا لأن لديه موهبة الرســم بتلك الطريقة ، أو لأنه لا يستطيع أن يأتى الا بهذا الصنف من الأشياء دون اى شىء آخر ، أو لأن هذا هو ما تنضح به يداه • ثم ان الواقعية فى الفنون لا يستطاع حتى تفسيرها بأنها النتيجة التكنيكية للتدريب الطويل ، وذلك لأنك تجدها أيضا عند بداية تاريخ الفن بأكمله فى كهوف العصر الحجرى القديم • غير أنه لكى تدفعنا الواقعية الى التشكك التام فى فكرتها ، لحظة بلوغها أعلى ذروة كما لها ، تنقذف بلا رحمة صوب نقيضها : فان الكلمة

لم تعد تنطبق الآن على النحائت المقـــامة على كاتدرائية بامبرج (*) ·

واذا تتبعنا الأعمال الواقعية في الأدب ، أحسسنا بوجود انقسام جديد في الفكرة · وقد كانت نقطة البداية التي بدأنا منهـا هي المذهب الواقعي بوصــــفه مفهوما جماليا ، ولكنه في الأدب يظهر أيضا ناحيــة خلقية · اذ قد يمكن أن تنجم محاولة مطابقة الطبيعة في أثناء رسم مادة معلومة ، عن رغبة لا ســبيل الى مقاومتها في نسـخ أو تقليد قطعــة من الحقيقة ، سواء أتم ذلك في شكل تشكيلي أو لون أو خط أو كلمة أو نغمة· ولكنها قد تنجم أيضا عن حاجة الى رسم الحياة أو الانسان والعالم على ما هم عليه في الحقيقة ، ليس بشــكل أحســن ، بعد تجريدهم من كل زخارف مثل أعلى أو شكل تقليدي أى دون شيء من الأوهام الخادعة · وفي الحالة الثانية يكون للواقعية مضمون خلقي قوى أو لعل الأفضل أن نقول مضمون برجماطي Pragmatic

وهذه الواقعية الخلقية تنتمي الى حقل الأدب Literature · وعندما تعترف بها الفنون التصويرية ، كما حدث مثلا في أحريات القرون الوسطى من رســم الجسد، أو عند هوجارث أو عند شتاين لن ، فان ذلك يرجع فيما يبدو الى انشغال بال منشيء العمل مقدما بالناحية الأدبية · ومهما تــكن الحال ، فان الفنون التصويرية لا تتجه في العادة الى وضع السنن الخلقية عندما تتخذ المذهب الواقعي منتحى لها ·

وفي الامكان العثور مثلا على أمثلة من هذه الواقعية الخلقية ، في ادب الزهد عند الهنــد القديمة وعند المسيحية · والأوصاف التي تنعت الجمال الجسدي بالسطحية رغبة في اثارة النفور العنيف والاشمئزاز ، ذلك الموضوع المتكرر الذي تدور حوله مقــالات ذم الدنيا واحتقـــارها De contemptu mundi انما هي أوصاف أغلب الظن أنها أسست على أقوال القديس يوحنا فم الذهب بحذافيرها كلمة كلمة · وترتبط الساتير أى قصائد الهجو الساخر ارتباطا وثيقا بموعظة الندم ومقالة الزهد من حيث الغاية والوسيلة ، ذلك أن ما تتصف به من واقعية يعد أيضا من النوع الخلقي · وهناك رابطة وثيقة أخرى بين قصائد الهجاء والحكاية الساخرة أو « الحدوتة الشعبية folk-tale » ، على أن الناحية الخليقة

(*) بامبرج مدينة المانية ببافاريا . بنيت الكاتدرائية بها في القرن الثالث عشر .
(المترجم)

في تلك « الحدوتة » قد أصبحت سلبية ، فمن المعلوم أن « الحدوتة الشعبية » لا تحث على الفضيلة وتندب الرذيلة ، وانما هي تروى حديث بعض الحيل الناجحة • فأما الخرافة Fablian الفرنسية في القرن الثالث عشر ، ففي المستطاع ضم ما بها من واقعية الى عداد البرجماطية دون أن تسمى بالخلقية ـ مالم يرغب الانسان منا في تفسيرها على أنها انكار شعوري للمثل الأعلى المعاصر لحياة بلاطات الملوك والأمراء • فهل كانت تلك الخرافة هي الرفض المتهكم أي لفظة : « لا » : الساخرة مما لحياة البلاط من الاتجاهات المصطنعة والمفعمة بالمبالغات ، أي محاولة لتمزيق اللثام عن وجه الثقافة العليا برمتها ، وتكذيب الحلم بالكمال الأرضي ، وفي أثناء ذلك ـ وبالمرة أيضا ـ توجيه التشنيع الى القسيس والراهب كذلك ؟ ففي تلك الحالة يكون المذهب الواقعي هنا قائما في صورة احتجاج • أي تعبيرا عن رد فعل حاد ضد التقاليد المرعية ، وضد نفس أسلوب العصر • على أنه يخيل الى أن من المبالغة قليلا أن نلمس ونرى هذا كله في تلك الخرافة •

ومانحن بحاجة أن نقرر أنه حيثما كان الغرض خلقيا ، فان الأثر الواقعي لن يبرح رغم ذلك معتمدا على الوسائل الجمالية • وفي تلك الحالة يفسد طعم الأهاجي الساخرة (الساتير) والموعظة الخلقية « والحدوتة الشعبية » ان استنفد مدلولها مافيها من الواقعية •

ويحتاج مذهب الواقعية بوصفه عاملا جماليا بحتا الى مزيد من التمايز • ذلك أن أثره يقوم دائما على صدق المطابقة للطبيعة ، ولكن تلك المطابقة ربما كانت من عدة أنواع ، وربما تم احرازها بطرق مختلفة • فهي مطابقة يمكن أن تؤسس على سمة هامة وحيدة في الصورة ، أو على توهم وجود محاكاة تامة ومضبوطة للحقيقة المرئية اى الواقع • ولعل الفنان قصد منها أن تكون تأثيرا ، ولعله أيضا قد استخدمها كأداة شعورية أو قد يمكن أن تكون نتاجا غير مقصود بل حتى غير شعوري لقدرته على الخلق •

وفي الامكان الوصول الى أثر الواقع باللجوء الى المحاكاة التفصيلية أو بالتأكيد الايحائي على بضع سمات هامة للشيء • والحالة الأولى أي المحاكاة تحدث على الدوام بصورة واعية ومقصودة ، فأما الثانية فاما أن تجيء تلقائية أو نتيجة لخطة وتصميم• وليس هناك أي فرق بين أن تتجاوب الحقيقة المرسومة مع البيئة التي يعيش فيها الشخص الذى صنعها أو

الشخص الذى يستمتع بها ، أو حتى ما اذا كانت الحادثة حدثت فعلا بالطريقة المصورة • واذا نظرت الى فلوبير لوجدته متمسكا بالواقعية فى قصته سالامبو تمسكه بها فى مدام بوفارى • والتضاد بين الواقعية القائمة على المحاكاة والواقعية الايحائية ليس مطلقا : فكما تقضى طبيعة الأشياء لابد للطراز الأول أن يكون هو أيضا انتقائيا • ذلك أن نفس تفسير عقولنا لادراكاتنا الحسية يعمل بطريقة انتقائية ، وكل صورة عقلية لأى شىء تؤسس على الانتقاء •

فلو وجب أن يطلق اسم على شكلى التكوين الوافعى هذين ، لجاز للمرء أن يتحدث عن المذهب الواقعى التحليلى أو الوصفى أو الايضاحي كنقيض يقابل المذهب الواقعى التوكيدى أو الاستدعائى (*) • ويبدو لى أن لفظتى الايضاحي والتوكيدى تعبران عن ذلك التضاد فى أحسن صورة مرضية • ومفهوم ضمنا فى الكلمتين أن الواقعية الايضاحية أكثر انتماء الى الفنون المرئية ، وأن الواقعية التوكيدية أقرب الى الانتماء الى الفنون الأدبية •

والحق أن الواقعية التوكيدية ينبغى أن تعد قديمة قدم اللغة والفن ذاتهما • فان كل كلمة ، وكل صورة انما تعبر عن تناسب يعتبر حقيقيا ، كما أنها تعمل بواسطة الانتقاء الايحائى • ومن هنا يتبين أن مايمكن الاشارة اليه على أنه مذهب الواقعية التوكيدى فى تاريخ الفن والأدب ، ليس الا مجموعة القمم التى يبلغها عدد من المنحنيات • ومن الجلى أن التماثل الكبير بين التأثير الواقعى فى عصور ومناطق اتسعت مسافة البعد بينها ، سواء فى الفنون المرئية أو فى الأدب ، يعد صفة مميزة ، كما أنه شىء قريب الفهم فى الحين نفسه • ففى أساطير البطولة (الساجا) الأيسلندية القديمة وفى الأخبار والروايات العربية القديمة المأثورة ، كان العنصر الهام المعول عليه هو التسجيل الدقيق لذكريات أحداث خاصة لا يزال الناس يتصورونها بوضوح ويعتبرونها ذات أهمية • وليس العامل الذى يحدد أشكال التعبير الشديدة الترابط هو السمة القومية ولا مستوى المدنية وانما هو التشابه فى الهدف الفكرى •

« ••• وجعل المسلمون يعملون مستعجلين يبادرون قدوم العدو

(*) المذهب الواقعى الاستدعائى Evocative realism هو المحرك للعواطف والذكريات • (المترجم)

عليهم وأخذ رسول الله صـــلى الله عليه وســـلم يعمل معهم فى الخندق ، لينشط المسلمين ، وعملوا واستعاروا من بنى قريظة آلة كثيرة من مساحى وكرازين (فئوس) ، ومكاتل (زنابيل كبيرة) يحفرون به الخندق ، وهم يومئذ سلم للنبى صلى الله عليه وســـلم ، يـكرهون قدوم قريش ، ووكل رسول الله صلى الله عليه وسلم بكل جانب من الخندق قوما يحفرونه ٠٠»٠

« حدثنى محمد بن يحيى بن سهل عن أبيه عن جده قال : كنت أنظر الى المسلمين والشباب ينقلون التراب ، والخندق بسطة أو نحوها (أى قدر قامة) وكان المهاجرون والأنصار ينقلون على رءوسـهم فى المكاتل ، وكانوا اذا رجعوا بالمكاتل جعلوا فيها الحجارة يأتون بها من جبل سلع ، وكانوا يجعلون التراب مما يلى النبى صلى الله عليه وســـلم وأصحابه ، وكانوا يسطرون الحجارة مما يليهم كأنها حبال التمر ، وكانت الحجارة من أعظم سلاحهم يرمونهم بها » ٠

« فحدثنى ابن أبى سبرة عن مروان بن أبى سعيد قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ يحمل التراب فى المكاتل ويطرحه ، والقوم يرتجزون ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم ـ يقول :

هـذا الجمـــال جمـــال خيبر هـــذا أبر ـ ربنا ـ واطهـر

وجعل المسلمون يومئذ اذا رأوا من الرجل فتورا ضحكوا منه»

« وحدثنى أيوب بن النعمـــان عن أبيه عن جده عن كعب بن مالك : قال : جعلنا يوم الخندق نرتجز ونحفر ، وكنا ـ بنى ســلمه ـ ناحية ، فعزم رسول الله صلى الله عليه وسلم على ألا أقول شيئا ، فقلت : هل عزم على غيرى ؟ قالوا حسان بن ثابت ٠ قال : فعرفت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انما نهانا لوجدنا له ، وقلته على غيرنا ، فمـا تكلمت بحرف حتى فرغنا من الخندق»

« وقال رسول الله صلى الله عليه وســلم يومئذ لا يغضب أحد مما قال صاحبه ، لا يريد بذلك سوءا ، الا ماقال كعب وحسان فانهما يجدان ذلك » ٠

« وكان البراء بن عازب يقول : مارأيت أحدا أحسن فى حلة حمراء من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فانه كان أبيض شديد البياض كثير

الشعر ، يضرب الشعر منكبيه ، ولقد رأيته ـ يومئذ ـ يحمل التراب على ظهره ، حتى حال الغبار بيني وبينه ، واني لأنظر الى بياض بطنه » .

« وقال أبو سعيد الخدري : لكاني أنظر الى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يحفر في الخندق مع المسلمين ، والتراب على صدره وبين عكنه .

والعكنة : ما انطوى وتثنى من لحم (*) البطن » .

واليكم على سبيل المقارنة فقرة من أسطورة (الساجا) المسماة ايجل سكالاجرمسون Egil Skalagrimsson . وكان ايجل انتصر في معركة خاضها للملك الانجليزي آثلستان ، بيد أن أخاه ثورولفر قتل . وفي البلاط الملكي يطلب من ايجل أن يجلس مكانه في مقعد الشرف المواجه للملك .

وجلس ايجل هناك ، وقذف بترسه أمام قدميه واحتفظ بخوذته فوق رأسه ، وقد وضع سيفه على ركبتيه ، وهو يستله الى النصف حينا ويرده الى قرابه حينا آخر . جلس منتصب القامة ، غير أن رأسه كانت شديدة الانحناء . وكان ايجل كبير الوجه ، عريض الجبين ، ضخم الحاجبين : والأنف غير طويل ، ولكنه عجيب في غلظه : وذلك المكان عريض وطويل ـ الذي ينمو فيه الشارب : والذقن عجيبة في عرضها ، وكذلك كل ما يحيط بالفك : وهو غليظ العنق عريض المنكبين بما يتجاوز كل قياس الى غيره من الرجال : قاسي الملامح جهم الوجه متى غضب . وكان ذا بسطة في الجسم مديد القامة عن أي رجل آخر : وشعره أطلس بلون الذئب كثيث النمو ، ولكنه أصابه الصلع مبادرا .

والآن وبينما هو جالس كما هو مكتوب آنفا ، ظل حاجب منه ثم آخر يختلج نحو خده ، ويختلج الآخر الى أعلى نحو منابت الشعر . وكان ايجل أسود العينين مقرون الحاجبين . وانه ليأبى أن يشرب شيئا وان حمل الشراب اليه ، ولكن اختلج حاجباه أحدهما حينا والآخر حينا ، الى أسفل والى أعلى .

(*) انظر المغازي للواقدي طبعة جامعة أوكسفورد جـ ٢ ص ٤٤٢ — ٤٤٩ .
(المترجم)

وجلس الملك آثلستان في مقعده العــالي • وقد أرقد سيفه أيضا على ركبتيه : فلما أن جلسا هكذا مدة من الزمن ، استل الملك سيفه من غمده ، وأخرج من ذراعه حلقــة من ذهب ، وهي حلقــة ضخمة وحسنة ، وانزلها فوق سن السـيف : ثم وقف ونزل الى الأرض ، ومدها فوق النار الى ايجل • ووقف ايجل واستل سيفه ونزل على الأرض • وألصق السيف في منحنى الحلقة وسحبها اليه: وعاد الى مكانه • وجلس الملك في مقعده العالى • ولكن عندما جلس ايجل • ســحب الحلقة حول ذراعــه ، وعندئذ وقف حاجبـاه في موضعهما الصحيح • وأنزل سيفه وخوذته ، وأخـذ قرن البهيمة الذى حمل اليه ، وشرب ما فيه حتى الثمالة (٤) •

والمثال الأخير بوجه خاص يعطينا دلالة ممتازة عن مدى ضئالة حاجة الواقعية الأدبية ، التى تتطور هنا فعلا من النوع التوكيدى الى الايضاحي، أن تكون ثمرة لتطور مهذب للأدب • وكل من المثالين يليق لاظهارنا بدرجة بالغة الوضوح ، على أنه حتى حوالى ١٢٠٠ لا يزودنــا الأدب الوسيطى لاوربا الغربية بأى شىء يمكن موازنته بهذا من حيث الواقعية الأدبيــة القوية • وينبغى لنا ألا نعزو ذلك الى قلة القدرة فى ذلك الاتجاه بين الشعوب الجرمانية وشعوب الرومانس اللاتينية ، اذ الأصح أن تلتمس علة ذلك في أن التقاليد البيانية الكلاسيكية سيطرت تماما على الأدب ، سواء آكان الموضوع مقدسا أم علمانيا • فان ظهور نثر تشكيلى لدن قد أعوزه شيئان ، أولهما عدم تمهيد مكان له فى الأدب ، وثانيهما الافتقار الى استقلال أدبى • فأما ما قد يكون هنالك من وصف واقعى فلم يكن عادة الا تقليدا للنماذج الكلاسيكية • ومهما يكن من أمره فانه يظل فى العادة مدرسى الطابع مكبلا بالقيود : فهو لا يصل الى مستوى الأمثلة المباشرة التى تعرضها السيرة النبوية والأساطير البطولية (الساجا) •

وقد تستطيع المشاهدة الواقعية والرسم المطابق للواقع معالجــة الشكل البشرى ؛ ومعالجة الحركات والأشكال والألوان ؛ والكلمة الملفوظة والبيئة فى مجموعها • وبينما الثقافة الوسيطية تتطور ، أخذت الواقعية تظهر هنا وهناك ، لا باعتبارها تكنيكا فنيــا شعوريا بأية حال ، ولكن باعتبارها سمة عفوية، وذلك بالأكثر فى رسم الكلام والايماءات لا المظاهر، فضلا عن البيئة • وينبغى للمرء أن يظل يقظا على الدوام ليرى ويتأكد من أن سويتونيوس أو كاتبا كلاسيكيا آخر لا يجرى تقليده فيما يقع تحت بصره من مقروء • ومع ذلك فان من الخطأ البالغ أن نستشف فى كل سمة واقعية اقتراب « عصر النهضة » •

فان المثال الكلاسيكي ظل أقرب الى العقبة المعوقة منه الى المشجع للتعبير الواقعي الحق • ثم ان نسق القصيد الغرامي الذى ظهر فى البلاط كان أبعد الأشياء عما يناسب ذلك التعبير : اذ ليس لموضوعات motifs الطبيعة التى ترد فى استهلال القصيدة الا أقل قيمة فى هذا الصدد • على أن القصة الرومانسية أتاحت فرصا أكثر تدعو الى التعبير الواقعي وتحث عليه ، وان كان ذلك دون السماح له بالسيطرة التامة •

ثم جاء دانتي فأمد العالم على حين بغتة بواقعية توكيدية بلغ من هائل قدرتها على النفاذ وشدة حيويتها ، وحدة نظرتها للمرئيات ، أن عمله هو نفسه الميزان الذى نستطيع أن نزن به مفهوم الواقعية الأدبية• فهـو فى عمله الرائع الجليل يرسم ويبعث الى الحيـاة الهيئة والايماءة والحركة والمحادثة والمنظر الطبيعي بدرجة سواء • وان دانتي شأن العظماء حقا من الرجال ـ ليبدو كأنما يهدم نظرياتنا ولا يثبتها • وذلك مالم يكن ما يفعله أنه يوضح أن العمل الواقعي بوصفه ذاك ، لا علاقة له البتة بعصر النهضة بالمعنى العادى المعروف عن الكلمة • ويستطيع المرء لو شاء ـ أن يرى علاقة معينة بين أشياء كثيرة مشتركة بين دانتي «وعصر النهضة» ، ولكنها أشياء لا تصل الى صفاء نظرته المطلق ، الذى لايدانيه فيه أحد ، ولا الى ما تتصف به الكلمة عنده من دقة بالغة •

ومصطلح الواقعية قليل الاستعمال فى فن النحت•وكأنما الواقعية فى أسمى درجاتها والتزام المثالية فى أشد صورها المطلقة أمران يلغى احدهما الآخر بمجرد أن يبلغ فن النحت مستوى بعينه • ولا محل لاستخدام الواقعية كصفة أسلوبية stylization القدماء وبين المطابقة الجميلة للطبيعة ـ أو قل بالحرى ان فى الامكان تطبيقها ، ولكنها لا تحتوى على أى مضمونات (٥) جوهرية • وهناك خلة من الكمال تربط بين نحائت كاتدرائية بامبرج وبين دوناتللو (*) ، وتربط دوناتللو بسلوتر • بيد أن ذلك الكمال يكمن فى شىء آخر خلاف المحاكاة الصادقة للواقع الطبيعي• وفى مستطاعنا أن نستشف التأثيرات الواقعية ، والقول مثلا بأن تماثيل ناومبرج (**) واقعية أكثر من تماثيل بامبرج ، ولكن التفريق قليل الأهمية•

(*) دونا تللو : نحـات ايطـالى فلورنسى اسـمه الحقيقى دوناتودى نيقولودى بتوباردى (١٣٨٦ ـ ١٤٦٦) تمكن بالتعاون مع برونللسكى من تعب الاسلوب الكلاسيكى فى النحت .. (المترجم)

(**) ناومبرج : مدينة المانية بسكسونيا تشتهر بكاتدرائية القديسين بطرس وبولس (١٢٠٧ ـ ١٢٤٢) • (المترجم)

والواقعية فى النحت لفظية بحتة ، فهى ظاهرة تدل على المبـــالغة أو الانحطاط • وظهورها لا يتم بأية حال فى نهاية حقبة من الحقب • فبعد نيقولا بيزانو مباشرة ، وقبل ما أظهره اندريا من انسجام صاف ، جاء جيوفانى بما فطر عليه عمله من حركة مفرطة وتكوين مضطرب وتقطيب متنوه • فأما جيبرتى فقد ضل فعلا فى مناظره ونقشه البارز ، وذلك فى حين أن نحت الأربعمئات (القرن الخامس عشر) لم يبرح بعد على عتبات فترة ازدهاره •

أما التصوير ، فان مصطلح الواقعية التوكيدية ينطبق أروع انطباق على جيوتو • وبه تبدو الرابطـــة الوثيقة بين المذهب الواقعى « وعصر النهضة » كأنما تعلن عن نفسها بصورة مؤكدة تماما • وقد أطلق أهل الرأى على الدوام اسم « أبى المذهب الواقعى المتأخر » على جيوتو ، وهو الرجل الذى أبدع الحركة المعبرة أبلغ التعبير ، والذى تهيأ له على حد قول بركهارت ، « الاحساس بأهم نواحى كل حركة » ، ومن أجل تلك الواقعية أيضا ، أطلق عليه بوكاتشيو بالفعل لقب مجدد الفن • وقد أوضح أنه بفضل جيوتو ، استدل الفن ثانية على طريق الطبيعة والصدق• فرأى بوكاتشيو هو الذى أقام ذلك التقليد المأثور ، كما أن من جاء بعده من الكتاب مثل ليوناردو دافنشى وأرازموس وفاسارى رأوا هم أيضا أن جيوتو (٦) هو بداية الانتعاش • ويكاد يكون من المستحيل الفصـــل بين جيوتو ومذهبه الواقعى وبين بدايات « عصر النهضة » • وكأنمـــا الحلقة الرابطة بين « عصر النهضة » ومذهب الواقعية تجد برهانها فى شخصه •

ورغم ذلك ينبغى ألا يغرب عن بالنا ، أن فكرتنا بأسرها عن « عصر النهضة » بنيت فعلا على الأسس التى أرساها بوكاتشيو وفاسارى • فى تلك الفكرة لا يبرح صدق رأى بوكاتشيو يعتبر نقطة بداية بديهية بدرجة تتفاوت ، وذلك فى نظر بركهـارت على الأقل • فهـل ما نعرفه اليوم عن التطور الثقافى فى الشطر المتأخر من العصور الوسطى لايبرح على انسجام حقيقى والمبدأ المسلم به ، وهو أن جيوتوكان بأخذه نفسه بالواقعية ــ هو المؤسس الفعلى « لعصر النهضة » ؟

الحق ان هذه المقالة لا تدعى اطلاقا أنها تحل تلك المسألة حلا تاما • فهى ليست سوى محاولة لاستبانة ما اذا كانت الواقعية التى تدل على شكل ، مرتبطة حقا ارتباطا لا انفصام له « بعصر النهضة » ، الذى يدل على روح • فان كانت الواقيعة مرتبطة كذلك ، فســـيكون كل تعبير عن

الواقعية نستطيع تحسسه فى فن الشطر المتأخر من العصور الوسطى وأدبه كافيا لاعلان أن الروح الذى ينتج ذلك التعبير انما يمثل « عصر النهضة » . وتلك هى النتيجة التى لاح أن مفهوم « عصر النهضة » يرغم الانسان منا على قبولها . فعلى هذا النحو أصبح العلماء ينظرون الى فن فان ايك باعتباره جزءا من فن « عصر النهضة » . ولكن اذا كان ذلك قد حدث ، فلا بد اذن من حدوث مثله مع الفن الأدبى لفرواسار وشاستللان. وهما معاصران ومواطنان لبرويدرلام ويان فان ايك ، كما أنهما واقعيان تماما مثلهما . وفى هذا الاتجاه تقدم المنتجات الأدبية ميزانا آخر زيادة على ما لدى الفنون المرئية : فانها تيسر لنا أن نقدر الروح فضلا عن الشكل . ويعتبر آل فان ايك من « الواقعيين » بصورة مطلقة من حيث الشكل ، غير أن علمنا بروحهم يكاد يصل الى العدم . فكل ما يستنتجه من أعمالهم فيما يتعلق بروحهم النقد الفنى المعاصر المتذوق للجمال ، فهو وهم وتصوير لفظى محض . ثم ان فرواسار أيضا من أنصار المذهب الواقعى: فهو يلتمس المطابقة للطبيعة فيما يسطر من حوار مشرق بالحيوية ، ومن ملاحظات بسيطة ومباشرة ، ومن دائرة الاختلاط البشرى العادى التى يضع فيها شخصياته . ولكن من ذا الذى يعد فرواسار منتسبا الى روح « عصر النهضة » دون أن يدرك أنه حين يفعل ذلك يشوه المفهوم تشويها مونسا ؟

وقد كان شاستللان ، ذلك المؤرخ الفخم فى بلاط البرجنديين ، استاذا أتقن فن المؤثرات الواقعية الرائعة : فلديه الايماءة والأثر الخفيف والجو والمشاحنة والمنظر الطبيعى. وقد أوردت أمثلة لفنه فى مكان آخر (٧) . ووصفه لفيليب الطيب ، وهو أطول من أن يتسع له هذا المقام ، (٨) نموذج للتصوير القوى المؤثر الرصين ، الذى يتذبذب فيه الأسلوب كانما هو لولب من الصلب ، وكانما يبغى أن يوحى الينا بشخص الدوق الفولاذى بصورة أشد وضوحا . والحق أن شاستللان لم يأل على الدوام جهدا فى أن يكون عصريا ، على طريقته ، اعنى كلاسيكيا وبيانيا ومتشدقا بالفصاحة . ويستطيع المرء التمييز بين شكلين أسلوبيين : الأسلوب المبهج المثقل بما يحمل الذى أورثه الكرامة عن غير جدارة فى التاريخ الأدبى الفرنسى ، ثم منتحاه الواقعى الفلمنكى المفرط الحلاوة (وان عبر عنه بالفرنسية) . وليس ثمة شك أن الشكل الأول هو الذى يربطه « بعصر النهضة » . فانه حاول أن يكتشف الشكل الجديد ، ولكنه لم يحس حتى آنذاك ذرة من الروح الجديدة . فأما روحه فتنتمى الى القرون الوسطى وعن هذه الروح تفرعت واقعيته . فهى لم تزدهر فيه كثمرة

أو زهرة « لعصر النهضة » ، بل على العكس من ذلك · فلئن وجد فنان يستطيع أن يوضح أن « عصر النهضة » والمذهب الواقعي ليسا بالبديلين المتلازمين ، فذلك الفنان هو شاستللان ·

وقد وجد المذهب الواقعي الجمالي تعبيرا عنه في عدد من النقاط اجتمعت له طوال العصور الوسطى ، في استقلال تام عن « عصر النهضة » ولما أن تم ادراكه شعوريا مارسه الناس باعتباره شيئا جديدا ، أى زيادة في المهارة الفنية والقدرة التعبيرية ·

وقد بثت الفلسفة المدرسانية في الروح الوسيطية ايمانا واعتقادا بأن العمل الواقعي يعد توجيها يؤخذ به · وقديما قال أرسطو نفسه : « ان الفن يقلد الطبيعة بقدر ما في الامكان » · ولكن ذلك لايتضمن مطلقا مجرد مدح للواقعية الجمالية he techne mimeitaiten phu sin - ars imitatur naturam in quan-tum potest· فأولا ليس مايسميه أرسطو تكني (techné) أو آرز Ars بأية حال بالفن بمعناه الحديث ، بل بالمعنى الأعرض والأعمق ، الذى لم يخمد أواره حتى في القرن الثامن عشر ، وهو الذى ينطوى على كل شيء صنعه الانسان أو أعطاه شكله · ومما يرتبط بذلك أن معنى كلمتى mimeitai or imitatur ليس فقط « ينسخ » بل « يتبع » ويقلد · فهنا لو فسر مبدأ المحاكاة بهذه الطريقة لأشار فيما وراء الطبيعة الى الله · وان دانتى ليجعل فرجيل ينطق بالتالى :

« ان الفلسفة لدى من يلقى السمع ،
قد ميزت بمواطن مختلفة
كيف أن الطبيعة ــ مثالها المحتذى وغايتها
عن الذهن الالهى وعن فنه ــ قد تعلمت ·
والى فيزيائك لو أنك أحسنت انعام النظر ،
أن فنك يتبع خطاها ، مهما مضى بعيدا
اتباع المتعلم لاستاذه ، ومن ثم فان فنك
بالنسبة للاله هو الحفيد ، ان جاز قول ذلك »

واذن فان نظرية الفن المحاكى للطبيعة ars imitatur naturam كانت تتضمن ما يتجاوز كثيرا امتداح الواقعية الفنية ، وان تضمنت ذلك

أيضا بطبيعة الحال · وذلك لأن تلك العبارة عند كل من الفنان المحترف وخبير الفن الساذج القلب ، كانت تدل الى أقصى حد على الدافع الطبيعي الى المحاكاة ، ذلك الدافع الذى لا بد أنه متأصل في الطبيعة البشرية · يقول القديس توماس الأكويني « من الطبيعي أن يسر الانسان بكل مايمثل الأشياء » (١٠) ، على أنه بعد أن وضع «المحاكاة» تحت مفهوم « تمثيل الأشياء » بالمعنى الكامل الوافي الذى كان لتلك الكلمة ، في فكر العصور الوسطى ، عاد فجأة فأعطى الواقعية الجمالية نفسها نغمة أعمق كثيرا ·

من هذا يصبح مفهوما من جميع النواحي أنه انقضت فترة طويلة من الزمن لم يتمكن نقد الفن أن يتنسم أثناءها الا ميزة رفيعة واحدة هي النجاح في محاكاة الطبيعة · فانه حتى النوادر المنقولة الينا بالتواتر منذ القدم والخاصة بأستاذية زيوكسيس(*) الفنية الخادعة تشهد بذلك التقدير · وقد آمن دانتي أيضا بذلك المثل الأعلى الفني في وصفه النقوش الرخامية والبارزة والشرفات المقامة على جبل المطهر Purgatory وقال بوكاتشيو :

ان جيوتو أوتي روحا بلغ من الامتياز والتبرير، بحيث أن شيئا معينا في الطبيعة ، أم الجميع وأستاذتهم في العمل ، لم يوجد بفضل الحركة المستمرة لأفلاك السموات ؛ الا واستطاع هو وقلمه وريشته تصويره باتقان ؛ مصورا للأشياء جميعا بطريقة بالغة المماثلة الصادقة والمشابهة القريبة ، بحيث زعم الناس أنها هي الأشياء الحقيقية فعلا ؛ وسواء أكانت تلك الأشياء موجودة أو غير موجودة ، لم يكن هناك تقريبا اى احتمال لتمييزها · بحيث أنه حدث عدة مرات بفضل الوسائل المتنوعة التي لجأ اليها ، أنه خدع حاسة الرجال المبصرة حتى اعتقدوا تلك الأشياء طبيعية ، بينما هي لم تكن سوى صور مرسومة (١٢) ·

وعبر فيللاني(**) عن هذا التقدير نفسه(١٣) · وبعد ذلك بقرن من الزمان مدح بارتولوميو فازيو الجنوى فن آل فان ايك بعبارات ملئت بالطرب تنم عن نفس هذه الدهشة الساذجة لما فيهم من مماثلة مطلقة صادقة للطبيعة ، فقال : شعر فاق الشعر الحقيقي وشعاع الشمس ينزل من أحد

(*) زيوكسيس : (٤٢٥ – ٤٠٠ ق·م· . رسام الاغريقي شهير (المترجم)

(**) فيللاني : (ح ١٢٧٥ – ١٣٤٨) مدون اخبار تاريخية ايطالى ، ولد بفلورنسة· (المترجم)

الشقوق ، وانعكاس ، وقطرات العرق على جسد ، وفى الخلفية صور المناظر البرية التى بذل المصور فى تفاصيلها جهد المدقق .

وبعد ذلك بقرن آخر بحث كاستيجليونى فى كتاب « رجل البلاط The Courtier (١٤) » فى المناظرة بين التصوير والنحت وأيهما أرفع قدرا بين الفنون المرئية . وهو يرى أن النتيجة تعتمد اعتمادا كاملا على النقطة التى يعترف كل انسان أنها المبدأ القاعدى ، وهى أن الفن انما هو « متابعة لخطى الطبيعة » . وقد دفع أحد المتكلمين بأن قصب السبق ينبغى أن يمنح للنحت لأنه أقرب الى الحقيقة نتيجة لابعاده الثلاثة . ولكن تم الاتفاق فيما بعد على أن التصوير قادر على التعبير عن الطبيعة بصورة أتم ، وذلك لأنه لا ينتج الأشكال فحسب ، بل والألوان أيضا ، والأنوار والظلال ، والمنظور وما الى ذلك . وبهذه الفكرة الساذجة عن الواقعية أظهر كاستيجليونى أنه يتمثل بعين ذاكرته فن رافييل ومايكلانجلو . ولا مشاحة أنه برأيه هذا قد عبرعما نعتبره عنصر « عصر النهضة » فى فنهما .

ولا يخفى أن شكل الفن الذى يتضاءل فيه مبدأ المحاكاة الى أقصى حد ، وهو فن الموسيقى بالذات ، هو الذى روعيت فيه بكل اجتهاد كل من النظرية والحاجة الى تقليد الصورة الطبيعية . وشاهد ذلك أنه فى تاريخ الموسيقى ترتبط المفاهيم المتعلقة بالفن والمهارة الفنية ارتباطا أشد منها فى أى مكان آخر . فمنذ مطالع القرن الرابع عشر الى مغارب السادس عشر كانت الأشكال الموسيقية المستحبة هى التى قصد منها أن تكون محاكاة للأصوات الطبيعية : كضجيج الصيد ، وزئاط السوق ، وعجيج المعركة . ومن العسير علينا أن نرى ماذا عساه أن يكون هناك من علاقة بين محاولة مطابقة الموسيقى للطبيعة وبين روح « عصر النهضة » . وغنى عن البيان أن مما يختلف تماما عن هذا مديح السير توماس مور لموسيقى الكنيسة فى مدينته الفاضلة (اليوتوبيا) :

بيد أن هناك شيئا واحدا لا ريب أنهم يسبقوننا فيه بمراحل بعيدة . وذلك أن موسيقاهم بأسرها ـ سوء منها ما يلعبونه على الآلات ، وما يغنونه بالصوت البشرى ـ شديدة المشابهة فعلا للعواطف الطبيعية قوية التعبير عنها ؛ فالصوت والنغمة من بالغ المطابقة وجمال المناسبة للشىء ؛ بحيث أنهما صلاة كانا أم انشودة للمسرة أو الصبر أو التعب أو الحداد أو الغضب ، فان طراز اللحن من شدة التمثيل لمعنى الشىء ، كان يستطيع بصورة مدهشة أن

يحرك العاطفة أو يهز المشاعر أو يخترق العقول أو يلهب الأرواح من كل من يسمعه (١٥) ·

فهنا أيضـــا ، كانت الواقعية مثلا أعلى ، وان انطوت على مقصد مختلف تمام الاختلاف عن ذلك الدافع الســاذج الذى يدعو الى المحاكاة المخادعة : فهي واقعية موجهة نحو معنى الأشياء ، وتستطيع الغاء التضاد بين المفهوم المدرساني والمفهوم الجمالي العصرى عن الواقعية · وفى امكان المرء ان شاء أن يسمع وراء كلمات مور الواضحة الجميلة موزارت وبيتهوفن ، أى كامل مجموع موسيقى اليوتوبيا السرمدية : المثابة الحقة للموسيقى ·

وسنرى أسفل هذا أن أستاذا عظيما آخر كان على اتفاق رائع مـع مور فى فكرته عن الواقعية الحقة ·

ونحن نبدو حتى الآن كأنما قد قطعنا بأن هناك اقترانا معينا بين المذهب الواقعي و « عصر النهضة » · فمنذ حوالى ١٤٠٠ فصاعدا ، أصبح الفنانون والمفكرون متنبهين أكثر فأكثر الى مافى الفن من عنصر الواقعية باعتباره مسألة قائمة وعملا واجب الأداء · فقد طفق أوتشللو (*) يصارع المنظور حتى تمكن منه واكتشف ماساتشيو طريقة للتعبير عن مطابقةالطبيعة فاقت أسلوب جيوتو وتغلبت عليه · وأحرز فن التصـــوير الهولندى ، مستوى من الرسم الواقعى للمادة لم يبزه فيه أحد قبله ولا بعده · فأما فى الأدب ، فان الواقعية ظلت فى الخلفية بدرجة أكثر · ذلك أن الأدب فى كل الأزمان أكثر انشغالا بالأشياء منه بالأشكال ، كما أنه قد عاق طريقه ، انه على الرغم من أن الكلاسيكية الحديثة Neoclassicism قد عززت بالفعل قوة الدافع الى المشاهدة المباشرة من ناحية ، فقد حدث من ناحية أخرى ـ والى مدى أكبر كثيرا ـ ان العنصر البيانى فى اللغة شق طريقه بالقوة نحو الصدارة·اذ أن لغة جوانفيل(**)أو فيللانى لو حللت التحليل النهائى ، لظهر أنها واقعية أكثر من لغة مكيافللى مهما بلغ من واقعية فكر هذا الأخير ·

وموجز القول ، أن النتيجة الوحيدة التى قد يبدو لها مبرر فى نقطة الاقتران هذه هى أن مختلف التعبيرات عن الواقعية الأدبية والبصرية

(*) اوتشللو (١٣٩٧ ـ ١٤٧٥) فنان ايطالى ، ساعد جيبرلى فى صنع بوابات البرونز ، واشتهر بحبه للمنظور · (المترجم)

(**) جوانفيل : (١٢٢٤ ـ ١٣١٩) مؤرخ فرنسى ، صحب لويس التاسع فى حملة ١٢٥٤ ووصفها · (المترجم)

(العيانية) ، وهي التعبيرات التي تجلت هنا وهناك منذ القرن الثالث عشر فصاعدا ، كانت أشياء متفقة في الزمن (أى متزامنة) لاتتبدى فيها اية روابط ، لا بين بعضها البعض ولا مع مبدأ عام بحيث يصح تسميتها باسم « عصر النهضة » • وهناك زيادة عامة وتدريجية في الدافع نحو التعبير الواقعي ونحو ما فيه من المهارة الفنية • على أنه لو صح أن خير ما يوضح ظاهرة ثقافية هو ما تبلغه من قمة ، لأصبح من السهل علينا أن نصدر الأحكام على العلاقة بين الواقعية و « عصر النهضة » • ونشير هنا الى أن محاولة انتاج الأشياء الطبيعية مباشرة ، أى في حدود فرديتها ، بلغت ذروتها قبل الحركة الفكرية التى تسمى « بعصر النهضة » ولم يتهيأ لأحد توضيح ذلك بصورة أوضح ولا أصلح مما فعل هنريخ فولفلين(*)• والحق ان القرن الخامس عشر هو الذى يتصف بمشابهة الطبيعة، أما السادس عشر فلم يعد كذلك • ويتحد فن ايطاليا في القرن الخامس عشر (وهو المسمى بالأربعمئات) والمصورون الفلمنك بما يجمعهما من ميل الى المشاهدة يتجلى فيه العناية والجهد ، ومن احكام مطلق العنان وتفصيل دقيق • على أنهما في ذلك كله من السذج ، ومن المتمسكين بالنزعات العتيقة بحماسة الشباب • فاما القرن السادس عشر (الذى يسمونه بالخمسمئات) ، وهو الذى بلغت فيه روح النهضة ذروتها ، فانه انتصر على الواقعية — وكان عليه أن ينتصر عليها — ليحرز أشد ما فيها من العناصر أصالة : الشكل ، والأسلوب الفخم ، والايماءة الملحمية والدرامية ، والانسجام البالغ الكمال •

وهذا التحول والرفض حدثا في عقل ميشيل أنجلو في حالة شعورية كاملة وانفعالية • اذ يقال انه اعتبر أن من المهانة للفن رسم شيء أرضي بكل ما اتصف به من تحديد نوعي مالم يكن مفرط الجمال•وعندى أن توقير ليوناردو الهائل للطبيعة ، هو الذى تمخض عما يتصف به فنه التصويرى من متابعة غريبة وشاذة للطبيعة بوصف كون ذلك التصوير فرعا واحدا فقط من روح تجاوزت كثيرا في مجموعها حدود الواقعية المدققة • ويقول سياى Seailles الواقع أن واقعيته تعد أدهش ايمان بتلك الروح •

(*) هنريخ فولفلين : (١٨٦٤ ـ ١٩٤٥) مؤرخ فنون سويسرى ، خلف بركهارت في الكراسي الجامعية ، وله كتاب يضع أسس معالجة تحليلية للاسلوب في الفنون • (المترجم)

وربما صح لنا أن نقول ان المذهب الواقعي كان بالنسبة « لعصر النهضة » بمثابة الاعداد والتمهيد ، فهو حالة انتقالية ، وانه لا يجرى منها مجرى النتيجة النهائية أو الهدف • وقد تجسد الانتقال فى شخص دورر بكل من فنه وما قاله حول الفن ومثله الأعلى فيه • ذلك أن دورر حسبما يروى ميلانكتن(*)(١٦)وصف قرب نهاية حياته، تطوره كفنان على الوجه التالى : ففى شبابه أحب صنع التصاوير الزاهية الألوان المتعددة الأشكال وتخطيط الرسوم السيئة الأشكال والعجيبة التكوين • على أنه شرع فى سن أنضج فى ملاحظة الطبيعة ومحاكاة محياها الأصيل محاكاة صادقة ما أمكنه ذلك ، كما أنه اكتشف أن تلك البساطة هى أعلى ما يستطيع الفن أن يتوج به هامته من حلية ، وان تعلم فى الوقت نفسه مدى صعوبة عدم الزيغ عن الطبيعة •

ولأول وهلة يبدو هذا القول اعترافا صريحا بالمطابقة المطلقة للطبيعة، وهو الأمر الذى تؤكده فى أكثر من موضع كتابات دورر نفسه :

« بيد أن الحياة فى الطبيعة تسمح لنا بادراك مافى هذه الأشياء من صدق • فعليكم اذن بملاحظتها ببالغ الكد ، وتمشوا معها وتطابقوا واياها ، ولا تحيدوا عنها معتقدين أنكم مستطيعون أن تجدوها بأنفسكم ، فانكم عندئذ تكونون قد ضللتم • اذ الحق أن الفن يكمن فى الطبيعة ؛ فمن استطاع استخلاصه منها فقد احتازه •••• لذلك لا تتصوروا قط أنكم استطعتم ، أو ينبغى لكم أن تخلقوا شيئا أحسن مما أعطى الله طبيعته المخلوقة القدرة على احداثه من الأشياء • وذلك أن قدرتكم عاجزة تلقاء خليقة الله » •

ثم يقول فى موضع آخر : « وذلك لأنه ان كان ضد الطبيعة ، فهو اذن شر •••• » (١٧)

ولا يكاد يحتاج الى قول ، أن دورر قد كشف بالفعل مرارا وتكرارا فيما أنتج من عمل أنه من أشد من يستطيع تاريخ الفن أن يشير اليهم بالبنان باعتبارهم من أشد الفنانين مطابقة للطبيعة • وهو أمر ينطبق بوجه خاص على ما أنتج من رسوم ، وما على المرء الا أن يتذكر تجيل

(*) ميلنكتن (١٤٩٧ — ١٥٦٠) قسيس المانى من رجال الاصلاح الدينى ، عاون لوثر فى ترجمة العهد الجديد الى الالمانية واشترك فى تأسيس العقيدة البروتستنتية • (المترجم)

الثرى المعشب ، وباقة البنفسج ، وجناح الحمامة الميتة والأرنب البرى • ولم يتيسر لأحد قبل المصورين الفرنسيين العصريين أن ينتج منظرا طبيعيا Landscape ولامشهدا عاما Panorama لمدينة ، مثلما فعل دورر وجعله خاليا من كل أسلوبية أو تنظيم أو تحويل • على أن هذا كله يقع تحت صنف التخطيطات والتداريب ، وليس بأعلى جهود دورر الشعورية الفنيـة •

على أن بادرة من الشك قد تنشأ عندما يتساءل المرء هل يتطابق العمل الأكبر الذى أنتجه دورر وتفسيره هو نفسه لمجرى تطوره كما وصفه لميلانكتن • فلئن حدث منه حقا انصراف عن كل وهمى غريب أو شاذ الى المحاكاة البسيطة للطبيعة ، فقد وجب اذن أن تظهر أعماله الأخيرة أعلى درجات المطابقة المباشرة للطبيعة ، وحق للأولى القديمة منها أن تنم عن نقص معين فى المشاهدة الدقيقة للطبيعة • على أن موازنة بين عمله الأخير، « الرسل والانجيليون » ، وبين بعض ما عمل فى شبابه كصورة أبيه ، تكشف عن عكس ذلك • ففى عمله فى شبابه يستطيع المرء أن يلمس الكد فى طلب الواقعية ، والتخطيط المضبوط للتفاصـيل ، وهو الشىء الذى استصوبه هو نفسه وزكاه ، « دون حذف أصغر الغصون والعروق••• » على أن « الرسل » تظهر فيها واقعية ، يتجلى فيها فى الحين نفسه التقييد والتعميق والتسامى • فنحن نحس فجـأة أن الواقعية فى صورة والده وان بدت مرادفة للمطابقة للطبيعـة ، فان صفة الواقعية بالنسـبة لصورة الرسل والانجيليين تنطبق مع ذلك ، وان لم يمكن اطلاق صفة المطابقة للطبيعة عليها •

فهل كان رأى دورر فى تطوره نفسه خاطئا ، أم أن ملانكتن أساء فهمه وسـجل كلماته خطأ ؟ ربما لا • فان دورر لم ينشـد الطبيعة فحسب ، بل نشد فيها فى الوقت نفسه الجمال • فقد قال : « أما ما هو الجمال فشىء لا أعرفه ، وان ارتكن على أشياء كثيرة » • فهو شىء يكمن فى الطبيعة ، ويشير فى الوقت نفسه الى ما وراء الطبيعة • والانسان لا يستطيع فهم الجمال المطلق • « وذلك أنى أعتقد أنه لايوجد فى الدنيا انسان يستطيع أن يسبر الهدف المفرط الجمال الكامن فى أصغر المخلوقات حجما » •

فالذى حـدث فعـلا هو أن دورر قد أدرك بالتدريج وفى تنبه تام متزايد أن جميع ما فتن به فى حداثة سنه من تفاصيل عارضة ومحكمة

وغريبة وغير هامة أمور مزعجة ولا حاجة تدعو اليها ، وأنه رفضها ابتغاء التماس البساطة البطولية والراحة المطلقة والدلالة المباشرة • وذلك هو ما أسماه « بالمحيا الأصيل للطبيعة » في أثناء حديثه مع ميلانكتن •

ومر بدورر في أثناء هذا الانتقال من التعدد الى الوحدة ، نفس التحول العظيم الذي ألم بعصره ، ذلك التحول الذي يشير اليه كممثل لعصر النهضة» ويجعله قريبا قربا جوهريا من رافاييل ومايكلانجلو• ذلك أن جوهر « عصر النهضـــة » يكمن في الانتصـــار على المطابقة الساذجة للطبيعة ، كما أن عدم القدرة على فهم هذه الحقيقة ، هو الذي أدى الى ضم يان فان ايك خطأ الى « عصر النهضة » • فان وجب اجراء تقسيم ، فان الأنسب اعتبار فن القرن الخامس عشر (الأربعمئات quattrocento) في ايطاليا قسما أساسيا من القرون الوسطى ، وذلك بالضبط بسبب ماران عليه من سمة الواقعية •

والواقعية الدقيقة انما تتطور في مجال ما لا ضرورة له ، أي ما هو اضافي من زخرف ، كما أنهـــا على طول المدى لا تســتطيع أن تتماسك وتصون بقاءها الا في ذلك وحده فقط • فالفن العظيم انما هو على الدوام فن له هدف ومعنى يربط شكل تعبيره ويحدده • فهو شيء متأصل المغرس في صلاة (١٨) أو في عبادة ، ومن ثم فهو شيء عظيم الأهمية أو مقدس • فمثل هذا الفن ، متى ارتبط بأسلوب للحياة ، لا مفر له على الدوام من النصر على الواقعية • وما هو الا أن يفقد شـطر كبير من الفن كل علاقة باحدى العبادات أو يبدو كأنما فقدها ، حتى تستطيع الواقعية أن تتطور دون عائق بوصفها شكلا للفن وذلك هو ما حدث بعد « عصر النهضة » • فبظهور « عصر النهضة » حدث ارتفاع جديد ومديد الى الذروة في خط سير الواقعية ، وبخاصة في الفن الهولندي •

ولعل هذا هو مكان الاشارة الموجزة الى أشد خلق الله أخذا مطلقا بمذهب مطابقة الطبيعة ، وهو برنارد باليسي(*) • فهو انسان يكاد فصله عن « عصر النهضة » يبدو عسيرا ، وذلك بالنظر الى العصر الذي عاش فيه (١٥١٠ ـ ١٥٨٩) والوسط الذي عمل من أجله : وهو دوائر البلاط الفرنسي • وهو صانع خزف ومهندس معماري للحدائق وكاتب • وقد ثار في وجه كل مبدأ من مبادىء صناعة الخزف بما صنع من صحون ، نقشت فيها السحالي وأوراق الشجر والحشرات في نقش بارز سميك Haut-relief

---

(*) برناردباليس (١٥١٠ ـ ١٥٨٩) خزاف فرنسي • (المترجم)

دون أى ترتيب شكلي أو أسلوبية زخرفية · ومن سوء الحظ أن شيئا من مبتدعاته ذات الانتاج الكبير لم يحفظ الينا حتى الآن (عدا النظرية التى تقوم عليها تلك المبتدعات) ، وفيها أطلق العنان لنفس تلك النزعة المطلقة من المطابقة للطبيعة · ومن أسف أيضا أن الكهوف الريفية التى صممها باليسي (ونفـذها جزئيا) للملـكة وكونستابل دى مونتمورنسي وكثير غيرهما ، لا نعرفها الا من طريق كتاباته (١٩) الرائعة · وهو يعتقد أن المحاكاة المباشرة للطبيعة أثمن كثيرا من جميع قواعد هندسة العمارة · وهو يستخدم الأشجار الحقيقية عمدانا فى كهوفه · وقد طليت الجدران تماما بالميناء ذات الألوان المتداخلة المنسابة ، وبلغ من فرط صقالها أن السحالي والسرطان البحرى كانت تستطيع رؤية صورها منعكسة ·

ويبدو لى أن نزعة باليسي فى المطابقة والطبيعة ينبغى الا ينظر اليها باعتبارها تعبيرا عن مبدأ فنى « لعصر النهضة » بقدر ما تعد تيارا ذهنيا مهما يبلغ مدى انبجاسه عن روح « عصر النهضة » ــ فانه ليس من حيث جوهره ناحيتها الفنية · وعندى أن مكان باليسي يوجد بين تلك العقول التى ظلت تطارد وتتصيد ، وتخبط بحماسة فى أطواء الطبيعة رغبة فى استكشاف أسرارها ، وبذلك مهدت السبيل للعلوم الطبيعية ذات الطابع الوضعى(*) Positivistic ومع ذلك ، فانه هو أيضا له نصيب من ذلك العلم : فان باكون تعلم عنه (٢٠) · والحق ان دائرة البحث الجرىء المغامر شبه التصوفى المنقب فى الكيمياء والصنعة (**) Alchemy ، التى نشأت فيها الكراسات التكنيكية التى لاتزال تسمى سحر الطبيعة Magia naturalis (٢١) ، وهى الدائرة التى عاش فيها وعمل جيورجيوس أجريكولا أكبر تكنولوجى فى القرن السادس عشر الذى ملأ أنفاقه بالشياطين ، والدائرة التى أنتجت جيرونيموكاردانو وباراكلسوس وجيوم (غليوم) بوستل وجان بودان ، وأيضا فيسالسيوس ورمبرت دودوينز · وبنفس هاته الروح ألف ليوناردو خيالاته العجيبة عن الأشكال الحيوانية ، وقام بتجاربه واستحدث مخترعاته · غير أن ليوناردو كفنان، قد ملك وأعطى أكثر من ذلك كثيرا : فانه اتصف بالشمولية والعبقرية؛ على حين أن باليسي لم يكن الا صاحب موهبة تغلها التحديدات · واذ أنه

(*) وهى المسماه أحيانا بالفلسفة اليقينية أو الوضعية · (المترجم)

(**) يراد بالصنعة الكيمياء القديمة التى كانت تلتمس صنع الذهب من المعادن الخسيسة · (المترجم)

كان أساسا من دارسي العلوم ، فانه ضحى بالفن على مذبح المطـــابقة للطبيعة • (٢٢)

ولو استقرأنا خط المذهب الواقعي لوجدنا أن تعقبه في مجـــال الادب أصعب على الدوام منه في الفنـــون التصـــويرية • على أن هنــاك استثناء من ذلك هو الواقعية الأدبية التي تؤخذ بمعنى الوصـف الدقيق التفصيلي لفلذة من الحقيقة ، والتي هي كظاهرة أدبية ليست في العادة الا طرازا (موضه) عابرا • فالواقعية في الأدب انما هي بالطبيعة مفهوم نسبي بدرجة أكثر كثيرا من الواقعية في شكل مرئي ، وذلك لأن الفكرة مختلطة بغيرها دائما في التعبير اللغوي ، وتقتضي الاختيار والتفســير والتقييد • ولو أزمعنا في اللغة التمسك بالواقعية الجمالية تمسكا ثابتا ، لوصلنا الى مرتبة المذهب الاسمي Nominalism التطبيقي • ولكن اللغة لا تستطيع أن تعيش في عالم اسمي جذريا الا بقدر ما يستطيع الانسان نفسه العيش فيه • ومن هنا فان نفس طبيعة تفكيرنا وكلامنا تعمل دائما على ارجاع الواقعية الوصفية أدراجها الى مرحلة الواقعية الاســتدعائية أو التوكيدية •

وبينما « عصر النهضة » في عنفوانه ، حدث ذلك الشيء نفســه للأدب مثلما حدث للفنون المرئية : فانتصر الميل المتجه نحو الواقعية وأذاب نفسه في المبدأ الذي هو روح « عصر النهضــة » ذاته ، ألا وهو مبــدأ الانسجام • فموضع رافاييل من فن التصوير هو موضع أريوستو من الأدب • فمن شاء التعبير عن اكتمال « عصر النهضة » بأسماء الأشخاص فبحسبه هذين •

أما اريوستو فهو شاعر قد من خيال بحت ، كمـــا أنه في الحين نفسه شاعر مطلق الدقة • فانه يعبر عن كل شيء بكلمات قاعدية • فهو لا يغمض شيئا ، وهو لا يعمل مستخدما ظلال الفروق غير المحسة • وهو لا يعمد الى الاشارة ولا التلويح أو الاحالة • فكـــل شيء يبدو فيه بالغ القصد الى الغاية المباشرة ، كأنما هو سماء الصيف في صفائه واشراق الوانه • وكأنما ليس هناك في الظاهر مجال لتطبيق أي مفهوم للواقعية الأدبية • ومع ذلك فان اريوستو ينطوي على عنصر واقعي ذي ســـمة واعية ، وذلك فضــلا عن أن استخدامه المفرط الواقعية للغة ، ربما استحق هو نفسه معه اطلاق تلك التسمية عليه • فلو اتجهنا الى ما دون الصورة الخيالية أمكننا أن نترسم المرة بعد الأخرى محاولة حريصة لرسم الواقع

بدقة • وهراسات أريوستو الوصفية الطبوغرافية ، على جميع ما بهـا من وهم خائل ـ تعد نوعية محددة تماما وحقيقية• فاذا نحن قفونا الطرق التي يجعل الشاعر أبطاله (مثل استولفو مثلا) يسلكونها في سفرهم، أذهلنا أن نكتشف أن في الامكان أحيانا تتبعها بالتفصيل على احـدى الخرائط • فهو يصف باريس ، التي لم يدخلها قط ، كأنما ينظر الى رسم للمدينة (٢٣) •

تقع باريس في سهل لطيف ،
وهي تكاد تنزل في السرة من فرنسا أو بالحرى في القلب منها ،
والنهر يشقها الى شطرين
جاعلا من خير أجزائها جزيرة ،
والباقي الذي تسربله العظمة أكثر يحتوى ،
على خندق وسور وينفصل عن السهل •

وقد أسلفنا اليك أنه انقضت مدة طويلة ، كان فيها الاعجـاب الوحيد الذي استطاع نقد الفن في أيامه المبكرة التعبير عنه ، بالنسبة لاحدى الصور ، هو القول بأنها تقريب ناجح للحقيقة • وتلك أيضا هي وجهة نظر معاصرى أريوستو وتاسو فيما يتعلق بالأدب • فهم يتفقون مع القسيس في رواية دون كيخوتي حين فضل قصة تيرانتي ال بلانكو Tirante el Blanco على جميع الروايات الفروسية الرومانسية الأخرى لأن « الفرسان فيها يأكلون فعلا ويشربون ويناموں ويموتون في فراشهم موتا طبيعيا ، ويوصون بوصاياهم قبل موتهم : مع أشياء أخرى كثيرة تعوز بالفعل جميع الكتب الأخرى التي تدور حول هذا الموضوع »(٢٤)•

وقد انتقد القرن السادس عشر كل ما ورد عند أريوستو وتاسو مما خالف الواقع أو بعد عن الاحتمال : فاتهم انجليكا بمفرط الصراحة وأرميدا بالغلو في الانفعال ورينالدو بفرط الضعف وأورلندو بالاسراف في الرقة • بل لقد حدث أن جاليليو نفسه الذي هاجم تاسو نتيجـة لاعجابه بأريوستو، قد انتقد الأخير على اعتبار أن ارمينيا لم تكن لتستطيع رؤية الأشخاص الذين وصفتهم ، عن البعد المذكور في القصة ، وأنه من غير الطبيعي للمسيحيين جميعا أن يقولوا الأقوال نفسها في وقت واحد •

ان رصانة « عصر النهضة » لا تقوم في مذهب الواقعية ، وذلك لأن الواقع الذي هذبته النهضة ورفعته الى مكانة الأسلوب كان مرتبكا

مبلبلا • ولكن الواقعية الجمالية يمكن تشديدها وجعلها واقعية مفرطة Hyperrealism بدلا من رفعها بجعلها أسلوبا • ذلك أن المبالغة شيء لا يمكن تجنبه في أثناء البحث عن أشـــد أنواع التعبير عن الحقيقـــة (الواقع) روعة • فيصـبح التعبير المرتسم على المحيا البشرى تلعيبا مازحا للاساريو • وفعلا اتخذت هذه الخطوة ، ولم يكن ذلك فقط على يد كبار المصورين الهولنديين في القرن الخامس عشر ، بل ومن قبلهم أيضا على مرقاش جيوتو • وكل ما فعله هيرونيموس بوش هو أنه حول المبالغة الى منهاج فني شعورى • وسرعان ما أدت هذه الواقعية المفرطة في أيدى الأساتذة العظام في انتاج فن بالغ الفخامة والخيال على يد ماتياس جرونفالد وبيتربرويجهل • فأما الشـــكل الذى ظهر في الأدب فهو الذى استنه رابيليه •

وهذا آبل ليفرانك أحدث من تولى نشر مؤلفات رابيليه ، قد عنون جزءا من مقدمته باسم « واقعية رابيليه » • وهى تبدأ على النحو التالى : « لا شك أن من أوكد نتائج الأبحاث الحـديثة في أدب رابيليه ، اظهار أن رابيليه أعظم رجال المذهب الواقعي وأشدهم حذقا ، أعنى أنه الكاتب الذى نشد الصدق وأحبه ومثله ، أو قل بالحرى الحياة بما لا مثيل له من الحمية والاستمرار والقوة » • (٢٥) وهو قول لا يعوزه التـــأكد والتثبت • وفضلا عن ذلك ، فان رأى جوستاف لانسون لا يختلف عن هذا في قليل أو كثير حيث قال : « ان واقعية أنقى من هذه وأقوى وأشد انتصارا لم يشهدها أحد قبل ذلك أبدا •••• فانه كان وسيظل على الدوام مصدر كل واقعية ، وهو بمفرده أعظم من جميع التيارات التى تفرعت من بعده • » (٢٦)

ونظرا لأن أحدا لم يستطع أن يتجه الى عزل رابيليه عن الظاهرة المعقدة التى نسميها « بعصر النهضة » ، فانه يبدو أنه توجد هنا علاقة بين مذهب الواقعية «وعصر النهضة» تعطينا فرصة لتوقف عندها ــ ما لم يتضح لنا أن ما عناه ليفرانك ولانسون بلفظة الواقعية لا يستوى تماما والمفهوم الذى حاولنا هنا رسم خطوطه تدريجيا •

ويتحسس ليفرانك واقعيـــة رابيليه في كل ما أظهره من اهتمام حار بجميع شئون زمانه : الحكومة والسياســـة والاستكشـــافات وموضوعات الساعة والمسائل الدينية والمنازعات بين العلماء وهلم جرا • وهو يجد تلك الواقعية في الدقة التى أظهرها رابيليه في تحليل الشئون،

فى استخدامه الدقيق لمصطلحات السفن في قصة العاصفة • كما يجدها فى الدقة المطلقة وانضباط التعبير واكتمال الصور الخيالية ؛ وطلاقة الحوار ؛ « وحب الاستطلاع اللانهائى » الذى يتجلى فى تجميع الكلمات والأخيلة ؛ وقوائم الألعاب وصنوف مواد الطعام والحرف والثياب وأعمال المطابخ وما الى ذلك • وانه فوق كل شىء ليوضح واقعية رابيليه فى حقيقة أخرى هى أن جميع ما تحتويه ترجمة جرجنتواه مستمد من خبرة عائلة رابيليه وتاريخها المحلى • وقد قضى جرجنتواه فترة شبابه فى بيئة مدينة شينون ، كما أن مزرعة جراند جوسييه هى بالضبط لاديفينيير، وهى المزرعة التى عاش بها أنطوان رابيليه والد المؤلف • والحرب التى نشبت بين رعاة مزرعة جراند جوسييه وخبـــازى الكعك عند الملك بيكروشول تقابل نزاعا قانونيا بين أنطوان رابيليه وشخص معين يدعى جوشيه دى سانت مارت •

فالأمر كله يبدو كأنما هو مذهب الواقعية فى أكمل صوره ، وهو فى نفس الوقت صورة « عصر النهضة » فى أزهى أحواله • وفى طوفان فياض من الكلمات الشهية الفوارة الراعدة تبدو حقيقة الحياة بأكملها كأنما تكر أمامنا فى تيار متواصل الجريان • وذلك كله يمكن أن يسمى باسم الواقعية بقدر ما يتصل بالمادة والمضمون والأغراض • ولكن هل يستطيع المرء أن يقول ان ذلك هو الواقعية من حيث مدلولها وشكلهـــا بمعنى أنها حاجة الى رسم الحقيقة رسما مضبوطا ؟ الواقع أن معالجة رابيليه « للحرب البيكروشولية » ، انما هى فى جوهرها على النقيض من ذلك تماما • نعم ان نقطة ابتدائه حقيقة مؤكدة ، بيد أنه يتعمد تحويل تلك الحقيقة قصدا الى خيال جميل مشرق وشكل شبه بطولى • وذلك هو ما يفعله فى كل مكان • فهو يشوه كل شىء الى حد المبالغة ، وهو يعبث بالحقيقة ، وهو يلف مناسباتها بسرور طفولى ، وهو ينفخهـــا ويضخمها حتى تصبح أوهاما مخلطة هزلية •

فكأنه حدث فى حالة رابيليه اذن نصر على الواقعية ، وهو هنا أيضا نصر أحرزه « عصر النهضة » • ومعنى ذلك ، أنه أحرزته روح تتوق الى الرجوع الى الأسطورى البدائى والحماسى الجياش والهرقلى قوة — روح لم يعد فى الامكان التعبير عنها بما للكنيسة أو قصة الوردة Roman de la Rose من مجازات رمزية • وطالما سيطرت الروح الوسيطية فوجـــدت هاته الحاجات وسيلة التعبير عنها فى الأشكال الواقعية البسيطة ، وهى ماهى من التلقائية والسذاجة • فلما اقبلت النهضة صار الشكل بطوليـــا •

ورابيليه فى تخيلاته البطولية أقرب الناس الى أريوستو ، رغم ما يفرق بين الاثنين من تعارض كتعارض الكون والفساد .

ثم ان التخيل البطولى يربط أيضا رابيليه وأريوستو الى عبقرى أعظم منهما جميعــا : مايكلانجلو . وأريوستو ورابيليه هما قطبا «عصر النهضة» ـ فان ما لأحدهما من انسجام ورصانة ورنين طنان وصـفاء سعيد ، متضارب مع ما للآخر من فوضى مضطربة معتكره جياشة مختمرة الحال التى قدر لها بعد باراكلسوس(*) أن تفضى الى نوع جديد من العلم، والتى أرهصت بسرفانتير وبن جونسون ورامبرانت . وجاء مايكلانجلو بفنــه فكان الجسر الذى قام فوق الهــوة الفاصــلة بين رابيليــه وأريوستو . فقد ذوب فى شخصــه التعارض بين فرط الواقعية المتسم بالقلق والتحسس الحذر ، وبين ما يتصف به الأسلوب الفخم الانسجامى من الرصانة الأبدية . ولكن أعوزه عنصر الضحك .

ومتى حاولنا النفاذ الى لباب النهضة وجوهرها ، يتضح لنا أن ميزان الواقعية ليس ذا أهمية خاصة فى فهمهــا . فان الواقعية تصــاحب التجديد العظيم للثقافة الغربية حينا من الدهر أثناء نهوض تلك الثقافة، ثم عادت بعد ذلك فاختفت فجأة عن الأنظار ، ومن بعدها تبدو كأنمــا أصبحت غير كبيرة الأهميــة . وربما تكرر ظهور الواقعيــة الجمالية فى عصور أخرى كأنما هى احتجاج ، أورد فعل على الغلو فى طبع الفــكر والصورة الخائلة بالأسلوبية ، ولكنها بالنسبة الى النهضة أقرب الأشياء الى ما يصحب النمو من الآلام . وقد اتصفت العصور الوسطى على الدوام بالواقعية الساذجة ، بقدر ما أتاح الأسلوب التكنيكى للتعبير فى تلك العصور . ولا تخط النهضة أى خط حاد وفاصل فى تاريخ الأعمــال والانشاءات الواقعية . وعلى الجملة ، لاتدل محاولة اعادة انتاج أشكال الحقيقة انتاجا مضبوطا (وهى شىء تقتضى الدقة فى التعبير أن يسمى بالاسـمية التشــكيلية Plastic nominalism) الا على أن التمــكن الفنى والاستاذية التكنيكية قد قاما رويدا رويدا . فهى تنبجس كنبات برى فى بستان الفن . ولو اخذت من وجهة نظر المفهوم المدرسانى عن الواقعية ، لتجلى أنها لا تمس الا ظواهر الأشياء . ولكن جوهر الأشياء

(*) باراكلسـوس : (١٤٩٣ ـ ١٥٤١) طبيب سويسرى كان تعليمه مضــطربا جدا . تعلم الكيمياء والكيميــاء القـديمة وعلم المعادن والفلدات . واكتسب معلومات ضخمة من الاسـفار . (المترجم)

كما تعبر عنه الفكرة يحتاج على الدوام الى مسبار يسبره من جديد ، ولهذه الغـــاية وجب دوما أن نبدأ أولا باختراق الحجب حتى نصل الى رؤية واضحة للحقيقة المقدسة لنا٠ويتحدث ماكس شيللر (٢٧) عن الفلسفات الاسمية Nominalisms الجديدة التى تحتاج اليها المدنية البشرية من حين لآخر ٠ ومن هنا يجد الحكماء ورجال العلم أنفسهما من حين الى آخر امام حالة يدركان فيها أن العالم ليس فى الواقع على تلك الصـــــورة المرتسمة لنا ، أى ليس على الشاكلة التى تقدمه فيها الينا الكلمـــــات والمفاهيم ٠ وبنفس الطريقة يضطر الفن دائما لكى يظل على قيد الحياة، أن يداوم القيام بعملية العودة الى الطبيعة التى نسميها بالواقعية بمعناها العادى ٠

وما أن تتطور هذه الواقعية ، حتى تتحل فى العادة من جديد بكل سرعة ، بعـــد أن تهب حيـــاة جديدة لنفس النزعات التى بدت كأنمـــا تعارضها وهنا يحدث أن نوعا جديدا من الرمزية أو من الكتابة الرمزية Ideography او من الطرز أو من الأسلوب غالبا ما يستمد قوته من قوة ثبات جذوره التى تأصل بها فى واقعية سابقة ٠ وهو وضع يصدق عن «عصر النهضة» ، كما أنه يصدق أيضا عن عصر الباروك والكلاسيكية الحديثة والرومانتيكية ٠

إحياء ذكرى ارازموس (*)

حدث بعد أن أقام ارازموس في بال بفترة من الزمن ، أن جاءه اقتراح من مدينة زيورخ بأنه يجدر به أن يستقر بها ويحصل على مواطنية المدينة . بيد أنه رفض الاقتراح دافعا بأنه يؤثر أن يكون مواطنا بالعالم كله ، لا بمدينة واحدة فقط . وظلت زيورخ أجنبية بالنسبة اليه ، مهما اشتد في بعض الأحيان اتصاله الفكري بالفيلسوف زوينجلي . على أن بال أصبحت المدينة التي ظلت الى الأبد مرتبطة بذكراه . وقد وقفنا أول أمس على قبره هنا في بال . وقد أحاطت بنا نفس الأشياء التي استقرت عليها عيناه عند دلوف شمس سنه العالية للمغيب . واختارت مدينة بال أن تحتفل بذكرى وفاته في نفس يوم مولده تقريبا، وهو يطابق بعد غد . وكأنما القصد تلخيص ذكرى حياته برمتها في حدود هذه الساعة الواحدة . وقد دارت محاور تلك الحياة بين مسقط رأسه ومغنى طفولته وشبابه ، هولندا القاصية وبين مدينة بال العاملة الكادحة التي شهدت أشد أدوار نشاطه انتاجا كما شهدت وفاته . أجل ان باريس وانجلترا وايطاليا ولوفان تكون فصولا هامة في حياته ، ولكن هولندا وبال أضفت عليها صورتها النهائية . وغني عن البيان أن نهر الراين ذلك الشريط الفضي الفياض يربط ما بين هولندا وبين بال ، وأن حياة ارازموس الروتردامي انسابت بالمثل يوما ما بين منبعه وبين نهايته . وربما انتمى ارازموس الى العالم بأسره ، ولكنه ينتمي بشكل أوثق بهولندة وسويسرة .

(*) «Erasmus-Geden Krede» كلمة ألقيت في كاتدرائية بال في اكتوبر ١٩٣٦ . نشرت لأول مرة في باريرجا Parerga ، التي تصدرها ورنوكايجي ، امستردام وبدل ١٩٣٩) ص ٦٥ ــ ٨٤ . ونشرت الترجمة عن النص الالماني ف Verzamelde werken مج ٦ ص ٢٠٤ ــ ٢١٩ .

وعندما كان ارازموس يعيش فى بال ، فلاشك أنه لم يدر بخلده قط أنه لن ينقضى طويل زمن حتى يصبح لهذين القطرين : أرض وطنه الأصلي وملجئه المختار مركزان متماثلان فى المشهد السياسى الأوربى . أجل انه حدث فعلا أن الاتحاد السويسرى قد وطد أقدامه باعتباره كيانا سياسيا منفصلا جديدا . فمدينة بال لم تكن مجرد بلد من أعمال جرمانيا في نظر ارازموس ، فهو قد سماها هلفتيا . وبرغم ذلك فان الاستقلال المقبل على الأراضى المنخفضة كان لايزال دفينا فى صدر الزمان. ومع ذلك ، فان موطنه الأصلي لم يكن بالنسبة اليه مجرد جرمانيا أيضا. فانه كان يتحدث عن الأراضى المنخفضة باسم الوطن Patria ، ولكن لم يكد يكون لديه اسم منفصل لذلك «الوطن». وكان أقرب الأسماء الى اسم بلاده هو برابانتيا ، بل انه حتى لفظ برجنديا كان يمكن أن يستخدم بوصفه اسم جمع شامل . وبعد وفاته بنصف قرن استطاع وطنه الباتافي أن يكون من نفسه قسيما وشقيقا للاتحاد السويسرى تحت اسم الأقاليم المتحدة . وبذلك تكونت جمهوريتان حرتان قدر لهما أن تحدثا طابعا مميزا قويا فى العالم السياسى فى القرن السابع عشر . على أن ذلك شيء لم يكن فى الامكان أن يكون لدى ارازموس عنه أية فكرة .

وفي هذه الساعة وهنا فى بال ، مثلما حدث قبل ذلك فى روتردام، أضاف التماثل فى المصير بين بلدينا وفكرة الصداقة المهذبة التى وحدتهما على كر الأيام والسنين ، عنصرا من العواطف العميقة الى احتفالنا المشترك بذكرى ارازموس . وها هما الشعبان السويسرى والهولندى يحتفلان معا بالذكرى السنوية لوفاة ارازموس ، توحد بينهما الروابط الروحية: الروابط التى وجدت تعبيرها الرمزى هنا فى بال فى حقيقة ماثلة ، هى أن هولنديا قد منح هنا شرف السماح له بأن يتذكر ارازموس فى المدينة التى طبع له مؤلفاته فيها فروبن وصور صورته فيها هولبين ، المدينة التى أحاط به فيها أعز أصدقائه ومنحوه الحماية . وقد تقبلت هذا الشرف العظيم ببالغ السرور والشكر واتخذت منه رمزا للاحساس العميق بالوحدة والتماثل الفكرى بين بلادكم وبلادى .

فما هذا الشيء الذى أضفى تلك النغمة العميقة الجدية على احتفالات هذه السنة المخصصة لذكرى ارازموس ؟ ليس الجواب على ذلك بالأمر العسير . اذ الحق أن ذكرى ارازموس تؤلمنا . فان عالم اليوم انما هو من كثير من الأوجه من بالغ العنف والخشونة فى تناقضه وروح ارازموس ، بحيث اننا بما نحس به من حاجة ماسة الى كلمة منقذة أو

فكرة مخلصة منجية ، قد اضطررنا أن نلتفت بأبصارنا اليه مرة أخرى شاخصين • فمنذ اثنتى عشرة سنة عبرت عن رأيي بأن ارازموس قد أحرز فرصته في النجاح • فان نفوذه قد تغلغل في ثقافتنا منذ زمن بعيد • وفي العام الماضي كتب أحد أبناء مدينتكم ، وهو الأستاذ فرنر كايجي ، الذى ارتبط واياه بفضل ارازموس بأوثق روابط الصداقة ، مشيرا الى هذا الرأى الذى ارتأيته : « يبدو أن مجرى الأحداث في العالم قد فعل في الحين نفسه كل ما في الامكان لاعادة اتخاذ ارازموس مدارا للدراسة والبحث • فان لحياه في عالم اليوم مظهرا أشد عصرية مما كان له حوالى ١٩٢٣ ، حتى لكانما لديه شيء آخر يريد قوله ، وكانما سخرية الفاظه ستظل ترن في الأسماع بنفس شدة المرارة واللذع » • وذلك شأنها فعلا • فان ارازموس يقدم الينا النصح للمرة الثانية وبغاية الاصرار والالحاح • فهل لا يزال لديه حقا أشياء جديدة يريد الادلاء بها الينا ؟ أشياء لم نفهمها من قبل ؟ الواقع ان ذلك ما لا يكاد الأمر يصل اليه الا بصعوبة • اذ الحق ان كلماته هى نفسها الكلمات القديمة ، ولكنها اكتسبت صوتا جديدا •

وليس في نيتي أن أجعل ارازموس يتحدث هنا بنفسه بواسطة طائفة من الاقتباسات أنقلها عنه • فان نقل أقوال ارازموس حرفيا يستغرق منا قدرا كبيرا من الوقت • وخلاصة القول فيه انه لا يكتب في صورة كلمات جامعة • وخير ما اتصف به من سجايا ، وهى استهجانه النبيل — وان اتصف بالسذاجة أيضا — للعنف والشقاق ونكث العهود ؛ والمعالجة الكوميدية اللاذعة التي تحتويها سخريته الجادة ؛ وبصيرته الناضجة بفن العيش الصالح ؛ والنغمة الصامتة المنبعثة من تقواه البسيطة — كل ذلك لا يستبان ولا يتأتى الا في تيار المفيض الوديع لأبحاثه اللاتينية • وما أنا بحاجة أن أقول ان الاقتباس عنه بلغة مترجمة يجرد المنقول من كل ما له من سحر • فلنحاول اذن أن نفسر معضلة معينة وضعها ارازموس لنا • وان كل تفصيلة نوعية في شخص ارازموس باعتباره جزءا من ميراثنا الروحي لتبدو قديمة قد فات أوانها ولا يجوز تقديرها الا من الناحية التاريخية • ومع ذلك ، فان المجموع الكلى ، أى الشخص بوصفه كذلك ، لايزال يصدر عنه نفوذ قوى حتى في هذه الأيام • فالعالم لا يستطيع أن ينساه • وهو لايزال يقف هناك ، ويشير الينا ويقدم الينا النصح • فما السبب في هذا التباين الواضح ؟ سأحاول ان أوضح التباين ، وربما أن أقدم لكم حله ومفتاحه ، معتمدا في ذلك

على استعراض سريع لاتجاهات ارازموس فى الشئون الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية ، مختتما أقوالى باتجاهاته من الطبيعة والعلوم والفنون .

اسلفت اليكم من توى أن نواحى ارازموس المميزة قديمة كلها قد فات أوانها . فالعالم لم يعد يقرؤه ولا يستمتع به . وبناء على ذلك صار من المحال بحث شخصه جملة تحت طائفة الكلاسيكيين . اذ أن العقل يعتبر كلاسيكيا متى كان انتاجه ـ شعرا كان أم فلسفة أم فنا ـ بتفاصيله لا يبرح يحرك الخلف مباشرة ويأسر لبه ، ويشد عزمه او يكدره ويستثيره كما يفعل آيسكيلوس ودانتى ورامبرانت وباسكال . وليس ارازموس من هذا النوع . واذن فهل من الممكن أن الذى يسترعينا ويواسينا هو شخص ارازموس ككائن بشرى ؟ ولا هذا أيضا . اننا نجد أن صورة شخصيته التى تبرز من كل صفحة كتبها ، واحدة فى جوهرها على الدوام ، على الرغم مما تتصف به من كثرة رائعة فى الجوانب . ومع ذلك ، فاننا متى واجهتنا تلك الشخصية استطاع معظمنا الاحساس بدرجة من الاعجاب به والمعرفة لشخصه ، أعظم كثيرا من مجرد ابتسامة الفهم التى نظر بها ارازموس نفسه الى العالم . وسنعثر على الدوام على ارازموس صغير يسد الطريق أمام ارازموس الكبير الذى نحب أن نكرمه. اذ أنه يكشف على الدوام عن نواحيه الضعيفة بأمانة تامة ، بحيث يميل المرء التماسا للراحة الى اخذه عند كلمته ، واصــــدار الحكم عليه على أساس نقاط ضعفه فقط . ولكن ذلك يكون بعيدا عن الصواب . والنقش اليونانى المسطر على الصورة التى رسمها دورر لارازموس ينطوى على معنى أعمق : ان كتاباته تزودنا بصورة أحسن . فمصدر الجاذبية فيه لنا ليس الشخص بل العقل . اما شخصه فينقصه بالضبط تلك الصفات التى عدنا الآن الى تقديرها أعلى تقدير . ولم يكن ارازموس ينطوى على ذرة واحدة من الفروسية . كما أنه بعيد كل البعد عن كل ميل الى ما يمت الى البطولة بسبب .

بيد أنه على كل حال قد أوتى الشجاعة التى جعلته لا يقوم بدور البطل . فضلا عن أنواع أخرى من الشجاعة أيضا ، كالشجاعة المنعشة التى كانت تدعوه الا ينتظر حتى يتم العمل بأدق تفاصيله ، بل يقدمه الى النشر بمجرد الفراغ من المسودة الاولى . ولعله كان خوافا بطبعه ، ومع ذلك ، فانه لم يتردد أبدا فى تعريض طابعه العقلى للنقد والتلويح الخفى . أجل انه أعوزته القوة الهادئة التى تمكنه من تقبل ذلك النقد

والتلويح الخفى بازدراء المستسلم • فان ما عرف عنه من تبرير ذاته دائما حتى فيما يتعلق بأشد النقاط تفاهة ، ليجعل من رسائله الأخيرة ضربا لانهائيا من الصلوات أو التوسلات الاعتذارية • بيد أن كتاباته فى الدفاع عن نفسه تنطوى أحيانا على أصوات أخاذة • فهو يتساءل قائلا : أبين الخلق الفانين جميعا ، ينبغى أن يكون ارازموس وحده منزها عن الخطأ ؟ ان الأخطاء ليمكن أن توجد حتى عند أوغسطين وجيروم • وهو يقول فى مناسبة أخرى : ان الثبات على الرأى ليس دائما فى قولك الشىء نفسه ، ولكنه فى أن تسدد الرمية دائما الى الشىء نفسه • وثم مثال أخير ، وقد قاله هذه المرة بصوت المستسلم : ان الخلف ــ فيما يرجو ــ سيصدر حكما أعدل • أما هو فانه سيظل هو هو لا يتغير الى آخر يوم فى حياته • وقد ظل كذلك فعلا من حيث جوهره •

ومع ذلك ، فان النغمات النشاز التى تمنعنا من أن ندخل ارازموس بلا قيد ولاشرط الى بانثيون العظمة الانســـانية لا تقوم فى شخصيته فحسب ، انما تقوم أيضا فى اتجاهه الذهنى الذى يروح الفينة بعد الفينة ــ فيميط عن أعيننا غمامة الخداع كاشفا لنا عنه • وهو أمر يصدق قبل كل شىء على أفكاره الدينية ، التى أرجو ألا أعالجها الا بغاية الايجاز • فان من يعيشون فى زماننا من الناس ، مهما تكن عقائدهم ، كثيرا ما يعسر عليهم أن يؤتوا تقوى ارازموس حقها من الانصاف • وفى احساسى أنه يقف من حيث عقيدته فى منتصف الطريق • ونحن لا نأسى على أنه أسقط من حسابه النغمة الصارخة المعولة التى اتخذتها التقوى فى أواخر العصور الوسطى مؤثرا عليها أسلوبه الهادىء النفاذ فى كتاب « الفارس المسيحى Enchiridion militis Christiani » •

ولكن ما أكثر ما يداخلنا الانزعاج لتلك الخفة المرحة التى تتبدى فى أسلوبه الانسانى Humanistic عندما يتحدث عن المقدسات • فهو يبعث بالتالى الى بياتوس رهينانوس : « زهرة منتقاة اقتطفت من ذات نفس الحقول الخضراء للأدب الالهى » • (١) ولا أكتمكم أن من العسير علينا تقبل التقوى مع اعتبار مثل هذا اللون الجمالى القوى شيئا جديا• فما تلك بنبرة لوثر ولا كالفن ولا لهجة القديسة تريزا • والظاهر أن عاطفة ارازموس الدينية كانت على الأغلب تتحرك فى مدار متوسط من الدراسات الشعرية أكثر منها صيحة صادرة من الأعماق نحو السموات العلا • اذ لم يكد صوت ارازموس يتردد قط بأصداء شىء صادر من الأعماق (De Profundis) .

فلئن بدت تقواه لنا هزيلة أو ضحلة أكثر مما ينبغى ، فان ما عرف عنه من لاهوت ليبدو مفرط التردد بالغ الابهام · فانه كان تخلى عن المنطق الصلب الذى تأخذ به الفلسفة المدرسانية نفسها · كما أنه ناط القليل من القيمة على التعريفات · ونتيجة لهذا لم تعد لديه رغبة فى الانتقال الى أساس فلسفى عميق واضح الحدود لمعتقداته ، كما أن الأساس الدينى (المستيقى) المباشر لتفكيره اللاهوتى ، كان هو الآخر ضعيفا · وبالمثل أيضا كان زاده من المذهب العقلانى Rationalism قليلا · اذ أن معتقداته كانت متأصلة فى حاجات أخـــــلاقية عميقة · وأضفى ذلك الأساس الخلقى لونا اجتماعيا قويا على اتجاهه فى المنازعة الدينية الكبيرة التى ثارت فى زمانه ، بلغ من قوته أنه آثر الوفاق على الأرض على كل شىء عداه · فقد لام لوثر لأنه لم يعر اية قيمة لاجمــــاع الشعب المسيحى Consensus populi Christiani · وكان يرى المنازعات الدينية شيئا فظيعا ، ويعتقد أنها خالية من كل فائدة واضحة · ولم يخش أن يترك المنازعات الدينية الجوهرية بلا تسوية · والصـــــدق المقدس لا يمكن أن يتحمل التعريفات المخاتلة الماكرة · كتب الى السـير توماس مور فى ١٥٢٧ : « ان مدار الخصومة كلها ، انما هو نزاع حول الكلمات أكثر منه مشاحنة حول الأشياء · » (٢) وان الذى يحاول أن يتغلغل أكثر مما يليق الى كهف السر الذى لا سبيل الى سبره لا يؤدى للتقوى الا أقل الخدمات ·

وفى أحد المواضع من رسالة « مدح الحماقة » علق ستالتيتيا فى شىء من العجلة قائلا : « وذلك كله يتم تحت قناع أوظل معين ، لا يـــكاد ينتزع ، حتى يصبح تمثيل المسرحية من المحـــال » · (٣) وهى عبارة عميقة الدلالة ، عبارة تعكس الى حد معين اتجاه ارازموس الدينى بأكمله· فهو يقتصر على مجرد الاشارة الى شىء وتخطيطه فى معالم موجزة ، بيد أن تلك هى الطريقة الوحيدة التى يمكن بها تمثيل المسرحية ·

ولاشك أن كثيرا من الناس ربما تقبلوا ماطبع عليه ارازموس اجمالا من اعواز فى الدقة الفلسفية مبادرين الى ذلك بسرعة أكثر لو أنه وازنها ببث درجة أكبر من الدقة فى آرائه حول الحياة العملية · ولــكن ذلك لم يحدث منه · أجل ان آراءه فى أحداث العالم وأشيائه قاطعة تماما ، ولكنها ليست مضبوطة بأية حال · فما من شك فى أن اتجاهه الخلقى البارز يبعث فيـــه حكمة مستقيمة ثابتة ، ولكنها مع ذلك غير قابلة

للتغيير · وبديهى أن وجهة نظر كهذه لا يكاد يمكن أن تسمى بالواقعية السليمة المدروسة ·

وقد عاش ارازموس فى عالم من الكتب · وعاش أيضا فى ذلك العالم طائفة ضخمة من الشخصيات الكلاسيكية ، وعدد صغير ولكنه نخبة ممتازة من الأفراد المسيحيين ذوى المقام الرفيع · وكانت هذه الفئة الأخيرة تكون فى عالمه الفكرى أعلى سلطة موثوق بها يرجع اليها · ومع ذلك فقل منهم من كان حقا قوة تقود ارازموس وترشده · على أنه بالاضافة الى السيد المسيح نفسه والقديس بولس ، لم يكن له بالفعل من هاد سوى آباء الكنيسة الأقدمين · ولم تجد كلمات أنبياء العهد القديم فى نفسه الا صدى ضئيلا ، كما أن كلمات صاحب المزامير لم تطرق أذنيه الا فى التفسيرات المطولة المسهبة · وذلك بينما لم يكد ما جاء بعد ذلك من لاهوت يلعب دورا فى العالم الفكرى والتصورى لارازموس · أما فيما دون هذا المستوى الرفيع من العنصر المسيحى ، فقد زخر ذلك العالم بالثقات الكلاسيكيين ، ما بين كتاب وشخصيات تاريخية · وقد كونوا فى نظره ضربا من طبقة نبلاء ضخمة لا يميز بينها الا أقل الفروق، تمتلك الأرض وتعبر عن رأيها فى كل شىء بالطريقة التى ترضاها ·

ولم يكن عقل ارازموس ليرضى بالابتعاد عن عالم الماضى المتخيل ذاك الا بغاية التكره والتردد · وكأنى به يظلل عينيه من ضوء الحاضر الساطع بمناظير الماضى المسيحي والوثنى · ومع أنه هو الشخصية التى تجسد انتصار الكتاب المطبوع ، فانه نظر بعين الكراهية الى تيار الكتب الجديدة المتزايد الضخامة والى الحرية فى تجارة الكتب الناشئة · اذ بدا له مثل هذا الافراط الضخم فى الانتاج شديد المضرة بالعالم · وذلك بسبب تشبع السوق بالكتب فى حد ذاته ، ولأن وفرة الكتابات الجديدة ستعود على القارىء المتقلب النزوات بالابتعاد عن مطالعة المؤلفات الكلاسيكية ، وان استحال انتاج أى شىء يفضل تلك الأعمال الكلاسيكية· فكل ما يبلغه الكتاب الجدد فى أحسن الاحوال ، أن يكتشفوا بين حين وآخر شيئا أفلت من المؤلفين القدماء · فلو مضى الناس فى سبيل اهمال العلم الصحيح بهذه الطريقة ، لذهب بددا كل أثر للسلطان العلمي للمستشارين الامبراطوريين ومجالس الكنيسة والمدارس والمشرعين ورجال اللاهوت ، ولبدأ طغيان عسكرى متبربر كطغيان التراك ·

على هذا النحو تحدث الرجل الذى كان سجينا فى عالم كتبه كأنما هو فى حديقة مسحورة . فهو لا يستطيع ولا يرضى أن يخرج عن أكنافها ، ومع ذلك امتلأ بالرغبة فى التطلع الى مافى خارجها وهناك رأى عالما لايتوام مع مافى ذهنه من صورة مثالية . فتباعد مزورا عن تلك الحقيقة العنيفة المهوشة . فهو لم يستطع أن يتذوق فهما ولا يحس اهتماما بأى شىء خارج عن منهبه الأخلاقى الكلاسيكى المؤسس على الكتاب المقدس . ولم يتيسر له فهم هذا العالم . ولم يميز فى تيار زمانه الا فجاجة صارخة ومزعجة والا قلة معقولية كدرتا مزاجه وأثارتا استياءه . ولم يكد يرى العناصر الجديدة والمثمرة التى أخذت تنبجس وتكافح نحو المقدمة كفاحا أليما .

وفى قريب من ١٥١٧ توفر ارزاموس مؤقتا على فكرة لذيذة هى أن الأداب الرفيعة bonae Literae التى ازدرعها وصانها الوفاق بين الأمراء ، قد أوشكت أن تفتتح حقبة من السعادة والثقافة والسلم . ولكن سرعان ما ولت عنه تلك الحالة المزاجية . ومنذ تلك الساعة أصبحت نظرته الى المستقبل القريب معتمة كنظرة أى قسيس عاش فى العصور الوسطى . فانه شكا المرة تلو المرة من أن العالم يئن مما به من آلام مبرحة من جراء تحول منهل ألم بالأشياء جميعا ، ومن أن شئون الانسان تجنح نحو همجية الاسكيذيين والفساد المطلق للفنون الحرة . لقد بدا العالم السياسى لعين ارزموس كأنما هو فى طريقه الى تدهور سريع لابد أن يؤدى الى طغيان قلة من الناس . وسيستلزم الأمر أن يطيق الناس الطغيان مؤقتا خشية أن يؤدى الى الفوضى الشاملة .

فهل هذا اليائس القانط ارازموس هو الرجل الذى بقيت روحه لنا تحفة مقتناة نعتز بها ؟ بالقطع لا . وهل هناك الى جوار هذا التشاؤم السياسى العام توصيات عملية محسوسة تهدف الى تحسين الحياة السياسية ؟ ذلك ما نشك فيه . ومرد ذلك أن آراءه الانشائية فى الدولة وفى الحكم والتدبير لا تكاد تتجاوز دائرة الرغبات التى دافعها التقوى . لقد اعتقد ارازموس طوال حياته أن حسن النوايا من جانب الأمراء يكفى لضمان سلم العالم ورخائه . ومن أيسر الأمور عليهم توجيه جهودهم الى الأعمال السلمية بدل شنهم الحروب الدائمة بعضهم على بعض التماسا لبعض الحقوق الوهمية أو لمجرد الجشع البحت . والعاهلية (monarchia) فى حد ذاتها ، وأعنى بها السيادة على العالم باسره ، انما هى خير أشكال الحكم فى الأرض . على أن ذلك أمر غير عملى ولا سبيل

اليه • كمـا أنه لا ضرورة له أيضـا ، شريطة امكان الوفاق بين الأمراء المسيحيين • وفي هذا الصدد تجاوز ارازموس في خطاب له أرسله الى أدواق سـكسونيا تاريخه ١٥١٧ ، مجرد الندب والعويل وانتقل الى الفكرات المحسوسة حول الاصلاحات :

لوأمكن ادخال التجديدات بغير تدخلات عنيفة ، فاني أعتقد أن من الخدمات الجليلة للخير العام للعالم المسيحي لوتهيأ لنـا بفضل مؤتمرات واتفاقات خاصة تنظيم ما لممتلكات كل حاكم من حدود من أجل الصالح العام ، تلك التخوم التي ما تكاد تؤسس حتى يستحيل تضييقها أو توسيعها لا بروابط الزواج والصهـر ولا بالمعـاهدات ، على حين ينبغي في نفس الوقت الغاء الألقـاب القانونية القديمة التي تعود كل حاكم ابرازها وفق الظروف كلما رغب في الحرب • فان جاز الاحتجاج على ذلك بأنه بمثل هـذه الطريقة يحرم الحكام من حق مفروض عليهم ، فان الأفضل النظر في هل من العدل أننا من أجل مثل هـذا الحق ــ الذى قد يملكه بالفعل احد الحـكام أو لعله يحاول فقط امتلاكه ــ لا نبرح بغير نهاية نهز العالم المسيحي باستخدام السلاح استخداما فعليا ينطوى على فاحش العدوان وقتل أقرب الأقربين (٤) •

فهنا أيضا تبدو ومضة فجائية من مثل سياسى أعلى يرسم للمستقبل: مثال السلام القائم بين أمم منظمة على أساس دائم • وربما أمكن اطلاق نعت السذاجة أو اليوتوبية أو الوهم الخادع على هذا القول ؛ وربما جاز لنا إن نذكر أنفسنا أنه بعد انقضاء أربعة قرون من الصراع الذى لاتفتأ قوة تدميره وهلكته تزداد يوما بعد يوم ، أظهر ما يسمى بالعالم المسيحي أنه أبعد ما يكون عن تحصيل ذلك المثل الأعلى • بيد أن ارازموس يضع هنا المثل الأعلى الذى لا تستطيع البشرية ولا يجوز لها أن تدعه يفلت من يدها أو تهلك في مستنقع الظلم الدنيوى الذى ليس له اقرار • وهنا يتبـدى على حين فجأة ارازموس الذى نحتفل بفضله الأبدى • « انك لا تزال على صواب يا ارازموس Saecularum furiosum » . وفي ١٥٢٠ كتب الى وليبالد بيركهايمر يقول : « كلما رأيت مبلغ فساد أحوال الانسـان بكل مكان زدت اعتقادا بانه لم يحدث في عصر من العصور أن أبيحت الوقاحة والغباوة والجريمة بمثل هذا القدر الضخم » (٥) •

على أن من أيسر الأمور اتهام كل من طالب بمبدأ سام قوامه تنظيم المجتمع تنظيما عادلا وعقلانيا ـ بأنه شخص خيالى يوتوبى . وسيحوز ذلك الاتهام فى جميع الحالات تقريبا استحسان الجماهير . ولكن لو ان سائلا سال : أى العقول أظهرت الأيام أنه لا غنى عنه بدرجة أكبر فى تقدم البشرية ، أهم هؤلاء الحالمون أم رجال الفاعلية العسكرية ؟ ـ أفلاطون مثلا أم الاسكندر ؟ ـ فلن يختار الأخير منهما الا رجل يؤمن بالمذهب الجبْرى فى التاريخ (*) ايمانا وثيقا ، وذلك لأن أفلاطون والمسيح يمكن أيضا أن يسميا باليوتوبيين . وفى يقينى أنه بين الشخصيات القيمة التى لا يستغنى عنها التاريخ ينبغى أن يحتجز مكان متواضع لارازموس أيضا .

أجل ان التناقض الذى افترضناه قبل الآن بقليل لا بد أن يرفع رأسه على الفور مرة ثانية : فان ارازموس يعد قديم الطراز فى كل تفصيل من تفاصيله تقريبا . ويتجلى ذلك فى اللحظة التى يتحول فيها الانسان عن أفكاره حول الحرب والسلام الى ما يتصل بالنظم الادراية والاقتصاد من أفكار . وان التعالى الحافل بالثقة الذى يظهره فى أحكامه بشأن الدولة كثيرا ما يقوم ، لا على معرفة حقة بالشئون ، بل على الجهل بها . لقد كان غريبا تماما عن الحياة العلمية . فلم يكن يدرى كيف يسير العالم ولا ما هو ضرورى لحكم قطر من الأقطار . وآراؤه فى شئون الحكم والسياسة والحياة الاقتصادية آراء جذرية فى بساطتها . وتكاد الكلمة الوحيدة التى لم يكن يعبر بها عن حقده على التجارة هى قوله انها مفرطة الدناءة Sordidissima . فأما الضرائب وهيئة الموظفين ، فانه كان ينظر اليهما من وجهة نظر البورجوازى الصغير المرهق بالمتاعب . ولم يكن لمشاكل البطالة أى وجود لديه : اذ لم يكن أى انسان أوتى الصحة والرضى بالقليل ليضطر أن يدور فى الطرقات يسال الناس . وهو يزدرى دراسة القانون ناعيا عليها أنها غريبة كل الغرابة عن الحلم الحق a veris *Literis alienissima* . اذ رأى أن من المضحك أن يشتهر انسان بالذكاء لأنه يعرف ما يجرى فى العالم ، ويعرف أحوال الموقف فى السوق وماهى خطط الحكم .

(*) مذهب الجبر Determinism : هو الذى يؤمن بان الانسان ليس حرا فى تصرفاته ، وانما أعماله تجبرها وتحددها ظروف مستقلة عن ارادته .

وليس ذلك كله الا الحكمة الرخيصة لعقل احتمى باكداس الكتب من الحياة ، وما هو الا فرار من العالم ليست له اية دلالة حقة من الزهد، يظلله طلاء من النزعة الرواقية • وليس هـــذا بالمجال الذى يبحث فيه الانسان عن ارازموس العظيم • ومع ذلك فاننا نجده ثانية فى المجـال المجاور بمجرد أن تثار المسائل الاجتماعية البحتة • ولكى ندرك أهمية افكار ارازموس فى شئون التعليم والصحة الاجتماعية ينبغى للقارىء أن يقرأ مقالته : « حول الزواج المسيحى » Christiani matrimonii institutio

وتقتادنا هذه الناحية من طبيعته ، وهى حبه للسليم الصـافى من مماشاة الطبيعة فى تصاريف الحياة ، الى واحدة من النقاط الرئيسية الكبرى فى هذا الاستعراض : وهى علاقة ارازموس بالطبيعة بوجه عام • فهل تراه كان يشارك بلا تحفظ صديقه توماس مور فى احساسه الحاد والصريح ببركة الحياة ونعمائهـا اذا عيشت وفق الطبيعة ؟ وهل وجد عنده ما تمخضت عنه النهضة من ازدهار غنى تعبيرا عنه ؟ ان الجـواب عن ذلك لا يمكن أن يعطى بكلمة واحدة •

ومن المهم لمن شاء فهما للعقول الكبار ألا يقتصر فقط على معـرفة ما أنتجوا من أعمال ، بل وأيضا ما انتووا انتاجه ولم ينتجوه ، بل تركوه فكرة لم تتخلق وليدا وماذا كان السبب فى ذلك ؟ وقد ترك لنا ارازموس قطعة عارضة من الدليل تستحق منا التفاتا خاصا فى هذا السياق الذى نخوضه • فان ارازموس كتب فى رسالة أرسلها الى يوهانيس بوتزهايم تاريخها ٣٠ يناير ١٥٢٣ قائمة بأعماله ، وأدرج ملحوظة بعد ذكر كتابه Encomium moriae قائلا : « كان يدور فى خلدنا فى ذلك الوقت مجموعة مكونة من ثلاث خطب : الثـــناء على الحماقة والطبيعة ونعمة الله ، ولكن شكاسة بعض الناس دفعتنى الى نبذ تلك الفكرة » (٦) •

ويتساءل الواحد منا عبثا ترى ماذا كان الشكل الذى لعله اتخذه فى عقل ارازموس هذا الثناء على الطبيعة • لابد أنه كان ينطوى على شىء من الجراة ؛ هنـا نجد الثنـــاء على الطبيعة وقد جعل الاطار الأوســط لصورة ثلاثية الأقســام ، يقع على جانبيها فـــكرة فذة عن « الثناء على الحماقة » من ناحية ، « والثناء على نعمة الله » فى الجانب الآخر ، وفى امكاننا أن نحدس مستشفين من وراء ذلك فى شىء من الغموض أنه ربما تم هنـا احراز أعظم تحصـــيل فكرى عن ناحية من ارازموس مجهـولة

لدينا • هنا نجد الحماقة والطبيعة والنعمة ، وقد جاءت في صورة ثالوث ذي قوة متصاعدة : أليس الواقع أننا هنا كمن فقد مقدمة موسيقية شديدة اللصوق بالنهضة ؟ وعندى أن ارازموس بتفكيره في « الثناء على الحماقة » قد توقع الى حد ما الاستطراد الى الموضوعين التاليين ، ولكن ما كان يدبره في عقله بعد هذا من قول فيهما ، قد ضاع منا الى الأبد •

ولانجد ما ينبئنا بأفكار ارازموس عن الطبيعة سوى أقوال غير مترابطة ومخالفة للشكليات تقع لنا هنا وهناك • ولو وضعنا في اعتبارنا وجهة نظره الكلاسيكية واضفنا اليها أيضا اتجاهه الخلقي البسيط ، علمنا بأنه لم يكن بد له من اتخاذ استحسان التمشي مع الطبيعة هاديا للعيش • فمن أعجب بالنهضة دون الحصول على القدر الكافي من التدريب التاريخي ، يتعرض على الدوام لأن يأخذ مأخذ الجد الشديد عبارة الحرية الطبيعية التي يسمعها شعارا تردده الألسن في تلك المدة • ويطلع ارازموس على ما أبرزه خيال رابيليه في جرجنتوا حول قاعدة الحياة المتبعة في دير القديس تيليم ، ومنطوقها : « أفعل ماشئت » ، وعلى ما قدمه مورفي اليوتوبيا حيث قال « انهم يعرفون الفضيلة بأنها الحياة المنظمة وفقا للطبيعة » ، فيشتم من خلال ذلك كله رخصة باللاخلاقية العصرية • وقد حرص ارازموس بأن يظل تقديره لما هو طبيعي خاضعا على الدوام خضوعا قاطعا لسيادة الوصايا الالهية •

أما علاقات ارازموس بالطبيعة ، فيمكن أن تعرف قبل كل شيء من المحاورات Colloquies فانه انغمر في وصف باذخ مرح للطبيعة في محاورته « الوليمة الدينية » • وهي المحاورة الأولى الكاملة الطول التي استطاع بواسطتها أن يمنح سياقا أكبر ومعنى أرفع للأشكال المألوفة للمحاورات Familiarum colloquiorum formulae في ١٥٢٢ • وان فواكه الوليمة وأطباقها وخزفها ، وكل شيء فيها لتقدم الينا كأنما هي صورة نقشتها مرقاش بيتر آرتزن (*) Aertsen • وهناك جوسق الحديقة بما على جدرانه من نقوش وتصاوير أبدعتها يد بارعة ، وهو يوصف برقة عاطفية في أخيلة بسيطة • وينعم الأصدقاء بوجبتهم البسيطة في الخارج بمصاحبة حديث غلبت عليه التقوى • ويقول يوسيبيوس (**) :

(١) ارتزن (١٥٠٧ – ١٥٧٣) رسام هولندى ، ولد ومات بامستردام ، وفضلا عن اعماله التاريخية والدينية ، صور مناظر داخلية ومنزلية . (المترجم)

(٢) يوسيبيوس (٢٦٠ – ٣٤٠) أبو التاريخ الكنسي . له دور فعال في مجمع نيقية • (المترجم)

ولكن فى الوقت نفسه ، وبينما نحن نغذى عقولنا بوفرة ، ينبغى لنا الا ننسى رفاقنا • فمن أولئك الرفاق ؟ (ذلك ما سأله ثيوفيلوس) انها أجسادنا ، أليست أجسانا رفاقا لأرواحنا ؟ وذلك أنى أوثر أن أدعوها بذلك الاسم ، مؤثرا اياه على قولك انها الآلات أو البيوت أو النواويس (٧) •

وفى محاورة أخرى عنوانها « الحج فى سبيل الدين » ، يقابل الكاتب بين البهاء الطبيعى المترقرق فى لون الأحجار النفيسة ، التى يبدو كل منها كأنما يعكس صورة شىء من أشياء الطبيعة ، وبين المعجزات السخيفة التى تقوم بها صور القديسين • ويلاحظ منديماس :

انى أعجب من أن يكون لدى الطبيعة مثل هذا القدر من وقت الفراغ بحيث تدلل نفسها على هذه الشاكلة فى محاكاة الأشياء جميعا ••اذ ليس ثم جزء من الطبيعة •• لم يحدث •• أنها لم تعبر عنه فى صورة الاحجار الكريمة ••

ويجىء الجواب كالتالى :

« ان لديها ميلا شديدا الى تحريك مافى ذكاء الانسان من رغبة فى الاستطلاع بهذه الطريقة تدفعنا بعيدا عن الكسل ، ومع ذلك فاننا ــ كأنما ليس لدينا شىء نزجى به الوقت نهيم غراما بالحمقى وزهر النرد وحيل المشعوذين » (٨) •

فهنا اذن نعثر على أول اشارات الى ذلك الاعجاب بفخامة الطبيعة وثرائها ، وهى التى قدر لها أن تقدم ثمارها الناضجة للحياة والفنون والعلم • ولكن هذا الاقبال على الطبيعة لا يبرح يسمى بحب الاستطلاع (Curiositas) •

ثم يعود ارازموس مرة ثانية فى محاورته « الأبيقورى » الى جمال الطبيعة وتقديرها • وفيها يقول :

أى معرض يمكن أن يكون أفخم من التأمل فى هذا العالم ؟ فالرجال الذين يحبهم الله يجدون قدرا من السرور فى ذلك أكبر كثيرا مما يجده غيرهم • اذ الواقع أنه بينما يقوم هؤلاء بالنظر بعناية الى هذا العمل المعجب الرائع ، يمس الضر عقلهم ، لأنهم لا يفهمون أسباب كثير من الاشياء • وفى أشياء أخرى أيضا ،

لعلها بعض آلهة المجون « مومو س Momuses » يزمزمون (*) اكبارا للصانع ، وغالبا ما يسمون « الطبيعة » باسم الام البديلة بدلا من تسميتها بالام · وهو تأنيب ، والحق يقال ، يوجه ضربات الالفاظ الى الطبيعة ، ولكنه في الواقع الفعلي يرتد الى الذى خلق « الطبيعة » لو أن هناك حقا أى طبيعة على الاطلاق · على أن الرجل التقى ينظر الى أعمال الرب والأب بسرور عقلى عظيم ، وبعيون متدينة ومخلصة ، وهو يعجب أشد العجب لكل شىء يراه ، ولا يلتمس فى شىء غلطة يقفوها ، وانما يقدم الشكر على الاشياء جميعا (٩) ·

ولاشك أن تقدير الطبيعة الذى تعكسه هذه الأقوال يتفق في الأساس مع اتجاه العصور الوسطى ، وان أمكن أن ينطوى أيضا على لمسة أفلاطونية · ولم يجد ارازموس في المشاهد المبهجة للبطيعة شيئا يتجاوز ما يصدر عن حب الاستطلاع المقترن بالتقوى من رضا جدير بالثناء · فهو لم يحس الحاجة التى بعثت ليوناردو دافنشى أو باراكلسوس الى سبر مثل تلك الأسرار والنبش فيها ، بل الحق انه اعتبر ذلك من الاساءة والشر · تقول ستالتيتيا :

كان الناس فى العصر الذهبى أكثر تدينا ، وكانوا ربانيين، أكثر منهم منطوين على حب استطلاع فاجر لاستقصاء أسرار الطبيعة ، وعدد النجوم ومسالكها أو تأثيراتها ، أو الأسباب المجهولة للأشياء على افتراض أن من المخالفة لما نهى عنه الله ، أنهم وهم الفنانون وأبناء هذه الدنيا والأرض ، يحاولون أن يتجاوزوا — بمعرفتهم الى مافوق أقدارهم · وأقل من ذلك كثيرا أن طرأ مثل هذا الجنون يوما ما على عقولهم ، كما حدث ذات مرة حين فكروا فى التحرى عن الأشياء الموجودة فوق النجوم (١٠) ·

ولا يخالجنا أدنى شك فى أن ستالتيتيا انما تردد هنا اعتقاد ارازموس الأكيد · اذ حدث فيما بعد أنها أعنى ستالتيتيا راحت فى نفس نغمة الكلمة التى رفضت بها الفلاسفة ، أولئك المدرسانيين الذين كان ارازموس يحتقرهم احتقارا باتا ، تقول :

ولكن (رباه) كم يهذون بحلاوة فى رأيهم : عندما يؤكدون على الدوام أن هناك عوالم لا عداد لها ؟ أو عندما يأخذون على عاتقهم قياس الشمس أو القمر والكواكب ومجالاتها ، كأنما يتم

(*) زمزم المجوس أو الاعجمى : رطن وهو مطبق فاه· وصوت بصوت مبهم .
(المترجم عن معجم الوسيط)

ذلك شيئا فشيئا أو يخط خطا بقلم ، أو عندما يفسرون أسباب الرعد أو الرياح أو الكسوف والخسوف وغيرها من أشياء لا سبيل الى تفسيرها ، دون أن يشكوا فى شيء ، كأنما زحفوا الى صدر الطبيعة ، أو كانوا على تشاور مع الآلهة . ومع ذلك فان الطبيعة تضحك منهم مقهقهة وتنزلهم منزلا سخريا ، بكل ماتخرصوه من تخمينات ... (١١) .

ومن الجلى تماما من هذه الاقتباسات أن ارازموس لم يكن فقط بعيدا كل البعد عن القيام بأى نصيب فى تطوير العلوم الطبيعية ، بل وأيضا أنه لم تكن لديه أدنى فكرة عن قرب ظهور تلك العلوم . فلئن نصح الناس فى مبحثه حول النسبة أو المنهج Ratio seu methodus بضرورة المعرفة بما فى الطبيعة من أشياء ، معرفة قائمة على المشاهدة المباشرة ، فان الهدف من ذلك على الأصح هو الوصول الى تفسير أضبط للكتب المقدسة . ومع أنه كان يرقب ويدون الملحوظات باهتمام عن كل مايقع عليه بصره من عجائب الظواهر فى حياة الحيوان والنبات ، كالذى شاهده فى حالة الفرد الذى حمى الأرانب من ابن عرس ، وخشب عود الند الذى بدا شديد الخفة ومع ذلك لم يستطع أن يطفو على سطح النبيذ ، فان المؤلفين الكلاسيكيين ظلوا لديه على الدوام الأساس والمرجع الذى تقوم عليه المعرفة بالطبيعة . حيث يقول ان المعلم فى كل شئون العالم هو بلينى (*) Mundum docet Plinius . بل لقد آمن بكثير من خرافات الحيوان التى رفضها بلينى ، وتقبل بغير اعتراض خرافة وحيد العين Monophthalmi أى الجنس الذى ليس له الا عين واحدة ، وذا القدم المظللة Skiopodes الذى يقى نفسه من الشمس برفع قدمه الوحيدة العريضة ، مضيفا اياهما الى قائمة الأنواع التى يمكن وجودها فى الجنس البشرى .

وهو يقدم فى المحاورات عينتين من مجادلات العلماء فى الظواهر الطبيعية . فمحاورة « الصداقة » تعالج مسألة المحبة والعداوة فى عالم الحيوان ، كما تعالج محاورة « المسائل » شأن الأشياء الثقيلة والخفيفة . وفى كلا الحالتين تجرى المناقشة من أولها لآخرها على صورة بحث منطقى . وفات ارازموس أن يدرك أن هناك روحا جديدة تولد فى هذا المجال بعسر شديد .

(*) بلينى (٢٣ ـ ٧٩م) له كتب تاريخية مفقودة ، وله كتابات فى التاريخ الطبيعى تعالج الفلك والجغرافيا وعلم الحيوان . (المترجم)

وبلوغ الحجة بالصمت مسألة محفوفة بالخطر دائما ، ولكن صحتها بين يدى ارازموس لاتكاد تصـان على الاطلاق من ناحيتين ، فانه لايكاد يذكر ماكان يجرى فى أيامه من الجهود الاستكشافية للعالم ، ولا يكاد يشير بالمثل الا فيما ندر الى التطورات الباهرة التى ألمت بالفن فى زمانه • أجل انه حدث مرة واحدة وبمحض الصدفة ، أنه ذكر أنه يتم فى عصره اكتشاف بلاد مجهولة لم يتسن لأحد بعد ارتيـاد أراضيها واستقصاء حدودها ، وان كان من المؤكد ان تلك الأقاليم مترامية بدرجة لا سبيل الى قياسها • ولكنه لا يستخدم تلك الحقيقة الا كحجة يثبت بها أنه لم يتم حتى الآن قيام دولة أو سيادة عالمية حقة • وعندما راح فى اهدائه لنسخته من كتاب القديس يوحنا فم الذهب الى ملك البرتغال يمتدح البرتغاليين وحسن بلائهم فى حكم البحار ، الأمر الذى جعل الرحلة الى بلاد الهند آمنة مطمئنة كأى بحر آخر ، أضاف التالى : « ليت احتكارات أشخاص معينين لا تفسد هذه النعمة ، وذلك لأنه ، مع أن الاستيراد أصبح كما سمعت أسهل كثيرا ، فان الأسعار فى صعود ، والسكر بوجه خاص أصبح أغلى ثمنا وأردأ صنفا فى الحين نفسه • فلعل الملك يستطيع علاج هذا العيب » • ولا حاجة بنا الى القول ، ان هذه الملحوظة التى ذكرها عرضا حول السياسة التجارية فى حديثه عن فم الذهب (كريسوستوم) أثارت الخواطر فى البرتغال •

ويؤكد الكتاب على الدوام أن ارازموس أظهر قدرا ضئيلا من الفهم أو الاهتمام بالفن فى زمانه • ومما يدهش له كثير من الناس ، أن هذا الرجل على كل مالديه من مواهب جمالية ، وعلى أنه جرب فى شبابه مزاولة التصوير ، لم يقل كلمة واحدة عن الازدهار الفاخر للفنون فى ايطاليا أثناء بواكير القرن السادس عشر • (وهى المسماة بالخمسمئات) • ويأخذنا العجب أكثر لأن توقيره اللانهائى لكل قديم لا تكاد تكون له البتة أدنى علاقة بالأعمال الفنية العديدة • على أن توجيه اللوم اليه على هذا الاهمال واتهامه بالاعواز فى رقة المشاعر على أساس هـذا الصمت عن الجمال ينطوى مع ذلك على سوء فهم لحقائق الحال • اذ حدث بمحض الصدفة أن ارازموس انما كان يبحث عن شىء آخر غير الفنون ، كما أنه لم تجر العادة فى أيامه بانغماس الكتاب فى قصائد تمجيدية من التقدير الفنى اذا كان المبحث لا يتطلب ذلك •

ومن المؤكد أننا لو فحصنا بياناته النادرة المحتوية على آراء جمالية لاكتشفنا أنه فى هذا الحقل هو هو كشأنه على وجه الجملة : فهو عقل محدود المرونة ، وهو فى الجمالى من الأشياء مفعم الوفاض بذلك الذوق

نفسه الميال الى السهل البسيط والرقيق من الأشياء ، الذوق الذى أبداه في شخصيته وتفكيره باجمعهما . واليكم مثالين لهذا النوع من الأحكام الجمالية : في الصباح ينبغي للمرء أن يحوم قليلا فى الحديقة ، وأن يذهب فى المساء الى النهر ، وذلك لأن المنظر ساعة الغروب يبلغ ذروة جماله . وهو يعرف فعلا أن الهيكل يزيد من جمال صورة مرسومة .

وقد تلقى ارازموس في شبابه تعليما موسيقيا من أستاذ موسيقى كبير هو ياكوب أوبرخت نفسه . ولكن مبلغ علمى أنه لم يكتب شيئا ينم عن فهم عميق للجمال الموسيقى . فالموسيقى لديه شيء أثيري عابر . ولكنه ككثير من الناس قبله خشى من الموسيقى أن تعود على الناس بالفسوق واثارة الشهوات ، وبخاصة الأغانى الشعبية وألحان الرقص . ولم يكن راغبا في ادخال الموسيقى الفنية (*) Art-music الجديدة في صلوات الكنيسة . ومن ثم فان تقديره للفنون الجميلة ، ظل خاضعا تماما لنزعته الأخلاقية هذه : ورأى أن مناظر الكتاب المقدس مثل بتشبع(**) وسوسنة (***) ينبغى ألا تصور ؛ ويرى أن جميع ما ينفق على الآثار والنصب التذكارية ينبغى أن يعطى للفقراء .

فلو نظر الى ارازموس من هذه الزاوية لبدا لنا أقرب كثيرا الى قسيس من أبناء العصور الوسطى يعيش فى ملابسات برجوازية ، منه الى دعامة أساسية فى النهضة الكبرى العامة في زمانه . وهذه الصورة تناقض تناقضا تاما فكرتنا عن « عصر النهضة » . ومع ذلك ، فمن واجبنا أن نذكر القارىء المرة تلو المرة أنه لا يجوز قياس أناس القرن السادس عشر الى تصوراتنا عن « عصر النهضة » . بل الأصح هو العكس ، فان تصورنا « لعصر النهضة » ينبغى أن يقاس على أناس القرن السادس عشر .

وكان ارازموس على تنبه تام بأن العملية الروحية التى يمر فيها زمانه نهضة . « فالعلم يولد من جديد والعالم يعود الى العقل السليم ، والأدب الكريم يزدهر ثانية » . ان هذه التعبيرات وأمثالها تتردد بكثرة

(*) الموسيقى الفنية : اخذت تلك الموسيقى تنمو وتتطور أيام أرازموس . وهى الموسيقى التى تعكس للسامع كل دورة من دورات المعنى تمييزا لها عن الاغانى الشعبية (المترجم)

(**) بتشبع : هى زوجة يوريا وام سليمان ، رآها داود يوما متجردة تستحم ، فارسل زوجها بخطاب يامر بقتله . (المترجم)

(***) سوسنة : تمثل المراة المتهمة البريئة . (المترجم)

فى كتابات ارازموس ، ولكنه يشدد التأكيد على النواحي الأدبية بقوة تخرج على كل تناسب . غير أن ما انبثّ في شخصيته من صفه « عصر النهضه » لا يكمن فقط فى هذا الاعتقاد الفكرى . فانه يشارك فى معظم الصفات السامية التى تؤلف لنا مجتمعة تعـريف مصطلح « عصر النهضة » : التناسب النبيل ، والوضوح والكرامة البسيطة والجدية البالغة والتشوق العميق الى قيام انسجام ابدى بين الأشياء جميعا .

وبرغم ذلك كله ، فان مايعوزه لاضفاء الشكل السامى على مبتدعاته هو الحرارة والقوة الدافعة الى التشكيل . فهو لا يفتأ ينتج العجائب من التعبير الأدبى ، ولكن ذلك يجيء منه متفرقا على الدوام كالقزع(*) المتقطع فى السماء . وتعوزه راحة البال وسرعة الخاطر لحذف مالا ضرورة له . وتعوزه الأشكال الكبيرة التى يمتاز بها التعبير اللفظى ـ وهنا يتجاوز العيب حدود ماهو جمالى بحت . اذ ليس عقله من العقول الملحمية ولا الغنائية ولا الدرامية . ومن أيسر الأمور علينا أن نذكر على سبيل التمثيل لكل من هذه الأصناف اسم معاصر عظيم آخر والحكم بأن ارازموس لا يرقى الى مستواه .

وعندئذ يرد علينا ارازموس بقوله : وهل نزعت الى ذلك أو أردته؟ لقد تحدث ذات مرة بوضوح تام ، عن الطريقة التى يؤثر أن يلقى بها التقدير . فهو لم يتطلع أن يجد من يعجب به أو يبجله . اذ كان يكفيه أن يستحب كمسيحى ضعيف .

والدارس الذى يشغل نفسه بكتابات ارازموس تصدمه على الدوام عيوب تمنعه من تهيئة مكان بين أعاظم الرجال لرجل روتردام الكبير فهو بدوره يقدم لقرائه أو سامعيه ضربا من القدح فى ارازموس أو شعورا بالاستثارة منه . ولكن يحدث فيما بعد أن يتسلل اليه أحيانا شعور بأنه قد ظلم ارازموس . ففى مثل تلك اللحظة يحسن بالعالم الدارس أن يتذكر أنه يوجد فى زماننا هذا رجل ذو عقلية نبيلة جعل منه جهده الذى قضى فيه عمره ، الوسيط الفعلى بين ارازموس والوقت الحاضر ـ وأعنى بذلك برسى ستافورد ألن ـ الذى لم يشك قط فى عظمة ارازموس الحقة والأصيلة ، وان عرف نقاط الضعف فى ارازموس أكثر من أى شخص آخر . وينبغى لنا أن نحاول فهم ارازموس بالطريقة التى فهمه بها ألن .

(*) القزع : قطع السحاب المتفرقة كما ورد فى معجم الوسيط .
(المترجم)

ونحب أن ننقل صورة حية لارازموس عبر السنين الى يومنا هذا · وربما جاز لنا أن نسائل أنفسنا ماذا كان ارازموس الرجل والعـــالم ليستنتجه حول أيامنا العصيبة هذه ، وماذا كان يقول لها · ان ذلك سؤال تافه ينم عن البلادة · فان المرء لا يسعه الا أن يجيب بأنه لم يكن ليتمالك نفسه عن العويل على حماقة العالم ونزعته الشريرة ، وذلك على الأقل بنفس الصوت الجهير الذى انبعث به فى أيامه · وكان ارازموس على ذكر مما يتصف به كل مافى الأرض من عدم كفاية ومما لصق بكل كائن بشرى من اعواز فى الكمال · وكان على استعداد للتغاضى عن هاتين النقيصتين كلتيهما بقدر ما أن الخالق نفسه هو الذى ثبت تلك التحديدات والعيوب · ومع ذلك ، فانه أبى أن يتحمل العالم والانسان ويتقبلهما فى صــورة أنقص كمالا مما يستطيعان بلوغه ، وينبغى لهما احرازه · وقد أكد ايجابيا التزام الانسان بالاتجاه نحو الأفضل بعزم لم يستطع عصر بعده أن يتفوق عليه فيه ·

أجل انه نظر الى امكان التحسين ببساطة بالغة · اذ ظن أنه بحسب المرء لكى يدرك الأفضل ويميز الصدق ، أن يصدر الذهن قرارا بسيطا · فالشيء الوحيد الذى على المرء أن يفعله هو أن يفرق بين الجوهر وبين الظاهر · وهو فى المحاورة التى عنوانها « الأشياء والأسماء » يقول : « ولكن اذا كان امرؤ مخلوقا معقولا ، فما أبعد هذا عن العقل ، عندما يحدث أننا فى الشئون المتعلقة بمكاسب الجسم لا صوالحه ، وفى الأشياء الظاهرية ، التى يمنحنا اياها الحظ ، ويسلبنا اياها متى شاء ، نختار الشيء دون الاسم ؛ وفى الصوالح الحقة للعقل ، نحسب حساب الاسم أكثر مما نحسب حساب الشيء » (١٢) · وهو سؤال لايزال العالم الى اليوم يستطيع أن يطرحه على نفسه ·

ونحن على بينة بان مسائل اليوم لم تجد حلا بمثل هذه النصيحة الخلقية البسيطة أكثر مما حلت المسائل التى عرضت فى أيام ارازموس · ولكن لو حدث أن شيئا من بساطة ارازموس ووضوحه فى الأحكام الخلقية والعقلية قد عاد ثانية ، فان ذلك فى حد ذاته يعتبر مكسبا عظيما لعالم اليوم · اذ يرى عدد لا يحصى من الناس فى كل أرجاء العالم أنه يختلط باحياء ذكرى عام وفاة ارازموس ، احساس بالنفور من الكذب والحماقة ، والفجاجة والشر ، التى تبدو أشيع فى العالم اليوم منها فى أى عصر آخر · فنحن لانزال بحاجة الى ارازموس · ولكن لا يجوز لنا جميعا أن نغوص فى أعمـــاله · فان ذلك أمر متروك للقلة التى لا تبرح تكون مجتمعا فخما ودوليا حقا · على أننا جميعا نحتاج الى ارازموس كرمز ·

وعند التحليل النهائى سيتجلى لنا أن خير برهان على عظمته الخالدة هو أن شخصيته التاريخية أحرزت فعلا ماللرمز من وزن ، وأنها تبقى أمام أعين العالم قائمة تنصح وتحذر . فعقله أحـــد العقول التى لا غنى لنا عنهـــا .

فهذه الساعة من تاريخ العالم التى نمر فيها الآن قد عادت للمرة الثانية فأصبحت ساعة ارازموس . وماهو صوته يهيب بنا على البعد ، خافتا وسط ضجيج عالم قد مسه الدوار . غير أن هذا الصوت الذى هو دعاء الانسانية يرن عاليا وثابتا فى قلوب كل من لا يستطيع اليأس أن يمس قلوبهم من أن الصدق والطهر لابد أن يسودا .

جروشيوس وزمانه (*)
(١٥٨٣-١٦٤٥)

يحصل كل طفل هولندى على أبكر أفكاره التاريخية ابتداء من القرن السابع عشر · فان ذلك العصر الذهبى للأراضى المنخفضة بمثابة طعام الافطار لعقله · اذ تغذى احساسه بالماضى أخبار الأمير وليم ويان دى ويت ورويتر وترومب · وكلها أمور تبدو حقيقية وبسيطة كألوان علمه الأحمر والأبيض والأزرق · وهو يفهم تلك المدة ويحبها ·

ثم يجىء بعد ذلك رامبرانت مع حشد من صحبه · فهم يشغلون مكانهم على أحسن وجه مناسب فى الصورة التى كونها خيال الطفل . ويملئونها بباهر الضياء وبالغ الرفعة · وفيها يعرض الشعراء أنفسهم : فيجد ياكوب كاتس مكانه منها والى جواره جربراند بريدرو أيضا · ولكن ماخطب جوست فان دن فوندل ؟ هنا ينشأ أول شك فيما اذا كان كل شىء فى القرن السابع عشر سهل الفهم الى هذا الحد · فان فخامة فوندل المجيدة لتبدو أجنبية لا تتوام وبساطة يان فان جوين · وبينما الشاب الهولندى يعالج القرن السابع عشر من عدد من الزوايا يتكاثر يوما بعد يوم ، يزداد كل يوم تنبها كم كانت نظرته اليها وهو طفل ناقصة · فهو يكتشف أن روبنز وفان ديك يساعدانه أكثر من رامبرانت فى فهم فوندل · فماذا يكون الموقف لو أنه تصدى للحديث عن عصر فوندل وسويلنك وفان كامبن ، بدلا من الحديث عن عصر رامبرانت ؟فيا لها من

(*) Hugo de Groot en zijn eeuw حــــديث تذكارى القى بجـــامعة موجو الشعبية بالنيابة عن جمعية عصبة الامم والسـلام فى ١٦ يونية ١٩٢٥ - عند افتتاح معرض جروشيوس . نشر لاول مرة فى مجلة De Gids ٨٩ ، ٩٠ (اكتوبر ١٩٢٥) ص ١ ــ ١٦ والترجمة عن النص الهولندى فى مج ٢ ص ٣٨٩ ــ ٤٠٣ فى Verzamelde werken

(المترجم)

نغمة مختلفة وياله من لون مختلف وياله من وجه مختلف ! هنا تجد الجمال الشكلي والبناء الدقيق ، والانسجام الشديد .

ان فان كامبن الذى سيكون له الشرف الدائم لأنه ،
أزال القشور القوطية القذرة ،
عما للأراضي المنخفضة العمياء من وجه مشوه الخلقة .

وهذه الأبيات الشعرية من قول كونستانتجين هيجينز . ومن ثم ، يستبان أنه يرى أن كل ما جاء قبل فان كامبن كان تشويها قوطيا فهل يعني بذلك ليفن دى كاى وهندريك دى كيزر ، أى كل ما نسميه باسم « عصر النهضة » الهولندية ؟ ولكن معنى هذا أن صاحبنا الهولندى لم يستطع بعد أن يفهم عقل هيجينز . كلا ، كما أنه متى أعمل فكره يجد أنه لم يفهم رامبرانت أيضا .

ولعله ليس هناك قرن يبلغ من عسرالفهم مبلغ القرن السابع عشر، كما أن القدر الكثير من كل شىء بدا لعين الهولندى الشاب مالوفا فى تلك المدة - كالنضارة واللدونة وعدم التصنع - لم يكن الا نباتا بريا محضا ، شجرة مزهرة نبتت الى جوار السياج فى حديقة الحضارة الأوربية ، شجرة مر بها البستانى وكثير من المارة دون أن يلحظوها .

فالقرن السابع عشر هو بطل « عصر النهضة » الصغير بعد أن نضج وأصبح رجلا كاملا ، تقيده العقيدة ويغله ضميره ، كما أن الشجن والحنين الى الشكل الجميل لايزال يطيف به ويقلقه، ولكنه قد فقد كل صفات النضارة المتدفقة والضراوة الجارفة . ثم يأتى الالهام الآن فيجبره على الاتجاه نحو خلق الأشكال المختصرة والمضبوطة ، للنظام والوحدة والانساقية . وليس ثمة قرن آخر ثقلت فيه وطأة المثل الأعلى بمثل هذه الشدة على الحقيقة ، وعكست فيه الحياة مثل هذه الصورة للكمال الأرضى فى مرآة الروح . فهو عصر النظرة الدرامية الى الحياة . ويمكن القول بأن الفكرة التى تعبر عنها الكلمة المأثورة عن فوندل المنقوشة على مسرح أمستردام توجد أيضا عند والتر رالى وفرانسيس باكون . ان اعتمال المظاهر واللعب وآتخاذ الصور شىء معروف - ولكن من ذا الذى فعل ذلك بمثل اتقان لويس الرابع عشر لها .

انه عصر الانفصال البارد . والقرن السادس عشر عهد دوى فيه البوق حينا ، وصدحت فيه الكمان (الفيولينا) حينا آخر . والثامن عشر تبادلت فيه العزف الكمان والصفارة (الفلوت) . فاما السابع عشر فله رنين الأرغن وهديره .

ويحسبك هـذا مقـدمة للمسرحيـة · ثم يدخل جروشيوس · لقد عرفناه منذ طفولتنا : وعرفنا فيه الطفل الأعجوبة المدهش والشاعر باللاتينية والمفتي المستشار القـانوني ومناط أمل الأراضي المنخفضـة والأرمنيوسي (*) المؤمن وسجين لويفيستين ، وزوج ماريا فان ريجوربرج والمنفي والكاتب والسفير · وربما لم يستدع الأمر في هذه الحالة تغييرا في وجهة النظر التي كوناها في طفولتنا من حيث معالمها الأساسية ، بل يقتصر الأمـر على ملئهـا وتكميلهـا قليلا ما · وقد كان جـوزيف سكاليجر ذا رؤية واضحة نافذة عنـدما شام في ذلك الشاب « سياسيا موفور الحذر ومفتيا خاص الامتياز وسيدا وجيها متمسكا بالأخلاق » · ولكن جانوس دوسا كان أصفى وأصدق رؤية ، عندما وازن الصبى ابن الحادية عشرة ساعة وصـوله الى جامعة ليدن الى ارازموس في قصـيدة نظمها باللاتينية · وعندى أن الصلة الفكرية بين جروشيوس وبـين ارازموس ذات أهمية عظمى لفهم شخصيته · وهي ليست فقط مجرد صلة فكرية بل هي أيضا تأثير ومثال يحتذى · والحق ان جروشيوس نفسه أحس بهذه العلاقة أعمق احساس · وربما جازلنا أن نتذكر أنه عندما حاول العودة الى هولندة ووصل الى روتردام في أكتوبر ١٦٣١ ، كان أول شيء فعله أنه ذهب لمشاهدة تمثال ارازموس البرونزى الذى أقيم في مكان التمثال الحجرى القديم في ١٦٢٢ · ذلك أن جروشيوس فيما غمره من مرارة المنفى (مع قدر من الحنين الى الوطن أعظم كثيرا مما أحس به ارازموس في أى يوم من الأيام) حاول أن يعزى نفسه عما لقيه من كفران الهولنديين بفضله وقلة تقديرهم له با·· الى تذكرة أن هولندا قد فاتها أيضا أن تقدر ارازموس حق قدره · وانه ليعلق كذلك بان تهمة لاهوتية ظالمة قذفه بها كلوبنبرج قد وجهت بالمثل الى ارازموس ·

وهناك أيضا ضرب معين من القرابة في الخلق بين الرجلين · اذ لم يزد جروشيوس كثيرا عن ارازموس في كون الرجلين شهيدين بالفطرة والطبيعـة · وزوجته هي مصـدر الالهام لأشـد أعماله عنفـوانا · فليت ارازموس كانت له هو الآخر مارية فان ريجرز برج أخرى تقف الى جانبه ! « وليس من الصدف البجتة أن مؤرخ القرن التاسع عشر روبرت فروين يغلو في حكمه القاسي على كل من ارازموس وجروشيوس · فان

(*) الارمنيوسية الارمينيـانية : مذهب ديني يعـارض مذهب كالفن · أسسه ياكوب أرمينوس (١٥٦٠ ـ ١٦٠٩) اللاهوتى الهولندى والاستاذ بالجامعات الهولندية · (المترجم)

مواطن الضعف فيهما من نوع واحد الى حد ما ، على أن فروين لم يفهم حلقيهما فهما تاما لأنه لم يقدر عقليهما التقدير الوافى • ذلك بأن عقل فروين نفسه ، مهما بلغ من العمق والرحابة ، غير قادر على الانفساح لحماســة الحركة الانسانية و « عصر النهضــة » ، فهو حين نظر فى أمر ارازموس وجروشيوس لم يبصر آراءهما فى العــالم • وفى كلا الحالين كانت عظمة آرائهما فى العالم ، ونقاء روحيهما هى الى حد ما مصدر السمو بهما كرجلين •

وثمة نقاط أخرى يلتقيان فيها : اذ يتغلغل جوهر العصور القديمة فى عقل جروشيوس وعقل زميله ارازموس على السواء الى آخر ذرة فيهما كما أنه شأن عقل ارازموس قــد اخترقه بريق مسيحية واسعة الأفق معتدلة الروح • فكل مفهوم عنده وكل فكرة لديه ، ترتبط ارتباطا مباشرا بصورة فى العهود القديمة أو كلمة أو موضوع (Motif) • وهى العهود القديمة بأوسع معانيها رحابة : بما حوت من آباء الكنيسة القدامى أبناء القرن الأول الى جوارفلاسفة الوثنية ومؤرخيها • وان جروشيوس لينتفع كما فعل ارازموس بذلك الكنز الرنان من الفضة والذهب وكان ذلك منه فى يسر بالغ لا سبيل الى محاكاته • ونحن بما تهيأ لنا من مراجع لايستغنى عنها ، نرى أن ماركبت عليه ذاكرة الانسانيين من قدرة ويقظة قد أصبح شيئا لايكاد يتصوره عقل ، والشىء الوحيد الذى يترك لنا أى قدر من الثقة بالذات ، هو معرفتنا بأن النطاق الذى دارت فيه بالنسبة اليهم الأحداث جميعا كان محددا وضيقا • لكم كان عقل الانسان فى القرن السابع عشر ، عقلا لايــكل ولا يمل فى كل من مجالى التدوين والقدرة على الاعداد والتقديم • فما كان أى اطناب فى مبحث مهما طال بمدخل أى خــوف على قلب كاتب أو قارىء ولا خطيب ولا مستمــع ، وجروشيوس يعدل ارازموس تماما فى التدفق والاسهاب • ولاتينيته قوية عفية كلاتينية صنوه ، كما أنها تكاد توازنها فى الوضوح والمرونة • ولكن ليس لديه نكتة بارعة ولا سخرية لاذعة لتمد ذلك النثر القوى بشىء من التوابل والحرافة • فهنا نجد روح ارازموس دون أن نعثر على ضحكة ارازموس الساخرة •

فان جروشيوس من هذه الناحية يكاد يبدو نقيضــا لارازموس كما أنه النموذج بعينه لما قد نستطيع تسميته باسم الجدية الساذجة• ولعل الصورة التى لدينا عنه تتصف قليلا بالاسراف فى الجدية • ولعله يشوقنا أن نوجه دراسة أوثق للناحية الجمالية فى الشخصية • ولابد لنا حينئذ من التــأمل فى شــعره اللاتينى بل حتى فى شــعره الذى نظمه

بالهولندية • وقد كتب جروشيوس باللاتينية أكثر من عشرة آلاف بيت من الشعر ، كما كتب ما يعدل ذلك بالهولندية دون أن يكون شاعرا • ومن عجب أن كتابة الشعر باللاتينية كانت من الأمور الممكنة ! •• وذلك أن كتابة الشعر اللاتيني على النحو الذى مارسها به الفلاسفة الانسانيون، تعد من أعجب الأعمال التى اتخذتها الروح البشرية والتى عرفها تاريخ الثقافة • وقد اتخذها القوم تسلية ، ولكن أى تسلية فاخرة اتخذوا ! •

ولم يدع جروشيوس يوما أنه شاعر عظيم • فانه يكتب الى شقيقه فيللم Willem ١٦١٥ (ولم يتجاوز بعد الثانية والثلاثين) ، « فى مثل سنى وعصرى ، لم يعد قرض الشعر من الأمور المناسبة ، بل ولم يعد أجوده مقبولا من الناس » • ثم يواصل حديثه قائلا : انه أراد فى شعره الدينى أن يظهر نفسه فى صورة المسيحى لا فى صورة الشاعر كما أنه أراد بشعر الوطنية الذى قرض ، أن يتخذ لنفسه صفة المواطن• وهو يتخذ سمة المدافع عن آرائه حين يقول انه قد امتدح بشعره الوطنى وجهة النظر الهولندية مدحا تجلت فيه الفرحة البالغة بالنصر ، وثلب الخصم ثلبا انطوى على فرط المرارة اللاذعة • كما أنه يعتذر عما كتب من أناشيد الزفاف بقوله : « لقد كنا صغارا » •

على أنى أستميحكم اذنا أن أقتبس لكم من ذلك الشعر اللاتينى أمثلة تحوى شيئا من اللطف الجمالى • وقد اخترته من قصيدته التى جعل عنوانها « الابيجرامات » النكت الشعرية Epigramata ومن المعروف أنه فى ذلك القرن السابع عشر المولع بالاسهاب ، كان التطويل سببا فى القضاء على الشيء والايجاز سببا فى احيائه وتزكيته • ففى ذلك العصر عصر المبحث الذى لانهاية له ازدهرت الابيجرامة ، التى هى شعر الحكمة والنكت الشعرية الشديدة الاقتضاب • والايجاز مبعث الحيوية والانتعاش، وكذلك الحقيقة المجردة • وقد عمد جروشيوس فى محاكاة لمارتيالس (*) Martialis الى تخصيص مائة بيت شعرى الى جميع أنواع الشئون المنزلية : أداة خلع الأحذية ووعاء التدفئة وعلبة النشوق ولعبة الأوزة وعلم جرا • وهو يطلق على ذلك كله اسم الأدوات المنزلية Instrumentum domesticum • وكانى بتلك القصيدة ثريا رشيقة فى جو الحياة الهولندية الهادئة • واليكم مثالا من الرمزية الشعرية حيث يقول ملغزا :

(*) مارتيالس : (ح ٤٠ ـ ح ١٠٤) من شعراء اللاتين فى فن الابيجرامة • عرف بذكائه وموهبته الطبيعية فى تركيز فكرته الجوهرية فى كلمات معدودة لاذعة ومعبرة •
(المترجم)

« الرمالة (*) » : ينهمر على الورق مطر الرمل الأصفر الذهبى :
فاجب عن سؤال داناى ، نعم أجب

« الزلاقات » : انظروا الى النعال الحديدية التى يراها شتاء هولندة ، والعدو بها ليس عدوا ، والماء ليس بماء •

« المزولة » : ان ظل المزولة القصير يعلن الظهيرة :
أما أنا فمعدتى تستطيع اعلانها على أحسن وجه •

وكثيرا ما تكون لشـعر العلماء نتائج غير منتظرة : فانه أنقذ حياة كورنيليس ابن جروشيوس • فبينما هو وشقيقه ديرك يمضيان فى طريقهما ليعملا فى خدمة ملك السويد ، هاجمهما ليلا خادمهما الجشع ، فاطلق النار على ديرك وهو نائم فقضى عليه • وكان كورنيليس مشغولا آنذاك بكتـابة قصيد لاتينى • فاستل غدارته وجرح القاتل •

ومع أن جروشيوس يعوزه ما لدى ارازموس من نكتة وفكاهة ، فان عقله ليبدو فى معنى آخر متفوقا على سلفه • أما ارازموس ، فانه على الرغم من كل ما اجتمع لذكائه المدهش من حدة وصفاء ، يعد فى المحل الأول صاحب عقلية قادرة على التنسيق • فهو يضع ما لديه من أمثلة لا حصر لها ، وما أوتى من حجج لاينضب معينها ، الى جوار بعضها البعض ويستدعى بمرح مالا نهاية له من المواكب وهو يمرح تارة بمثل مغامرات رابيليه أو يخطو بهدوء وقور خطو انتصـارات دورر الفنية الباذخة • وذلك هو « عصر النهضة » فى أوج ذروته ، والشكل الذى يعبر فيه عن نفسه هو الخط والحركة •

فاما جروشيوس فانه يتبع اخضاع كل شىء للأصول ، فهو يقيس ويصمم ويبنى • وتلك حال القرن السابع عشر • وارازموس ينشر الضياء حيثما حل ، فأما جروشيوس فيخلق النظام حيثما وقف•وعندما كتب ارازموس كتاب «الفارس المسيحى Enchiridion militis Christiani سماه فنا من فنون التقوى ars pietatis • ويفصح جروشيوس فى مقدمة كتبه « القانون والحرب والسلام De iure belli ac Pacis رغبته فى صـوغ التشريع فى صورة الفن • فالى هذا الحد يمضى بطلا المذهب الانسانى فى توازيهما • ولكن ما أعظم الفارق بينهما فى تطوير كل منهما للفكرة • فكتاب الفارس المسيحى عملية انسكاب وانهمار ، فهو نهر فياض

(*) الرمالة : وعاء للرمل الذى كان النـاس يستخدمونه فى تجفيف الحبر قبل اختراع ورق النشـاف . (المترجم)

من المحاجة والجدل • والكتب الثلاثة فى القانون والحرب والسلام صرح شامخ وطيد •

ست أريد أن أتحدث عن أهمية العمل الذى يتسبب فى احياء هذه الذكرى • وبحسبنا أن آخرين قاموا بذلك على وجه أفضل مما أستطيع القيام به • ومع ذلك فبودى لو تأملت قليلا بناء ذلك العمل وشكله • فان جروشيوس كما قال هو بنفسه رسم خطوطه مثلما يرسم دارس الهندسة أشكاله • والفكرات الأساسية فيه حادة الشحذ واضحة المعالم فهى موجزة وبسيطة وهى بمثابة أحجار منتظمة قد سوتها يد الناحت للبانى • ومن أول العمل الى آخره يقف الأقدمون الثقات والأسانيد والمراجع القديمة على أهبة الاستعداد للدعم والمساندة • فما أجودالطريقة التى استطاع بها تنظيمها وياله من توازن وانتظام • وهنا يكاد عمل الموضوع Motif الكلاسيكى أن يشبه عمله فى فن عمارة ذلك الزمان، ولكن لعله هنا أكثر جوهرية وأقل سرفا فى طابعه الزخرفى • ولئن واصل جروشيوس دوما العمل فى أمثلة منتزعة من العهود القديمة بقصد تقديم النصيحة الى أبناء زمنه ، فان الذى دفعه الى فعل ذلك لم يكن مجرد الحذر الدبلوماسى بل اجتمع الى ذلك أيضا التفضيل الجمالى البحت • فالأقدمون فى رأيه يمثلون عنده كل شىء جاف فيما سلف أو سيجىء بعد ، على صورة لم تختلف كثيرا عن صورة العلاقة بين جزاى الكتاب المقدس العهد القديم والعهد الجديد • وهو يرى أن وجود المثال الكلاسيكى يقرب الى حد ما بين الأحداث الأقرب عهدا ويجمع تفاصيلها فى وحدة عامة • وقد قامت صورة التاريخ بعمل البديل للواقع المباشر• وقد قام جروشيوس تكريما لبلاد السويد بكتابة مقالته المعنونة «تاريخ القوط والوندال واللانجوباردين Historia Gotthorum, Vandalorum et Langobardorum وذلك لأن القوط هم الصورة الأولية للسويديين وشهرتهم من ثم تنسب الى بلاد السويد • وقد كتب فى أوائل أيامه ، تكريما للأراضى المنخفضة، مقالاجعل عنوانه Parallelon rerum Publicarum وهو موازنة بين الجمهوريات الحرة : اللاتينية والرومانية والباتافية • هذا الى أن وضع نموذج العصور القديمة تحت الأبصار اجراء من شأنه تبسيط النظرية السياسية • فبفضله يستطاع وضع مفهوم الدولة فى الاطار المحسوس لتلك الأشكال العريقة القدم ، ولعمرى ان التقارب بين الدولة الكلاسيكية والدولة الأوربية الغربية لم يصل قط الى مثل تلك الدرجة التى وصل اليها فى القرن السابع عشر ، عندما زاد قرب الدول الى مثيلاتها فى العصور القديمة أكثر منه فى العصور الوسطى فيما يتعلق

بمبدأ القومية ، وأدنى منه فى العصور الحديثة فيما يتعلق بمبدأ الاكتفاء الذاتى .

ولو نظرنا الى عمله « عن القانون والحرب والسلام De iure belli ac Pacis باعتباره عملا فنيا ، لتجلى لنا شدة ارتباطه « بقاعة البلدية بامستردام » . ولو أن هناك أساسا لتقسيم القرن السابع عشر الى ناحيتين ، كما فعلت فى ملحوظاتى التى أوردتها فى مقدمة حديثى ، فلن تكون بنا حاجة الى أن نسأل : فى أى من الجانبين يقف جروشيوس. فهو لا ينتسب الى حزب بريديرو ولا فان جوين ولا يان ستين ، بل هو منضو مع فوندل وسويلنك وفان كامبن ، ومع التعدد الصوتى Polyphony الموسيقى والكلاسيكية ، ومع الشكل الدقيق والمثل الأعلى الفخم .

وقد رأى أكثر من كاتب أن المدائح الرفيعة التى احتواها اهداؤه كتبه فى « القانون والحرب والسلام » الى لويس الثالث عشر ، انما هى مجرد تملق بحت والتماس حظوة . فان ذلك الملك الشاب الذى لم يفعل بعد أى عمل جليل كان حسبما يرى جروشيوس ، قد أصبح بحكم الاقتراع العام الذى أجرته البشرية مكرما بالفعل بما أضفى عليه من لقب « العادل » . وهى كنية من المحقق أنها أسمى وأفخم مما حظى به قواد الرومان — كالافريقى أو النوميدى أو ما لدى البطالمة من ألقاب مثل فيلوباتر وفيلادلفوس . وهكذا يبدأ الاهداء ، واذا هو يتصاعد أعلى فأعلى بصوت يزداد على الدوام ارتفاعا فى ترديده المدوى .ولكن ينبغى لنا أن نقرأ هذه العبارات الطنانة وقد استحضرنا فى عقولنا روبنز وسويلنك ، أعنى فى ضوء المثل الأعلى للقرن السابع عشر وأسلوب شكله التعبيرى . وقدتكون هذا الاهداء كالكورس المتعدد الأصوات ، مع مواصلة ترديد كلمة العادل iustus على الدوام وانتقالها بدرجة أشد طنينا من صوت بعد صوت . فلويس عادل فى كل ما يفعل ، وأكثر من ذلك: أنه من أجل نقاء ما يتصف به من فضيلة ينبغىأن يلقب أيضا «بالمقدس» شأن سلفيه شرلمان ولويس التاسع . هو « أمير السلام » الذى لا ينظر الى الممالك الأخرى جشعا ، ولا يجتاح بجيوشه حقوق أية مملكة أخرى. أما قواعد الحرب التى يطلبها الناس الآن فى الكتب ، فيمكن أن تؤخذ منذ اليوم نقلا عن أفعال لويس ، كأنما تؤخذ عن مثال بلغ الغاية فى الكمال : وانى لأبتهل الى «رب السلام — ورب العدالة ، أيها الملك العادل المسالم ، أن يتوج جلالتكم (الوثيقة القربى من جلاله) مثلما توجكم بكافة صنوف السعادة ، فكذلك بهذه أيضا ، وهى استحداث السلام العام الشامل » .

فهل كان جروشيوس يقصد ذلك كله ؟ بكل تأكيد . فان ذلك هو أسلوب الفكر في القرن السابع عشر . فانه قرن أراد أن يؤمن ، ورغب رغبة قوية قوة لا نهـــائية ، أن يكون أنبل الأشـــياء وأشـــدها جمالا وعلى الصورة التى يحددها ويمليها شعر العصور القديمة ، حقيقة واقعة وصدقا ماثلا . فمن لم يستطع أن يحس الى حد ما بما لذلك المثل الأعلى من قابلية فائقة للشد والتوتر ، فهو انسان لن يستطيع فهم العصر. وما الذى يبقى بعد ذلك من معظم فن القرن الســـابع عشر سوى الحشف الجاف ان حكم المرء على محتوياته وميوله مقيسة باحساس الواقع الميسر لنا في العصر الحاضر ؟ وماذا نحن صانعون مثلا بمدائح جروشيوس نفسه؟ واليكم بعض ما قيل فيه :

هكذا استطاع ميرفلت أن يصور شمس البلاد
بمرقاشه وهى تصب أشعتها على اللوح الصغير .
وان لم يتم ذلك على الطريقة التى تتلألأ بها فى ألمع أشكالهـــا فى أعيننا ،
ولكن تغشاها غلالة رقيقة من الفناء .
وان شئت تعبيرا صريحا بالهولندية البسيطة ، فانه جروشيوس العنقاء الخالد .
الذى تضيء عظمته الحكيمة كرة الأرض .
ومن الذى يستطلع الآن ما قالته كيفس أودلفى يوما ما ؟
فان وحيا من دلفت (*) (١) يتحدث بلسان أحكم مما فعله الاثنان .

ذلك ما كتبه فوندل . وهذه هى أبيات دانيال هاينسيوس المسطرة تحت صورة جروشيوس وهو فى الحادية والثلاثين :

عهد من السماء تستولى به على هولندة أمه
وساوس الحيرة بحق ، ولا تكاد تصدق أنها ولدته
وهكذا ظهر هوجو الفائق الممتاز .
فتأمل هذا الذى ظاهره بشرى وسائره الهى .

لقد كان القرن السابع عشر يشهد العالم من خلال مجد العصور العتيقة ، وفى ضحى الشمس الكامل . واختلف نوع تفاؤله عن نوع

(*) دلفت Delft : مسقط رأس جروشيوس . وهى مدينة هولندية تقع شمال غرب روتردام . (المترجم)

تفاؤل القرن الثامن عشر ـ اذ كان أقرب الى التمهل والتخدر • وكان أقل جريا وراء التفاصيل ، وأقل علاقة بالشخص الفرد ، وكان أكثر عمومية وأكثر ابهاما ، وأكثر شاعرية ، وفوق ذلك كله أكثر شكلية • فهو القرن الذي يجد وسيلة تعبيره في توقعات جروشيوس التي شام بها الخير في لويس الثالث عشر وفي توقيره لجوستاف أدولف ، ولكن ذلك يتم قبل كل شيء بصورة يتجلى فيها الجد والثبات ، في رسائله وكتاباته ، وآماله الراسخة في السلام وفي اعادة توحيد الكنيسة •

واعتقد جروشيوس أنه يرى فجر ذلك اليوم السعيد وقد أخذ عموده يتشقق • فانه يكتب الى أبيه في ١٢ مايو ١٦٤٠ (٢) قائلا : « ان العدد الجم من أتقياء الناس وعظمائهم وعلمائهم في كل من الجانبين ـ أخذوا يدركون مدى ما كان في ذلك من خطأ ، فالخطأ هنا (يعني بذلك الجانب الكاثوليكي) هو أنهم يأبون أن يصلحوا أو يعوضوا العيوب الواضحة ، والخطأ هناك (يعني في جانب دعاة الاصلاح الديني) في نزوعهم الى خلق مبادىء جديدة وتكديس المطاعن المريرة على المثالب القديمة ، وان لم يعوزهم شيء إلا مفسر يحسن التفسير • وانه ليقول في مكان آخر ان مايخالجه من اليأس من قيام السلام في المسيحية آخذ في التناقص • فلقد تحدث الى قوم من أبناء عصره يؤمنون بأنهم سيعيشون حتى يروا ألوية السلام تظللهم في فرنسا • وهو يعتقد أن الكاردينال ريشليو ، يرى أن توحيد المسيحية سينجح (٣) •

فبأية صورة تصور جروشيوس مثل هذا السلم وقد تم بفضل التوحيد بين الجانبين ؟ لا شك انه رآه الى حد كبير في صورة حركة تتجه صوب الكنيسة الكاثوليكية • ولن نحاول هنا حل المسألة ، التي طال حولها البحث والنقاش في أيامه ، وهي مسألة مدى تقدمه نحو صدر الكنيسة الأم • ولكن حسبنا أن ما سنورده بعد محقق تماما : وهو أنه في مجموع اتجاهه الفكري وثيق القربى من الكتلة الضخمة من البارزين ممن اعتنقوا الفكرة الجديدة في أيامه • وهنا أيضا نجد توازيا بينه وبين فوندل من المستطاع تعقبه • فانه يأسف كما أسف ارازموس من قبل ، لأن الوسيلة التي اتبعت في علاج شرور الكنيسة هي الانقسامات والانشقاقات (٤) • وهو يرى مثلما رأى ارازموس ، أن الاصلاح الديني الحق لم يكن ليزيد عن ارجاع القديم الى سابق عهده ، أي العودة الى الكنيسة القديمة النقية كنيسة العصور الأولى ، مذ كان لتقاليد الكنيسة قيمة كبيرة لديه • ولا شك أن احترامه للاجماع ، أي الاتفاق العام بين مفكري جميع العصور ، واحترامه للتاريخ أيضا ، وهما أمران اتخذ

منهما مبدأ مرشدا له فى عمله « القـانون والحرب والسـلام De iure belli ac Pacis » ، قد أضفى على وجهـة نظره المتعلقة بالكنيسـة درجـة من الشمول والتحررية Liberalism لم يكن بد من أن تبدو مريبة لدى كثيرمن البروتستنت • (٥)

وقد كان فى هذا كله يبنى فوق فترة شبابه التى قضاها معتنقا للمذهب الأرمينى • وقد أعلن شـاكرا أنه حصل من أبيه على جرثومة جهوده التالية فى سبيل الوحدة (٦) • فاذا لم أكن مخطئا ، فان لدى كثيرين من العلمانيين الهولنـديين فكرة خاطئة حول « نظرية الاعتراض Remonstrantism» ، التى ظهرت فى القرن السابع عشر • وقد يتبادر الى أذهاننا شىء من اللبس بسبب تشـابه التسـميات قديمها وحديثها وننساق أيضا وراء لفظ Libertines ، التى تعنى الاباحية فى الدين والتى استخدمها أتبـاع كالفن للتشـكيك فى خصـومهم ، فنحسب الأرمنيوسيين قوما متحررين أحرار الفكر عصريين •

أجل انهم كانوا بالفعل أكثر تسـامحا وأقل تمسـكا بالمذهب الاعتقادى القطعى Dogmatismفى وجهة نظرهم من اتباع كالفن • ولكن هذا لا يكفى لتحديد الطبيعة الحقة لحركتهم •

وسندرك الصفة الايجابية للطائفة أوضـح ادراك عندما نتذكر أن لفظة « الأرمينيوسيين » أصبحت تطلق فى انجلترة كسباب توجهه طائفة البيوريتان الى كبار رجال الدين • مثال ذلك أن وليم لود كبير أساقفة كنتربرى ، الروح العـاملة فى سياسة شارل الأول الكنسـية ومضطهد البيوريتان القاسى الفؤاد ومنـاصر سـترافورد ، كان يعتبر عنـدهم الأرمينيوسى الأول فى أكمل صورة • والواقع أن هناك لا جرم قرابة كبيرة واتصـالا وثيقا بين المذهب الاعتراضى الهولندى وبين الكنيسـة الأنجليكانية العليا • وما من انسان يمثل تلك العلاقة بأوضح مما يمثلها هوجو جروشيوس •

وعلى حين أن الآراء الكالفينية والتعميدية أرست جذورها راسخة قوية بين المستويات العامة العريضة من الشعب الانجليزى ، فان كل ما أوتى القدرة على الحياة من الأفكار الأرستقراطية والمحافظة والانسانية، وجد لنفسه ملاذا ومجالا جديدا للتطور فى الصرح الوطيد المتمثل فى كنيسة الدولة • فهناك راحت هيئة مثقفة وضليعة فى العلم من رجال الدين تصوغ علم لاهوت جديد ،يحدوها نفس روح الاحترام لآباء الكنيسة الأولين وللأشكال القديمة وللأسرار المقدسة والشعائر التى بدت فيما

سبق لارازموس فى أخريات ايامه أنهـا الضمين بوجود كنيسـة نقية وصادقة • وها قد وجدت روح الحركة المضـادة للاصلاح بما طبعت عليه من حاسة قوية من الاتساق والاستجابة لمرعيات الكنيسة ، وما ركب فيها من خوف مقدس على السلطات القائمة (وعلى هيئة الأساقفة والملكية بوجه خاص) ، وروح البـاروك بمـا امتلأت به من حب حار للفخامة والاحتشام ـ ذلك كله قد وجد مستودعا ممتازا فى كنيسة انجلترة الى جانب الكاثوليكية التى جدد شـبابها فى روما واللوثرية التى اشـتدت اصلابها فى البلاطات الألمانية •

وهنا نذكر أن هذه الأشـياء جميعا هى المثل الأعلى الكنسى عند جروشيوس : وأعنى بها الوحدة القديمة بما حوت من أشكال نبيلة ، وقد احتفظ بها فى المعنى الجديد • فرأى رغبته وقد تحققت بانجلترة : الا وهى العودة الى الكنيسة القديمة النقية • فانه يكتب فى ١٦١٥ «يدهشنى أن يجرؤ أى انسان على انكار أن الناس بانجلترا يساورهم من الاحترام لسلطان الكنيسة القديمة أكثر مما يساور الناس بفرنسا» • (٧) وفى ١٦٣٨ ، أى فى الوقت الذى نفذ فيه لود وأتباعه نظامهم فعلا فى قدر من عدم التسامح لا يتواءم وما امتلأ به صدر جروشيوس من ميول ، كتب يقول : « تستطيعون أن تروا فى إنجلترا الى أى حد كبير مضى تدمير المبادىء الضـارة ، وذلك قبل كل شىء بسـبب أن الأفراد الذين اضطلعوا هناك بهذا العمل المقدس لم يدخلوا أى شىء جديد ولا أى شىء من عند أنفسهم ، بل ركزوا أبصارهم على عصور أفضل » • (٨)

وقد صرح جروشيوس بنفسه أنه طالما أحس بالتوقير يملأ نفسه حيال من تجسدت فيه العقيدة الأنجليكانية الأرستقراطية الاسـتبدادية وهو لود رئيس الأساقفة • ففى تلك السنة ذاتها ١٦٣٨ ، بعد نشوب الصراع الضخم مع أتباع كالفن باسكتلندة (ذلك الصراع الذى انتهى بجر الملك شارل الى نهايته المدمرة) رفع جروشيوس آكف الضراعة داعيا للود مبتهلا بان يكشف الله العماية عن أعين هؤلاء الاسكتلنديين Scotorum Skotoma (٩) • ولم يفت السيدة ريجرزبرج الشابة أن تزور لود أثناء رحلتها بانجلترة • (١٠) وراح جروشيوس وهو يرزح فى أغلال الشقاء يوازن ما يقاسيه لود من آلام فى سـبيل مبـدأ كريم بآلام كل من ارازموس وكسندر وميلا نكتون • (١١) أما لود ، فانه بدوره أشار الى جروشيوس بأجمل عبارات الثناء (١٢) •

وقد اعتبر فروين ميل جروشيوس الى لود غلطة لا تغتفر . ولكن فروين الشاب وابن عام ١٩٥٨ لما يبرح « بروتستنتيا متحررا » Protestant-Liberal واشد سذاجة من أن يرقى الى فهم التيار الضخم المنهمر ابان القرن السابع عشر ، وهو التيار الذى ربط كلا من لود وجروشيوس بأوثق ارتباط ، كما أن لود رغم كل ما اتسم به من شدة يستحق أن يوصف بأحسن مما وصفه به فروين حيث قال عنه « ذلك الرجل الضيق العقل الذى لم يترك وراءه ما يدافع عنه سوى خاتمته التعسة .. » (١٣) .

ومع ذلك فان حكم فروين على جروشيوس له نصيب من الصحة : « إنه شخص ليس له عين يبصر بها زمانه . » اذ ركزت نظرته على مثل أعلى يتمثل فى صورة منعكسة عن ماض من نسج الخيال . فما ساوره من وسواس حول العصور القديمة قد عاق بصره عن الرؤية . والعيب الوحيد الذى عاب روحه العظيمة هو انحيازه لجانب واحد . ولا يتجسد فيه الا نصف العصر الذهبى الهولندى فقط ، والنصف الذى يعوزه يبدو لنا أنه هو النصف الأشد حيوية . فكل ما له علاقة مباشرة بالحياة الريفية والبورجوازية فهو شيء غريب عنه . لذا لم يستطع جروشيوس العلامة التوأم وموضعه من الحياة اليومية الهولندية ، من حيث كفاحها الناشط فى سبيل الرخاء ، ومن حيث نكاتها ومزاحها ومسراتها الخشنة . ومما يعادل ذلك فى بعده عنه وتنافره معه ، تيار الروح الرومانتيكية فى « عصر النهضة » ، تلك الروح التى ألهمت شعر هوفت Hooft الغرامى . فقد أعوزه هنا شيئان : موطيء قدم وطيد فى أرض الحقيقة ، ودفء للعواطف حافل بالاشعاع . فهو لم يعرف سوى الناحية الشكلية ثقافة أيامه . وذلك على حين أن هوفت وهيجنز وفوندل عرفوا الجانبين جميعا .

وفى نفس الحين كان اتصال جروشيوس الوحيد بالحياة المتلئة بالصحة والعافية متمثلا فى ماريافان ريجرزبرج . وماريا تمثل تلك الناحية الأخرى من العصر : أى كل ما هو مباشر وحار الدماء ـ أى جانب يان ستين وبيتردى هوخ ان صح لى أن أضيف أسماء جديدة . فان الحياة التى عاشتها هذه المرأة الشجاعة والطبيعية البعيدة عن التكلف ـ كما تتكشف أمامنا فيما دار بينهما ابان السنوات الأولى من أواصر حب عقدت فى ظل زوجية سعيدة ونقية لم تلبث أن غمرتها أسباب الصلابة الغليظة المحزنة التى ترتبت على الحظ التعس والهموم العائلية ، لتنطوى على قدر من المأساة الحقة يعظم ما تنطوى عليه حياة زوجها العظيم ، ذلك

المنفى الذائع الصيت • ولم يفت فروين وهو الأعزب ، أن يكون بالغ القسوة معها أيضا • ذلك أنها عندما تيأس روحها وتتمرر نفسها ، حتى لتكتب هذه الكلمات المريرة « لقد كدت أصبح عديمة الاحساس لأنى عشت دائما فى حزن واحد مقيم » ، الا يكمن السبب الأعمق لذلك كله فى أن جروشيوس ذا العقلية المفكرة فاته أن يرد اليها ما وهبته له من حب كامل مطلق ؟ وحتى فى تلك الرسالة الساحرة الأولى التى كتبتها اليه فى ١٦١٣ يوم سطرت اليه بانجلترا : « زارنا المسيو ث. وترك لك كتابا ولكنى لن أرسله اليك ، حتى تعود الى الوطن عاجلا » ـ فحتى فى هذه البداية تجد موضوع حزنها الأبدى مدى الحيـاة ظاهرا يمكن تعقبه فعلا • غير أن روحها القوية وقلبها الكبير ساعداها على الاحتفاظ بالمرح والشجاعة أمدا طويلا جدا • وقل من القصص ما يتحدث عن مثل تلك الشجاعة والأعصاب القوية التى تتجلى بصورة أخاذة فى القصة المشهورة قصة الفرار من لوفستين • فعندما أغلقت غطاء الصندوق على حبيبهـا قبلت من القفل حديده البارد • وما اخال أى جمود ظهر منها فيما تلا ذلك من أعوام قادرا على محو تلك اللمسة العاطفية الرقيقة • •

وعلى حين كدرت الهموم سعادة ماريا ، دأب الحقد يأكل شغاف قلب جروشيوس من نكران هولندا لجميله • فان ذلك الحـزن الممض الكبير ظل على الدوام مسيطرا على باله ، مهما يكن قدر ما وجد من العزاء فى كتبه وفى كفاحه الحافل بالأمل • وأصبحت الشكوى من نكران الجميل وقلة التقدير والاعتراف بالفضل النغمة التى رددها طوال حياته كلها فهو يقول : « ليس فى أى مكان من العالم نبات يزدهر بمثل السهولة التى يزدهر بها شـــعب ناكر للجميل • » ويقول : « تبلغ الجمهورية الهولندية الحرة من السوء ما لا يجوز معه لأى انسان أوتى مسـحة من العقل أن يربط نفسه بها بأدنى علاقة ، وذلك لأنه اما أن يوقع عند ذلك الأذى بنفسه أو بوطنه » ويقول : « • وان حبى لوطنى الناكر للجميل ليسد على كل المسالك الى السعادة • » (١٤) وكان الحظ مفرط القسوة مع جروشيوس عنـدما حال بينه وبين مجرد وجـود الأهل الأقرباء حين حضرته الوفاة وحيدا على سريره فى روستوك • •

وقد توفى هوجوجروشيوس وحيدا مهجورا فى اللحظة التى شرعت فيها حياته (وهو آنئذ فى الثانية والستين) فى اتخاذ دورة جديدة • فانه بعد أن أعفى من عمل لم يدخل الرضا الى قلبه ، وهو منصب السفير السويدى لدى البلاط الفرنسى ، أخذ يبحث عن مكان يقضى فيه سنى

شيخوخته • ولكنه لم يمهل حتى يشهد السلام الكنسي والسياسي الذى طالما ناط به آماله وسلواه ، ومع ذلك ، فانه على كل حال قد مات قبل أن رفعت عن عينيهغشاوة الخداع •

فما الذى كان يجلبه اليه طول العمر لو مد فى أجله ؟ فلو أنه أمهل ثلاثة أعوام أخرى لشهد فى ١٦٤٨ عقد معاهدات الصلح الكبرى : ففى مونستر وأوسنابروك رفرفت من جديد فى معظم أرجاء أوربا ألوية الهدوء والوفاق • كما ثبت استقلال الأراضى المنخفضة افخم تثبيت • ولئن لم يظهر فى شخص الامبراطورية الرومانية المقدسة توحيد الكنيسة، فقد تجلى على كل حال اعتراف متبادل بكل من العقيدتين على أساس من المساواة • وكان المفروض أن معاهدات الصلح تعتبر أساسا للقانون الدولى المرتقب مع وضع ضمانات الدفاع المشترك عن العدالة ضد كل خرق لتلك المعاهدات ، وذلك كله فى توافق تام وآراء جروشيوس •

ولو أنه أمهل عشر سنوات أخرى لشهد فى ١٦٥٥ الدولة التى خدمها سفيرا مدة عدة سنوات ، تخوض تحت امرة ملك جديد ، هو شارل العاشر جوستافوس غمار أشد الحروب عدوانا وأشدها جدارة بتنديد كتابه « القانون والحرب والسلام » • لقد اندلعت النار بكل من بولندة وشمال ألمانيا والدانمركة • أما وطن جروشيوس نفسه ، وقد أصبح آنذاك تحت قيادة أشخاص ارتبط بسياستهم أسوأ ارتباط وأحفله بسوء المصير اسم سجن لوفستين ، فقد ألقى بكل ثقل قوة هولندة البحرية ووضعها فى الميزان ضد السويد ــ وكان ذلك من أجل الدفاع عن امتيازاتها حقا ، ولكنه كان أيضا لاسترجاع سلم عادل واعادته الى نصابه •

ولو أن جروشيوس عاش حتى بلغ الرابعة والثمانين أو الخامسة والثمانين ، لشهد قيام ذلك اللويس الآخر ابن من أسماه «بأمير السلام» يتولى الملك باسم « الملك الشمس » • وتهيأ للملك الجديد لويس الرابع عشر فى ١٦٦٧ أن يتخذ من خديعة قانونية ذريعة للهجوم على الأراضى المنخفضة الأسبانية فى عهد السلام المزخرف فى أكمل صورة ، وهى ضربة قصد بها تجريب قوته فيما ضمه بعد ذلك من أقاليم باسم توحيد البلاد ــ وقد كتب لهذا اللويس أن يستنشق ملء رئتيه وبكامل الثقة عبير ذلك الاهداء الذى جعل من أبيه أميرا للعدالة • فان المثل الأعلى لحقبة الباروك الذى خدمه جروشيوس لم يبلغ عنفوانه الا

فى شخص لويس الرابع عشر ـ بكل ما لذلك المثال من توتر هائل وما ينطوى عليه من خداع فاخر والكذب الأجوف الكامن وراءهما •

ولكن الزائد عن قانون السلام والحرب ماكان سيرى فقط لوفواه (*) ومليكه ناشطين يعملان ، بل كان سيرى أيضا وللمرة الثانية يان دى ويت(**)• ونشأت المحالفة الثلاثية: فان عصبة من تلك الدول غير المشتركة اشتراكا مباشرا فى ذلك الظلم نادت على ملك فرنسا أن « قف » • وكان رئيس مجلس الطبقات الثلاث بهولندة على يقين وثقة أنه وضع أساس محكمة دولية أوربية وطيدة الأركان ، وأنه لم يعد من الضرورى بعد ذلك الا اردافها باستكمال المحالفة الثلاثية وتطويرها بادخال الامبراطور فيها فضلا عن الأمراء الامبراطوريين وأعضاء الاتحـاد السـويسرى • على أن محالفة ذلك الرجل المسكين اتصفت بالضعف وعدم الثبات ، فلم يقتصر الأمر على أن السياسة الفرنسية والذهب الفرنسى استطاعا فصل انجلترا منها ثم تبعتها فى ذلك السويد • والواقع أنه لو نظر الى عمل دى ويت على أنه تطبيق لفكرة جروشيوس لتجلى مافيه جوهريا من عدم السلامة ، وذلك لأن المحالفة الثلاثية لم تؤسس نفسها على القانون ، بل اكتفت بمحاولة وضع حل وسـط للتقريب بين الأطراف على حساب الجانب المظلوم وهو أسبانيا • ولم تكن مسـتعدة لمسـاندة أية دعوة تدعو الى القانون ودعمها بقوة السلاح اذا استلزم الأمر •

ولو أن الأقدار منحت جروشيوس عمر التسعين لظل حيا حتى عام ١٦٧٢ : يوم حدثت أشد الحروب العدوانية مجلبة للعار ، وهى السـقوط المهين الذى أصاب النظام السياسى لأعداء أسرة أورانج Anti-Orangeists فى هولندة ، وفظائع اليوم العشرين من أغسطس ومقتل زعمائهم ، وفيهم الأخوان دى ويت ، اللذين لا يعد اعدام أولدن بارنفلت فى ١٦١٩ بالمقارنة الى مصرعهما الا عملا تافها ، لا بوصفه مما يمكن أن يغتفر ، بل باعتباره أقل وحشية حيـــوانية • على أن جروشيوس كان سيشـــهد أيضـــا قيام رجل كرس حياته منذ تلك اللحظة فصاعدا للحيلولة دون غزو أوربا على يد ملكية عسكرية بمفردها • فان وليم الثالث ، ذلك الملك الشديد القاسى المحدود الذى لم يتأت له قدر كبير من الثقافة والذى رزق مع ذلك

(*) المركيز لوفواه (١٦٤١ ــ ١٦٩١) وزير الحربية فى عهد لويس الرابع عشر. (المترجم)

(**) يان دى ويت (١٦٢٥ ـ ١٦٧٢) رئيس مجلس الطبقات بهولنده • أصبح رئيسا لمجلس الطبقات وانشأ المحالفة الثلاثية مع انجلترة والسويد ضد لويس الرابع عشر • وقتله الغوغاء مع أخيه كورنيليوس • (المترجم)

تمسكا حديديا بأهدافه وصلابة ومداومة لا تلين لها قناة ، ليبدو النقيض المضاد لجروشيوس من كثير من الأوجه · ومع ذلك فان هناك تماثلا في الهدف بينهما ، فضلا عن تماثل في المصير ـ رغم كل الظروف · وكلاهما يعد في « العظماء المقهورين » · بيد أن النصر واتى وليم الثالث فى حياة عينه ـ وذلك اذا جعلنا الأساس وجود شيء اسمه النصر الحق في شئون الدول · فالذى أحرزه ذلك الملك لم يكن الا نظاما لتوازن القوى معيبا بالغ العيب عديم الثبات لم يستطع الوصول اليه وصيانة بقائه الا باهراق الدماء أنهـارا · ومع ذلك ، فان هـذا النظام الذى دخلت به أوربا الى القرن الثامن عشر انطوى على معنى التقدم ، كما أنه حال عدة مرات دون نشوب الحرب العامة حتى اندلع لهيبها ثانية فى عام ١٧٤٠ · فهل كان شيء من روح جروشيوس قد تجسد حقيقة ماثلة فى شخص وليم الثالث ؟ لكم يسرنا أن نعتقد ذلك ·

وثمة ناحية أخرى : هى ما حدث فى عام ١٦٨٥ بعد العيد المئوى لجروشيوس بعامين · ـ اذ حدث فى فرنسا التى بالغ فى تمجيدها ، والتى توقع أن تثمر فيها أول ثمار جهوده فى سبيل الصلح بين أطراف المسيحية ، أن استرجعت بالفعل وحدة الكنيسة بالغاء مرسوم نانت · وكان ذلك هو الهيئة الجسدية التى استطاع التـــاريخ أن يضفيها على رؤياه · وهكذا أباح المثل الأعلى لنفسه أن يتحقق ·

ولكن هل هذه فكرة نستطيع عندها أن نودع جروشيوس ـ وهى أوضح برهان على عدم كفاية وهمه النبيل ؟ ان قرنه وهـو الســابع عشر قد أخذ يشارف نهايته · ولكن قرنه شيء وزمانه شيء آخر · فزمانه قدر له أن يدوم أكثر من مائة سنة · فبين حين وآخر كان توقعه الحافل بالأمل فى اقتراب الســلام تكدره الشــــكوك التى تخيم على المدة التى يعمل لسعادتها ، وهل ستعود جهوده بالخير على عصره أم على عصر لاحق · قال « ومع ذلك فاذا نحن لم نوهب الاستمتاع بمشاهدة تلك النعمة ، فان واجبنا يقضى علينا برغم ذلك أن نغرس الشجر الذى قد يعود بالمنفعة على عصر آخر » · (١٥) والرؤيا التى ظلت تداعب خياله هى الوهم بقيـام « سلم مسيحى Pax Christiana · ونحن أبناء جيل تال نفضل لو طبقنا ذلك على السلم بين الأمم ·
Serere arbores alteriforte saeculo Profuturas

وليس فى الامكان على الاطلاق قياس آثار أحد الكتب · فلقد صاغ هوجو جروشيوس قانون الأمم · فان عقله القادر على التنظيم وهب العالم

رؤيا مجتمع الدول القائم على العدل • ومضى العالم فى سبيله القاسى ، بيد أنه لم ينس البتة تلك الرؤيا نسيانا تاما • وكانت هناك نسخة من كتابه القانون والحرب والسلام فى خيمة جوستاف أدولف المنصوبة قرب لوتزن • وظل اسم جروشيوس ينبت وينبثق المرة بعد الأخرى ، وفى دوى يزداد قوة على كر الزمان • وحتى لو لم يكن ما يكرمه فيه لسان الصدق والاجماع من العالم المتحضر الا مجرد الرمز ، فان حياته وكتاباته لم تكن لتذهب عبثا •

حواش وتعليقات

وظيفة التاريخ الثقافى

قسم (١)

١ ـ ان لفظة « الواقعي » ينبغى أن تستخدم دائما بوصفها نقيضا للفظة « الاسمى » ، ما لم ينص صراحة على أن الكلمة تستخدم بمعنى آخر . وهذا التضاد المدرساني لا يزال ذا أهمية كبرى وذا قيمة مستديمة لتفكيرنا وعباراتنا . وانى لتدهشنى الكثرة التى التقى بها بكلمة « الاسمى » فى الأدب الأكاديمى المعاصر .

٢ ـ وذلك نتيجة بوجه خاص لمناشط الجمعية التاريخية ونشرتها الدورية المسماة « HISTORY » .

قسم (٢)

١ ـ قد نستطيع الرجوع الى كتاب Logik und Systematik der Giesteswissenschaften (Hand- buch der Philosophie) تاليف اريك روتاكر (ميونخ وبرلين ١٩٢٧)

وانظر تيودورلت Wissenschaft, Bildung, Weltanschauung (ليبزج وبرلين ١٩٢٨) ، وانظر أيضا ـ وان كان ذا علاقة مباشرة أقل ـ هانزفراير فى الطبعة الثانية (ليبزج وبرلين ١٩٢٨)
Theorie des Objektiven Geistes,
وفى المدة الأخيرة حاول ولهلم اوستوالد ابراز برهنة جديدة لمناهج العلوم المضبوطة من تفوق وحيد فى
«Grundsatz-Liches zur Geschichte der Technik»
Zeittchrift des Vereines deutscher Ingenieure
(مج ١٢١ (١٩٢٩) ص ١ ـ ٨)

٢ ـ انظر المصدر السابق ١٣ ، وانظر كارل جوتل في : ـ
«Die Uberwindung des 19. Jahrhunderts im Denken der Gegenwart,» Kantstudien : Philosophische Zeitschrift.
مج ٣٢ (١٩٢٧) ص ٤٧٥ ـ ٥١٨

٣ ـ روتاكر بالمصدر نفسه ص ٨٠ ع‌ع

٤ ـ المصدر السابق ص ٨٥ ع‌ع

٥ ـ انظر مثلا استخدام هنرى سى لذلك المصطلح في مقالته : ـ
« L'idée d'évolution en histoire », Revue Philosophique,
مج ٥٢ (١٩٢٦) ص ١٦١

٦ ـ انظر فلهلم باور في :
Einfuhrungin das Studium der Geschichte
الطبعة الثانية (تيوبنجن ١٩٢٨) ص ١٥٠

٧ ـ انظر ليبنتز في : **«Accessiones historicae»**
في مجلدين (هانوفر ١٦٩٨ ، ١٧٠٠) وقد اقتبس منه في :
«Revue de synthese historique»
سلسلة جديدة ـ مج ٤٩ (١٩٢٩) ص ٢٦٦ ·

٨ ـ غير أنه لا ينبغي موازنة هذا بموت الفرد البيولوجي ، بل بالابادة الكارثة التي تحدث لنوع بأجمعه ، التي هي حتى في الطبيعة نفسها تعد ظاهرة تاريخية وليس ظاهرة بيولوجية · والعناصر التاريخية في البيولوجيا قد أوضحت في المصدر السابق تيوذور لت ص ٣٢ ع

٩ ـ عن دور العوامل السياسية وغيرها من العوامل غير الاقتصادية في تكوين النظم الاقتصادية العامة ، انظر اوتوهنتز في :
«Der moderne kapitalismus als historisches Individuum» Historische Zeitschrift
مج ١٣٩ (١٩٢٩) من ٤٥٧ ـ ٥٠٩ وخاصة ص ٤٦٦ ، ٤٧٦ ،

قسم (٢)

١ ـ انظر ما بعده وبخاصة لت بالمصـدر نفسـه ص ٤ ، ١٩ ، وادوارد شبرانجر فى :

«Die Kulturzyklentheorie und das Problem des Kulturverfalls» Sitzungsberichte der Preussischen Akademie der Wissenschaften, Philosophisch - historsche Klass

مج ١٤٦ (١٩٥٦)

وقد أعيد طبعه فى

Giestes Kultur : Monatshefte der Comeniusgesellschafts fur Geisteskultur und Volksbildung

مج ٣٧ (١٩٢٩) ص ٦٥ ـ ٩٠

٢ ـ ان نظرية اندريه جولس حول الأشـكال الأدبيـة البسـيطة قد وجهت طريقى ها هنا ٠

٣ ـ انظر الكسيس دى توكفيل فى كتابه La Démocratie en Amérique فى مجلدين (١٨٣٥) ، الكتاب الثالث ص ١١٣ ، ١١٥ مقتبسا عن كتاب (Democracy in America)
فى جزاين (نيويورك ١٩٤٨) ج ٢ ص ٦٩ ـ ٧٠

٤ ـ انظر ارنست سيير فى (Le mal romantique
مقال فى الامبريالية غير العقلية (باريس ١٩٠٨) ، الباطنيون فى الرومانسية الجديدة : التطور المعاصر فى الشهية المستيقية (باريس ١٩١١) ، الأخطار المستيقية الكامنة فى ايحاءات الديمقراطيين المعاصرين (باريس ١٩١٨) ، الأصول الرومانسيكية لأخلاقيات وسياسة المذهب الرومانسى (باريس ١٩٢٠)

٥ ـ ومن دواعى سرورى أن هـ ٠ تمبرلى فى كتابه « القصص التاريخية الأجنبية » نشرة الجمعية التاريخية مج ٧٦ (١٩٢٩) ، يشاركنى كرهى لهذا النوع من التاريخ المكتوب بمبالغة ، وان كنت أرى انه يبالغ فى قيمة القصة التاريخية الحقة كوسيلة لفهم التاريخ ٠

٦ ـ روتاكر بالمرجع السابق ص ١٦٦

٧ ـ ارنست ترويلتش فى استعراضه لازوالد شبنجلر
Der Untergang des Abendlandes : Umrisse Einer Morphologie der Geschichte
فى مجلدين ميونيخ ١٩١٨

في Historische Zeitschrift
مج ١٢٠ (١٩١٩) ص ٢٨١ ــ ٢٩١ ، الاقتباس ص ٢٩٠

قسم (٤)

١ ــ انظر هنريخ ريكت في
«Kulturwissenschaft und Naturwissen Chaft»
(توبنجن ١٨٩٤) ص ٣٩

٢ ــ انظر فلهم وندلباند في : ــ
(Geschichte und Naturwissenschaft)
(ستراسبورج ١٨٩٤) ص ٣١

٣ ــ انظر فردوخ ما ينكه ، استعراض ج • ب • جوتش في « التاريخ والمؤرخون في القرن التاسع عشر » (لندن ١٩١٣) في : ــ
Historische Zeitschrift
مج ١١٢ (١٩١٤) ، ص ١٥٠ ــ ١٥٤ ، الاقتباس ص ١٥٣

٤ ــ انظر لت بالمصدر نفسه ص ٩٧ عع

٥ ــ المصدر السابق ص ٢١ ، ٢٢

٦ ــ انظر كارل يوئل
«Der sakulare Rhythmus der Geschichte»,
Jahrbuch fur Soziologie, I, (1925, 159, 146.

٧ ــ روتاكر في المصدر السابق ص ٨٢

٨ ــ شبرانجر بالموضع السابق ص ٤٧

٩ ــ انظر و • ب • كرستنسن
De goddelijke bedrieger, «Mededelingen der Koninklijke Akademie van Wetenschappen, Afdeeling Letterkunde,
(١٩٢٨) المسلسلة ب رقم ٣ مج ٦٦
وفرتزبلانكي في (برلين ١٩٢٨)
Der verborgene Gott bei Luther

١٠ ــ في اعتقادي أن علماء النحو وقواعد اللغــة لا يزالون ينزعون الى استعمال لفظة التركيب العضوى (المورفولوجيا) بصورة مطلقة بمعناها الظاهرى البحت :

١١ ــ انظر المعالجة الحية لهذه النقطة عند روخوس فون ليليان كرون في : ــ

«Die Insassen des vierten Dante'schen Sunder Kreises», Zeitschrift fur vergleichende Litteraturgeschichte und Renaisance-Litteratur

السلسلة الجديدة جـ ٣ (١٨٩٠) ص ٢٤ ــ ٤٥ ــ وانظر فريتزكرن في

Dante (Kampfer, Grosses Menschentum, aller, Kei ten

(برلين ١٩٢٣) ، وانظر بول بيور في

Petrarcas Buch ohne Namen und die pabstliche Kurie

(هاله ١٩٢٥) ص ٣٥ ع ع ، وأسماء المراجع الموجودة به ٠

قسم (٥)

١ ــ سفر دانيال اصحاح ٧ آية ٣ ــ ٢٨ ، اصحاح ٢ آية ٣١ ــ ٤٦

٢ ــ انجيل متى ١ : ١٧

٣ ــ لخص ألفونس دوبش آراءه في كتابه

«Vom Altertum zum Mittelalter Das Kontinuitatsproblem», Archiv fur Kulturgeschichte

مج ١٦ (١٩٢٦) ص ١٥٩ ــ ١٨٢

٤ ــانظر هنرى بيرن في (Mohamed & Charlemagne) (نيويورك ١٩٥٧)

٥ ــ انظر فرديناند لوت في

La Fin du monde antique, le début du Moyen-Age.

(باريس ١٩٢٧)

٦ ــ انظر كارل هيوسي في

Altertum, Mittelalter, Neuzeitin der Kirchengeschichte : Ein Beitrag zum Problem der historischen Periodisierung

(توبنجن ١٩٢١)

٧ ــ انظر ارنست ترويلتش في : ــ

Der Historismus und seine Probleme : Gesammelte Schriften

حـ ٣ (توبنجن ١٩٢٢)

٨ ـ انظر جيورج فون بيلوف في : ـ
Uber historische Periodisierungen. Mit einer Beigabe : Wesen und Aussbreitung der Romantik
(برلين ١٩٢٥)

٩ ـ انظر استعراض ونقد المصدر نفسه تأليف بول جواكيمسن ،
Historische Zeitschrift
مج ١٣٤ (١٩٢٦) ص ٣٦٩ ـ ٣٧٣ وخاصة ٣٧٢

١٠ ـ انظر هانز شبانجنبرج في
Die Perioden der Weltgeschichte», Historische Zeitschrift
مج ١٢٧ (١٩٢٣) ص ١ ـ ٤٩

١١ ـ مج ٤١ (١٩٢٦) والأعداد التالية من
Revue de synthese historique

١٢ ـ انظر أيضا كتابه
Moyen-Age et temps modernes : Une nouvelle défense des divisions traditionelles de l'histoire», Revue de synthèse historique.
وسببها هوفون بيلوف في الموضع السابق ص ٦٩ ـ ٨٢ (١٩٢٧)
مج ٤٢

١٣ ـ انظر هنرى سي في
«La division de l'histoire en périodes : A propos d'un ouvrage recent», Revue de synthèse historique
مج ٤١ (١٩٢٦) ص ٦١ ـ ٦٧ وخاصة ص ٦٥ ، ٦٦

١٤ ـ انظر بحث شبرانجر البالغ الأهمية بالمصدر السابق ف ٣٥

١٥ ـ انظر اوتوكار لورنس في
Die Geschichtswissenschaft in ihren Hauptrichtungen und Aufgaben,
في مجلدين (برلين ١٨٨٦) الجزء الأول ص ٢٧٩
جـ ٢ ١٨٩١ · وعن وجهات نظر مشابهة انظر ارنست برنهايم في
Lehrbuch der historischen Methode und der Geschichtsphilosophie,
الطبعة الخامسة (ليبزج ١٩٠٨) ص ٨١ ع ع وانظر باور في
الموضع السابق ح ٣

١٦ ــ انظر والترفوجل في
Uber den Rhythmus im geschichtlichen Leben des abendlandischen Europa» Historische Zeitschrift
مج ١٢٩ (١٩٢٤) ص ١ ــ ٦٨ ، وانظر كارل يوئل بنفس المرجع

١٧ ــ انظر فلهلم بيندر في
Das Problem der Generation in der Kunstgeschichte Europas,
الطبعة الثانية المزيدة (برلين ١٩٢٨)

وانظر أيضا الفريد لورنس في
Abendlandische Musikgeschichteim : Rhythmus der Generationen
(برلين ١٩٢٨)

١٨ ــ انظر بيندر المصدر نفسه ص ٢٠ ع ع ، حيث يضع هذه الصعوبات في حسابه ولكنه يفسرها تفسير المستهين • والاعتراضات الجوهرية على نظرية الأجيال المماثلة لنظريتي قد طورها لوسيان فبفر في
Bulletin du centre international de synthèse
رقم ٧ (يونية ١٩٢٩)

المثل التاريخية العليا فى الحيـاة

١ ـ انظر فيليب دى كومين فى Mémoires ، نشره ب · دى ماندروه ، مجلدان (باريس ١٩٠١ ـ ١٩٠٣ حـ ١ ص ٣٩٠ · (انظر The History of Comines ترجمة · توماس دانيت لندن١٨٩٧ ص٣٢٥) «كان شديد النهم الى المجد ، وهو السبب الأكبر الذى من أجله حرك ذلك العدد الجم من الحروب · وذلك أنه رغب فى أن يقلد أولئك الأمراء الأقدمين ، الذين لا تبرح شهرتهم قائمة حتى هـذه اللحظة·» انظر فيليب‌ويلانت Recueil des antiquités de Flandre نشره ج ج · دى سمت (بروكسل ١٨٦٥) ف جـ ـ ص ٥٦

« لقد أصبح غليظا وشديدا من كثير من الأوجه ، ولم يعد يبهجه شيء سوى كتب التاريخ الرومانتيكي وسير يوليوس قيصر وبومبى وهانيبال والاسكندر الأكبر وأعمالهم العظيمة ، وكثير غيرهم من عظمـاء الرجال وعليتهم ، الذين رغب فى اتبـاع سـيرتهم ومحاكاتهم · » انظر أوليفييه دى لامارش فىMémoires الناشران هنرى بون و جـ · دار بومونت ، أربعة مجلدات (باريس ١٨٨٣ ـ ١٨٨٨) حـ ٢ ص ٣٣٤

٢ ـ ان القوانين الزراعية لسنتى ١٩٠٦ ، ١٩١٠ قد تحطمت الى حد كبير بانهيار هذا النظام

٣ ـ انظر دى لامارش فى المصدر السابق ف ١ ، ص ١٤٥

٤ ـ ان العصر الذهبى السـعيد يقوم فيمـا يرى أدوار ماير وحده على أسـاطير شـعبية (فولكلورية) ، كما أن العصر الفضى والعصور التالية من اكتشافات هسيود فى

Genethliao Kon Carl Robert Zum & Marz

(١٩١٠) (برلين ١٩١٠) ص ١٧٤ · على أن هذه النظرية لايكذبها

تماما أن الهنود لديهم هم الآخرون نظام يتركب من أربع فترات ، اذ الواقع أن المجموعة الهندية تحمل الطابع التأملي أكثر من الطابع الأسطوري (الميثولوجي)

انظر رودلف روث في : ـ

Der Mythus von den fünf Menschen gesch Lechtern bei Hesiod und die indische Lehre von den vier Weltaltern

(توبنجن ١٨٦٠)

٥ ـ انظر تاكيتوس في Annales حـ ٣ ص ٢٦ ، بوسيدينوس في 'Seneca (Epistolae)'

ص ٩٠ ، انظر ديونيسوس هاليكاراناسوس في (Archaelogia) جـ ١ ـ ص ٣٦ ، أنظر اجراف في

Ad aureae aetatis fabutam symbola

مج ٨ (ليبزج ١٨٨٥) ص ٤٣ ع ع
Leipziger Studien zur classischen Philologie

٦ ـ انظر هـ • اولدنبرج في Die Religion des Veda
اشتوتجارت ١٨٩٤) ، ص ٥٣٢ ع ع ، انظر ١ • ورد في
Psyche : Seelencult und Unsterblichkeitsglaube der Griechen

Freiburg im Boeisgaa) و ١٨٩٤) ص ٩٨ ع ع •

انظر ١ • ماير في المرجع السابق ص ١٧٣ • وحدث فيما بعد أن شخصية ياما عدلت أيضا فاصبحت شخصية رب العالم السفلي •

٧ ـ انظر اثارفا فيدا ، ١٨ ، ٣ : ١٣

٨ ـ الموعظة الأولى في وليمة القديس بطرس والقديس بولس والقديس برنار في كليرفو Opera الناشران رنيه ماسويه وتكسييه (باريس ١٧١٩) حـ ١ ص ٩٩٥ ، انظر الرسالة ٢٣٨ ، المرجع نفسه حـ١ ، ٢٣٥ (صموئيل حـ • اياليس في حياة وأعمال القديس برنار رئيس دير كليرفو • ثلاثه مجلدات (لندن ١٨٨٩) حـ ٢ ص ٧٠٢) ، الى البابا يوجين : « من ذا الذي يمنحني أن أرى قبل أن أموت ، كنيسة الله كما كانت في أيامها الخوالي يوم كان الرسل يرمون شباكهم التماسا لصيد لا من الفضة والذهب ، بل من النفوس ؟ » (انظر ١ ، ٧٣٤ ، ٢ ، ٧٨٥ ، ٨٢٨)

٩ ـ انظر « الفردوس Paradiso » ، ١١ ، ٦٤ ع ع : « الفا ومئة من السنين وأكثر ، ظلت وقد سرق منها زوجها الأول ، غير شهيرة ، ولا متلقية لغزل ـ حتى عاد ـ احتملت سخرية الناس جميعا ٠ » ٠ (الكوميديا الالهية ترجمةلورنس بنيون ، فى مكتبة The Portable Dante الناشر باولو ميلانو (نيويورك ١٩٤٧ ، ٤٢٣)

١٠ ـ يلخص توماس الاكوينى جميع ثمار الفقر الانجيلى فى Expositio in Isaiam prophetam أنتورب (١٦٢١) ، ١٣، ٤٠ : «ويستتبع الفقر أشياء كثيرة : أولها ، اغتفار الخطايا ٠٠٠ وثانيها صيانة الفضائل ٠٠٠ وثالثها سكون القلب ٠٠٠ ورابعها تنفيذ الرغبة ٠٠٠ وخامسها الاسهام فى الحلاوة الربانية ٠٠٠ وسادسها ، السمو وسابعها وراثة السموات » ٠

١١ ـ « ما أسعده فى مرتبته الخفيضة/وما أغناه فى فقره المتواضع ـ ذلك الذى / يعيش عيشا ريفيا هادئا ٠٠٠ هوراس فـ Epode 2 (ترجمة جون دريدن Odes & Satyrs of Horace (لندن ٠ ١٧٣ ، ص انظر بروبريتوس ، جـ ٣ ص ٢٥ ـ ٤٦ ، وانظر كالبورنيوس (Bucolica) جـ ١ ص ٤٤

١٢ ـ انظر ارنست دملر Poetae Latini aevi carolini Monumenta Germaniae His- torica, Poetae Series ١ ، ٢٦٩ ، ٣٦٠ ، ٣٨٤ (برلين ١٨٨١)

١٣ ـ «Recollection des merveilles advenues en notre temps» فى كتاب جورج شاستلان Euvres نشرة جـ٠بـهـ٠سـ٠ كرفن دى لتنهوف ثمانية مجلدات (بروكسل ١٨٦٣ ـ ١٨٦٦) جـ ٧ ص ٢٠٠

١٤ ـ أن الروابط بالممارسات الدينية لاتفتقر اليها أيضا الأساطير الرعوية والعصر الذهبى

١٥ ـ «Le Livre des faits du bon chevalier messier Jacques de Lalaing» مقتبسا فى شاستلان بالمصدر السابق مج ٨ ص ٢٥٤ ٠ أما عن تاليف الكتاب فانظر جورج دوتربون فى La Litterature française à la cour des ducs de Bourgogne (باريس ١٩٠٩) ، ٩٩ ، ٤٨٣

١٦ ـ لا يبدو عندى أن من المرغوب فيه اتباع وشسلر فى
Das Kulturproblem des Minnesangs : Studien zur Vorgeschichte der Renaissance
(هال ١٩٠٩) ، فى اعتبار المثل الأعلى للحياة فى البلاط شيئا منفصلا عن المثل الأعلى الفروسى ، وفى رأيى أن الأول منهما كان مجرد ضرب من التخصص والتهذيب للثانية •

١٧ ـ فيما يتعلق بتلك العادة انظر مثلا كتاب انجراند مونستروليه فى
La Chronique ... 1400-1444
نشره ل دويه دارك ، ٦ مجلدات •
(باريس ١٨٥٧ ـ ١٨٦٢) ، مج ٤ ص ٦٥ ، انظر توماس بازن فى **Derebus gestis Caroli VII et Ludovici XI historiarum Libri XII** نشره جـ • كيشراه
٤ مجلدات (باريس ١٨٥٥ ـ ١٨٥٩) جـ ٣ ص ٥٧

١٨ ـ جان فرواسار فى **Chroniques** نشره سميون لوك وجـ • راينوه ، ١١ مجلد (باريس ١٨٦٩ ـ ١٨٩٩) جـ ٤ ص ٦٩ ، المصدر نفسه نشره جـ•ب•هـ•س• كرفين دى لتنهوف ، ٢٩ مجلد (بروكسل ١٨٦٧ ـ ١٨٧٧) ، جـ ٥ ص ٢٩١ ، ٥١٤

١٩ ـ انظر **Chronique de Berne** ٢ • مولينيه فى
Les sources de l'histoire de France, des origines aux guerres d'Italie
٦ مجلدات (باريس ١٩٠١ ـ ١٩٠٦) رقم ٣١٠٣ ، فى فرواساد **Chroniques** (طبعة كرفن) جـ٢ ص ٥٣١ : «وبعد انتحال معاذير عديدة اقسم ليخدمن اى فرد يحصـــل منه على أكبر قســـط من المنفعة ، قائلا انه سيكون كالديك فى دوارة الريح يدور مع كل ريح ، وانه سيظل مع من يحصل منه على أعظم جعل أو هبة • فلما أن ســـمع الانجليز الواقفون هنـــاك هذه الكلمات أخذوا يضحكون » • قارن نفس الكلمات وقد وضعها على لسان بومونت نفسه شاعر
Le voeu du heron, Société des Bibliophiles de Mons
رقم ٨ (مونز ، ١٨٣٩) ص١٧ ص (٣٥٤ـ٧١) • لا أهمية لما قد يكون للقصة (المدونه) من أساس تاريخى • وفى حكاية « يمين الدراج » بمدينة ليل أقسم أحد النبلاء فى ١٤٥٤ » لئن لم يحصل على عطف حبيبته قبل خروجه فى الحملة الصليبية ، ليتزوجن أول سيدة

أو آنسة تملك عشرين ألف قطعة من الذهب (يلتقى بها) عند عودته من الشرق الأوسط ••• » دوتريبونت بالمرجع السابق ص ١١١ • وان شئت صورة كاريكاتورية ساخرة لمنازلات البرجاس فانظر جان مولينيه فى Chronique نشرة جـ•أ• بوشون ، ٥ مجلدات (باريس ١٨٢٧ ـ ١٨٢٨) جـ ٣ ، ص ١٦ •

٢٠ ـ فليبالد شروتر فى Ovid und die Troubadours (هال ١٩٠٨
وانظر كارك هايل فى Die Theorie der Minne in den altesten Minneromanen Frankreichs (ماربرج ١٩١١)
وانظر ادموند فارال فى Recherches sur les sources Latines des contes et romans courtois du Moyen-Age. (باريس ١٩١٣)

٢١ ـ عن أهمية العناصر المسيحية فى النهضة انظر كونراد برداخ فى Sinn und Ursprung der Worte Renaissance und Reformation»,
فى كتاب Reformation, Renaissance, Humanismus : Zwei Abhand Lungen) uber die Grundlage moderner Bildung und Sprachkunst. (برلين ١٩١٨) ص ١٣ ـ ٩٦ وخاصة ٢٦ عع ،
وانظر ارنست فالسر فى
Christentum und Antike in der Auffassung der italienischen Fruh-renaissance», Archiv fur Kulturgeschichte.
مج ١١ (١٩١٣) ص ٢٧٣ ـ ٢٨٨

٢٢ ـ الواقع أنه حتى فرواساد نفســـه كانت نظـرته الى الالتزامات الفروسية نظرة تمت الى النهضة بأقوى سبب :
انظر Chroniques ، نشرة لوك ورراينوه ، ١ ، ٣ ، ٤ ج ٤ ، ص ١١٢ • ويقول شاستلان : « ان الشرف ليدعو كل طبيعـــة نبيلة ؛ فمحبة كل شيء نبيل هي من جوهره » • و
«Le dit de verité»
فى كتاب شاستلان نفسه ج ٤ ص ٢٢١ •

٢٣ ـ انظر ديتريتش شافر فى ١ ، ٧ • (برلين ١٩٠٧)
Weltgeschichte der Neuzeit

٢٤ ـ عن ملحوظة فى Historische Zeitschrift مج ١٠٥ (١٩١٠) ، ٤٥٦ ، عن مقال بقلم ادوارد هايك فى «Die Nachdauer Bismarcks» Konservative Monatsschrift (ابريل ١٩١٠) •

هذا والحاجة الى ايجاد علاقة بين الثقافة الجديدة التي يحس الألماني أنه يســاعد في بنائها وبين العصر البطولي الجرماني لا يقتصر على فنون النصب التذكارية والعمارة ولا على الشــعر القومي · وفي الامكان ايضاح ذلك ببضعة أمثلة · وكتاب ل· شمت الموسوم Geschichte der deutschen Stamme bis zum Ausgange der Volkerwanderung, وهو كتاب بالغ الواقعية ضليع في تبحره يتألف من ستة أجزاء (برلين ١٩١٠ ــ ١٩١٨) ، يدهش القارىء غير الألماني للمدى الشديد الذي يطلق فيه المؤلف العنان لشــعوره القومي العصري في بيــانه عن أعمال ارمينيوس (٢ ، الجزء الثاني ، ١٠٥ ع ع) حيث قال « كان ثرمينيوس واحدا من أعظم أبطال شعبنا» الذين ينبغي أن تحس ألمانيا نحوهم بالشكر الأبدي الدائم ، فهو «أول ممثل يجسد بالتحديد الفكرة القومية» ، وهو « شخص أوتي عبقرية فطـرية عظيمة » وهو « الشخصية الماجدة الألمعية لحاكم قبيلة الشيروسكي (الألمانية النازلة بحوض الويزر) » · وتســقط المفاهيم العصرية على العلاقة بين الرومان والشيروسكي : « والواقع أن الفوز في الكفاح لم يتم في معركة صريحة ، بل تم بهجوم ماكر مفاجىء · بيد أن الجرمان سددوا الدين للرومان الذين سبقوهم في تقلب الأهواء وفي خرق قانون الأمم ــ من نفس عملتهم هم أنفسهم » · (ص١١٦)

وان كارل لامبرخت في Der Kaiser : Versuch einer Charakteristik برلين١٩١٣) ، ليؤكد أوجه التوازي الخارجية بين الثقافة العالمية لشعب من الشعوب وال Urzeit ، « عصر ما قبل التاريخ » لنفس الشعب مثال ذلك ، الروح الديمقراطيـــة التي تسود القرن العشرين وديمقراطية عصر البطولة الجرماني (المصدر نفسه ٧٠) · وهو يحس أن غليوم الثاني ينطوي على بقايا ميل قبل تاريخي » وهي بقايا تنم عن نفسها في نظرية الامبراطور عن « نحلة الأجداد » ، ونظريته عن الله ورأيه في ولاء رعاياه (المصدر نفسه ٦ ، ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٧) ·

هذا والاتجاهات قبل التاريخية مرتبطة أوثق ارتباط باعتقاد جازم في « الاستعداد والموهبة الخاصة التي يملكها الشعب الألماني في التاريخ العالمي (المصدر نفسه ٩٩) ، وهو الاعتقاد الذي أعلنه في الآونة الأخيرة الأستاذ يوكن بوضوح مدهش · وربما أمكن

ان تنحط هذه الفكرة عن سيطرة ذهنية خالصة للعالم تفرضها الثقافة الألمانية • (كما يعبر عنها الامبراطور انظر المرجع السابق ص ٩٩) منحدرة الى امبريالية سافرة : « ألمانيـــا وشطر ضخم من العالم للألمان ، الذين •• يمضون قدما من القومية ذات الحدود الجرافية الى اعتقاد قومي فى حياة شعبنا وشخصيته •••••• » انظر ف • سيبرت فى

Der deutsche Gedanke in der Welt : Deutsch akademische Schriften, herausgegeben von der H. von Treitsch ke stiftung, (١٩١٢) ج ٣

وقد تطورت هذه الفكرة بشكل عجيب فى كتابات آرثر بونس في :

Deutscher Glaube : Traumereien an der Einsamkeit

(هايل برون ١٨٩٧)

Zur germanisierung des Christentums,

مقالات منقحة تاريخها من ١٨٩٥ الى ١٩٠١ (جينا ١٩١١) حتى شكلت المجلد الأول من كتاب

Kur religiosen Krisis Vom neuen Mythos, Eine Prognose :

المجلد الرابع من نفس العمل (جينا ١٩١١) • وقد حاول بونس منذ البداية وقـد اتخذ موقفـا قوميا متطرفا غلب على مشاعره وجعله نقطة ارتحاله ، العمل على اعادة عبادة فودن باعتباره ضربا من التابع الاقطاعي للمسيح (Deutscher Glaube, passim)

« ولا شك أن التطور الديني للمستقبل هو العودة الواعية للبدايات الوسيطية أى صبغ المسيحية بالصـــباغ الجرماني ••• » ــ لقد اظهرت الأزمـة الألمانية لياقتها المفرطـة للاضطلاع بميراث اسرائيل ونقله اليها •• « ولا يكاد يكون هناك أية بادرة تنم عن ابتداء القوم فى فهم ما للمسيحية من معنى أعمق » بين الشعوب اللاتينية والسلافية •

(وهى مقالة يرجع تاريخها الأصلى الى ١٨٩٥
(Zur Germanisierung 12, 14, 15

على أن آراءه مـا لبثت رويدا رويـدا أن أصـــبحت أكثر تهذيبا وأقل ضيقا فى حدودها • واذا هو الآن يسخر من عبدة فودن العصريين • وليس فى مستطاع الأساطير البطولية (الساجا) الايسلندية والعصر البطولى الجرمانى الا أن تنتج حالة مزاجية تؤخذ مأخذ الخلفية للصــورة ، ويحس الانسان أن ذلك العــالم

«كان أصيلا وشديدا فى جرمانيته» ، بل ان الانسان ليكاد يأسف لأن مثل تلك البذرة المبشرة لهذه الديانات الجرمانية لم تتطور ، ولكن أيسلندة لا تستطيع منحنا ديانة (Zur Germanisierung ١٠٥ ــ ١١١ ــ وهو مقال تاريخه ١٩٠١) . ولا تزال هناك حاجة الى حالة مزاجية دينية تكون فيها « ارادة لاتلين وتعمل بقوة النفس وسلطانها) مســـــيطرة » فى صـــــورة أعمق وأعلى أنواع الكبرياء والتحدى » (المصدر نفسه ٦٦) ، « والفكرة الجرمانية القديمة عن الدين تجعله مصــــدرا للقوة لا ملجأ للمرضى والسـقماء » ، (المصدر نفسه ٤٢) « والدين لايتكون من أحلام بل من الشجاعة والعمل » (المصدر نفسه ٣٤) ، والسؤال الحيوى الألمانى هو « كيف أستطيع حكم العالم ؟ » (المصدر نفسه ١٦ ، ٣٤) ، وفى Vom neuen Mythos يصبح المضمون القومى لهذه الفكرات محـــدودا وأكثر تهـــذيبا (ص . ص ٤٤) وفى مقــــــدمة Zur Germanisierung يحذر القارىء من أن « يفسر باستهتار » عنوان الكتاب ، والحق أنك لتظلم هذا المفكر بتصوره فى صـــورة مجرد الامبريالى المفكر وصاحب النظريات العنصرية .

لقد عادت الحرب على كثير من هذه الاتجاهات بالتواء فجيج ومادى . ومن العجب أن لاهوتيا مثل دايسمان يتناول الآن جديا فكرة عبث بها يونس الراديكالى فى فترته الأولى
(Deutscher Glaube 85, 216)
وفى عيد الميلاد عام ١٩١٤ يمتدح هلياند السكسونى القديم ، يسوع بوصفه بطلا عسكريا ، بأنه « أعمق وأصدق انطباع أخذه الروح الجرمانى عن المسيح فى تاريخ حياة ذلك الشعب كله ..
«Heliands Weihnacht», Illustrierte Zeitung,
» رقم ٣٧٢٨ (١٠ ديسمبر ١٩١٤)
وبطبيعة الحال ينبغى لنا ألا نبالغ فى تقـدير أهمية ما يتولد عن الحرب من العظات والشعر . اذ لابد أن يتمنى العالم فيما بعـد لو أنـكر مقدارا هائلا من المواد المطبوعة والمؤرخـة فى ١٩١٤ . (ولكن ما مقدار ما سينكره بعد ذلك ؟)

الوطنية والقومية فى التاريخ الأوربى

١ ــ حتى نهاية العصور الوسطى

١ ــ الالياذة ، ٥ ، ٢١٣

٢ ــ سفر المكابيين الثانى ٨ : ٢١ ، أنظر ١٤/١٨

٣ ــ أوغسطين ، مدينة الرب De Civitate Dei الكتاب الرابع الفصل ١٥ (ترجمة جون هيل ، نشرة ر٠ف٠ تاسكر ، مجلدان) لندن ١٩٥٧ ، ١ ، ١٢٥) ٠

٤ ــ أنظر هاينريخ فنكى فى
Weltimperialismus und nationale Regungen im spateren Mittelalter

٥ ــ أنظر البرخت فرمنجهوف فى
Geschichte der Kirchenverfassung Deutschlands im Mittelalter
(هانوفر ١٩٠٥) ، ١ ، ١٥١

٦ ــ أنظر هلفدان كورت « هناك معنى معين لكلمة Patria فى اللغتين النورسية واللاتينية ٠
النورمانية »
Archivum Latinitatis medii aevi (Bulletin Due Cange)
جـ ٢ (١٩٢٥ ــ ١٩٢٦) ص ٩٣ ــ ٩٦
أنظر فرانسيسكو ارنالدى فى :
«Ancora sul significato di Patria»
المصدر السابق جـ ٣ ١٩٢٦ ــ ١٩٢٧) ص ٣٠ ــ ٣١ ، وأنظر ش جونسون فى (Patria) المصدر السابق جـ ٣ ، ١٩٢٦ ــ ١٩٢٧) ص ٨٧ ، وأنظر-لويس نيكولا ودولوار Notes Lexicographiques ١ ، (Patria) المصدر نفسه جـ ٣ ، ١٩٢٦ــ١٩٢٧ ص ١٤٥ ــ وأنظر هارييه برات لاتن فى Patria المصدر نفسه جـ ٧ (١٩٣٢)

ص ٤٣ ـ ٤٤ · وأنظر
Les annales de Flodoard publiées d'après les sources
نشره ف·لاور (باريس ١٩٠٦) ، ١٧
حيث يستخرج المحرر من الكلمة معانى أكثر مما تحتوى ·

٧ ـ Cronica fratris salimbene de Adam ordinis minorum
Monumenta Germaniae historica
نشره أوزوالد هولدر ايجر
مجموعة Scriptorum مج ٣٢ (هانوفر وليبزج ١٩١٣) ص ٥٣٤

٨ ـ سوجر من سانت دنيس فى
Vie de Louis le Gros, suivie de l'histoire du roi Luis VI
نشرة أوجست مولينييه (باريس ١٨٨٧) ص ٢٦ ـ ٣٠

٩ ـ يوحنا السالسبورى فى Opera Omnia نشره جـ · ١ · جايلز ،
خمسة مجلدات (أوكسفورد ١٨٤٨) ، (Epistolae) ص ٦٣ع
نقلا عن ميلور وبتلر فى The letters of John of Salisbury
جـ ١ فى الرسـائل الأولى (١١٥٣ ـ ١١٦١) (لندن ١٩٥٥ ،
ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧

١٠ ـ أنظر Van den derden Edewaert (الناشر) يان فرانس فلمز
Belgisch Museum der Nederduitsche taa len letter kunde en der geschiedenis des vaderlands
مج ٤ (١٨٤٠) ص ٢٩٨ ـ ٣٦٧ ـ ٢ ، ١٥٨٥ ـ ٧ ·

١١ ـ انظر Purgatorio ٣٠ ، ص ١٣٣ ع ع · مقتبس من الكوميديا الالهية ترجمة لورنس بنيون ·

١٢ ـ أنظر لويس ل. لومس فى «القومية بمجمع كونستانس»
Am. Hist. Rev. ٤٤ (١٩٣٨ ـ ٩) ، ص ٥٠٨ ـ ٢٧ ·

٢ ـ من النهضة الى عصر نابليون

١ ـ وجهة النظر الموجودة عند «روبرت ميشيل» « Zur Hist. Ana »
Arch. fur Sozial und Sozialpolitik مج ٣٦ (١٩١٣) ١٤ ـ ٤٣
ص ٣٩٤ ـ ٤٤٩ · انظر ص ، ١٥

٢ ـ وجهة نظر ذكرت حديثا عند C.W. Vander Pot
فى « De Plats Vanher Kon. in ons heden. staat »

مسلسلة جديدة II رقم ١٠ (١٩٣٩) ، ص ٣٢١ – ٦٦ انظر ص ٣٦٠ .. «حماسة القومية ، انما هى شأن المفهوم «الامة» نفسه نتاج للقرن التاسع عشر .

٣ – ان الاحالة فى بول اميل ليتريه « Dict. de la lang. Fr. » بأن كلمة الوطن توجد فى Hist. de Charles لجان شارتييه ، تقوم على غلطة، شأن الاقرار الذى فاهت به جان دارك واستخدمتها فيه أثناء المحاكمة ، أو أنها توجد فى تقرير جلسة اجتماع مجلس الطبقات العام بمدينة تور في ١٤٨٤ . وانظر فرانسوا الفونس اولارد فى «الوطن والوطنية قبل ١٧٨٩» La Révol. Franç. – ٦٨ (١٩١٥) ص ١٩٣ عع . فاما فى الانجليزية فلم تستخدم الكلمة اللاتينية ولاترجمتها الالمانية . ونظرة الى قاموس اكسفورد كافية للدلالة على أن Fatherland لاتكاد تكون كلمة دارجة .

٤ – انظر ماكتبته فى Erasmus uber V. Land und Nat. بمجلة Gedenk Zum 400. Todestage etc. (بال ١٩٢٦) ٣٤ – Verz Werken مج ٦ ص ٢٥٢ – ٢٦٧ .

٥ – حرفيا Opus. epist.Alba sum Amussis ، نشره P.S. Allenetal اثنى عشر مجلدا (اكسفورد ولندن . ١٩٠٦ – ٥٨) مج ٧ رقم ١٨٤٠ . أنظر Adagia فى ارازموس Op. Omnia عشر مجلدات (ليدن ١٧٠٣ – ٦) مج ٢ ص ٢١٥ (رقم ٤٨٨) .

٦ – توماس مور Utopia الناشرون فكتور مشيل وثيوبالد ريجلر (برلين ١٨٩٥) ص ٣٠ .

٧ – أنظر مقالى المذكور فى الحاشية ٤ أعلاه .

٨ – لم يستخدم العنوان Archidux فى أية لحظة معينة ،ولكنه دخل في الاستعمال تدريجيا عند نهاية العصور الوسطى . كما أنه ظهر أيضا فى زمن أسبق وتسمى به أمراء آخرون بين حين وآخر ، وبخاصة أدوات لوثرنجيا – برابانت .

٩ – انظر أولارد فى المرجع السابق ص ٢٠٧ .

١٠– أنظر مقالى المذكور فى الحاشية ٤ السابقة ص ٤٨

١١– أنظر Journal des debats عدد ٢٢١ فصل ٢١ ص ٤١٦ .

٣ - القرن التاسع عشر

١ - أنظر فرنر كايجى فى مقاله فى Newe Sschweizer Rundschau
السلسلة الجديدة مج ٦ (١٩٣٧ - ٨) ص ٢٥٧ - ٧١ ، ٣٤٥ - ٦١ ، ٤١٤ - ٤٣١ .

٢ - أنظر Dict. Philos. مادة Patrie قسم ٣ .

٣ - أنظر ياكوب جريم Kleiner Schrif نشرة جوستاف هنريخس
أربع مجلدات (برلين ١٨٨١ - ٧) ف ص ١ - ٢٥ .

٤ - المصدر نفسه مج ٦ ص ٤١١ - ١٨ .

٥ - خطاب تاريخه ١٥ نوفمبر ١٨٣٠ في Brief der Brüder Grimm.
نشرة البرخت ليتزمان ، مجلدان (ينا ١٩٢٧) .

٦ - «لاأزال أحس بتعلق حـــار بجميع الصـــفات الاصـــيلة لوطنى»
Uber m. Entassunq ف١ ص ٢٧ Heimat Kleinere Schriften

٧ - فى المصدر المقتبس منه . روبرت ميشيل Der Patriotismus
(ميونيخ ١٩٢٩) و Proq. sulpatriot (فلورنسا ١٩٣٢)،
و «الجنسية والتاريخ» أوراق بقلم هـ . كوخت ول ايزنمان
وم .. هاندلزمان وهـ . أونكن وهـ اشتايناكر وت . والك فى
المؤتمر التاريخى الدولى المنعقد بأوســـلونى ١٩٢٨ نشرت فى
Bull. of the Inter.Comm. of Hist. Science مج٢ (باريس
١٩٢٩) .

يوحنا السالسبورى - عقلية قبل القوطية

١ - انظر Meded. der Konin. Akad. V. Weten. عدد ٧٤ مجموعة
« رقم (١٩٣٢) ص ٨٩ - ١٩٨ ، Verz. Werken
٧ مج ٤ ص ٣ - ٨٤ »

«ودراسة حياة ابيلارد التى كتبت فيما بعد تظهر فى هذا الكتاب»

٢ - مجلدان (اكسفورد ١٩٠٩) .

٣ - (اكسفورد ١٩٢٩) ترجمة دانيال د . ماك جارى تحت عنوان
Metalogicon of John of Salis (بركلى ١٩٥٥) .

٤ ــ كلمنت س . ج . وب John of Salis (لندن ١٩٣٢)

٥ ــ كارل شارشمدت Goh Saresber(ليبزج ١٨٦٢) ، ــ ٩ ،
أصاب فى استنتاجه ذلك من الابيات ١٣٧ ــ ٤٢ من قصيدة Entheticus Salis. Opera Omnia . جايلز ، خمسة مجلدات (اكسفورد ١٨٤٨) مج ٥ ص ٢٤٣ .

٦ ــ وينبغى تمييزها عن قصيدة ال « «Entheticus»
التى تقوم بعمل مقدمة شعرية لكتاب Policraticus
ولم يتحقق أحد تماما مما قصده المؤلف من العنوان .

٧ ــ نشرها فلهلم أرندت بوصفها استمرارا مجهول المؤلف لكتاب لسجبرت من جمبلوكس Monumenta German. Hist. ، مسلسلة Scrip. رقم ٢٠ (هانوفر ١٨٦٨) ص ٥١٥ ــ ٥٤٥ . وأصدر رجنالدلين بول طبعة جديدة Joannis Satisla. Hist. pon. (اكسفورد ١٩٢٧) . واصدرت مارجورى شبنال ترجمة يقابلها النص اللاتينى في « مسلسلة النصوص الوسيطية » : مذكرات يوحنا السالسبورى عن البلاط البابوى (لندن ١٩٥٦) .

٨ ــ عن الخطابات ، نحن لا نزال مضطرين الى الرجوع الى النص الردىء فى المجلدين الاولين لطبعة جايلز من أوبرا امنيا Op. Omnia
حدد رجينال لين بول تاريخ الخطابات الاولى ، تحديدا دقيقا فى « مراسلات يوحنا السالسبورى » المبكرة فى Proc. Br. Academy مج ١١ (١٩٢٤ ــ ٥) ، واعيد النشر فى Stud. Cron. & Hist. لبول (اكسفورد ١٩٣٤) .

٩ ــ الرسالة ٩٧ (١١٥٧) (جايلزا ؛ ١٤٤) « نقلا عن ترجمة مللر وباتلر ١ ، ٥٢ » .

١٠ ــ الرسالة ٢٧٤ (١١٦٨) (جايلز ٢ ، ١٨٢) .

١١ ــ الرسالة ١٩٠ (١١٦٦) (جايلز ١ ، ٣٣٤) ، انظر الرسالة ١٩٣ (١١٦٦) جايلز ٢ ، ١٨ .

١٢ ــ الرسالة ٢٧٧ (١١٦٨) (جايلز ٢ ، ١٨٦) .

١٣ ــ الرسالة ١٩٤ (١١٦٦) (جايلز ٢ ، ١٨) .

١٤ ــ الرسالة ١٥٥ (١١٦٦) (جايلز ١ ، ٢٤٦) . ، انظر الرسالة ١٥٦ (١١٦٦) (جايلز ١ ، ٢٤٨) « أن حالتي ليست مقبولة ومطاقة عندى فقط بل هي سارة ولطيفة » .

١٥ ــ الرسالة ١٦٩ (١٦٦) (جايلز ١ ، ٢٦٨) .

١٦ ــ «Metalogicon» المقدمة والكتاب الرابع . ف ٤٢ (طبعة وب ٣ : ٢١٨) .

١٧ ــ الرسالة ١٧٥ (١١٦٦) و ٢٩٦ (١١٧٠) (جايلز ١ : ٢٨٢ و ٢ : ٢٣٥) .

١٨ ــ الرسالة ٣٢٣ (١١٧٦) (جايلز ٢ : ٢٩١) ، رسالة تهنئة من الملك لويس السابع عند تعيينه .

١٩ ــ الرسائل ٣٢٥ ــ ٧ (١١٧٦) (جايلز ٢ : ٢٩٣ ع ع) .

٢٠ ــ قدمتها نقابة الدباغين في سارتر .

٢١ ــ «الاعمال الكاملة لسوجر ده سان دنيس» نشرها أ . ليكوى ده لامارش (باريس ١٨٦٧) ص ٣٨٠ ــ ٩٠ .

٢٢ ــ Bibl. Cluniacensis نشرها مارتن ماريه وأندريه كرستانوس (بروكسل ١٩١٥) ص ٥٨٩ .

٢٣ ــ بيير ده بواتو في قصيدة المديح في المصدر نفسه ص ٥١٠ .

٢٤ ــ الرسالة ٢٣٤ (١١٦٨) (جايلز ٢ : ١٠٠) ، ولعلها مرسلة الى بالدوين ، نائب رئيس كهنة اكستر ثم كبير أساقفة كنتربرى فيما بعد . انظر شارشمدت بالمصدر المذكور ص ٢٦٧ وانظر وب «يوحنا السالسبورى» ، ١٥٣ . ليس المعنى المقصود من حزام الفارس واضحا .

٢٥ ــ الرسالة ١٤٥ (١١٦٦) (جايلز ١ : ٢٢٧) . عن القديس دراسيوس انظر Acta sanctorum martyrum (انتورب ، ١٦٦٨) ١ : ٤٠٤ لبولاندس .

٢٦ ــ Policraticus الكتاب ٦ فصول ١ ــ ١٩ .

٢٧ ــ الرسالة ٢٧٥ (١١٦٨) (جايلز ٢ : ١٨٣) ، المصدر نفسه ١ : ٢٥٣،

٢ : ٥٩ وبخاصة الرسالة ٣٠٠ (١١٧٠) المصدر نفسه ٢ : ٢٤٦).

٢٨ — Patrologia لميجن ، مج ١٧٦ العمود (النهر) ١٠١١ .

٢٩ — Oeuvres ٢٨٣ و ٣١٦ و ٣١٧ .

٣٠ — ابيلارد «Opera» نشر فكتور كوزان ، مجلدان (باريس ١٨٤٩ — ٥٩) ، ١ : ٧١٦ .

٣١ — الرسالة ٨٥ (حوالى ١١٥٧) (جايلز ١ : ١١٨) (نقلا عن ترجمة مللروباتلر ١ : ٥٧) ، انظر الرسالة ٢٨٣ (جايلز ٢ : ١٩٣) . كان بطرس ده سل يحب أن يمزح حول البيرة والخمر فى رسائله الى يوحنا (انظر ميجن فى Patrologia مج ٢٠٢ أنهار ٥٧٣ آ و ٥٧٤ د. (الرسائل ١٢٣ و ١٢٥) ، ويكثر من الاشارة الى نكات يوحنا البريئة : «ان نكاتك مجردة من الاسنان ، ومزاحاتك ليس فيها اسفاف» . الرسالة ٦٩ (النهر ٥١٥ :) ، انظر الرسالة ٧٣ (النهر ٥١٩ و) و ٤ ، ١ (نهر ٥٧٣ ب) .

٣٢ — الرسالة ١٣٨ (جايلز ١ : ١٩٥ — ٦) .

٣٣ — عندما يشير يوحنا الى نهاية العالم فانه يفعل ذلك بهدوء وبغير تأكيد حافل بالتهديد : الرسالة ١٤٤ (جايلز ١ : ٢٢٠) . مثل هذه الحالة المزاجية لاتنفى مطلقا وجود الشكاوى حول مايفعم عصره من حرمان وتعاسة ، انظر Policraticus الكتاب السادس ، ف ١٦ والكتاب الثامن ، ف ١٦ ، وانظر Metelogicon الكتاب الرابع ف ٤٢ .

٣٤ — قصيدة Entheticus أبيات ٤٦١ — ٨ (جايلز ٥ : ٢٥٣) .

٣٥ — Policraticus كتاب ٣ ، ف ١ (نقلا عن ترجمة بايك ص ٢٠٢) .

٣٦ — رجينالدلين بول ، فى مادة John Called of Salis ، قاموس التراجم القومية ج ٢٩، (لندن ١٨٩٢) ص ٤٣٩ — ٤٦ ، أنظر ص ٤٤٥ .

٣٧ — انظر Metalogicon — المقدمة (طبعة وب الرابعة) (مقتبس من ترجمة ماك جرى ، ص ٢١٦) . ويبدو أن لفظة forte أى « ربما » تتردد كثيرا فى عمله . وعن فلسفة يوحنا انظر أيضا

وب S. of Sol. ٥١ ع.ع. ، ٧٥ ع.ع. ، ٨٥ ع.ع.

٣٨ ـ Metalogicon ك ٢٠ ف ١٠ (طبعة وب ٨٢) .

٣٩ ـ Policraticus (طبعة وب) ١ : ٢٣٤ .

٤٠ ـ ٢ Cor. ٣ : ١٧ ، انظر ليوحنا «Vita San. Thom. Cantuar. Arch. et Martyn. (جايلز ٥ : ٣٦٦) .

٤١ ـ حسب المزامير ٥١ : ٥ ، ١١٨ : ٤٦ .

٤٢ ـ Hist. pontificalis (طبعة بول) ، ١٦ ـ ٤١ .

٤٣ ـ المصدر نفسه ، ١٨ .

٤٤ ـ Policraticus ك : ٧ المقدمة (طبعة وب ٢ : ٩٣) (نقلا عن ترجمة بايك ٢١٦) وانظر Metalogicon ، المقدمة (طبعة وب ٣ ـ ٤) ، حيث لا يقتصر الامر على الاستماع الى مشاعر من التصاغر ازاء الأقدمين ، بل وايضا ثقة فى جدارة المعاصرين . أنظر أيضا Metalogicon ك ٣ ف ٤ (وب ١٣٦) عن مشاعر ابيلارد و «Opera» أبيلارد (طبعة كوزان) ١ : ٣٢٦ .

٤٥ ـ Metalogicon ، ك ٣ ف ٤ (وب ، ١٣٦) (نقلا عن ترجمة ماك جرى ، ١٦٧ .) . والفن الكنسى يمثل هذا الموتيف بمعنى مخالف ، وذلك بتصوير الرسل على أكتاف الانبياء . وهناك موضوع مماثل فى الفن البوذى حيث يظهر bodhisattvas على أكتاف dhyanibuddahs

٤٦ ـ ابيلارد «Opera» ، ١ : ٢٢٥ .

٤٧ ـ كشأن كتاب أنسلم Proslogion, Monotogian وكتاب وليم ده كونشس Dragmaticon ، أنظر وب فى مقدمة طبعته لبوليكراتيكوس ، ٤٨ وكتاب « يوحنا السالسبورى » ٢٢

٤٨ ـ « ميتالوجيكون » ، ك ١ ف ١٢ .

٤٩ ـ المصدر نفسه . ك ٤ ف ٢ .

٥٠ ـ الرسائل ١٤٩ و ١٦٩ و ٢٣٠ (جايلز ١ : ٢٣٨ و ٢٦٨ ، ٢ : ٩٥) . انظر وب فى « يوحنا السالسبورى » ، ١٥٦ .

٥١ ــ وهو ليس في أي مكان أشد تهذيبا وأشد اظهارا للروح الانجليزية منه في الرسالة التي يهنيء بها سيجللو على تعيينه رئيسا للشمامسة : (الرسالة ١٦٦ ، جايلز ١ : ٢٦٠) • انظر وب « يوحنا السالسبورى » ١٥٤ •

٥٢ ــ « بوليكرايتكوس » ل ٣ ف ٤ (وب ١ : ١٧٩) .

٥٣ ــ الرسالة ١٤ (جايلز ١ : ١٦) (نقلا عن ترجمة مللر وباتلر ١ : ٧٤) •

٥٤ ــ وذلك مثل الرسائل ٤٨ و ٥٤ (جايلز ١ : ٤٩ و ٥٦) .

٥٥ Historia-pontificalis (طبعة بول) ، ٨١ . Monumenta Germaniae Historica (Script Series) ٢٠ : ٥٤٢ (نقلا عن ترجمة شبنال ، ٧٩ ــ ٨٠) .

٥٦ ــ « بوليكراتيكوس » ك ٥ف ١٦ (وب ، ١ : ٣٥٠) •

٥٧ ــ المصدر نفسه ، ك ١ . ف ٤ .

٥٨ ــ « ميتالوجيكون » المقدمة (وب ، ١) •

٥٩ ــ المرجع نفسه ، ك ١ ف ١ (وب ، ٦ ، ٧) (نقلا عن ترجمة ماك جرى ١٠) .

٦٠ ــ « بوليكراتيكوس » ك ٨ ف ٩ (وب ، ٢ : ٢٨٠) .

٦١ ــ المرجع نفسه ، ك ٤ ف ١ (وب ، ١ : ٢٣٥) .

٦٢ ــ المرجع نفسه ، ك ٤ ف ٢ ، ٣ (وب ، ١ : ٢٣٨ ، ٢٣٩) .

٦٣ ــ المرجع نفسه ، ك ٤ ف ٣ •

٦٤ ــ المرجع نفسه ، ك ٣ ف ١ ، ١٥ ، ك ٨ ف ١٧ ، ٢٠ •

٦٥ ــ « انثيتيكوس » البيت ١٢٩٧ (جايلز ٥ : ٢٨٠) ، أنظر الابيات ١٣٤١ و ١٤١٢ و ١٤٣٥ .

٦٦ ــ « بوليكراتيكوس » ك ٨ ف ١٧ •

٦٧ ــ المرجع نفسه ، ك ٥ ف ١٦ .

٦٨ ــ أنظر اعلاه ، ص ١٦٩ •

٦٩ ــ استعار يوحنا هذا الجزء من عنوانه من عمل فلافيان بنفس

العنوان . انظر « بوليكراتيكوس » ، ك ٢ ، ف ٢٦ (وب ، ١ : ١٤١) .

٧٠ ــ « انثيتيكوس » (جزء من « بوليكراتيكوس » : وب ، ١ : ٥) .

٧١ ــ « انثيتيكوس » البيت ١٤٦٧ (جايلز ، ٥ : ٢٨٦) .

٧٢ ــ «بوليكراتيكوس» ك ١ ــ ٤ ، ٦ ــ ٨ ، بمواطن متفرقة من الكتاب.

٧٣ ــ المرجع نفسه ك ٣٠ ف ٣ (وب ١ : ١٧٧) .

٧٤ ــ المرجع نفسه ك ١٠ ف ٤ (وب ١ : ٣٤) .

٧٥ ــ « ميتالوجيكون » ، المقدمة (وب ١) .

٧٦ ــ Vita Sancti Thomae (جايلز ٥ : ٣٦٣) .

٧٧ ــ صور بذخ توماس الدنيوى بالتفصيل ، ويمتعة واضحة لاسبيل الى انكارها ، على أيد وليم فتزاستيفين ، أحد المترجمين له في كتابه « مواد تاريخ توماس بيكيت ، رئيس أساقفة كنتربرى ، نشرة ج . كريجى روبرتسن ، مسلسلةرولز سبعة مجلدات (١٨٧٥ ــ ٨٥) مج ٣ (١٨٧٧) ٢٠ ــ ٢٣ » .

٧٨ ــ قصيدة « انثيتيكوس » أبيات ١٤٣٥ ــ ٤٠ (جايلز ٥ : ٢٨٥) : ان حمى القانون يرى هذه الامور بطريقة أكثر حزنا ، ويعد الفن الذى يجلب العون والمشورة . ولكنها تهدىء هؤلاء القوم ، اعتاد اخفاء كثير من الاشياء ويتظاهر بأنه ثائر هو أيضا . فهو يصبح كل شيء لدى كل انسان ، وهو يتخذ هيئة خصومه، حتى يتمكن بمثل هذه الجهود أن يتعلم كيف يحب الله » .

٧٩ ــ Vita S. Thomae (جايلز ، ٥ : ٤٦١) .

٨٠ ــ المرجع نفسه

٨١ ــ « بوليكراتيكوس » ك ٨ ف ٢٤ (وب ، ٢ : ٤٢٣ ــ ٥) .

٨٢ ــ « نثيتيكوس » الأبيات ٨٧٥ و ٨٨٧ ــ ٩٠٠ (جايلز ، ٥ ٢٦٦ ــ ٧) .

٨٣ ــ « بوليكراتيكوس » ك ٣ ، ف ٨ (وب ، ١ : ١٩٠) .

٨٤ ــ المرجع نفسه ، ك ٣ ف ٧ .

٨٥ ـ المرجع نفسه ، ك ١ ف ٦ ، ك ٦ ، ف ١٦ ، ك ٨ ف ٦ (وب ، ١ : ٤١ ، ٢ : ٤١ ، ٢٥٩) . لم أتمكن من العثور على تأكيد قاطع لاشتباهي في أن تكون Stulticinia مصطلحا محددا نوعيا مستمدا من شعر التروبادور . واسترعى زميلى س.د. بوير انتباهي الى العبارة « Chanso eu le fola in Rambaut d'Orange » انظر Romani ٥٦ (١٩٣٠) ٥١. (البيت ١١٥) .

٨٦ ـ «ميتالوجيكون» المقدمة (وب ، ٢) (ترجمة ماك جارى ، ٤) .

٨٧ ـ المرجع نفسه ، الابيات ١٥ ـ ١٨ (وب ، ٤) انظر أيضا بوليكراتيكوس ك ٤ ، ف ٤ (وب ، ١ : ٢٤٥) ، وبخاصة ك ٨ ف ٢٤) (وب ، ٢ : ٤٢٥) .

٨٨ ـ استخدم ولترماب عنوان « De nugis curialium » ، ولكن مجموعته من النوادر والحكايات لاتعكس مطلقا اتجاه يوحنا السلسبورى .

٨٩ ـ يسمى وب فى «يوحنا السالسبورى ، ٢٦» الكتاب الاول من «بوليكراتيكوس» بانه ايضاح جيد للبيوريتانية الوسيطيةالمعروفة تماما لدى طلاب ذلك العصر» . ذلك العصر الذى يقال فيه أن المذهب الانسانى ينسحب وتظهر البيوريتانية .

● ابيلارد

١ ـ انظر Mededee Lingen der Koninklike Akademic van Wetenschappen, Aldeeling Letter kunde حول «Uber die verknüpfung des Poetischen Poetischen...» مج ٧٤ مجموعة ر ، رقم ٦ (١٩٣٢) ، ٨٩ ـ ١٩٨ Verz werken ٤ ، ٤ ، ٣ ـ ٨٤) .

٢ ـ انظر فى Handelingen van het Nederlandsche Philologen-Congres مج ١٥ (١٩٣٤) ٢٧ ـ ٤٣ و « Een praegothieke geest; J. Van Salisbury » Tigdschrift Voor Gesch. مج ٤٨ (١٩٣٣) ٢٢٥ ـ ٤٤ Verz. werken مج ٤ ، ٨٥ ـ ١٠ وقد ترجمت الكتاب بعنوان «يوحنا السالسبورى : عقلية مما قبل القوطية» .

٣ ـ أنظر جاك بول ـ ميجن ، في Patro. cursus completus, Serie Latina ٢٢١ مجلدا (باريس ١٨٤٤ ـ ٦٤) مج ١٧٥ ف ١٤ .

٤ ـ في يوحنا السالسبوري Opera Omina ، نشر ج.ا. جايلز ، خمسة مجلدات (اكسفورد ١٨٤٨) ١ : ١٨٩ .

٥ ـ نقلا عن تقشين للقبور مهديين الى بطرس الوقور ، رئيس دير كلوني ، في ابيلارد « Opera » نشر فكتور كوزان ، مجلدات (باريس ١٨٤٩ و ١٨٥٩) ١ : ٧١٧ .

٦ ـ الاشعار اللاتينية تنسب عادة الى ولترمابس (لندن ١٨٤١) ٢٩ وفيها طبع البيت الثالث مغلوطا .

٧ ـ («الحق ان البلاد كانت همجية وكانت اللغة مجهولة عندي») أنظر ابيلارد « Opera » ١ : ٢٩ .

٨ ـ أنظر اخبار ريشارد ده بواتوه التاريخية في كتاب Recueil des historiens des Gaules et de la France ٢٤ مجلد (باريس ١٧٣٨ ـ ١٩٠٤) مج ١٢ : ٤١٥ . يرى ج . ج . سايكس « Peter Abailard »(كامبريدج١٩٣٢) ٦ ، أن لدينا وصفا لابيلارد في التالي (وذلك لأنه كان شاحبالوجه مع ذلك وله طلعة وقورة. ولكن جسمه كان هزيلا ، ولم يكن بالغ الطول .) على انه يتضح من سياق الكلام أن الوصف لشخص جوزوين وليس لأبيلارد وذلك لأن الاول كان يشبه بداود مع تشبيه الثاني بجولياث . انظربوكيه ، المصدر المذكور ١٤ : ٤٤٣ وأيضا إبيلارد « Opera » (طبعة كوزان) ١ : ٤٣ . وكان برنار كليرفوه يسمى أبيلارد «بجلياث الجديد» .

٩ ـ المرجع نفسه ٢ : ٨٠١ .

١٠ ـ أنظر وصفه بقلمه لحزنه وغضبه عندما اجبره مجمع سواسون على احراق كتابه وتلاوة«العقيده الأثناسية» بصوت مرتفع : المرجع نفسه ١ : ٢٢ .

١١ ـ أنظر رسالته الاخيرة الى هلويز ، المرجع نفسه ١ : ٦٨٠ .

١٢ ـ المرجع نفسه ، ١ : ٢٧ .

١٣ ـ المرجع نفسه ، ١ : ١١ ، ٧٦ .

١٤ ـ يعتقد أن هناك صدى لحبه لهلويز في « Planetus » حيث يظهر نحيب دود على يوناثان : المصدر السابق ، ١ : ٣٣٨ ، انظر أيضا هيلين وادل « The Wandering Scholars (لندن ١٩٢٧)، ١٩٦ .

١٥ ـ انظر ب . اشمايدلر في Anchiv fur Kulturgeschichte ١١ (١٩١٤) ١ ـ ٣١ . والحجة الرئيسية هي التشابه في مصطلحات العبارات الموجودة في خطاباتهما . ويرى سايكس بحق أن هذا التشابه «لايكاد يكون دليلا صالحا ، حيث تعلمت هلويز على يد أبيلارد ، وطبيعي أن تتمنى أن يجعل من لاتينيته نموذجا تحتذيه» : المصدر المذكور ٢٦٩ . وفي الآونة الاخيرة أعادت الآنسة شارلوت شاربيه الى الاذهان رأى اشمايدلر : أنظر الحاشية في رسالة الدكتوراه التي وضعتها بعنوان Heloïse dans l'histoire et dans la légende (باريس ١٩٣٣) ، في Annales de l'Université de Paris، ١٠ (١٩٣٥) ٦٨ ـ ٧١ .

١٦ ـ انظر أبيلارد « Opera » ١ : ٧٧ و ٩٠ .

١٧ ـ هوج ده سان فكتور Didascalia مقتبسا عند ميجن Patrologia مج ١٧٦ : ٧٧١ .

١٨ ـ انظر Over de Grenzen van Spel en ernstinde cultur (هارلم ١٩٣٣) verz. werken ، ٥ ، ٣ ـ ٢٥ ، تحولت الصورة الاشد تفصيلا الى كتاب Homo Ludens دراسة في عنصر اللعب في الثقافة (لندن ١٩٤٩) .

١٩ ـ أن ل . توستى في Storia di Abelardo e dei suoi tempi (نابولى ١٨٥١) أشار اليه بأنه « فارس حلبة الجدل » .

٢٠ ـ ابيلارد « «Opera » ١ : ٤ .

٢١ ـ المرجع السابق ١ : ٦ .

٢٢ ـ انظر فيتا جوزفينى عند بوكيه بالمرجع المذكور مج ١٤ : ٤٤٢ .

٢٣ ـ هوج ده سان فكتور Diascalia مقتبسا عن ميجن Patrologia مج ١٧٦ : ٧٧٣ د .

٢٤ ـ المرجع نفسه ، ٨٠٣ .

٢٥ ـ ابيلارد «Opera» مج ٢ : ٣ و ١ و ٧ و ٩ و ١٩ .

٢٦ ـ المرجع نفسه ١ : ٥ ، يوحنا السالسبورى « ميتالوجيكون »
ك ١ ف ٣ ، « بوليكراتيكوس » ك ٥ ، ف ١٥ .

٢٧ ـ هوج ده سان فكتور De Vanitate mundi مقتبسا عند ميجن Patrologia مج ١٧٦ ، ٧٠٩ أنظر ٧٧٤ د . يخبرنى الاستاذ اسنوك هورجرونجه أن هذه السمات جميعا للمساجلة المدرسانية موجودة ايضا بأشكال مماثلة تماما في تريخ العقيدة الاسلامية .

٢٨ ـ (« وذلك لان الكلمات لا تعمل عملها فى مادة الاشياء ، ولكنها تستثير بمقدار ما يهم بواسطتها . وبذا يصبح عملها الذى تستخدم فيه هو الدلالة على المعنى : اى اقامة صرح الفهم . ») انظر Logica ingredientbus عند جيير ، الصدر المذكور ١ : ٣٠٩ السطر ١٩ . (« وبذلك يصبح من الضرورى اختراع كليات تصنع مالا يستطيع الافراد صنعه . ») : Glossulae super prophyrium فى المصدر السابق ٢ : ٥٣٢ السطر ١٦ .

٢٩ ـ Sic et non نشر ارنست لدفج ثيودور هنكه وجورج استيفان لندنكوهل (ماربورج ١٨٥١) ١٤ الاسطر ٩ ـ ١٠ .

٣٠ ـ المرجع السابق ، ١٧ .

٣١ ـ انظر جان كوتيو فى «La conception de la Théologie chez Abelard, Revue d'Histoire Ecclesiastique
مج ٢٨ (١٩٣٢) ٢٤٧ ـ ٩٥ ، ٥٣٣ ـ ٥١ ، ٧٨٨ ـ ٨٢٨ .

٣٢ ـ روف وجرابمان بالمصدر المذكور ١٥ ، وانظر كوتيو بالمصدر نفسه ٧٩١ هو ـ ٥ .

٣٣ ـ المصدر السابق : ٢٥٤ .

٣٤ ـ In epistolam ad Romanos, in ABELARD, «Opera»
٢ : ١٥٢ ، ٣٥٦

٣٥ ـ المصدر السابق : Apologia, seuconfessio fidei ٢ : ٢٢ ٧ .

٣٦ ــ المصدر السابق : «Epistolae» رقم ١ : ٢٣٥ .

٣٧ ــ المصدر السابق ١ : ٥٩٠ .

٣٨ ــ المصدر السابق ١ : ٢٩٨ ــ ٣٠٦

٣٩ ــ المصدر السابق ١ : ١٠٤ ، ١٢١ ، ٢٣٦ ، ٣٥١ .

٤٠ ــ اتيان جلسون La philosophie au Moyen-Age ، مجلدان (باريس ، ١٩٢٢) ، ١ : ٩١ ، ٨٨ .

٤١ ــ أنظر ، خاتمة « Metamorphosis Goliae » عند رايت ، المصدر المذكور ٢٩ ، ٣٠ .

٤٢ ــ ابيلارد « Opera » ٢ : ٧٧١ ــ ٨٦ . ان التحذير بانه لا ينبغى للقارىء ان ياخذ العمل مأخذ الجد ، الذى لا شك أن تاريخه يبدأ بعد سحب برنجار أقواله ، يوجه فى خطابه الى أسقف منده (المصدر نفسه ٢ : ٧٨٨) : (« لست أريد أن أكون راعيا لرجال الكنيسة الذين يعترضون على أبيلارد ، وذلك أنه رغم أن لديهم معرفة حول الاشياء المعقولة ، فانهم لا يبدون معقولين ») .

٤٣ ــ المصدر السابق ٢ : ٧٧٦ . يتفق الناقدون فى الوقت الحاضر على أن التهم الموجهة الى أبيلارد قد بولغ فيها ، وأن معالجة برنار للقضية لم تكن فوق الشبهات . انظر روف وجرابمان ، المصدر السابق ٣٦ ع ع ، وسايكس بالمصدر المذكور ، ٢٣١ ، وكوتيو ، بالمصدر نفسه ٨٢٦ ع ع .

٤٤ ــ أبيلارد « Opera » ١ : ٣ : (« لما كنت بالفطرة مرحا خفيف الفؤاد فيما يتعلق بالعالم والكائنات ، فقد أظهرت آن لى عقلا يميل بسهولة نحو الدراسات الاكاديمية . ») .

٤٥ ــ انظر مثلا : المصدر السابق ١ : ٤٢١ ، ٤٠٧ ، ٥٣٩ ، ٦٢٣ ، ٦٣٨ ، ٦٨٨ ، ٦٩٧ ، و ٢ : ٧١٩ ، Sic et non ٤ ، ٦ ، ٧ ، ١٥ ، الخ .

القديسة جان دارك ، كما عالجها برناردشو

١ ـ المسرحية والتمثيل

١ ـ لست بطبيعة الحال أفكر في جان كما وردت فى «هنرى السادس»

٢ ـ فبراير ١٩٢٥ .

شخصية جان دارك .

١ ـ يحاول سالومون رايناخ انتزاع نقطة الجواب ، دافعا بأن جان لايمكن أنها تعنى مثل هذه الوقاحة ، ولكنه لايستطيع اقناعى Observations sur le texte du procès de condamnation de Jeane d'Arc, « Revue Historique » مج ١٤٨ (١٩٢٥) ، ٢٠٠ ـ ٢٣ ، أنظر صفحة ٢٠٨ .

٢ ـ طبقا لشهادة كاترين ده لاروشيل فى كتاب جول كيشراه ، Procès de condamnation de Jeane d'Arc. dite La Pucelle خمسة مجلدات (باريس ١٨٤١ ـ ٩) ، ١ : ٢٩٥ وعند بيير شامبيون Procès de condamnation de Jeane d'Arc مجلدات (باريس ١٩٢١) ١ : ٢٤٤ ، تحدثت عن مستشاريها بانها «ناصحا النبع» ، ولكن السند هنا لايعتمد عليه ه

٣ ـ من المؤكد أن جان دارك لم تكن راعيه ، كما يشير الى ذلك أيضا» يؤكد هذه الحقيقة ، وان ساعدت فى العناية بالحيوانات . ولكن العصر لم يمكنه تصور فتاة من الريف الا فى صورة راعية ، وانى لألقى تبعة ذلك التوصيف على دينواه .

٢ ـ راى ابناء عصرها

١ ـ ج. لوقيفربونتالى « La panique anglaise en Mai 1429 » Moyen Age مج ٧ (١٩٩٤) ، ٨١ ـ ٩٥ .

٢ ـ انظر ه ٢٠ فى القسم الثانى من هذه المقالة .

٣ ـ وهناك بين ذلك خلاصة وجيزة لخطاب تاريخه الرابع من يونية .

٤ ـ كان جوستنيانى يتوقع الاحداث : ولم تكن جان موجودة بعد فى روان .

٥ ـ يذكر Kirchenlexikon خطأ أن هذه الدعاية لم تنشر . وهى القطعة السابعة فى
Tractatus Sultatori ven. magistri Henrici de Gorychum
(كولن ١٥٠٣) ، وتملك المكتبة الملكية فى لاهاى نسخة من هذا العمل النادر .

٦ ـ غير موجودة الا فى مقتطفات مفصولة .

مسالة عصر النهضة

– ١ –

١ ـ يكاد العلماء الالمان أن يكونوا هم وحدهم الذين درسوا تاريخ المفهوم : المسمى «عصر النهضة» . ومع أنى حاولت أن أضع المسألة بصورة اجمالية الى حد ما فى هذا المقال ، ينبغى أن اشير الى بعض الدراسات التى افدت منها : وولتر جوتيز ، Historische Zeitschrift «Mittelalter und Renaissance» مج ٩٧ (١٩٠٧) ، ٣٠ ـ ٥٤ ، وكارل برندى فى Das werden der Renaissance (جوتنجن ١٩٠٨) ، وكنراد برداخ : Sinn und Ursprung der Worte Ren. und Ref. Uber den Ursprung des Humanismus & Ren. Humanismus» (برلين ١٩١٨) ، وارنستترويلتش Ren. & Refo فى Hist. Zeitsch. مج ١٢٠ (١٩٢٠) ٢٥٠ ـ ٨٠ ، وكارل بورنسكى Der Streit um die Ren. (ميونخ ١٩١٩) .

٢ ـ فرانسواه رابيليه Gargantua et Pantagruel ك ١ ، ف ٩ ،

٣ ـ بلوتارك Les vies des hommes illustres (بالس ١٥٧٨) الورقة ٤٠١ .

٤ ـ ارازموس Adagia نشر نيقولاس شزتو (باريس ، ١٥٧١) . أنظر كتابى «ارازموس الروتردامى» (لندن ١٩٥٢) ١٠٣ ع ، ١٣٧ ع .

٥ ــ لورنزو فالا ، Elegantiae linguae Latinae في « Opera » (بال ١٥٤٣) .

٦ ــ كما أن رجال الادب فى القرن ١٥ اشتقوا كلمة humanista من الكلمة اللاتينية الكلاسيكية humanitas (بمعنى الحضارة) ، فكذلك جرد المؤرخون الالمان فى القرن ١٩ بدورهم كلمة « Huhanism » كدلالة على الحركة الفكرية .

٧ ــ ماكيافللى « Opera » ١١ مجلدا (ميلانو ، ١٨٠٥ ــ ١١) ١٠ ص ٢٩٤ (نقلا عن ترجمة بيتر هوايت هورن « The Arte of Warre » لماكيافللى» (لندن ١٩٠٥) ١ : ٢٣١ ــ ٢) .

٨ ــ جورجيو فاسارى Le vite de piu eccellenti pittori Scultori e architettori نشر كارل فراى (ميونخ ، ١٩١١) ١ : ٥ (الاهداء للذوق كوزيمو ، ١٥٥٠) (مقتبسا عن جورجيو فاسارى حياة أشهر المصورين والمثالين والمعماريين ، ترجمة السيدة جوناثان فوستر (لندن ، ١٨٠٠) ١ : ١) .

٩ ــ فاسارى بالمصدر نفسه ١ : ٢١٦ « Proemio » (نقلا عن فاسارى «حياة ...» ١ : ٥٨) .

١٠ ــ المصدر نفسه ، ١ : ١٧٥ ــ ٢١٧ Proemio ٤٠٢ (« Vita di Cimabue ») نقلا عن فاسارى فى «حياة ..» .

١١ ــ المصدر السابق ١ ، : ١٦٨ ــ ٩ (« Poemio ») .

١٢ ــ جيوفانى بوكاتشيو Deeamerone مج ٦ : ٥ ، وفولدمار فون سايدلتز « Leonardo da Vinci Derdepunkt der Ren. مجلدان (برلين ، ١٩٠٩) ١ : ٣٨١ ، وارازموز Opus epistolarum نشر ب.س. آلن وآخرين ، اثنى عشر مجلدا (اكسفورد ولندن ١٩٠٦ ــ ٥٨) ١: ١٠٨ ، وارنست هايدربخ Albert Durersch. Nachlass (برلين ، ١٩١٠) ٢٢٣ ، ٢٥٠ .

١٣ ــ بيير بايل Dict. Hist. et Critique الطبعة الخامسة ، ٤ مجلدات ، امستردام ١٧٤٠) مج ٤ : ٣١٥ .

١٤ ــ كما جرى في بورنسكى بالمصدر المذكور ، ٩٠ .

١٥ ــ فولتير Oeuvres complètes نشر انطوان أوجاستان رينوار ، ٦٦ مجلدا (باريس ، ١٨١٩ ــ ٢٣) مج ١٤ : ٣٤٩

نقلا عن فولتير An Essay on Universal History دبلن ١٧٥٩ ، ٢ : ١٦٠ .

١٦ ــ فولتير « Oeuvres » مج ١٤ ، ٣٥٥ نقلا عن فولتير Essay ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٦ .

١٧ ــ فولتير « Œuvres » ، مج ١٥ : ٩٩ (نقلا عن فولتير مقالة ، ٣ : ٤٤) .

١٨ ــ فولتير « Oeuvres » مج ١٧ : ١٨٧ (نقلا عن فولتير The Age of Lewis ١٧ (لندن ١٧٥٣) ١ : ١) .

١٩ ــ يوهان رولفجانج فون جوته Werke ، ١٤٣ مجلد (فايمار ١٨٨٧ ــ ١٩٢٠) مج ٣٢ : ٣٦ (يوليو ٢٢ ، ١٧٨٧) (نقلا عن « رحلات جوته فى ايطاليا » ، ترجمة أ . ج موريسن و ش . نسبت (لندن ١٨٩٢ ، ٢٨٥) .

٢٠ ــ جوته Werke مج ٣٢ : ٢٠٧ .

٢١ ــ جوته « Tagebucher » ١ : ٣٠٥ (اكتوبر ١٩ ، ١٧٨٦) .

٢٢ ــ جوته Werke مج ٣٢ ، ٦٧ ــ ٨ (نقلا عن « رحلات جوته ») .

٢٣ ــ انظر جويتز بالمرجع المذكور ص ٤٦ .

٢٤ ــ جول ميشليه « Hist. de France au XVIe Siècle » « عصر النهضة » (H. de Fr. VII) . ، (باريس ١٨٥٥) ، ١٤ ــ ١٥ (المقدمة) .

٢٥ ــ انظر جوتيز ، المصدر المذكور ص ٤٠ .

٢٦ ــ بعد صدور الطبعة الثانية فوض بركهـــارت الى الودفج حايجر تنقيح كتابه وجعله مطابقا لاحـدث المعلومات ، ومع انه سره نجاح العمل ، فانه (بركهـــارت) رفض أن يؤخذ رأيه فيه أو يصحح تجاربه . وبالتدريج تغيرت صفة الكتاب وطابعه وتوسع حجمه ، نتيجة لاستطرادات جايجر وتنقيحاته ، بحيث لم يعد فى الامكان تمييز عمـل بركهــارت فيـه . وقد تم أخيرا طبع النسخة الأصلية ، وبذلك أعطى طابع الكتاب الكلاســيكى الذى هو حقه بجدارة .

٢٧ ــ أنظر كتاب بركهارت طبعة وولتر جوتيز (لايبزج ١٩٢٢) ١ : ١٤٢ (نقلا عن بركهارت « حضارة عصر النهضة بايطاليا » ترجمة مدلمور (نيويورك ١٩٥٨) ، ١ : ١٤٣ .

٢٨ ــ المصدر نفسه ١ : ١٨٥ (نقلا عن بركهارت « حضارة .. ١ : ١٧٥) »

٢٩ ــ المصدر ٢ : (نقلا عن بركهارت « حضارة .. ٢ : ٥١٦) .

٣٠ ــ المرجع نفسه ١ : ١٤٢ (نقلا عن بركهارت « حضارة .. ١ : ١٤٣) .

٣١ ــ اميل جبهارت Les Origines de la Ren. en Italie (باريس ، ١٨٧٩) ٥١ .

٣١ ــ المصدر نفسه ف ٧ .

٣٣ ــ اميل جبهارت : « عصر النهضة الايطالي وفلسفة التاريخ » Revue des deux mondes مج ٧٢ (١٨٨٥) ٣٤٢ ــ ٧٩ ، وأدخل المقال فيما بعد في Etudes méridionales « عصر النهضة الايطالي وفلسفة التاريخ » (باريس ١٨٨٧)

٣٤ ــ ميشليه ، بالمرجع المذكور ١٤٢ ، ١٦ ع ٠ ع ٦٩٠ ٠

٣٥ ــ هنرى تود « Franze von Assisi und die Anfange der Kunst der Ren. in Italien » الطبعة ٢ (برلين ١٩٠٤) ، ٦١ .

٣٦ ــ كارل نيومان « Buzant. Kultur & Ren ». في Hist. Zeit عدد ٩١ (١٩٠٣) ٢١٥ ــ ٣٢ .

ــ ٢ ــ

١ ــ ارنست ترويلتش « Die Bedentung des Protestantismus... » (ميونخ ١٩١١) البروتستانتية والتقدم ترجمة و. مونتجومرى (لندن ١٩١٢) .

٢ ــ طبقا لترويلتش ، عن محادثة أسعدني الحظ بها في لقاء معه في ابريل ١٩١٩ .

٣ ــ اقر ترويلتش هذا عرضا ، انظر ترويلتش بالمصدر السابق ،

٧ ، « عصر النهضة وعصر الاصلاح » (Ren & Ref.)
المرجع نفسه ٥٣٤ .

٤ ـ ياكوب بركهارت Weltgesch. Betrachtungen
(اشتتجارت ١٩٠٥) ، ١٥٨ (نقلا عن ياكوب بركهارت ، Reflection on Hist :. : Force & Freedom (نيويورك ١٩٥٥) ، ١٣٤ .

٥ ـ أنظر Enferno ، ١٠ ـ و Paradiso ، ١٠ .

٦ ـ ارنست فالزار في
« Christentum und Antike in der Auffasung Arch. fur Kulturgeschichte « Der Italien Fruh. Ren. »
مج ١١ (١٩١٣) ٢٣٧ ـ ٨٨ .

٧ ـ المزامير ١٠٣ : ١ ، ٤ ، ٥ ـ ١٠٤ : ٣٠ ، ٥١ ، ١٢ (الترجمة المتمدة لدى الكاثوليكية فولجيت : ١٠٢ ، ١٠٤ ، ٥٠) ، حزقيال ١١ : ١٩ ، ٣٦ : ٢٥ ، واشعياء ٤٣ : ١٩ .

٨ ـ انجيل يوحنا ٣ : ٣ ، متى ١٩ : ٢٨ ، الرؤيا ٢١ : ١ ، رسالة بولس الى أهل رومية ، ٦ : ٤ ، الى أهل أفسوس ٤ : ٢٢ ، الى كولوسي ٣ : ١٠ ، بطرس الاولى ١ : ٢٣ ، الى كورنثوس الثانية ٤ : ١٦ ، رومية ١٢ : .. الخ .

٩ ـ انجيل يوحنا ١ : ١٦ .

١٠ ـ (نقلا عن فرجيل : Pastoral Poems ، ترجمة أ. ف. ريو (هارموندزورث ، ١٩٤٩) ، ٤١ .)

١١ ـ أنظر Purgatorio مج ١٦ : ١٠٦ (نقلا عن «الكوميديا الالهية» ترجمة لوريس بنيون ، نشر باولو ميلانو (نيويورك ، ٢٧٠) .

١٢ ـ انظر بول فر Die Ren. des Christen. im 16 Jahr hundert (توبنجن ، ١٩١٤) ١ : ٢٨ .

١٣ ـ ارازموس Opus epistolarum ٢ : ٥٢٧ (رقم ٥٦٦) (نقلا عن «رسائل ارازموس من أقدم خطاباته الى سنته الواحدة

والخمسين مرتبة ترتيبا زمنيا» ترجمة فرنسيس مورجان نيقولاس ، ثلاثة مجلدات (لندن ١٩٠١ – ١٧) ، ٢ : ٥٢٢) .

١٤ – انى أفكر فى دراسات الفونس دوبش حول التطورات الاقتصادية فى المدة الكارولنجية وبحوث هنرى بيرن في الاشكال المبكرة للرأسمالية .

١٥ – أشير الى الكثير من هذه السطور فى دراسات ترويلتش الوارد ذكرها أعلاه .

عصر النهضة والمذهب الواقعى

١ – سأسقط هنا من حسابى العلاقة بين المصطلح بهذا المعنى وبين المفهوم المدرسانى «الواقعية» . ورغبة فى التيسير ، فانى عندما استخدم لفظتي «الواقعية» و «الواقعى» بالمعنى المستخدم فى العصور الوسطى ، سأقرر ذلك صراحة .

٢ – أنظر أده بك ، Het typische en het imdiv. gijde Egyptenaren (ليدن ، ١٩٢٩) .

٣ – نقلا عن يوليوس فلهوزن ، Muhammed in Medina. das ist Vakidis, Kitab al-Maghazi in vergürzter deutscher Wiedergabe (برلين ، ١٨٨٢) .

٤ – ترجمة ا.ر. اديسون . Egilis Saga (كامبردج ، ١٩٣٠) ، ١١١ .)

٥ – أنظر ماكس ديفوراك ، « Idealis & Naturalis in Skulp. Melerei » Hist. Zeitschrift مج ١١٩ (١٩١٩) ، ١ – ٦٢ : ١٨٥ – ٢٤٦ .

٦ – أنظر فى هذا ومابعده ماكتبه في « Het probleem der Renaissance» مج ٤ ، ٢٣١ – ٧٥ ، مترجمة فى هذا الكتاب بعنوان «مسالة عصر النهضة» .)

٧ – Herfsttij der Middleeuwen (هارلم ، ١٩١٩) ، ٤١٨ ع٠ع (انظر اضمحلال العصور الوسطى : دراسة الاشكال الحية

والفكر والفن بفرنسا والاراضى المنخفضة اثناء القرنين الرابع عشر والخامس عشر (نيويورك ، ١٩٥٤) ، ٢٨٤ ع٠ع٠)
(وقد ترجمه مترجم هذا الكتاب للمجلس الاعلى لرعاية الفنون، وهو ماثل للطبع ــ جاويد) .

٨ ــ جورج شاستلان Oeuvres نشرها ج.ب.هـ.س.كرفن ده ليتنهوف ، ٨ مجلدات (بروكسل ، ١٨٦٣ ــ ٦) ، مج ٧ : ٢١٩ ــ ٢١ . (انظر يوهان هويزنجا ،
« La physionomie morale de Philippe Le Bon »
فى Verz. Werken ٢ : ٢٢٢ ع٠ع٠).

٩ ــ « Inferno » ، ١١ ، ٩٧ ع٠ع٠ (نقلا عن « الكوميديا الالهية» ، ترجمة لورنس بنيون ، نشر باولوميلانو (نيويورك ، ١٩٤٧) ، ٦٠) .

١٠ ــ توماس الاكوينى Summa theologiae ، ج ١ ، سؤال ، ٤١ مقالة ٩ .

١١ ــ Purgatorio ، ١٠ ، ٣١ ع٠ع٠ ، ١٢ : ٦٤ ع٠ع٠ فى دانتى انظر وولفجانج سايفرث « Zur Kunstlehre Dante »
فى Archiv fur Kulturgeschichte ، مج ١٧ (١٩٢٧) ، ١٩٤ ــ ٢٢٥ ، مج ١٨ (١٩٢٨) ، ١٤٨ ــ ٦٧ .

١٢ ــ Deeamerone ، مج ٦ : ٥ (نقلا عن ترجمة ادواردهاتون، (لندن ، ١٩٠٩) ، ٣ : ١٢١ ــ ٢) .

١٣ ــ جيوفانى فيللانى Croniche del origine di Firenze مج ١١ : ١٢ .

١٤ ــ بالداسار كاستجليونى Libro del cortegiano (البندقية ، ١٥٢٨) ، ١ : ٩٠ .

١٥ ــ رغبة في ازالة نواحى الغموض وعدم الدقة التى لايمكن تجنبها فى الترجمة ، سانقل النص اللاتينى :
Verum una in re haud dubie Longo nos intervallo praecellunt, quod omnis eorum musica, etc...
أنظر توماس مور «يوتوبيا» نشرها ميشيلز وزيجلر (برلين ١٨٩٥) ١١٠ (نقل النص الانجليزى عن ترجمته روبنسون «يوتونيا توماس مور» نشرها لابتون (اكسفورد ، ١٨٩٥) ، ٢٩٥ ــ ٦) .

١٦ ــ يؤانس مانليوس Lo corum Communium collectanea... (بال ١٥٦٢) ٢١٢ .

١٧ ــ أرنست هايدريخ Durers schrift. Nachlass (برلين ، ١٩١٠) ٢٧٠ و ٢٧٣ و ٢٧٧ و ٢٨١ و ٢٨٢ .

١٨ ــ يظل هذا صادقا وحقيقيا حتى عندما تصبح النحلة دنيوية لا متسامية .

١٩ ــ برنار باليسى Oeuvres complètes نشرها بول انطوان كاب (باريس ، ١٨٤٤) .

٢٠ ــ انظر توماس كليفورد آلبوت فى «مداولات الاكاديمية البريطانية» مج ٦ (١٩١٣ ــ ١٤) وانظر أ.اوربالك ، Bernard Palissy et la Science Positive فى La Grande Revue مج ١٢٧ (١٩٢٨) ، ١١٣ ــ ٣٢ .

٢١ ــ انظر فرنرزمبارت Die Technik im Zeitalter des Früh Kapitalismus فى Archiv fur Sozial und Sozial politik مج ٣٤(١٩١٢) ، ٧٢١ ــ ٦٠ انظر ٧٢٦ .

٢٢ ــ كان دورر يبتهج من تمثل مماثل مباشر «والطبيعية» فى تصميمه لعمود نصر لمناسبة القضاء على « ثورة الفلاحين » ، وقائم حجرى لقبرة سكير (والتسويدات التخطيطية التى رسمت على سبيل المزاح» توجد بين أعماله الباقية) .
تحيط الماشية الحية بقاعدة عمود فكتوريا ، وقد بنى العمود من جميع المعدات الزراعية . ولكن ماكان دورر يعده شيئا من الساتير الساخر ، كان الهدف الحياة عند باليسى .

٢٣ ــ Orlando furioso ، مج ١٤ : ١٠٤ (نقلا عن ترجمة جون هارنجتن (لندن ، ١٥٩١) ، مج ١٤ ، ٩٢ ع.ع .)

٢٤ ــ « دون كيخوتى » ١ : ٦ (نقلا عن ترجمة توماس شلتون The History of Don Quixote of the Mancha (لندن ، ١٨٩٦) ١ : ٦٠ ــ ٦١) .

٢٥ ــ الاعمال الكاملة لفرانسوا رابيليه ، نشر آبل لفرانك ، أربعة مجلدات (باريس ١٩١٢ ــ ٢٢) ١ : ١ .

٢٦ ـ جوستاف لانسن ، Histoire de la Littterature Française
الطبعة ١٤ (باريس ، ١٩١٨) ٢٥٨ ع • ع •

٢٧ ـ ماكس سيللر
Die Wissens formen und die Gesellschaft
Probleme einer Soziologie des Wissens I
(لايبزج ١٩٢٦) ، ١٠٩ ، ١١٧ •

احياء ذكرى ارازموس

١ ـ رزيداريوس ارازموس Opus epistolarum نشره برس استافورد آلن ، ١٢ مجلدا (اكسفورد ١٩٠٦ ـ ٥٨) ٢٠ : ٦١ (رقم ٣٢٧) . نقلا عن ترجمة فرنسيس مرجان نيقولاس : (رسائل ارازموس ..) ٣ مجلدات (لندن ١٩٠١ ـ ١٧) ٢ : (رقم ٣٢٠) •

٢ ـ (ارازموس بالمرجع السابق ، ٧ : ٧ (رقم ١٨٠٤ .)) •

٣ ـ (نقلا عن ارازموس « الثناء على الطيش » ترجمة السير توماس شالونر (أعيد طبعه بلندن ١٩٠١) ، ٢٢ .) •

٤ ـ (نفس المصدر ٢ : ٥٨٦ (رقم ٥٨٦) •)

٥ ـ (المرجع نفسه ٤ : ٣٣٧ (رقم ١١٣٩) •)

٦ ـ (المرجع نفسه ١ : ١٩ (رقم ١) •)

٧ ـ (نقلا عن ارازموس
The Colloquies or Familiar Discourses
(لندن ، ١٦٧١) ١٠٣ •)

٨ ـ (المصدر نفسه ٣١٩)

٩ ـ (المصدر نفسه ٥٣٦ •)

١٠ ـ (رازموس « الثناء على الطيش » ٢٧ •)

١١ ـ (المصدر نفسه ٤٩ ـ ٥٠ •)

١٢ ـ (ارازموس Colloquies ، ٤٠٠ •)

جروشيوس وزمانه

١ – جروشيوس Epistolae (امستردام ، ١٦٨٧) رقم ١١٦٨ و ١٧٤٢ .

٢ – المصدر نفسه ، تذييل رقم ٤٩٦ .

٣ – المصدر السابق ، أرقام ٤٤٧ و ٦١٠ و ٥٣٠ .

٤ – المصدر السابق ، تذييل ٦١٠ .

٥ – انظر ك . ك . تونتج
Hugo Grotius und die religiösen Bewegungen im Protenstantismus seiner Zeit
(كولن ، ١٩٠٤) ، هـ . س . روج Hugo de Groot's derk... etc في Teyler's Theologisch Tijdschrift مج ٢ : (١٩٤٠) .

٦ – جروشيوس ، تذييل رقم ٤٩٦ .

٧ – المصدر السابق رقم ٦٢ (ص ٢١) . وهو يشير بطبيعة الحال الى الكنيسة البروتستانتية بفرنسا .

٨ – المصدر السابق ، رقم ٩٦٦ (ص . ٤٣٤) .

٩ – المصدر السابق رقم ١٠٧٤ .

١٠ – المصدر السابق ، تذييل ٣٨٢ .

١١ – المصدر السابق ، تذييل ٥٣٠ .

١٢ – كاسبار برانت وأدريان فان.كاتنبرج ،
Historie van het Leven des heeren Huig de Groot
(دورد رخت ، ١٧٢٧) جزء أول ، ٤٤٧ ، والجزء الثانى ٥٩/ .

١٣ – روبرت فروين Verspride geschriften ، مج ٤ : ٩١ .

١٤ – جروشيوس Epistolae رقم ١١٦٨ ، تزييل أرقام ٥٧٣ و ١٣٣ .

١٥ – المصدر نفسه ، تذييل رقم ٤٧٤ (ديسمبر ٣ ، ١٩٣٩) .

صدر من هذه السلسلة

أولاً: الموسوعات والمعاجم

- ليونارد كوتريل، الموسوعة الأثرية العالمية
- وليم بيتر، معجم التكنولوجيا الحيوية
- ج. كارفيل، تبسيط المفاهيم الهندسية
- ب. كوملان، الأساطير الإغريقية والرومانية

ثانياً: الدراسات الاستراتيجية وقضايا العصر

- د. محمد نعمان جلال، حركة عدم الانحياز في عالم متغير
- اريك موريس، الان هو، الإرهاب
- ممدوح عطية، البرنامج النووي الإسرائيلي والأمن القومي والعربي
- ازرا . فوجل، المعجزة اليابانية (٢ج)
- د. السيد نصر الدين، إطلالات على الزمن الآتي
- بول هاريسون، العالم الثالث غداً
- مجموعة من العلماء، مبادرة الدفاع الاستراتيجي: حرب الفضاء
- و. مونتجمري وات، الإسلام والمسيحية في العالم المعاصر
- بادي آونيمود، افريقيا الطريق الآخر
- فانس بكارد، إنهم يصنعون البشر (٢ج)
- مارتن فان كريفلد، حرب المستقبل.
- الفين توفلر، تحول السلطة (٢ج)
- ممدوح حامد عطية، إنهم يقتلون البيئة
- السيد أمين شلبي، جورج كينان
- يوسف شرارة، مشكلات القرن الحادي والعشرين والعلاقات الدولية
- السيد عليوه، إدارة الصراعات الدولية
- د. السيد عليوه، صنع القرار السياسي
- مرج كاشان، لماذا تنشب الحروب (٢ج)
- ايمانويل هيمان، الأصولية اليهودية

ثالثاً: الاقتصاد

- نورمان كلارك، الاقتصاد السياسي للعلم والتكنولوجيا
- سامي عبد المعطي، التخطيط السياحي في مصر
- جابر الجزار، ما ستريخت والاقتصاد المصري
- جاليليو جاليليه، حوار حول النظامين الرئيسيين للكون (٣ج)
- ولت ويتمان روستو، حوار حول التنمية الاقتصادية
- فيكتور مورجان، تاريخ النقود
- ديفيد وليام ماكدوال، مجموعات النقود: صيانتها تصنيفها. عرضها

رابعاً: العلوم والتكنولوجيا

- فيرنر هيزنبرج ، الجزء والكل: محاورات في مضمار الفيزياء الذرية
- فريد هويل، البلور الكونية
- ويليام بيز، الهندسة الوراثية للجميع
- جوهان دورشنر، الحياة في الكون كيف نشأت وأين توجد
- اسحق عظيموف، الشموس المتفجرة (أسرار السوبرنوفا)
- روبرت لافور، البرمجة بلغة السي باستخدام توربوسي (٢ ج)
- ادوارد ايه فايجنباوم، الجيل الخامس للحاسوب
- محمود سري طه، الكمبيوتر في مجالات الحياة
- مصطفى عنان، الميكروكمبيوتر
- ي. رادو نسكايا جابوتنسكي، الإلكترونيات والحياة الحديثة
- فرد س. هيس، تبسيط الكيمياء
- كاتي ثور، تربية الدواجن
- محمد زينهم، تكنولوجيا فن الزجاج
- دوركاس ماكلينتوك، صور أفريقية: نظرة على حيوانات أفريقيا
- اسحق عظيموف، أفكار العلم العظيمة
- د.مصطفى محمود سليمان، الزلازل
- بول دافيز، الدقائق الثلاث الأخيرة
- ولبليام . ماثيور، ما هي الجيولوجيا
- اسحق عظيموف، العلم وآفاق المستقبل
- ب. س. ديفيز، المفهوم الحديث للمكان والزمان
- ميكاييل الي، الانقراض الكبير
- محمود سري طه، الاتجاهات المعاصرة للطاقة
- بانش هولمان، آينشتين
- زابلسكي ف. س.، الزمن وقياسه
- أ. ج. هوز، تاريخ العلم والتكنولوجيا (٢ ج)
- د.فاضل أحمد الطائي، أعلام العرب في الكيمياء
- رولاند جاكسون، الكيمياء في خدمة الإنسان
- إبراهيم القرضاوي، أجهزة تكييف الهواء
- ديفيد الدرتون، تربية أسماك الزينة

خامساً:مصر عبر العصور

- محرم كمال، الحكم والأمثال والنصائح عند المصريين القدماء
- فرانسوا دوماس،آلهة مصر
- سيريل ألدريد، أخناتون
- د. لينوار تشامبرز رايت، سياسة الولايات المتحدة الأمريكية إزاء مصر
- موريس بيرابر، صناع الخلود
- كنت . كتشن، رمسيس الثاني فرعون المجد والانتصار)
- ألن شورتر، الحياة اليومية في مصر القديمة
- ونفرد هولمز، كانت ملكة على مصر
- جاك كرابس جونيور،كتابة التاريخ في مصر
- نفتالي لويس، مصر الرومانية
- كريستيان ديروش نوبلكور، المرأة الفرعونية
- أ. أ. س. ادواردز، أهرام مصر
- ت. ج. جيمز، الحياة أيام الفراعنة
- بيل شول وأدبنيت، القوة النفسية للأهرام
- جيمس هنري، تاريخ مصر
- د. بيارد دودج، الأزهر في ألف عام
- أ. سبنسر، الموتى وعالمهم في مصر القديمة
- ألفريد ج. بتلر ، الكنائس القبطية القديمة في مصر (ج٢)
- روز البندم؛ الطفل المصري القديم
- ج. و. مكفرسون، الموالد في مصر
- جون لويس بوركهارت، العادات والتقاليد المصرية من الأمثال الشعبية

- عبده مباشر، البحرية المصرية من محمد علي للسادات (١٨٠٥-١٩٧٣)
- د. السيد طه السيد أبو سديرة الحرف والصناعات في مصر الإسلامية
- سوزان راتيه، حتشبسوت
- مرجريت مري، مصر ومجدها الغابر
- لوثج فولكوف، القاهرة مدينة الألف ليلة وليلة

سادساً: الكلاسيكيات

- جاليليو جاليليه ، حوار حول النظامين الرئيسيين للكون (٣ج)
- وليم مارسدن، رحلات ماركو بولو (٣ج)
- أبو الفتح الفردوسي ، الشاهنامة (٢ج)
- أدوارد جيبون، اضمحلال الإمبراطورية الرومانية وسقوطها
- ناصر خسرو علوي، سفر نامة
- فيليب عطية، تراتيم زرادشت

سابعاً: الفن التشكيلي والموسيقى

- عزيز الشوان، الموسيقى تعبير نغمي ومنطق
- ألويز جرايتر، موتسارت
- شوكت الربيعي، الفن التشكيلي المعاصر في الوطن العربي
- ليوناردو دافنشي، نظرية التصوير
- د.غبريال وهبه، أثر الكوميديا الإلهية لدانتي في الفن التشكيلي
- روبن جورج كولنجوود، مبادئ الفن
- مارتن جك، يوهان سبستيان باخ.
- هربرت ريد، التربية عن طريق الفن
- أدامز فيليب، دليل تنظيم المتاحف
- حسام الدين زكريا، انطون بروكنر
- جيمس جينز، العلم والموسيقى
- هوجولا يختنتريت، الموسيقى والحضارة
- محمد كمال إسماعيل، التحليل والتوزيع الاوركسترالي
- د.صالح رضا، ملامح وقضايا في الفن التشكيلي المعاصر

ثامناً: حضارات عالمية

- جاكوب برونوفسكي، التطور الحضاري للإنسان
- س. م. بورا، التجربة اليونانية
- جوستاف جرونيباوم، حضارة الإسلام
- . د. جرني، الحيثيون
- ل.ديلابورت، بلاد ما بين النهرين
- ج. كونتنو، الحضارة الفينيقية
- آدم متز، الحضارة الإسلامية
- جوزيف نيد هام، تاريخ العلم والحضارة في الصين
- ستيفن رنسيمان، الحضارة البيزنطية

تاسعاً: التاريخ

- جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى
- هنري بيرين، تاريخ أوربا في العصور الوسطى
- أرنولد توينبي، الفكر التاريخي عند الإغريق - -
- جاري ب . ناش، الحمر والبيض والسود
- أحمد فريد رفاعي، عصر المأمون (٢ج)
- آرثر كيستلر، القبيلة الثالثة عشر ويهود اليوم
- تاجاي متسيو، الثورة الإصلاحية في اليابان

- بول كولز، العثمانيون في أوروبا
- جوناثان ريلي سميث، الحملة الصليبية الأولى وفكرة الحروب الصليبية
- د. بركات أحمد، محمد واليهود
- ستيفن أوزمنت، التاريخ من شتى جوانبه (٣ج)
- و. بارتولد، تاريخ الترك في آسيا الوسطى
- فلاديمير تيسمانيانو، تاريخ أوروبا الشرقية
- ألبرت حوراني، تاريخ الشعوب العربية (٢ج)
- نويل مالكوم، البوسنة
- محمد فؤاد كوبريلي، قيام الدولة العثمانية
- د. إبرار كريم الله، من هم التتار
- ستيفن رانسيمان، الحملات الصليبية من كلير مونت إلى أورشليم
- لبان .ويد جري، التاريخ وكيف يفسرونه (٢ج)
- جوسيبي دي لونا، موسوليني
- جوردون تشيلد، تقدم الإنسانية
- هـ. ج. ولز، معالم تاريخ الإنسانية (٤ج)
- يوهان هويزنجا، اضمحلال العصور الوسطى

عاشراً: الجغرافيا والرحلات

- ت.و. فريمان، الجغرافيا في مائة عام
- ليستردبل راي، الأرض الغامضة
- رحلة جوزيف بتس (الحاج يوسف)
- اميليا ادواردز، رحلة الألف ميل
- رحلات فارتيما (الحاج يونس المصري)
- رحلة بيرتون إلى مصر والحجاز (٣ج)
- رحلة الأمير رودلف إلى الشرق(٣ج)
- يوميات رحلة فاسكو داجاما
- س. هوارد، أشهر الرحلات في غرب افريقيا
- إريك أكسيلون، أشهر الرحلات في جنوب أفريقيا

حادي عشر: الفلسفة وعلم النفس

- جون. ر بورر، ميلتون جولد ينجر، الفلسفة وقضايا العصر(٣ج)
- سونلراي، الفلسفة الجوهرية
- جون لويس، الإنسان ذلك الكائن الفريد
- سدني هوك، التراث الغامض: ماركس والماركسيون
- إيفري شاتزمان، كوننا المتمدد
- ادوارد دوبونو، التفكير المتجدد
- رونالد دافيد لانج، الحكمة والجنون والحماقة.
- توماس أ هاريس التوافق النفسي: تحليل المعاملات
- د. أنور عبد الملك، الشارع المصري والفكر
- نيكولاس ماير، شارلوك هولمز يقابل سيجموند فرويد
- أنطون دي كرسبني، أعلام الفلسفة المعاصرة
- برتراند راسل، السلطة والفرد
- مارجريت روز، ما بعد الحداثة
- كارل بوبر، بحثا عن عالم أفضل
- ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة
- جوزيف داهموس، سبعة مؤرخين في العصور الوسطى
- د. روجر ستروجان، هل نستطيع تعليم الأخلاق للأطفال
- إريك برن، الطب النفسي والتحليل النفسي
- بورتون بورتر، الحياة الكريمة (٢ج)
- فرانكلين ل. باومر، الفكر الأوربي الحديث(٤ج)
- هنري برجسون، الضحك
- أرنست كاسيرر، في المعرفة التاريخية

ثاني عشر: العلوم الاجتماعية

- د.محي الدين أحمد حسين، التنشئة الأسرية والأبناء الصغار
- م. و ترنج، ضمير المهندس
- رايموند وليامز، الثقافة والمجتمع
- روى روبرتسون، الهيروين والإيدز
- بيتر لوري، المخدرات حقائق نفسية
- ليوبو سكاليا، الحب
- برنسلاو مالينوفسكي، السحر والعلم والدين
- بيتر رداي، الخدمة الاجتماعية والانضباط الاجتماعي
- بيل جوهارت، تعليم المعوقين
- ارنولد جزل وآخرون، الطفل من الخامسة إلى العاشرة
- رونالد د. سمبسون، العلم والطلاب والمدارس

ثالث عشر: المسرح

- لويس فارجاس، المرشد إلى فن المسرح
- برونو باشيسكي، حفلة ماليكان
- جلال العشري، فكرة المسرح
- جان بول سارتر ؛ جورج برناردشو؛ جان أنوي مختارات من المسرح العالمي
- د.عبد المعطى شعراوي، المسرح المصري المعاصر: أصلة وبدايته
- توماس ليبهارت، فن المايم والبانتومايم
- زيجمونت هبنر، جماليات فن الإخراج

رابع عشر: الطب والصحة

- بوريس فيدوروفيتش سوجيف، وظائف الأعضاء من الألف إلى الياء
- د.جون شندلر، كيف تعيش ٣٦٥ يوما في السنة
- د.ناعوم بيتروفيتش، النحل والطب
- م. هـ. كنج، التغذية في البلدان النامية

خامس عشر: الآداب واللغة

- برتراند رسل، أحلام الأعلام وقصص أخرى
- ألدس هكسلي، نقطة مقابل نقطة
- جول ويست، الرواية الحديثة : الإنجليزية والفرنسية
- أنور المعداوي على محمود طه: الشاعر والإنسان
- جوزيف كونراد، مختارات من الأدب القصصي
- تاجور شين بن بنج وآخرون، مختارات من الآداب الآسيوية
- محمود قاسم، الأدب العربي المكتوب بالفرنسية
- مختارات من الشعر الأسباني: في العصور الوسطى (ج١)
- ج. س. فريزر، الكاتب الحديث وعالمه(٢ج)
- جورج ستاينر، بين تولستوي ودستويفسكي (٢ج)
- ديلان توماس، مجموعة مقالات نقدية
- فيكتور برومبير، ستندال
- فيكتور هوجو، رسائل و أحاديث من المنفى
- يانكو لافرين، الرومانتيكية والواقعية
- د.نعمة رحيم الغزاوي، أحمد حسن الزيات كاتبا وناقدا
- ف.برميلوف، دستويفسكي
- (لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة) الدليل البيليوجرافي: روائع الآداب العالمية(ج١)

- جابرييل جارسيا ماركيز، (الجنرال في متاهة)
- سوريال عبد الملك، حديث النهر
- د.رمسيس عوض، الأدب الروسي قبل الثورة البلشفية وبعدها
- مختارات من الأدب الياباني:الشعر .الدراما.الحكاية.القصة القصيرة
- ديفيد بشبندر، نظرية الأدب المعاصر وقراءة الشعر
- نادين جورديمر وآخرون، سقوط المطر وقصص أخرى
- رالف لى ماتلو، تولستوي
- والتر ألن، الرواية الإنجليزية
- هادى نعمان الهيتي، أدب الأطفال
- مالكوم برادبرى، الرواية اليوم
- محسن جاسم الموسوى، عصر الرواية : مقال من النوع الأدبي
- هنري باربوس، الجحيم
- ميجل دي ليبس، الفئران
- روبرت سكولز وآخرون، آفاق أدب الخيال العلمي
- يانيس ريتسوس، البعيد (مختارات شعرية)
- إيفور ايفانس، مجمل تاريخ الأدب الإنجليزي
- فخري أبو السعود، في الأدب المقارن
- سليمان مظهر، أساطير من الشرق
- صفاء خلوصي، فن الترجمة
- ف.ع. أدينكوف، فن الأدب الروائي عند تولستوي
- لوريتو تود، مدخل إلى علم اللغة

سادس عشر: الإعلام

- فرانسيس ج. برجين، الإعلام التطبيقي
- بيير البير، الصحافة
- هربرت شيلر، الاتصال والهيمنة الثقافية

سابع عشر: السينما

- هاشم النحاس، الهوية القومية في السينما
- ج.دادلى، نظريات الفيلم الكبرى
- روى آرمز ، لغة الصورة في السينما المعاصرة
- محاورات هاشم النحاس، صلاح أبو سيف
- جان لويس بورى وآخرون ، في النقد السينمائي الفرنسي
- إدوارد برى، عن النقد السينمائي الأمريكي
- جوزيف م. بوجز ، فن الفرجة على الأفلام
- سعيد شيمي، التصوير السينمائي تحت الماء
- دوايت سوين ، كتابة السيناريو للسينما
- هاشم النحاس، نجيب محفوظ على الشاشة
- يوجين فال، فن كتابة السيناريو

- محمود سامى عطا الله ، الفيلم التسجيلي
- ستانلى جيه سولومون ، أنواع الفيلم الأمريكـــي
- جوزيف وهارى فيلدمان، ديناميه الفيلم
- قدري حفني، الإنسان المصري على الشاشة
- مونى براح، السينما العربية من الخليج إلى المحيط
- حسين حلمي المهندس، دراما الشاشة :بين النظرية والتطبيق للسينما والتليفزيون (٢ ج)
- دانييل اريخون، قواعد اللغة السينمائية
- كريستيان ساليه ، السيناريو في السينما الفرنسية
- آلان كاسبيار، التذوق السينمائى
- تونى بار، التمثيل للسينما والتلفزيون
- بيتر نيكولز، السينما الخيالية
- بول وارن، خفايا نظام النجم الأمريكي

تأتى مكتبة الأعمال المختارة، التى تصدر فى إطار مشروع الألف كتاب الثانى، استجابة لمطلب ملّح وهو إعادة إصدار ذخائر الكتب التى أثرت حياتنا الفكرية على مدار القرن العشرين، والتى نفدت طبعاتها منذ وقت بعيد، وأصبح من العسير الحصول على طبعاتها القديمة.

وفى هذا الكتاب نطالع نخبة مختارة من مقالات المؤرخ الهولندى الكبير يوهان هويزنجا ١٨٧٢-١٩٤٥، الذى يُعدُّ أحد أشهر مؤرخى القرن العشرين، لاسيما فى مجال التاريخ الحضارى للإنسان. وقد توفّر على ترجمته ومراجعته علمان بارزان فى حياتنا الثقافية، وهما: المرحوم عبد العزيز توفيق جاويد، والدكتور زكى نجيب محمود. وينقسم الكتاب إلى ثلاثة محاور، أولها يعالج بعض القضايا العامة فى علم التاريخ، وركز فيها على وظيفة التاريخ الثقافى والمُثل التاريخية العليا للحياة وتطور فكرة الوطنية والقومية فى التاريخ الأوروبى. وكرّس القسم الثانى للحديث عن العصور الوسطى ممثلة فى سيَر ثلاثة من أبرز أعلامها، وهم: يوحنا السالسبورى وأبيلارد وجان دارك، ويُختتم الكتاب بمناقشة لعصر النهضة، ويتجلى فى هذا العمل ما طُبع عليه أسلوب هويزنجا من أصالة وما لعلمه واهتماماته من سعة وشمول.

مطابع الهيئة المصرية

٩٠٠ قرش